

عالم الفكر

جان بول سارتر

- سارتر وچينيه
- الحرية والالتزام عند سارتر
- فلسفه سارتر
- وظيفه الخيال عند سارتر



عالم الفكر

رئيس التحرير: أحمد مشاري العدواني
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام في الكويت ، * يوليو - أغسطس - سبتمبر ١٩٨١
المراسلات باسم : الوكيل المساعد للشئون الفنية - وزارة الاعلام - الكويت : ص . ب ١٩٣

المحتويات

جان پول سارتر

- | | | |
|-----------|--------------------------------|---------------------------------|
| ٣ | بقلم مستشار التحرير | جان پول سارتر : دراسة تمهيدية |
| ٢١ | الدكتور محمد علي الكردي | سارتر وجينيه او الشر والحرية |
| ٥٥ | الدكتورة ضحى عبد العزيز شيخه | الحرية والالتزام في اعمال سارتر |
| ٧٧ | الدكتورة دولت صالح العرب | وظيفة الخيال بين اللغة والفلسفة |
| ١٠٥ | الدكتور حبيب الشاروني | فلسفة جان پول سارتر |
| ١٢٥ | الدكتورة نفيسة عبد الفتاح شاش | مفهوم التحليل النفسي عند سارتر |
| ١٥٥ | الدكتورة حفيظة محمد عبد المنعم | سارتر والاسطورة اليونانية |



شخصيات وآراء

- | | | |
|-----------|--------------------------|---|
| ١٨١ | الدكتورة سامية احمد اسعد | رولان بارت : رائد النقد الجديد في فرنسا |
|-----------|--------------------------|---|



مطالعات

- | | | |
|-----------|-------------------------|-------------------------|
| ٢٢٥ | الدكتور عماد الدين خليل | العلم في مواجهة المادية |
|-----------|-------------------------|-------------------------|



من الشرق والغرب

- | | | |
|-----------|------------------------------|--------------------------|
| ٢٧١ | الدكتور محمد عبد الوهاب خلاف | ثنائي وثائق في مهنة الطب |
|-----------|------------------------------|--------------------------|



صدر حديثا

- | | | |
|-----------|-------------------------------|-------------------------|
| ٢٩٩ | الدكتور عبد الوهاب علي الحكمي | أوليات : الهدف والطريقة |
| ٣١٣ | الدكتور محمد عبد الفنى سعودي | عاشقان على النيل |

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء اصحابها وحدهم

تمهيد

يكاد الفلاسفة الفرنسيون ينفردون عن غيرهم من فلاسفة العصر بالتحامهم الشديد مع أحداث مجتمعاتهم وشؤون العالم ككل ، وبمشاركتهم الفعالة في الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية وانشغالهم بأحداث الحياة اليومية مما يساعد بدوره على انتشار آرائهم وذيوها بين عامة المثقفين . وربما كان المثال الوحيد لذلك من خارج فرنسا هو برتراند رسل Bertrand Russell في بريطانيا بمواقفه المعروفة وأشهرها تأليف المحكمة التي حملت اسمه للتحقيق في حرب فيتنام ومحاكمة المسؤولين عنها . وفي هذا الصدد يلاحظ الاستاذ أنتوني مانسر Anthony Manser أستاذ الفلسفة بجامعة ساونهامبتون في مقال قصير رائع نشرته له مجلة New Society بعنوان « Existentialism in Retrospect » ، ان الفلاسفة الانجليز كانوا يميلون في السنوات الأخيرة الى اعتبار أنفسهم مفكرين « محترفين » ، ولذا فقد دأبوا على أن يوجهوا معظم اهتمامهم لمناقشة مشكلاتهم الفلسفية الخاصة الصعبة بدلا من أن يشغلوا أنفسهم بالتفكير في مشاكل الناس العاديين ، اعتقادا منهم أن « الارتفاع » بالتفكير الفلسفي عن طريق إبراز المشكلات الفلسفية في ألفاظ وعبارات « فنية » ومصطلحات معقدة وغير مفهومة لغير المتخصصين من شأنه ان يساعد الفلسفة على الاستمرار في الوجود والصمود في عصر العلم ، وذلك بعكس الحال في



جان بول سارتر

أحمد أبوزيد

فرنسا حيث تعتبر المذاهب والحركات الفلسفية امورا شائعة في أوساط المثقفين العاديين ، يتناولونها بالمعالجة والنقاش في حياتهم اليومية وفي مجالسهم العادية ، على ما هو حادث الآن بالنسبة للبنائية التي تسيطر على الفكر الفرنسي الى حد كبير ، وكما كان عليه الحال بالنسبة للوجودية حين كانت ، حتى عهد قريب ، هي المذهب السائد في فرنسا قبل أن يتحول الفكر الفلسفي هناك الى البنائية على أيدي ليفي ستروس Levi—Strauss وتلاميذه وأتباعه ، وكذلك بفضل عدد من البنائيين الآخرين من أمثال (لاكان Lacan) (دوريدا Derrida), (New Society, Vol.56, No 961, 16 April 1981, p. 44) لا وعلى ذلك فان انشغال سارتر بأحداث عصره ومشاركته فيها وإبداء آرائه فيها من ناحية ، وانشغال الناس بآرائه وأفكاره وفلسفته من الناحية الأخرى ، انما هي أمور تتفق تمام الاتفاق مع ذلك التقليد الفرنسي العريق . أي ان جان بول سارتر ليس حالة استثنائية في تاريخ الفكر الفرنسي المعاصر وان كان هو من أفضل الامثلة على مشاركة الفلاسفة في الاحداث العادية واهتمام المثقفين بل والرجل العادي أحيانا بالمذاهب الفلسفية .

ولقد ارتبطت الوجودية باسم سارتر ، وأفلحت - كحركة - في أن تجذب اهتمام الناس بعد الحرب العالمية الثانية ، وإن كانت أصولها أسبق على سارتر بكثير ، حيث يعتبر الفيلسوف الدانماركي الشهير سورين كيركجارد Soren Kierkegaard في القرن التاسع عشر أول فيلسوف وجودي بالمعنى الدقيق للكلمة .^(١) والواقع أن جان

(١) ارتبط اسم سارتر بالوجودية وبأنه (وجودي) ، وهذا وصف قد يكون غير دقيق ، ولكنه أطلق على حالة معينة وعلى حركة فكرية نشأت بين عدد من المفكرين الاوربيين وبخاصة في فرنسا نتيجة للاوضاع العامة الناجمة عن الحربين العالميتين ، ومن هنا كان الوجوديون يؤكّدون على حالة قلق الفرد الانساني في بحثه عن المعنى وعن تكامله الشخصي في عالم لا يقدم أي تفسير متجاك ومقبول للأشياء في ذاتها أو السبب في وجود الأشياء بما في ذلك الوجود الانساني ذاته وقد أقام سارتر فلسفته (الوجودية) على فكرة أن « الوجود أسبق على الماهية » ، أي أن الانسان ليست له طبيعة يمكن أن تحدّد من هو وماذا يجب عليه ان يفعل ، وانما يتحمّل على العكس من ذلك أن يحدّد كل شخص ذاته بذاته ومن لحظة لأخرى . فطبيعة الانسان تتحدّد اذن تبعاً لتصوره هو لنفسه وإدراكه لذاته بعد ان يوجد . فالانسان « مشروع » يقوم هو نفسه بتصميمه لنفسه كما يكون هو المشوّل عن تنفيذه أي عما سيكون عليه . وهذا معناه أن الانسان حر بالضرورة وانّه يصنع نفسه أو يخلقه بهذه الحرية والحياة . على هذا الاساس عملية طويلة من خلق الذات ، وفيها يلقي الحاضر الماضي كما يلقي المستقبل الحاضر . ومن الاجرام في حق الذات أن يسمح الشخص للآخرين بتعريفه أو تحدّده ، سواء أكان هؤلاء الآخرون هم الزوجة أم العنود أم المجتمع ، لأن السباح للآخرين بتحدّده فيه تقييد لحرّيته أو حتى إلغائها تماما . ومع ان فكرة سبق الوجود على الماهية كان قد قال بها الفيلسوف الالمانى (كانت Kant) قبل (الوجوديين) فإن (كانت) كان يرى أن كل ماهية هي ماهية محددة من قبل ، وهذا ينطبق بوجه خاص على الماهية الانسانية . ويختلف (كانت) في ذلك عن « الوجودية » التي ترفض هذا « التحديد » باسم الحرية ، وذلك على اعتبار ان الانسان ، او على الاصح الفرد الانساني ، هو الذي يحدّد ماهيته بمحض حريته ، كما ذكرنا ، نظرا لعدم وجود ماهية محددة له وسابقة على وجوده .

ولقد كان سارتر يردّد دائما ان الانسان محكوم عليه بالحرية لأن هذا هو ما هو عليه . فليس للانسان طبيعة ثابتة ولذا فان الحقيقة الانسانية لا يمكن تعريفها الا في حدود الامكان والحرية . والواقع ان الحرية الانسانية شيء « مريع » حقا لأنها حرية مطلقة وغير مشروطة . وليس في امكان الانسان أن يختار بين أن يكون حرا أو غير حرا لأنه مخلوق من الحرية ، كما ان الحرية هي التي تكون ماهيته وجوهره ، إذا كان يمكن ان نقول ان له ماهية . انه ليس كائنات تتحكم فيه قوى النفس اللاشعورية ، كما يظهر في نظرية فرويد ، كما أنه ليس كائنات تتحكم فيه القوى الاقتصادية الاجتماعية كما يظهر في نظرية ماركس عن التاريخ ، وانما على العكس من ذلك فان الانسان في نظر سارتر هو ما يفعله ، اي أنه حرية خالصة . وليس هناك حرية غير تلك التي يملكها الانسان الفرد . وحتى حين يتنازل عن حريته لهيئة ما أو لمجتمع ما كما هو الحال في بعض الدول الشمولية ، فانه انما يمارس في ذلك حريته في قبول حالة الذل والعبودية والاضطهاد . بل ان الانتحار رغم كل ما فيه من جبن وضلال هو ببساطة تعبير نهائي عن سيادة الارادة الحرة - انظر في ذلك كتاب سارتر عن « الوجودية نزعة انسانية » وكذلك

David Cauter ; Sartre ; Roads to Freedom, New Statesman, 2 May 1980, p. 667 ;

Nathan A. Scott, Jr. ; Mirrors of Man in Existentialism, Collins, 1978, pp. 172 — 3

بول سارتر لم يكن يطلق على نفسه صفة « وجودي » في أول الأمر ، بل انه اعترض بشدة على هذه التسمية حين وصفه بها بعض الصحفيين . وانما استخدم هذه الكلمة في الحقيقة جابرييل مارسيل Gabriel Marcel وتلقفها منه رجال الصحافة الفرنسيون واعتبروها صفة ملائمة يلصقونها بسارتر وأصحابه . والأحرى ان سارتر كان يعتبر نفسه في الأصل أقرب الى المذهب الفينومولوجي ، وهذا واضح الى حد كبير في كتابه الاساسي « الوجود والعدم L'Être et Le néant » حيث يضع له عنوانا فرعيا هو « مقال في الانطولوجيا الفينومولوجية » . ومن الطريف ان سيمون دوبوفوار تذكر في مذكراتها أنه حتى عام ١٩٤٣ كانت كلمة « وجودي » غير معروفة لها ، وهذا معناه أن الكلمة لم تكن معروفة لسارتر أيضا الذي كانت حياته ترتبط بحياتها ارتباطا قويا وعميقا ، كما أنها كانت قد قرأت كتاب « الوجود والعدم » مرارا وتكرارا على ما تقول . ولكن في عام ١٩٤٣ قدم سارتر لها جان جرنبيه Jean Greunier في مقهى فلور Cafe de Flore الذي كان في ذلك الحين ملتقى المثقفين الشبان في باريس ، وكان سارتر قد تعرف على جرنبيه من وقت غير بعيد . وتكلم جرنبيه عن انشغاله في تأليف كتاب عن الفكر الفلسفي المعاصر في فرنسا ، ثم التفت الى سيمون دوبوفوار وهو يسألها : « وأنت يا سيدتي .. هل أنت وجودية أيضا » والجملة الفرنسية التي تذكرها دوبوفوار هي :

« Et Vous, madame, etes-vous existentialiste? » . وتذكر دوبوفوار أنها شعرت بشيء من الحرج والحيرة ازاء هذا السؤال لأنها لم تكن تعرف حينذاك معنى تلك الكلمة . صحيح انها كانت قرأت هايدجر Heidegger كما كانت تعرف مصطلح Existentielle التي كانت تستخدم بكثرة في مناقشة أعماله ، ولكن كلمة « وجودي existentialiste » : بالمعنى الجديد لم تكن قد مرت بها في ذلك الحين ، ولكن الكلمة أخذت تذيع وتنتشر بعد ذلك بفضل جابرييل مارسيل ، والتصقت بسارتر الذي كان يعتبر في نظر الآخرين الكاتب الوجودي بمعنى الكلمة . ولم يلبث سارتر أن تقبل الوضع ، ثم استخدم الكلمة بعد ذلك بثلاث سنوات ، اي في عام ١٩٤٦ ، في عنوان كتاب أصدره تحت اسم « الوجودية مذهب إنساني L'Existentialisme est un humanisme » ، كما أن سيمون دوبوفوار كتبت في السنة نفسها مقالا في مجلة « العصور الحديثة Les Temps modernes بعنوان « الادب والميتافيزيقا Litterature et Metaphysique » (ابريل ١٩٤٦ صفحات ١١٥٣ - ١١٦٣) تكلمت فيه عن « الاسلوب الوجودي » في النظر الى الحقيقة الميتافيزيقية ، وأشارت فيه الى جابرييل مارسيل والبير كامى Albert Camus وجان بول سارتر باعتبارهم أهم الممثلين للكتاب الوجوديين حينذاك (٢) .



ولقد كانت الحرب العالمية الثانية بمثابة نقطة تحول في حياة سارتر واتجاهاته واهتماماته^(٣). فقبل الحرب كان سارتر - على ما يقول ديفيد كوت David Cauter « يزدري السياسة » لدرجة انه في عام ١٩٣٦ لم يهتم بالادلاء

(٣) ثمة في حياة سارتر بعض المعالم التي تساعد على فهم شخصيته وفكره وفلسفته وموقفه من الحياة .

فقد ولد سارتر في باريس في ٢١ يوليو ١٩٠٥ ، ولكن أباه توفي بعد عامين فترى في بيت جده لأمه الأستاذ كارل شفايتزر وكان مدرسا للغات الحديثة وبخاصة اللغة الألمانية ، وبذلك نشأ سارتر في بيت يعطي أهمية كبرى للقيم العقلية والأدبية ورأى نفسه محوطا بكلمات هائلة من الكتب المكتومة في كل أركان البيت، وأتيح له بذلك فرصة الاطلاع على أعمال كبار الادباء والكتاب فقرأ كورنيي Corneille وجوته Goethe، وقرأ أعمال شاتوبريان Chateaubriand وفيكتور هيجو Victor Hugo ، مثلما عرف كتابات موباسان Maupassant وفلوبير Flaubert . وفي ذلك يقول هو نفسه « لقد كنت صورة مصغرة للرجل البالغ ، فقد قرأت الكتب التي كتبت للبالغين » ، كما يقول أيضا في كتابه « الكلمات Les Mots » وهو نوع من الترجمة للسيرة الذاتية : « لقد عرفت الكون في الكتب .. واختلطت في ذهني تجريبي غير المنظمة المستمدة من الكتب بأحداث الحياة الواقعية التي كانت تحدث بطريق المصادفة والعرض ، ونجم عن ذلك نوع من المثالية التي تطلبت مني ثلاثين عاما لكي أخلص منها وأنبهها » . ويعترف سارتر في ذلك الكتاب أيضا بأن فقدته لأبيه وهو في تلك السن الصغيرة كان معناه أنه نشأ دون ان تكون لديه « أنا أعلى Super — ego » مما ساعده على تحرر ذهنه وتفكيره وسلوكه . وحين تزوجت أمه للمرة الثانية عام ١٩١٦ عاش معها ، ولكنه لم يكن سعيدا في بيت زوج أمه .

في عام ١٩٢٤ التحق سارتر بمدرسة Ecole Normale Supérieure ليحصل منها على شهادة الاجريجاسيون في الفلسفة ، وهناك قابل سيمون دو بوفوار وارتبط بها بتلك الرابطة القوية المتينة التي ظلت حتى وفاته دون أن يتزوجها ، وهي علاقة يصفها بعض الكتاب بأنها علاقة « أسطورية » نظرا لقوتها واستمرارها . فلقد كانا يعتقدان ان الزواج هو نوع من النظام « البورجوازي » ولذا أنرا ألا يدخلوا معا في علاقة رسمية كزوج وزوجة . وتقول دوفوفوار في كتابها La Force de L'age « لقد وضعنا ثقتنا في العالم وفي أنفسنا . فقد كنا نعارض ونقاوم المجتمع بصورته وتكوينه السائد حينذاك ، ولكن لم يكن نحس بأية مرارة إزاء هذا الموقف العدائي لأنه كان يتضمن نوعا من التفاوض القوي الوطيد . كنا نؤمن بضرورة إعادة تشكيل الانسان وصياغته ، وهي عملية لن تتم الا على أيدينا ، ولو جزئيا ... لقد خلقنا علاقاتنا وروابطنا مع العالم ، وكانت الحرية هي جوهر وجودنا ذاته . » .

أثناء دراسته للاجريجاسيون في الفلسفة عرف كتابات ماركس ، او كما يقول Douglas Johnson انه (اكتشف) ماركس ، ويعيد ذلك من أهم المعالم الأساسية في تكوينه العقلي ، ولكنه رغم ذلك لم يجد في فلسفته الحرية التي كان يهفو اليها حينذاك . ثم عرف بعد ذلك كتابات هوسرل Husserl وهيدجر Heidegger وباسبرز Jaspers فضلا عن معرفته لديكارت من قبل ، وبذلك جمع في تكوينه الفكري بين ثلاث من أهم الحركات الفلسفية بعد الهجلية وهي الماركسية والنيومولوجية والوجودية .

وحين قامت الحرب العالمية الثانية تم تجنيده ولكنه لم يشترك في الحرب ، ثم وقع أسيرا عام ١٩٤٠ (وسوف نعرض لذلك فيما بعد في ضوء أحد الكتب التي ظهرت منذ أسابيع قليلة في فرنسا) . وما له دلالة هنا أنه كتب أثناء الخدمة العسكرية جزءا من كتابه L'Age de raison . وكذلك جزءا من مؤلفه الهام (الوجود والعدم L'Être et le Neant) . وفي فترة الاعتقال قام بتأليف مسرحية مناسبة أعياد الميلاد كما كان يقوم بشرح فلسفة هايدجر لزملائه المعتقلين الذين كان كثيرون منهم ينتمون الى طبقة المثقفين

حين أطلق سراحه عام ١٩٤١ شارك مع الفيلسوف الفرنسي مورييس ميرلوبونتي Maurice Merleau — Ponty في تكوين جماعة « للمقاومة الفكرية » وكان من أهم نتائجها تأليفه لمسرحيته الشهيرة « الذباب Les Mouches » التي لم ينتبه « الرقيب » في أول الأمر الى ما تحمله من معاني الحث على المقاومة ، لأن « الرقيب » في العادة « شخص غيبي وأبله » كما يقول ناتان سكوت ، ثم مُنعت من العرض بعد ذلك ولكن بعد أن كانت أفلحت في توصيل الرسالة التي أرادها سارتر ، وأصبح سارتر مشهورا منذ ذلك الحين . ولكنه لم يشترك في المقاومة الفعلية ولم يقم بأي عمل من أعمال العنف . ولكن هذه « المقاومة الفكرية » كانت بداية لاشتراكه في مقاومة كل أنواع الاضطهاد والوقوف في صف حركات التحرير ، وربما كان الاستثناء الوحيد من ذلك هو موقفه من قضية اللاجئين الفلسطينيين مما سنعرض له فيما بعد . وكانت هذه المشاركة نابعة من إيمانه بأنه يجب على المثقف ان يكون « رجل عمل » وليس مجرد « نجم »

انظر في ذلك كله :

Arthur C, Danto, Sartre, Fontana Books, 1979, p. 158 sqq ; N.A. Scott , op. cit., 153 — 56 ;

بصوته في الانتخابات على الرغم من أنه كان يأمل في فوز الجبهة الشعبية .. كان سارتر يرى ان الفنان غريب في كل مجتمع وبالتالي فانه كان يعتبر فكرة التكامل والولاء والطاعة التي كانت تتطلبها الشيوعية السوفيتية فكرة غير مقبولة ، بل انه كان يرى ان الاتحاد السوفيتي ذاته لم يكن سوى صورة من « حضارة المهندسين » بينما هو - اي سارتر - كان كاتباً أدبياً لا يأبه بالادعاءات السياسية التي كان يدعيها المثقفون اليساريون . اما الحرب .. فهذه مسألة أخرى مختلفة تماماً ، انها - كما يقول كوت - ، دليل وبرهان على أن رفض السياسة انما هو مسألة مؤقتة ولا يمكن ان تستمر طويلاً ، الا بقدر ما يستطيع الانسان ان يتمتع عن التنفس . انها امتداد قوي للسياسة بحيث لا يمكن للانسان ان يهرب منها ... وبعد سقوط فرنسا عام ١٩٤٠ أخذ الألمان سارتر أسيراً في أحد معسكراتهم على الرغم من أنه لم يشارك في الحرب . وحينئذ نبعت لديه فكرة أن الشرعية الحقيقية او الوجود الترععي الحقيقي أو الأصالة authenticité تتطلب الالتزام الشخصي المباشر الصريح . ومع ذلك فلا بد من الاعتراف بأنه بعد أن أفرج الألمان عنه عاش في باريس حياة عادية تماماً على الرغم من بعض المقالات التي كان يكتبها من حين لآخر في مجلة الآداب الفرنسية Les Lettres Francaises .^(٤) وبعد عشر سنوات من ذلك ، أي في الخمسينات ، ادعى سارتر أنه وزملاءه خرجوا من الحرب وهم مقتنعون تماماً بأن « الوجودية » تقدم الاسلوب الوحيد الصالح للتجربة الانسانية ، اما المادية التاريخية فانها تقدم التفسير الوحيد الممكن للماضي .

وفي معسكر الاعتقال كان سارتر يمارس نفس التعاليم التي شرع يبشر بها بعد خروجه ، على ما يقول ماريوس بيران Marius Perrin في كتاب عن سارتر في المعتقل ، ونشرته له في أوائل هذا العام دار De large بعنوان Avec Sartre au Stalag . وهو كتاب قصير ولكنه مفعم بذكريات الأسر والاعتقال . لقد كان سارتر يعلم زملاءه « طريق الحرية » . ولقد ظل سارتر بعد ثلاثين سنة من السجن يردد قوله : ان كل ما حاولت ان أكتبه أو أفعله خلال حياتي انما كان هو تأكيد أهمية الحرية . ولسارتر في ذلك عبارة مشهورة تقول : « ليس الانسان سوى ما يصنعه بنفسه L'Homme n'est rien d'autre que ce qu'il se fait » .

لقد كان سارتر يرفض ان يخضع الانسان لأي قوة أخرى أكبر من حريته هو ذاته ، وهو أمر كان يشير عليه حفيظة الشيوعيين الذين انتسب اليهم لبعض الوقت ، ولو أنه لم يكن أبداً عضواً في الحزب الشيوعي . وتذكر دوفوفوار أنه في حوالي فبراير عام ١٩٤٠ لاحظت تغيراً هائلاً في حياة سارتر وحياتها بالتالي ، لأن سارتر أصبح

(٤) David Caute; (Sartre, 1, ROADS To Freedom) op. cit , p.664

وقد كتب ديفيد كوت أربع مقالات في هذه المجلة تناول حياة سارتر وأعماله وبعض القضايا الهامة في فلسفته ، وهذه المقالات بما فيها المقال السابق ذكره ، هي :

(Sartre 2 : What is Literature ?); 9 May 1980

(Sartre 3 : Force of Circumstances); 16 May 1980

(Sartre 4 : The Good and the Great); 23 May 1980

يشعر بأنه لا يمكن له أن يعيش بمعزل عن الحياة السياسية وعن الالتزام السياسي . ففكرة الشرعية والأصالة التي كان قد توصل اليها كانت تفرض عليه أن يمارس دروسه وعمله ومكانته في العالم ، وأن ذلك لن يتيسر له الا عن طريق (الالتزام) في العمل . وقد وافقته دوبوفوار - كما تقول في مذكراتها - على ذلك ، ومن هنا وجد الصديقان نفسيهما (ملتزمين) في الانشطة السياسية ، وان كانت فكرة الوجود الشرعي الحقيقي ذاتها قد منعتهم من الانتساب لأي حزب - من الأحزاب أو أن يتبع خط ذلك الحزب ، ولو أنها أدت به فيما بعد ، بطريق مباشر ، الى نظرتة الى الأدب على أنه (التزام) . وبذلك بدأ سارتر يفكر وينظر الى الكلام والى الكتابة على أنها صورتان من الفعل action . وهذا موقف كان قد عبر عنه صراحة في مجلة « العصور الحديثة » . وبدلاً من أن يظل مجرد كاتب في الفلسفة النظرية البحتة وفي الأدب البحت أصبح يمثل حلقة أخرى في تلك السلسلة الطويلة المؤلفة من ذلك العدد الكبير من الاخلاقيين الفرنسيين . ولكن الظاهر أنه لم يلبث ان راودته الشكوك حول الكتابة باعتبارها فعلاً سياسياً ، فتحوّل الى اهتمامات أخرى ، وأصبح يعني بوجه خاص بكتاب روائيين من أمثال ملارميé Mallarmé وفلوبير Flaubert الذين لم تكن الكتابة بالنسبة لهم لها أي مبرر أو سبب سوى تكوين صورتهم الخاصة عن المجتمع . وأوضح سارتر ان مثل هؤلاء الكتاب كانوا (ملتزمين) حقاً ، لأن الادب بالنسبة لهم كان يعني كل شيء ، ومن هنا كان للغتهم صدى قوي على كل مستويات الانسان والمجتمع . بل الاكثر من ذلك انه ذهب الى القول بأنه لم يكن يعتبر قط مهمة الروائي أو المسرحي التعبير عن الافكار السياسية الا بقدر ما يترجمها الى « أساطير » . وقد أدى ذلك به الى أن يعرف الكتابة بأنها بالاحرى نوع من الحاجة العميقة التي يشعر بها الانسان لتطهير التجربة التي لا يمكن للحياة ان تسمح بها .

والمهم من هذا كله هو أن سارتر شغل نفسه طيلة حياته بمشكلات عصره وأسهم بالادلاء برأي فيها . ويرد رونالد أرنسون Ronald Aronson في كتابه الأخير Jean-Paul Sartre: Philosophy in the World (الذي نشرته له منذ أسابيع قليلة دار New Left Books) ذلك الى « مزاج سارتر المتطرف » الذي كان يدفعه هو وسيمون دوبوفوار (التي ينعتها بأنها « نوتردام دو سارتر Notre-Dame de Sartre » أو « السارترية العظمى La Grande Sartreuse) الى المشاركة في كل حركات الاضطراب بل والى التحريض على التمرد والثورة ، ما أمكن ذلك ، وأنها ظلا على ذلك طيلة حياتها ، ما عدا الفترة القصيرة الاخيرة قبل موته . لقد كانا يبحثان دائماً عن « الاستشهاد » ، ولكن يبدو - كما يقول أرنسون في سخرية - أن البوليس كان مصمماً على أن يحرمها من شرف الاستشهاد فتركها حرين طليقين . وللجنرال ديغول تعليق طريف في ذلك اذ يقول « اننا لا نستطيع القبض على فولتير » . وتشبيه سارتر بالفيلسوف الساخر فولتير تشبيه يتردد في كثير من الكتب وسوف نرجع اليه بعد قليل .. ومع ذلك فلم تسلم حياة سارتر من سخرية وتهكم الكثيرين من النقاد نظراً لما فيها من تناقض مع آرائه وأفكاره وكتاباتة .. فلقد كان سارتر ينادي دائماً بالالتزام كما رأينا ، ولكنه كما يقول أرنسون « ظل طيلة

حياته بمنأى عن « الحلبة » فيما يتعلق بضغوط الحياة اليومية المادية التي كان يعاني منها ليس فقط الفئات المضطهدة والمستغلة بل وأيضا كل أعضاء المجتمع تقريبا . لقد كان يعيش بغير زوجة أو ولد وحتى حياة منزلية مستقرة ، وإنما كان يسكن في البنسيونات ويأكل في المقاهي . لقد كان يتمتع بأكبر ميزة يمكن ان يمنحها أي مجتمع لأحد أعضائه وهي الحياة بدون أية احتياجات . (٥)

الا أن هذا كله لا ينفي أن سارتر (عاش) رواياته ومسرحياته بالفعل ، بمعنى انه استقى هذه الاعمال من حياته هو ومن مواقفه التي تعبر عن هذه الحياة . ولم تكن أعماله الفلسفية مثل « الوجود والعدم » او رواياته ومسرحياته سوى أعمال مليئة بالافكار التي كانت تشغله هو نفسه والمشكلات التي كان يعاني منها والتي وجد في هذه الاعمال طريقة للتعبير عنها . ولقد عبر سارتر عن ذلك بعبارة المشهورة « ليس المهم هو كيف أصبحت الى ما أنت عليه الآن ، إنما المهم هو ما تفعله بما أصبحت عليه » . ولذا نجد الاستاذ دوجلاس جونسون Douglas Johnson أستاذ التاريخ الفرنسي في University College بجامعة لندن يقول ان سارتر كان دائما يقول : « ان كل ما حاولت أن أكتبه او أفعله خلال حياتي كان القصد منه هو توكيد أهمية الحرية » .

وبصرف النظر عما يقوله أرنسون عن تطرف مزاج سارتر فالذي لا شك فيه هو أن الظروف التي أحاطت بفرنسا والتي عاشها سارتر لم تكن تسمح له بالانزواء والانطواء والخلود الى حياة الهدوء والتفكير والتأمل التي يتصور الناس انها لازمة لحياة الفلاسفة ، وإنما ألقت به هذه الظروف في أتون المعركة واضطرته اضطرارا الى أن يشارك الناس في آلامهم وآمالهم ، وان كان هذا قد أدى به في آخر الأمر الى أن يظهر بمظهر الرجل الباحث عن الشهرة ، والذي ينادي ويدعو الى التحرر من كل القيود والقيم والاضااع المتوارثة والتي يفرضها المجتمع على أعضائه . ويبدو أن هذا النوع من الشهرة التي حققها سارتر في هذا المجال هو الذي أعمى نقاده عن بعض الحقائق الكامنة في فلسفته ، وهي فلسفة كانت تأبى عليه أن يتقدم بأية اقتراحات لغيره من الناس نحو السلوك الذي ينهي عليهم أن يتبعوه والوسيلة التي يمكن لهم بها أن يواجهوا حياتهم . فلقد كان على العكس من ذلك يعتقد ان مسئولية الفرد - من حيث هو فرد - تنحصر في أن (يختار) وأن يقرر بنفسه ما يتعلق بسلوكه وحياته .

(٥) يقول دهنيد كوت في مقاله الثاني « ما الأدب » : لقد أصبح سارتر غنيا وبذلك أصبح في امكانه السفر الى أي مكان مع أي انسان وفي الوقت الذي يحده لنفسه . وكان يحمل في جيبه دائما مبالغ كبيرة جدا من النقود قد تزيد على ما يوازي الالف جنيه استرليني ، وكان يقول في ذلك « انني أحب ان أحمل نقودي معي .. انني ادرك انها تجعلني ابدوكما لو كنت شخصا مهما حين أبرزها من جيبتي ... مع انني لست مهما في الحقيقة على الاطلاق » . ولقد كان سارتر ينفق المال بسخاء دون أن يبالي بالطريقة التي جاءت بها او أنفقت فيها ، ولكنه كان يقول دائما « انني لم أعط قط نقودا لكي احمي بها آثار خطأ ارتكبتها » .

وسلوك سارتر (المتحرر) والسمعة التي لحقت به وبخاصة فيما يتعلق بحياته الجنسية ^(٦) أخفت دور سارتر من حيث هو فيلسوف أخلاقي ، كما أخفت فلسفته التي كانت تدور حول ادراكه لوحدة الانسان وانعزاله ومستوليته في هذا العالم ، وان الانسان (خير) بطبيعته ، وهو رأي يشارك فيه الكثيرون من الفلاسفة والمفكرين الفرنسيين وبخاصة جان جاك روسو Jean Jacques Rousseau .



خلال العام ونيف التي مضت على وفاة جان بول سارتر ظهرت كتب ودراسات ومقالات كثيرة تناولت حياته وأعماله وتفكيره وفلسفته بالعرض والنقد والتقويم ، مما يدل ضمنا على أن الوجودية - كمذهب فلسفي - لا تزال تلقى الكثير من الاهتمام على الرغم من أن البنائية هي المذهب الفكري الذي يسود الاوساط الثقافية الآن في فرنسا ، بل وخارج فرنسا الى حد كبير . وبعض هذه الكتب تناول الفيلسوف وعمله بالنقد العنيف الجارح الذي لا يخلو من سخرية وتسفيه . ومن المفارقات أن سارتر كان يؤمن أثناء حياته بأنه ليس في مقدور أي انسان أن يضفي معنى على أي انسان آخر دون أن يؤدي ذلك في الوقت ذاته الى تجميده وتحجيره ، أو تحويله الى حجر مثلما كانت تفعل الميدوزا في الميثولوجيا اليونانية حين تلمس شيئا فيتحول حجرا في الحال . ويبدو أن سارتر كان يشعر بما سوف يختلف الناس فيه من أمره وكان يشفق على نفسه من رأي الآخرين فيه . وهو على أية حال صاحب العبارة الشهيرة العميقة « ان جهنم هي الآخرون » . ولقد عبر عن شعوره في مسرحيته « الأبواب المغلقة Huis Clos » حين يقول على لسان جارسان Garcin « لقد تركت حياتي في أيديهم » . فكما هو الحال بالنسبة لجارسان لا بد أن سارتر كان يشعر بالآلم الممض وهو يرى نفسه أثناء حياته خاضعا للتشريح من كل جانب ، وأن حياته بطابعها الخاص المميز كانت تثن تحت وطأة أنظار الآخرين . ولقد أعطى سارتر الكثير من الاهتمام لدراسة وطأة الآخرين على الذات ، وعالجها بكثير جدا من العمق والأصالة معالجة فلسفية في كتابه « الوجود والعدم » ، كما عالجها معالجة درامية في كل رواياته وبخاصة في مسرحية « الابواب المغلقة » ، حيث كان في ذلك الحين يحس بوقع أنظار سكان باريس اليه أثناء الحرب العالمية الثانية وهي تتركز عليه تركيزا شديدا باعتباره أحد كتاب المسرح الناجحين . ومن هنا كانت كتاباته ، وبخاصة مسرحيته الشهيرة « الذباب Les Mouches »

(٦) تقول سيغون دوبرفوار انها اختارت سارتر من دون زملائها الذكور جميعا لأنه كان أقربهم وأقلهم . وعلى الرغم من عيوب سارتر الجسمية الواضحة فقد كان محبوبا جدا من النساء ، وقال هو أكثر من مرة انه يفضل مجتمع النساء على مجتمع الرجال ، كما أن النساء يلعبن في رواياته ومسرحياته دورا هاما للغاية ويبدون على درجة عالية من الحس الرفق والذكاء الباردة والعدوانية ، وينظرون الى الرجال في العادة بكثير من الازدراء والاستخفاف المهين . وقد وصف سارتر نفسه بأنه يجب أن يجد نفسه « محاطا بالناس بشرط أن يكونوا نساء » كما كان يقول . ان أطيب علاقاتي على الإطلاق كانت دائما هي علاقاتي مع النساء ، لأن العلاقات الجنسية - بمعنى الكلمة - تسمح بامتزاج ما هو موضوعي بما هو ذاتي بطريقة سهلة ميسرة . فالعلاقة مع امرأة ، حتى ولو لم يضاجعها المرء - ولكن بوجه خاص اذا كان قد ضاجعها بالفعل أو كانت هناك فرصة أو امكان لمضاجعتها .. تصبح علاقة أكثر غنى وثراء .. فمع المرأة يصبح الانسان حاضرا بكل كيانه ووجوده » .

تحمل رسالة هامة لأهالي باريس الذين كانوا يثنون ويتألمون تحت قسوة الهزيمة في الحرب ... لقد كانت رسالته في أعماله تحمل اليهم الدعوة الى الشجاعة وتحمل المسئولية ، مثلما كانت تحمل الامل في التحرر ، على الرغم من التعرض طيلة الوقت للموت والهلاك . (٧)

لقد كان سارتر يردد « إن أعمالى ليست سوى مظاهر مختلفة لشيء واحد كلي لا يمكن لأحد ان يقدّر معناه الا بعد أن أصل أنا بها الى منتهاها » . ولكن بعد أن مات سارتر في الخامس عشر من ابريل عام ١٩٨٠ أصبح « عمله » منتهيا رغم عدم اكتماله ، فقد ترك كتابا واحدا على الاقل غير كامل وهو كتابه الضخم عن فلوير ، (٨) ولكن المهم هو أنه يمكن الآن فهم « معنى » ذلك العمل عن طريق الرجوع الى كثير من العبارات والآراء التي كان يكثر من ترديدها ، وكذلك في ضوء المشكلات الكثيرة التي كان يثيرها دون أن يصل فيها الى جواب نهائي . لقد كان استفان ميزاروس Istvan Meszaros ، أستاذ الفلسفة بجامعة سسكس Sussex يشبه سارتر بقولته تماما مثلما فعل كثيرون غيره ، وذلك حين حاول ان يبين أهمية أعمال سارتر ومدى تعبيرها عن العصر الذي عاش فيه . وذهب ميزاروس في ذلك الى حد القول ان ما يهم في ذلك هو « العملية » اي ما يؤدي الى انتاج الاعمال التي ينتجها الاديب او المفكر الفيلسوف خلال حياته والتي تصبح بذلك « عمل حياته » كلها بصرف النظر عن النتائج الواضحة الملموسة . ويقول آخر فان الذي يهم ليس هو عدد « الاعمال الفردية » التي سوف تعيش على المدى الطويل بعد موت مؤلفها ، ولكن الذي يهم هو كيان « عمل الحياة » وتكوينه وبنائه ، وهو في العادة مزيج

(٧)

Caute , Ibid , p 116

Edith Kern, op. cit; p. 1

(٨) قال سارتر في احدى المقابلات الصحفية « يمكن للانسان أن ينتج دون أن يضطر الى ارهاق نفسه كثيرا بالعمل .. ثلاث ساعات عمل في الصباح ومثلها بعد الظهر ... هذه هي القاعدة الوحيدة التي أتبعها » . ولكن هذه الساعات الست من العمل اليومي التي لم ينقطع عنها ابدا حتى اثناء سفراته ورحلاته أسفرت عن انتاج كثير جدا من الاعمال التي تقدر بحوالي خمسين كتابا في الفلسفة والادب وعلم النفس وتاريخ سير الحياة والرواية والمسرح والنقد الادبي وسيناريو الافلام والمقالات وما الى ذلك . وكان سارتر كثيرا ما يردد أنه لا يستطيع أن يحتمل أن يمر يوم دون أن تتاح له فيه فرصة انتاج قدر كبير جدا من الكتابة . وحين اراد تقدير أعماله وانجازاته قبل أن يموت بوقت قصير قال : « انني لست شيكسبير كما انني لست هيجل Hegel ، ولكنني كرسيت من جهدي وعنايتي ما استطعت . ولقد فشلت بعض أعمالى فشلا ذريعا ، وكان البعض الآخر أقل فشلا ، ولكن البعض كان ناجحا تماما ، وهذا يكفيني » .

وفي المناقشات الكثيرة التي تدور حول أعمال سارتر اختلف النقاد حول تحديد المجال الذي أنجز فيه أكثر من غيره خاصة وأنه من أغزر كتاب هذا القرن كتابة وانتاجا ، بحيث نجد أن ما أنتجه في الفلسفة وحدها أو المسرح وحده أو الرواية وحدها يمكن ان يعتبر انجازا ضخما وكافيا . وكما يقول ناتان سكوت (صفحة ١٦٢) ان السؤال الذي يتردد مرارا وتكرارا هو اذا ما كان سارتر يعتبر فيلسوفا استخدم الرواية والمسرح كوسيلة لتجسيد مذهبه الفلسفي ، او أنه فنان دفعته قناريه وجولاته وصلواته المحسوسة الى أحراش وادغال الفكر النظري . ومن الصعب الوصول الى اتفاق عام بين النقاد في هذا الصدد ، ولذا فان الكثيرين يميلون الى ان يأخذوا أعماله كلها كوحدة متكاملة وبذلك فليس من المهم ان نعتبره فيلسوفا أو فنانا أدبيا ، وإنما المهم هو ان ندرك أنه استطاع ، بصرف النظر عن الاداة التي يستخدمها في توصيل رسالته ، أن يدرك الواقع ويفهم الحقيقة وأن يعبر عن التجربة الانسانية بطريقة مقننة تتفق تماما مع نظريته الخاصة .

والمعروف ان سارتر كان قد اشتغل بالتدريس في المدارس الثانوية (الليسيه) بعد حصوله على شهادة الاجريجاسيون وتقل بين عدة مدارس في عدد من المدن مبدئيا بالمهاجر ومنتها بلجيه كوندورسيه Condorcet في باريس . ثم ترك التدريس وانقطع للكتابة والتأليف من عام ١٩٤٤ حين أمكنه أن يعيش من دخل مؤلفاته .

فريد من الذاتية والموضوعية . « وإذا أردنا مثالا مشابها من الماضي - مع الأخذ في الاعتبار طيلة الوقت الاختلافات والمميزات والمحددات الضرورية - فان فولتير سوف يرد الى أذهاننا بسلبيته الشاملة المسيطرة . لقد عاش فولتير في مفترق طريق آخر يمثل حالة انتقال تاريخي واجتماعي هائل . فأخضع النظام القديم لاقصى أنواع النقد والسخرية اللاذعة الممضة ، وتمكن من اكمال سلبيته الراديكالية بتوقع قيام نظام آخر جديد . ونحن نعرف الآن جيدا أن جزءا ضئيلا جدا من أعمال فولتير الضخمة هو الذي لا يزال يقرأ في الوقت الحالي ، ولكننا نستطيع أن نتخيل في الوقت ذاته مدى ما كان يمكن ان يكون عليه القرن الثامن عشر من فقر وجذب واحمال لو لم يوجد فيه فولتير »^(٩)

ولقد كان هذا النوع من السلبية الراديكالية هو أهم ما يميز أعمال سارتر حتى وهو يغني أغنية الأمل . والواقع أن « عجز » سارتر عن أن يتخطى ويتعدى هذه السلبيات « الراديكالية » لم يكن راجعا فقط الى انشغاله بكثير من الامور في وقت واحد وبالتالي عدم توفر الوقت لديه لتحقيق ذلك التغلب والتعدي على ما يزعم البعض ، وانما كان ذلك العجز ، كما يقول ميزاروس أيضا ، مسألة أصيلة وكامنة وعميقة في علاقة سارتر بالعالم ، كما ان مواقفه واتجاهاته واستجاباته لذلك العالم هي التي كانت توجه أعماله وكتابات وكل أنشطته الادبية الكثيرة المتنوعة التي تتراوح من القصة القصيرة الى كتابة (سيناريو) الافلام ، ومن النقد الادبي الى الروايات ، ومن المسرحيات الى كتب السيرة ، ومن الكتب الفلسفية الضخمة العميقة الى المنشورات السياسية . وصحيح ان سارتر انتبه منذ وقت مبكر لهذه (السلبية) ووعد بأن يتخذ موقفا أكثر (ايجابية) بعد نشره رواية « الغثيان La Nausée » وهي أولى رواياته وترجع الى عام ١٩٣٨ . ولكن مثل هذه « الايجابية » لم يتح لها ان تتحقق أبدا ، وذلك اذا صرفنا النظر عما كان يتردد في كتاباته من كلمات مثل « ينبغي » أو « الالتزام » وما اليها . وبالمثل ، فانه لم يستطع ان يحقق ما كان يردده من وعود حول كتابة مؤلف منهجي عن الاخلاق ، مع أن المشكلة الاخلاقية كانت من اهم المشكلات التي كانت تشغل تفكيره ، رغم كل ما قد يبدو في سلوكه وآرائه من عكس ذلك . وعلى أية حال فان

Istvan Meszaros, " Sartre's Quest for the Reign of the Human "

(٩)

The Times Higher Education Supplement, 2.5. 1980, p. 9

وقد حاول استيفان ميزاروس في هذا المقال الرائع العميق اظهار مكانة سارتر و « معناه » في ضوء أعماله . ويعتبر ميزاروس من أكبر الثقات في انجلترا في فلسفة سارتر بالذات ، ويقوم حاليا بتأليف كتاب ضخيم يقع في عدة مجلدات يدرس فيها بدقة وتفصيل أعمال سارتر . وقد ظهر في العام الماضي المجلد الاول من هذا الكتاب بعنوان :

The Work of Sartre : Volume One : The Search for Freedom, Harvester Press .

وكثير من النقاد ينظرون الى هذا المجلد الاول على أنه من أهم ما كتب عن سارتر على الاطلاق ، وبخاصة فيما يتعلق بدراسة أعماله المبكرة . ففيه (يواجه) ميزاروس سارتر حسب تعبير رونالد أرنسون Ronald Aronson وهو يعرض للكتاب في مجلة New Statesman (عدد ١٤ مارس ١٩٨٠) ، بمعنى أنه يصف بعض الضغوط والتوترات التي وجهت كل حياة سارتر وأعماله كما يبين أن هذه التوترات وما ارتبط بها من مواقف واتجاهات ظهرت كلها في تلك الاعمال المبكرة . والاستاذ أرنسون هو نفسه من الكتاب المهتمين بسارتر وله كتاب حديث عنه ورد ذكره في هذا المقال .

« السلبية » تتضمن بغير شك جانباً كبيراً من الأخلاقية ، ولذا فإن هناك من الكتاب من يعتبر سارتر - على هذا الأساس - من أكبر الفلاسفة « الأخلاقيين » في هذا العصر . على الأقل نظراً لأنه كثيراً ما يتمسك بالالتزام حتى وإن لم تكن كتاباته تتفق دائماً مع « القيم » السائدة في المجتمع .^(١٠)

والواقع أن مكانة الإنسان ، أو على الأصح وجود الإنسان في العالم كان واحداً من الأفكار الرئيسية في فلسفته . وقد ظهرت هذه الفكرة في كل أعماله الروائية وفي نقده الأدبي بل وأيضاً في نظريته وآرائه عن غيره من الكتاب ، كما وجهت آراءه في التحليل النفسي ذاته . ونحن نعلم من سيمون دوبوفوار أن سارتر كان يقرأ أعمال هايدجر سواء في لغتها الأصلية أو في ترجمة كوربان Corbin منذ أواخر الثلاثينات ، وكان يجد في تلك الكتابات مادة غزيرة لتفكيره هو ، بل أنه وجد فيها صدى لمحاولته فهم حقيقة العالم فيها فلسفياً ، كما أن محاولته التوفيق بين الذاتية والنزعة الموضوعية كانت من المشكلات التي تدور في ذهنه . وفي مناقشاته طيلة الوقت في ذلك الحين . ولا بد أن فكرة كتاب الوجود والعدم كانت قد بدأت تتضح وتبلور أثناء تلك الفترة التي كان سارتر وسيمون دوبوفوار يتناقشان فيها حول آراء هايدجر عن الوجود في العالم . ولكن مما يؤسف له أن تركيز سارتر الشديد على فكرة العدم في تصور الإنسان للعالم أدت بالكثيرين إلى إساءة فهمه ، بحيث اعتبروا كتاباته نوعاً من العدمية الأخلاقية .

ولقد سبق أن ذكرنا أن سارتر تصدى بشجاعة فائقة لعدد من القضايا الهامة ووقف موقف الدفاع والتحدى والعناد ضد حركات القمع والاضطهاد والاستغلال واستعباد الشعوب المستضعفة ، دون أن يكون في يديه سلاح

(١٠) الأغلب أن سارتر تأثر في فكرة الالتزام بالفيلسوف الألماني (كانت Kant) وأوامره المطلقة . والمعروف على أية حال أن سارتر خضع لتأثير عدد من الفلاسفة الكبار من أمثال ديكارت وكيركجارد Kierkegaard وماركس وهوسرل وهايدجر على ما ذكرنا . ولكن أكبر تأثير تعرض له واستمر طويلاً كان تأثير هيجل وفوق كل شيء (كانت) . والأغلب أن تأثير ماركس كان لفترة قصيرة نسبياً . وليس من شك في أن فلسفة (كانت) عن الأمر المطلق أثرت فيه وفي رسالته الأخلاقية الخاصة .

والواقع أن ثمة تساؤلات كثيرة أثرت حول مدى إمكان قيام نسق أخلاقي متماسك في ضوء كتابات سارتر وأفكاره . خاصة وأنه من الصعب العثور في تلك الكتابات الكثيرة المتنوعة على أي توجيه أخلاقي واضح وصريح . ولقد اعترفت سيمون دوبوفوار في كتابها *La Force des choses* ، وهو الجزء الثالث من تاريخ حياتها ، أن سارتر في أواخر الأربعينات نبذ تماماً فكرة إقامة نسق « أخلاقي » بالمعنى الدقيق للكلمة ، ولكن ذلك لا يعني أن تفكيره لا يتضمن أية أبعاد أخلاقية على الإطلاق ، على الأقل من وجهة نظره هو . ففي كتابه عن الكاتب الفرنسي جان جينيه (*Saint-jenet : comédien et martyr*) يقول أن « الأخلاقية في حد ذاتها مسألة مستحيلة ولكنها ضرورية » ، « وهو يعني « بالاستحالة » هنا عدم إمكان قيام « نسق » أخلاقي لأن الفرد الإنساني ليست له ماهية « ما دام هو الذي يصنع بنفسه نفسه ما يشاء ، ولكن سارتر مع ذلك لا يُلغى تماماً فكرة الأخلاق ولم يحاول أن يسقط من اعتباره المشكلة الأخلاقية أو يناهض بحياة منافية للأخلاقية . والنقطة الأساسية في موقفه الأخلاقي بغير شك فكرة الشرعية أو الأصالة والصحة *authenticité* ، وذلك لأن الوجود الشرعي الحقيقي الوصول يعني بالضرورة الشجاعة التي تجعل الإنسان يرضى بأن يتحمل أعباء الحرية ، لأنه هو المخلوق الوحيد الذي يوجد بطبيعته من أجل نفسه ، وأنه يتعين عليه أن يجد الوسائل « لخلق » نفسه نظراً لأنه حر بالضرورة وبالتالي فهو « المشرع » الضخم الذي يقوم هو نفسه بتصويره وتصميمه وتنفيذه . وليس ثمة مهرب للإنسان من هذه الحرية ، ومن هنا كان من المستحيل قيام « نسق » أخلاقي ، مقبول من الجميع ما دام الإنسان ليست له طبيعة ثابتة أو ماهية بسيطة .

سوى الكلمات التي تعبر في قوة ووضوح وجراً عن اقتناعه بضرورة الوقوف الى جانب المعذنين في الأرض . ولقد أشرنا الى المحكمة التي قام بتشكيلها الفيلسوف البريطاني برتراند رسل لمحكمة مجرمي حرب فيتنام ، وقد اشترك سارتر فيها كما اشترك من قبل في المظاهرات التي قامت للتنديد بأعمال الفرنسيين الوحشية في الجزائر ، وهاجم في محاضراته وخطبه تلك الاعمال والاستعمار الفرنسي بوجه عام للجزائر . وشجع سارتر ثورة الطلاب والنسب في باريس عام ١٩٦٨ وكان يحرض الطلاب بالفعل على التمرد ، وله في ذلك جملة مشهورة « ان العلاقة الوحيدة التي يمكن ان تنشأ بين الطلاب وهذه الجامعة هي ان يقوم الطلاب بهدم الجامعة ، والسبيل الوحيد لتحقيق ذلك هي ان ينزل الطلاب الى الشارع » ، كما عارض التدخل السوفيتي في أفغانستان (١١) .

وربما كانت القضية الوحيدة التي لم يقف فيها سارتر صراحة الى جانب الشعب الذي اغتيلت حقوقه وطرد من أرضه هي قضية اللاجئين الفلسطينيين . ولم يكن سارتر في ذلك منطقياً مع نفسه أو أميناً لمبادئه . ومع ذلك فقد أثّر هذا التناقض في سلوكه ومواقفه عام ١٩٦٧ حين زار سارتر مصر بدعوة من « دار الاهرام » في الفترة من ٢٥ فبراير الى ١٣ مارس من ذلك العام . فأتثناء لقائه مع طلبة جامعة القاهرة وجه اليه أحد الطلاب السؤال التالي :

« لقد أبديتكم رأيكم في مختلف قضايا العالم التحررية ، وقد زرتم قطاع غزة ورأيتم أسوأ وأبشع فظائع الاستعمار والصهيونية على حقيقتها . ونعلم انكم ستزورون فيما بعد إسرائيل . فما رأيكم في قضية فلسطين بعد أن رأيتموها على الطبيعة ، ونحن نعلم انكم قاسيتم من الاستعمار والنازية الالمانية عام ١٩٤٠ ؟ »

(١١) يعتبر موقف سارتر من قضية الجزائر وحرب التحرير الجزائرية من أنصع مواقف وأسماها في الدفاع عن الشعوب المضطهدة التي تكافح في سبيل حريتها . فلقد أعلن بوضوح تعاطفه مع النشاط الذي كان يقوم به فرنسيس جانسون Francis Jeanson بالتعاون مع جبهة التحرير الجزائرية . وحين قدمت (الشبكة) التي كونها جانسون للمحاكمة عام ١٩٦٠ أكد سارتر مرة أخرى تعاطفه معه ، كما أنه كان ضمن المثقفين والمفكرين الذين وقعوا النداء الذي يشيد بالمواطنين الفرنسيين الذين رفضوا الاشتراك في الحرب ضد الجزائر أو الذين يؤيدون حركة التحرير ، وكان عند هؤلاء المفكرين ١٢٦ شخصا . وقد هاجم البوليس الفرنسي مجلة (العصور الحديثة) عدة مرات وصادر بعض أعدادها ، وقد حاول سارتر أكثر من مرة استشارة البوليس حتى يدفعهم الى القبض عليه وإرساله الى السجن ، ولكن حكومة ديغول كانت تتحاشى ذلك . والمعروف أن الكاتب الفرنسي الشهير أندريه مالرم وكان هو وزير الثقافة في حكومة ديغول آنذاك . وقد قال ديغول في تفسيره عدم القبض على سارتر : « ولكن سارتر هو أيضا فرنسا » .

وكما سبق أن ذكرنا فإن سارتر كان يكافح دائما عن حقوق المضطهدين والمستعبدين ، وتتساوى في ذلك مواقفه الصريحة الجريئة في الدفاع عن انسان فيتنام ضد الأمريكيين ، أو الدفاع عن انسان كوبا ضد أمريكا أيضا ، أو الدفاع عن انسان الكونغو أو الدفاع عن انسان المجر أو انسان أفغانستان ضد التدخل السوفييتي . وهو الذي دافع عن الانسان المصري ضد العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ . « ان فرنسا ذهبت تنقذ قناة وتقتل شعبا . هذا الشعب الذي قررت أن تقتله ليس الشعب المصري وإنما هو الشعب الفرنسي نفسه . فليس من حق أي رئيس لحكومة فرنسا أن يجرد الشعب الفرنسي كله من شرفه وجهه للسلام وصداقته لكل الشعوب المتحررة » . وهكذا . وكان سارتر يحذر من الاستعمار الجديد ويرفض تلك التفرقة الزائفة بين « المستعمرين الصالحين » و « المستعمرين الاشرار » ويرى أن « هناك مستعمرين رحيم » « فلسطين وسارتر والمشكلة الفلسطينية » في كتاب : اسما عيل المهدي وآخرين ، سارتر مفكرا وانسانا « دار العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٧ ، صفحة ١٨٩ » .

وجاء رد سارتر على السؤال كما يلي :

« الذي أستطيع أن أقوله لكم الآن بعد أن زرت غزة هو ملاحظتان :
 الاولى هي أنني أحسست احساسا عميقا بمأساة كل هؤلاء اللاجئين الفلسطينيين الذين يعيشون في ظروف بائسة ولا تحتل في بعض الأحيان .. الذين يعيشون على حدود البلد الذي كان بلدهم .
 « والملاحظة الثانية هي أنني أعتبر أن حق الفلسطينيين القومي في العودة الى البلد الذي كانوا يعيشون فيه حق لهم لا يجوز مناقشته اطلاقا . ولن أذهب في حديثي اليوم الى أبعد من هذا ، لأنه قد يتساءل البعض وكيف يعودون الى بلدهم ، وما هي العلاقة التي يفترض أن توجد بينهم وبين من يوجدون بإسرائيل اليوم ، الخ ؟ أقول لن أذهب الى أبعد مما قلت، وسأقول لكم السبب: اننا نقوم الآن في مجلة «العصور الحديثة» بتحضير عدد خاص عن مشكلة اللاجئين الفلسطينيين ، سنقدم فيه لأول مرة وجهة النظر العربية بأقلام كتاب عرب ، وسيقدم هؤلاء الكتاب كل وجهات نظرهم . ومن بين هؤلاء الكتاب كتاب فلسطينيون ينتمون الى (منظمة التحرير ، أي الحكومة المؤقتة السرية) . وفي نفس الوقت سنقدم وجهة نظر معروفة في فرنسا اليوم أكثر من وجهة النظر العربية وأعني بها وجهة النظر الاسرائيلية . سنقدم وجهتي النظر وذلك لأننا لو أعطينا وجهة نظر واحدة فان إعلام الجمهور الفرنسي ، هذا الجمهور الذي أعرفه تماما، سيكون اعلاما ناقصا . ان الرأي العام الفرنسي في حاجة الى وجهتي النظر لكي يحكم .. ولكي نحصل على وجهتي نظر الجانبين ، أعني العرب والاسرائيليين ، وهما يرفضان الحوار تماما فبا بينهما ، فقد قررنا لا أن نكون محايدين وانما متغيبين تماما ، أي أن نكون غير ممثلين على الإطلاق في هذا العدد . ان هذا العدد سيتكون من جزء سيكتبه الاسرائيليون وجزء آخر منفصل سيكتبه العرب ، ولن نضيف أي شيء أكثر من هذا . سنقول ببساطة اننا نقدم هذا العدد ... مفهوم اذن أنه لن يكون هناك حوار من أي نوع بين العرب والاسرائيليين ، كما أنه ليس هناك أي تدخل من جانبنا . في مثل هذه الظروف لو أتتني ذهبت الى البحث في أعماق المشكلة فأنني في مثل هذه اللحظة سأكون منحازا ، واذا حدث فاني أحث بالعهد الذي قطعته على نفسي في مواجهة هذا العدد الذي أعده ، اذن فاني أتوقف عند حد هذا القول الذي أعلنته . (١٢)

(١٢) انظر : مجلة (الطليعة) القاهرية ، عدد ابريل ١٩٦٧ ، صفحة ١٤٠ . والواقع ان سارتر كان قد عرض هذه المسألة ذاتها في حديث له مع صحيفة الاهرام في ديسمبر عام ١٩٦٥ حيث قال : « ونحن نجد أنفسنا اليوم أمام النزاع القائم بين العالم العربي واسرائيل كأننا منقسمون على أنفسنا . ونحن نعيش هذا الانقسام وكأنه مأساتنا الشخصية .. وقد رأيت هذا السبب اتخذ المباشرة الوحيدة التي أسمح لنفسي بها وهي أن أطلب من الجانبين أن يزوداني بما لديهم من معلومات . وقد قبل ، كل على انفراد ، تزويدنا بوجهة نظرهم . ومن اجل هذا السبب سأذهب الى مصر واسرائيل وهذا الوحيد جمع المعلومات ، أي محاولة رؤية المشكلة بوضوح أكثر . ان الأمر لا يهدف الى إيجاد حوار يهودي - عربي ، فهذا مستحيل ولا جدوى من ورائه ، لأن أساس هذا الحوار لم يوجد بعد . ويصدر بعد ذلك عدد مجلة الأئمة الحديثة ليتمكن قراءها من تفهم القضية » (نقلا عن المرجع السابق ذكره ، صفحة ٢١٢) . وكما يقول نبيل زكي ، ان موقف سارتر من اسرائيل كان منذ البداية موقفا خاطئا لأنه كتب في ابريل عام ١٩٤٨ مقالا يأخذ فيه على بريطانيا انسحابها من فلسطين لأن ذلك يعرض اليهود لهجوم مباشر من جانب العرب الذين يفرقونهم في العدد والعدة ، وطالب بضرورة تسليح اليهود أو السماح لهم بشراء الأسلحة لهم لحماية أنفسهم . (المرجع نفسه ، صفحة ٢١٣) . وقد نسي سارتر في كل ذلك أن ينظر الى قيام اسرائيل على انها عملية اغتصاب بالقوة المسلحة كما تقاتل عن النظام الارهابي الذي يتبعه الاسرائيليون في تعاملهم مع العرب الذين يعيشون داخل اسرائيل ، وأن ينظر الى اسرائيل باعتبارها « أداة القوى الاستعمارية العالمية في ضرب حركة التحرير العربي ومساندة قوى الرجعية والتخلف » (صفحة ٢١١) .

وواضح ان الجزء الاخير من هذه الاجابة هو نوع من الهروب اللبق الذي يتنافى على أية حال تماما مع مواقفه الصريحة الجريئة العنيفة في الدفاع عن الشعوب المضطهدة والمستضعفة . ولقد ظهر عدد « العصور الحديثة » كما ذكر سارتر ، ولكن الأمر وقف - من جانبه - عند هذا الحد ، ولا يمكن ان يقارن ذلك بما فعله لموازرة حركات التحرر الأخرى ، بل انه لا يمكن مقارنة تخصيص عدد من العصور الحديثة ليكتب فيه العرب والاسرائيليون على السواء لابتداء وجهة نظرهم هم أنفسهم في القضية ، بما فعله هو نحو اليهود حين خصص لهم أحد أعماله وهو « تأملات في المسألة اليهودية » الذي ظهر عام ١٩٤٦ . وهذا هو الذي يجعلنا نذهب الى أن سارتر خان مبادئه وتكررها حين وجد نفسه في موقف قد يثير ضده يهود فرنسا والعالم .



في الشهور الاخيرة من حياته بدأ سارتر يراجع نفسه ومواقفه وفكره من بعض القضايا الهامة التي كان يقف منها موقفا قاطعا وحاسما وصريحا ، وعبر عن مواقفه الجديدة في سلسلة مقابلات نشرتها مجلة Le Nouvel Observateur الاسبوعية . ففيلسوف الوجودية الفردية الذي كان يردد ان « الآخرين هم جهنم » يعترف أخيرا بأنه بالغ حين اعتبر - حسب ما يقول - « كل فرد مستقلا أكثر من اللازم عن غيره في نظريتي عن الآخرين . ذلك أن الشيء الحقيقي هو العلاقة بيني وبينك » . ولعل أخطر هذه (المراجعات) والتغيرات التي طرأت على فكره في تلك الفترة الاخيرة . كما كشف عنها للمجلة هو تغير نظره الى اليهود كشعب متميز عن غيرهم من الشعوب . ففي كتابه « تأملات في المسألة اليهودية » كان سارتر يذهب الى أن اليهودي يصبح يهوديا لان الآخرين ينظرون اليه على هذا الاساس ، اي على أنه يهودي . واعتبر سارتر ذلك من أهم الاسباب التي تحتم انشاء دولة يهودية كحل لمشكلة اليهود الذين سوف ينزحون بالضرورة اليها . وكان يرى ان اليهود ليس لهم تاريخ مشترك أو ذاتية identité مشتركة موحدة وانما يتمتعون بتلك الذاتية السلبية التي تضيفها عليهم النزعات المضادة للسامية . ولكنه لا يلبث ان يعلن على صفحات المجلة ان الشعب اليهودي له ذاتية خاصة مميزة ومستمدة من « حقيقة أعمق » بكثير من اللسامية . وانهم يستمدون حياتهم وبقائهم من هذه « الحقيقة العميقة » التي تقوم في أساسها على علاقتهم بالاله الذي يعبدون . « فاليهودي يعتقد أن نهاية هذه الحياة وظهور حياة جديدة انما يعنيان ظهور وجود أخلاقي جديد » ، وهذه الفكرة عن الاخلاق كنهاية أخيرة هي فكرة مخالفة تماما لآراء ماركس والماركسية . وبذلك ظل سارتر مائلا لليهود ومتعاطفا معهم حتى آخر حياته . كذلك ذهب في (مراجعته) لنفسه ولأفكاره الى حد القول انه « لم يعد لليسار وجود » وذلك بناء على الوضع السائد في دول الغرب حيث يتولى السياسة المحافظون شئون الحكم ، وعلى ذلك فان « الديمقراطية » يجب ان تكون هي الاسلوب الذي يعيش الناس بمقتضاه . وقد دفعه ذلك في آخر تلك المقابلات الى ان يعلن في صراحة ووضوح انه يتمنى أن يعود العالم الى ذلك البناء الاجتماعي البسيط الذي يميز « العشيرة clan » . « فمنذ عدة آلاف من السنين كانت الجماعة الاولى هي العشيرة التي كانت تتميز بطابعها الخاص والتي كانت تسود فيها علاقات تقوم على مبدأ الاخاء .

وهذا هو ما يتعين علينا أن نبحث عنه الآن : العشيرة ... ان فكرة قيام العشيرة على أساس الانتماء الى « رحم » واحد كانت أسطورة بغير شك ، ولكنها مع ذلك كانت هي الحقيقة » . (١٣)

والظاهر أن شعور الانتماء الى العشيرة كان أحد المبادئ التي قامت عليها علاقاته هو مع أصدقائه وزملائه المقربين ومع بعض تلاميذه والمعجبين به من الشباب المثقف في باريس ، والذين أصبح بعضهم فيما بعد من الكتاب والادباء والروائيين المعروفين . وقليل من المؤلفات التي ظهرت عن سارتر اهتمت بإبراز هذه العلاقات والأسس التي قامت عليها على الرغم من أنها تكشف ، ليس فقط عن شخصية سارتر، بل وأيضا عن مدى اتباعه لمبادئ فلسفته وتفكيره ، وتطبيق هذه المبادئ في علاقاته الشخصية والعملية . وربما كان كتاب ماريوس بيران الذي سبقت الإشارة اليه والذي يعطينا صورة عن علاقات سارتر مع زملائه (في المعتقل) واهتمامه ببث تعاليمه من أفضل هذه الكتابات رغم قصره . وماريوس بيران كان في الاصل من رجال الدين ولكنه متخصص في الوقت ذاته في الدراسات الانجليزية ويشغل الآن منصب مدير المدرسة العليا للسكرتارية والترجمة في الكلية الكاثوليكية في ليون . ولم يكن لبيران عن سارتر قبل ان يقابله في المعتقل سوى ذكرى باهتة عن قراءته لرواية قصيرة وقصة كان سارتر كتبها عام ١٩٣٩ وهي « الجدار Le Mur » ، كما كان يتذكر أيضا المقال الذي كتبه سارتر ينقد فيه بعض أعمال كاتب فرنسا العظيم فرنسوا مرياك Francois Moiriac . ولكن حياة الاسر ربطت بين الرجلين كما هو واضح في الكتاب بحيث اصبحت العلاقة بينهما علاقة وثيقة استمرت الى ما بعد سنوات الحرب وتبلورت عن هذا الكتاب المشحون - كما ذكرنا من قبل - بالذكريات والعواطف ، والذي ينم عن مدى تأثير بيران بشخصية سارتر وآرائه وأفكاره . والشئ الذي يميز كتاب بيران عن معظم الكتب الحديثة التي ظهرت اخيرا عن سارتر هو ان الكتاب يبرز لنا سارتر في صورة « الحكيم الشرقي » ، حسب تعبير الاستاذ دوجلاس جونسون ، اكثر منه في صورة الفيلسوف الكلاسيكي . فلم يكن سارتر في نظره مجرد آلة مفكرة لها قدرة هائلة على التفكير والجدل والنقاش والافتناع واثارة الحيرة والتساؤلات وارهاق من يجادله ، كما أنه لم يكن مجرد ذهن وقاد على درجة عالية من الذكاء والسمو بحيث كان يفلح دائما في استثارة اهتمام السامع واخضاعه في الوقت ذاته لتأثيره ونفوذه ، ولكنه كان أيضا رفيقا وصديقا وفيما يعرف كيف يخلص في صداقته وكيف يحتفظ بتلك الصداقة لفترات طويلة جدا من الزمن دون أن تفقد شيئا من حرارتها وعمقها وصداقتها . والواقع ان ايديث كيرن كانت قد انتبهت لاغفال المؤلفين والكتاب لهذا الجانب الشخصي في كتاباتهم عن سارتر ، ولذا فانها تذكر أن « الذي ظل في الخفاء هو سارتر

(١٣) كشف سارتر على غير توقع منه في الاسابيع الأخيرة من حياته عن تغييرات جذرية في بعض مواقفه واتجاهاته اللغوية بحيث اعتنق بعض القيم التي كان يعتبرها من قبل قبا بورجوازية مثل « الاسرة » و « الديمقراطية » ، بعد أن كان في مراحل حياته الأولى يشغل نفسه بالبحث والعدم لكي ينتقل منها الى الاهتمام بالذات كالمعادلة الاجتماعية والالتزام . والمقابلات الصحفية التي أجريت مع سارتر في الشهور الأخيرة من حياته تكشف عن هذه التغييرات التي لم يتح لها أن تظهر بوضوح في مؤلفاته المتأخرة . انظر في ذلك المقال الذي نشر عن سارتر في عدد ٢٨ أبريل ١٩٨٠ من مجلة : New week الأمريكية .

الانسان كما يعرفه أصدقاؤه وتلاميذه ويريدوه . فهو انسان صبور ورفيق طيب القلب .. غارق في أفكاره وتأملاته الى حد كبير جدا » . (١٤)

ولكن لعل الغريب في الأمر هو ان جان بول سارتر وسيمون دوبوفوار ، على الرغم من مكانتهما وبخاصة بالنسبة لشباب فرنسا من المثقفين الذين كانوا يلتقون بهما ، لم يحاولا التأثير بشكل متعمد أو مقصود على هؤلاء الشبان عن طريق دعوتهم الى اعتناق آرائهما وفلسفتيهما او مطالبتهم بانتهاج نهج فكري بالذات ، أو أسلوب معين في الكتابة . بل كان الأمر على العكس من ذلك تماما ، فكما يقول جاك جيشرنو Jacques Guicharnaud وهو يستعيد ذكريات الشباب حين كان يرتاد مجلس سارتر ودوبوفوار ، وذلك في مقال له نشر في مجلة Yale French Studies (العدد ١٦ شتاء ١٩٥٥ - ١٩٥٦) ان سارتر وبوفوار لم يحاولا قط أن يارسا دور الأساتذة الكبار على مجموعة من التلاميذ والمريدين ، وإنما كان هؤلاء الشبان هم الذين يسعون طوعا الى سارتر الذي كان ينظر اليهم ويعاملهم على أنهم هم الممثلون الحقيقيون لعصرهم . فلم يكن سارتر بالذات يهتم بتوجيه هؤلاء الشبان وجهة معينة بالذات بقدر ما كان يحرص على مساعدتهم على التعبير عن أنفسهم في الصورة التي يختارونها لانفسهم ، وذلك على اعتبار ان هذه كانت تمثل في نظره - ونظر سيمون دوبوفوار أيضا - أفضل وسيلة لمساعدتهم على تحقيق حريتهم . بل الاكثر من ذلك ان جان بول سارتر وسيمون دوبوفوار كانا يجدان من وقتها ما يسمح لهما بقراءة كل ما يعرضه عليهما هؤلاء الادباء الشبان المبتدئون ، وأن يبديا رأيها وجهة نظرها كتابة في كثير من الاحيان وفي غير قليل من الدقة والتفاصيل . ولم يحدث قط - حسب ما يذكر جيشرنو - أن رفض أي منها النظر في أي عمل من هذا القبيل تقدم به اليها أي من هؤلاء الشبان الذين كانوا يحيطون بهما ويحضرون مجلسهما ، فقد كانا يعتبران ذلك نوعا من « الالتزام » عليهما ازاء الادباء والكتاب الناشئين . فاذا وجدا ان العمل الذي قدم لهما يصل الى درجة معينة من الجودة فانهما كانا يعرضانه على البير كامي لقراءته وابداء الرأي فيه ، وكثيرا ما كان هذا « العمل » ينتقل بعد ذلك من يد لأخرى من بين الكتاب المتصلين بسارتر لقراءته وتقويمه ومناقشته اثناء هذه الجلسات . وربما كان ذلك من أهم الاسباب التي كانت تجعل هؤلاء الكتاب المبتدئين يتمسكون بجان بول سارتر ويظلون مخلصين لآرائه وفلسفته حتى الآن .

يقول جاك جيشرنو ، « في عالم اليوم نجد ان الدعوة الى قيام ادراك واع وواضح والتي نادى بها سارتر في فلسفته عام ١٩٤٣ لا تزال قائمة وصحيحة حتى الآن . وعلى ذلك فليس ثمة ما يبرر الزعم ان سارتر لم يدع الى شيء جديد اولم يحقق شيئا جديدا في كتاباته . وحتى لو كان ذلك الزعم صحيحا فانه يكفي سارتر انه كان

الوحيد الذي اعلن عن هذه الحاجة في ذلك الحين وعبر عنها بوضوح وبألفاظ يفهمها الجميع . ولا يزال تفكير سارتر ونشاطه هو جماعته يشغلان حتى اليوم الجانب الأكبر من اهتمامنا . ومن المهم جدا بل ومن الحيوي ايضا ان نحاول ان نعرف ونفهم لماذا كان سارتر يتبع طريقا معينة بالذات دون أخرى ، فهذا أفضل وأجدي من أن نعكف على دراسة تخيلات فرانسواز ساجان Françoise Sagan واوهامها ، او مسوخات جول رومان Jules Romains . ان هذه (النفوس المتدنية) التي ترى أن رسالتها الاساسية تنحصر في ان تخفف من مشاعرنا بالاثم وان تلقى بها على عاتق الآخرين سوف ترمينا وتتهمننا بأننا لا نزال أسرى انتفاء اتنا القديمة وولائنا القديم الذي يرجع الى عهد مراهقتنا المبكرة . ومن السهل علينا الاجابة على ذلك ، بأننا حتى الآن لم نجد سببا واحدا يدفعنا الى تغيير هذا الولاء والانتفاء ، وأنه يمكن القول بكل الموضوعية : ان العالم خلال العقد الاخير لم يقدم لنا ما يجعل هذا التغيير ممكنا » . (١٥)

ولكن ...

في عام ١٩٧٥ سئل سارتر عما اذا كان يشعر بالأسى لأن المثقفين الشباب لم يعودوا يقرأون كتبه ؟ فأجاب : « انه أمر مؤسف بالنسبة لي . ولكن لكي أقول الحقيقة ، انه ايضا أمر سيء جدا بالنسبة لهم » .



ويضم هذا العدد مجموعة من الدراسات التي حاولنا فيها الالمام بقدر الامكان بمعظم الجوانب التي تطرق اليها سارتر في كتاباته . فليس من السهل على العموم الاحاطة بكل الميادين والمشكلات التي اهتم بها وخصص

(١٥) ظهر مقال جيسرنو في الأصل بعنوان 'Existentialism 1943-1945 Those Years' ثم نشر بعد ذلك وينس العنوان في الكتاب الذي أشرفت عليه ايديث كيرن والذي سبقته الاشارة اليه (صفحات ١٥ - ٢٠) . ويذكر جيسرنو في بداية المقال ما يفيد أنه انطباعات ذاتية وليس دراسة موضوعية . ولذا فانه يعنى فيه في المحل الأول بذكرياته الخاصة وملاحظاته . يقول جيسرنو : « لقد طلب الى أن أكون ذاتيا ، على أساس أنه في عام ١٩٤٤ وكنت في ذلك الحين في العشرينات من عمري ، أتردد على مقهى دولفور ، وأنتى - لأسباب عديدة - كنت كثير الاتصال بسارتر و جماعة الوجوديين » وسوف استخدم في هذا المقال صيغة الجمع (نحن) فأقول مثلا « لقد كنا نجلس خارج دولفور » .. « ولقد أخبرنا سارتر . ولتحتاج صيغة الجمع هذه الى شيء من التوضيح والتعريف ، فالمقصود بها أولا الاشارة الى أنا شخصا وما أتذكره عن نفسي وما طرأ على تفكيري من تغيرات خلال السنوات العشر الماضية ، ولكنها تعنى ايضا الاشارة الى بعض الأصدقاء وما أتذكره عنهم أو ما أتوهم أنني أعرفه عنهم . فهي اذا « نحن » مجردة ، انها صيغة جمع تاريخية ومريحة اذا يمكن استخدامها بسهولة للاشارة الى المعاني التي تتجاوز التجربة الشخصية وتعمد هذه الذكريات عن فترة تتجاوز وجودي الشخصي الى حد كبير جدا (Edith Kein, Ibid, p, 15) هذا وقد كتب المقال الأصلي عام ١٩٥٥ .

لها كثيرا من جهده ووقته وفكره . وعلى أية حال فحين اصدرت ايديث كيرن - على سبيل المثال - كتابها الذى أشرنا اليه فى أكثر من موضع من هذه الدراسة التمهيدية والذى يضم مجموعة من الكتابات التى تتناول فكر سارتر وأعماله ومواقفه ، صنفت هذه المقالات والدراسات فى الفئات التالية : الرواية ، المسرح ، الأسلوب ، النقد الأدبى ، الفلسفة ، التحليل النفسى الوجودى ، السياسة . والدراسات التى يضمها هذا العدد من المجلة تناولت هى الأخرى كل هذه الجوانب بشكل أو بآخر . وقد يكون هناك شئ من التداخل بين المقالات المختلفة وهذا أمر طبيعى ومشروع ، اذ ليس فى الامكان (تشريح عمل شخص واحد أو تفكيره الى أقسام منفصلة بعضها عن بعض كل الانفصال . فكتابات المفكر الواحد تؤلف وحدة عضوية مهمة مهما تنوعت وتشعبت وبصرف النظر عن اختلاف الآراء وبخاصة فى العالم العربى حول سارتر وأعماله ، فليس من شك فى أنه أفلح كمفكر وكاتب فى أن يفرض نفسه وفلسفته وآراءه على الفكر العالمى ، وأن يشغل المثقفين فى جميع أنحاء العالم بهذه الفلسفة وتلك الآراء ، وأصبحت أعماله جزءا من التراث الفكرى الانسانى . ومن هنا كانت ضرورة إصدار هذا العدد عن جان بول سارتر .

تقوم دراسة جان - بول سارتر لمؤلفات جان جينيه ^(١) على مفهومين رئيسين ، يحاول الفيلسوف الوجودي ابرازها بطريقة موضوعية ، الا أنها - في الواقع - ينتميان بصفة جذرية الى صميم فكره الفلسفي . هذان المفهومان هما مفهوم الشر والحرية . لذلك نحن نريد ، من خلال هذه الدراسة ، أن نقدم قراءة سارتر لجينيه في اطارها الحقيقي وهي فلسفة سارتر نفسها ورؤيته للوجود ، وهذا أمر - لاشك - يسترعي انتباه معظم الدارسين لمؤلفات هذا الفيلسوف الخاصة بالأعمال الادبية وأهمها مؤلفاته عن بودلير وجينيه وفلوبير .

إننا نريد أن نقول بصدد هذه الدراسة عن جينيه انه اذا كانت فلسفة سارتر تقوم في جوهرها على الحرية ، واذا كان دور الفيلسوف هو رفع الحجب عن هذه الحرية ، وأهمها حجب « سوء النية » la mauvaise foi و « روح الجدل L'esprit de sérieux بالنسبة للفرد وحجب « الاغتراب » (L'alienation) . بالنسبة للانسان في مجتمع « الممارسة - الجامدة » (L'epreuve — inerte) . واستثمارها بطريقة تتفق وحركة التاريخ وتؤكد خلاص الانسان في المستقبل ، نظرا لأن المستقبل هو أسمى الموجودات قاطبة لارتباطه بعالم الامكان ، فان الشر ، الذي يشكل حجر الزاوية في مؤلفات جان جينيه ، ليس

سارتر وجينيه أو الشر والحرية

محمد علي الكردى

رئيس قسم اللغة الفرنسية
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

غريبا على فكر جان - بول سارتر اذ أنه ملازم للحرية ملازمة الظل للانسان - إن صح هذا القول - ومذكر بها كما يذكر الظلام بالضياء . (٢)

ان الشر ، في عالم القيم الساترية ، لا يمكن ان يقوم بدون الحرية ، كما أن الحرية لا يمكن أن تقوم بدون امكانية الشر ، اذ أنه اذا لم يكن للشر معنى الا بالنسبة للخير ، أي في حدود النسبية ، فان الحرية ، وهي حقيقة « الموجود - لذاته » (le pour — soi) ، لا يمكنها أن تتضوع الا في عالم السلب الخالص ، بعبارة أخرى ، يتصور سارتر فكرتي الشر والحرية كقوتين سلبيتين لا يمكنهما التحول الى ايجابية الوجود الا بعد فعل التجاوز ، واذا كان التجاوز الساتري لا يقوم على قيم مفارقة لأنه مرتبط في جوهره بأخلاقيات تتحقق من خلال التاريخ ، فان الفيلسوف يرفض مبدأ المطلق الذي يجمد الخير ، في نظره ، في صورة القاعدة أو القانون ، وبالتالي يجعل من الشر فعلا ملازما بالضرورة للحرية ، بل ان الشر حرية في جوهره بقدر ما هو ثورة وخلق وابتكار . أضف الى ذلك ، ان الشر ، الذي يعد قوة من قوى الرفض والاحتجاج الكبرى ، لا يمكن أن يوجد في عالم المطلق لأنه ، مثل الخير تماما ، لا يكتسب أية قيمة أو معنى خارج الزمان البشري ، بل ان الشر ، أكثر من الخير نفسه الذي ينتمي لطبيعته الى النظام ، هو التاريخ ذاته أو محركه لانه عنصر تغيير وتحول . لذلك كله ، فالشر المطلق او الشر من أجل الشر لا وجود له في عالم الواقع ، هو تماما ، كالخير المطلق ، عنصر من عناصر الخيال وقوة من قوى « التعديم » (néantisation) الملازمة للحرية . واذا كان الأمر كذلك ، فان « مشروع » جينيه في تمجيد الشر المطلق يعد أقرب الى عالم الفن والأدب ، أي عالم الخيال ، منه الى دنيا الواقع والتاريخ .



ان الحد الحاسم في حياة جان جينيه يقع ، كما يبدو ، بين السنة العاشرة من عمره والخامسة عشرة ، اذ يفصل هذا الحد إبان هذه الفترة بصورة قاطعة وأليمة بين ماضيه وحاضره : بين ماضٍ تسود فيه البراءة والطهارة ، وبين حاضر كئيب يموت الطفل فيه ويولد اللص . وليس من شك في أن هذا الموت الرمزي للطفولة سوف يشكل ، بالنسبة لكاتبنا ، لحظة القدر المقدسة الرهيبة التي لا يكل من الحنين اليها ومن إحيائها في أشكال أبدا

(٢) نظرا لان القلق ملازم للحرية ، فان الانسان يحاول ان يتغلب عليه بنوع من الكذب على النفس يسميه سارتر « سوء النية » أو مجموعة من التبريرات والاعذار الخارجية وهي التي تشكل « روح الجد » ، أما « الاغتراب » فيربطه سارتر بقانون « الندرة » الاقتصادية وبالتالي بالمفهوم الماركسي للاغتراب ، والمقصود بـ « الممارسة - الجمادة » هو ارتداد الفعل المرصود صانعه الانسان وتكوينه لنوع من الممارسة المضادة ، فالانسان - مثلا - يخترع الآلة لتخفف عنه مشقة العمل وأعباءه الا انها سرعان ما تنقلب ضده وتخفضه لمنظية معينة ورتبية تجعله عبدا لها بعد ان كاد يظن انه سيدها .

متجددة^(٣) . ويقول لنا سارتر في هذا الصدد : « بعد أن يتوفى جينيه في سن مبكرة ، يظل يحمل بين جوانحه دوار اللحظة المشثومة ويتوق الى الموت من جديد . انه يستسلم ، بين حين وآخر ، لأزمات مطهرة تبعث اللحظة الساحرة الاولى وتسمو بها : على هذا النحو ، تتكرر لديه أمام الجريمة والاعدام والشعر والنشوى الجنسية واللواط مفارقة السابق واللاحق . »^(٤)

لقد كان جينيه « الطفل » ، قبل أن تمزق الجريمة كيانه ، يعيش في حالة من السعادة والنعيم تملئها عليه البراءة والطهارة وتحكمها خلجات الضمير الساذج المطابق لذاته ولكن في حالة من الشفافية التامة مع الآخرين . لقد نما جينيه في بيئة ريفية وعاش سنوات عمره الاولى في كنف نظام يقوم على الملكية ولا يتأكد فيه الوجود الأصيل الا بالامتلاك .^(٥)

ان الوجود يتشكل ، في هذه البيئة التي تسودها قيم الارث والملكية ، على أساس من اعتقادات الآخرين وآرائهم ، ويكون نتاجا لظروف المعاش الموضوعية أكثر من ارتباطه بأية اعتبارات شخصية أو ذاتية . بعبارة أخرى ، يكون الوجود هنا أقرب الى ما يسميه سارتر الموجود - في - ذاته (L'en — soi) الذي يعبر عن حالة التوضع والشيثية منه الى الموجود - لذاته ، وهو الوجود الواعي المدرك لذاته الذي تجاوز حالة التطابق التام والامتلاء التي تميز الاشياء . ومن هنا يشعر جينيه ، الذي تحدت ملامح شخصيته وفقا لتعابير الملكية ، بأنه بسبب طفولته الفقيرة المعذمة ، لا شيء ، بأنه مخلوق هوائي لا جذور له ولا انتهاء . ولكن هل في مقدور جينيه أن يعيش هذا الفراغ الجديد - المرادف للحظة الصحو - الذي يقضي عليه بالعدمية نظرا لافتقاره الى الملكية ؟ كلا ، لأنه

(٣) Mircea Eliade, Le sacre et le profane. Paris, Gallimard, 1965 أن اللحظة المقدسة المتجددة دوما ، تشبه الاحتفال الديني لدى القدماء ، فهي تبعث زمنا قدسيا أو أسطوريا لا ينتهي أبدا ويمكن أحيانا بصورة دورية . انظر المرجع ، ص ٦٠ .

(٤) Jean—Paul Sartre, Saint Genet, op.cit., p. 11 — 12 .

(٥) قلنا في بداية هذا البحث ان وضع جينيه جزء من فلسفة سارتر ونظريته التجريبية الى الامور . لذلك نراه يعالج المشاكل التي عاجلها في دراسته عن جينيه في مسرحيته : « الشيطان والله » ١٩٥١ . خذ مثلا فكرة تطابق الملكية مع الوجود : يقول « جوتز » بطل المسرحية للراهب « هاينرخ » :

« نحن لا نوجد ولا نملك شيئا . كل الاولاد الشرعيين يستطيعون الاستمتاع بالارض من غير ان يدفعوا . ما هذا أنت وأنا . انني منذ طفولتي انظر الى العالم من ثقب الباب : انه بهضة صغيرة جبلة ممتلئة حيث يشغل كل فرد المكان الذي حدد له ، ولكنني استطعت ان أؤكد لك بأننا لسنا في داخله .. » ص ٥٥

Jean—Paul Sartre, Le Diable et le Bon Dieu. Paris, Gallimard, 1951

(Livre de poche, p. 55)

وفقا لسيكولوجية سارتر الظاهرانية ^(٦) ، لا يستطيع أي شعور أن يعيش في حالة سلبية ، لأنه في جوهره فعل الحرية نفسها ودفعتها المتوجهة الى العالم لتشكيله وتزويده بالمعاني ، ومن ثم يتفتق لجينيه مخرجان يسمحان له بالتغلب على نقيصته الرئيسيتين : نقيصته في الوجود ونقيصته في الامتلاك . ان المخرج الاول ، الذي سيتيح له سد فراغات الوجود ، سيكون تقليد « القدسية » ، أما الثاني ، الذي يمكنه من تجاوز وصمة السرقة ، سيكون قبوله بحض ارادته القيام بدور اللص مع تفخيم نقائصه ومثالبه .

ان الأمر الذي يستهوي جينيه في ظاهرة القدسية هو تناقضها المزدوج مع الطبيعة والمجتمع اذ أن القديس شخص يذر الدنيا ومن عليها ليتبع المسيح . وليس من شك في أن اذلال النفس ، وتعذيب الجسد طوعية لا كرها أمران يعدها جينيه ضربا من الثورة « المعكوسة » ولونا من الرفض « المازوكي » . بالاضافة الى ذلك ، يوضح لنا جينيه هذا الموقف قائلا : « ان اعادة الحديث عن القدسية بمناسبة السجن والاقتضاء سوف يجعل أسنانكم تصطك لانها لم تألف الاطعمة الحامضة . ومع ذلك ، فالحياة التي أحيها تتطلب ألوانا من هجرة متاع الدنيا قريبة الشبه من تلك التي تطلبها الكنيسة من قديسيها . أضف الى ذلك أن القدسية تفتح عنوة بابا يطل على عالم الخوارق . ويمكن التعرف على القدسية كذلك من خلال قيادتها لنا الى السماء عن طريق الخطيئة . » ^(٧) أما بالنسبة لعملية السرقة ، فان جينيه يعدها نوعا من التملك الرمزي ، ويزعم سارتر أن جينيه حينما يسرق لا ينشد خرق القانون وإنما يسعى الى التوحد مع الآخرين والاندماج في جماعة الملاك . ولاشك أن جينيه يعثر هنا بفضل هذا الالتباس وهذه الازدواجية على وسيلة تؤكد توازنه النفسي وتبقي على وحدة شخصيته ، الا أن الأقدار كانت له بالمرصاد : اذ هناك مصيبة نكراء في انتظاره ألا وهي نظرة الآخرين .

ان نظرة الآخرين ، هذه النظرة الثابتة المطمئنة لجماعة الملاك ، تفاجيء جينيه وهو يسرق ، واذا بها تجمد أوصاله وتثبت كيانه الجديد القائم على اللصوصية ، وتضع حدا في الوقت نفسه لحياة سعيدة هادئة غافلة . ان

(٦) من المعروف ان سارتر حاول تحرير الشعور من عقبتين رئيسيتين : عقبة الرؤية الوضعية التي تشيء الشعور ، وعقبة الرؤية المثالية التي ترده الى مبادئ عليا أو سابقة . لذلك تعد فكرة التوجه أو القصد L'intentionnalite جوهرية لديه وفي الفكر الفينومينولوجي عامة . ويقول لنا فرنسيس جانسون في هذا الصدد : « ان القصد لا يعد كذلك الا بالمسافة أو البعد ، غير قابل الرد ، الذي يفصله عن موضوعه : حول الشيء الى معنى ، انزع عنه عتمته وغرابته ووجوده المباشر ، تجعله ، في نفس اللحظة ، معدا للوصول الى الشعور ، بل ان الشعور لم يعد الا هذا المعنى نفسه » . انظر المرجع التالي ، ص ١١٨

Francis Jeanson, Le probleme moral et la pensee de Sartre. Paris,

Ed. du Seuil, 1965, p. 118

Jean Genet, Miracle de la rose (Oeuvres Completes) (٧)

Paris, Gallimard, 1951, p. 255

جينييه يكرس لصا وهو في العاشرة من عمره ، الأمر الذي يدفعه - بعد اكتشاف حقيقته من قبل الغير - الى اتخاذ موقف موضوعي ، وذلك بتحويله مما كان عليه في ذاته ولذاته الى ما سيكون عليه بالنسبة للغير . ان حقيقته كسارق تتجلى له فجأة كما لو كانت حيا انبثق أمامه أو الهاما تكشف له ليدله على « جوهره » الاصيل الثابت ، فهو وان كان قد سرق فلأنه كان يحمل بين جوانحه طبيعة شريرة ترجع الى ما قبل ولادته . لقد أصبح جينييه ، من الآن فصاعدا ، أمام نظرات الآخرين وقريبا أمام نفسه ، تجسيدا للخطيئة ووجودا حيا للشر ، فلقد كان كل شيء ، ممكنا قبل فعلته التكرار ، أما الآن فلقد « زود بطبيعة وحرية مذبذبة وقدر . » (٨)

لقد أصبح جينييه ، بعد ادانته باسم الاخلاق ، « التقليدي » التي أتم استيعابها وأحسن استبطانها ، القاضي والمتهم والشرطي واللص على السواء . فهو ، بعد تصدع ضميره ، يقبل الصورة التي يرسمها له الغير كما لو أنها حقيقته الشخصية النابعة من داخله : هذه الصورة تحدده كشيء منفر وكريه وتقدمه في هيئة الشرير أو « الآخر » فالشرير ، في نظر الناس ، هو دائما الآخر . انه يقبل هذا الحكم ويشاطره كما لو أنه يخص شخصا غيره ، بل هو يذهب أبعد من ذلك اذ نراه يغرم بقضائه الذين يحددون هويته على هذه الشاكلة لأنه ، في الواقع ، قد اتحد مع المجتمع الذي يدينه وقبل حكمه الذي يوضع ذاته ويشيئها . ان جينييه يمثل الشر اذن لأنه الآخر الذي يخالف ما هو كائن وموجود . ولا شك أن الآخر يفترض ارادة هدم وتدمير لا يمكنها أن تظهر الا بعد الوجود أي بعد استقرار النظام ، ولكن اذا كان الخير والشر متعاصرين في نظر سارتر ، يمكن القول بأن الشر هو : « وجود اللا - وجود ولا وجود الوجود » ، انه السلب . يقول سارتر : « اذا كان الشرير سلبيا بالطبيعة والجوهر ، فهو شخص يدفعه القدر ، مهما كانت الأمور ، الى الايذاء دائما ، هو حر لارتكاب الشر ، والأسوأ مؤكدا دائما بالنسبة له . » (٩)



ان الشرير ، بالنسبة لسارتر ، يمثل الجانب البغيض من نفوسنا ، هذا الجانب الذي نلفظه ونسقطه على شخصية الآخر ، الأمر الذي يتيح لنا أن نموضع هذه الغواية التي تستحوذ على ألبابنا وأن نشيء هذا الامكان الذي يتجلى لنا في أجمل صوره وأوسع احتمالاته . ان الشرير ، وما يصاحب انبثاقه في النفس من خلجات غريزية ، يفجر لدينا ألوانا خبيثة من الحرية والغواية والاغراء التي لا تكف عن التسلط على مخيلتنا الا أننا غالبا ما نكتبها في ثنايا اللاشعور ، أو نجسدها في صورة شخص كرهه ينعت الناس في مختلف المجتمعات بنعوت عدة مثل اللقيط والغريب والمجرم وابن الحرام ، ويقول سارتر موضحا هذه الفكرة : « ان الشر ينتج أساسا عن الخوف

(٨) Jeab—Paul Sartre, Saint Genet, op. cit., p. 25.

(٩) نفس المصدر ، ص ٣٢ .

الذي ينتاب الرجل الفاضل أمام حريته ، لذلك هو نوع من الاسقاط والتطهير . هو دائما اذن متشبه . » (١٠)

ولما كان جينيه قد اقتنع بأنه الشرير ، نراه يحاول جاهدا التطابق مع هذا الكائن الغريب الذي قطن بين أحشائه والاتحاد مع هذه الصورة المتوضعة للآخر في دخليته ، وهكذا يستطيع جينيه ، ينوع من الحدس أو الإدراك المباشر ، أن يعيش في سريره صورة الشرير الذي يمثله بالنسبة للغير أولا وبالنسبة لنفسه أخيرا . ان هذا الموقف الدال على الاغتراب ، أي فقدان حقيقة الذات ، يجعل من جينيه « كائنا - متشبهنا » كائنا أنتويا ، الأمر الذي ظهر بجلاء في كلفه باللواط . الا أن هذه الأنوثة لن تعبر لديه عن موقف دائم اذ أنها سترتبط لديه ، في الواقع ، بفترة المراهقة وهي فترة التأثير والتشكل الكبرى لدى الانسان . من ثم يكف صاحبنا ، حينما يبلغ مرحلة الرجولة ، عن الوقوع تحت تأثير المجرمين ويقول معبرا عن ذلك : « اذا كانت خوارق الأشياء ، هذه الفرحة التي ترفعني الى قمم مورقة من الهواء النقي ، تنشأ في السجن من اتحادي بوجه خاص بعثة المجرمين الذين يرتادونه ، فأنني حينما أصبحت « ذكرا » فقد المجرمون رونقهم وبهاءهم . » (١١)

لا جرم أن تموضع الانسان هو أن يكون كما يريد له الناس أن يكون ، وأن يصبح وحيدا بغير اتصال ممكن من الغير . فقيم الكلام اذن وقيم الكتابة بالنسبة لصاحبنا ؟ ان الكتابة هنا ، في رأي سارتر ، لها وظيفة محددة : فهي لا تقيم اتصالا بينه وبين الناس او تنشئ تبرير سلوك أو موقف معين ، انها في واقع الأمر تؤدي وظيفة نرجسية ، اذ أن جينيه يسعى عن طريق الكتابة الى تخليد عذابه وآلامه ويبغي ترجمة معاناته الى كلمة سحرية تبلور حياته وكيانه جميعا . ان جينيه يقرر ، بعد ادانته والتصاق هوية اللص بشخصه ، ان يقلب الادوار وأن يقبل مسئولية وضعه الجديد كما لو أن قبوله أو رفضه يغيران من الأمر شيئا . ويحلو له أن يقول بصدد الجريمة وهولها : « ان الوسيلة الوحيدة لتجنب هول الهول هو أن تلقي بنفسك فيه . » (١٢) الا أن اعتناق مبدأ الشر في هذا الموقف لا يعبر عن ارادة حرة بالقدر الذي يعبر عن ثورة المضطهد اليأس ، فمن الواضح أن موقف جينيه هنا هو رد فعل العاجز الضعيف الذي حاول انقاذ ماء وجهه بأيسر الوسائل بعد عجزه عن تغيير الوضع القائم . وعلى هذا النحو يستبدل جينيه الحياة الفعلية بحياة خيالية وهمية وما أعمق قوله في هذا المعنى : « ان الحقيقة ليست من شأني . ولكن علي أن أكذب لأكون صادقا ، بل وعلي أن أذهب أبعد من ذلك . » (١٣)

(١٠) نفس المصدر ، ص ٣٩ .

(١١) Jean Genet, *Miracle de la Rose*, op. cit., p. 241.

(١٢) Jean Genet, *Notre—Dame—des—Fleurs*. (*Oeuvres Completes*)

Paris, Gallimard, 1951, p. 34 .

(١٣) نفس المصدر ، ص ١٣٥ .

يحاول جينيه أن يتطابق ، من الآن فصاعدا ، مع الفكرة التي يرددها الناس عنه ، وأن يقترب بقدر الامكان من الصورة التي يعتقد بأنها تمثل جوهره الأصيل . ولا شك أن هذا الموقف الارادي يتضمن تركيبا شعوريا قائما على القصد والتوجه (L'intentionnalite) كما يشمل تجاوزا ذاتيا للموضوع ، فكيفنا ، كما يذهب سارتر ، لا يتطابق تماما مع ذاتنا اذ علينا أن نتصوره أو نتخيله بطريقة ما . نحن دائما في موقف التساؤل بالنسبة لذاتنا ، كما يقول بحق . لذلك يجب على جينيه اذا أراد أن يطابق صورة كيانه مطابقة تامة أن يطرح على بساط البحث منهجه او طريقته في الوصول الى هذا التطابق . ومع ذلك لا يمكن اعتبار هذا « الكيان » الذي ينطلق جينيه بحثا عنه مجرد أثر سطحي أو رد فعل لاتهامات الآخرين ، على العكس من ذلك ، ان هذا الكيان هو نتاج مركب لثقافة عميقة الجذور ، وهو كما يقول سارتر : « جوهر بالمعنى الذي يتحدث فيه ديكاوت عن الجوهر المفكر ، انه روحه أو المبدأ الموجه لسلوكه ، انه « الانتيليخيا » (واقعه الاكمل) الخاصة به او شخصه بالمعنى اللاتيني للكلمة ، أريد أن أقول القناع والدور الذي حددت حركاته وردوده من قبل ، انه الآخر أوزار مسطرة عليه ، انه لا شعور ، كما هو الحال عند علماء التحليل النفساني ، يقترح ويأمر ويراغ ويبتل كل الاحتياطات التي تؤخذ ضده . » (١٤)

ولما كان هذا الكيان ذا طبيعة ثابتة ودائمة ، فان قيمته قائمة في ذاته : هو في الوقت نفسه الباعث والغاية والواقع والواجب . لذلك كان على جينيه أن يشبهه الى أقصى حد ممكن وألا يبتعد عنه قيد أنملة . أي أن يتمتع بحرية ويؤكد ذاته باقامة مسافة أو بعد بينه وبين كثافة الأشياء وعتمتها في نفس الوقت ؟ ان هذه الازدواجية بين الكينونة (L'être) وبين الوجود (L'existence) ، بين الموضوع والذات تقوم هنا على مبدئين : الأول يتصل بارادة الكينونة ، والثاني بارادة الفعل .

ان ارادة الكينونة هي الرغبة « الانطولوجية » التي يتطابق فيها الوجود الفعلي مع الوجود المدرك لذاته تطابقا تاما وشاملا . على هذا النحو ، يرغب جان جينيه في أن يكون اللص - مع ما تقتضيه هذه الكينونة من ملاء عند سارتر - وفي أن يكون واعيا بذلك مدركا له ، الأمر الذي يجعل من أفعاله وسلوكه مجموعة من الصفات المتضمنة في ماهية ، تماما كما تتضمن الماهية الوجود في فلسفة سبينوزا ، ويرى سارتر في هذا الموقف حالة أشبه بحالة المتصوف السلبية لأنها حالة انتظار وتوقع للمعجزة وان كانت ، مع ذلك ، تدعو الى قليل من الاستعداد والتأهب لاستقبال اللحظة القدسية التي تبشر بها . الا أن وقوع المعجزة أمر صعب المنال عند سارتر ، لأن الملاء الذي يحلم به الانسان ، ملأ الذات التي تتطابق فيها ماهيتها مع وجودها ، لا يتحقق أبدا ، والا صار الانسان كائنات متوضعا لا ارادة له ولا خيار . وبما أن ذات جينيه هي في قرارها نوع من اللا - وجود لكونها نزعة خالصة الى الشر ، فهي أبدا معلقة ولا أمل لها في الاتحاد بعالم الكينونة . لذلك نرى هذه الذات ، في آخر الأمر ، مضطرة الى بذل مزيد

من الجهد والى تقديم الفعل على التوقع والانتظار ، ومن ثم تتولد عند جينيه ارادة الفعل وتحتل مكان الصدارة بدلا من ارادة الكينونة .

ترتبط رغبة الفعل بقوة الارادة وديناميتها ، ويتلخص الموقف بالنسبة لجينيه في أنه يريد ما أراداه الغير له ، وفي أنه يقبل راضيا بل ومغتبطا المصير الذي حدد له . بعبارة أخرى ، على جينيه ان يريد الشر لأنه جوهره واقعه ، وحرى به كذلك أن ينزع الى « الكمال » في الشر لأنه كلما أفلح في بث المزيد من الهول والاستنكار حوالبه اقترب من جوهره الشرير وطبيعته البغيضة . بل وجدير به ، إمعانا في الحرص والتأكد ، أن يسبق هذه الطبيعة وأن يعطيها الفرصة كاملة لتحقيق نفسها في أتم صورها . على هذا النحو ، سوف تقوده هذه الطبيعة الشريرة الى ارادة الشر من أجل الشر ، والى التهالك على الجريمة والتبجح بارتكابها بطريقة تكاد تبلغ حد التهكم والاستهزاء . ولقد عبر الكاتب عن هذه المعاني جميعا في الصورة التي رسمها للقاتل « بيلورج » قائلا : « ان القاتل شخص يرغمني على احترامه ، لا لأنه مر بتجربة نادرة ، ولكن لكونه ينتصب فجأة في صورة اله على عرش ، وان كان هذا العرش مصنوعا من ألواح متحركة ، او قائما في الهواء اللازوردي . انني أتحدث ، بالطبع ، عن السفاح الواعي ، بل الساخر المتهم الذي يأخذ على عاتقه قبض الأرواح من غير أن يستند الى أية سلطة من أي نوع كانت ، فالجندي الذي يقتل لا يتحمل مسئولية ما ، ولا المجنون او الغيور أو الشخص المتأكد من الحصول على الغفران . أما الرجل الموصوم الذي يقف مترددا لحظة قبل أن يلقي بنفسه ، مثل مكتشف غريب ، في قرار بثر ، موثق الرجلين في قفزة تكاد تثير الضحك من فرط جرأتها ، فعلى العكس من ذلك .. » ^(١٥) ولكن ، في نهاية المطاف ، ماذا يريد جينيه بهذا المثل الزائف المضلل ، وما هي المعاني التي يريد أن يضمها هذا الحكم اللاخلفي ؟ انه يريد فقط أن يؤكد مسئوليته أمام العالم ، وأن يثبت حرية اختياره لمصيره في مجتمع الجريمة والمجرمين . ومع ذلك ، كيف يريد انسان مصيره وقدره وهما نقيض الحرية والاختيار ؟ وكيف يتصرف وفقا لذلك من غير أن يؤكد ذاته كموضوع ومن غير أن يفرغ أفعاله من مضامينها ويحوها الى مجموعة من الحركات النمطية والاشارات الثابتة ؟



حينما يلقي بجينيه في غيابة السجن ، نراه موزعا بين عالمين ، عالم الطباع والتقاليد البرجوازية التي راح ضحيتها ، وعالم عتاة المجرمين والأشرار الذين يحرقون من شأنه ويستأثرون باعجابه في الوقت نفسه . ولما كان جينيه عاجزا عن الاستئثار بحبهم وصدائهم ، نراه يشرع في حبهم من جانبه وفي القيام بدور المرأة العاشقة المعذبة . الا أن جينيه لا يبحث ، في الواقع ، هنا عن تبادل الحب والهيام وانما يسعى ، من خلال هذا الموقف المهين ، الى الاستمتاع بذاته ومطابقة كيانه عبر الآخر . يقول سارتر في ذلك : « ان الحب طقس سحري يسلب

فيه العاشق كيان المعشوق ويمتزج به . » ^(١٦) وليس من شك في أن الآخر ، الذي يلعب دور الوساطة بالنسبة لجينيه ، ليس الا صورته نفسها وقد تجسدت في هيئة رجل شرير قوي يمثل الشر ويجسده بين الناس . ان « الآخر » يتمثل هنا في صورة المجرم الأسطوري الذي يعد بمثابة تمجيد وتعظيم للقوي اللا - اجتماعية ، وبما أنه يقوم بدور الوسيط للشر على هذه الأرض ، فانه يسمح لكاتبنا بالاتصال من خلاله بجوهر الشر ومصدره الاول ، فالآخر ، الذي يحمل علامات دالة وسهات مميزة تكرس اختياره من قبل آلهة الشر ، يجسد هذا الجوهر أفضل تجسيد وأصدق ، وان ضميره ليدو لنا من جراء ذلك ، معنًا كثيفا فهو وحش كامل أو ، ان أردت ، تمثال من الرخام البارد الذي لا يعرف عاطفة أو شعورا .

ان هذا المجرم « المثالي » الذي يبعث الاقدار من لحودها ويثبت فيها من طاقاته المتجددة الجياشة روح الحياة ليس في واقع الأمر الا صورة معكوسة للحرية الايجابية البناءة وان كان يمثل ، بالنسبة لجينيه ، قمة الحرية في عالم الشر والسلبية . أضف الى ذلك أن هذه الحرية التي ترتبط بالأقدار هي أقرب الى الرمز منها الى الحركة الفعلية أو العمل المؤثر ، لأنها تقرر واقعا وتمثل اختيارا مسبقا ، من ثم تكتسب أفعال المجرم المثالي ، في نظر جينيه ، صفة جمالية ومسحة من الشاعرية الخطيرة التي تشبه في فعلها أثر الخمر على شارب غض الالهة . يقول جينيه في رواية « معجزة الورد » : « ان جرائم » هركامون « - قتل البنت الصغيرة سابقا وقتل الحارس مؤخرا - سوف تبدو أفعالا غبية . الا أن بعض الزلات اللسانية التي تظهر فجأة في الجملة تلقي الضوء على كوامن نفوسنا . اذ أن الكلمة المفاجئة سرعان ما تصبح أداة يتدفق منها الشعر وتعبق بها الجملة . ان هذه الكلمات تشكل خطرا على الفهم العملي للخطاب . وهكذا في الحياة بعض الفعال . فالأخطاء أحيانا - وهن فعال - تفجر الشعر . الا أن جمال هذه الفعال لا يقلل من خطورتها . انه من الصعب علي ، بل ولا يليق بي أن أعرض هنا حالة « هركامون » العقلية ، فأنا شاعر أمام جرائمه ولا أستطيع أن أقول الا شيئا واحدا ، وهو أن جرائمه تبث من الروائح الزكية ما يعطر سيرته وذكراه واقامته هنا الى أخريات أيامنا . » ^(١٧) ان المجرم ، الذي يبرز في هذا الاطار المثالي قريب الصلة ، في نظر سارتر ، بشخصية القديس اذ أن كليهما يتهالك على الموت : المجرم باندفاعه نحو الجريمة والقديس بتكالبه على التضحية . وفي كلتا الحالتين يكرس الموت قدرا : فالموت ، هذه النهاية الحتمية للبطل المأسوي ولكل حادث جليل ، يحول المجرم ، كما يحول القديس ، الى شيء نادر ، ويحيطه بهالة من الاجلال والوقار والهيبة .

ولما كانت هذه الصورة المثالية للمجرم هي التي تستحوذ على اعجاب جينيه وتقديره ، كان لزاما على هذا المجرم « المثالي » ان يحتفظ تجاه صاحبنا بكثير من الكبرياء وعدم الاكتراث حتى لا تضيع مهابته وحتى لا تلقي

Jean—Paul Sartre, Saint Genet, op.cit., p.,84 (١٦)

Jean Genet, Miracle de la Rose, op.cit., p.256 (١٧)

الالفة بعض الظلال على قوته وجبروته . لذلك نراه يكتسب صفات الرجولة والفحولة جميعا ومنها القوة الجنسية الخارقة ، الا أن هذا ليس معناه أن جينيه ينشد في علاقات الشذوذ والانحراف التي يقيمها مع هذا المجرم المضخم المفخم ضربا من المتعة أو لونا من اللذة الحبيثة الملتوية . على العكس من ذلك ، انه يبحث عن الآلام والعذاب : عذاب الجسد والنفس معا . يقول جينيه معبرا عن أحاسيس بعض أبطاله في هذا الصدد : « ان كولا فروا وغيفين ، المعروفين بذوقهما المرفه ، مضطران دائما الى حب ما يبغضان ، وهذا ما يشكل قدسيتهما بعض الشيء لأنه لون التضحية بالذات . » ^(١٨) ان هذا الالم ينتهي بموت الذات وفنائها الذي يوافق في واقع الأمر ، نقطة الاشباع عند الآخر . الا أن الموت المرجو - موت الرغبة بتحقيق اللذة - لا يتم ويبقى العاشق على وله وشبهه : فالآخر ، أي المعشوق ، موضع رغبة ابداء متجددة ، لأنها لا تكاد تتحقق فتذوي الا وتولد وترعرع من جديد ، الأمر الذي يحيط المعشوق بهالة من المثالية البعيدة ويجعل منه مصدرا لليأس والأمل على السواء . ان المعشوق ، أو الآخر ، يصبح مصدرا للأمل بالقدر الذي يخيل فيه للعاشق أنه سيعثر على ذاته في الاتحاد معه ، ومصدرا لليأس بالقدر الذي لا يمكن فيه لأية مساواة أو مطابقة أن تتحقق بين العاشق والمعشوق . ^(١٩)



ان عالم السجون يتميز ببروز فئتين من المجرمين : فئة الجبابة العتاة وفئة الضعفاء الاذلاء . تضم الفئة الاولى المجرمين الحقيقيين ذوي القلوب القاسية والطباع الفظة الغليظة الذين يتميزون ، في نظر المستضعفين أمثال جينيه ، بالتفوق الطبيعي والقوة الواضحة المفعمة ، وهي صفات تدل عليها سمات ملموسة وعلامات بارزة . الا أن هؤلاء المجرمين لا يبرزون بقوتهم الجسدية والعضلية فحسب ، وبألوان من القوة « المعنوية » التي يكتشفها الكاتب الوهان في قدرتهم الخارقة على تحمل الصعاب والمشقات وفي ثقتهم البالغة بأنفسهم ، وأحيانا - وهنا تكمن قمة المفارقة - في خيانتهم لأعز أصدقائهم ، ويشير جينيه الى هذه السمة الحبيثة على لسان احدى شخصياته فيقول : « قد يحدث أننا نمل موقف الخارج على القانون مع ما يتسم به من بطولة وتوتر فننضم الى جانب الشرطة حتى نلحق بالانسانية السلبية . » ^(٢٠)

أما الفئة الثانية ، فهي تضم المستضعفين وصغار المجرمين الذين يتميزون باللبونة والرخاوة ، ولقد وافقت هذه الصفة « الأنثوية » مرحلة المراهقة عند جينيه وهي المرحلة التي كان يخضع فيها لسيطرة عتاة المجرمين . ويقرن سارتر بين خضوع الضعفاء للأقوياء في ظل هذه الظروف بولاء التابع لسيد في النظام الاقطاعي ، الا أن هذا الولاء لا يخلو ، مع ذلك ، من المرارة والفصاة لارتباطه ارتباطا وثيقا بحالة السيد : فهو يقوي بقوته وحميته ، ويخجو

Jean Genet, Notre—Dame—des—Fleurs , op.cit., p.92. (١٨)

Jean—Paul Sartre, Saint Genet, op.cit., p.112. (١٩)

Jean Genet, Notre—dame—des—Fleurs, op.cit., p. 34 (٢٠)

بفتوره وارثائه . وغالبا ما ينتهي هذا الاحساس ، في تأرجحه بين الاعجاب الشديد والانسحاق أمام القوة ومن الغيظ الشديد والحقد المتأجج إثر فتورها ، الى نوع من العطف والحنان الذي يغمر العاشق ويتيح له تخطي حالة الاحباط وخيبة الأمل التي مني بها . فالإنسان ، كما يقول سارتور ، مهما بلغ من الجاهل والقوة أو من الفظاعة والبشاعة ، لا يمكنه أن يتحرر نهائيا من اسار الآخرين . (٢١) .

وإذا كان التقاء الذات بماهيتها عبر الآخر أو احياء النفس بالغناء فيه تعد من الامور الصعبة أو المستحيلة ، فان هذه الاستحالة عينها هي التي تحرر « جينيه » من أوهامه ، وهي التي ترده في عنف وخشونة الى وحدته الاولى . ومن ثم يبرز شقاء الكاتب ، من جديد ، الى السطح : فما الفعل ؟ وأي طريق يسلك ؟ انه سوف يسعى الى تبديل « شاهده » كما يذهب سارتور . في البداية كان جينيه يريد ادراك ذاته بطريقة موضوعية عبر الآخرين ثم العثور على هويته وطبيعته في نظرتهم اليه ، وأخيرا التوحد بالصورة التي يرسمونها له . أما الآن ، فهو يود أن يكون قديسا وشهيدا ، أي « موضوعا أمام شاهد مطلق » كما يقول سارتور . والشاهد المطلق ، هو الله سبحانه . الا أن الألوهية تمثل هنا ، بالنسبة لجينيه ، نوعا من الحلول الحارقة أو ضربا من المعجزات التي قدر لها ان تنقذه من عالم الانسانية البغيض . على هذا النحو ، ترسم صورة جينيه الجديدة في هيئة انسان معذب يلاحقه مجتمع ظالم بكل ألوان القهر والاستعباد . وإذا كان الله قد كتب عليه العذاب والشقاء في هذه الدنيا ، فلأنه يبتليه في جسده ونفسه حتى يصطفيه ويظهره ويرفعه الى مرتبة القديسين . (٢٢)

ان هذا التحول من الاجرام الى القدسية يبرز لنا الطابع الجدلي لاغتراب جينيه . فنحن نراه ، في البداية ، يبحث عن الفناء في الآخر أملا في العثور على ذاته وجوهره الأصيل من خلال تجربة الحب . الا أن الحب الاقطاعي الذي يكرسه جينيه للآخر ينتهي بسلب هذا الأخير كل احساس وشعور ، فالآخر لا يستأثر بالحب والتقدير الا بالقدر الذي يعلم فيه جينيه علم اليقين أن حبه عطاء خالص ولاؤه بذل وتضحية بلا مقابل . ومن ثم يتحرر جينيه لأن جنوحه الى التفاني ونزوعه الى العبودية بمحض ارادته من الامور التي تجعل من الآخر أداة طبيعة ومعبرا سهلا للوصول الى غايته . باختصار ، ان الارادة التي كانت تجعل من جينيه موضوعا سوف تحوله ، من الآن فصاعدا ، الى ذات والآخر الى موضوع ، وسوف يتمخض عن ذلك حصول جينيه على حريته التي كانت تخفي ، في قوارها ، رغبته في الوصول الى الكينونة وسكونها المطمئن المريح . بيد أن هذه الحرية المستردة سرعان ما تصبح عبئا ومصدرا للقلق . لذلك يندفع جينيه نحو حتمية أخرى : انه سوف يصبح واحدا من شهداء الانسانية أو قديسا من القديسين الذين اصطفاهم الله وقربهم اليه . الا أن هذا المخرج الجديد ، الذي يقود الى عالم

Jean—Paul Sartre, Saint Genet, op.cit., p. 129 (٢١)

(٢٢) نفس المصدر ، ص ١٣٣ - ١٤٠ .

الكيونة ، سوف ينتهي للأسف الى الفشل اذ أن أي شعور لا يمكنه أن يتطابق تماما مع نفسه والا فقد طابعه كشعور . ماذا تبقى اذن ؟ لم يبق الا طريق الفعل .

ان الفعل يمثل اختبارا لارادة جينية والزاما لحيته ، كما يعبر ، من جهة أخرى ، عن الجانب الدينامي لشعوره . الا أن ممارسة الشر تقود ، مع ذلك ، الى اللاوجود (٢٣) ، لأن الشر لا يمكن أن يكون في هذا المقام الا نوعا من الحرية المغترية ، فالشر هو تقرير الآخر وهو الصفة التي يطلقها رجل الخير على فعل المجرم . لذلك لا يمكن للشر أن يصل الى مرتبة الايجاب أو الى استقرار الكيونة ، لأنه نقيض الخير على الدوام . ان الخير ، مهما فعل جينيه ، يبقى الأساس والبدية . ويقول سارتر في هذا الصدد : « أكبر الشرور هو أن تعرف الخير بوضوح وأن تولد طيبا مثل أي مخلوق بشري ثم ترفض هذا النور وتنغمس عمدا في الظلمات . » (٢٤) لذلك جرى العرف على أن الشرير الحقيقي هو الذي يرتكب الشر لينقض الخير ، أما اذا ارتكب الشر تلذذا به أو بدافع العاطفة الخالصة فهو لا يعد شريرا وانما رجل مريض أو معتوه خطير .

ان ارادة الشر عند جينيه هي ارادة العذاب ورغبة في تجاوز الأهوال التي يثيرها بالانغماس فيه . يقول الكاتب : « لكي تفلت من الهول ، عليك ، كما قلنا ، ان تنغمس فيه حتى العينين . » (٢٥) ولاشك أن هذا الانغماس الارادي في الشر يعطي جينيه احساسا بالحرية ، لأنه اذا كان الخير هو الأساس والقاعدة الموضوعية العامة ، فان الشر يصبح الانحراف والعلامة المميزة للحرية الفردية . ان الشر هو غواية الحرية ، كما يذهب سارتر بحق . غير أن الشر ، في الواقع ، لا يتجاوز نطاق الحرية الزائفة التي لا تولد الا سرايا وأوهاما . يرتبط الشر هنا اذن بعالم الخيال ، ومن ثم تقوم الحرية الفردية ، التي تتحقق من خلال الشر ، برد جينيه الى وحدته الاولى وإلى الفشل مرة أخرى . الا أن الفشل في عالم الفعل والواقع غير الفشل في عالم الوهم والخيال ، ومن ثم كان ابدال الهدم الفعلي للوجود بلون من الهدم الخيالي طريقا من طرق الوصول الى الفن وتصورا جماليا معينا للوجود ، مهما كان تقديرنا لهذا التصور وحكمنا عليه . يقول سارتر : « لقد كان جينيه مولعا بالجماليات لمدة عشر سنوات ، ولم يكن الجمال يمثل ، بالنسبة له ، في البداية غير حلم حقوق بالدمار الشامل . » (٢٦) الا أن جينيه كان يريد

Jean—paul Sartre, L'etre et le Neant. Essai D'ontologie (٢٣)

phenomenologique. Paris, Gallimard, 1943, p. 50

يقول سارتر : « اللاوجود ليس عكس الوجود وانما ما ينقضه . الامر الذي يتضمن التبعية المنطقية للعدم بالنسبة للوجود ، لانه الوجود موضوعا ثم منفيا » انظر المرجع المذكور ، ص ٥٠

Jean—paul Sartre, Saint Genet; op.cit., p.149 (٢٤)

Jean Genet, Notre—Dame—des—Fleurs, p.61. (٢٥)

Jean—Paul Sartre, Saint Genet, op.cit., p.155 (٢٦)

قبل الوصول الى هذه المرحلة الجمالية ، بلوغ مرحلة الشر المطلق المناقش للخير المطلق ، وهي مرحلة لا يستطيع بلوغها انسان الا بارتكاب الكبائر من المعصيات .

حينما يفقد جينيه ايمانه تنفصم عراه بكل قاعدة دينية ، وتضيع كل امكانية له في التذوق أو الارتقاء الى السماء ، من ثم نراه منفلقا على نفسه ، متخذا اياها المصدر الأساسي للخير والشر ، الأمر الذي يقيم فعل الشر لديه على أسس واضحة ويربطه بأسباب وبواعث ارادية ومقبولة . ان جينيه المسكين يريد ايداء نفسه عن طريق ايداء الغير ، ويبحث في الواقع ، عن لذة احتضارذاته عبر موت الآخرين . الا أن هذه الطريق الملتوية لا تقود ، هي الأخرى ، الى الشر المطلق ، لأنها محكومة ، في الحقيقة ، بنية الفعل . ولما كانت هذه النية تدفع كاتبنا ، كما يذهب سارتر ، الى الذلة والمهانة ، فهي لا تؤكد ذاته كحقيقة مستقلة وانما كلون من نفاية مجتمع مكرس للخير . ما الفعل اذن ؟ وكيف يمكن الوصول الى الشر المطلق ؟

هنا يبرز احتمال جديد : ألا وهو تحقيق الشر عن طريق الخيانة . يقول سارتر : « لقد اكتشف جينيه الشر المباشر والمأسوي ألا وهو الجريمة . لذلك لن يكون مجرما قط ، انه سيصبح فقط جرثومة الجريمة واحدى طفيليات الشر القارضة . ان الخيانة ، بلا شك ، جرم طفيلي ما دامت تقوم على جرم آخر . انها جريمة من الدرجة الثانية ، او بعبارة أخرى جريمة انعكاسية ، وهذا هو بالضبط مأرب جينيه . لقد عقد عزمه : انه سيصير خائنا . » (٢٧) الا أن الخائن لا يكون كذلك الا بحكم المجتمع . ومن ثم تحدث الخيانة ، وهي سمة بارزة من سمات المجتمعات المتفككة ، صدعا في ضمير جينيه واحساسه اذ أنها تنقل نظرة الغير الى سريرته معبرة بذلك أصدق تعبير وأبلغه عن الطبيعة المتوضعة المشيئة لجماعة الأشرار التي لا يمكن أن يقوم بين أعضائها أي ائتلاف أو ارتباط خارج نطاق الشر وعلاقاته السلبية . لقد دفع جينيه دفعا الى سلوك طريق الخيانة بسبب وقدة ذكائه وطبيعته الشاعرية المتقلبة وكلفه بالمتناقضات والمفارقات . الا أنه ، مع ذلك ، سوف يجعل من الخيانة اختيارا حقيقيا ونهاية سامية أو غاية مثلى لفعل الحرية . ان الخيانة ستصبح في حياة جينيه ، كما يقول سارتر : « دنسا وشرا ، مفارقة لخطئة غريبة ومعاناة روحية . » (٢٨) ان الخيانة دنس ، كما يذهب الفيلسوف ، لأنها تقوض دعائم المجتمع وهو يعد ، في المفهوم الوضعي والبرجوازي ، أساس القدسية ومنبعها . والخيانة كذلك ضرب من الشر لأنها ، في نظر سارتر ، تفجر قوة الكلمة وسحرها في عملية الوشاية ، والخيانة مفارقة عجيبة غريبة لأنها تفرق بين الأصدقاء وتقضي على أواصر المحبة وشائج الزمالة والأخوة وهي ، أخيرا ، لون من المعاناة لأنها تتطلب ، على طول المدى ، مرانا شاقا وعسيرا وخبرة عميقة بالضعة والانحطاط .

(٢٧) نفس المصدر ، ص ١٦٤ .

(٢٨) نفس المصدر السابق ، ص ١٧٢ .

بيد أن امتزاج الحرية أو الإرادة بالشر يقود حتماً إلى عالم من الوهم والخيال إذ يقول لنا سارتر: « القضاء على الكينونة هو ردها إلى الوهم الخالص ، وتحويل الشر إلى عجز هو تحويله إلى مظهر خداع والبحث عن حياة مستحيلة هو قضاء العمر جرياً وراء انتحار وهمي ، والتعرف على الذات في صورة السلبية المطلقة هو ادراك بأن محاولة تدميرها في سرائرها هو تظاهرها أمام أنفسنا بأننا المدمرون . »^(٢٩) باختصار ، إذا كان فعل الشر يقصد تحقيق جبلة شريرة يعد أمراً مستحيلاً ، وإذا كانت الخيانة تجعل من الشر وهماً خالصاً ، فإن ارتكابه - نتيجة لذلك - لا يمكن أن يتم إلا بكثير من المعاناة وعذاب النفس .

نحن على طريق القدسية ، لأن الرغبة في الشقاء والبحث عن ترف العذاب المجاني هما في نظر سارتر سمات موقف القديس أو الشهيد . أضف إلى ذلك أن الإحساس بالقدسية لدى جينيه مرتبط بعملية خرق القوانين والأعراف ، وهي العملية التي تتصل في نظر كاتب مثل جورج بطاي بمبدأ السيادة ، إذ أن خرق القانون في سبيل الوصول إلى وهم السيادة هو نوع من التحدي للمجتمع ووسيلة لاستفزازة ودفعه إلى البطش بشخص المتحدي . غير أن هذا الموقف المتناقض لا يزعم جينيه على الإطلاق ، فهو الذي يجعل منه بطلاً مريداً وضحية وشهيداً على السواء .^(٣٠)

إن العلاقة التي تربط بين القدسية والسرقة تقوم عند « سارتر » على مفارقة غريبة ، فهو يقيمها على مبدأ الاستهلاك أو التبدد ، فالقديس ، كما يذهب الفيلسوف ، يضحي بجسده مبرهنًا بذلك على تفاهة القيم الانتاجية ، والمجرم ، بتدميره لخيرات المجتمع وممتلكاته ، يعطي الأولوية للاستهلاك على الانتاج . إن القدسية ، في هذا الإطار ، ظاهرة اجتماعية تنشأ في مجتمع لا يمثل فيه العمل غاية أو قيمة في ذاتها ، وإنما يشكل نوعاً من « الوساطة » نحو السلع الاستهلاكية ، وذلك مرده أن العملية الانتاجية لم تصل بعد في هذه المجتمعات « الاقطاعية » إلى مرتبة الأهداف والغايات التي تشكلها بالنسبة للمجتمع الرأسمالي الحديث ، ومن ثم ارتبط الاستهلاك في هذه المجتمعات المتخلفة بالصفوة الاجتماعية ، وكان إحدى ركائزها في التألق والظهور . ويرى سارتر أن القديس أو اللص يمثل كلاهما سلعة من السلع الاستهلاكية التي تروج في هذه المجتمعات فهما مكرسان للدمار كما تكرر النخبة الاقطاعية التي تقوم فيها على مبدأ الهبة والعطاء . وبما أن الكنيسة قد ورثت ، في نظر سارتر ،

(٢٩) نفس المصدر ، ص ١٧٦ .

(٣٠) Georges Bataille . La littérature et le mal . Paris . Gallimard .

(Ideas) 1957, p. 204

إن السيادة التي يربطها جورج بطاي بالقدسية تظهر في عملية نفق المحرمات نفسها وتجلى القدسية في روح التضحية ، ويكاد يجعل هذا الكاتب من جينيه رائداً من رواة الصوفية : « أن جينيه يبحث عن الضمة حتى ولو لم تجلب له إلا الآلام ، هو يريد الضمة لذاتها ، بعيداً عن الراحة التي تولفها له ، أنه يريد بها بحثاً عن دفعة سكرى نحو الانعطاف ، دفعة لا يقل ضياعه فيها عن ضياع الصوفي في نشوته . » ص ٢٠٤ .

روح التضحية والعطاء عن هذا المجتمع الاقطاعي ، فان القديس سيكون - لا محالة - في تصورها على شاكلة النبيل أو الإقطاعي الذي يدفعه كرمه الزائد الى تبديد أمواله وممتلكاته كما يدفعه ولعه بالمخاطر الى حتفه . ان القديس هنا له ، مثل النبيل ، نزعاته المدمرة : فهو بطل ينكر القيمة المادية لهذا العالم كما يبحث عن تبديد ثرواته والقضاء على كل مظهر من مظاهر الحياة فيه . ويرى الفيلسوف في هذا الموقف الراقض سواء من قبل النبيل أو القديس موقفا سلبيا من حركة الحياة ومسار التاريخ كما يرى فيه تبديدا للثروات التي جمعها الكادحون . ان القديس ، في كل الاحوال ، يقلب القيم رأسا على عقب : فهو يحول الفقر الى غنى والغنى الى فقر والحياة الى موت والموت الى حياة . واذا كان جينيه من القديسين ، فهو لاشك قديس بهذا المعنى .

الا أن ظهور طبقة التجار سوف يغير من طبيعة هذا المجتمع ، لأن الشخصية البرجوازية ، في نظر سارتر ، سوف تجلب معها مثلها الأعلى الذي يتلاءم مع الظروف الموضوعية للمجتمع الجديد . لذلك سوف تحل ، من الآن فصاعدا ، فكرة المهارة الفردية والاستثناء محل فكرة الشمول التي كانت تثقل نتاجا لجدلية الرفض والبذل ، وسوف تفرض روح الفردية مفاهيمها في الحياة والوجود : فبدلا من الصعود الى السماء سوف ينزع الفكر الى الهبوط على الأرض ، أي أن الواقعية ستلفظ المثالية . كذلك سوف تسلك المعاناة الجديدة نفس الطريق ، أي أنها ستكون موجهة الى الدنيا وليس الى الآخرة . ان المعاناة القديمة كانت ، بسبب طبيعتها المثالية ، نغيا للحدود البشرية وبالتالي تأكيداً لحقيقة ثابتة واحدة ألا وهي الأبدية والمطلق . لذلك كانت تعد الطريق الوحيدة التي تؤدي الى طمأنينة الكينونة وسعادتها المستقرة . اما المعاناة الجديدة ، فهي تقود من العالم المثالي ، وهو الواقع الصادق الوحيد في هذا التصور ، الى فراغ واقعا على هذه الأرض . بيد أن تدمير الثروات المادية الذي يقوم به جينيه ، على العكس من سلوك البرجوازي الذي يعمل على تراكم هذه الثروات مع تأجيل الاستمتاع بها خاصة خلال فترة الزهد والتقشف التي ربطها ماكس فيبر^(٣١) بظهور العقلية البروتستانتية ، هو في واقع الأمر تمجيد للمادة واجلال لها على حساب المفاهيم الشمولية والمبادئ المثالية . الا أن موقف جينيه يظل ، مع ذلك ، غامضا وغريبا ، فهو في نزوعه الى التدمير والتخريب ينتهي بتأكيد نوع من المثالية المعكوسة التي يصل اليها الانسان

(٣١) Max Weber, L'éthique protestante et l'esprit du capitalisme.

Paris, Plon, 1964, pp. 203—253

ان فترة التقشف والزهد التي يربطها ماكس فيبر بمرحلة تراكم رأس المال توافق العقلية البروتستانتية ، وخاصة الجناح الكالفيني منها ، وهي العقلية التي ترى في تراكم الثروات علامة من علامات الرضا والاختيار الالهي . على هذا النحو ، يتطلب التراكم تأجيل الاستمتاع الذي يعد نوعا من التبريد ويصبح الزهد هو غياب المتعة . الا أن هذا الزهد يظل ، مع ذلك ، قائما على تقدير المادة واجلالها وان كان ينزهها عن التبريد . والزهد عند جينيه لا يخرج ، في نظر سارتر ، عن هذا الإطار ، فهو وان كان يقوم بتدمير الثروات المادية وجسده على السواء قائما ينطلق في ذلك من مبدأ تقديسه لها .

عن طريق الخطيئة واذلال النفس . الا أن تبديد الثروات وافناء الجسد أمران متساويان في نهاية المطاف ، إذ أن تعديم العدم ، وفق المنطق السارترى ، هو تأكيد العكس ، أي الرجوع الى الكينونة وإلى عالم الایجابية . (٣٢)

ان جينيه يبحث اذن عن افناء ذاته ، او بعبارة أخرى عن تحقيقها كعدم خالص . الا أن هذه الارادة ، التي تقوم على مستوى الفعل والوجود ، تنزلق دائما لديه الى مستوى الكينونة والملاء ، فهو في واقع الأمر يعيش ادراكه أو شعوره على نمط التوضع والشيئية ، ويتجاوز رغبته في أن يمثل الارادة الحرة للشر الى نزوعه نحو تجسيد جوهر الشر نفسه ، وهذا يعد ضربا من الاختيار المستحيل ، لأن الخير وحده يملك المقدرة على الوجود الكثيف المطابق للكينونة . ان هذا الموقف المتأرجح بين الفعل والكينونة يذكر بالخلاف العقائدي او الديني المشهور من أتباع الراهب « مولينا » (Molina) المثل الأعلى ليسوعيين ، وبين أتباع القديس « أوغسطين » (St. Augustin) . ان الأوائل كانوا يؤمنون بنجاة النفس البشرية عن طريق الاعمال الخيرة بينما أتباع القديس « أوغسطين » يعطون الاولوية الى الايمان وإلى اختيار الله المسبق . ولا شك أن هذا الموقف الأخير يؤدي الى السلبية وإلى مذهب « السكونية » (Le quietisme) الذي اشتهر به الكاتب الديني الفرنسي « فينلون » (Fenelon) ، كما أن الموقف الأول يقود الى نوع من النفاق وروح المساومة ، الأمر الذي دفع كاتباً كبيراً مثل « باسكال » (Pascal) الى نقد اليسوعيين وتجريحهم في القرن السابع عشر . باختصار ، نرى ان جينيه لا يستطيع أن يتخذ موقفا واضحا ، فهو كما يقول سارتر : « اختار الضياغ بواسطة الاعمال والايمان على السواء . اما طرافته فتتلخص في رغبته في أن يكون وحدة لا تركيبية لتناقضاته الشخصية . » (٣٣)



بعد تحديد المشروع او الاختيار الاول وهو بالنسبة لجان جينيه تحويل حكم المجتمع عليه من قدر وقوة ضاغطة من الخارج الى رغبة وارادة ذاتية محضة ، يشرع سارتر في وصف حياة الكاتب الداخلية وتحديد قواها الذاتية . ولا شك أن موقف الفيلسوف الوجودي واضح في هذا المجال : فهو لا يقبل أن تكون الأقدار او الظروف الخارجية قوة مؤثرة في ذاتها ، هي في رأيه ، لا تؤثر الا بمقدار ما تقبل ذاتية او ارادة ما أن تخط لنفسها حدودا معينة . لذلك اذا كان جينيه يقبل الظروف الموضوعية التي تدبته وحكم المجتمع الذي موضعه في صورة المخلوق الدنيء ، فهو - لاشك - يتجاوز ذلك كله على مستوى الخيال ، ومن هنا تتولد براعم العمل الفني .

حينما يلفظ المجتمع والانسانية جينيه ، فانه يلفظها بدوره ، وحينما يحكمان عليه بالتوضع والسلبية

(٣٢) Jean — Paul Sartre, Saint Genet, op. cit., pp. 193—215

(٣٣) نفس المصدر ، ص ٢٣٤ .

فانه يستبطن هذا الحكم حتى يكون نابعا من ذاته . ولما كان جينيه لا يشاطر الناس حياتهم ومعيشتهم ، فان مظاهر الحياة لا تتعدى بالنسبة له ، تسلسل الأحداث الاعلى والتصاق الاشياء بالمعاني بطريقة عشوائية . باختصار ، لقد أصبح جينيه وحيدا ، فالاشياء لا تخاطبه ولا تقيم بينها وبينه أية علاقة عملية أو نفعية . ان الاشياء تكتفي بالنظر اليه ، ويرد صورته اليه في مرآة قدره . ولما كان الناس قد حكموا عليه بالصمت ، فانه أصبح من واجبه ألا يتكلم أو يعبر عما يجيش في صدره لأن كل اتصال بينه وبين الغير أضحي مستحيلا . بيد أن جينيه يتكلم ، مع ذلك ، ويكتب . ولكن فعل الكلام او الكتابة يكتسب هنا - لاشك - معنى جديدا : فهو اذا كان يتكلم فذلك مرده الى أن الكلمات تمثل بالنسبة له وظيفة أخرى غير تلك التي تعارف الناس عليها . ان حياة الكلمات عند جينيه لا تتعدى تراكيبها الصوتية التي تلتقطها الأذان وأشكالها وصورها التي يبرزها عالم الكتابة ، هي بدلا من أن تربط بينه وبين الناس وبدلا من أن تقوي عرى التفاهم والتواصل بينه وبينهم نراها ، على العكس من ذلك ، تضفي على الوجود هالة سحرية وتغلف واقعه المتدني في غلالة من الشاعرية الحاملة . يقول جينيه في هذا المعنى : « كانت الكلمات تسترد معها ، في نهاية الأمر ، جاذبيتها كعلب فارغة من كل شيء ، علما ما يكتشفها من غموض وأسرار . فالكلمات التي أحكم غلقها والتي أطبقت على أسرارها ، كانت حينئذ تفتح تتدفق منها المعاني في دفعات وثابة تترك الانسان حائرا . كلمة (philtre) مثلا (شراب المحبة) ، وهي كلمة سحرية ، كانت تقودني الى الفتاة العانس التي تصنع القهوة وتزجج بها الشيكوريا ، وكلمة (filtre) (المصفأة) كانت تعود بي عن طريق روااسب القهوة (هذه حركة حواة) الى السحر . » (٣٤)

ان اللغة تفقد ، على هذا النحو ، مع جينيه ، وظيفتها الاجتماعية ، فهي بدلا من أن تلقي الجسور بينه وبين الآخرين ، وبدلا من أن تقيم علاقات متوازنة بين ذاته وبين التنظيمات الاجتماعية ، كانت تزيد من عمق الهوة التي تفصل بينه وبين المجتمع . واذا كانت اللغة تقوم ، هكذا ، على الفرقة وسوء التفاهم ، فهي - لاشك - ستصبح وسيلة من وسائل الكذب والرياء . بمساعدة هذا التصور اللغوي ، يقول سارتر ، : « يستطيع جينيه أن يضفي الوجود على العدم وأن يبقى ، باصرار ، في دنيا الظلال أي في عالم الشر . » (٣٥) وليس من شك في أن هذه اللغة ، من جهة أخرى ، لا يمكن أن تكون لغة الناس جميعا ، انها لابد أن تكون لغة خاصة . لذلك تعد لغة « الأرجو » الشعبية (L'argot) أفضل لغة تقوم بهذا الدور الهامشي القارض . ان « الأرجو » سيكون ، على وجه التحديد ، لغة المجرمين الحقيقيين ، لغة العتاة وليس لغة المستضعفين و « الاناث » . يقول جينيه : « كان للخالات ، في الطابق العلوي ، لغتهن الخاصة . أما الأرجو فكان يستخدمه الرجال . انه لغة الذكور . لقد

Jean Genet, Notre—dame—des—Fleurs, op.cit., p. 73 (٣٤)

Jean—Paul Sartre, Saint Genet, op.cit., pp.265 (٣٥)

كان - مثل لغة الرجال عند سكان منطقة الكارايب (Les caraibes) - رمزا جنسيا اضافيا . لقد كان يشبه الالوان الزاهية مثل ريش ذكور الطير وملابس الحرير المزركشة التي يرتديها محاربو القبيلة فقط . لقد كان غرة وهمازات . وكان كل الناس يستطيعون فهمه ، الا أنه لم يكن يتكلمه الا الرجال الذين وهبوا ، منذ يوم ميلادهم ، الاشارات وحركة الاردا ف والساقين والاذرع والعيون والصدر التي يستطيعون بها أن يتكلموه .. » (٣٦) ان اللغة عند جينيه تكتسب ، بسبب معارضتها للاستعمال العام ، قيمة شاعرية وخيالية عالية ، فهي ، كلغة الاحلام ، تجسد العدم وتضفي على الأوهام كثافة الواقع . وهي ، من جهة أخرى ، مثل الوشم ، تمثل رمزا لا تتقاء معكوس . ان الشاعرية البالغة لهذه اللغة تكاد ترتفع بها ، وفقا لتصور جينيه ، الى مرتبة القدسية ، فهو يريد أن يستلهم من خلالها ، عن طريق الوحي والتلقي ، كيان اللغة نفسه وجوهرها المكنون . » (٣٧)

واذا كان جينيه يبحث عن التوضع في اللغة ، فهو يسعى كذلك الى التوضع والضياغ في التاريخ ، فهو في الواقع ، بعد وقوع اللحظة الحاسمة ، لحظة الجريمة ، قد فرغ التاريخ ، الذي يعتبره سارتر مجالا مفتوحا للحرية الخلاقة وللارتجال والابتكار والمخاطرة ، من كل مضامينه . ان التاريخ يصبح ، من خلال تصورات جينيه السلبية ، مجموعة من الاحكام القبلية والحقائق الكلية الكامنة في الوجود . لذلك نرى أن وقائع الحياة وأحداثها لا تغير ، في نظر جينيه ووفقا لأمنيته ، من طبيعته شيئا ولا تمس صفاء جوهره الشرير . ان الاحداث لا تقدم جديدا في نظره ، وانما تكشف النقاب فقط عن ضرورة حدوثها وحتمية صيرورتها ، الأمر الذي يجعل من الحياة مجموعة متكاملة من الاشارات والرموز التي تدعو الى التوقع والتفسير ، وليس الى الفعل والابتكار . الا أن الاشارات والرموز لا يمكنها - للأسف - الا أن ترد هذا الكاتب المتخبط الى عالم الوهم والخيال . ان الاشارات (Les gestes) ، وهي - في تصور سارتر - سمات الافعال الخارجية وأشكالها الظاهرة ، تؤدي الى الشر بقدر ما يدفعنا هذا الفن الى اعتبار مادة اللغة من صوت وجرس ونغم غاية في ذاتها . انها لما كانت تستبعد حركة الحياة وجيشانها الخلاق المتفجر تنتهي بالغاء الزمن والتاريخ وبقتل كل روح للابتكار وتفجير المواقف او الظروف الجديدة . الا أنها بردها جينيه الى الشر تسمح له بتجاوز موقفه الفعلي وتحويل الشر الواقع عليه ويهدد بتدمير حياته الى شر خيالي ، ومن ثم تفتتح أمام الكاتب مجالات جديدة تتيح له التطور من مفهومه النفسي والادبي ، ان صح هذا التعبير ، للشر الى مفهوم جمالي .

ان المرحلة الجمالية تتيح للكاتب تجاوز ما يسميه سارتر « أخلاقيات الشر » التي ثبت فشلها وعجزها عن اكتشاف قيم بناء وإيجابية . وتتميز المرحلة الجديدة بسيطرة أحلام الشر وخیالاته التي تراود جينيه . ولاشك أن

Jean Genet, Notre—dame—des—Fleurs, op.cit., p.39 (٣٦)

Jean—Paul Sartre, Saint Genet, pp. 262—282 (٣٧)

الحلم هو لون من التصور الكاذب أو الوهم ، هو يريق الأشياء أو ظاهرها الخادع المراوغ ، لذلك لا يخرج الشر الذي يرتبط بهذا العالم الوهمي المتحرك عن كونه نفيا لطيبة الوجود وإيجابيته . غير أن ارتباط الشر الوثيق بالعدم والخيال يسمح ، مع ذلك ، لجينيه بتجاوز شقائه الفعلي وعذابه المضني بما أوتي للخيال من قدرة على الغاء الواقع وتحويله الى لون من التمثيل واللعب . وهكذا يستطيع جينيه أن يأمل وأن يصون ماء وجهه وأن يحول « رغبة الفشل » التي كانت تسيطر عليه الى مجد وانتصار» (٢٨)

ان الخيال ، في نظر جان - بول سارتر ، طاقة هائلة قادرة على انقاذ البشرية ، فهو في جوهره قوة « تعديم » كافية لانتزاع الانسان من سجن الكينونة ويراثن الواقع المؤلم . ولقد تضوع جينيه في هذا العالم الخيالي الذي يقوم على العدم والاكاذيب وعلى مظاهر الحياة الخادعة ، وأصبح ملكا من ملوك الزيف والتصنع . ويذهب سارتر الى أن حب الزيف والتقليد هو نتاج المجتمع الصناعي الذي تتغلب فيه الصناعة أو اللا - طبيعة (L'antiphysis) على كل ما هو أصيل وفطري وأولي . ان الفن الأصيل ينقرض في هذا المجتمع اللا - ارستقراطي وتتلشى معالمة أمام تطور المنتجات الصناعية بسبب غلبة الآلة وقضائها على روح الابتكار الفردية . الا أن جينيه لا يبحث في الصناعة عن كمال التقليد أو عن عبقرية الانسان الذي يحاكي الطبيعة . انه يبحث فيها ، في واقع الأمر ، عن صورة ذاته المصطنعة وكيانه الزائف ، وينشد عالم المظاهر الخادعة والذوق الرديء لأن حريته المجردة الفارغة تتضوع في هذا العالم الخيالي وتدفعه - بطريقة جنونية - الى اضعاف صفات الملاء والكثافة التي تتميز بها الكينونة على عالم العدم . ان الخيال يقوم هنا بدور النرجسية التي تتيح لجينيه جمع الشتات المتناقضة لشخصيته في وحدة وهمية وتسمح له بالابقاء على ازدواجية نفسيته الجذرية . (٢٩)

الا أنه اذا كان العدم يلعب دور البديل الخيالي أو الوهمي للواقع عند جينيه ، فانه لا يستطيع أن يشبع اشباعا كلياً جميع رغباته او تحقيق كل أحلامه . وفي نهاية الأمر ، نرى أن الواقع هو الذي يتبدل ويتحول الى مجموعة زائفة من الاشارات والرموز السحرية الجميلة . لذلك سرعان ما تنتاب الكاتب أحاسيس اليأس وخيبة الأمل حينما تنتهي اللحظات النشوى وتتكشف له حقيقة الواقع المؤلم . يقول جينيه معبرا عن هذا المعنى : « أن لحظات الانبهار قد انتهت وبدأت أعرف الأشياء بصفات العملية ومن ثم صارت أدوات هذا المكان ، بعد أن أذابتها عيونني ، شاحبة هزيلة ، ولم تعد تدلني على السجن ، لأن السجن صار في داخلي وأصبح يتكون من خلايا أنسجتي » (٤٠) ان هذه المرحلة الخيالية ، التي كانت تسيطر على عقلية جينيه المراهق ، كانت تدفعه الى تحويل تصوره للشر الى مفاهيم جمالية ، غير أن هذه المفاهيم كانت سرعان ما تنهار لأنها لا تشكل مبادئ

(٢٨) نفس المصدر ، ص ٢٣١ - ٢٣٤ .

(٢٩) نفس المصدر ، ص ٢٤١ .

Jean Genet, *Miracle de la rose*, op.cit., p. 246 (٤٠)

إيجابية أوقيا خلقية ثابتة ، فهي تقوم على العدم وعلى وظائفه السالبة للوجود . ان الجمال الذي ينشده جينيه هو في نهاية الأمر ، كما يقول سارتر : (وجه العدم المروع) (٤١)

يقوم المفهوم الجمالي للشر عند جينيه على مجموعة من الحركات والاشارات التي تعتمد الأناقة وجمال المظهر كأساس لها ، وهو في جوهره ، قوة تحريفية لمعاني الأشياء الدارجة وتشويه متعمد وإرادي للسلوك السوي . بعبارة أخرى ، هو ملهامة لا يقصد بها ، في أغلب الظن ، ارضائنا او امتناعنا ، ولكن شد انتباهنا ، بل وازعاجنا بتفخيم الوظائف الحيوانية البحتة لدى الانسان . وليس من شك في أن ولع جينيه بالتحدث عن الافراقات والروائح الكريهة معروف ومشهور في الأدب الفرنسي ولا يضاهيه في ذلك الا الماركيز دوساد (sade) في القرن الثامن عشر وانتونان أرتو (Antoninb Artaud) وجورج بطاي (Georges Bataille) في القرن العشرين . على هذا النحو ، يتحدد المفهوم الجمالي للشر كلون من النفايات او الترف الذي لا يجدي ، الأمر الذي يجعل من الجمال ضربا من المحاكاة « الكاريكاتورية » للوجود ونوعا من التقليد الزائف للحياة .

ان تبخر الطابع الواقعي للأشياء بفعل سحر الكلمات يبلغ غايته القصوى في لغة جينيه الشاعرية ، فالكلمة ، لدى هذا الكاتب ، تكتسب قوة تعبيرية فذة تتيح له تجاوز تناقضات الواقع ومشاكله المعقدة الى عالم خيالي تتطابق فيه الكلمة مع جوهر الأشياء . الا أننا هنا لسنا بصدد اضفاء طابع مثالي على واقع مزرأ أو السمو بأوضاع متدنية ، على العكس من ذلك ، اننا بصدد نوع من تفرغ الواقع من كثافته المادية حتى يمكن ان يطابق في شفافيته عالم الرغبة والطموحات المكبوتة . لاشك أن الواقع يظل هنا الأساس ، ولكنه واقع مردود الى حده الأدنى وإلى ركيزته الأساسية التي تجعل منه النموذج الأمثل للبؤس الانساني . ومن ثم يصبح هذا الواقع المنحط ، الذي صقل حتى صار « هيكل الوجود المزهر » أو حلم الحقيقة الشاحب البعيد ، قيمة جمالية تؤثر في النفس تدفعها الى التعجب والتأمل . » (٤٢)

ان هذه القيمة ، بالنسبة لجينيه ، هي الشر ، والصيغة الجمالية التي تلائمها هي العبارة الشاعرية ، الا أن هذه العبارة ليست الا كلمات جينيه المختلفة والمنسوبة زورا الى زملائه المساجين : فهؤلاء يرفضونها رفضا تاما ، ويتخرجون منها تحرجا كبيرا لأنها تجرد الجريمة وتفخم الشقاء الذي يعيشون فيه ، ولأنهم لم يفقدوا الأمل في حياة أفضل ولا الحنين الى الخير والحرية . ان هذه القيمة الزائفة تكرر كذلك بؤس الشاعر المحتقر الذي يعرض نفسه للسخرية والاستهزاء . وإذا افترضنا أن هذه الشاعرية الخاصة التي تميز كتابات جينيه وتخلق حولها هذا الجو

Jaen—Paul Sartre, Saint Genet, p.351 (٤١)

(٤٢) نفس المصدر ، ص ٣٦٥ - ٣٧١ .

العجيب الغريب معنى أو فائدة ما ، فمن غير شك أن ذلك يتم بالرغم من إرادة الكاتب وبمقدار ما تتجاوز فيه فرديته وخصوصيته الضيقة الى حقيقة موضوعية عامة . (٤٣)



يرى سارتر أن الشعر الحديث يشمل نمطين من أنماط توحيد الكون : النمط الاول يقوم على التمدد والتوضع والثاني على الانكماش والتركز . ويضم النمط الاول رؤى الوجود الخاصة بشاعر مثل رامبو (Rimbaud) وفيلسوف مثل نيتشه (Nietzsche) ، وهي عبارة عن تصور انفجاري أو تمهدي للوجود ، أما الرؤية الانكماشية فتضم نظرات بعض كبار الشعراء من أمثال ملارميه (Mallarme) وبودلير (Baudelaire) وجينيه نفسه ، وهي عبارة عن خيال ضاغط ومحدد لبرانية الوجود وظاهره ولون من التركيز أو التكنيف حول قطب أو محور . وجينيه بالذات يتصور العالم على شكل دائرة يشكل هو مركزها أو محورها الأساسي الثابت . ويعتقد جان - بول سارتر أن هذا التصور الاخير يطابق رؤية اجتماعية للعالم هي رؤية الطبقة الارستقراطية التي تعتبر نفسها تجسيدا لمبدأ الطهارة والتميز ، ورؤية فلسفية للوجود تقوم على فكرة الجوهر ومبدأ الفكرة أو المفهوم (concept) . وسوف تحل محل هذه الرؤية في المجتمع الصناعي رؤية فلسفية جديدة تقوم على مبدأ الحكم والتعقل (judgement) ، ونحن هنا ، وفقا لسارتر ، بصدد الانتقال من الفكر التأملي المجرد الى الفكر الاستقرائي التجريبي الذي يتلام مع رؤية الوجود الواقعية الخاصة بالطبقة البرجوازية . (٤٤)

في ظل هذا الفكر التأملي أو الميتافيزيقي ، يفقد الوجود الخارجي كثافته الواقعية ويصبح تجسيدا خالصا وبسيطا لفكرة مسبقة أو تحقيقا لمبدأ اولي وأساسي . لذلك لا تشكل الأحداث بالنسبة لهذا الفكر أي جديد ولا تمثل أي مخاطرة إذ أن كل شيء معروف ومحدد من قبل . ومن ثم يصبح الفكر أو العيش في هذا الاطار تحقيقا لخطة مرسومة في صورة مجموعة من الحركات والاشارات الثابتة والمعروفة سلفا . الا أن الفكر المسبق لدى جينيه لا يخرج ، مع ذلك ، عن ذاته الخاصة ، فهو يعود دائما الى مركز الدائرة التي خطها حول نفسه . ويقول سارتر في ذلك : « لقد كتب جينيه ، في البداية ، ليؤكد وحدته ، ويحقق كفايته الذاتية . والكتابة نفسها هي التي دفعته ، بمشاكلها ، لا شعوريا الى البحث عن القراء . وهكذا تحول هذا الانسان المتمركز على ذاته ، بفعل الكلمات وثغراتها الى كاتب . الا أن فنه سيتأثر دائما بمصادره وسوف يظل الاتصال الذي يعرضه علينا من نمط فريد جدا . » (٤٥)

ان الكتابة لدى جينيه ترادف ارتكاب « جريمة قتل » في حلم من أحلامه ، وتتلخص في اصفاء مسحة من

(٤٣) نفس المصدر ، ص ٣٩٩ - ٤٠١ .

(٤٤) نفس المصدر ، ص ٤٣٠ - ٤٣٦ .

(٤٥) نفس المصدر ، ص ٤٤٦ .

الجمال على عالم الجريمة ، ومن ثم كان هدف الشعر الخطير الخبيث الذي يئته الكاتب في ثنايا مؤلفه غوايتنا وتضليلنا . ان هذا الشعر لون من الغواية الشيطانية التي تهدف الى تحبيب الشر الى نفوسنا بعد تقديمه في اجمل مظهر وأحلى صورة ، وهو كذلك مشروع خداع كبير وعملية تزييف واغتراب هائلة : فجنييه ينشد بشعره ضياعنا ودفعنا الى هاوية العدم والوهم والضلال معتقدا بذلك أنه ينتقم لنفسه من رجال الخير وأنه يتحرر من الشر الذي يقضي عليه المجتمع الرأسمالي بالبقاء فيه . الكتابة لديه اذن ليست مجرد غواية وتضليل ، انما هي أيضا ، وفقا لمذهب سارتر في الوجود ، مشروع تحرير عن طريق الصاق جانب من الاغتراب والضياع الذي يعاني منها الكاتب بالآخرين . (٤٦)



ليس من شك في أن مؤلفات جان جينييه كان يمكن أن تعرض بطريقة أخرى أو على ضوء منهج آخر ، غير المنهج الوجودي وما يعتمد عليه من تصورات ذاتية . كان يمكن أن تقدم وفقا للمنهج البنيوي الذي يقوم على التصنيف واستنباط المبادئ الصورية العامة التي تحكم تفاصيل العمل الفني وموضوعاته بدلا من اعتماد مبدأ المشروع التاريخي الذي يتحقق ، في نظر سارتر ، عبر الزمان . ولقد قام بعض الكتاب فعلا بدراسات عن جان جينييه ، وأريد أن أضرب مثلا بدراسة جورج بطاي (٤٧) التي يحاول فيها نقد محاولة سارتر وعرض أفكار جينييه وفقا لمبدأ نقض المحرمات (transgression) الذي يشكل أساس فكره . الا أن هذه المحاولة ، بالرغم من طرافتها ، لا تقدم أعمال جان جينييه بطريقة متكاملة أو متناسقة . وفي الواقع ، ان تفسير جان - بول سارتر لجينييه ، كما سبق أن قلنا في بداية هذه الدراسة ، ليس مجرد محاولة في النقد الادبي او الفلسفي ، انما هو اسهام فكري واضافة جادة الى الاعمال الفلسفية او المباحث النظرية للمؤلف ، وحسبنا الاشارة هنا الى واقعة مغبرة وهي أن سارتر كان في الوقت الذي يعالج فيه كتابه عن جان جينييه ، يصوغ المبادئ الأساسية والخطوط العريضة لمسرحيته الشهيرة « الشيطان والله » (١٩٥١) ، وسوف نقوم الآن بدراسة هذه المبادئ الفلسفية التي تحكم منهجه في النقد .

يقول سارتر في سياق كتابه عن جينييه بأنه يحاول في هذه الدراسة أن « يبرز حدود التفسير النفساني والشرح الماركسي وامكانية الحرية وحدها في اظهار شخصية ما في شموليتها ، وأن يظهر هذه الحرية في صراعها مع القدر ، وهي تبدو في البداية مسحوقة أمام الأقدار ، ولكنها ترتد عليها بعد ذلك لتنهضها رويدا رويدا ، وأن يدلل على أن العبقرية ليست هبة ، ولكنها المخرج الذي يبتكره الانسان في حالات

(٤٦) نفس المصدر ، ص ٤٦٦ - ٥٠٦ .

(٤٧) Georges Bataille, Jean Genet, in La littérature et le mal,

op.cit., pp 204 — 242

اليأس ، وأن يعثر على الاختيار الذي يقوم به الكاتب لما يكون شخصيته وحياته ومعنى وجوده ، وذلك حتى في السمات الصورية لأسلوبه وأنشائه ، وحتى في تركيب صورته وخصوصية ذوقه ، وأن يسرد ، بالتفصيل ، تاريخاً لتحرره . » (٤٨)

ان الذي يرفضه سارتر في منهج التحليل النفساني هو اسناد دور العلة الحتمية الى اللاشعور في عملية انتاج المؤلف الادبي أو الفني ، فاللاشعور ، في نظر الفيلسوف الوجودي ، لا يمثل بالنسبة للحياة النفسية الا اطاراً لا عقلانياً وأعمى لضرورات عضوية يجدر استبعادها حتى لا تحجب العوامل الخلاقية والجانب الارادي في « المشروع » المؤثر أو في الاختيار الاول الذي يوجد خلف أي عمل فني . الا أن سارتر لا يذهب الى درجة رفض كل تأثير للقوى الحتمية او الموجهة ، لأنه حينما يعطي الاولوية للوجود على الشعور يعترف حتى ببعض المعطيات التي يتشكل على ضوئها هذا الأخير ، وتكون بالنسبة له بمثابة مرحلة سابقة على ادراك ذاته : (Le prereflexif) ، وهذه المرحلة تشكل بالنسبة للشعور اطاراً أو أفقاً يتبع له ، من خلال العمل الفني أو أي نوع من الممارسة ، أن يتخطى ذاتيته المحضة ليلعب ، ان صح هذا القول ، أبعاده الموضوعية . ولكن الشعور يظل ، مع ذلك ، أساسياً في الفكر السارترى ، الأمر الذي يجعل من الذات (Le sujet) ، أحد المحاور الجوهرية ان لم يكن المحور الاول لهذه الفلسفة . وهذا المنحى ، كما نعلم ، هو ما ترفضه كل المدارس البنائية المعاصرة سواء ما كان منها يستلهم المناهج اللغوية والفونولوجية مثل كلود - ليفي ستروس (Claude — Levi Strauss) صاحب الانثروبولوجيا البنائية ، أو ما كان منها ينبثق من مفهوم تاريخي أو توليدي مثل بنائية لوسيان جولدمان (٤٩) أو مدرسة « أركيولوجيا المعرفة » لميشيل فوكو (٥٠) (M. Foucault) وغيرها .

على كل حال ، فإن مفهوم الذاتية هذا يتطلب بعض الايضاحات ، لانه لم يكن موجوداً في الفلسفة الاوربية قبل ظهور ديكارت صاحب المطابقة بين الفكر والوجود (cogito ergo sum) . ولا شك أن غياب الذات هو غياب للشعور وما سوف يرتبط بهذا الأخير من مفاهيم خلقية كما تدل على ذلك العبارة الفرنسية (conscience) التي ترجمها على المستوى المعرفي أو الادراكي شعوراً ولكنها تنطبق في معناها الشائع والأعم

(٤٨) Jean—paul Sartre , Saint Genet, p. 536

(٤٩) لوسيان جولدمان ، تلميذ جورج لوكاتش ، ومؤسس منهج البنائية التوليدية في دراسة الادب والفلسفة ، ومشهور بدراسات عدة في سوسيولوجيا الادب والفكر ولقد عرف منهجه في كتاب :

Lucien Goldmann, Pour une sociologie du roman. Paris.

Gallimard, (Idées), 1964, pp. 337 — 372

(٥٠) راجع أول كتاب صدر بالعربية عن ميشيل فوكو وهو للزميل الفاضل د . عبد الوهاب جعفر : البنية بين العلم والفلسفة عند ميشيل فوكو - دار المعارف ١٩٧٨ .

على مفهوم الضمير . لهذا السبب كانت فكرة الخطيئة تكاد تكون مجهولة أو لا تتجاوز فكرة الخطأ كما كان قد ألقى أسسها الفكر السقراطي في علاقتها بالصواب . من ثم لم تكن الخطيئة ، على المستوى الاخلاقي ، وثيقة العلاقة بالعقل أو بالارادة ، وكانت أقرب ، في أغلب الأحيان ، في الفكر القديري القديم ، الى القوى الغامضة العمياء التي تقترب فيها حرية الانسان وتسيطر عليها ظلمات الشر . ولا شك أن تأثير هذا التصور على فكرة الخطيئة في المسيحية كان هو الأساس في انقسام الضمير المسيحي حول هذه المسألة الى خطين متنافرين . هل الخطيئة تعد عملاً ارادياً أو عملاً جبرياً ؟ ومن الواضح أن الفكر الديني المسيحي الاكثر تركيزاً على الجوانب النفسية للانسان وأبعدها عن المظاهر والمراسيم الخارجية التي تخاطب المحواس اكثر من مخاطبتها للوجدان ، ونقصد به التيار الاوغسطيني والتيار البروتستانتي قد استقطبته فكرة الخطيئة « المسبقة » حيث لا حول ولا قوة لعقل الانسان او ارادته الا بمعاونة بركة الرب الفعالة . وليس من شك في أن هذا التيار ، تماماً مثل التيار القديري القديم ، كان له أثر ضخم في محو كل علاقة بين الشر والمسئولية وذلك حتى ظهور الاخلاقيات الكلاسيكية التي تحتل فيها المسئولية ، مع ظهور الشعور والذاتية ، مكانة رئيسية . نريد أن نقول : « ان غياب هذه العلاقة يرجع أساساً الى غياب الذاتية التي لا يمكن ان تظهر الى حيز الوجود الا متصلة بظهور مفهوم الشعور . ولاشك ان غياب هذه العلاقة ، هو من جهة أخرى ، نقص أساسي يكون الفجوة التي تفصل بين ما يسميه الكاتب جان - ماري بنوا ^(٥١) اللامعروفة عند أوديب او دفعة الموت اللاشعورية (قتل لا يوس) وبين الزنا بالمحارم (رغبة الاتصال الجنسي بجوكاست) . وسوف تشكل هذه الفجوة ، وفقاً لهذا المؤلف ، مسافة سالبة بين حدثين ، ويمكن أن نضيف بين قطبي الرغبة أي بين دفعة الحياة (Eros) وبين دفعة الموت (Thanatos) . وسوف تقوم فلسفة الذاتية التي تبدأ مع ديكاوت وتنتهي مع سارتر ، بسد هذه الفجوة بطريقة سطحية ، الا أن اللاشعور الفرويدي سوف يملؤها من جديد مفسحاً بذلك المجال لظهور المناهج النفسانية المتعددة والمهتمة بتفسير مظاهر الاختلال والفعال الرمزية التي تحكم بنية اللاشعور القائمة على مبدأ « الغياب - الحضور » . ^(٥٢)

(٥١) Jean-Marie Benoist, La revolution structurale, Paris, (٥١)

Grasset, 1975, pp. 215 — 218

(٥٢) نفس المصدر ، ص ٢٢٦ - ٢٢٨ .

يلاحظ المؤلف وجود ثلاثة اختلالات (decalages) . الاختلال الاول بين الأنا والتصور في مرحلة المرأة عند جاك لاكان ، وهو يعكس الصراع الجذري بين الرغبة ودفعة الموت وسوف يعالج بتجربة تقوم على نمط بنائي ورمزي . الاختلال الثاني يقع بين الأنا والتصور من خلال البنية الزمنية للارضاء عند جاك دريدا على أساس أن عملية الارضاء تسمح هنا بتجاوز الحاضر ، وهو الزمان الاول للرغبة ، وكسب المستقبل . أما الاختلال الاخير ، فهو أساس العملية الرمزية أو اللفة عامة ، لأن أي لفة تعتمد في قيامها على وظيفتين اساسيتين وهما الاستعارة (Metaphore) والكناية (metonymie)

غير أننا نرى ، مع ذلك ، أن مسألة الذات لابد أن توضع في إطارها التاريخي حتى تفهم حق فهمها . فالذات الديكارتية ، التي تؤسس شعورا بالوضوح والثقافة حيث يتطابق الوجود مع الفكر بلا غموض ولا وسيط ، هي قبل كل شيء خالقة لنظام ومعادل موضوعي لسيطرة الانسان على الطبيعة بواسطة منهج عقلاني . ولا شك ان هذه الذاتية هي التي تحدد النتاج الثقافي والايديولوجي للكتابة الكلاسيكية ، كما يرى بحق رولان بارت ^(٥٣) ، على أساس محورين رئيسيين وهما محور الوضوح ومحور التثنيق . ويعمل المحور الاول على ادراك وتقدير العالم من خلال الكتابة النثرية طريقة موضوعية وعامة ، أما المحور الثاني فيظهر في العملية الشعرية بحيث يجعل منها لونا من النثر المنثق . ان هذا التصور يفترض ، كما نرى ، مطابقة تامة بين الوجود والذات ويرتبط بمفهوم التمثيل (representation) الذي سينبذه الشعر الحديث لارتباطه بكثافة الكلمة وجدليتها الخلاقة والفن الحديث - خاصة بعد انحسار المدرسة التأثيرية - الذي يفصل بين اللوحة والوجود الخارجي ، وأخيرا الادب الفرنسي المعاصر الذي جعل من عملية الكتابة نفسها أساس الأدب وغايته (مدرسة الرواية الجديدة) .

وهذا الوضوح الذي تتطلبه الكلاسيكية لا ينسحب على المعرفة فحسب ، بل وعلى المقدرة كذلك ، لأنه مقياس الذات الواعية بقوتها وامكانياتها ، الأمر الذي يعد ، في حد ذاته ، ضرورة أوحتمية تاريخية ، في بداية العصر الاوروبي الحديث ، لانحسار القوى اللاعقلانية المنبثقة عن الماضي والمتزامنة مع بنيته الاجتماعية والتاريخية ، والتي تشكل باستمرارها خطرا كبيرا يهدد وحدة الانسان وقدرته على التطور والتقدم . ان هذا الوضوح المنهجي أساس لقيام التوازن الجديد بين الانسان العارف والقادر وبين البيئة الخارجية التي تمنح دائما الى الهروب من قبضته . وليس من شك في أن الانجاز الاعظم للعصر الكلاسيكي هو بالذات تحقيق هذا التوازن الأمثل بين العقل البشري وبين البيئة المحيطة . الا أن هذا الوضع لم يكتب له الدوام اذ أنه مع نهاية القرن الثامن عشر بدأت تظهر براعم الرومانسية وما صاحبها من استشعارات المجهول الذي بدأ يلقي بغيومه وظلاله على الضمير الاوربي ... ومن ثم بدأت تتحول جميع قوى الغيب القهرية التي كانت تتمثل للقادماء في صورة قدر أي قوة خارجية لا طاقة للانسان بفهمها او مقاومتها الى قوة عدوانية داخلية تمزق الانسان وتبليبل كيانه . وقد

(٥٣) Roland Barthes, Le degre zero de L'écriture. Paris, ed. (٥٣)

du Seuil, 1972, p. 9 — 10

يعد مفهوم الكتابة : (L'écriture) الذي يطوره الكاتب بمثابة طريقة المؤلف في « تصور الادب » ويعتبر من جهة أخرى « اختصارا واعيا » يغطي حاجز اللغة ، هذه « الضرورة التاريخية » والاسلوب ، هذه « الضرورة البيولوجية والمزاجية » . واذا كانت الكتابة تقفز في القرن السابع عشر بالوضوح فهي تبدأ في الاضطراب مع نهاية القرن الثامن عشر ، وهي تتخذ بعد ذلك عند شاتروبرهان شكلا نرجسيا وتصبح مع فلوير امرأة حاكسة وعند ملارميه أداة تمجيد واخيرا تصوير في الادب المعاصر موضوعا لغيبية ، هو ما يعرف بـ « الكتابة البيضاء » أو المحايدة التي تمزج كتابات كامو وبلانشو وكيرول .

استشعر هيجل ذلك بحسه المرفه وذكائه الخارق الا أن الذاتية تضيق عنده في متاهات المطلق الموضوعي ، وهو الأمر الذي دفع مفكرا مثل كيركجارد الى الثورة ضد ديكتاتورية الفكرة المطلقة ابتغاء استرداد ذاتيته الحميمة وخصوصية كيانه العميق الذي كاد يضيع من جديد في متاهات الشمولية الهيجلية .

وبالرغم من أن الذاتية سوف تمر بتجربة عسيرة خلال الفلسفة الوضعية التي تحاول أن تقلد العلم تقليدا أعمى فتتحدربها الى مستوى الشيئية ، نراها تتألق من جديد عبر المدرسة « الفينومولوجية » التي يقوم بتأسيسها الفيلسوف الالماني ادموند هوسرل . في ظل هذه المدرسة تصبح الذات جزءا لا يتجزأ من مشكلة الشعور أو الإدراك ، الا أنها سوف تتأرجح بين المفاهيم المثالية الموسرلية وامبريقية هيدجر الانطولوجية قبل أن تعرف أوج تألقها عند فيلسوف الوجودية الاكبر جان - بول سارتر ، وهو تألق ، كما نعلم ، يسبق احتضارها على أيدي اتباع المدرسة البنيوية الذين يزعمون بأن « انسان » العلوم الانسانية التي نشأت في القرن التاسع عشر قد مات وقد حان دفنه مع جميع التصورات المتصلة به من ارادة وشعور وتاريخ وتطور واستمرارية وارتقاء . على كل حال ، ان الذات التي تتأكد من خلال وجودية سارتر ليست أساس الفكر فالوجود ، كما هو الأمر عند ديكرارت ، وإنما هي علاقة ارتباط بالوجود ، فالشعور عند سارتر لا يوجد في ذاته وإنما هو شعور بالوجود وفي الوجود . الا أنه يجدر بنا ، قبل أن نرى ما يتضمنه هذا التصور من نتائج بالنسبة لقضية الشر التي تعيننا في هذه الدراسة عن جينيه ، أن نبحث النقطة الثانية من المنهج النقدي السارترى وهي تقديره بأن الشرح الماركسي الصرف للأعمال الادبية او الفكرية غير كاف .

يرفض سارتر الشرح الماركسي تماما كما رفض التفسير النفساني ، لأنه يعتبرهما قاصرين عن ادراك العمل الفني في شموليته وصيرورته . الا أننا يجب أن نفهم بأن هذا الرفض ليس رفضا مطلقا لهذين المنهجين وإنما هو رفض لهما كمناهج مستقلة قائمة بذاتها ، أي أن هذا الرفض لا يعني عدم الافادة بهما أو دمجهما في أطر نظرية جديدة . ولنلاحظ جيدا أننا أوردنا كلمة شرح بالنسبة للماركسية ، وكلمة شرح (explication) التي تقابل كلمة تفسير (interpretation) التي استعملناها للدلالة على المنهج النفسي تعني ايضاها من الظاهر بينما التفسير يقوم على شرح من الباطن . لذلك يفترض مبدأ الشرح ، في تصور سارتر ، الاعتماد على عليّة خارجية وتقديم العمل الفني في صورة نتاج موضوعي متشعب . ولاشك أن الشرح الماركسي ، التقليدي بالذات ، يعتبر الآثار الادبية والفنية والفكرية مجرد انعكاس للبنية التحتية للمجتمع وهي البنية التي يحكمها ، في المقام الاول ، نمط الانتاج ، وللأسف لم تغير ابتكارات البنائيين الماركسيين مثل لويس الثوسر (Louis Althusser) شيئا من هذا الوضع اللهم الا تكريس مفاهيم النسق والنية على حساب مفاهيم التطور والتاريخ والوعي الطبقي . هذا معناه أن الثقافة ترد ، في نهاية الأمر ، عند الماركسيين الى مستوى الظاهر السطحية التي تنتجها مجموعة من العوامل أو « الميكانيزمات » الخارجية بطريقة آلية صرفة . الا أن سارتر لا يجهل ، مع ذلك الدراسات الهامة التي

أنجزها لوسيان جولدمان ، تلميذ المفكر المجري الشهير جورج لوكاتش ، والتي حاول أن يقيم فيها بين مستوى النص أو العمل الفني والمستوى الاجتماعي مستوى ثالثا يقوم على مفهوم « رؤية الوجود » المأخوذ عن الاصطلاح الألماني :

(weltanschauung) الذي يسمح بالعبور من الشعور الجمعي أو الوعي الطبقي الى البنية التوليدية للمؤلف الادبي او الفكري . الا أن دور الفرد ودور الارادة الذاتية في انجاز العمل الفني يظل هنا محيرا وخاصة بالنسبة لمفكر مثل سارتر الذي ينطلق في مؤلفه الفلسفي الأساسي الاول وهو « الوجود والعدم » (١٩٤٣) من منطلق فردي بحث .

غير أن سارتر لم يبق طويلا على موقفه الاول ، اذ أن تجربة الحرب العالمية الثانية واحتلال بلده من قبل النازيين قد وضعا وجهها لوجه مع مشكلة الحرية والمعاناة الثانية الجماعية . لذلك لم يتورع عن دمج الماركسية في بعض ممارساته الفلسفية ، الأمر الذي أتاح له اضافة بعدين رئيسين الى رؤيته الوجودية الفردية المجردة وهما البعد الاجتماعي والبعد التاريخي . ولقد أفاد سارتر من هذا الالتقاء الفكري على السواء في مسرحه (٥٤) حيث استطاع ان يتجاوز مرحلتي الحرية الفردية « الموحولة » والحرية المت موضعة في اطار الجماعة ، وفي ثاني مؤلفاته النظرية الهامة وهو كتاب : « نقد العقل الديالكتيكي » (١٩٦٠) ولقد أفاد كذلك من هذه التيارات الماركسية بعد دمجها ببعض ممارسات التحليل النفسي ، الذي عرف عن الفيلسوف تحت اسم التحليل النفسي الوجودي ، في مؤلفه الضخم عن « جوستاف فلوبير » (٥٥) حيث استطاع ان يدمج ظاهرة « العصاب الذاتي » الذي يميز الكاتب بظاهرة « العصاب الموضوعي » الذي يطبع الحقبة التي عاش فيها . الا أننا اذا استطعنا أن نقول ، من الآن فصاعدا ، بأن الماركسية تمثل الأفق الاجتماعي والتاريخي للوجودية السارتريّة ، يجدر بنا أن نضيف الى هذا التقرير أن سارتر لا يقبل الماركسية التقليدية على علاقتها ولا في ذاتها ، ولكن بعد تعديلها وتطويرها بحيث

(٥٤) Claude Laune, Le Diable et le Bon—Dieu—Sartre. Paris, (٥٤)

Hatier, 1970, p. 15.

يعدّه المؤلف ، بعد فرنسيس جانتون ، مرحلتين كبيرتين في مسرح سارتر ، وهما :

أ - مرحلة اورست - هيجو (١٩٤٣ - ١٩٤٨) : حيث نتحول من موقف مثالي قائم على الحرية المطلقة الى نوع من الواقعية الخلقية والسياسية .

ب - مرحلة هيدرز - جوتز (١٩٤٨ - ١٩٥١) : حيث نتحول من فكريتي الحرية والمطلق الى البعد التاريخي - الاجتماعي .

(٥٥) Jean —Paul Sartre, L'idiote de la famille. Gustave Flaubert. (٥٥)

Paris, Gallimard 1972, t. III Paris, Gallimard (Idees)

تتلاءم مع مفاهيمه الخاصة عن المشروع (Le project) ومنهجه الذي يسميه « التطوري - الارتدادي » والذي يقوم على دمج الرؤية المستقبلية بمؤثرات الماضي في تفسير مكونات العمل الفني .^(٥٦)

ان مشروع سارتر ، القائم على الحرية في الأساس ، وهي المشكلة التي توارثها منذ ظهور رواية « الغشيان » عام ١٩٣٨ وحتى نشر كتابه عن « جينيه » عام ١٩٥٢ ، هو في نهاية الأمر إبراز محاولة جينيه الأدبية في شكل اختيار ارادي لذات حرة . الا أن المفارقة الغريبة في هذا الاختيار عند كاتب مثل جينيه هو اختيار ما قد اختاره له الآخرون وقبول قضاء الأقدار والظروف الخارجية التي تحولها الى أداة صماء لاحول لها ولا قوة . غير أن غرابة هذا الموقف يمكن أن تزول اذا أخذنا في الاعتبار من جهة ، ان الانسان لا يمكن أن يتحول الى أداة الا بعد تنازل أو رضوخ من جانبه ، واذا تأملنا ، من جهة أخرى ، هذا العمق الغريب الذي توحى لنا به عبارة « ديمتري » في رواية « الاخوة كارامازوف » لديستوفسكي وهي : « انني حيناً اندفع الى الهاوية ، اندفع مباشرة ، رأسي في المقدمة ، ويعجبني أن أسقط على هذا النحو اذ أرى جمالا في هذا السقوط . »^(٥٧) ان هذه الحرية تمثل - لاشك - نوعا من القدر المضاد ، فهي تمثل هذه الامكانية التي تتيح للانسان أن يحافظ على جوهره كمخلوق حر وأن ينقذ ماء وجهه وكرامته البشرية وهو في أدنى درجات الحضيض . الا أن هذا الموقف لا يؤدي ، في نظرنا ، للأسف الى قيم بناءة أو نتائج ايجابية ، فالحرية التي تنطلق من العدم لا تؤدي الا الى العدم اذ فيم تنفعني هذه الحرية اذا لم تخبرني الا بما أعرفه فعلا وهو أنني كائن حر ؟

غير أن هذه المعرفة العملية التي نكتسبها من خلال ممارسة حياتنا اليومية لا تمثل - بلا شك - معرفة

(٥٦) ان فكرة المشروع ، عند سارتر ، ترتبط ارتباطا وثيقا ببدا الحرية التي تشكل أساس النشاط أو الممارسة الانسانية ، وفكرة المنهج التطوري - الارتدادي (methode progressive — regressive) ترتبط بمنهجه الجدلي الشمولي في فهم النشاط الانساني . على ضوء هذا المنهج يفهم سارتر السلوك الانساني على أساس الغايات التي توجهه وتدفعه نحو المستقبل ، وتعتبر هذه الغايات التي يتصورها كل انسان في حرية تامة هي الدافع والموجه ، الا ان أي انسان لا ينشأ في فراغ ، ومن هنا يدخل دور الحتميات في الاعتبار ، وهي الحتميات التي يقوم الجانب الاخر من المنهج بالقاء الضوء عليها : جانب الارتداد الى الماضي حيث تشكل الطفولة (موضوع التحليل النفسي) والظروف الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية (موضوع الماركسية والتحليل الاجتماعي الوجودي) أهم صورها .

(٥٧) Dostoievsky, Les Freres Karamazov. Livre de Poche, 1962, t.I, (٥٧)

p.132

ان الحرية لا تنفصل عند دوستيفسكي عن الخطيئة . يقول لنا « آلان بيزانسون » في هذا المعنى : « بالنسبة لدوستيفسكي لا توجد حرية الا في الخطيئة . لذلك كان يطالب محلفي عصره الذين كانوا يبرنون بدافع الانسانية ، كل المجرمين ضحايا الظروف الخارجية بادانتهم حتى يردوا اليهم كرامتهم كمذنبين . فلقد كان نقل المسؤولية الى المجتمع المذنب يبدو له قمة الاهانة ضد الانسان » . انظر :

Alain Besancon, "L'Inconscient", in Faire de L'histoire. Nouveaux objets.

Paris, Gallimard, 1974, p. 42.

صافية أو مبلورة ، فنحن لكي نفهم هذه الحرية حق فهمها ، هذه الحرية التي حكم علينا بأن نمارسها والتي يصعب فصلها عن الواقع الانساني ، يجدر بنا أن نطهر نفوسنا من شوائبها ، وأن نقيم مسافة بيننا وبين الأشياء التي تحيط بنا من كل جانب وتهدد بجرنا الى سباتها العميق . وليس من شك في أن مشكلة جينييه أو بودلير أو فلوبيير هي بالذات نسيان هذا المطلب الأساسي للحرية ، فهي لا توجد على شكل مسلمة قائمة أو على صورة كائن (exis) ، ولكن تنشأ بالفعل وتتولد بالممارسة (praxis) . الا أن جينييه يسعى جاهدا لتحقيق كيانه كلكس ، هذا الكيان الذي حدده له المجتمع من الخارج ، سواء برغبة التحدي او عن غرور وكبرياء ، ولكن هذا المسلك هو مسلك حرية زائفة تراوغ نفسها وتقع فريسة ، في النهاية ، لغواية المقادير . أما بودلير ، فهو يقبل ، من جهته ، بالتمرغ في الوحل ، وبالعيش في حالة من السخط الدائم والممل المستمر (٥٨) ، الأمر الذي يسمح له بتحقيق وجوده في صورة المخلوق الضائع بين عالم المثل وبين الشهوات الهابطة ، والكائن المتخبط بين شفافية الحب الطاهر وبين كثافة الغريزة . بالنسبة لفلوبير ، فان الاحداث الخارجية لا تمثل مادة العمل الفني الأصلية ، لأن هذا العمل ليس ، في واقع الأمر ، الا تجسيدا لعالم « اللا - وجود » بمقدار ما يمثل اللا - وجود حقيقة الخيال الاكيدة . ومن ثم كان تقديس الفن عند فلوبيير هو الحقيقة الوحيدة التي تستطيع تجاوز الواقع وخلق عالم من العدم .

ان فلوبيير يتموضع في العالم الخيالي الذي ينسجه تصوره للجمال الثابت الابدي ، وبودلير يكاد يموت شوقا في سبيل ادراك ذاته من خلال الوحدة المستحيلة بين كيانه المرجو ووجوده الفعلي ، كما أن جينييه لا يألو جهدا في البحث عن جوهر الشرير . وينتهي الأمر بأن يفشل الكتاب الثلاثة فشلا ذريعا في تحقيق مأربهم ، الا أن هذا الفشل لحسن حفظنا ، هو المصدر الخلاق لثلاث من روائع الاعمال الادبية . ومع ذلك ، فان هذا الفشل الواقعي ، بالرغم من دفعه ورفده للعمل الفني الذي يتخيله سارتر في صورة بديل للواقع ومخرج للافلات من أزماته ، يتطلب منا بعض الايضاحات ، فهو يظل فشلا على المستوى الخلفي والانساني .

ان الحرية عند سارتر ، وعلينا أن ندرك ذلك جيدا ، لا ترتبط بالفشل عرضا أو عن طريق الصدفة ، على النقيض من ذلك ، ان الفشل يشكل في وجودية سارتر الأساس الانطولوجي للحرية . بعبارة أخرى ، ان الشعور محكوم عليه بأن يكون حرا ، لانه في جوهره نقص دائم ومفارق لذاته أبدا ، والحرية ليست الا حركة الشعور نفسها ، أو هذه الرعدة التي تنتابه فجأة حينما يفتن الى وجوده القائم على العدم . الا أن هذا العدم ، الذي هو أيضا الحرية نفسها ، لا يرضي الشعور ولا يستطيع ان يضفي عليه حالة الاستقرار والسكينة

التي يطمح اليها . ومن ثم كانت نزعتها التي لا تهدأ ، نحو حياة الكينونة الصماء ورغبته الجارحة في التزود بكثافة الأشياء ومطابقتها لماهيتها . الا أن هذه الرغبة لا يمكن أن تتحقق لأنها تناقض جوهر الشعور نفسه الذي يقوم على العدم وعلى الاستحالة الجذرية في التطابق مع ذاته . ومن ثم لا يمكن للفشل أن يعد هنا حادثاً طارئاً ، فهو ملازم ، ان صح هذا التعبير ، « لطبيعة » الشعور .

ومع ذلك ، فان الانسان يمكنه أن يخطيء في تقدير حريته ، كما يشق عليه في أغلب الأحيان أن يتحمل عبء مطلبها الأساسي وهو ضرورة كونها معلقة دائماً ، مفارقة باستمرار لوجودها الفعلي . لذلك غالباً ما يهرب منها الفنان - مثل أي اسنان - أو ينقذ نفسه من خلال العمل الفني الذي تشكله - لاشك - ظروف فردية واجتماعية وتاريخية محددة ، بالرغم من أن تأثيرها لا يمكن أن يتم ، في نظر سارتر ، الا من خلال ذاتية الكاتب أو الفنان نفسه . ان العمل الفني يبدو لنا اذن في هذا المقام في صورة وسيلة للهروب من الحرية أو طريقة من طرق استخدامها . الا أنه من الواضح أن للحرية استخدامين رئيسيين عند سارتر : هناك الاستخدام السلبي الذي يرد الى المجتمع ، كما هو الأمر في مؤلفات جينيه وبودلير وفلوبير ، صورته معكوسة سواء أكانت هذه الصورة مسقة في ماديتها أو مبالغه في مثاليتها ، وهناك الاستخدام الايجابي الذي يمثله سارتر نفسه ، فيلسوف الالتزام ، والذي يتفق ومسار التاريخ والتقدم .

ان فعل الكتابة لا يستطيع اذن أن ينفصل عن الأخلاق . ولكن علينا أن نفهم جيداً أن مهمة الفنان أو الاديب ليست في تبرير أخلاقيات أو مبادئ معينة أو في تقديم صور من الوعظ والنصيحة وانما في الضرورة التي تحتم عليه أن يكون في توافق مع ضميره المتحرر المتطهر . كذلك على الأديب ان يجعل من الكتابة عملاً مستولاً ونوعاً من المساهمة الايجابية في تاريخ العصر وتأكيدها مخلصاً لقوى المستقبل ، ولربما أدى هذا الموقف ، في النهاية ، الى تبرير اخلاقيات معينة أو تكريس العمل الفني لغاية تتجاوزه وتتعداه . نحن لا ننكر ذلك ، ولكننا لا نريد أن تفرض هذه الغاية على العمل الفني من الخارج . اننا نريد أن تنبثق من العمل الفني نفسه انطلاقاً من مبدأ الحرية المسئولة الواعية بذاتها والطامحة ، في اطار ادراكها التام لحدودها وامكاناتها ، الى بناء مستقبل انساني أفضل . ولكن هل يعني ذلك أن مفهوم سارتر للحرية ايجابي خالص ؟ انني أكاد أشك في ذلك ، فالحرية والشر يمثلان ، كما رأينا في هذه الدراسة التي أفردناها لقراءة الفيلسوف الوجودي حياة جان جينيه ومؤلفاته ، وجهين لحقيقة واحدة نظراً للارتباط العضوي بينهما . ان الشر ، هذه الغواية المتجددة أبداً ، يبهز الحرية ويفتنها لأنها لا تستطيع أن تغلق على ذاتها والا فقدت جوهرها الصافي وتقمصت صورة الضرورة الموضوعية الحتمية الصارمة . لذلك نرى أن هذه الحرية ، التي يحددها سارتر كقوة من قوى التحول المستمر وكجوهر علينا أن نكتسبه وأن

تشكله على مستوى الابداع الفني غالبا ما تفقد دفعته وتتجمد في احدى الصيغ أو الاشكال الممكنة التي توفرها لها مصادر الفن الحالية .

على هذا النحو، نرى أن الحرية عند سارتر، ابتداء بدراسته لبودلير وانتهاء بدراسته لفلوبير مروراً بجان جينيه، لا تكف عن التوضع، بل أننا نكاد نتبين ان الفيلسوف يشعر بلذة متعاطفة في وصف هذه الاشكال المغتربة للحرية التي تمثلها مؤلفات هؤلاء الكتاب الثلاثة . الا أن الذي يثير الاهتمام ليس في الواقع هذه العلاقة العضوية التي تربط بين الشر والحرية والتي تميز العالم الخلفي عند جان - بول سارتر وإنما طبيعة هذه العلاقة . ولكن علينا أن نستبعد أولاً مشكلة الخطيئة التي لا يربطها أي رباط بفهوم الشر كما يحدده الفيلسوف ، مع أنها ، من وجهة نظر اللاهوت وكما ادرك ذلك ببراعة كيركجارد ، هي الامكانية الوحيدة (الامكانية ترادف الحرية) المتاحة للانسان لمعارضة الخير ، مصدر القيم وأساس الكينونة .



ان الشر عند سارتر ذو طبيعة جد مختلفة : فهو في العالم وفي التاريخ مرتبط بالفعل وملزم للمارسة ، أي أنه في جوهره حركة تعديل وتغيير ، وهو في الفن يرتبط بالخيال ويصبح شكلاً من أشكال الفعل التصوري وقوة من القوى السحرية التي تحول العالم الى حلم أو سراب . الا أن سارتر ، للأسف ، يقيم تناقضاً غريباً بين الشر والخير بالرغم من العلاقة الجدلية التي يحدثها بينهما . فسارتر ، بالرغم من اعترافه بأولية الخير كشرط أساسي لقيام النظام والتنظيم ، يحاول أن يخلط بينه وبين الأمر الواقع او النظام القائم بالفعل . وانطلاقاً من هذه الفكرة التي تجعل من مبدأ الخير مرادفاً لواقع ، يصل سارتر الى اضماء طابع القيمة على الشر نفسه . ومع ذلك فمبدأ الخير لا يمكن أن يطابق واقع هذا العالم مطابقة تامة والا فقد جوهره كقيمة اذ أن القيمة مفارقة بطبيعتها للفعل نظراً لكونها غايته المتجددة أبداً ، وعلى ذلك فالخير الذي يتحقق في هذا الوجود لا يمكن أن يكون الا أقل خير ممكن ، لأن الوجود الانساني ، مهما كانت مطامحنا ومهما كان ايماننا بالانسان والتاريخ ، ناقص ومحدود بطبيعته ، وكل محاولة لاضفاء طابع القيمة عليه كواقع لا يمكن أن تؤدي الا الى طريق مسدود .

الا أن قائلاً قد يحتج بأن سارتر لا يجعل من الخير مرادفاً للواقع كما نذهب ، لأنه اذا كان يعطيه الأولوية المنطقية فذلك لأنه يربطه بالكينونة (L'Être) التي لا بد لها أن تكون بطبيعتها نقطة البداية ، وهنا في الواقع مكان اللبس والغموض ، فالكينونة التي يصورها سارتر ويقابل بينها وبين الوجود الانساني هي عين الوجود - في - ذاته وهو الوجود العشوائي ، القائم ها هنا من غير تبرير والذي يغمرنا من كل جانب حتى لنكاد نشكل

بالنسبة اليه نوعا من الوجود الفائض ، الزائد عن الحد . ان هذه الكينونة ^(٥٩) التي ترتبط ، في نظر سارتر ، بالخير وتشكل قاعدته الأساسية ، كما نرى ، هي حالة غائمة لا حدود لها ولا اطار . حالة قابلة للتشكل والظهور في مختلف الصور وفقا للممارسات الانسانية عبر التاريخ ، ومن هنا كان ارتباطها ، في نظرنا ، بالواقع وقابليتها لتقديم الخلفية الخلقية لأي نظام اجتماعي وسياسي حتى ولو كان هذا النظام قائما على الظلم والاستبداد ، فالخير - مثلا - الذي يصوره سارتر في دراسته عن جينيه ليس الخير في ذاته ولكن تصور المجتمع الرأسمالي - الذي يدينه الفيلسوف ويراه مرحلة تاريخية قابلة للزوال - للخير ، وعلى ذلك تكون الكينونة التي ترتبط به كينونة مزيفة لانها تقدم الينا في صورة المبادئ العامة والمثل المطلقة وهي في واقع الأمر نسبية تاريخية . وليس من شك في أن هنا يقع عيب كل المذاهب القائمة على تصور تاريخي مادي بحث لتطور المجتمعات الانسانية ، هذا العيب هو اعتيادها في نقد كل المذاهب السابقة على النسبية التاريخية ورفضها للمبدأ نفسه حينما تقدم تصورها للمجتمع الأمثل في المستقبل بصرف النظر عن طبيعة المبررات والدوافع الاقتصادية والاجتماعية والانسانية التي تبرزها لتبرير هذا التصور . ومن هنا نرى أن المثل الانسانية لا يمكن لها ، مهما كانت درجات اغتراب الفرد في المجتمعات القهرية ، أن تقع تحت اسار النسبية التاريخية (راجع في ذلك تجربة ألبير كامو المبررة في كتابه : الانسان المتمرد) لأنها لا ترتبط فقط بتصورات خلقية عليا وانما أيضا بضرورات بيولوجية القصد منها الحفاظ على حياة الانسان وكيانه ، واذا كانت التصورات الخلقية العليا هي التي تأخذ دائما جانب الصدارة فلأنها أفدر على الدلالة على قدرة الانسان العظيمة في التسامي وتجاوز واقعه المتدني الذي يشكل النقص فيه صفة ملازمة لطبيعة الحياة .

الا أن مشكلة الوجودية السارترية ليست في عدم ايمانها بالمثل العليا بقدر ما هي في ربطها لهذه المثل بحرية الفرد المتغيرة التي لا تستطيع ان تركز على ركيزة والا تتجاوزتها في الوقت نفسه ، لأن الحرية الانسانية مرتبطة

(٥٩) Emmanuel Mounier, Malraux — Camus — Sartre — Bernanos .

L'espoir des desespérés. Paris, Ed. du Seuil, 1953

يقول إيمانويل مونييه ، الذي ينطلق من منطق مسيحي حيث ترادف الكينونة صورة الذات الخالقة القادرة ، بصدد الوجود - في - ذاته عند سارتر : « انه الوجود الاول وله الاولوية على كل وجود ، ومع ذلك فوجه الكينونة الاساسي يقدم الينا في صورة الغباء نفسه . فالكينونة تكون هكذا بكل بلاهة . هي موجودة هنا للاشياء ، ولتلقى بها دونما أدنى سبب . دون سبب محدد : فهي ليس لها بناء اذا كتلة لا شكل لها ، « وفرة مسترخية » كثافة لا نهائية ، وهي مختلطة وبدون أجزاء . » ص ١٢٦

وبصدد الوجود - لذاته ، يقول : « في الحقيقة ، بجانب هذا الوجود - في - ذاته سوف يقوم سارتر باعادة بناء التلقائية ، النظرة الداخلية والدفع مع الوجود - لذاته الذي يعد وجودنا الواعي فمطا له . ولكن الوجود - لذاته ثانوي بالنسبة الى الوجود في - ذاته ، فهو ليس الا وجودا مقلصا » ص ١٢٧

ان هذه الصور المختلفة للكينونة تتعارض في نظر الكاتب ، مع صورة الكائن في المسيحية حيث يرتبط بالكلمة الخالقة ويمثل مصدر الاشعاع بالنسبة للعالم كله .

بجدلية تاريخية هي التي تحدد لها ، في نهاية المطاف ، الظروف الموضوعية والمواقف الملموسة التي تستطيع ان تبرز من خلالها . ولاشك أن الهدف الأساسي في وجودية سارتر، على العكس من أنطولوجية هيدجر التي تقوم على عملية وصفية بحثة للوجود الانساني ، هو تمجيد الحرية أن تركز؟ وما هي الأسس الخلقية التي تحدد أطرها وتنير لها الطريق ؟ ان اطلاق الأعنة لحرية الفرد هكذا على علاقتها لاشك أمر يقوم على حسن النية وثقة لا متناهية في الانسان ولكنه في الوقت نفسه مخاطرة كبرى . ولنستمع ، في الختام ، الى ما يقوله فرانسيس جانسون ، وهو أحد تلاميذ سارتر المتحمسين : « ان سارتر يذم لنا منهجا لفهم الواقع الانساني يرضينا تماما . واذا كان هذا المنهج يقود الى أبعاد خطيرة ، فهذا أمر لم نفكر في نكرانه : فالمشروع الخلقى الذي يدعى اليه كل انسان للقيام به لحسابه الخاص وتحت كل مسئوليته يمثل - كما أوحى بذلك أفلاطون - مخاطرة كبرى علينا أن نتعرض لها . ولا شك أنه من المستحيل ان نتعرض لهذه المخاطرة من غير أن نتردد على الآخرين ، الى حد ما ، عواقب مغامرة لا يمكنها أن تبقى بأية حال في حدود شخصية ضيقة » (٦٠)

قائمة مراجع

SUPPLEMENT BIBLIOGRAPHIQUE :

- Emmanuel Mounier, Malraux-Camus-Sartre-Bernanos. *L'espoir des desesperes*. Paris, Ed. du Seuil, (Points), 1953, pp. 111-143.
- Jean Beaufret, *Introduction aux philosophies de L'existence*. Paris, Ed. Denoel, (Mediations) 1971.
- Jean Genet, *L'enfant criminel* in *Oeuvres Completes*. Paris, Gallimard (NRF), 1979, pp. 376-393.
- Jean-Paul Sartre, *L'imaginaire. Psychologie phenomenologique de L'imagination*. Paris, Gallimard (NRF) 1940.
- , *Un theatre de situations. (Le Diable et le Bon Dieu*, pp. (268-281) Paris, Gallimard, 1973.
- Michel Foucault, *Surveiller et punir. Naissance de la prison*. Paris, Gallimard, 1975.
- Mohamed El Kordi, "Le probleme du mal dans la pensee et la litterature francaises", in *Bulletin de la Faculte des Lettres d'Alexandrie* 1980, pp. 1-73.
- Serge Doubrovsky, *Pourquoi la nouvelle critique. (Critique et philosophie*, pp. 171-257) Paris, Mercure de France, 1966.

مقدمة :

كتبت الباحثة الفرنسية « آني لوكليير » في مقال نشر لها في مجلة لارك (L'Arc) في عام ١٩٦٦ متسائلة : « هل يمكننا حقا ان نتكلم عن الأعمال الروائية عند سارتر ؟ لأن ما نطلق عليه اسم الأعمال الروائية قد يبدو بالفعل في صورة محاولات متفرقة ومتردة هدفها الوحيد هو ان تبين وتوضح للناس من خلال شخصيات مغمورة في موقف معاصر فكرة فلسفية لا يمكن الا لقلّة من الناس ان تدرك مفهومها » ^(١).

وفي الواقع ان الباحثين كلما أرادوا ان يتوصلوا الى الاتجاه الرئيسي لفكر سارتر نجدهم يركزون كل اهتمامهم على دراسة اعماله المسرحية فقط لانها تبدو لهم - اذا ما قورنت بباقي اعماله - أسهل فهم وأيسر ادراكا وأوضح في الفكرة ، ومع ذلك فان الواجب يحتم علينا ان نقول ان اعمال سارتر الروائية لم تهمل اهاالا تاما بل كانت موضوعا لبحوث ودراسات عديدة غاية في الأهمية ، ولكن وجود عائق مهم يتمثل في عدم انتهاء المجموعة الروائية المسماة طرق الحرية حال دون اتمام هذه الدراسات والبحوث او أدى الى حدوث قصور في النتائج التي كانت تهدف للوصول اليها . وتعلق الباحثة آني لوكليير على هذا الموضوع قائلة : « لا يمكن ان ننظر الى طرق الحرية باعتبارها شيئا مكتملا في حد ذاتها ، بل يجب دائما ان نتذكر انها مسيرة تهدف الى الوصول بنا الى مكان ما ولكنها في الواقع تتوقف فجأة خلال الطريق » ^(٢).

الحرية والالتزام في أعمال جان بول سارتر

منحى محمد عبد العزيز

Annie Leclerc, „De Roquentin à Mathieu“, in *Revue L'Arc* 1966, p. 71 à 76, p. 71.

(١)

Ibid, p. 72

(٢)

لكن هل يؤدي بنا هذا القول الى ان نجزم بأن أعمال جان بول سارتر الروائية لا تستحق ان نعيدها اهتمامنا او ان نتوقف عندها لكي نحاول ان نستخرج منها المعنى والفكرة التي اراد لها الكاتب ان تعبر عنها ؟ اذا كان ردنا على هذا السؤال بالاجاب فانه يكون بمثابة حكم بالنسيان والاهمال على أعمال أدبية فذة كان لها عظيم الاثر على جيل بأكمله .

أما اذا تناولنا بالبحث أعمال جان بول سارتر في مجموعها فسنجد انها تتصف باجتياز فترة الشباب الى فترة النضوج وباجتياز مرحلة البراءة والالتصاق الوثيق بالعالم الى مرحلة انقطاع الصلة المسببة للقلق للانسان المسئول الذي يسلك سبيل الالتزام في العالم على الرغم من انه منفصل عن ذاته بكل سعة العالم^(٣)

ان من السمات الاساسية لأعمال سارتر والتي تمنحها اصالة وايداعا فريدا هي نجاحه في نقل الموضوع الفكري الرئيسي الذي تميز به الأدب في القرن العشرين ونعني به حالة القلق التي يعيشها الانسان المعاصر بعد ان تخلص من العقائد القديمة التي عرفها واعتادها ولم يعد يؤمن بها ، وكذلك احساسه بالوحدة والعزلة ، وهي حالة لم تمنعه من ان يكتشف انه إنسان مسئول فتولدت لديه حالة من التوتر بسبب هذه الوحدة والشعور بالمسئولية التي تمنعه من قبول اي مرشد او موجه أو اي مساعدة تأتي من الخارج مما خلق لديه شعورا بالقلق النفسي .

هذا هو محور أعمال جان بول سارتر كما كان محور أعمال من سبقوه ومن عاصروه من الكتاب والادباء^(٤) .

وهكذا يمكننا ان نقول ان الوحدة والحرية والمسئولية او الالتزام الانساني تمثل المواقف الاساسية في أعمال سارتر خلال الفترة التي امتدت من عام ١٩٣٨ حتى عام ١٩٤٨ اي خلال الفترة بين رواية الغثيان الى المجموعة القصصية المسماة طرق الحرية كما أنها تمثل أيضا الجوانب الفكرية التي سوف نبينها بصفة خاصة من خلال أعماله الروائية .



الغثيان :

ما هو الشعور بالغثيان ؟

تجيب لنا الباحثة آني لوكليير على هذا السؤال في مقالها الذي سبق ان أشرنا اليه في محاولة منها لتحديد

(٣) Francis Jeanson, Sartre' Ecrivains de Toujours' Paris, Editions du Seuil, 1956, 189

p., p. 16

(٤) هذا الموضوع تناوله بالبحث برنانوس ، ومالرو ، وجوليان جرين ، والبير كامى في أعمالهم واطلقوا عليه عدة اسماء منها القلق ، المأساة ، القدر أو العبث .

مفهومها فقالت : « ان الغثيان هو الدليل الغامض الدال على ان جميع الكائنات الحية تدعي لنفسها الوجود وقتل شيئا على الرغم من انها لاشيء على الاطلاق . وهي تشكل وجودا لا اساس له ولا مبرر له فهو وجود تافه لا أهمية له » (٥) .

وتدور حول هذا المفهوم احداث اول رواية لسارتر وهي الغثيان التي نشرت في عام ١٩٣٨ ، وقد اطلق عليها الناشر اسم « رواية » مع ان هذا العمل الأدبي ليس رواية بالمعنى الصحيح والمألوف . فالغثيان تبدو في صورة مذكرات رجل مثقف اسمه « انطوان روكتان » يقيم في مدينة لوفيل (الهافر) ليستكمل بحثا تاريخيا عن شخصية رجل عاش في القرن الثامن عشر هو مسيودي رولوبون عاش ومات في مدينة لوفيل .

كان انطوان روكتان بطل الغثيان يقضي وقته بين المطعم الذي اعتاد ان يتناول فيه وجباته وبين المقهى والمكتبة البلدية وكان دائما وحيدا ، وقد اظهر لنا الكاتب هذه الوحدة والعزلة التي يعاني منها روكتان في أبشع صورة من الوحشة والكآبة ، واكثر من الكلام عنها وذكرها ، فنجدها تتكرر مثل الفكرة المتسلطة الى ان تتوصل شيئا فشيئا الى عزل الشخصية كلية ثم تقطع كل صلة بينها وبين العالم الخارجي الذي يحيط بها ، وكثيرا ما وردت تصريحات تدل على ذلك على لسان بطل الرواية مثل :

« انا اعيش وحدي في عزلة تامة ولا اكلم احدا ابدا كما اني لا أحصل على شيء ولا أعطي اي شيء » (٦) .

كما ورد عنه ايضا :

« انا وحيد ومعظم الناس قد عادوا الى ديارهم وهم الآن يقرأون جريدة المساء اثناء استماعهم الى المذياع وقد ترك لهم يوم الاحد الذي مضى طعم الرماد ومن الآن تتطلع افكارهم الى يوم الاثنين ، اما انا فليس لي يوم اثنين او أحد بل توجد بالنسبة لي ايام يدفع بعضها بعضها بدون نظام » (٧) .

كان روكتان يقابل في المكتبة البلدية رجلا ذا شخصية غريبة فأطلق عليه لقب « المشتق الذاتي » . ومن الواضح منذ الوهلة الأولى انه لا يستلطف هذا الشخص بل الاكثر من ذلك انه يشعر نحوه بشيء من الاشمئزاز ولهذا السبب كان روكتان كثيرا ما ينهره نهرا عنيفا الا أن هذه الشخصية الغريبة كان لها دور في الاحداث فقد

Annie leclerc, op. cit., p. 75

(٥)

Jean-Paul Sartre, La Nausée' Paris, Editions Gallimard, 1938, p. 17.

(٦)

Ibid., p. 81.

(٧)

اختارها الكاتب لتمثل بصورة ساخرة وقائمة الاوهام الثقافية كما كان على ممثلي الطبقة البرجوازية تمثيل أدوار اخلاقية لا تتفق مع واقعهم الفعلي (٨) .

لكن رب سائل يسأل من هو المثقف الذاتي ؟ انه كاتب بسيط يعمل في مكتب أحد المحامين ، وقد قرر يوما ان يقوم بتثقيف وتعليم نفسه عن طريق قضاء ساعات طويلة في القراءة في مكتبة البلدية ، وقد ارتاب روكنتان في أمر هذا الشخص وتساءل عن سبب وجوده في المكتبة في جميع الاوقات ولكنه سرعان ما اكتشف سر هذا الشخص وكذلك الطريقة العجيبة التي يسلكها لاختيار الكتب التي يقرأها وهي عبارة عن قراءة كل الكتب الموجودة على أرفف المكتبة وفقا لتسلسل الحروف الابجدية لأسماء الكتاب .

وكان « المثقف الذاتي » يشعر باعجاب شديد نحو روكنتان فقد كان يرى فيه شخصا متعلما ومثقفا لديه العديد من المعلومات . ونظرا لان روكنتان كان يعاني من الوحدة كما سبق ان ذكرنا كما كان يشعر بالملل الشديد لهذا كان يقبل على مضض مجالسة « المثقف الذاتي » والتحدث معه .

وبفضل مواجهة هذين الشخصين اصبح من السهل على القراء اكتشاف شخصيتهم الحقيقية . فالمثقف الذاتي كان يمثل كما ذكرنا المثقف الذي لا يتمتع بحاسة النقد والتمييز والذي كان يؤمن بالقضايا العامة والمبادئ الاولى بينما كان روكنتان يمثل النقيض فهو يتمتع بروح ناقدة فاحصة الى اقصى درجة (٩) .

لكن عملية التثقيف الذاتي التي بدأ المثقف الذاتي في اتباعها توقفت فجأة يوم ان طرد من المكتبة عندما ضبط وهو يتحسس ذراع تلميذ صغير في السن .

وتدور الرواية حول فكرة اساسية يمكن ان نقوم بتلخيصها في سطور قليلة وهي ان المعيشة العادية ليس فيها ما يبرر الحياة ، ويوضح الكاتب هذه الفكرة من خلال استعراضه لفكرة الملل فيبين لنا « الملل القاتل » الذي تعيش فيه الشخصية الاولى للرواية وهي شخصية بطل الغثيان انطوان روكنتان والذي يبدو واضحا في تجواله الطويل بدون هدف معين في ارجاء المدينة وفي قراءته الاعلانات المختلفة في الجرائد اليومية حتى يقتل الوقت وفي تأملاته الساخرة للأهمية الزائفة من وجهة نظره التي يعلقها الناس على احداث حياتهم اليومية مما ساعد على توضيح وترسيخ فكرة الملل الذي يعاني منه البطل وخاصة عندما اكتشف عدم جدوى حياته وحياة الآخرين ، فحياة الناس الذين يخالطهم ويجالسهم ويتابع تصرفاتهم ما هي الا حياة دمي تلعب ادوارا في مسرحية لكي تقدم

R. M. Albérès ,Jean-Paul Sartre, Classiques du xx^e Siècle Editions Universitaires, Paris, (٨) 1962, 151 p., p.30

R. M. Albérès, op. cit., p. 32.

(٩)

مبررا زائفا لوجودهم ، ويعلق الناقد الفرنسي المعروف البير يس Alberes في كتابه عن سارتر قائلا : « ان الحياة اليومية بما تمتاز به من دجل وخداع أو نزعة انتقاد ليس لها اي مبرر وهذا ما يشعر به روكنتان بالنسبة لنفسه وبالنسبة للآخرين ولهذا كانت تنتابه حالة الغثيان » (١٠) .

وهكذا يمكننا ان نقول ببساطة أنه ابتداء من اليوم الذي نكتشف فيه ان اعمالنا ليس لها مبرر يبدأ لدينا حالة احساس بالغثيان . وليس هذا الاحساس من خصائص أبطال اعمال سارتر وحدهم بل هو احساس ينتاب كل انسان عادي وطبيعي في فترة ما من حياته فالغثيان كما يقول البيريس في نفس الوقت هو السؤال لماذا أعيش ، والدوار الرهيب الذي يصيب الانسان عندما لا يجد ردا سريعا على هذا السؤال (١١) .

وهذا الرأي هو نفس ما يؤكد سارتر عندما كتب عمله الادبي المسمى « الكلمات Les Mots » ، فقد قال « لقد نجحت وأنا في الثلاثين من عمري ان أحقق ضربة ناجحة وهي ان أصف في « الغثيان » بكل أمانة - يجب ان تصدقوني - الحياة المرة التي ليس لها مبرر ، حياة أمثالي » (١٢) .

ولكن في هذه الحالة من اليأس والقنوط التي يمر بها الانسان الذي يكتشف أنه يعيش حياة لا مبرر لها يظهر له فجأة عامل ايجابي ألا وهو الحرية فالحرية هي التي يقع على عاتقها أو كما يقول البيريس هي « المحكوم » عليها بأن تجد معنى للعالم المحيط وللحياة وهو يشرح ذلك بقوله :

« نحن أحرار في أن نعطي أي معنى نريده لأي شيء نريده ، ولكننا مضطرون لأن نعطي معنى معيناً لكل شيء ، وان نفكر وان نفسر وان نختار » (١٣) .

فحياة الانسان في رأيه عبارة عن ممارسة مستمرة لحيته ثم يستطرد قائلا في نفس الكتاب :

« بما انها قادرة على الابداع ومبتكرة لمعاني الاشياء ، فنجد ان حياة الناس بطبيعتها عبارة عن مجهود متواصل فاذا تعب الناس من هذا النشاط المتواصل واذا ضعف مجهودهم في مجال وضوح الفكر واتخاذ القرار فلا شيء يصبح له اي معنى ، وتبدو لهم حياتهم التي منحت لهم دون مقابل فاحشة ومملة (« الذباب ») ويشعرون بأنهم « تكلمة عدد » (الغثيان) (١٤) .

Ibid., p. 34.

(١٠)

Albérès, op. cit., p. 34.

(١١)

Sartre, Les Mots.

(١٢)

Albérès, op. cit., p. 56.

(١٣)

Ibid.,

(١٤)

والإنسان الذي يشعر أن وجوده في هذا العالم عبارة عن زيادة في العدد فقط أي أنه شخص ليس لوجوده أي أهمية بل هو إنسان تافه يشعر بأنه منفي أو دخيل ورغم ذلك فهو وحده الذي يمتلك القدرة على اعطاء معنى للأشياء الموجودة في هذا العالم ، وهو وحده كذلك الذي يستطيع أن يغزو العالم وينتصر عليه .

وهكذا نرى أن جان بول سارتر بعد أن جرد الإنسان وحرمه من كل ما يكون ثقته بنفسه ، يعود فيمنحه هبة عظيمة هي الحرية التي يمكنه بواسطتها أن يستعيد كل ما فقدته ولكن يجب عليه أن يحسن استخدام هذه الهبة « لانتنا عندما نقوم بالتفكير وصياغة العالم ، نصبح مسئولين » (١٥)

ولا يجب أن نتهرب من هذه المسئولية ، كما يجب ألا نتجاهل المجهود المستمر والمتجدد بغرض اعطاء معنى للحياة .

ويجدر بنا هنا أن نتذكر أن هناك سبلا عديدة يتبعها بعض الناس للهروب من هذا الالتزام الذي تستوجبه حريتهم ، هذه السبل اطلق عليها سارتر اسم « تصرفات سوء النية » وهؤلاء البعض يعتبرون أنفسهم ذوي وجود راسخ غير قابل للتغيير وأنهم ليسوا مخلوقات مبتكرة دائما لمعان جديدة .

وقد قال سارتر حول هذا الموضوع في رواية « المهيلة » متحدثا عن أحد هؤلاء الناس :

« انه مخلوق من الحجر ، غير متحرك ، فاقد الحس (...) ، ليس لديه خطة في الحياة ، وليس لديه أي هموم » (١٦) .

ويدين سارتر هذه الأمنية السلبية التي تدفع الإنسان الى نبذ حياته كمخلوق حر يتحمل مسئولية أفعاله وقراراته ليعيش في صورة الشيء المتحجر بعيدا عن كل مسئولية ومن خلال نظرة الغير اليه . ويعلق الناقد البريس . قائلا :

« اذا كنا لا نريد . أن نتحمل مسئوليتنا كاملة وأن نكون أحرارا وليس مجرد مظهر مشرف فسنجد أنفسنا مضطرين الى اللجوء الى التمثيل (...) والا نتخيل وجودنا الا من خلال نظرة الآخرين » (١٧) .

ومن بين التصرفات التي اعتبرها سارتر من تصرفات سوء النية تلك التصرفات التي تدفع المرء الى تمثيل شخصية مخالفة لشخصيته الحقيقية وبدلا من أن يعيش حياته الحقيقية نجده « يلعب دورا » ويتقمص شخصية أخرى .

(١٥)

Albérès, op. cit., p. 62.

(١٦)

J. P. Sartre, le Sursis' Paris, Gallimard, 1945, 519 p., p. 107.

وقد عبرت بوضوح شخصية ماتيو ديلارو عن هذا التصرف في رواية « سن الرشد » قائلة :

« ربما أنه ليس في مقدورنا أن نتصرف بطريقة أخرى . ربما يجب علينا أن نختار بين أن نكون لاشيء أو أن نلعب دورنا الحالي . فان صح ذلك يكون الأمر مخيفاً لأن شخصيتنا ستكون قد زيفت وأبعدت عن أصلها » (١٨)

فالإنسان لا يكون انساناً بما تحويه هذه الكلمة من معانٍ إلا اعتباراً من الوقت الذي يقبل فيه مايجود به القضاء والقدر دون أن يلجأ الى تصرفات تمثيلية . فالحرية الشخصية تتخلص من التمثيليات التي تلتصق بها ولن يتهم ذلك إلا اذا تحملنا المسؤولية الشخصية لأفعالنا .



من الحرية الى الالتزام :

وهكذا يكتشف روكنتان بطل قصة الغشيان ذات يوم عدم وجود شيء في حياته له هدف أو مبرر ، وأنه إنما يعيش عيشة غير مجدية ليس لها هدف محدد فهي عبارة عن حياة ممنوحة له دون مقابل يقدمه أو عطاء يعطيه ، ولكنه يكتشف في نفس الوقت ان هذا الوضع لا يخلصه من حريته ومسئوليته وأنه بيده وحده أن يخلق المبررات لوجوده .

ويرجع سبب عدم ارتياحه وغثيانه أساساً الى أن حريته خاوية وجوفاء لا تجدها مجالا أو استعمالاً ، ولمعالجة هذه الحالة يجدر بنا أن نلتزم ، إلا أن ضرورة الالتزام وتوفير عمل لهذه الحرية الملحة لم يصورها لنا الكاتب في أولى رواياته . وظلت أعمال جان بول سارتر حتى عام ١٩٤٣ لا تتناول الا موضوع اكتشاف هذه الحرية وعدم جدواها ، فالإنسان الذي يكتشف في نفسه الحرية وعدم الارتباط بشيء معين لابد أن يسأل نفسه « لماذا أنا حر ؟ » وكما يقول البيريس :

« هذا هو الوقت الذي يكتشف فيه الإنسان ابن القرن العشرين الذي تحرر من الأحكام المسبقة والتقاليد ، والذي كان يحلم بالحرية الكاملة أن هذه الحرية لن يكون لها معنى اذا ظلت خاوية وجوفاء وغير ذات جدوى (...) » (١٩)

Albérès, op. cit., p. 69.

(١٧)

Sartre, Les Chemins de la Liberté' Tome 1' L'Age de Raison' Paris, Gallimard, 1945, 441 p. 181

(١٨)

Alberès, op. cit., p. 20.

(١٩)

فروكتتان وأمثاله يمتلكون حرية ليست محورة وغير واقعة تحت أي تأثير ولكنها لا تجد مجالا تطبق فيه . وفي رأينا أن أهمية « الغشيان » تنبع من أنها كانت تشكل خطوة ومرحلة على طريق وضوح الفكر الذي يبدأ باكتشاف الحرية ثم ينتهي أخيرا بالالتزام ويعلق على ذلك البيرس قائلا :

« انها تشير الى وجود فشل معين ، وهي تطرح سؤالا واستفهاما وهو أن الحرية ووضوح الفكر اللذين أكدناهما لا نفع من ورائهما الى أن نقوم باعطائهما معنى » (٢٠)

ويقع على عاتق المجموعة الروائية المسماة « طرق الحرية » أن تستكمل هذا المسار ، فالروايات الثلاث المكونة لهذه المجموعة تشكل ثلاث مراحل أساسية تبدأ بمرحلة اكتشاف البطل لحرية الجوفاء عديمة الجدوى وتنتهي بمرحلة اكتشاف المسئولية والالتزام اللذين يعطيان للبطل معنى ومبررا لكل حياته ووجوده .

وقد نشر الجزء الأول من هذه المجموعة الروائية في عام ١٩٣٨ تحت عنوان سن الرشد ويقدم لنا الكاتب في بداية الرواية بطل قصته ماتيو ديلارومن خلال حادث عادي من الحوادث التي تحدث في الطريق ، ولكن هذا الحادث البسيط كان يشكل بالنسبة للبطل حادثا له مغزى كبير وغني بالمعاني ، فحينما كان يسير ماتيو في الطريق تقدم منه أحد الشحاذين وطلب منه احسانا يشرب به مشروبا في أحد المقاهي القريبة ومقابل هذا الاحسان أعطاه الشحاذ طابع بريدا صادرا من مدينة مدريد، قائلا في نفس الوقت بعض الكلمات التي تدل على أسفه لعدم امكانه الذهاب الى أسبانيا والاشتراك في كفاح الشعب الاسباني من أجل الحرية . فتركه ماتيو واكمل مسيرته وهو يفكر في أنه هو نفسه يشبه هذا الرجل ، لأنه نجح حتى ذلك الوقت في عدم الالتزام بعمل يتطلب منه أي مخاطرة أو مسئولية وها هو ذا الآن قد بلغ سن النضج « سن الرشد » الذي يشكل مرحلة نضج لا تجد لها وظيفة وهي فارغة وخاوية ، فها هو ذا يتنزه في شوارع باريس بحريته الجوفاء ووضوح فكره الذي لا طائل من ورائه .

لكن من هو ماتيو ديلارو؟ انه مدرس فلسفة في إحدى المدارس الثانوية بالعاصمة باريس ، ليس له هدف معين في الحياة أو أمل يعيش من أجله ، وعند الانتهاء من عمله يقضي وقته في التجول دون هدف معين في شوارع الحي اللاتيني بصحبة بوريس وهو أحد تلاميذه القدامى أو بصحبة أخته المسماة ايفيش ذات المزاج المتقلب والتي يشعر ماتيو نحوها بعاطفة تشبه الحب ، ومن الصفحات الأولى للرواية نلاحظ أن ماتيو غارق في مشكلة معقدة تتلخص في أن عشيقته مارسيل قد حملت منه وتمثل هذه المشكلة الموضوع الاساسي الظاهري للرواية ، نظرا لأن ماتيو رفض حتى الآن أن يكون عبارة عن « رجل ضائع » له « زوجة وخمسة أطفال » (٢١)

Ibid., p. 22

(٢٠)

Sartre, L, Age de Raison, p. 182.

(٢١)

وانطلاقاً من هذا الموقف نجده لا يرغب في أن يشغل حريته ويجعلها ترتبط بهدف معين إذا تزوج من عشيقته وهو نفس السبب الذي جعله يرفض السفر إلى أسبانيا للقتال مع المناضلين مخالفًا ومناقضًا أفكاره ومعتقداته التي يعتنقها . وهكذا يبدو لنا منذ الوهلة الأولى أن الشكل المفضل للحرية بالنسبة لبطل الرواية هو أن يعيش مستقلاً دون أي قيود تشغله أو تحجب من حريته فهو يرغب في الحفاظ على حريته دون أن يشغلها أو يقيد بها أي قيد ، فهو إذا مثال ونموذج للرجل الواعي والمدرك لحريته والذي يسعى فهمها ويحور في معناها ، فهو رجل يرفض أن يلتزم بأي شيء خوفاً من أن يؤدي ذلك إلى إعاقة حريته من انطلاقها .

وكان ماثيو يبدو في نظر الآخرين في صورة « رجل حر » أيضاً كل منهم يحسده على موقفه ، لأنه في نظرهم جميعاً يتمتع بميزة كبيرة « فهو حر » ويبدو لنا من كل هذه الآراء الفهم الخاطيء لمفهوم الحرية فمارسيل عشيقته تلومه في أسى وحزن على إصراره على عدم الاعتماد إلا على نفسه . وعلى ألا يكون له من يرتبط به ، وعلى إصراره على بقائه حراً يتمتع بحرية مطلقة وتقول له « هذه هي رذيلتك » (٢٢)

أما بوريس تلميذه المخلص فله شأن آخر فهو يحسده على استقلاله ويعتبره أكبر دليل وبرهان على حريته وفي رأيه أن ماثيو له بعض الأهواء « ولكن ذلك لا يمنع من عدم ارتباطه بشيء فهو إنسان حر » (٢٣)

أما لولا مغنية النوادي الليلية وعشيقة بوريس فنجدها تخلط ما بين الحرية والاستقلال أو الأمان المادي وهذا يبدو واضحاً من كلامها مع عشيقها عن ماثيو فتقول :

« اني لاتساءل من منا أكثر حرية أنا أم هو فهو يعيش في مسكن وله دخل محدد ومعاش مضمون فهو يعيش كموظف صغير وعلاوة على ذلك كله فله هذه العلاقة (...) وبذلك تكتمل الصورة فلو بحثنا عن مثل للحرية لن نجد أفضل من هذه الصورة . أما عني فلا أمتلك الا ثيابي التي أرتديها بالإضافة إلى أنني أعيش بمفردي وأقيم في فندق (...) » (٢٤)

فيحاول بوريس جاهداً أن يزيل هذا الخلط في مفهوم الحرية لديها وأن يبين الفرق بين حرية ماثيو وحرية لولا فيقول لها موضحاً :

« انت حرة دون أن تفعلي شيئاً من أجل ذلك (...) ، أما ماثيو فحرية أرادها بعد تفكير (...) ، ان حريته لا تبدو للعين ولكنها بالداخل » (٢٥)

Sartre, L, Age de Raison, p. 20.

(٢٢)

Ibid., p. 44

(٢٣)

Ibid., p. 45

(٢٤)

L, Age de Raison, p. 45-46

(٢٥)

أما ماتيو نفسه فقد كان على دراية بما يظنه الآخرون عن « حريته » « ان الآخرين دانييل ومارسيل وبرونيه وجاك بروني على هذه الصورة أي صورة الرجل الذي يريد أن يكون حرا ، يأكل ويشرب مثل الناس أجمعين وموظف بالحكومة ولا يعمل بالسياسة ويقرأ جريدتي « لوفر » (L'Oeuvre) و « لوبوبيلير » (Le Populaire) ولديه مشاكل مادية ولكنه رغم كل هذه القيود يريد أن يكون حرا ببساطة كغيره ممن يريدون مجموعة طوابع بريدية ، فالحرية هي حديقته السرية وهي اتفاقه السري مع نفسه ، وهو في الحقيقة شخص كسول وبارد وليس لديه احلام غير واقعية بل هو انسان عاقل جدا في الواقع استطاع أن يصنع لنفسه بداء سعادة متوسطة ولكنها متينة أساسها عدم النشاط وتبرر وجودها من وقت لآخر بادعاء أفكار سامية » (٢٦)

لكن اذا كان ماتيو يبدو في نظر الآخرين على هذه الصورة الا أنه كان يرغب في الحرية طوال حياته فقد كان عمره ستة عشر ربيعا عندما قال لنفسه مخاطبا اياها « سوف أكون حرا » وبعد ذلك بعدة سنوات كرر نفس العهد على نفسه ولكن يقول آخره « سوف أحقق سعادتي » وما هو ذا الآن يفكر ويطلق التفكير في السبب الذي أدى به الى أن يكون هذا الموظف الذي ليس له هدف معين وهو الشخص الذي قضى سنوات طويلة ينتظر : « هذه السنوات الأخيرة التي لم تكن الا انتظارا يشبه انتظار الجنود ليلة المعركة (...) وكان همه الوحيد فيها أن يبقى غير مرتبط بأي شيء . انتظارا لانجاز فعل حر ومتزن تلتزم به حياته كلها ويكون ذلك بداية الحياة جديدة (...) وكان يتصور دائما انه في مكان آخر غير هذا العالم وانه لم يولد بعد وكان في حالة انتظار مرت السنون خلالها في بطن وفي غفلة وأمسكت به من الخلف (...) واستمر هو في الانتظار » (٢٧)

أما الآن فانه لا ينتظر أي شيء فهو أجوف على الرغم من أنه انسان حر ، حر في أن يفعل ما يشاء وأن يمارس حريته بالاسلوب الذي كان يشرحه لتلميذه بوريس :

« علينا واجب معين هو أن نفعل كل ما نشاء وأن نؤمن بكل ما نتصور أنه صحيح ، والا نكون مسئولين الا أمام أنفسنا وان نعيد التفكير باستمرار في كل ما نؤمن به وفي الدنيا كلها » (٢٨)

يا لها من حرية ! انها حرية الانسان الأناني غير المسئول ومثل هذه الحرية تجعل الانسان يعيش في عزلة تامة وتجعله يشعر بالقلق كذلك وهذا ما كان يشعر به ماتيو نفسه في وقت ما عندما يفكر في احتمال زواجه من عشيقته مارسيل بعد أن علم بحملها :

Ibid., p. 71.

(٢٦)

Ibid., p. 73-74

(٢٧)

L'Age de Raison, p. 202.

(٢٨)

« كان وحيدا وسط سكوت رهيب ، انه حر ووحيد وبدون مساعدة وبدون مبرر ، محكوم عليه أن يتخذ قرارا لا رجعة فيه ، محكوم عليه أن يكون حرا الى الأبد » (٢٩)

ليس لماثيو هدف معين في الحياة فحياته غير مجدية بل الأكثر من ذلك انه يعتبر نفسه انسانا فاشلا وخوفه من أن يفقد حريته التي لم يستخدمها ضيع على نفسه كل فرص الفوز والنجاح فهو على حد قوله الشخص « الذي لم يتعلم اللغة الانجليزية والذي لم يلتحق بالحزب الشيوعي والذي لم يذهب الى أسبانيا » (٣٠) وهكذا تجده يلحق بالبطل الذي سبقه في رواية الغثيان وروكتان الذي يتوصل الى نفس النتيجة :

« أنا حر ولم يتبق لي أي سبب أعيش من أجله » (٣١)

ما هي اذن فائدة هذه الحرية التي لا استخدام لها ، انها حرية محكوم عليها ان تظل غير مجدية وغير فعالة فماثيو الذي ظل ينتظر طويلا فعلا يلتزم به نجده الآن يحسد أصدقاءه الذين اختاروا طريق الالتزام فأصبح لديهم منذ ذلك الحين هدف في الحياة يسعون لتحقيقه ولم يترددوا لحظة واحدة في التخلي عن حريتهم الشخصية وان يضحوا باستقلالهم ويتخلصوا من أنانيتهم في سبيل شيء آخر وان يختاروا هدفا لحياتهم ومنذ ذلك الحين اكتسب كل فعل يفعلوه معنى وأصبح له مبرر . وعندما كان يتذكر صديقه برونيه الذي أصبح عضوا عاملا في الحزب الشيوعي الفرنسي كانت تراوده هذه الفكرة :

« لقد سلك طريق الالتزام ، وتغاضى عن حريته ، فهو الآن ليس الا جنديا . وهكذا استعاد كل شيء حتى حريته ، وهو الآن أكثر مني حرية فهو على وفاق مع نفسه وعلى وفاق أيضا مع الحزب » (٣٢)

وتذكر ماثيو آخر لقاء في بيته تم بينه وبين صديقه برونيه ، وكيف حاول بورنيه جاهدا أن ينقذ ماثيو بأن يشجعه ويحثه على الالتحاق بالحزب الشيوعي ، والانضمام اليه ، وحاول بقدر المستطاع أن يبين له عدم جدوى وعدم فاعلية حريته هذه التي يحافظ عليها باصرار وعناد ما لم تلتزم بهدف معين في الحياة ومن بين ما قاله له :

« لقد سلكت طريقك (...) فأنت تنتمي الى عائلة برجوازية ولم يكن ممكنا أن تأتي للانضمام اليها بسهولة فقد كان ولا بد أن تتحرر أولا ، أما وقد تم ذلك الآن وأصبحت حرا فما هي فائدة هذه الحرية ما لم

Ibid., p. p. 357.

(٢٩)

Ibid., p. 195

(٣٠)

La Nausée p. 202

(٣١)

L, Age de Raison, p. 175.

(٣٢)

تسلك سبيل الالتزام ؟ لقد أمضيت خمسة وثلاثين عاما من عمرك في التخلص من القيود التي فرضتها عليك نشأتك والنتيجة هي الفراغ (...) ولقد تنازلت عن كل شيء لتبقى حرا ، قم بخطوة أخرى وتنازل عن حريتك نفسها وبذلك سوف تسترجع كل شيء » (٣٣)

وكان ماتيو ينصت باهتمام شديد الى حديث صديقه وهو مقتنع تماما بصحة ما جاء فيه ، فهو نفسه قد لاحظ أن الالتزام يمنح الأشياء والحياة كذلك معنى وصدقا ، ولم يستطع منع نفسه من أن يقول ذلك لبرونيه :

« بالنسبة لك ، أنت مثلا غير زائف وكل ما تلمسه يبدو حقيقيا ومن اللحظة التي دخلت فيها حجرتي أصبحت تبدو حقيقة. وفي نفس الوقت أشماز منها » ثم أضاف فجأة « أنت رجل » (٣٤)

وفي الواقع كان برونيه يبدو أكثر صدقا وأكثر واقعية لأن لحياته معنى ولوجوده مبررا ، وبدأ على ماتيو وكأنه يقاوم الاغراء وأنه يحاول أن يقبل دعوة صديقه للانضمام للحزب الشيوعي وأن « يعطى لحياته معنى ، وأن يختار أن يكون رجلا يعمل ويؤمن بشيء فيكون في ذلك خلاصه » (٣٥)

لكن على الرغم من كل هذه المغريات وعلى الرغم من أيمان ماتيو بقيمة الالتزام نجده في النهاية يرفض الانضمام الى برونيه ورفاقه ويعتذر له قائلا : « اني اعتقد مثلك في أن الانسان لن يكون رجلا طالما لم يجد الشيء الذي يقبل أن يموت من أجله » (٣٦).

وهكذا يظل ماتيو ينتظر ثم ينتظر ذلك « الفعل » الذي بواسطته يلتزم الانسان الى الابد .

ثم نجد أن هناك شخصا آخر يشعر نحوه ماتيو بنفس الشعور والاحساس وهو صديقه جوميز الاسباني الذي يعتبره مثلا للانسان الحى بمعنى الكلمة لأن له هدفا في الحياة يعيش من أجله كما أنه ليس حرا بطريقة جوفاء غير مجدية . وعندما اختار جوميز طريق الالتزام فقد استعاد اتصاله بعالم الواقع . كان هذا ما أحس به ماتيو أثناء تناوله معه وجبة الغذاء وقال لنفسه :

« ان قطع اللحم موضوعة على المائدة ، واحدة له واحدة لى . وهو له الحق في أن يتذوق قطعته ، وله الحق في أن يقطعها بأسنانه البيضاء الجميلة ، كما أن له الحق في أن ينظر الى هذه الفتاة الجميلة الجالسة على

Ibid., p. 172

(٣٣)

L, Age de Raison, p. 173

(٣٤)

Ibid., p. 176

(٣٥)

Ibid, p. 177.

(٣٦)

يساره وأن يفكر يا لها من فتاة جميلة أما أنا فليس لي هذا الحق . اذا أكلت فهناك مائة أسباني ممن ماتوا سوف ينقضون على لأنى لم أدفع الثمن » (٣٧)

أن جوميز وحده يتمتع بهذا الامتياز لأنه قد اختار ويحمل مسؤوليته ويعمله هذا استطاع أن يستعيد العالم بكل حقائقه فمقابل التزامه قدم له العالم كهبة . أما هو فلا يزال يعيش بدون هدف بل الأكثر من ذلك أنه قد ضيع كل هذه السنوات من عمره هباء وفكر في حالته :

« لقد عشت حياة بلا أسنان (...) ، نعم بلا أسنان . لم أقضم مرة واحدة ، كنت دائماً انتظر ، وكنت أبقى نفسى لشيء ما سيأتى حتماً بعد ، وهأنذا قد اكتشفت أنه لم يعد لي أى أسنان » (٣٨)

وينتهي الجزء الأول من المجموعة القصصية « طرق الحرية » بنغمة يائسة وحزينة ليس فيها أى أمل ، فنرى ماتيو وحيدا في بيته وقد تركه صديقه دانييل سرينو بعد أن أعلن له عزمه على زواجه من عشيقته أى مارسيل وهكذا يتم حل مشكلة حمل عشيقته وهى المشكلة التى كان يعيش فيها ماتيو منذ بداية القصة وأصبح الآن في مقدوره الاحتفاظ باستقلاله وهو المظهر الوحيد للحرية بالنسبة له كما سبق أن أشرنا ، ولكنه يكتشف في أسى أنه لا يتمتع بحرية الآن أكثر مما سبق كما كان يظن أن « الحياة قد منحت له بدون مقابل ، فهو عبارة عن شيء لا يذكر ولا يوجد بصيص من الامل في تغييره فقد اكتملت معالم جياته » (٣٩). وحياته السابقة فاشلة .



مرة أخرى نعود ونلتقى بماتيو ديلاو وبقيّة شخصيات الرواية الأولى ، وذلك في الجزء الثانى من المجموعة القصصية طرق الحرية ، وقد أسماه الكاتب المهله ، وقد نشر هذا الكتاب في عام ١٩٤٥ وهو نفس العام الذى نشر فيه الجزء الأول سن الرشد ولكننا نكتشف أن ماتيو لا يلعب الدور الرئيسى في هذا الكتاب الجديد ، ولم تعد الامور تخصه بمفرده فهناك حدث ضخم يفوق مشكلته الشخصية فى الأهمية ألا وهو تلك المأساة التى كانت تعيشها أوروبا خلال الأيام القليلة التى سبقت اندلاع الحرب العالمية الثانية ، وتوجد فترة زمنية مقدارها شهران فقط فيما بين نهاية سن الرشد وبداية المهله .

في هذه الأيام التى اتسمت بالتوتر كان مصير العالم يتقرر من خلال مجموعة من الاشخاص ، وفي الواقع أن مسؤولية القرار الذى سوف يقود العالم نحو الدمار أو السلام لم تكن تقع على عاتق دلاديه أو تشميرلين أو هتلر ولكن هذه المسئولية كانت تقع على كل الذين يقيمون في شتى العواصم الأوروبية ويتربعون في هلع أو في أمل .

Le Sursis, p. 321.

(٣٧)

L'Age de Raison, p. 273.

(٣٨)

Ibid., p. 441.

(٣٩)

فهذا القرار المفرع لن يتوقف فقط على محادثات برشتسجرون في المانيا ولكنه يتوقف على ضمير وعمل ومسؤولية كل فرد سواء في ذلك الرجل التشيكي العادى المحاصر في منزله من قبل أنصار هاينلاين أو ذلك الصيدلى الفرنسى البسيط الذى يعيش في أى بلدة صغيرة في فرنسا ويكتشف أنه يحمل ورقه التجنيد رقم ٢ ويستعد للسفر واللاحق بموقع التجمع ويعبر البيريس عن ذلك بقوله :

« ان ظاهره جماعية مثل الحرب ليست كيانا في حد ذاتها بل هي عبارة عن تجاور بين الضمائر والمسئوليات لدى ملايين من الأشخاص » (٤٠).

ويهدف سارتر من رواية المهله أن يبين لنا أن هذا الموقف العالمى الجماعى يفرض نفسه على كل ضمير فردى ، فكل شخص يستطيع على حده أن يستمر في حياته الخاصة بما تتضمنه من مشاكل شخصية ، ولكنه في نفس الوقت لا يستطيع أن يتجاهل المشكلة الجماعية التى تواجهه وهى الحرب .

« الحرب هى نفس الموضوع الذى يخص كل انسان ، ويوجد خارج نطاق كل رجل ، ويفرض نفسه على الجميع » (٤١) .

ولكى يبين لنا هذا الوجود المتعدد للحدث ، استخدم الكاتب اسلوبا متميزا فنجده يبدأ بالكلام عن شخصية توجد في باريس وبعد ذلك بسطرين أو نحو ذلك يتكلم عن شخصية أخرى توجد في برلين ويستمر في استخدام هذا الاسلوب الى آخر الكتاب وكان يرمى من وراء ذلك الى تأكيد أن الحرب ظاهرة جماعية تخص العالم كله . وهذا ما يكتشفه الناس بأنفسهم في جميع انحاء العالم عندما ينتظرون نتائج اللقاءات التى تمت بين تسميرلين وهتلر فنقرأ في بداية الرواية :

في يوم الجمعة ٢٣ سبتمبر ، والساعة الآن السادسة عشرة وثلاثون دقيقة في برلين ، والخامسة عشرة والثلاثون دقيقة في لندن ، وكان الفندق غارقا في الملل فوق هضبته وكان مهجورا وكنيا ولا يوجد به الا رجل مسن . وكان الناس في انجولام وفي مرسيليا وجود ودوفر يتسائلون « ماذا يفعل هذا الرجل ؟ لقد تجاوزت الساعة الثالثة فلماذا لم ينزل ؟ (...) وكان الصحفيون ينتظرون في بهو الفندق ، وكان ثلاثة من قادة السيارات ينتظرون في الفناء دون حركة وهم جالسون أمام عجلة القيادة داخل سياراتهم ، وعلى الناحية الأخرى من نهر الراين كان ينتظر في سكون داخل بهو فندق دريسين رجال بروسيا طوال القامة يلبسون ملابس سوداء (...) » (٤٢) .

Albérès, op. cit., p. 102.

(٤٠)

Ibid, p. 103

(٤١)

Le Sursis, p. 5

(٤٢)

وكسائر الفرنسيين كان ماتيو ديلاو يتابع هذه الأحداث ولكن بدون حماس كما هو واضح وكان يعيش في سأم على الشاطئ في مدينة جيون لابان حيث يقضى اجازته مع أخيه جاك وزوجته أوديت ، وكل الأيام متشابهة بالنسبة له وتزدون جديد ، ويصف لنا الكاتب هذه الحالة في قوله :

« فتح ماتيو عينيه ، إنهما عينا طفل حديث الولادة لأنها مازالت عمياء وكان يتساءل « وما الفائدة » مثلما يفعل كل صباح (...) . وكانت هناك فيما مضى فترات صباحية مختلفة تمثل بدايات رائعة لأمر جديد ، وكان جرس المنبه يدوي فيستيقظ فجأة وعيناه حادتان وجسمه منتعش ، وكأنه يستيقظ على صوت النفير . أما اليوم . فلا توجد بداية ولا يوجد شيء يمكنه أن يشرع في عمله ، ورغم ذلك يجب عليه أن يغادر فراشه (...) وأخرج ساقيه من السرير ونهض ثم خلع بيجامته وتساءل « وما الفائدة » ، واستلقى ثانية على ظهره فوق السرير وهو عار تماما ووضع يده تحت عنقه وبدأ يتبين السقف من خلال غشاوة بيضاء انا انسان ضائع تماما . فيما مضى كنت أحمل الأيام على ظهري وكنت أجعلها تمر من ضفة الى أخرى ، أما الآن فهي التي تحملني » (٤٣) .

ولكن هذا الوضع تغير تغيرا كاملا ولم يستمر أكثر من ذلك فمنذ اليوم الذي قرأ فيه أنه يحمل ورقة التجنيد رقم ٢ ، وعلم أن من اللازم أن يسافر ليلحق برفاق السلاح ، لم يستطع أن يستمر على حالته السابقة من عدم الاكتراث وعدم الاهتمام بالحرب ، وكان هدف الكاتب من خلق هذا الموقف هو محاولة إيجاد حل لمشكلة ماتيو يحسم الصراع الذي يعانيه وأن يوضح له أن حياته لا تتوقف عليه وحده وعلى حريته التي استطاع بنجاح أن يبقها بدون استخدام حتى الآن وإنما هي في الواقع متوقفة على موقف معين ووجد نفسه فيه وهو موقف الحرب الوشيكة الحدوث انه لا يزال حرا ولكن الحرب أمر يخصه ولا يمكنه أن يتجاهلها وهكذا نجد أن حريته لا حول لها ولا قوة وهي ضعيفة لاتعرف لنفسها خلاصا أو منفذا للهروب من هذا الموقف الخارجى ولكن ماتيو لم يقدر مسؤوليته في بادی الأمر وهذا واضح من استجابته لنداء التعبئة كما شرحه لأخيه :

« لا يمكنني أن أتصرف بطريقة أخرى . أما أن تكون هذه الحرب عادلة أو غيرها فهذا أمر ثانوى بالنسبة لي بعد ذلك » (٤٤) .

والاكثر من ذلك أنه شعر بخيبة الأمل واليأس عندما فكر في أنه سوف يتخلى عن كل شيء ، وأنه سوف يترك كل ما حوله ليسافر « الى حرب من أكثر الحروب سخافة ، وهي حرب مضمون خسارتها مقدما ، وكان

Le Sursis, p. 88-89

(٤٣)

Ibid., p. 125.

(٤٤)

يشعر أنه يغوص في أعماق المجهول الى أن تلاشى (...) انه لاشيء وهو شخص بدون شخصية وليس له سن معينة ، انه شخص سرق مستقبله وأمامه أيام لا يمكن التكهن بها » (٤٥) .

أى أن ماتيو ديلا رولا يزال حرا ، ولكنه لا يعيش في حالة الفراغ الناجمة عن حالة عدم الاستقرار كما ورد في الرواية الأولى سن الرشد ، بل انه يعيش في موقف معين هو موقف الحرب ، ونلاحظ أنه يتمتع بشيء من الحرية في هذا الموقف وهى حرية يمكن أن نعتبرها مطلقة من وجهة نظره ففى مقدوره أن يستجيب لنداء التعبئة العامة ، أو أن يهرب الى سويسرا أو أن ينتحر فهو اذن حر الارادة ، حر في اتخاذ القرار ولكنه ليس حرا في تجاهل الموقف بل هو مضطر الى مواجهته .

وقد اعتبر ماتيو قراره الخاص بالاستجابة لنداء التعبئة العامة بمثابة قطعة مع ماضيه وقبل أن يطوى الصفحة الأخيرة من هذه الفترة من حياته ذهب قبل أن يلحق برفاقه الى شقته في باريس ليستعيد ذكرياته وذكريات كل من عرفهم الى يومه هذا ويريد الآن أن ينسأهم « واستدار فجأة وجال ببصره في حجرة مكتبه وكانت تتملكه سعادة خالية من الانفعال فقد خيل اليه أنهم جميعا هنا محبوبسون وقد فارقوا الحياة : مارسيل وبورنيه ، وبوريس ودانييل فعندما حضروا اليه وقعوا في الشرك وسوف يبقون فيه (...) » (٤٦) ثم غادر شقته وذهب يتجول على الكبارى الممتدة عبر نهر السين في باريس وقد بدا له أنه أصبح الآن بلا ماض ، ينعم بالحرية ولكنه وحيد وقد بدت له الحرية التى طالما تمسك بها وكأنها منفى :

« ان الحرية هى المنفى وأنا محكوم على أن أكون حرا (...) ولكن ماذا سأفعل بهذه الحرية ؟ وماذا سأفعل بنفسي ؟ (...) انه وحيد على هذا الجسر » ووحيد في هذا العالم وليس في استطاعة أحد أن يصدر له أمرا ثم قال لنفسه وقد ظهرت عليه علامات الارهاق « أنا حر لاشيء » (٤٧) .

وبناء على ذلك استقل باحساس من الارتياح والسعادة القطار الذى سوف يقله الى مكان تجميع المجندين في المرحلة الأولى من الحرب تلك الحرب التى تمنى في هذه اللحظة أن تكون متبوعة « ربما بالموت أى الحرية » (٤٨)



Le Sursis, p. 132.

(٤٥)

Ibid., p. 394

(٤٦)

Le Sursis, p. 419-420.

(٤٧)

Ibid., p. 462.

(٤٨)

ثم نلتقى في الجزء الثالث من مجموعة « طرق الحرية » الذي ظهر في عام ١٩٤٩ تحت عنوان « موت النفس » بماتيو ديلارو في بداية الرواية وهو بين مجموعة من رفاقه الجنود الهاربين بعد أن تركهم ضباطهم وهم ينتظرون في شبه ارتياح وقت حضور الألمان لأخذهم أسرى وكان هؤلاء الجنود يعانون من حالة فظيعة من المهانة والقذارة والجوع وكانوا يشعرون أنهم معزولون عن باقى العالم ومنبوذون ولكنهم اكتشفوا معنى التضامن في هذه العزلة ، وكان ماتيو يشعر في البداية أنه مختلف عن الآخرين وكان يجد صعوبة كبيرة في الاختلاط بهم والعيش معهم وكان يشعر نحوهم بنوع من الاشمئزاز في بعض الأحيان ومن ثم كان شعره بالوحدة والعزلة أكثر حدة ، ولكنه اكتشف بمرور الوقت انه ليس أفضل منهم وليس له الحق في احتقارهم وعدم التضامن معهم لأنه في الواقع واحد منهم وهم جميعا متضامنون وهذا التضامن يشكل قوة في حد ذاته سوف تظهر وتتضح وقت هروب الضباط وتركهم جنودهم دون مأوى أو قيادة مستغلين سواد الليل فنرى الجنود جالسين جميعا في الظلام ينصتون لأصوات العربات وهى تتحرك في حذر حاملة الضباط ، وكلهم أمل في أن يتلقوا منهم ولو كلمة واحدة تجيب على تساؤلاتهم وتشعرهم بالراحة . ولكن يطول انتظارهم دون جدوى وهنا يجد ماتيو نفسه غير قادر على الاهتمام بهم وبقلقهم ومخاوفهم لأنه يشاركهم في مصيرهم المبهم وكان الجنود ينظرون الى أنفسهم نظرات تعبر عما يجيش في صدورهم :

« كان ماتيو ينظر الى لونجان دون سبب معين غير أنه كان في مواجهته وكان لونجان ينظر اليه بالمثل لنفس السبب ، وكان شارلو ولا تكس ينظر كل الى الاخير ، وكان الجميع ينظر بعضهم الى بعض ، ويبدو عليهم جميعا أنهم كانوا ينتظرون شيئا يقال ، ولكن لم يعد هناك شيء يستحق القول ، وفجأة ابتسم لونجان لماتيو ورد له ماتيو الابتسامة ، وابتسم شارلو ، وابتسم لا تكس ، وأضاء القمر هذه الابتسامات على شفاههم كأنها زهرات باهتة (٤٩) .

وهكذا تم التعبير عن التضامن في صورة النظرة والابتسامة التي جعلتهم جميعا يشعرون انهم يشتركون في نفس المصير . كما ان حالة الفراغ التي أحاطت بهم بالاضافة الى الشعور بالخوف من الاسر الذي ينتظرهم دفعهم الى ارتكاب افعال مشينه مثل الاقبال على السكر الشديد وحتى يؤكد ماتيو في نفسه فكرة التضامن والتآخي اضطر ان يشاركهم مواقفهم المخجلة وأقبل على السكر والشرب معهم رغم عدم رغبته الحقيقية في ذلك لأنه كان يرفض ان ينساق الى هذا الموقف المهين وأراد ان يتصدى للأساليب المخزية التي يسلكها رفاقه والتي لم تكن تحوز اعجابه بل كانت تنال احتقاره واكتشف في هذه اللحظة انه اذا أراد التوصل الى العالم الحقيقي مثل صديقيه جوميز وبرونييه « فيجب قبل كل شيء ان تكون لديه الشجاعة على تحمل مسئولية أفعاله ، وان يحسن استخدام حريته ، وان يتعرف على التضامن الواعي ، وأن يلقي مسئوليته بشقل في الميزان (٥٠) .

La Mort dans l'Ame³ Paris Gallimard, 1949, p. 122

(٤٩)

Albérès, cp. cit., p. 108

(٥٠)

كما أنه اكتشف أيضا أن قيمة الحرية تكمن في كيفية استخدامها وأنها تتطلب التزاما ومسئولية بالاضافه الى الاقدام على فعل محدد في موقف معين . وتوصل الى ان الواجب يحتم عليه ان يدرك الواقع الملموس وهو ان على المرء ان يعمل ويدفع الثمن ، وان هذا الواقع هو الحقيقة التي طالما تهرب من مواجهتها وعندما أعلنت الهدنة وجدنا ان غضبه واحساسه هو وزملاؤه بالمهانة والخزي قد ازداد ازديادا كبيرا ، وشعر ماتيو بالرغبة والحاجة الى « الاندفاع في عمل مجهول لا يعرف كنهه مثل الاندفاع داخل غابة مجهولة ، وهذا العمل عبارة عن فعل يلتزم به الانسان ولا يفهمه أبدا بدرجة كاملة^(٥١) » وقد ازدادت هذه الرغبة لديه يوما بعد يوم .

وأخيرا تسنح الفرصة لماتيو والتي طالما كان ينتظرها ، ففي أحد الأيام جاءت الى القرية التي يقيم بها مع زملائه مجموعة جنود من القناصة من إحدى الوحدات المجاورة ولديهم مهمة فدائية تتطلب التضحية بالنفس وهدفها هو عرقلة تقدم جيش العدو ، وعند سماع هذا الخبر اختبأ رفاق ماتيو كالفئران المذعورة في قبو كنيسة القرية ، اما هو وصديقه في المحنة المدعو « بينت » فقد قررا الانضمام الى مجموعة القناصة وأخذ كل واحد منها بندقيته وصعدا معهم الى قبة كنيسة القرية للنضال ومقاومة العدو المنتظر .

وبدأ ماتيو في اطلاق النيران من أعلى الكنيسة ومواجهها ببندقيته الضعيفة المدافع والدبابات القوية المعادية وربما كان صنعه هذا غير مجد ولكنه اتاح له الفرصة ليثبت لنفسه أنه يقوم بعمل وأنه يترك أثرا لحياته ووجوده وسيروه في أرجاء هذه الارض ، وقد أحس بفرحه غامرة عند قتله أول رجل من رجال العدو :

« كان ماتيو ينظر الى الرجل الذي قتله وهو يضحك ، فقد كان يحاول منذ أعوام طويلة ان يقوم بعمل ولكن دون جدوى لان نتائج اعماله كانت تسلب منه أولا بأول وكأنه انسان ضعيف لاحول له ولا قوة ، اما في هذه المرة فلم يسلبه أحد شيئا بالمرة ، لقد ضغط على الزناد ولأول مرة يحدث شيء نهائي (...) فهذا هو ذا قتيله ملقي على الارض وهو يمثل تجسيدا لعمله وأثرا من أثار مروره على الارض^(٥٢) .

وكأنه بصنيعه هذا قد تبرأ نهائيا من الحذر الذي طالما اتبعه في حياته وأثبت انه اذا أراد أن يعيش فيجب عليه المخاطرة ، وكأنه أيضا قد تأثر من كل اعمال الجبن التي تعرض لها في حياته ، واستطاع في نشوة ان يؤكد ذاته وهو الآن لأول مرة في حياته موجود بالفعل وهو ايضا انسان حر :

« واقترب من حافة السور وأخذ يطلق النيران وهو واقف وكان ذلك بمثابة انتقام فظيع ، ان كل طلقة قد تنتقم له من خوف قديم ، هذه الطلقة على لولا التي لم أجرؤ ان أسرقها ، وهذه الطلقة على مارسيل التي

La Mort dans l'Ame, p. 95.

(٥١)

Ibid., p. 236.

(٥٢)

كان يجب على ان اتركها ، وهذه طليقة على أوديت التي لم أرغب في مضاجعتها وهذه طليقة على الكتب التي لم أجرو على كتابتها ، وهذه على الرحلات الى خارج الوطن التي حرمت نفسي منها (...) واستمر في اطلاق النيران كان نقيا ، وكان قويا ، وكان حرا^(٥٣) .

وبهذا يكون ماتيو قد أنجز مهمته ، فقد التزم ووجه حريته نحو الالتزام واستطاع بعمله هذا ان يتجنب اللعنة التي كانت تجعلها حرية « جوفاء » وحرية « في الفراغ » كانت تنزلق على سطح العالم الى مالا نهاية دون ان تقدر على التدخل فيه وأن تترك بصاتها عليه . ورغم ذلك يظل فعل ماتيو صبيانيا ولا يلقي ضوءا كمللا على القيمة الحقيقية للالتزام الفعلي ، ففعله هذا ساعده في ان يثبت لنفسه « انه كان مخطئا حتى ذلك الوقت ، وان الانسان قد خلق لاضفاء المعاني على الحياة ، وانه لايجب عليه ان يسمى وضوح الفكر ثقافة أنانية خاصة به بل هو معرفة كاملة بالعالم المحيط وقرار جريء لتشكيله وفق هواه كييقها يشاء »^(٥٤) .

لقد كانت حريته السابقة حرية سلبية خاطئة كانت تدفعه الى مشاهدة العالم من الظاهر بدون محاولة التدخل والالتزام بعمل فيه ، لأنه بالفعل وبالفعل فقط تأخذ الحرية معناها الحقيقي :

« وهكذا لاكتشف الا من خلال الفعل ، وتتوحد مع الفعل ... فالحرية ليست فضيلة داخلية تبيح لنا الابتعاد عن المواقف التي تتطلب عملا عاجلا ... ولكن على العكس من ذلك هي القدرة على الالتزام بفعل معين في الحاضر في سبيل بناء المستقبل »^(٥٥)

وفي نفس الوقت الذي نشر فيه جان بول سارتر هذه الأفكار عن الحرية والالتزام في أعماله الروائية نجده قد أظهر هذه الآراء نفسها في أعماله النظرية أيضا ففي كتابه المسمى ما الأدب (مواقف ٢) يشرح الكاتب ضرورة التزام الكتاب .



التزام الكتاب :

في مقال نشر في جريدة « الأخبار الأدبية » بعد موت سارتر كتب جان فرنسوا كان :

« نفس الشيء يمكن ان يقال عن سارتر وفولتير وهيجو ... كانوا وأعمالهم شيئا واحدا لا ينفصل وسيطر عليهم الثلاثة بالحاح - كل على طريقته - موضوع الحرية وحده ، ألم يستغلوا لخدمة معركة الحرية كل

La Mort dans l'Ame, p. 244-245.

(٥٣)

Albérès, op. cit., p. 109

(٥٤)

Lartre, Matérialisme et Révolution, in Situations III, p. 205-206.

(٥٥)

الوسائل الفنية التي وفرها لهم علم التعبير (...) ، ألم يضيفوا علاوة على ذلك ثمرة أفعالهم الخاصة ، قاصدين من وراء ذلك ان يبرهنوا على ان أي فكرة لن تساوي شيئاً ما لم تقدم البرهان على صحتها ، ماقيمة الكتابة عن الحرية ؟ ليس للحرية أي قيمة ما لم يصاحبها كفاح مستمر من جانب الكاتب من أجل الحرية ، حريته وحرية الآخرين » (٥٦)

وفي الحقيقة ان التطور الفكري لدى جان بول سارتر قد قاده الى الاعتقاد بأن من الواجب على الكاتب ان يلعب دورا سياسيا قبل كل شيء. وقد أنشأ لهذا الغرض مجلة « الازمنة المعاصرة » Les Temps Modernes ولكنه لم يتطرق الى موضوع تحديد دور الكاتب وأهمية الكاتب الا في كتابه المسمى ما الأدب ومن أهم الأفكار التي نادى بها في هذا البحث وجوب استبعاد الانتاج الأدبي الشعري أو الانتاج الفني أو الانتاج الغيبي ، وذلك من أجل الأدب السياسي والاجتماعي الذي يهدف أساسا الى الاتصال بالناس ، وقد كتب سارتر قائلا في هذا الصدد :

« على هؤلاء الذين يتمتعون بحسن النية المطلقة ان يعيشوا التاريخ مع الابقاء على نقائهم وان يحولوا مطالبهم الصورية الى مطالب مادية مؤرخة ، بدلا من أن يبقوا في عزلة ووحدة موجهين في الفراغ نداءات لا يشعر بها أحد عن المصير الانساني بصفة عامة (...) » (٥٧)

وهكذا نرى ان على الكاتب الا يتطرق الى الموضوعات العالمية الشاملة بل يجب عليه ان يتمسك بموضوعات الساعة ، فالكاتب لا يمكنه ان يتجاهل العصر الذي يعيش فيه ولا يهتم به لأن العصر إن عاجلا أو آجلا سوف يؤثر على حياته لذلك يجب على الكاتب ان يهتم بوقته ومحرم عليه أن يحتفى وراء أسوار الموضوعات الابدية ، ويجب على كل كاتب وأديب ان يتخذ موقفا محددًا من قضايا عصره الذي يعيش فيه ، أو بمعنى آخر وأصح ان يلتزم فبالنسبة لنا (الكتاب) ان أي عمل أدبي هو في حد ذاته التزام طالما الكتاب أحياء اليوم قبل ان يصبحوا امواتا (٥٨)

ان الكاتب الملتزم يعرف جيدا قيمة وتأثير كلمته « فالكلمة فعل » (٥٩) ويعرف جيدا ان « الكلمات على حد قول بريس باران (Price Parain) ماهي الا -« مسدسات معدة للاطلاق » اذا تكلم انطلق الرصاص (...) » (٦٠) فعلى الكاتب اذن ان يتضامن مع العصر التاريخي ، والاجتماعي الموجود فيه ، ولا يجب عليه الارتباط

(٥٦) Jean-François, Kahn, "Dieu, comme ils l'ont hai" in Les Nouvelles Littéraires' 17-24 avril 1980, p. 19.

J-P. Sartre, Qu'est-ce que la Littérature' in SituationsII, p.293.

Ibid., p. 83

Ibid., p. 30

Ibid., p. 31

بشيء آخر غير ذلك « لكل كاتب موقف محدد في عصره ولكل كلمة من كلماته صدى ولكل صمت أيضا » (٦١)

وقد ادان سارتر موقف بعض الكتاب مثل جونكور وفلوبير أثناء الثورة الفرنسية المعروفة باسم حكومة باريس الاشتراكية التي قامت في عام ١٨٧١ وقد اعتبر هؤلاء الكتاب « مسئولين عن فترة القمع التي أعقبت الثورة ، انهم مسئولون لأنهم لم يكتبوا سطرا واحدا لمنعها » (٦٢)

كما أنه أسف أيضا لعدم اكتراث بعض الأدباء الكبار بالأحداث المعاصرة لأنهم بسبب هذا الموقف غير المسئول افتقدوا للأبد شيئا مهما في حياتهم : « اننا لانريد ان يفوتنا شيء في عصرنا ، ربما تواجدت أزمته أفضل في الماضي ، ولكن هذا الوقت هو وقتنا نحن وليس لدينا حياة أخرى نحياها » (٦٣)

يوجد موضوع واحد يفرض نفسه على الأدباء مهما كانت نوعية أعمالهم سواء كانت اعمالا نقدية أو بحوثا انشائية مبتكرة :

ان الكاتب رجل حر يتوجه بالحديث الى رجال أحرار وليس لديه الاموضوع واحد ، وهو الحرية » (٦٤)
وبهذه الطريقة يجد الكاتب نفسه في قلب معركة أي يجد نفسه ملتزما وهذا ما يؤكد سارتر بقوة في قوله :

« وهكذا مهما كانت الوسيلة التي أتت بكم (الى الادب) ، ومهما كانت الآراء التي تجاهرون بها ، فالأدب يدفع بكم الى المعركة ، والكتابة ليست الا وسيلة معينة للرغبة في الحرية ، ومتى بدأتم ستجدون أنفسكم ملتزمين سواء أردتم أم لا » (٦٥)

«Sartre Présentation des Temps Modernes», in Situations II, P.13 (٦١)

«Presentations des Temps Modernes», Situations p. 13. (٦٢)

Ibid. (٦٣)

Qu'est-ce que la littérature' p. 81. (٦٤)

Ibid., p. 82. (٦٥)

وهكذا عاد بنا الحديث الى الكلام عن الحرية والالتزام وهما المفهومان اللذان شكلا محور هذا البحث المتواضع وكان لهما عظيم الأثر بالنسبة لكاتبنا جان بول سارتر في حياته الشخصية أو في أعماله الأدبية والفلسفية .



والذى يتضح لنا من خلال تتبعنا لأعمال سارتر الروائية أنه كان يؤمن بأن الانسان حر أراد أم لم يرد وبهذا تحددت ماهيته . فالانسان بحكم وجوده مسئول عن حرите وله القدرة على الاختيار أى له القدرة على اتخاذ القرار لأن القرار في جوهره هو عملية اختيار لبديل من البدائل المطروحة أمام الانسان ولا يوجد حد نهائي للاختيار ولا نهاية لاستخدام الحرية والحرية في أعمال سارتر عبارة عن امتحان مستمر يمر به الانسان في كل لحظة أمام المعطيات والفرص التي تتوافر له ، والحرية لا تتحقق وتعطي معناها الكامل الا بالالتزام والمسئولية .

ولكن

ماذا يسعنا أن نقول بعد ذلك ؟ لعل أفضل ما يمكن لنا أن نختم به هذا البحث هو أن نستعير هذه الأسطر القليلة التي كتبها ج لوكليزيو LE CLEZIO في بحث نشر في مجلة لارك عام ١٩٦٦ تحت عنوان « رجل مثالي »

« ان الذى بحث عنه (سارتر) ونجح في التوصل اليه قد أصبح بالنسبة لنا أكثر من مؤشر اذ أنه مجموعة أمثلة . فقد كانت مغامرة سارتر حقيقية : هو فيها الانسان وهو المحور الذى يشبه البطل ، وهو بطل مرتين ، أولا لأنه استطاع أن يجسد هذا القرن ، وأن يتألم لهذا القرن وأن يعمل جاهدا في هذا القرن ، وأن يعبر أيضا عن هذا القرن . لقد قال لجيلنا ما كان يجب أن يقال وكتب الكلمات التي كان يجب أن تكتب والتي كان الجميع ينتظرونها » (٦٦)



من المعروف لدينا جميعا مدى الاهتمام الذي علقه سارتر على « الخيال » حتى جعل منه عنوانا لواحد من كتبه : نقصد كتابه « الخيال » الذي صدر في سنة ١٩٣٦ ، وفي سنة ١٩٤٠ ، أصدر سارتر كتابا آخر بعنوان « المتخيل » .

ومن ناحية اخرى فان الصور الخيالية تثري اعماله الأدبية ، وسنحاول هنا ان ندرس الاعمال الروائية بهدف تحديد الدور الذي تلعبه الصور الخيالية وتنوع المظاهر التي تتخذها هذه الصور حين تنتظمها اعمال فنية متكاملة ، مركزين في دراستنا على الجزء الثالث من رواية « دروب الحرية » وهو الجزء الذي تكاد تتم به الرواية وعنوانه « الحزن حتى الموت » وقد صدر سنة ١٩٤٩ ، وقد تعرض هذا الجزء للتصدع الذي مرت به فرنسا في سنة ١٩٤٠ من جراء هزيمتها المؤقتة - في الحرب العالمية الثانية أمام الالمان .

وسنرى ان للصور الخيالية عند سارتر مهمة ذات شقين : احدهما ادبي والثاني فلسفي .

أوجز الأستاذ « شارل برونو » - في مقال جريء^(١) - المعالم العريضة لنوعية الصور المتخيلة في الادب المعاصر ، ففي رأيه انه يمكن التاريخ لمرحلة جديدة من مراحل فنية التصوير الخيالي في ادب

وظيفة الخيال بين اللغة والفلسفة عند جان بول سارتر*

دولت مكالع العرب

* جميع الاقتطفات الواردة في هذا المقال لسارتر او لغيره هي من ترجمة كاتبة المقال ، ودون الرجوع الى اي من الترجمات العربية المنشورة او المخطوطة .

(١) Charles Beureau, „L'image dans notre langue PiHéraive", Mélanges Dauzat' pp. 55-67.

العصر الحديث بنظرية الترابط التي أصلها بشعره شارل بودلير في القرن التاسع عشر ، ومنذ ذلك الوقت تطور هذا الفن في اتجاهين رئيسيين ، فأحدهما يمثل شعراء اسباهم « برونو » « الكيائيون Les Chimistes » وهم قد طوروا الصورة الخيالية بطريقة عقلانية مصقولة ومتقنة : شيء كأنه لغة فوقية Sur Langage وفضل من يمثل هذا الاتجاه هما : « مالارمي » ، و « فاليري » ويمثل الاتجاه الثاني من يسميهم « برونو » ، « الملهمون Les Inspires » وهؤلاء يميلون الى صور لا معقولة جامحة الخيال وحيانا بدائية اي عكس الصور التي اختارها اصحاب الاتجاه الاول . ويمثل هذا الاتجاه الثاني بوضوح شعراء من امثال « رامبو » و « ابولينير » و « بول اليوار » ، ويميز الاستاذ برونو كذلك بين اربعة انماط تنقسم اليها مجموعات الصور الخيالية المعاصرة : الأولى « الاحساسات » والثانية « الانطباعات » والثالثة « المشاعر » والرابعة « الخبرات العقلية المحضة » . والرابعة قد اختص بها « الكيائيون » وعلى رأسهم « فاليري » . وتقسيمه هذا يمكن ان يقال عليه انه الى حد ما مائع كما انه شديد البساطة ، وان كان ينطبق دون شك على بعض اتجاهات الشعر المعاصر كما انه يمكن الاستعانة به لتصنيف الاعمال الروائية التي لا نعدم التشابه بينها وبين الاعمال الشعرية ، وبخاصة منذ نهاية القرن الماضي .

كانت البلاغة التقليدية قد اعترفت اعترافا كاملا بأهمية الصور في النسيج الشعري وكان ارسطو نفسه قد نوه بأهمية الاستعارة عندما قال في كتابه « فن الشعر » ان الاستعارة دليل العبقرية * * * ولم يبل هذا الشعراء عبر القرون رغم انه كان لكل عصر مفهومه الخاص لدور الخيال في بناء القصيدة الشعرية ، بل ان كلاسيكيي القرن السابع عشر في اوربا لم تحف عنهم تلك الاهمية . اما الرومانسيون فعندهم ان الصورة هي روح القصيدة . وكان « كولردج » قد ألمح بذكائه المعهود الى « ان شاعر العصر الحديث يكاد ان يلهم نفسه صورا جديدة باهرة وكأنها هدفه الوحيد وأهم ملامح فنه » بينما يقدم وردزورث تفسيراً دسماً وحاسماً لمراحل الاستعارة نفسها في الابيات التالية :

« قد تحدث الأغنية عن المبنى الذي يعلو الى ما لا نهاية .

وترى بين جزئياته تشابها تخطئه العين الكسولة »

وفي هذا القرن ذهب « ازرا باوند » الى انه « من الخير أن يضع الشاعر يده على صورة خيالية واحدة او استعارة واحدة او مجازا واحدا من ان ينتج مجلدات بأكملها » (٢)

“La métaphore est le sign du génie”

cf. Cecil Day Lewis, *The Poetic Image* London, 1947.

* * * الاستعارة دليل العبقرية =

(٢)

ولم يأل السيرياليون الفرنسيون بدورهم جهداً : فيقول إمامهم أندريه بریتون « لا زالت اقدس مهمة يطمح اليها الشاعر هي المقارنة بين شيئين لا يوجد ما هو أكثر منهما تباعداً ، والمقارنة بينهما بشكل او بآخر يفاجئنا ويصدمنا » (٣)

وليس لأحد بالطبع ان ينتقص من المكانة العالية التي تتمتع بها الصورة في القصيدة .

ولكن ماذا عن أهمية الصورة في النص المنشور ؟

ينص بروسست بصراحة في مقاله الشهير عن فلوبيير « اعتقد ان الاستعارة وحدها هي التي تحفظ اسلوب الاديب من الفناء » (٤) ووجهة نظره هذه تشخص تحولاً جذرياً كان قد طرأ على الرواية العالمية في نهاية القرن الماضي .

ان للجزاء الثلاثة الاولى من رباعية سارتر المنقوصة المعنونة « دروب الحرية » شكلاً ادبياً متكاملًا للغاية (ونقصد بالتكامل هنا التأزر والتغاير معا) . فالمجلد الاول « سن النضج » قد بنى في ما يبدو على أسس تقليدية ، بينما يختلف الاسلوب السردى تماماً في المجلد الثاني « المماطلة » فيحاول سارتر فيه ان يرصد « معية » الحوادث التي تقع في اماكن منفصلة ، وهنا يظهر تفوقه على مواطنيه من الروائيين امثال « جول رومان » وتشابهه مع معاصريه من غير الفرنسيين امثال « جون دوس باسوس » الامريكى . فمثلاً يصور سارتر في ذلك المجلد وقع أزمة « ميونينغ » على بعض من اشخاص روايته لا يجمع فيهم نفس المكان وان كان يجمع بينهم جملة واحدة في احدى صفحات الرواية . ان ثمرة مثل ذلك ليس موفقة والقارىء لأعمال سارتر - الذي تأخذه الدهشة - لا يملك الا ان يتساءل - على حد تعبير ناقد معاصر - « عما اذا كان سارتر قد ضحى بموهبته على مذهب شراسته الى التجريب من اجل التجريب وحده ؟ » (٥)

اما عن المجلد الثالث « الحزن حتى الموت » فان كاتبنا يواصل محاولته لرصد الحوادث المتزامنة « المعية » ولكنه يجد من توزيع الامكنة التي ينتقل بينها لرصد تلك الحوادث ولا « يقطع » تنقلاته تلك بنفس المباغته التي ازعجت قارئ المجلد الثاني .

ويكاد الانتباه يتركز بشكل اساسي في شخصية واحدة هي شخصية « ماتيو ديلاو » وفي زمن لا يتعدى المرحلة الأخيرة من الحرب العالمية الثانية . ويحاول سارتر ان يدخل بنا خلال النصف الثاني من ذلك المجلد في

(٣) Cité par I. A. Richards, 'The Philosophy of Rhetoric' Oxford University Press, New York, 1950, p. 123.

(٤) Marcel Provst, "Le style de Flaubert", 'Nouvelle Revue française' vol. xiv, 1, 1920, pp. 72-90.

(٥) Henri Peyre, 'The contemporary French Novel' New York, 1943.

تجربة جديدة فيكتب وصفا مرسلا في مائة صفحة للأيام الاولى التي قضاها الصحفي الشبيوعي « برونه » في الاسر ، والواقع ان محاولته تلك لم تكن صادقة لانها اقتصرت على تغيير شكلي بحثت في صورة الصفحة المطبوعة ، فالسطور تتلاحق دون ان تضمها فقرات منفصلة ، وان كانت محاولة ناجحة لان مجرد مثل هذا التأثير البصري كفيل باحداث الاثر المطلوب وهو أن تتلاحق انفاس القارئ في متابعته للسرد بهذين يشبه هذيان المحموم .

وكان من المقرر ان ينتهي سارتر من مجلد رابع من نفس الرواية يتعرض فيه للمقاومة الفرنسية للاحتلال الالمانى ولكنه لم يفعل ذلك ، وان كان نشر مقتطفات منه تحت عنوان « صداقة غريبة » في مجلة « العصور الحديثة » في سنة ١٩٤٩ .

ولقد شغل سارتر انصاره المثقفين واثارت حولهم ضجة ومناقشات شملت كل القضايا الاساسية فمنها الانطولوجي ومنها الاخلاقي ومنها السياسي ومنها الجمالي الى حد جرف الاهتمام بعيدا عن اسلوب سارتر في التعامل مع اللغة ، وذلك على الرغم من ان الوجودية حركة لها ابعادها الادبية كما ان لها ابعادها الفلسفية ، وانها طورت لغة خاصة بها والتزمت بهذه اللغة .

وقد اثنى على اسلوب سارتر في الكتابة اغلب النقاد حتى اشداهم قسوة وأشار بعض هؤلاء بتنوع صورته الخيالية بصفة خاصة .^(٦)

فمثلا اوضح الناقد « شاميني Champigny » دور عناصر الطبيعة الاربعة (الارض والماء والنار والهواء) في تكوين اخيلة سارتر الواردة في اعماله الفلسفية مستعينا بنظريات جاستون باشلار^(٧) .

ولكن تفهم اثر صور سارتر ودورها البنائي واهميتها التي لا تتجزأ لا يتم الا بتحليلها في اطار رواية باكملها .

وبالفعل يؤخذ المرء قليلا عندما يعرف ان في النصف الاول من مجلد « الحزن حتى الموت » مائتين وخمسين تشبيها ، اي ما زيد على تشبيه واحد في كل صفحة ، وذلك على الرغم من ان هذا الجزء حافل بالحوار بين شخصيات الرواية . ذلك الحوار الذي يدور بالعامية الفرنسية والتي تحتوي بدورها على صور خيالية مما يدل على كثافة الصور الخيالية والتشبيهات والكنايات والاستعارات والمجازات الواردة على لسان المؤلف . وبالتالي فلا

cf. Raymond Picard, „L'art de J.P. Sartre et les Hommes de Bonne volonté”, (٦)
La France libre 13 février 1946, pp. 289-295.

R.M. Albérès, Jean. Paul Sartre, Editions Universitaires, Paris, 1960, pp 126-140.

cf. R. Champigny, “L'expression élémentaire dans l'Etre et le Néant, Publications of (٧)
the Modern Language Association of America. vol. L'XVIII, 1953, pp. 54-64.

نستطيع ان نوافق « هنري بيير » على رأيه ان استعارات سارتر نادرة ^(٨) . قد تكون هناك دون شك عند سارتر أمثلة واستعارات تقليدية ولكن اغلب تشبيهاته أصيلة ومشحونة بعناية وتميزة بطابعه الخاص الذي يستحيل تقليده .

ان روايات سارتر وقصصه القصيرة هي اعمال ادبية متكاملة ويمكن للقارئ غير الملم بالوجودية ان يفهمها وان يتذوقها فنيا ، ومن ناحية اخرى فان هذه الاعمال مشبعة بفلسفته ومقصود منها شرح المسائل التي طرحها الوجودية من خلال مواقف بشرية ملموسة ، وسيكون للصور الخيالية بالمثل مهمة مزدوجة ادبية وفلسفية يصعب تقسيمها او تحليلها الى شقيها الذي يثري كل منهما الآخر دواليك .



ان الوجودية في مفهومها للعالم - تتمرد بشدة على التيار الفكري الممتد من ديكرت الى هيجل والذي ينفي وجود « الشيء في ذاته » ومع ذلك فالعالم في نظر الوجودية لا يتكون من ماديات مستقلة عن معرفتنا بها فحسب بل ان هذه المعرفة هي الحقيقة المكونة للعالم من وجهة نظر الوجودية . ان كتاب سارتر « الوجود والعدم » يبدأ بذلك التصريح الواضح : « ان الفكر الحديث قد حقق تقدما ملحوظا نحو عملية اختزال الوجود الى سلسلة الظواهر التي يتجلى من خلالها . ان كينونة اي موجود هي بالتحديد ما يظهر به ذلك الموجود ، ان نظريتنا في الظواهر تحمل موضوعية الظاهرة محل حقيقة الشيء » ومن هنا تبدو لنا دلالة العنوان الثانوي الذي اتبع به سارتر العنوان الرئيسي على غلاف كتابه المذكور الا وهو « مقال في الانطولوجيا الفنومولوجية » اي « مقال في علم الوجود من خلال علم الظواهر . »

وفي نفس الوقت فان تلك الظاهراتية بعيدة تماما عن مثالية القرن التاسع عشر المطلقة ، او على الاقل عن تلك المثالية كما تدرس الآن ، ان هناك شيئا مستقلا عن الفكر وهذا الشيء يسميه سارتر « الموجود في ذاته » . وللوهلة الاولى يكون « الشيء في ذاته » ملأ الكينونة فهو « كتلة » لا فراغ فيها وبالتالي « معتم » لنفسه اي معدوم الوعي في ذاته « اي مطابق لذاته » . كذلك « فالشيء في ذاته » ليس كالكائن الواعي الذي يستطيع هو ان يكون مالا يكون والا يكون ما يكونه ، فالشيء في ذاته هو ما هو لا غير ، لكنه بلا معنى الا بتعرف « الوعي » عليه ، وهكذا فان العالم يتحقق من خلال الوعي ويكتسب معقوليته من خلال « الأنا » ويصبح مكونه الاساسي هو « الموجود لذاته » وليس « الموجود في ذاته » .

وتقول رفيقة حياة سارتر ، سيمون دي بوفوار في فقرة جميلة من روايتها الاولى « الضيقة » ما معناه ان حضورنا الى العالم يوقظ ذلك العالم من نومه ، وبطلة تلك الرواية واسمها « فرانسواز » تذهب في موعد متأخر من

cf. Henri Peyre, op. cit., p. 233.

(٨)

الليل الى استوديو السينما الذي تعمل فيه عادة في الصباح وهنا تلفت نظرها لاول مرة اشياء كانت موجودة طيلة الوقت ولكنها لم تنتبه اليها من قبل . وكأنها جثت عادت اليها الحياة (تقول سيمون دي بوفوار) : « خرجت (هي) من المكتب ، كانت هذه الاروقة السوداء هي التي تجذبها ، وعندما لم تكن هنا لم تكن موجودة ايضا رائحة التراب وهذه العتمة وهذه الوحدة اليائسة ، والآن كانت هنا وكانت لها تلك القوة : ان ينتزع وجودها الاشياء من نومها وتضفي هي عليهم الوانهم وروائحهم ، دفعت باب الحجرة كانت كالمكلفة بمهمة ، كان يجب بعث هذه الحجرة المهجورة الى الوجود ، وكانت الكراسي المكسوة بالمخمل الاحمر تتباعد عن بعضها ثابتة وفي الانتظار ، منذ برهة لم تكن تنتظر احدا والآن صارت تمد اذرعها » (٩) .

وفي بحث سارتر الفلسفي « الوجود والعدم » نجده يعبر عن الكائنات الميتة بصفات مستمدة من الجهاد شأن « كتلى » و « كثيف » و « معتم » و « متعجن » .

وبالنسبة للصور الخيالية الواردة في رواية « الحزن حتى الموت » فبادىء ذي بدء يلفتنا الميل الى تصور ظواهر الطبيعة وكأنها جمادات ، واضفاء للحسية على ما هو مجرد فكرة في سلسلة من الصور الغريبة .

هبط نبأ اعلان الهدنة - الذي اتضح فيما بعد انه خاطيء - على ماتيو وفصيلته في يوم صيف ثقيل الجو ، يقول سارتر « بريق كوميض الرصاص ، ثم الصمت . كانت الابدية قد هبطت كالبلطة تقطع لحم ذلك النهر الطري الازرق . » (١٠)

لقد مثل النهار هنا مادة جسدية قطعت فيها الانباء (كما تقطع البلطة في الجسد) .

وفي موضع آخر من النص يغدو الليل ايضا محسوسا . يقول سارتر : « كان الليل رقيقا وبريا وقد برئت الجراح الكثيرة التي احداثها من قبل في الجسد . كانت ليلة غنية وعذراء ، ليلة جميلة بلا أناس ، جميلة ملتبهة الدماء في عروقها وبلا خصوم » (١١) .

يضع صديق ماتيو المدعو دانييل الذي ينتظر في شوارع باريس الخالية وصول طلائع القوات الالمانية : يضع نهار يوم الاحد تحت مجهر التحليل الكيميائي او ما الى ذلك . يقول سارتر : « كان يوم احد متعفنا ، عاديا ربما زاد جفافه قليلا عن العادة وزاد تصنعا ايضا ، صموتا للغاية وقد امتلأ بتفضنات سرية . » (١٢)

Simone de Beauvoir, L'Invitée' Gallimord, Paris, 1945, p. 10. (٩)

Jean. Paul Sartre, La Mort dans l'ame' Gallimard, Paris, 1949, p. 67. (١٠)

Ibid.' p. 140. (١١)

La Mort dans l'ame' p. 140. (١٢)

كذلك ينسب سارتر الى الهواء والى الماء الصلابة فيقول : « فنسيم حار وثقيل كالحلابة » (١٣) وايضا : « كان الماء باردا وعاريا كبشرة » (١٤)

ويحس بطل رواية سارتر ابي « ماتيو » بنفسه وقد طرأت عليها تحولات بفعل مواجهة الجنود الاجانب وغدت جزءا من العالم المكون من جمادات والذي يحيط به ويتحول ما هو « لذاته » الى مجرد « ذات » (يقول سارتر) : « واحس ماتيو - تحت النظرات القادمة من عصر مختلف - انه يتحول الى عشب .. كانه مرعى ترقبه الماشية » (١٥)

وعندما يحاول ماتيو بمعونة رفاقه ان يتطوع لعمل بطولي يوقف الزحف الالماني يأخذه فجأة شعور لا يقاوم بصلابته وبصلابة العالم من حوله (يقول سارتر) : « توقف الطريق عن السيولة .. ابطل الطريق حركة ، وقفز ماتيو الى قدميه وصوب (بندقيته) وجمدت عيناه وهو واقف وكثيف على ارض صلبة وامام فوهة بندقيته احد الاعداء وقد جعل هدفه يهدوه « الكليتين » » (١٦)

ويكفي ان يقرأ المرء عناوين مؤلفات سارتر الاولى : تلك العناوين المحملة بالاستعارات وان كانت استعاراتها تصر على الالتصاق بارض الواقع الملموس ، ومنها على سبيل المثال « الغثيان » و « الحائط » و « والذباب » . ويبدو ان لدى سارتر الحاحا على الاستمسك بالواقعية الملموسة ، واصرارا على تصوير العالم بكل ملامحه اليومية حتى ما كان منها منفرا ، ان لديه تعطشا للتعبير بالاسلوب المشيع بالصور الحسية والمحسوسة .

والامثلة التي ذكرناها حتى الآن تكشف ملمحا آخر بين الملامح التي تميز صور سارتر الخيالية كما تميز اسلوبه بشكل عام ، فكل شيء مرئي او محسوس يصل القارىء من خلال الشخصيات نفسها (لا المؤلف) في خطاب غير مباشر مسترسل تنقصه دقة البناء . ولولا الصفة الاخيرة (تنقصه دقة البناء) لكانت رواية سارتر موضع حسد « جوستاف فلوير » لو كان امتد به العمر ، فهو رائد هذا الاسلوب في الرواية الفرنسية .

وكما رأينا فان احد المبادئ الاساسية للفلسفة الوجودية هو ان العالم الصلب العبي لا يكتسب معنى ووجودا اصيلا سوى بادراك الوعي الانساني له . و « ما هو لذاته » يبعث الحياة « فيما هو في ذاته » ويلي ذلك ان العالم ليس متجانسا تجانسا صارما ، فيدركه كل فرد ويفسر ظواهره بطريقته الخاصة : والحاصل اللغوي لهذا الموقف الفلسفي الذي يعتنق النسبية هو الاسلوب الحر غير المباشر ، اي ان الاشياء والاحداث تعرض لا كما هي في

Ibid. p. 192.

(١٣)

Ibid. p. 42.

(١٤)

Ibid. p. 136.

(١٥)

Ibid. p. 186.

(١٦)

الاصل ولكن بأسلوب علم الظواهر « الفينومولوجيا » اي كما يعيها ادراك فردي خاص . ويقول « البيريس » عن حق على سارتر ، « ان ما هو عند كاتب اخر مجرد سرد موضوعي يتخذ عند سارتر شكل تذوق منفرد يتفاوت بحسب ادراك البشر الذين يعيش كل منهم تجربته ، اننا لا نعيش مع ماتيو الاحداث الصغيرة فحسب ولكن نذوق ما ذاقه في حلقة في خلوقنا ويستفز عقولنا مما استفز عقله ونرى مناظر الشارع التي رآها بنفس انطباعاته البصرية والانفعالية والبدنية والخيالية » (١٧)

ولهذا الاسلوب بالتالي ثماره الفعالة في صور سارتر . فالخيال فيها يزيد اتساعا وحرية ولها طابع ذاتي واحيانا ملهم ، فيمكن ان يتناول الفكر المكونات البدائية للواقع الفيزيقي بأكثر من طريقة ، لقد رأينا كيف اضى سارتر الصلابة على الماء والهواء بل وعلى النور والظلام ولكنه قد لجأ ايضا الى الاجراء العكسي فحول الاشياء الصلبة الى اشياء سائلة (يقول سارتر) « نظرت (هي) بندم الى العشب الطري الاسود وانحنيت تحسه كما لو كان ماء » (١٨) (ويقول سارتر ايضا) : « كان ماتيو ينظر الى الطريق الواقع على بعد مائتي متر منه . كان الطريق يهرب من الليل ويسيل مائعا ابيض حتى قدميه ثم يجاوزه ليغسل المنازل المقفولة النوافذ الواقفة خلفه ، كان الطريق قد عادت اليه برية الانهار القديمة ، وغدا سينقل الى القرية سفنا محملة بالقتلة » (١٩) .

وفي المثل التالي تتطور الصورة البصرية الى رمز فكري ، ان الليل نفسه الذي تتحول بفعله الاشياء الصلبة الى السيولة قد شبه هنا بسائل داكن (يقول سارتر) . « كان الجنود المسلحون يخرجون واحدا تلو الآخر من ماء الليل الاسود » (٢٠) والغسق ايضا قد يوحى الى سارتر بمقارنات غريبة لانه يضع الحدود الفاصلة بين الاشياء (فيقول) « كان الغسق هو اللحظة التي فيها تفيض الاشياء من محيطاتها وتندمج في ضباب المساء القطني ، وكانت النوافذ تنزلق في عتمة حركة طويلة ساكنة ، وكانت الغرفة قاربا وكان هذا القارب يتوه ، وكانت زجاجة الويسكي احد اوثان المكسيكيين الاول ، وكان الحب شيئا اكثر بكثير من الحب ، وكانت الصداقة شيئا ليس هو تماما الصداقة » (٢١)

وهكذا مرة اخرى تتحول صور بصرية الى رموز فكرية في نهاية الاستعارة كما يتم في البناء الدرامي .

وحين ننظر الى العالم من حولنا من زاوية غير عادية تجعلنا هذه الزاوية غير المألوفة نعيد تفهم الحقائق وبشكل ليس مألوفا ايضا ، فعندما يصف سارتر الارض من وجهة نظر ماتيو نحس ان ماتيو يرقبها من عل ، من

Albérès, op. cit.' p. 124.

La Mort dans l'ame' p. 157.

Ibid.' p. 125.

Ibid.' p. 145.

La Mort dans l'ame' p. 140.

(١٧)

(١٨)

(١٩)

(٢٠)

(٢١)

موقع اقرب الى السماء (يقول سارتر) : كانت الارض المنطرفة ترفع اليه وجهها وكانت السماء المتردية تجري صوبه بكل نجومها » (٢٢)

ان التشبيه الذي ذكرناه للتوهو في الرواية صدى لحلم كان قد مر بماتيو وجاء وصفه بلغة تكاد تذكر بأعمال السيراليين (يقول سارتر) : « بدأت كرة صغيرة حمراء تدور واطلت من الشرفة وجوه نساء وبدأت تدور ايضا ، كان ماتيو يحلم بأنه السماء وكان يطل من الشرفة وينظر الى الارض ، وكانت الارض خضراء ذات بطن ابيض وكانت تتقاذف كما تتقاذف البراغيث » (٢٣)

ان الصور التي ترد الى شخصيات سارتر اثر تجارب غير عادية مرت بها تأخذ احيانا شكل الكابوس المتسلط ، وعندما يسير دانييل في شوارع باريس الخالية التي تذكره بالاطلال يلحظ فجأة صليب النازية المعقوف على واجهة فندق « كريون » (يقول سارتر) « ايها المبنى ، يا قطعة من اللحم الدامي الموشاة ، في وسط الخرقه الملوثة بالدم كانت الدائرة البيضاء بيضاء كانعكاسات المصابيح البيضاء على ملاءات السرير في طفولتي وفي وسط الدائرة تلوى الثعبان الاسود (الوصف لراية الصليب المعقوف) يا رمز الشر ، يا رمزي انا ، في كل لحظة تتكون نقطة حمراء في غضون الراية ثم تنفصل وتسقط على الاسفلت : ان الفضيلة تنزف الدماء » (٢٤) .

وفي ذلك الموضع من الرواية يرى دانييل طائرة تشق السماء . (يقول سارتر) « استقبل بارتياح تمزق السماء وأومضت الطائرة تحت الشمس ، واصبح للبلدة الميتة شاهد آخر ورفعت البلدة الى تلك العينين الاخريين الآلاف من رؤوسها الميتة ولو اسقطت الطائرة قنابلها لكان بعثا جديدا ولعادت للبلدة حياتها الاولى ولاكتست جدران مساكنها بأجمل الازهار الطفيلية » (٢٥)

ولكن سير الاحداث يخيب توقع دانييل فالطائرة لا تسقط قنابلها ويعود للبلدة سكونها المعزول .



ان الذاتية التي بنيت عليها الفلسفة الوجودية والشریان الالهامي الذي نبض في كل صور سارتر تقريبا يؤيدان حتما الى التعبير بطريقة التداعي الحر وكان سارتر قد نص في كتابه « الوجود والعدم » بتشدد : « اذا أكلت كعكة صفراء فلا بد ان يكون طعمها اصفر » (٢٦)

Ibid.' p. 175.

(٢٢)

Ibid.' p. 93.

(٢٣)

La Mor dans l'ame' p. 115.

(٢٤)

Ibid.' p. 116

(٢٥)

Cité par Champigny, op. cit.' p. 62.

(٢٦)

cf. R. Pieard, loc. cit. p. 293.

ويأتي سارتر مرارا بتشابهات من نفس النوع وبين اشياء لا تضمها نفس الفصيلة ولا يخاطب كل منها الحاسة التي يخاطبها الآخر، وترتفع نيرة الاغراب في بعض الاحيان حتى تقارب الهذيان .

فعندما زار الرسام جوميز الذي انقطع عمله بالرسم لظروف الحرب الاهلية الاسبانية : زار لأول مرة متحف الفن الحديث في نيويورك ويصف سارتر تأثير الألوان عليه بسلسلة من الصور تختلط فيها احساسات متنوعة (يقول سارتر) : « كان وكأنه عولج جراحيا من مرض بصري ، اضاءت كل الالوان في نفس الوقت ورحبت به ، كانت الالوان تقرع كل الاشياء بنبض مجنون ، كانت الالوان نداءات وذبذبات بل انفجارات ، هاجته الالوان من كل جانب وانفجرت في عينيه كما تنفجر زجاجات الدم والسّم . (٢٧)

واحيانا تنطلق صور سارتر من الاحساسات نفسها لا الاشياء التي تثيرها ، ويخلط كذلك بينها فيقارن بين الصمت واللمس والشم (فيقول) : « كان يحس في ظهره بضغط الصمت السحري » (٢٨) .

(وايضا) « فتح النافذة وتدلّى في الفراغ وتنفس رائحة بنفسجات الصمت (٢٩)

والصوت الآدمي وان استقل عن صاحبه ما زال يستمد منه قوته ويستنهكه كما يستنهك حيوان طفيلي الآدمي (فيقول سارتر) « كان صوته يخرج منه رغبا عنه ، وكان صوته يتغذى عليه وكأنه مخلوق طفيلي هائل ، لو استطاع لامتص دمه وامعاه بغية تحويلها الى أغاني » (٣٠) بل تمكن رؤية الروائح باشكالها المحددة تماما والوانها الواضحة (يقول سارتر) : « وبعد العصافير تيقظت الاعشاب ، والقت بدورها برائحتها كما كانت العصافير تلقي بصيحاتها ، روائح خضراء سعيدة لا زالت مدببة وحمضية الطعم ولكنها سرعان ما ستحلو تدريجيا وتكبر وتضج انوثتها كلما اشتدت زرقة السماء » (٣١) .

وفي فلسفة جان بول سارتر يلعب الجسم الآدمي دورا مبهما ، وقد أرينا ان سارتر يفترض في العالم انه « في ذاته » وبالتالي ابعد ما يكون عن تيار الفكر ، وبالتالي فالجسم هو جزء من ذلك الذي هو « في ذاته » اي من العالم : العالم - الجهاد ، ما جسم الانسان بالنسبة اليه ؟

ان مفهوم سارتر الذي بسطه في كتابه « الوجود والعدم » هو أن كينونة الانسان كلها ليست الا « وجودا - في - العالم » حسب تعبير « هيدجر » ونحن « في - العالم » بواسطة الجسم . يقول سارتر : « اذن ليس الجسم

La Mort dans l'ame' pp. 25-26.

Ibid.' p. 79.

Ibid.' p. 140.

Ibid.' p. 105.

Ibid.' p. 45.

(٢٧)

(٢٨)

(٢٩)

(٣٠)

(٣١)

بناتنا اضافة عارضة الى رويحي ، ولكن على العكس بناء ثابت لكياني والشرط الدائم لاستمرار امكانيات ادراكي من حيث ان هذا الادراك ينصب على العالم » (٣٢) .

أي لا غنى للادراك عن الجسم ، ويضيف سارتر « ان الادراك الواعي هو نفسه الجسد بل انه ليس الا الجسد ، وسائر ذلك عدم وصمت » (٣٣)

وبالتالي فالجسم جزء مما هو في ذاته اي من العالم المادي الصلد ومع ذلك يكون البناء الدائم لكياننا ولا غنى عنه لكي توجد حالة الوعي . وهذا هو ما كنت اقصده بقولي ان مفهوم سارتر للجسم مبهم .

ان كون الجسم مشتركا مع ظواهر الطبيعة العديمة الحياة يوحي الى سارتر ببعض صور خيالية تصنف الجسم بكلمات تصلح لوصف المعادن او النباتات (يقول سارتر) « كان ذلك الرجل شفافا يظهر الشمس . وكانت الحياة تعلق وتهبط وتدور بسرعة عجيبة للغاية في شجرة عروقه الزرقاء » (٣٤) « وايضا » « عندما كان يلمسني كنت استحيل الى محمل ، والآن اصبح جسدي كطين يابس يتفتت تحت اصابعه » (٣٥)

وفي صور اخرى يصف سارتر الاحساس الغريب الذي ينتابنا حين يبدو وكأنه قد انفصل عن الجسد احد اجزائه او احدى وظائفه واكتسب وجودا مستقلا . وقد رأينا كيف يمكن تصوير الصوت الآدمي بصورة طفيلي عملاق ، وسنرى الآن التطوير الذي سيسبغه المؤلف على التنفس الآدمي . (يقول سارتر) : « وعلى يسارها كان تنفس خشن - كان هناك منذ خمس دقائق بينما لم تكن هي قد تنبعت لوجوده . كان ينزلق اليها ويستقر في رئتيها ويصبح تنفسها هي » (٣٦) .

وفي ادب سارتر تتخذ الاستعارات التي تشبه اعضاء الجسد بالكائنات الميتة شكلا مختلفا عما اتخذته في الادب الفرنسي عامة ، فهو الآخر لا يخلو منها ، فبعض تشبيهاته بصرية بحتة (يقول سارتر) : « كان له وجه منهك وغائم كالضباب يعلو بياقته المفكوكة الازرار » (٣٧) « وايضا » « كانت تحس بأنفها يضيء تحت نظرتة وكأنه مصباح » (٣٨) . بينما تصور تشبيهات اخرى لسارتر الجسد الآدمي بالالة (يقول سارتر) « باعد الرجل بين

Jean. Paul Sartre, L'etre et le néant' Gallimard Paris, 1943, p. 392.

(٣٢)

Ibid.' p. 395.

(٣٣)

La Mort dans l'ame' p. 75.

(٣٤)

Ibid.' p. 175.

(٣٥)

La Mort dans l'ame 23.

(٣٦)

Ibid.' p. 99.

(٣٧)

Ibid.' p. 156.

(٣٨)

اعضاء جسمه فبدا كعلبة تنفتح» (٣٩) (وايضا) « كان زنده بارزا كأنه نفخ بمنفاخ (٤٠) (وايضا) « كان جفنه الايسر بدأ يضطرب في وجهه الشبيه بالرماد كما تلوح نافذة مفتوحة في يوم عاصف » (٤١)

كما يشبه سارتر ايضا الحشود بكائنات غير حية ، وقد طور سارتر هنا تشبيه الحشود بمياه البحر وان لم يكن اول من ابتدع هذا التشبيه من الفرنسيين او غيرهم (فيقول) : « دحرجت عليه الحشود مدها المائي وحملت الامواج الى قمته حزما من الاعين البارقة الميتة ، وكان الرصيف يرتجف وقد لطحه الالوان الملتهبة ، وكانت الحشود تبعث بخارا كالذي تبعثه ملاء رطبة اذا تعرضت للشمس » (٤٢) .

وفي موضع آخر يحكم سارتر تشبيهه فيقارن بين حشد المهاجرين عن فرنسا من الشمال الى الجنوب وبين ثمالة النبيذ ، ثمالة الداكنة (فيقول) : « كانت ثمالة المشاة السوداء تغطي الطريق » (٤٣) وبالمثل فان للتشبيهات المتأثرة بصورة الحيوان اهمية كبيرة في رواية سارتر وليس من قبيل المصادفة ان يفتتح هذا المجلد بصورة خيالية مستلهمة من الحيوانية ويختتم بصورة مثلها . فالجملة الافتتاحية تقارن بين موجة الحر التي اجتاحت نيويورك وبين حشرة قارضة (يقول سارتر) :

« حشرة قارضة ؟ استل سكينه وفتح عينيه . كان حلما . لا . كانت الحشرة هنا وقد انشبت فيه مخالبها الماصة : كانت الحرارة » (٤٤)

ومن الواضح تسلط هذه الصورة ، وفي موضع تال من الرواية تعاود تسلطها « يقول سارتر : « وفي الخارج كانت الحشرة القارضة تخترق بالآف الخراطيم الماصة » (٤٥)

وكذلك تختتم الرواية بصورة حيوانية المصدر رمزية الغرض « غدا ستأتي الطيور السوداء » وتلك الجملة هي احد الامثلة النادرة على « التقديم والتأخير » في الرواية ، وكأنما صاغ المؤلف الجملة بهذه الكيفية لتنتهي هي والكتاب معا بكلمة « السوداء »

وكالعادة تتخذ الصور الخيالية الحيوانية المصدر عند سارتر شكلا مجازيا وهو يستخدمها لوصف الآدميين سواء ليصممهم بالوحشية او ليشير لبعض الصفات القبيحة في مظهرهم (فمثلا) . « الوحش القذر الذي تكاثر في ليل

Ibid.' p. 187.

(٣٩)

Ibid.' p. 130.

(٤٠)

Ibid.' p. 68.

(٤١)

Ibid.' p. 31.

(٤٢)

Ibid'. p. 17.

(٤٣)

La Mort dans l'ame' p. 30.

(٤٤)

Ibid.' p. 30.

(٤٥)

جسده» (٤٦) أو (وكذلك) « رأى ماتيو عيني المرأة تحت الشريط الذي ترتديه حول جبهتها » ... ثابتين ومستديرين كعيني فرخة عجوز» (٤٧)

(وايضا) : « لمح ضفدعا يتوانب تجاه المعركة ونظر ماتيو للحظة الى ذلك الحيوان الانطس ثم اصبح الضفدع رجلا » (٤٨).

واحيانا نجد في رواية « الحزن حتى الموت » صورا تروق للذوق ولا تصدمه (فمثلا) : « كانت تبدو نبيلة أنوفة وحزينة كفرس » (٤٩) وايضا . احس دانييل نفسه غريبا كوعل شرود يلقي على متسلقي الجبال نظرة عذراء بطيئة » (٥٠)

وسارتر يقرن ايضا بين الكائنات الميتة والحيوانات فيقول « تنفلق البيوت على نفسها كالفقاع » (٥١) وايضا « شارع سان ميشيل - الذي كان بالامس سيلا طويلا من الذهب يتجه جنوبا - كان اليوم حوتا نافقا منتفخ البطن . دق دانييل خطواته على بروزات ذلك البطن وانخفاضاته » (٥٢)

ان الصورة الاخيرة هي احدى الصور المنفرة العديدة التي يفرزها خيال « دانييل » المحموم اثناء سيره في شوارع باريس الخالية ، وفي نفس الفقرة يخيل الى دانييل ان انفجارا قد وقع وتنفجر بالتالي مرارته من مواطنيه على هيئة استعارة حيوانية مقذعة (يقول سارتر) :

« انهم يعدون : اولئك الشهود والقضاة واهل الاحسان ، انهم يعدون تحت الشمس وفاروز السماء يفقس طائرات على رؤوسهم » (٥٣)

وفي نفس الوقت يقع فعلا انفجار حقيقي بالقرب من ماتيو وفرقته وهنا ايضا يشبه سارتر الطائرات الحربية بالطيور الجوارح التي تحوم في السماء بحثا عن جثث تنهشها (يقول سارتر) :

« كانت الطيور الجوارح متراخية ومتعطشة تدور قليلا فوق البلدة تبحث عن فرائسها ثم بعدت وهي تجر وراءها أصواتها المعدنية التي كانت تتواثب فوق اسطح البيوت » (٥٤)

ibid.' p. 176.

ibid.' p. 114.

ibid.' p. 185-186.

La Mort dans l'ame' p. 132.

ibid.' p. 80.

ibid.' p. 83.

ibid. p. 81.

ibid.' p. 81. L'azur du ciel

La Mort dans l'ame' p. 83.

(٤٦)

(٤٧)

(٤٨)

(٤٩)

(٥٠)

(٥١)

(٥٢)

(٥٣) فاروز السماء =

(٥٤)

بينما يقارن سارتر في موضع آخر بين الطائرات وصغار الضفدع (فيقول) « وبدت له الطائرات كصغار الضفادع تسبح في مياه السماء » (٥٥)

وكذلك يشبه سارتر الظواهر المجردة بالحيوانات (فيقول) : نحن كاحلام الدود ، فأفكارنا تسمك ويقل نصيبها من الأدمية تدريجيا ، غدت افكارنا تعدو في كل مكان : افكارنا تلك التي يكسوها الشعر ونبتت فيها مخالب غدت تتناقل من رأس لآخر : ستدب في الدودة الحياة » (٥٦)

وهذه الصورة هي احدى مجموعة كبيرة مثيرة للاهتمام من الصور استلهمها سارتر من عالم الحشرات . وقد اختار سارتر هذا النوع من الاستعارات بالتحديد وهو يصف الخروج الكبير من باريس على لسان « سارة جوميز » وصغيرها اللذين كانا بين المهاجرين على حين تسد السيارات الشوارع (فيقول) :

« كان النمل الأسود الطويل يشغل الطريق كله وكانت الحشرات تتقاذز امامهم كبيرة وطويلة وغامضة وكانت السيارات تنز كسرطان البحر وتزقزق كالعصافير ، كان الرجال قد تحولوا الى حشرات وكانت خائفة » (٥٧) (وايضا) « مرت السيارات امامها واحست ان عيوننا خفية تراها ؛ عيوننا غريبة اصحابها ذباب وغل » (٥٨)

وبالتدريج تكبر الكائنات التي تشبه بالحشرة حتى يشبه اكبرها وهو الحشد الذي يغطي الشارع بدوره بالحشرة (فيقول سارتر) : « لقد احتوانا الحشد والحشد يسير ونحن معه ، لسنا الا ارجل تلك الدابة التي ليس لها نهاية » (٥٩)

وتعود مرارا صور الحشرات في الرواية بمثابة كمناسبة الكابوس أو الوهم المتسلط (فيقول سارتر) :

« تلك النطقة الرمادية التي كانت تتحرك حركة طفيفة لصق الارض وقد في اتجاههم رؤوسها المتعددة (٦٠)

(وايضا) « كان كل جسمه يتأوت كما تتأوت الحشرات حين يهددها الخطر » (٦١)

« وكان الباقون يهرون في كل اتجاه كالنمل المجنون » (٦٢)

Ibid.' p. 24.

(٥٥)

Ibid.' p. 89.

(٥٦)

Ibid.' pp. 21-21.

(٥٧)

Ibid.' p. 21.

(٥٨)

La Mort dans l'ame' p. 24.

(٥٩)

Ibid.' p. 85.

(٦٠)

Ibid.' p. 117.

(٦١)

Ibid.' p. 170.

(٦٢)

وصورة الحشرة تؤدي الى الصورة الالطع اي الابدادة (يقول سارتر) :

« لقد خرسوا ، ماذا كانت تملك ان تفعل سوى ان تخرس هذه الحشرة الوضيعة التي كانت تلوث ذلك النهار البديع في يوم من شهر يونيو ، صبرا فستأني اداة القضاء على الحشرات وترش كل الشوارع بالدي دي تي » (٦٣)



وتلعب كل هذه الصور دورا هاما واساسيا في استحضار حالة الغثيان التي يعتبرها الوجوديون احدى مراحل النفس الانسانية . وسنتوقف هنا قليلا بمناسبة صور الحشرات عند سارتر لتحليل احد مناهج « الاسلوبية » الادبية يستأهل عناية خاصة لان نتائجها سريعة وهامة . وهذا المنهج يستند الى افتراض ان الكاتب يكشف عن نفسه من خلال اختياره للصور التي يغترفها اساسا من خبرته الشخصية وبصفة خاصة من التجارب التي استحوذت على انتباهه أو ألهمت خياله او كان لها عليه انطباع قوي وهناك مثل واضح على صحة هذا الفرض في قصيدة فيكتور هوجو « Booz endormi » حيث ترفع « راعوث » رأسها الى السماء ليلا بعد يوم شاق من العمل وترى السماء ولكن فكرها ما زال مشغولا باحداث النهار وانطباعاتها عنها فتذكرها السماء المرصعة بالنجوم بحقل مزروع ويذكرها الهلال بالمنجل .

(القصيدة) :

« هذا الهلال البارق الرشيق بين زهور الظل كان يلعب غربا ، وراعوث ثابتة ترفع بعض بصرها من خلال نقابها تسائل نفسها اي رب ؟ ، اي زارع للمصيف الخالد قد القى في طريقه عن غير عمد منجل الذهب هذا في حقل النجوم ؟ . »

من الصعب الحكم حكما جازما من واقع صورة منفردة ، ولكن ان امكن تتبع تشكيل بنائي او مجموعة متناسقة من التشكيلات فان ذلك يمكن ان يساعد على الحكم على أدب مؤلف أو آخر . وفضل تطبيق لهذا المنهج هو الذي حاولته « كارولين سبرجن »^(٦٤) التي حللت صور شكسبير والتي سعت الى توصيف « سيرته النفسية » ووجدانه ومعاناته وميوله من خلال اختياره لتلك الصور في اعماله الادبية ، ولا شك ان شكسبير نفسه يسهل المهمة على من تصدى لمثل هذا البحث ، فمن ناحية له اعمال ضخمة حافلة بالصور الخيالية والتشبيهات الثرية ، ومن ناحية اخرى فالمعروف عن حياته الشخصية والعامة ضئيل جدا . وقد تبدو بعض النظريات التي خرجت بها كارولين سبرجن ساذجة بالغة الخيال ولكنها اصابت الحقيقة على ما يبدو حين فسرت على سبيل المثال صور الفيضان عند شكسبير على انها ذكريات عن فيضان نهر « آفون » الذي امضى طفولته على ضفافه . ومن

Ibid,' p. 81 .

(٦٣)

Carolyn Spurgeon, 'Shakespeare's Imagery and what it tells us' London, 1954, pp. 93-112. (٦٤)

المعروف عن هذا النهر انه كان ولا يزال نشط الفيضان ، فكان هذا سبب اكثار شكسبير من استخدام الفيضان
مثلا لظواهر اخرى ، ونرى مثلا على تلك الصورة المستوحاة من الفيضان والتي مردها طفولة شكسبير في كلمات
عطيل :

« ان حزني انا قد فاض
وطغى عاليا ونضح
فابتلع كل احزان الناس
فلم ينقص بل ظل كبيرا »

وبالفعل هناك احوال يكون فيها اختيار الصور لدى الاديب بتأثير تجارب حية او انفعالات قوية لم تمت
داخله . فصور القطار عند الفريد دي فيني مثلا والتي ترد كثيرا في شعره هي نتاج الصدمة التي لم يشف منها
قط اثر وقوع حادث قطار في فرساي سنة ١٨٤٢ وموت بعض معارفه وما تبع ذلك من نفوره الشديد من
القطارات ، فيحذر في قصيدته « بيت الراعي » من مخاطر ذلك الاختراع الذي كان جديدا وقتها :

لقد ركب الانسان قبل الاوان صهوة ذلك الثور الحديدي
الذي يزفر وينفخ ويرغي ويزبد
ولا يعرف احد بعد اية اعصارات
يحملها داخله هذا الوحش الاعمى »

على ان الافتراض المطلق ان الصور الخيالية عند كاتب لا تخرج عن تجاربه وانطباعاته الخاصة يمكن ان تقود
الى نتائج خاطئة فان كثيرا من الصور والتشكيلات البنائية قد اعمل فيها الكاتب وعيه عن عمد بغرض فني
بحيث لم تعد تكشف شيئا من نفسه العذراء . وكثيرا منها كذلك وان كانت تلقائية الا انها وليدة نزوة التداعي
وكثيرا منها كذلك قد يكون مصدرها الادب نفسه لا الحياة ، أي ان يكون الاديب متأثرا بأديب آخر في اختيارها
وسنعود الى اديبنا سارتر لنوضح الى اين يؤدي التطبيق الاعمى لمنهج كارولين سبرجن . وقد رأينا ان في رواية
سارتر « الحزن حتى الموت » تكرارا متسلطا لصور الحشرات فالجر يشبه بحشرة قارضة والمركبات والناس في
شوارع فرنسا اثناء الخروج في سنة ١٩٤٢ يصورون كمجموعة من حشرات تزحف زحفا اليها وكلما توغلنا في
الرواية وجدنا صورة تتطور الى رمز هام . هل يمكن ان نفسر ذلك على انه علامة على اهتمام سارتر بعلم
الحشرات ؟ ام هل يجب ان نفترض ان سارتر في طفولته قد مر بخبرة اليمة مصدرها متصل بالحشرات ؟ وهل
سنمتد بنفس التفسير السيكولوجي الى كتاب آخرين تلعب عندهم الخيالات الحشرية نفس الدور الهام ومنهم مثلا

اندرية مالرو؟^(٦٥) هناك بلا شك حالات يمكن ان نقرر فيها بشكل حاسم ان هناك صلة بين الخبرة الشخصية والصور الخيالية ، ولكن عموما يكفي ان نفترض ان كلا الكاتبين قد التفت الى امكانيات الافادة المتنوعة من المقارنة بين النشاط البشري والنشاط الحشري وان كلا منهما قد طورها في اتجاه رمز معين .

ومن الصور الهامة التي اختارها خيال سارتر في الرواية تلك التي تنتقل من الملموس الى المجرد . ومن الصعب فهم بعض التجارب والمشاكل التي يمر بها الوجودي دون امثلة واضحة تنتقل بنا الى افكاره المجردة عبر جسر من الملموس ، ولكن يمكن ايضا تحديد اتجاهين آخرين ، الاول الصدمات العنيفة التي تحدثها الخطوب غير المتوقعة والثاني ان المجاز والصور المحملة ليس الا متنفسا للمرارة التي تكتنف شخصيات سارتر . والاتجاهان يتضحان في عديد من الصور المبررة تتعرض لبعض القيم الاخلاقية ، اولا تتعرض للطيبة كما في المثل التالي :

« ملأت الطيبة ثدييها كما يملأها اللبن واكتنظت بطيبتها التي لا تستعملها كأنما ملأها غاز »^(٦٦)

وثانيا تتعرض للاحسان كما في المثل التالي :

« واتخذ قراره ، هوى قلبه الطيب الشفوق من غصن الى غصن ، انتهى ، لم يعد له قلب »^(٦٧)

وثالثا تتعرض للاخوة كما في المثل التالي :

« كان قد بقي له في اعماق فمه من ليلة الامس طعام - قد برد - من الاخوة »^(٦٨)

واحيانا يأتي سارتر بصورة شعرية ثم يزيحها فنفقددها وكأنها سراب (فيقول) : « بالطبع كانت البراءة تشرق تحت شمس الصباح ، كانت ملموسة على اوراق الاعشاب ، ولكنها كانت تكذب ، والذي كان حقيقيا كان ذلك الخطأ المشترك المنفلت : خطؤنا »^(٦٩)

ويمكن للصور المجازية ايضا ان تتعرض بالباح للحجج للجوانب السلبية لردائل معينة وتؤكد عليها فتصور الكراهية كسائل قذر (فمثلا) « لقد فجرت الكراهية رذاذها الى السماء »^(٧٠)

Cf. G.O. Rees, "Animal Imagery in the Novels of André Malraux", *French Studies* vol. IX, 1955,

pp. 129-142.

La Mort dans l'ame p. 23.

Ibid. p. 174.

Ibid. p. 99.

Ibid. p. 50 .

Ibid. p. 185.

(٦٥)

(٦٦)

(٦٧)

(٦٨)

(٦٩)

(٧٠)

ويأتي سارتر بنفس التأثير عن طريق الكناية فأولا « مروا بين سياجين من البغض الهين » ^(٧١) وثانيا « رفع رأسه فوق تلك الطاعة المشعرة » ^(٧٢)

وباستعمال الاسماء « البغض » و « الطاعة » المجردة بدلا من « الاعداء المبغضون » و « المرأة المطيعة » ينجح سارتر في تكثيف المعنى وفي الوقت نفسه يعزل الصفة ويكسبها لحما حيا ، ونجد عند سارتر ايضا امثلة اعقد من ذلك كما في الاسطر التالية :

« تحطم خلود تمثاله وطار مع قهقهات الضحك » ^(٧٣)

ويلجأ سارتر ايضا الى رصد التجارب والعمليات العقلية المجردة بكلمات تنتمي الى مجال الخبرة الحسية كاللمس او الحرارة او الصوت .

فمثلا « سمع صيحات وهو يحلم حلما متعجنا » ^(٧٤)

وايضا « مد يديه الطويلتين كأنما يريد ان يتحسس النبأ يحذر » ^(٧٥)

وايضا « المجد الذي سرى من الارض الى بدنه كأنه دفع حيواني » ^(٧٦)

وايضا « لثانية واحدة أتت ذكريات كما تتن الاشجار بفعل الرياح » ^(٧٧)

واخيرا « حركت صلاصل مشاكلي » ^(٧٨)

وتوحي مشاهد معارك سنة ١٩٤٠ الى سارتر بالعديد من المقارنات الغريبة فتبدوله فرنسا وكأنها جهاز ضخيم قد توقف عن العمل ، يقول :

« والآن انطرحت فرنسا ورأيناها ، رأينا آلة كبيرة معطوبة وفكرنا : نعم نعم انه كذلك » ^(٧٩)

وخلال مسيرته الكابوسية داخل باريس يأخذ دانييل بغتة شعور بأن المدينة ليست تماما خالية ولكنها مليئة بجيوش صغيرة تحارب في كل اتجاه وتهرب بعد هزيمتها تاركة ثغرات في اسوار المدينة ، فيقول دانييل لنفسه

- | | |
|----------------------------|------|
| Ibid.' p. 146. | (٧١) |
| Ibid.' p. 148. | (٧٢) |
| La Mort dans l'ame' p. 69. | (٧٣) |
| Ibid'. p. 185. | (٧٤) |
| Ibid.' p. 67. | (٧٥) |
| Ibid.' p. 138. | (٧٦) |
| Ibid.' p. 174. | (٧٧) |
| Ibid'. p. 69. | (٧٨) |
| Ibid.' p. 46. | (٧٩) |

« ليست باريس خالية بالمعنى المفهوم بل هي مليئة ولكنها مثقوبة »^(٨٠) . وتحت ضوء القمر يرى دانييل اشكالاً - جديدة تتخذها باريس ومنها « الحجر المعتقد في رحيق التاريخ »^(٨١) .



ان الاستعارات التي يستخدمها سارتر عند التعرض لافكار الوجودية الكبرى مثل الاختيار والالتزام والقلق والتضامن وطبيعة الوجود وطبيعة الزمن توضح العلاقة الوثيقة بين فلسفته وصورة الخيالية .

ان كلمة الوجودية نفسها تعني التسليم لدى معتقها بأولوية الوجود على الماهية ويقول جان بول سارتر « بالمصطلح الفلسفي ، لكل شيء وجود وماهية ، ويظن الكثيرون ان الماهية تأتي اولا والوجود بعد ذلك ولكن الوجودية تنص على العكس . ان لدى الانسان والانسان وحده يسبق الوجود الماهية ، وهذا يعني ببساطة ان الانسان يكون اولا ثم يكون هذا اوداك »^(٨٢) . والتجربة الدالة على هذا المفهوم للوجود والذي يمثل لمعتقي هذا المذهب ما يمثله « الكوجيتو » او الـ « انا افكر اذن انا موجود » لمعتقي مذهب ديكارت . *

اقول ان هذه التجربة قد تم وصفها بعناية وقوة في زوايا سارتر الاولى « الغشيان » ، فيرينا سارتر كيف اكتشف « روكوتيني » بطل الرواية الذي كان لا يزال يرقب الاشياء بل يكتفي باستخدامها : اكتشاف الوجود ، ولكن ماذا يجب ان يعني « الوجود » ؟ في مصطلح الوجودية ؟ ليس « الوجود » مرادفا « للكينونة » . فالاشجار تكون ولكنها لا توجد الا بالفعل العقلي الذي يضفي عليها ذلك - فالوجود الفعلي ليس « حالة » ولكنه « فعل » ، فهو الانتقال الفعلي من « الممكن » او « المحتمل » الى « الواقع » . ومع ذلك فلا يكفي مجرد الانتقال الفعلي من حالة الى حالة شرطا للوجود ، فان الصيرورة والوجود الحقيقي يشترط الحرية ولذلك فالوجود هو من نصيب الانسان دون سائر الكائنات (بفضل حريته) ومع ذلك فلا يجب مجرد الافتراض ان كل انسان يتمتع بنصيبه ويوجد حقا ، فهناك كثيرون يتبعون القطيع ولا يؤدون اختيارا حقيقيا ، واولئك على حد تعبير هيدجر - هم الذين يشيرون الى انفسهم بكلمة « المرء » بدلا من كلمة « انا » ، وليس لهؤلاء وجود اصيل . ففي نظر سارتر كما في نظر هيدجر ، لا يوجد بأصالة الا الذي يختار حريته ويصنع نفسه بنفسه والذي هو نتاج عمله هو نفسه . وفي المجلد الاول من رباعية « دروب الحرية » لسارتر هو المعنون « سن النضج » يقول دانييل

Ibid.' p. 80.

(٨٠)

Ibid'. p. 155.

(٨١)

Jean Paul Sartre, Action' 27 décembre 1944.

(٨٢)

(*) انظر في ذلك مقال الدكتور حبيب الشاروني المنشور في هذا العدد - مستشار التحرير .

« أريد ألا انتسب إلا لنفسى » (٨٣) وفي كتاب سيمون دي بوفوار « دماء الآخرين » تعجب البطلة « هيلين برتراند » بصديقها « جان بلومار » لأنه يبدو عليه الرضا بنفسه وتقول له :

« أن هذا هو مصدر قوتك ، رضاك عن نفسك ، ويشوبني انطباع أنك خلقت نفسك بنفسك » (٨٤) ، وبعد ذلك تستغرب أن له أما : « كان من الصعب الاقتناع بأنه مدين بحياته لاحد ، اكان يمكن الا يكون قد وجد ؟ » (٨٥) .

ان المحور الثاني لفلسفة الوجودية هو الاختيار للانسان حرية الفعل ولكن عليه ان يختار طيلة الوقت ، فحتى الامتناع صورة من صور الاختيار ، والانسان من خلال اختياراته المتعاقبة يلتزم حتما ، وهذا الالتزام يحد من حريته المقبلة ، وفي الوقت نفسه لا توجد معايير مطلقة تقبل عليه اختياراته . ففيا يخص الانسان يسبق الوجود الماهية ولذلك فليس هناك مثل قبلي يقود خطوات الانسان في اختياره ولا سلطة او قاعدة تفرض عليه سلوكه . وفي مسرحية سارتر « الذباب » يقول اوريست لجوبيتر الذي يريد ان يرده الى حظيرة الطاعة «

« ما كان يجب ان أخلق حرا .. فما ان خلقتني حتى لم اعد ملكا لك . ولا يوجد في السماء خير أو شر او شخص يصدر الى اوامر .. لن اعود الى شريعتك إن من المحتوم علي الا تكون لي الإ شريعتي ، فأنا انسان يا جوبيتر ويجب على كل انسان ان يخترع طريقه » (٨٦) ، وفي روايتها « الحزن حتى الموت » يصف سارتر مأساة هذا الموقف الانساني عموما واحتدامها في صيف سنة ١٩٤٢ فيقول :

« ان نفوس في فعل مجهول كما نوغل في غاية : في فعل .. في فعل يلزمننا ولا نفهمه حق الفهم قط » (٨٧)

وفي فرنسا الهزيمة ستكون حرية الفعل محدودة وبلا جدوى (يقول سارتر) :

« سكت وقد قال لنفسه : يجب ان نحيا .. نحيا ونجني يوما بيوم نهار الهزيمة العفنة : وان نرد هذا الاختيار المطلق الى تفاصيل تنطق بالحياة » (٨٨)

وبعد ذلك ينتاب ماثيو ياس يتبلور في صورة تكاد تكون اسطورية (فيقول) :

« مأسوي ؟ ولا حتى ذلك . تاريخي ؟ لا ولا ذلك ، نحن مهرجون لا يستحقون دمة واحدة مقهورون

Jean. Paul Sartre, L'Age de raison' Gallimord, Paris, 1945. p. 18. (٨٣)

Simone de Beauvoir, Le Sang des autres' Gallimard, Paris, 1954, p. 127. (٨٤)

Ibid.' p. 127. (٨٥)

Jean, Paul Sartre, Les Mouches' Gallimard, Paris, 1947, Acte III, Scène II. (٨٦)

La Mort dans l'ame' p. 77. (٨٧)

Ibid.' p. 50. (٨٨)

لهدف ؟ لا ولا ذلك ، ان العالم هو مجرد مصادفة ، كان يضحك ويضرب برأسه حائطي القدر والعبث المتواجهين واحدا بعد الآخر » (٨٩) .

وفي مواجهة الاخطار التي تتهدد الموقف الانساني : يغزو الانسان شعور بالقلق ، وقد جعلت الوجودية من القلق احد خيوط نسيجها الرئيسية وهو خيط يعود تاريخيا الى المرهفين بالوجودية من الفلاسفة شأن باسكال وكير كوجارد ، وتدخل صور عديدة تصف القلق وآثاره الى رواية سارتر ومعظمها تبرز الاعراض التي يحسها البدن والمصاحبة للقلق الذي تستشعره النفس الآدمية ، وربما جاءت الصورة وجيزة لا تلم بكل جوانب حالة القلق (فمثلا) « كان يشعر بأن القلق يطفئ عليه كما يطفئ مد البحر على الشاطئ » (٩٠) وايضا « شقه القلق نصفين » (٩١)

بينما في مواضع اخرى من الرواية تلم الصورة بعدد اكبر من التفاصيل (يقول سارتر) : « ومرة اخرى القلق : بدأ حذرا كما تبدأ الملاطفة ، ثم استقر متواضعا واليفا في اعماق امعائه ، لم يكن شيئا ، مجرد فراغ .. فراغ في داخله وفراغ حوله ، كان يجول خلال غاز مخلخل » (٩٢)

كما يصف سارتر الاعراض المصاحبة للقلق الجماعي اذا وجدت هذه الظاهرة (فيقول) : « كانوا ينظرون بعضهم الى بعض ويخيفون بعضهم البعض ، لم يتحدث احدهم عن القلق ولكنهم كانوا يستشعرونه في الاذرع والافخاذ : مؤلما كالضعضة وكان يلف في القلوب كالذبابة » (٩٣)

ومع ذلك فالتضامن بين الافراد لا زال من اسجع الوسائل لدرد القلق ، فعلى طول الرواية يشقى ماثوسعيا لذلك الشعور بالتضامن (يقول) : « في اوقات اخرى كان يصبح هو الجميع ، كان قلقه يهدأ وتتصاعد افكار الجميع الى رأسه في بقع ثقيلة ثم تنحدر من فمه » (٩٤)

وفي نفس الوقت يكون الفرد جزءا لا يتجزأ من الحشد على نحو بدني (فيقول سارتر) : « خلال لحظة واحدة اخترقتها هذه المسيرة الجماعية وصعدت من فخذيها الى معدتها واخذت تضرب في داخلها ضربات قلب منهاك : قلب الجميع الكبير » (٩٥) .

Ibid.' pp. 69-70.

(٨٩)

La Mort dans l'ame' P. 125.

(٩٠)

Ibid.' p. 144.

(٩١)

Ibid.' p. 89.

(٩٢)

Ibid.' p. 83.

(٩٣)

Douloureuse comme une courbature.....

مؤلما كالضعضة =

La Mort dans l'ame' p. 84.

(٩٤)

Ibid.' p. 22.

(٩٥)

ان شخصيات سارتر تستشعر القلق بشكل حاد الى درجة ان القلق يكاد يصبح في روايات سارتر احدى الشخصيات (فيقول) :

« كان القلق يدور بين الخضرة والخضروات المتوردة الخدين ولا يتوقف في اي مكان » (٩٦) .

ويتخذ القلق ايضا شكلا مختلفا ، ففي اوقات الحساسية المفرطة يدرك بطل سارتر بعدة عبثية العالم ودقة موقف الانسان داخل ذلك العالم فينتابه نوع من الفزع او الذعر الميتافيزيقي (فيقول سارتر) :

« أحس ماتيو تحت فخذه وتحت راحتيه تشابه حياة الارض والعشب والحشرات : بشعر طويل مهوش وندى وملىء بالقمل : كان القلق العاري هو الذي تتوسده راحته ، كان مليون فرنسي سخفاء بين اقليم الفوج الفرنسي ونهر الراين الالماني لأنهم لم يستطيعوا ان يكونوا رجالا . سيموتون وستظل تعيش بعدهم هذه الغابة الفطساء ، كما لو كانت الحياة في هذا العالم من حق الفلوات والبراري وحدها » (٩٧) .

ويستمر حوار ماتيو مع نفسه (مونولوجه الداخلي) ويتطرق الى صورة غريبة ملتوية تصف خبرة ملموسة بوصف ينطبق على خبرة مجردة (فيقول سارتر) :

« وكان للعشب الذي يلامس يديه اغراء الانتحار » واخيرا يختلط - عند البطل - الملموس والمجرد والآدمي واللانسان كما انمحت الحدود بين العالم فيقول سارتر « العشب والليل الذي يلصقه العشب بالارض والافكار الحبيسة التي تحاول الهرب منبطحة أثناء الليل ، وذلك العنكبوت الذي كان يتأرجح قرب حذائه والذي اختفى بفتة تاركا صنيع اطرافه الشاسع » (٩٨) .

ويكشف خيط اخر في نسج الفلسفة الوجودية الا وهو خيط الاحساس بالزمن عن بعض من اروع الصور التي ابتدعها خيال سارتر (٩٩) . ونقطة انطلاقها استعارة قديمة قدم الفلسفة نفسها : فكرة ان الزمن يسيل التي نص عليها هيراقليطس (١٠٠) فيستولي سارتر على هذه الفكرة ويتوسع فيها ويطورها الى وشي ادبي ، فمع حر صيف لا يطلق يسيل الزمن بطينا وكثيبا .

(يقول سارتر) « كان الزمن يسيل بطينا كشراب ادقأته الشمس » (١٠١) .

Ibid.' p. 43.

Les légumes joufflus.....

La Mort dans l'ame' p. 131.

Ibid.' p. 131.

Cf. R. Campbell, Jean Paul Sartre ou une littérature philosophique' Paris, 1945, chap. III. (٩٩)

Cf. B. Russell, History of Western Philosophy' London, 1948, p. 64. (١٠٠)

La Mort dans l'ame P. 70. (١٠١)

بل قد يبدو الزمن ثابتا تماما الا ان حركة مفاجئة تعيد اليه انتظامه (يقول سارتر) : « بل كان الزمن لا يسيل اطلاقا كان يرتجف ويتساقط على التل المحمر ، وحدثت حركة مباغته واحس به ماتييو في عظامه كبوادر معاودة روماتيزم قديم » (١٠٢) .

وفي صورة جريئة يقارن سارتر بين توقف الزمن وتجلط الدم (فيقول)

« احدث رحيلهم تمزقا مارقا في نقاء السماء وقطر قليلا من الزمن من هذا التمزق ثم توقف النزيف وتجلط الزمن ثانية » (١٠٣) .

والمستقبل هو الذي يحكم المفهوم الوجودي للزمن وليس هذا غريبا من فلسفة تضع الاختيار والحرية مكانا عليا . فبالنسبة للوجودي ، المستقبل عبارة عن « مشروع » بكل دلالات هذه الكلمة ، اي انه خطة وفي الوقت نفسه استكشاف . وقد كتب سارتر في مقاله « مفهوم الزمن عند فولكنز » ما معناه :

(حاولوا ان تتألكوا وعينكم ثم تفحصوه ، ستجدونه مثقوبا ينفتح على المستقبل . انني لا اتحدث اطلاقا عن مشروعاتكم وامالكم ولكن مجرد هذه الخطوة العارضة لن تكتسب في نظركم معنى الا اذا اطلقتكم انجازاتكم امام وعينكم وامام انفسكم في ما لم يأت بعد » (١٠٤) .

كذلك لا يعدم سارتر موهبة تحويل المعاني المجردة التي يتمثلها الى صور ملموسة تبهرنا كما بهرتنا مهارته في تصوير الزمن ، ان ماتييو وقد افزعته احتمالات المستقبل المظلمة يحاول ان يستوقف الزمن ولو لبرهة - لمسافة لحظة - فيقول :

« انا هنا وسينهار الزمن وشبح المستقبل ولن يبقى الا استمرار مكاني مهزوز ، لم يعد هناك حرب ولا سلام ولا فرنسا ولا المانيا ، فقط لمعة ضوء شاحب تحت عقب باب ربما ينفتح ، وهل سينفتح ؟ لا شيء اخر بهم » (١٠٥) .

كانت تلك هي النسخة الوجودية من محاولة فاوست لايقاف الزمن وان اختلفت الاسباب ، ولكن أن للوهم أن يزول : (يقول سارتر) « وفي الحال عاد اليه مرور الوقت ، واختفت لؤلؤة الامل الصغيرة في مستقبل شاسع كره » (١٠٦) .



La Mort dans l'ame' p. 135.

(١٠٢)

I. id.' p. 137.

(١٠٣)

Cité par Campbell, op. cit., p. 51.

(١٠٤)

La Mort dans l'ame' p. 94.

(١٠٥)

Ibi . ' p. 94.

(١٠٦)

لا بد ان نوضح جانبا من صور الخيال عند سارتر لكي نفهم ابعادها الكاملة . ان توزيع الصور طبيعي للغاية ويندر ان تظهر احداها في وسط حوار ، وتلك التي تجيء على لسان احدي الشخصيات ليست باللغة الخيال الى درجة تلفت نظرنا ما عدا تلك الجملة التي تجيء على لسان دانييل عندما يستقذع المخطط الذي كان يقدم عليه « لاغواء » فيليب وهي « ستأبل من مرضك عندما تكون قد تخلصت مني وكأنتسي قشرة فاكهة مستهلكة » (١٠٧) .

وباستثناء تلك الجملة فان الغريب في الرواية هو تلك الفجوة التي تفصل بين لغة السرد ولغة الحوار . ولسنا نبالي اذا قلنا ان الحوار في رواية « الحزن حتى الموت » يحاكي احاديث الحياة اليومية حرفيا ودون غرابتها وكأنه شريط تسجيل ، واغلب الشخصيات سواء منها المثقف او الأمي تتحدث بلغة خشنة حافلة بالالفاظ الدارجة ، وفي تصميمه على نقل لغتهم نقلا أعمى فات سارتر ان يحني رأسه للذوق السليم او لقيمة التنوع ، وهذا الاهمال قاسم مشترك بين سارتر واغلب معاصريه من الروائيين الفرنسيين ، ولكن قل منهم من بالغ فيه الى الحد الذي ذهب اليه سارتر ، وكون جمل الحوار « نيئة » الى هذا الحد المركز قد فرش ارضية غريبة وليست مناسبة للتدفق الهائل للاخيلة المركبة التي سيزهر منها فيما بعد داخل السرد ، كما ان الانتقال المتبادل بين خيالية السرد وجفاف الحوار يتم غالبا بطريقة غير متوقعة . وربما تعتمد سارتر في رواياته ان يزيد التناقض بين لغة السرد ولغة الحوار وان يجعل من هذا التعمد احد جوانب ريادته الفنية في عالم الرواية . وقد ذهب « ريمون بيكار » في مقال ثاقب النظر الى ان بين تكنيك سارتر والرميزين قواسم مشتركة عديدة ، اي اننا نجد انتقالات وذكرا لخبرات أليفة مبهمة وشبه ملهمة وتعامل ماهر مع دلالات الكلمات وموسيقيتها ، وفي نفس الوقت فالموضوع عند سارتر الى حد ما قاسم مشترك مع « الطبيعيين » ، وهو يكتفي بأن يفيد من امكانات اسلوبه الثرية في مجرد وصف ظواهر كالغثيان وغيره مما يشير التقزز ، ويقول ريمون بيكار :

« ان الغريب عند سارتر هو انه وضع عملا فيه فن يعيد الرمزية الى الازهان . وضعه في قالب يلوح كأنه من المدرسة الطبيعية ، وقبل سارتر كنا نعتقد ان رامبو قد شجب جول رينار ، وان فيرلين قد شجب زولا ، ولكن بفضل سارتر يمكن العدول عن هذا الاعتقاد » (١٠٨) .

لقد كتبت هذه الكلمات قبل نشر رواية « الحزن حتى الموت » ، ولكن يمكن تماما تطبيقها على تلك الرواية ربما فيما عدا ان احساس التقزز والغثيان قد دعمت اكثر من ذي قبل ووجد لها مبرر في الاحداث التاريخية التي مرت بها فرنسا في معمة ١٩٤٠ ، ولو اراد سارتر الرد على هذه الكلمات لقال دون شك « ان الغثيان مرحلة اساسية من مراحل نمو النفس البشرية وان الوجودية التي تلح على الحرية والمسئولية هي حتى النهاية فلسفة قوية وانسانية » (١٠٩) .

Ibid.' p. 130.

Raymond Picard, op. cit.' p. 293.

J an. Paul Sartre L, existentialisme est un huma 'isme' Gallimord, Pari , 1946.

(١٠٧)

(١٠٨)

(١٠٩)

ومع ذلك فمن الصعب الجزم بأن رواية « الحزن حتى الموت » والمجلد الذي سبقها قد ألمت بكل ملامح تلك الفلسفة وبصفة خاصة القوة والانسانية .

ومن الممكن توجيه نقد آخر الى رواية سارتر من حيث طبيعة الصور الخيالية نفسها . ليس لان كثيرا منها منفرة وغير جمالية فذلك لن يكون نقدا جادا . فمن المسلم للغة الادب المعاصر ان تعبر عن واقع هذا الادب لا ان تقتصر على المجاذبية ، كذلك لا موضوع رواية سارتر ولا جو الرواية يفضي الى اخيلة تشرح الصدر لكي تكون لغة الرواية بالتالي جذابة ، ومن جانب آخر فان جدة الصور وقوتها تعوض عن طابعها المنفر . ولكن النقد الذي يمكن توجيهه بجديّة هو ان كثيرا من صور سارتر يمكن ان يبدو غريبا ومرغما ، وقد تحدث احد النقاد عما اسماه « بتدفق صور لا رقابة عليها »^(١١٠) . والحق ان هذه الصور في الغالب مفهومة ويندر منها الصعب فهمه ، وحتى اكثرها غرابة يمكن تفسيرها على ضوء فلسفة سارتر ، ولكن القارئ غير المتأهب الذي يقتحم الرواية دون معرفة مسبقة بالوجودية يمكن تماما ان يصدم بصور من امثال « تجلط الزمن » او « التثام جروح جسد المساء الممزق » او كون نهار الصيف له لحم طري ازرق » . ان مثل هذه الاستعارات لن يقدرها حق قدرها الا من تفهم طريقة التعبير التي تميز كتابات سارتر ، وفي الوقت نفسه يجب ان نتذكر ان اغلب الصور تكون نسيجاً من حوار لا شعوري (مونولوج داخلي) يميزه اسلوب سارتر في استخدام الخطاب الحرائل المباشرة ، وهذا الحوار يحاول ان يرصد تداعيات تولد تلقائيا في عقول الشخصيات والمفروض ان تلك الصور ملك لهم وليس للمؤلف .

ونحن من جانبنا لا نرضى بالاحتجاج بكون الخطاب حرا غير مباشر مبررا لنغفر لاي مؤلف شطحاته الادبية ، ولكنه يقينا دفاع في محله حين يتعلق الامر بسارتر ، وذلك على الرغم من ان الصور الخيالية على اية حال لا تحتاج اي مبرر للدفاع . ويميز صور سارتر ثراؤها وطاقتها واندلاعها الفكري ، وهو الكاتب الذي يحب العالم باندهاش كاندهاش الاطفال ليكتشف ارتباطات جديدة بين الاشياء ويكتب اساطيره الخاصة ، فان سارتر « كيميائي » « Chimiste » على حد تعبير شارل برونو ؛ انه مفكر اهدف الفكر رؤيته . وقد تثير الوجودية من حيث هي فلسفة كثيرا من الشكوك ، ولكن لا شك انها هي التي اثرت سارتر برؤية جديدة للحياة وبطريقة اصيلة في النظر الى العالم ، فظهر هذا الثراء في صوره . والحق ان الصورة الخيالية هي من انجح الطرق لتوصيل تلك الرؤية الجديدة بشكل فني ملموس ، وعندنا في رواية سارتر مثل واضح على تكامل العنصر اللغوي مع البناء الداخلي في سبيل اتمام العمل الفني .



N. Corneau, Littérature existentialiste Le roman et le théâtre de Jean. Paul Sartre' Liège, (١١٠) 1950 p. 45.

نبذة عن حياة الكاتبة العلمية

الدكتورة دولت صالح العرب استاذ مساعد بقسم اللغة الفرنسية بكلية الآداب جامعة الاسكندرية . عملت بتدريس اللغويات والادب الفرنسي بكل من جامعات هارفارد وكولبيا في الولايات المتحدة وجامعة القاهرة .

لها كتاب عن الشاعر « جيرار دي نيرفال » .. صدر بالقاهرة سنة ١٩٧٩ باللغة الفرنسية . وبحث عن « بيكون وديرد ودالامبير » باللغة الفرنسية أيضاً بحوليات كلية الآداب بجامعة الاسكندرية . ومقالات عن كل من « فيكتور هوجو » و « بلزاك » و « رامبو » و « مدام دي ستايل » و « الاخين جوناكور » و « مدام دي لافاييت » باللغتين الفرنسية والانجليزية .. نشرت في الدوريات الجامعية للولايات المتحدة .

BIBLIOGRAPHIE

- ADAM, J. M. Linguistique et Discours littéraire' Larousse, Paris 1976.
 ALBERES, R. M. Jean-Paul Sartre' Editions Universitaires, Paris, 1960.
 ASTUC, A. et CONSTA T, M. Sartre' Gallimard, Paris, 1977.
 BARTHES, R. "Rhétorique de l'image", Communications' 4, 1964, pp. 40-52.
 "L'ancienne rhétorique", Communications' 16, 1970. pp. 172-223.
 "Sartre et le langage", Pacific Coast Philosophy' U.S.A., 1972, pp. II-19.
 BAUDOUIN, D. L, Invitée' Gallimard, Paris; 1943.
 BEAUVOIR, S. de Le Sang des autres' Gallimard, Paris, 1954.
 BOSMAN, C.S. "Sartre's nature : animal images in La Nausée", S. Summer, pp. 107-125.
 BRINDEAU, S. „La Phénoménologie dans l'image d'après Jean-Paul Sartre et Gaston Bachelard", L'Ecole des Lettres' 15 novembre 1976.
 BROOK-ROSE, C. A Grammar of Metaphors' Secker and Warburg, London 1965.
 BRUNEAU, C. "L'image dans notre langue littéraire", Mélanges Dauzat' pp. 55-67.
 CAMINADE, P. Image et Métaphore' Bordas, Paris, 1970.
 CAMPBELL, R. Jean-Paul Sartre ou une Littérature philosophique, Pierre Ardent, Paris, 1945.
 L, Existentialisme. Foucher, Paris, 1960.
 CHAMPIGNY R. "L'expression élémentaire dans L'Etre et le Néant", publications of the Modern Language Association of America. Vol. LXVIII, 1953, pp. 54-64.
 COHEN, J. "Théorie de la figure", Communications' 16, 1970, pp. 3-26.
 COLVILLE, G. "Eléments surréalistes dans La Nausée : une hypothèse de l'écriture", L'esprit créateur' printemps 1976, pp. 19-28.
 CORMEAU, N. Littérature existentialists' Le roman et le théâtre de Jean-Paul Sartre' Liège, 1950.
 CRUISKSHANK, J. The Novelist as Philosopher : Studies on French Fiction : 1935-1960' Oxford University Press, 1962.
 DIEGUEZ, M. de L, écrivain et son langage' Paris, 1960.
 EL ARAB D. Aurélie de Nerval. Analyse stylistique structurals' Atlas Press Le Caire, 1979.
 GODIN, R. Les ressources stylistiques du français contemporain' Basil Blackwell, Oxford, 1948.
 GENETTE, G. FIGURES' Seuil, Paris, 1966.
 "La rhétorique restreinte", Communications' 16, 1970.
 GREENE, N. Jean-Paul Sartre : The existentialist Ethic' University of Michigan Press, Ann Arbor, 1960.
 HEIDEGGER, M. Qu'est-ce que la métaphysique?, Gallimard, Paris, 1942.
 HELBO, A. L, Enjeu du Discours' Lecture de Sartre' Editions comparecs, Bruxelles, 1977.

- JACOBSON, R. *Essais de Linguistique Générale* Les Editions de Minuit, Paris, 1973.
 JAMESON, F. "Sartre, The origins of a style", *Yale Romanic Studies* ser. 2, vol. 8, 1961.
- LE GUERN, M. *Sémantique de la métaphore* Larousse, Paris, 1973.
 MAROUZEAU, J. *Précis de stylistique française* Masson, Paris, 1965.
 MERLEAU-PONTY, M. *Phénomenologie de la perception* Gallimard, Paris, 1945.
 MINGELGRUN, A. "Lumière et couleur dans *L'Age de Raison* de Sartre", *Revue de l'Université de Bruxelles* nos 3-4, 1976, pp. 341-350.
 MURDOCH, I. *Sartre' Romantic Rationalist* Fontana Library, London, 1971.
 PEYRE, H. *The Contemporary French Novel* New York, 1943.
 PICARD, R. "L'art de Jean-Paul Sartre et les Hommes de Bonne volonté", *La France Libre* 15 février 1946, pp. 289-296.
 PROUST, M. "A propos du style de Flaubert", *La Nouvelle Revue Française* vol. XIV, I, 1920, pp. 72-90.
 REES, G.O. "Animal Imagery of André Malraux", *French Studies* vol. IX, 1955, pp. 129-142.
- RICHARDS, I. A. *The Philosophy of Rhetoric* Oxford University Press. New York, 1950.
 RIFFATERRE, M. *Essai de stylistique structurale* Flammarion, Paris, 1971.
 _____ *La Production du Texte*, Editions du Seuil, Paris, 1979.
 RUSSEL, B. *History of Western Philosophy* London 1945.
 SARTRE, J.-P. *L'Imagination* Alcan, Paris, 1936.
 _____ *La Nausée* Gallimard, Paris, 1938.
 _____ "A propos de John Dos Passos et 1919", *La Nouvelle Revue Française*, août 1938, pp. 292-301.
 _____ *L'imaginaire*, Gallimard, Paris 1940.
 _____ *L'Être et le Néant* Gallimard, 1943.
 _____ Article dans *Action* 27 décembre 1944.
 _____ *L'Age de Raison* Gallimard, 1945.
 _____ *Le Sursis* Gallimard, 1945.
 _____ *Théâtre* Gallimard, 1947.
 _____ *Situation I* Gallimard, 1947.
 _____ *L'Existentialisme est un Humanisme* Gallimard, 1948.
 _____ *La Mort dans L'âme* Gallimard, 1949.
 _____ *Style in Language* Massachusetts Institute of Technology, Boston, 1980.
 SEBEEK, A. *Shakespeare's Imagery and what it tells us* London, 1960.
 SPURGEON, C.F. *La Philosophie de Sartre* Les Editions de l'Université d'Ottawa, Canada, 1977.
 THEAU, J. *Théories du symbole* Editions du Seuil, Paris, 1977.
 TODOROV, T. *Language and Style* Basil Blackwell, Oxford, 1964.
 ULLMAN, S. "L'écrivain et sa langue", *Revue d'esthétique* 18, juillet 1965, pp. 306-334.
 VERSTRAETEN, P.

ينطلق سارتر في فلسفته من « الكوجيتو الديكارتي » . والكوجيتو يقرر الأنا مبدأً أولاً وحقيقة أولى . ولكن سارتر لا يقف عند الكوجيتو كما فعل من قبل الفيلسوف الألماني هوسرل . فرغم اكتشاف هذا الأخير لفكرة القصد L'intentionnalite وهي الفكرة التي تربط ربطاً وثيقاً بين الذات والموضوع بما تقيمه بينهما من إحالة متبادلة ، قد انزلق إلى نوع من التصورية المطلقة ، وظل حبيساً في نطاق الوعي دون الذهاب إلى ما يقصد إليه من موضوعات . كذلك لم يمس سارتر من الأنا إلى الوجود الواقعي العالمي كما فعل هيدجر . إن هيدجر قد مضى ، بنوع من الجدل الخالص ، وتجاوز الوعي وأغفله ليقرر الوجود ويقيم الانطولوجيا . أما سارتر فلا يقف عند الكوجيتو ، ولا يتجاوزه إلى الوجود ، وإنما هو ينظر إلى الأنا الواعي وموضوعه معا في علاقتهما التي لا تنفك . لقد كشفت له فكرة القصد ، التي هي أهم ما يعطيه الحس الفينومولوجي ، عن مثول الموضوع أمام الوعي وعن اتجاه الوعي ضرورة نحو موضوع ما .

فلسفة جان بول سارتر

جيب الشاروني

أستاذ الفلسفة الحديثة بجامعة الاسكندرية وفاس

هكذا يكون « الوعي دائماً وعياً بشيء ما » ^(١) . وهكذا يتميز الكوجيتو عند سارتر عنه عند غيره من الفلاسفة . إن الكوجيتو عند ديكارت يدل على جوهر قائم في ذاته يعرف بالتفكير الداخلي . فحين يقول ديكارت : « أنا أفكر إذا أنا موجود » ينتقل بذلك من الأنا أفكر إلى الجوهر المفكر المتقوم بذاته ويمضي

من ثمة إلى دراسة النفس ، كما يتضح من التأمل الثاني ، دراسة ميتافيزيقية تتناول النفس من حيث هي جوهر . وإذا كان كنتط قد رفض جوهرية النفس فانه قد اتخذ من الكوجيتو تعبيراً عن الصورة التي تجمع الظواهر في فكر واحد يعينه يترجم بأنا أفكر *ich denke* . وهذه الصورة هي مبدأ متعال وظيفته التفكير ، أى إيجاد التوافق بين المقولات الجوفاء وبين الحدوس العمياء . فالأنا عند كنتط هو مبدأ معرفة لا مبدأ وجود . أما سارتر فيرفض القول بجوهرية النفس كما فعل ديكارت ^(٢) ، ويرفض الوقوف عند المظهر الوظيفي للكوجيتو ، أعني باعتباره مبدأ معرفة ويقين كما يجيء صراحة عند كنتط . إنه يرفض ذلك لأن الكوجيتو عنده هو المعرفة الفعلية أى المعرفة كوجود . فليست المعرفة فعلاً من أفعال الوعي يتعلق بموضوع ، وليست هي شيئاً مختلفاً عن الوجود ، كما هو الأمر في الفلسفة التقليدية لدى المحدثين . وإنما هي فعل الوجود من حيث هو وعي ومعرفة . ان الكوجيتو يقرر الوعي أى الأنا العارف . والوعي عند سارتر هو الوجود بالذات والمظهر الأول للوجود . إنه فعل وممارسة وشعور فعلى .

يبدأ إذا سارتر من وجود الوعي ليكشف لنا عن معنى ذلك الوجود . وابتداء سارتر من الوعي ، وهو الوجود بالذات ، إنما هو تقرير صريح وجازم بأولوية الوعي من حيث إنه وجود ^(٣) . وفي هذا التقرير لأسبقية الوجود يتفق سارتر - بصفة مبدئية - مع الكوجيتو الديكارتي . فبمقتضى الكوجيتو يتقرر وجود الأنا : أنا أفكر إذا أنا موجود . ان الكوجيتو لا يقرر المعرفة وإنما هو يقرر وجود العارف أى وجود الأنا .

ولكن سارتر يفترق بعد ذلك عن ديكارت افتراقاً جوهرياً في تأويله للكوجيتو ولأسبقية الوعي . فبمقتضى الكوجيتو « أنا أفكر إذا أنا موجود » ينتقل ديكارت مباشرة إلى تقرير وجود الأنا كجوهر مفكر ، أى كجوهر ماهيته التفكير . كأن أسبقية الوعي - في فلسفة ديكارت - هي أسبقية الأنا باعتباره جوهر ، وكأن هذا الجوهر يمكنه من حيث هو سابق - أن يتصف بعد ذلك بأية حال شعورية كأن يعرف أو يبجل وكأن يلتذ أو يتألم . فأولوية الأنا هنا هي أولوية جوهر حائز على قدرات متعددة مثل القدرة على التفكير وعلى المعرفة وعلى الالتذاذ ، ويمكنه بالتالي أن يمارس هذه القدرات وأن يحققها بالفعل ، كل ما يمكنه أن يتمتع عن ممارستها فتظل قدرات أى قوى فحسب . إن الأنا بهذا الاعتبار هو ماهية أو طبيعة سابقة على الفعل وعلى الممارسة . وكذلك بكل حال من أحوال الشعور هو صفة سابقة على قياسها بالفعل .

Sartre, J.-P. : L'Être et le Néant (Gallimard, Paris 1950) P.115 (٢)

(٣) هذه الأولوية للوعي هي أولوية فيثونولوجية ، أما من الوجهة الميتافيزيقية فيمكننا أن نقرر أولوية الموضوعات أو الوجود - في - ذاته على الوعي من حيث إن الوعي هو عدم يأتي إلى الوجود . إنه - كما يشبهه سارتر - دودة تنخر في الوجود وتحدث فيه نوعاً من التصدع أو التشقق .

L'Être et le Néant, P. 57

وعلى عكس هذه النتيجة تماما يذهب سارتر في تأويله للكوجيتو إن الكوجيتو عند سارتر لا يعني جوهرًا حائزًا على طبيعة أو ماهية معينة ويمكنه أن يفعل في حدود هذه الماهية ، وإنما هو يعنى نفس وجود الوعى أى نفس وجود المعرفة من حيث هى ممارسة ومن حيث هى شعور فعلى . فكأن أسبقية الأنا - في فلسفة سارتر - هى أسبقية الممارسة ، وكأن سارتر حين يقرر وجود الأنا يقرر وجودا هو وجود الوعى العارف أو هو ممارسة المعرفة ، بحيث يصبح هذا الوجود سابقا على الماهية أو تصبح ممارسة المعرفة سابقة على ظهور طبيعة المعرفة ، وبحيث يكون في بزوغ الوعى أى في ممارسته للوجود خلقا متجددا لماهيته . فالوجود إذا هو ممارسة سابقة على الماهية ، وهو من ثمة فعل سابق وشرط أولى أساسى لكل ما يكونه أو يقوم به أو يمارسه موجود ما . بل شرط سابق لكل معرفة نحصل عليها من هذا الموجود . ومن غير فعل الوجود لا يوجد كائن عارف كما لا يوجد موضوع معرفة . وعلى ذلك فكل من الانطولوجيا أى علم الوجود والنوتيقا la noetique أى المعرفة الحدسية يجد له أساسا ونقطة ارتكاز دائمة في فعل الوجود ذاته . وعندما يقول سارتر بأن الوجود سابق على الماهية فهو يعنى بالوجود وجود الوعى ، والوعى في فلسفة سارتر هو وعى شيء ما . وإذا فأسبقية الوجود هى أسبقية الوعى أى الشعور أو المعرفة في ممارستها الحقة . وهذا يعنى أن الوجود عند سارتر ليس سابقا على المعرفة وعلى « أنا أعرف » كما أن المعرفة ليست سابقة على الوجود ، وإنما الأولوية هى لوجود المعرفة أو للوجود من حيث هو وعى (٤)

بهذا التأويل للكوجيتو تنتهي إذا إلى القضية الرئيسية في الفلسفة الوجودية عامة وفي فلسفة سارتر بوجه خاص وهى القضية التي تقرر سبق الوجود على الماهية . وقد انتهى سارتر مباشرة إلى هذه القضية بمقتضى ابتدائه من الكوجيتو الديكارتي بمقتضى تقريره لأولوية الوعى من حيث هو وجود . فالقضيتان : سبق الوجود على الماهية ، وأولوية الوعى من حيث هو وجود تعبران عن شيء واحد ، أو هما بالأحرى قضية واحدة يستمدها سارتر أصلا - وبشيء من التأويل - من الفلسفة الديكارتية . وبناء على هذه القضية تتقرر مباشرة - كما سنرى - الحرية الانسانية في فلسفة سارتر من حيث إن الوعى ليس حاصلا على أى ماهية يتحدد في نطاقها وجوده . إنه وجود أو هو ممارسة حرة لفعل الوجود وخلق متجدد للماهية . والحرية هى عين هذا التجدد أو هي حقيقته . فليس يمكننا إذا أن نفسير الوعى بواسطة طبيعة سابقة عليه أو ماهية خارجة عنه ، وإنما هو يفسر ذاته كوعى أو هو يدرك ذاته وعيا . ولكن هذا الإدراك أى هذا الوعى الثاني متضمن في الوعى الأول . بهذا المعنى نقول إن الوعى لا يمكن إدراكه إذ لو أدركنا هذا الوعى المدرك لانفتح باب التساؤل بأى شيء أدركناه وبدأت سلسلة لا متناهية . كأن أدرك أنني أعى شيئا ما ، وأدرك كوني مدركا أنني أعى هذا الشيء ، وهكذا إلى مالا نهاية . لذلك لا يمكن للوعى أن يصبح موضوعا لنفسه على هذا النحو ، ولكنه يعرف نفسه واعيا شيئا ، أى أنني أدركه فقط كوعى لشيء

آخر . وليس الأمر قاصراً في ذلك على الإدراك ، وإنما جميع أحوال الشعور ليست لها أى طبيعة أو ماهية قبل الشعور بها أو قبل قيامها بالفعل . فاللذة مثلاً والشعور باللذة واحد . إنها ليست لذة بالقوة تصبح لذة بالفعل عندما نحس بها ، وهى ليست صفة أو طبيعة سابقة على الشعور بها ، ولكن الشعور باللذة هو اللذة ذاتها .

هكذا يفسر الوعى ذاته من حيث هو وعى . إنه يعرف ذاته واعية . فالوعى - كما رأينا وكما تقتضي فكرة القصدية - هو وعى شيء ما ، أعنى هو وعى متجه إلى موضوع ما . وهذا يعني أن الموضوع ذاته موجود ، وأن الوعى في اتجاهه إلى الموضوع ليس إلا وعياً وشعوراً ومعرفة . وسارتر يسميه « الوجود - لأجل - ذاته eoi—etre—pour . فالوعى هو وجود متجه إلى ذاته وإلى الموضوعات ، أو هو شعور منفتح على ذاته وعلى الموضوعات دون أن يكون حاصلًا على أى ماهية سابقة : « ليس في الوعى أى صفة جوهرية . إنه ظاهرة فحسب بمعنى أنه ليس موجوداً إلا بمقدار ما يظهر لذاته » . ^(٥) إنه وعى حاضِر لذاته ولكنه ليس شيئاً قائماً بذاته » . إن الوعى موجود يثار بصدد وجوده وإشكال وجوده من حيث إن هذا الوجود الأخير يتضمن وجوداً آخر سواء ^(٦) . فالوعى شكل من الوجود يتضمن شكلاً من الوجود غير وجوده هو الخاص . وهو لا يوجد إلا بما يتضمن ، أى إلا بمقدار ما يرتبط بما يختلف عنه ، وليس الارتباط - على نحو ما سنرى - إلا النفي أو الانفصال .

الوعى إذا يفترض وجودين : وجوداً هو الوعى ووجوداً خارجياً متميزاً عنه يفترضه الوعى . وقد استخرجت المثالية الذات الواعية فحسب من فعل الوعى . أما سارتر فقد قرر أيضاً للموضوع الخارجي وجوداً مستقلاً لا يقوم على الوعى .

واستقلال الموضوع أو تقرير الوجود المستقل للموضوعات هو ما يميز فلسفة سارتر تمييزاً صريحاً وحاسماً عن الفلسفة الحديثة أو عن الاتجاه التقليدي في الفلسفة الحديثة وعن فلسفة ديكارت بصفة أخص . فنحن نعرف أن الفلسفة الحديثة هى في مجملها فلسفة تصورية ، والتصورية تبدأ دائماً من الأنا العارف وتقف عنده بحيث تصبح الموضوعات كلها اضافية لا وجود لها إلا باعتبارها مدركات . وابتداءً التصورية من الأنا العارف قد أدى بالفلسفة الحديثة إلى إغفال القيمة الوجودية للموضوعات وإلى اقتصارها بالتالي على النظر في بحث الاستمولوجيا وعلى

(٥) L,etre et le Neant, P. 23

(٦) يرد هذا النص مراراً في مواضع متعددة من « الوجود والعدم » ، مثلاً صفحات ٢٩ ، ٨٥ ، ٢٢٢ . ويلاحظ أن كلمة الوجود والموجود يرادفها بالفرنسية لفظ واحد هو L,etre ولفظ الوجود يقال في العربية - تماماً مثل لفظ L,etre في الفرنسية - بهذين المعنيين : فهو يقال باعتباره مصدراً ويعنى فعل الوجود أو الوجود بالفعل ، ويقال باعتباره اسماً ويعنى الوجود نفسه . وسارتر يعتمد أحياناً استعمال نفس اللفظ بالمعنيين متوخياً ما يشير ذلك من لبس ليضفي على كتابه شيئاً من الصعوبة . ولكنه أحياناً أخرى يستعمل لفظ L,existence ليشير بصفة أخص إلى المعنى الأول أى إلى فعل الوجود وتحقيق الوجود ، بينما يستعمل لفظ etre ليشير إلى الوجود بصفة عامة .

مسائل المعرفة . أما فلسفة سارتر فسنرى أن للموضوعات وجودا مستقلا لا يرجع إلى وجود الأنا . وبعبارة أخرى فإن سارتر يبدأ - مثل التصورية - من الأنا أو من الوعي ، ولكنه لا يقف عند الأنا أو الوعي كما تفعل التصورية ، وإنما هو يتابع الكوجيتو في تأويله الفينومولوجي وبالتحرر من هوسرل ويقرر للموضوعات وجودا قائما بذاته مستقلا عن الوعي . وتحرر سارتر من هوسرل وانزلاقه إلى الموقف الوجودي لم يكن فحسب عن طريق تأثير سارتر المباشر بفلسفة هيدجر ، وإنما كان كذلك وبنوع خاص عن طريق الحدس الأصيل لسارتر : حدس الوجود - في - ذاته الذي يفترضه الوعي أو الذي ينزلق إليه الكوجيتو . ان الكوجيتو أو الأنا أفكر يقرر مباشرة وعلى نحو ما ذهب ديكارت وجود الأنا أفكر ولكنه يقرر أيضا وفي نفس الوقت وجود الأنا أفكر في موضوع . فأسبقية الوعي في فلسفة سارتر لا تتعارض مع وجود الموضوع المستقل ، ولكنها بالعكس تؤكد ذلك الوجود . كأن سارتر إذا قد نقل الدليل الانطولوجي من مجاله في فلسفة ديكارت إلى مجال آخر : فبينما ينتقل ديكارت - بمقتضى الدليل الانطولوجي - من الأنا أفكر إلى موجود خارجي كامل لامتناه هو الله ، نرى سارتر ينتقل من الأنا أفكر إلى موجود خارجي هو الموضوعات . إن الكوجيتو - في فلسفة سارتر - يقرر مباشرة مع وجودي ، أى مع وجود الأنا أفكر ، وجود الموضوع الذي أفكر فيه ، بحيث يصبح وجودي أنا الكائن المفكر مختلفا عما أفكر فيه ومتمايزا عنه ، وبحيث يصبح وجود الموضوع الذي أفكر فيه موجودا فحسب لا تمايز بينه وبين ذاته .

وبعبارة أخرى يقوم الوعي من حيث هو متمايز عن الموضوع ، أى من حيث هو ينفي ذاته عن الوجود الموضوعي وينفي في نفس الوقت الوجود الموضوعي عن ذاته . إن وجود الوعي كما رأينا سابقا على طبيعة الأنا كوعي ، أو هو يتطلب ، من حيث هو وجود ، ماهية الوعي من حيث هي شعور ووعي . ولكن وجود الوعي هو نفي لذاته عن الوجود الموضوعي . فالوجود الموضوعي إذا هو بعكس الوعي ما يتطلب ما هيته وجوده ، أى أنه ، من حيث هو موضوع خارجي ، الماهية فيه سابقة على الوجود وتتطلب الوجود .

وعلى ذلك فإذا امتاز وجود الأنا بالوعي فهو لأنه يوجد بالانفصال وبالتمايز عن الموضوع ، بينما يمتاز الموضوع بالاتصال المطلق وعدم التمايز المطلق أى بالانغلاق على الذات . وهذا الموجود الأخير يسميه سارتر « الوجود - في - ذاته - I,etre-en-soi »^(٧) . وكلمة « في - ذاته » - تعنى معادلا أو مطابقا لذاته ، أى أنه لا يوجد لأجل ذاته مثل الكائن الواعي بل هو مجرد قائم هناك ، لا شك فيه ، جامد ، متكتل ، كثيف ، لا يعتوره أى فراغ ، ولا

(٧) ويشير إليه أحيانا باغفال كلمة الوجود فيقول « الفى - ذاته I,etre-en-soi » وأحيانا بإيراد كلمة شيء بدلا من كلمة وجود فيقول « الشيء - في - ذاته Chose-en-soi » . واستخدام كلمة شيء بمعنى الوجود أو الموجود شائع في الفرنسية وفي العربية ، فابن رشد يرى أن لفظ الشيء يقال على كل ما يقال عليه لفظ الموجود ... « تلخيص ما بعد الطبيعة ص ٦ » .

يحتمل أى مسافة بينه وبين ذاته ، فهو ملاء مطلق خال من الوعي . وإدراكنا له لا يعني أن وجوده متوقف على الإدراك *esse est percipi* كما يقضي بذلك مبدأ الحسية التصورية ، وإنما نحن ندركه على أنه ما هو مستقل عن أنفسنا . إنه ليس إيجابيا ولا سلبيا ، وليس ثابتا ولا منفيا ، فهو أبعد من جميع مقولاتنا لأنه مجرد قائم لا يقال عنه ضرورى أو ممكن أو ممتنع . إنه ما هو لا أكثر . الوجود - في - ذاته هو ما هو ؟ ، أهى أ ، أى أن أ توجد في تطابق تام مع نفسها دون أن يوجد فيها أدنى ثنائية أو أى فراغ بين جزء منها وجزء آخر ^(٨) . وهذا يعنى أن لا سبب له ولا غاية ، وإنما هو واقع جامد معطى جميعه دون انفصال عن ذاته . إنه ليس إمكانا في ذاته ، إنه في ذاته دون أن يكون لوجوده أى ضرورة . ومن أجل هذا يرى سارتر أن الوعي يخلع على الوجود - في - ذاته تعبيرا إنسانيا هو الفضول *de trop* ، وإن الوجود - في - ذاته يثير لدى الوعي إحساسا كثيبا هو الغثيان *La Nausee* .

والواقع أن سارتر قد شعر في مرحلة مبكرة - وذلك أثناء تحريره لكتاب « الغثيان » عام ١٩٣٨ - بما في « الوجود - في ذاته » من فضول . فتاريخ سارتر الفلسفي قد بدأ بحدسه الواقعي « للوجود - في ذاته » . ولكن هذا الابتداء باكتشاف الوجود لا ينبغي إطلاقا أن يوحى إلينا بأية أسبقية للوجود على الوعي . بل إن هذا الاكتشاف للوجود هو تجربة وجودية تفترض قبل كل شيء وجودا أول هو الوعي الذى يحس التجربة الوجودية . فالحدس الواقعي للوجود - في - ذاته ينحل ، في فلسفه سارتر ، إلى الأنا الحادس وهو موجود أول وإلى الوجود المفترض وهو موجود ثان .

وربما لم يكن هناك - بصدد تصوير سارتر لما في هذا الوجود الثاني من فضول ولما يثيره لدى الوعي من غثيان - أروع من كلمات أنطوان روكنتان - بطل قصة « الغثيان » حين يصف الأشياء وقد تحررت من أسائها ^(٩) . فهذه الكلمات التي تحبى في مذكرات أنطوان روكنتان تعبر في الواقع عن اكتشاف سارتر نفسه للوجود وعن شعوره بأن الوجود واقع عارض وأن الأشياء موجودة دون أن نعرف لوجودها سببا أو غاية ، كأنها فائضة عن الوجود *de trop* . يقول سارتر - على لسان روكنتان - في نفس القصة ^(١٠) : « إننى أسند يدي على المقعد الصغير ولكنى سرعان ما أسحبها : ان المقعد موجود . هذا الشيء الذى أجلس عليه والذى أسند عليه يدي يسمى مقعدا ... وأتمتم : إنه مقعد ... ولكن الكلمة تبقى على شفتي : إنها تأبى أن تذهب لتحط على الشيء » . فليست الأشياء - قبل تدخل الوعي الذى يدركها - إلا كابوسا مبهما يستثير الغثيان . إنها تتحول

(٨) L'Etre et le Neant, P. 116

(٩) راجع قصة « الغثيان » ص ١٦١

(١٠) Sartre : La Nausee, (Gallimard, Paris 1954) P. 159

عندئذ إلى عالم متحجر أى إلى شيء - في - ذاته خال من معنى « الأدوات » الذى يضيفه الوعى عادة على الأشياء ، وعند تدخل الوعى يتحول هذا الشيء - في - ذاته إلى عالم لأجل الذات ، فيصاغ في ظاهرات تؤلف كائنات حقيقية يمكن إدراكها ، وهى ما تعنى الفينومولوجيا بوصفها .

هذان النحوان للوجود ، الوعى وموضوعه ، أو الوجود - لأجل - ذاته والوجود - في - ذاته ، ليس بينهما تقابل فحسب . فالوعى يأتى إلى الوجود على أنه « لا non » أى على أنه انفصال مما هو موجود ، فهو إذن يتطلب العالم الموضوعي المعطى ، ولكن دون أن يمكن استنتاجه منه لأن العالم مستقل ومكتف بذاته ، وإنما يتطلب الوعى وجودا - في - ذاته ينفصل عنه . فهناك أولوية للوعى باعتباره وجودا فحسب ووجودا يفترض موضوعا ، أى وجودا سابقا على أى ماهية وموضوع . أما العالم - فبعكس ذلك - يمكن استنتاجه من الوعى دون أن يكون خارجا منه أو مكونا بواسطته ، بل لأن الوعى وعي بموضوع ليس هو . إن الوعى يأتى إلى العالم على أنه انفصال من العالم - على أنه ليس العالم ، فهو إذا لاشيء ، ولكنه يؤسس العالم ويعطيه قياما ، فهو « اللاشيء » الذى به تكون ثمة أشياء »^(١١) . وهذا اللاشيء هو الحقيقة الانسانية ذاتها باعتبارها النفي الأسمى الذى بواسطته ينكشف العالم »^(١٢) ورغم أن الوعى ليس العالم فانه من جهة أخرى ليس « شيئا » خلاف العالم ، أعنى ليس « شيئا » قائما بذاته مستقلا عن العالم ما دام العالم ذاته أى الشيء - في - ذاته موضوعا للوعى . والانسان ليس مادة تفكر ، وإنما هو انفصال عن كل مادة : إننى لست شيئا إذا أنا أفكر . إننى أسمع دقائق الساعة ولكنى أنا الذى أسمع لست شيئا . وأنا أعلم أن هذه السحب الدكناء تنذر بالمطر ولكنى أنا الذى أتنبأ لست شيئا . وأنا بادراكى المحسوس لهذه القطعة من الورق لا أتحوّل إلى ورق بل بالعكس أعى عندئذ أننى لست ماهية الورق إذ بواسطته النفي الأسمى يؤسس الوجود « لأجل - ذاته نفسه على أنه ليس الشيء »^(١٣) . أى أنه ليس الشيء الذى ينفيه وينفصل عنه . فالوعى يؤسس ذاته باستمرار على أنه خلاف العالم . إنه يتجه إلى الأشياء وينفصل عنها ويتدفق فوقها ليجعلها مجالا للاحساس وموضوعا للدراك . وهذه هى سلبية الانسان negativite التى تكون بمقدار ما يقول إضهارا عند أدنى شعور : « إننى أرى حجرا ، ولست أنا هذا الحجر فالانسان إذا مثول وابتعاد في نفس الوقت ، وهذا هو ما يتيح له معرفته بالأشياء الخارجية وبنفسه ، بالأشياء الخارجية لأنه ينأى عنها ويحدها ، وبنفسه لأنه يتميز بانفصاله عنها . فالوعى عند تعامله مع أى موضوع يدرك ذاته على أنه ليس هذا الموضوع . إنه يتراجع عن الموضوع ويضع نفسه خارجا عنه . ومن هنا نستطيع أن نقول إن الوعى في علاقته بالموضوع يحقق

L'Etre et le Neant, P. 502 (١١)

Ibid., P. 230 (١٢)

Ibid., P. 222 (١٣)

عمليتين في وقت واحد : التفكير في الموضوع والتمييز عنه ، أى أنه يكون فكرة عن الموضوع : « إننى أرى حجرا » ويضع نفسه في الوقت ذاته خارج الموضوع : « ولست أنا هذا الحجر » .

الوجود - لأجل - ذاته إذا يأتي إلى الوجود بواسطة عملية انفصال . ووعيه لنفسه منفصلا ليس معناه إقامة وجودين منفصلين كما يلاحظ الرائي مثلا تميزا بين الريشة ودواة الحجر فيقول : « ان الريشة ليست هى دواة الحجر » وإنما هو انفصال وتميز مدرك إضمارا كأن أقول : « إننى لست غنيا » أو « أننى لست جميلا » . فها أؤسس به ذاتي هنا هو نفى داخلى أى أنه علاقة قائمة بين موجودين بحيث إن ما ينتفي عن الواحد يصف الثاني في صميم ماهيته بواسطة نفس غيابه عن الأول . فانتفاء الغنى عن الأنا في المثال السابق يضع في نفس ماهية الوقت الغنى باعتبار هذا الغنى شيئا غائبا عنى ويضعنى باعتبارى غير غنى . وانتفاء الجمال عنى يعطيني أيضا ماهية الجمال باعتباره شيئا غائبا عنى ويقرر ماهيتي باعتبارى غير جميل . وكذلك عندما أقول : « أنا لست هذا الحجر » فانما أنفى عن نفسى كونى حجرا ، أى أقرر ماهيتي باعتبارى لست هذا الحجر ، وفي نفس الوقت أصف الحجر في صميم ماهيته ، أى كونه حجرا متميزا عنى . وهكذا أؤسس ذاتي دائما باعتبارى منفصلا ومتميزا أى بعملية انفصال وتميز .

العلاقة إذا بين الوعى والموضوع هى علاقة مثول وابتعاد ، وهى تعنى حضور الوعى ازاء موضوع ليس إياه وتؤكد وجود العالم كما تؤكد وجود الوعى . هذه العلاقة هى أساس المعرفة والعمل وشرطهما الوحيد . وإدراك الوعى لتمييزه عن الموضوع ، أى إدراكه لكونه « ليس - ذلك » ، هو أولى مراحل المعرفة - لذلك يعرف سارتر الوجود - لأجل - ذاته « بأنه موجود يشار بصدد وجوده إشكال وجوده من حيث إن هذا الوجود هو أسلوب معين لعدم كونه وجودا (آخر) يضعه في نفس اللحظة على أنه سواء . فالمعرفة إذا تبدو ككيفية للوجود وليست بأى حال علاقة قائمة بين موجودين كما أنها ليست نشاطا لأحدهما أو صفة أو ميزة له » .^(١٤) إنها تعنى وجود الأشياء ولكن بحيث يكون الوعى حضورا ازاءها ونفيا منعكسا لها . وسارتر يسمي هذا النفى الداخلى الذى يكشف عن الوجود - في - ذاته أثناء تحديده للوجود - لأجل - ذاته بالتجاوز transcendance^(١٥) ، إنه يسميه بالتجاوز لأن الوعى ينفصل عن ذاته وعن الأشياء أو هو يفارق ذاته ويفارق الأشياء . فالوعى يكشف عن العالم بكونه هو غير العالم وفي نفس الوقت يقر وجود العالم دون أن يضيف أى شيء إليه ، وإنما يتصف هو متميزا بكونه ليس هذا

(١٤) L, Etre et le Neant, p. 222 et 223

(١٥) L, Etre et le Neant, P. 228 وقد أثربنا ترجمة كلمة transcendance بالتجاوز لا بالتعالى لما تتضمنه كلمة التعالى من معنى أخلاقي غير مقصود هنا .

الوجود - في - ذاته . ومعنى ذلك أن الوعى يعرف ذاته بواسطة كشفه عن صفات الشيء - في - ذاته . وهكذا عندما يكشف الوعى عن تميز الوجود . في - ذاته بالامتداد يكشف في الوقت نفسه عن ذاته باعتباره حضورا وسلبا ، - على أنه - بعكس الأشياء - ليس امتدادا .

ويشبه سارتر هذه العلاقة بين الوعى والأشياء بنقطة التماس في الهندسة حيث يلتقي القوسان . (١٦) ففي هذه الحالة إذا حجبتا القوسين بحيث لا نرى منهما الا نقطة التقائهما عند المماس بدا لنا خط واحد متطابق لشيء يفصله وليس متصلا ولا غير متصل . وإذا كشفنا عن القوسين ظهرا لنا متميزين حتى عند المماس . فهنا لم يحدث أى انفصال مادي . وإنما إدراك نفس الحركتين اللتين ترسم بهما القوسين يتضمن نفيا أى انفصالا . وهذا النفي نفسه هو الفعل الذى يؤسس كلا من الخطين . وعلى نفس النحو تقوم العلاقة بين الوعى والأشياء : فالعالم كله يقوم كأساس وكمجموع لجميع عمليات النفي المقبلة والممكنة وهى ما يقابل الوجود - لأجل - ذاته في مجموعته الذى لم يتحقق بعد . ولا يكون الوعى حاضرا إزاء جميع مظاهر الموضوع معا ، ولكنه يحقق ذاته أى يؤسس الوجود - لأجل - ذاته بفعل واحد يكون دائما نفيا لصفة واحدة أو خاصة معينة للموضوع بحيث يترك للمستقبل مجالا لاختيار صفة أخرى . والوعى إذ يختار بحرية أن ينفي صفة ما يؤسس تلقائيا وجوده في كل عملية نفي .

والعالم يبدو للوعى كمجموعة من الكيفيات مثل الألوان والأصوات ، تصورها الفلاسفة خطأ على أنها تحديد ذاتي وعلى أن وجودها ككيفيات اختلط بذاتية النفس . لذلك يقول سارتر : « ان الكيفية لا تصبح موضوعية إذا كانت أصلا ذاتية » (١٧) . إن الكيفية كما يراها سارتر هى إشارة لما نحن ليس عليه ولنوع من الوجود مختلف عنا . (١٨) والوعى كذلك لا يمكن أن يتطابق مع الأشياء وإلا لما كان وعيا ولا تمتعت بالتالي المعرفة . وعلى ذلك فالمعرفة نسبية . (١٩) - إنها نسبية لأن انفصال الوعى هو الذى يتيح معرفة العالم . فهى إذا انسانية ولا يمكن أن تكون غير ذلك . ولكن المعرفة تضعنا كذلك في حضور المطلق ، لأن ما هو هناك فهو حقيقي ، وما هو معروف حقيقة ليس إلا المطلق . المعرفة إذا نسبية وتضعنا في نفس الوقت في حضور المطلق .

وهكذا بقلب الموقف المثالي قلبا أصليا يرى سارتر أن الوجود نفسه هو الحاضر أمام الوعى في المعرفة . والوجود - لأجل - ذاته لا يضيف شيئا إلى الوجود - في ذاته . والوجود - في - ذاته هو ماهو ، وصفاته ليست ذاتية

(١٦) L,Etre et le Neant, P.227

(١٧) L,Etre et le Neant, P. 235

(١٨) Ibid., P. 237

(١٩) لا بالمعنى الكنتي الذى يجعل المعرفة قاصرة على الظاهر كما تقضى بذلك « التصورية النقدية » ، بل بمعنى أنها انسانية باطلاق ، أى أن انفصال الوعى هو الذى يتيح معرفة العالم .

ولا مركبة فيه ، وإنما هو معطى بجميع صفاته ، حاضر أمامى دون مسافة وفي واقعيته التامة . وهو بالاطلاق ما يبدو للوعى ما دام الوعى في ذاته ليس شيئا ولا يستطيع أن يؤثر على الأشياء ، إذ لا شيء يأتي من الوعى ، وليس ثمة غير ما يدرك الوعى وما يمكنه أن يدرك .

إن الوعى يذهب إلى الأشياء ذاتها ليعرفها في ماهياتها - ولكن ماهية الشيء لا تتقرر إلا بمقتضى انفصال الوعى عنه . وبما أن الوعى لا ينفصل عن العالم وعن كل ما في العالم دفعة واحدة ولكنه ينفصل عما يمثل أمامه على نحو زمني متجدد ، فمن المستحيل إذا أن يدرك الوعى الأشياء وقد اكتملت ماهياتها أو تحققت فيها حالاتها الماضية والحاضرة والمستقبلية ، كأن الزمان قد انتهى وكأننا بلغنا نهاية المستقبل . إن مثل هذا الاتحاد بين الوعى والأشياء أو بين الوجود - لأجل - ذاته والوجود - في ذاته هو أمر ممتنع . فالوعى إذا يدرك الموضوعات من حيث هي ناقصة . إنه يدرك الهلال من حيث هو قمر غير مكتمل ، ويدرك البرعم من حيث هو زهرة ناقصة النمو^(٢٠) . وهكذا بالنسبة لجميع موضوعات العالم ، فإن الوعى يدركها من حيث إنها ناقصة . وهذا النقص - أى إحالة الشيء لما وراءه - يبدو إزاء الوعى في صيغة نداء للعمل ، إذ أن العالم هو عالم عمل وإنجاز .^(٢١) والأشياء التي في العالم ترتبط مع نفسها - بمقتضى طبيعتها ومقتضى مشروعات الوعى وإمكانياته - كوسائل وغايات . فالأشياء هي أشياء وفي نفس الوقت أدوات . إنها لا تكون أولا الواحدة لتصبح بعد ذلك الأخرى ، وإنما هي دائما أشياء وأدوات معا . فوجود الوعى في العالم لا يعني فراره من العالم نحو ذاته ، وإنما فراره من العالم نحو ما وراء الحاضر من مستقبل . ولا يرجع مركب الأشياء - الأدوات إلى الوجود - لأجل - ذاته كما اعتقد هيدجر ، وإنما يرى سارتر أن هذا المركب في مجموعه يقابل بالضبط إمكانيات الوعى ، وترتيب هذا المركب أى نظامه ليس في ذاته ولكنه يرجع إلى ما يضيفه الوعى على أشياء بحسب إمكانياته .^(٢٢) فهذا الترتيب هو إذا صورة لامكانيات الوعى ، ولكنها صورة لا يستطيع الوعى أن يوضحها وإنما يلانم بين نفسه وبينها في العمل وبواسطة العمل .



عرفنا أن الوعى يأتي إلى الوجود بعملية انفصال . وانفصال الوعى عن العالم مشروط بانفصاله عن ذاته . فالتجاوز يعني أن ينفصل الوعى عن ذاته وعن الأشياء . والواقع أن هذا الانفصال أو الفرار من الذات - كما لاحظ سارتر بحق - هو من مميزات الفلسفة الحديثة . فنجد في الشك كما وصفه ديكارت ، وفي الروح المطلق

L'Etre et le Neant, P. 245. (٢٠)

Ibid., P. 250 (٢١)

Ibid., P. 251 (٢٢)

الذى تكلم عنه هيجل ، وفي معاني التجاوز عند هيدجر والقصد عند برنتانو وهوسرل . فجميع هذه الفلسفات ترى في الوعي الانساني نوعا من الفرار من الذات ، ولكنها لا تنظر إلى الحرية باعتبارها تركيبا أصيلا في صميم الوعي . (٢٣)

أما سارتر فيرى أن « الحرية هي الكائن البشرى الذى يفرز عدمه الخاص فيستبعد ماضيه (وكذلك مستقبله) » (٢٤) . ومعنى ذلك أن الوعي حاصل على قدرة الانفصال عن ذاته أو حاصل على قدرة الفرار من ذاته . وانفصال الوعي عن ذاته يعني أن يقوم الانفصال بين الحاضر النفسي المباشر من جهة وبين الماضي أو المستقبل من جهة أخرى . وهذا الانفصال نفسه هو العدم إذ أن ما يفصل السابق عن اللاحق إنما هو لاشيء ، وهذا اللاشيء لا يمكن عبوره إطلاقا لمجرد أنه لاشيء (٢٥) . وهذا لا ينفي تعلق الوعي الحاضر بالوعي السابق من حيث إن الثاني يفسر الأول أو يغيره ، مع بقاء الوعي السابق على أساس هذه العلاقة الوجودية مستبعدا أو موضوعا بين قوسين ، كما يوضع العالم في ذاته وخارج ذاته بين قوسين عندما يمارس الوعي التعليق الفينومولوجي . وإذا فليس ثمة حاضر للوعي إلا من حيث إن الوعي يملك القدرة على الملائمة . وهذه القدرة هي ما يتيح للوعي الافلات من العلية لأن العلية تلزم التالى بما يكون عليه السابق ، بينما التالى هنا أى الحاضر منفصل عن السابق حر إزاء الماضي . وهذا هو معنى أن يكون الوعي قادرا على أن يدخل بين الحالة الواقعة والحالة السابقة هذا « اللاشيء » . وعلى نفس النحو السابق - وكما رأينا في العلاقة بين الوعي وموضوعه . - ليس ثمة وعى إلا من حيث هو حاضر إزاء موضوع ليس إياه ، أى من حيث هو انفصال عن الموضوع وارتداد مستمر إزاء الموجودات .

هذا الارتداد أى الانفصال والملائمة هو ما يتيح الحرية الانسانية . لذلك يتحدد الوعي باستمرار بسبب الملائمة بأنه انطلاق مما كانه في الماضي وحتى اللحظة الحاضرة تجاه المستقبل ، لأنه قد كان الماضي الذى تعده وسيصبح المستقبل الذى لم يكن بعد . - وهذا هو معنى عبارة سارتر « ان الوعي هو ما هو ، وهو ما ليس هو » . فالوعي هو ماضية وكذلك مستقبلة ، وهو في نفس الوقت ليس هذا الماضي أو هذا المستقبل . وهذا يعني أن الكائن الواعى حر ، لأن رفض الماضي وتعيده وكون الانسان متجاوزا لذاته متجها نحو امكانيات السلوك المستقبل ونحو ما يرسمه لنفسه إنما يعني أن الانسان حر أو بالأحرى الانسان هو الحرية .

الحقيقة الانسانية إذا هي الحرية الانسانية - هي هذا الرفض المستمر وهذا التجدد المستمر ، بحيث لا يستطيع الانسان أن يقرر ما هو كائن ، لأنه بينما يحاول أن يتكلم فإن ما يتكلم عنه ينزلق إلى الماضي ويصبح ما

L'Etre et le Neant , P. 62 (٢٣)

(٢٤) الوجود والعدم ص ٦٥ - إن الوعي يستبعد ماضيه حين يقول : « أنا لست هذا الماضي » ويستبعد مستقبله حين يقول : « أنا لست هذا المستقبل » .

ونحن نقتصر هنا على تناول انفصال الوعي عن الماضي لأنه إذا تأكدت حرية الوعي إزاء الماضي فهي تتأكد بالأولى إزاء المستقبل .

L'Etre et le Neant , P. 64 (٢٥)

كان وليس ما هو كائنه . ذلك إذا هو شأن الوعي عندما ينعكس على ذاته ، فإن النفس المنعكسة ليست هي النفس العاكسة . فالوعي ليس ما هو كائن بل ما هو لا يكون وما هو سيكون : إنه ليس ما هو كائن بمعنى أنه ليس حاضره ، لأنه دائما يتجاوز هذا الحاضر وينفصل عنه ، كما يفعل مثلا الطالب الراسب حين يقرر الخروج عن كسله مؤكدا حريته وتجدد خلقه بصفة دائمة ، وكما كان يفعل الرجل الفرنسي إبان الاحتلال الألماني حين يرفض هذا الاحتلال ويعمل على التخلص منه . والوعي هو ما - لا - يكون الآن ، أى هو الذى كان بمعنى ماضيه الذى تعداه ، كما يفعل الرجل الذى يتوقف بارادته عند فترة من حياته ويرفض اعتبار التغيرات اللاحقة « (٢٦) » وكما هو الحال لدى المصابين بأمراض نفسية والذى يرى التحليل النفسي أن حياتهم الوجدانية تقف بهم عند إحدى مراحل النمو الطفلية . والوعي هو ما سيكون بمعنى مستقبله الذى يتجه إليه ويتدفق نحوه في انفصاله عن الماضي ، كما يفعل في معظم الأحيان الرجل المتحرر الذى يؤمن بالمستقبل ويعمل على تحقيقه والتخلص من حاضره وماضيه ، أو كما يفعل كذلك الرجل الحالم الذى يأمل دائما في مستقبل وغد يحقق له أحلام يقظته . ومعنى ذلك أن سارتر ينظر إلى الوعي من وجهات متعددة ويطلق عليه ما يجتمع من هذه الوجهات من محمولات : فالوعي « هو الماضي » منظورا إليه كشيء محقق أى من حيث هو جمود ، والوعي هو « المستقبل » منظورا إليه في تدفقه أى من حيث هو حياة وتدفق ، والوعي ليس « شيئا » منظورا إليه في حاضرة . وهذه الاعتبارات هي التي يستخدمها سارتر في تعريف الوعي تعريفات مختلفة قد تبدو معقدة لأول وهلة إلا أنها تنحل إلى قضايا بسيطة إذا راعينا في النظر إليها هذه الوجهات المختلفة . وجميع هذه الوجهات تجعل من الوعي كما يقول سارتر « الموجود الذى يكون مالا يكونه والذى لا يكون ما يكونه » . (٢٧) ، وتعنى أن الوعي من حيث هو وعى ليس إلا القدرة على الملاشاة أو الانفصال أو كما يقول سارتر القدرة على إفراز العدم . بهذه القدرة يتحدد الوعي بأنه حرية - فالحرية هي قدرة الوعي على أن يفرز عدمه الخاص .

ولكن الحرية من جهة أخرى وفي نفس الوقت هي قدرة الوعي على أن يقرر ذاته . ويتضح ذلك من النظر في الوعي الانساني من حيث هو يفكر في ذاته وفي عداه من الأشياء ، فإن الوعي الانساني يضع بذلك خارجه كل ما هو ليس إياه . وإذا فتحة أنا وثمة عالم أضعه فيحيطني ويشملني ضمن نطاقه . والكائن الواعي يتجاوز العالم أى الوجود الخافى الذى يتحول بمجرد تجاوزه إلى وجود معقول ، فالتجاوز هو ما يمنح صفة الوجود للموجود بمعنى أن يصبح معقولا فيكتسب طابعا معينا ومعنى خاصا ، كأن يصبح مرغوبا فيه أو مرغوبا عنه ، وكأن يصبح عائقا أو

L'Être et le Néant, P. 97 (٢٦)

(٢٧) هذا النص الذى يعبر عن التركيب الانطولوجي للوعي من حيث هو انفصال وملاشاة مستمرة واتجاه وشروع دائم يرد في « الوجود والعدم » مرارا ويكاد يتكرر في معظم فصوله . ونحن نشير إليه هنا كما جاء في ص ٩٧ و ص ١٨٣ من « الوجود والعدم » .

أداة . فالعالم يتحول عن طريق التجاوز من كابوس مبهم إلى أشياء ذات دلالات محددة . وبسبب هذا التجاوز يتصف الوعي بأنه حر . فالحرية هي قدرة الوعي على التجاوز بحيث يضع ذاته ويضع العالم والفعلين متلازمين .

وهنا ربما كانت المقارنة هنا بين معنى التجاوز عند سارتر ومعنى التجاوز عند هيدجر تتيح لنا أن نتبين ارتباط فكرة التجاوز عند كليهما بتقرير الحرية الإنسانية : ففي فلسفة هيدجر ليس الإنسان ذاتا مغلقة على نفسها ، وإنما هو وجود أو وعى متجه ضرورة - وبحسب خاصية القصد التي قررها هوسرل - نحو موضوع ما . . واتجاه الوعي نحو الموضوع يعني أنه ليس وعيا فحسب ، أعنى وعيا بغير موضوع ، وإلا لم يكن وعيا ، وإنما هو وجود في حركة دائبة يترتب عليها مباشرة أن يتجاوز الإنسان ذاته ليتجه نحو شيء ما . ولكن هذا التجاوز لا ينتهي بالإنسان إلى شيء أعلى منه كما في فلسفة كيركجارد مثلا أو جبريل مارسيل وإنما هو تجاوز نحو العالم . فالتجاوز إذا يعني عند هيدجر أن الموجود البشري يفارق ذاته ليتجه نحو العالم حوله ، وبمقتضى هذا الاتجاه يتقرر وجود العالم ويدركه الوعي ويستحوذ عليه . ومن هنا كانت الصفة الأصلية للوعي والميزة له أنه وجود - في العالم ، ومن هنا أيضا كان العالم - من الناحية الأنطولوجية - يخص الموجود البشري ويدخل ضمن تركيبه ومقوماته . وهذا يعني أن الإنسان في فلسفة هيدجر ليس منفصلا عن العالم وإنما هو بالعكس وجود - في - العالم . والوجود - في - العالم ليس بالتالي صفة تنضاف إلى الوعي وإنما هي ضمن تركيب الوعي . أعنى أنه يدخل في تركيب الوعي أن يكون موجودا - في - العالم وإلا لم يكن وعيا .

وهنا نرى الفارق بين فلسفة هيدجر وفلسفة سارتر : فالوعي عند سارتر هو وعي شيء ما ، لامن حيث هو وعى متصل بهذا الشيء ، بل بالعكس من حيث هو وعى منفصل عنه ، بينما الوعي في فلسفة هيدجر وعى متصل بشيء ما وبموضوع ما . وبناء على ذلك فالتجاوز عند هيدجر هو تجاوز الذات لنفسها وفي اتجاهها نحو العالم ، بينما التجاوز عند سارتر هو تجاوز الذات لنفسها وللعالم في اتجاهها نحو المستقبل . والتجاوز في الفلسفتين هو الذى يتيح للوعي أن يضع ذاته وأن يضع العالم : إنه يضع ذاته ويضع العالم في فلسفة سارتر من حيث هو متميز عن العالم ومنفصل عنه ، وهو يضع ذاته ويضع العالم في فلسفة هيدجر من حيث هو وعى متجه نحو العالم ومرتبطة به - وهو في الحالتين يقضي بضرورة الحرية الإنسانية من حيث هي خاصية جوهرية للذات .

إلا أن ثمة فارقا جوهريا نستطيع أن نلمحه بين معنى الحرية عند سارتر ومعنى الحرية عند هيدجر بالنظر إلى معنى التجاوز عند كل منهما : فالذات - في فلسفة سارتر - هي في مفارقة دائمة لنفسها وفي تجاوز مستمر لذاتها . وانفصال الذات عن نفسها يعني عدم خضوعها لما هي تفترق عنه وما تتجاوزه ، فهي ليست إلا تجاوزا مستمرا لذاتها . وهذا التجاوز هو الذى يتيح للإنسان أن يكون هو نفسه أساسا خالصا لذاته ، أعنى أن يكون هو نفسه الذى يصنع ذاته - وهذا هو معنى الحرية في فلسفة سارتر بصفة خاصة . أما في فلسفة هيدجر فبالرغم من أن

التجاوز هو الذى يتيح الحرية الانسانية إلا أن الانسان في تجاوزه وشروعه نحو المستقبل مرتبط بتحديدات معينة : فهو مرتبط أولاً بماضيه الذى لا بد له من أن يتقبله على نحو ما ، وهو مرتبط ثانياً بالعالم من حيث إن الوجود في فلسفة هيدجر هو وجود - في العالم ، وهو مرتبط ثالثاً بغاية قصوى يشرع نحوها وهى الموت من حيث إن الوجود في فلسفة هيدجر هو وجود - - من أجل - الموت أو وجود لفناء Sein Zum Ende . وفي هذه الارتباطات جميعاً نشعر بما يمسك بالحرية في فلسفة هيدجر من قيود وما يطغى عليها من عناصر الضرورة ، بحيث تبدو لنا على أنها ليست فلسفة حرية كما هو الأمر في فلسفة سارتر .

والواقع أن ما نجده من فوارق بين فلسفة سارتر وفلسفة هيدجر يرجع في مجلته إلى اختلاف المقولة الرئيسية التى يتخذها كل منهما أساساً لفلسفته ويجعل منها أول وأهم مقومات الوجود الانساني . ففي فلسفة هيدجر لا يمكن أن يكون هناك وجود بشرى مالم يكن مرتبطاً ارتباطاً أولياً بالعالم ، فالوجود - في العالم - هو أول وأهم مقومات الوجود الانساني . أما فلسفة سارتر فتقوم أساساً على اعتبار أن الوجود الانساني هو في جوهره انفصال وملاشاة . فالانفصال والملاشاة هما التركيب الانطولوجي للوعى .

فاذا نظرنا - في فلسفة سارتر - إلى هذا التركيب الانطولوجي للوعى بدا لنا الوجود الانساني في صورة حركة دائبة قوامها الانفصال من الماضي والاتجاه نحو المستقبل . وهذه الحركة عينها تعنى أن الوجود الانساني ليس وجوداً موضوعياً متطابقاً مع ذاته وليس في وسعنا بالتالي أن نحدد ماهيته . إن الانسان في فلسفة سارتر ليس حاصلًا على أى ماهية ثابتة وإنما تتوقف ماهيته على سلسلة أفعاله واختياراته . ولكى يختار الانسان لا بد له أولاً من أن يكون موجوداً . ومن هنا كانت القضية الرئيسية التى تقرر في فلسفة سارتر أن « الانسان كائن أولاً ثم يصير بعد ذلك هذا أو ذاك » (٢٨)

ليس الانسان إذاً حاصلًا من الأصل على ماهية ثابتة . إن الماهية الانسانية كما يقول سارتر لاحقة للوجود . وقولنا بأن الانسان يتجاوز ذاته يعنى أن الوعى ليس موجوداً متحجراً ثابتاً أو موجوداً خاضعاً لأية ماهية سابقة عليه ولكنه موجود قادر على الانفصال عن حالته الراهنة ليقرر لها معناها الذى يختاره بمحض حريته . وإذا « فما هية الكائن البشرى معلقة بخريته » ، وإنكار هذه الماهية ، أعنى إنكار أن تكون سابقة على الوجود الانساني ، هو ما يتيح للانسان مجال الحرية - وهذا هو امتياز سارتر على الفلسفات التى تقول بالماهية فتقع في الجبرية ، وعبتاً تحاول الخروج منها ، فان الخروج إلى الحرية يقضى بالضرورة أن ننحى الماهية السابقة بحيث يصبح الوجود الانساني فعلاً انسانياً هو فعل الانتقال أى الصيرورة من حال الى حال ، وبحيث تكون هذه

الصيرورة مختلفة عن التغيرات المادية التي تكمن في علل سابقة تتيح مجال التنبؤ وتقضى بالآلية . أما الصيرورة لدى الانسان فتؤدي إلى جديد وتفترض ضرورة الحرية ، ومن ثم يكون الوجود انتقالا مما كان الى ما لم يكن بعد . والوجود بهذا المعنى يصبح ميزة خاصة بالانسان - وحده ، بل ميزة مقصور عليها الانسان ، لان الانسان لا يأتي الى الوجود كموضوع في مكان وزمان بل كنشاط مستمر للحرية . فليس هناك معنى لأن نقول ينبغي على الانسان أن يكون حرا إذ لا يمكنه كذلك ^(٢٩) . الانسان اذا مقصور - من حيث هو نشاط حر - على أن يكون حرا بصفة دائمة . إنه يمارس حريته في كل فعل وفي كل سلوك . « إنني مدان بأن أكون حرا » ^(٣٠)

هنا يبرز السؤال الهام : وماذا يفعل الانسان بهذه الحرية ؟ الواقع ان الاجابة على هذا السؤال لا تحيىء في كتاب « الوجود والعدم » . ذلك أن سارتر قد وقف في هذا الكتاب عند اعتبار الانسان شروعا أى انفصالا مما هو كائن واتجاهها نحو مالم يكن بعد . بيد أن سارتر قد مضى في كتابه الأخير « نقد العقل الجدلي » إلى اعتبار الشروع فعلا تعود قيمته إلى ما يحدثه من تغيير . فسارتر إذا يتحول هنا عن معنى الفعل بالاطلاق Le faire إلى معنى العمل بالتحديد Lu praxis أعني العمل الانتاجي الذي يهدف إلى اشباع احتياجات الانسان . وبعبارة أخرى أنه يتحول عن الحرية العفوية المطلقة إلى حرية كائن اجتماعي تاريخي يحيط به وسط مادي ويعمل في هذا الوسط بالتغيير . ومعنى هذا أن سارتر يترك المنظور المثالي - منظور الحرية المطلقة - ليتحدث عن حرية « محددة بحرية » بحيث تكون في كل واحد « بترا مقبولا » . ويعترف سارتر بأن الوجودية إذ تقتصر على دراسة الوجود البشري في نطاق القطاع الانطولوجي فإن من المسلم به أنها تثير مسألة علاقاته الأساسية مع جملة الأنظمة الأخرى التي نجعلها تحت اسم الانثروبولوجيا ^(٣١) فلا بد إذا من استيعاب الظروف المادية والاقتصادية ومختلف العوامل التاريخية والاجتماعية والحضارية . فهذه كلها تشكل الوسط الذي يتأثر به الانسان ويعمل على تجاوزه . ومع استيعاب هذه الظروف والعوامل يعتقد سارتر أنه يذيب الوجودية بقطاعها الانطولوجي داخل الماركسية الأصلية : ماركسيه كارل ماركس . وإذا كنا نقول إن الماركسية الأصلية هي المادية التاريخية فذلك من حيث إن المادية التاريخية تعنى الفعل الانساني في علاقته مع العالم وعلاقته مع الآخرين .

وإعادة الانسان داخل الماركسية الأصلية يؤدي إلى وضع الأسس لأنثروبولوجيا حضارية حقيقية تبرر حضور الحرية بوصفها تجاوزا في قلب الاطار الزمني الشامل للتاريخ . إن سارتر يرى أن امتياز الانسان يكمن في المكانة التي يشغلها في هذا العالم ، وذلك لأنه الموجود الذي يمكنه أن يعيش تاريخيا ما ينتاب المجتمع من تقلبات ، أى أنه يتحدد دون انقطاع عن طريق عمله الخاص خلال ما يثار من تغيرات . وهذا التعريف للانسان

(٢٩) هذا هو مفهوم الحرية عند سارتر بالمعنى الميتافيزيقي . ولكن سارتر يجمع بصدد الحرية بين المظهرين : الميتافيزيقي والاخلاقي .

(٣٠) L., Ette et le Neant, P. 515

(٣١) Sartre, J.— P. : Critique de la Raison Dialectique (Gallmard , Paris 1960) P. 104

هو بالضرورة تعريف بعدى *a posteriori* بمعنى أنه يجيء بعد التجربة - تجربة أن يكون للمجتمع تاريخ - ثم يمكن بعد ذلك أن ينسحب على مجتمعات بلا تاريخ . (٢٢) ومعنى هذا أن المعرفة الانسانية تتحقق أول الأمر كمعرفة عملية ثم تكون بعد ذلك معرفة نظرية ، لكنها لا تقف عند هذه المرحلة وإلا بقيت تصورية فارغة . بل هى تعود إلى الواقع الفعلى .

ويرى سارتر أن في هذا الربط بين الواقع والتصور تلتقي الوجودية بالماركسية . فعندئذ تتخذ الفلسفة من الانسان ومن التحديدات المحسوسة لحياته الدعامة الحقة والموضوع الأساسي للدراسة . فتتجنب بذلك ما تفتقر إليه النظرية الماركسية من أساس أنطولوجي صميم ، هو الافتقار الذى يطلق عليه سارتر اسم « فقر دم شامل » (٢٣) وعندئذ أيضا لا تغفل الفلسفة البعد التاريخي الاجتماعي بكل ما ينطوى عليه من مواقف اقتصادية وصراع طبقي وعلاقات بشرية جدلية . فهذه كلها تدخل في إطار حضارى وتشكل عناصر جوهرية من عناصر موقف الانسان .

ومع التقاء الوجودية بالماركسية يعود الجدل جدلا انسانيا يصنعه الانسان إذ يصنع ذاته في حدود عالمه الاجتماعي وإذا كانت العلاقة بين الانسان والأشياء هى أول ما تكشف عنه التجربة الجدلية فإن هذه العلاقة تجيء في صورة عمل يقوم به الانسان من حيث هو كائن اجتماعي وتاريخي وينصب على تغيير الوسط المادى أى على الانتاج .

وكان يمكن أن تقوم العلاقات بين الانسان والانسان على التبادل لو كان الانتاج وأشكال المادة متوفرا وكافيا لأشباع متطلبات الانسان . لكن الندرة تمنع إمكان التبادل . ومع التقاء الحاجة والندرة ينشب الصراع ويتخذ كل صور العنف ، فتصبح العلاقة بين البشر علاقة تبادل مستلب يتهدد الانسان فيها غيره بالعداء والموت . وليس يشترط أن تكون الندرة دائما أمرا صريحا ، فإن إدراك الحاجة يتسلل إلى أعماق الوعي الانساني ، ويستقر فيه على مر العصور شعور بحايث بالندرة يسميه سارتر استبطان الندرة ..

ولكى يتاح للانسان أن يحدث ما يهدف إليه من تغيير في الوسط المادى لابد من التقاء الحريات الفردية على نحو أو آخر : قد تلتقي في تجمعات *collectifs* كتجمعات الناس على محطة أتوبيس بينهم علاقة عداء بالقوة بسبب ندرة الأماكن . وقد تلتقي في عمل مشترك يشكل جماعة *groupe* كالجماعة الثورية . بيد أن انشقاق الفرد عن الجماعة أمر محتمل لانه يحتفظ بحريته لاسيما وان براكسيا الجماعة ليست حاصل جمع براكسيا الافراد . فيلزم منع

الانشقاق عن طريق العنف . هكذا يصبح الرعب ملزماً بالاخاء وينعقد بين الأفراد قاسم مشترك هو قاسم الولاء (٣٤) ، يجيء صريحا أو ضمنيا ليضمن التقاءهم في براكسيا مشتركة .

يبقى لنا أن نتساءل عن تحول سارتر : تحوله عن الفعل الفردي إلى البراكسيا المشتركة . لقد اهتم سارتر في « الوجود والعدم » بالموقف الميتافيزيقي وبالذاتية الخاصة . ثم اتجه في « نقد العقل الجدلي » إلى الاهتمام بالواقع الاجتماعي والتاريخي . اتجه إلى موضوعية تجهد في الخروج من الذات لتلتحق بالآخرين وبالتاريخ . فهل معنى ذلك أن سارتر قد تحول عن موقفه الأساسي إلى موقف جديد معارض للموقف الأول ؟

هناك أن لاشك تغير واضح في الكتابين من حيث المنهج ومن حيث المصطلحات : أما المنهج فلم يعد كما كان في « الوجود والعدم » منهجا فينومولوجيا يقتصر على دراسة الوعي وعلى الموضوعات الماثلة له . ولكنه أصبح المنهج الصوري والجدلي الذي يهدف إلى دراسة المنطق الحي للفعل الانساني للكشف عن بناءاته الأولية . وليست الغاية من الكشف عن بناءات العمل الأولية الحصول على العناصر التي يمكن ابتداء منها أن نعيد تكوين التاريخ ككل تام ، فإن التاريخ ليس كلا ولكنه عملية تجميع مستمرة . ولكن الغاية هي ايضاح ما يجعل التاريخ معقولا ، لأن هذه البناءات المجردة الصورية التي نكتشفها هي ما يحتوى عليه التاريخ . وعلى هذا فالمنهج ارتدادى تقديمي : ارتدادى أو تحليلي يكشف عن بناءات العمل ، وبذلك يتيح التركيب التقديمي ويجعله ممكنا أو على الأقل صحيحا . فالجانب التقديمي التركيبي يجيء إذا لاحقا على الجانب التحليلي ولا يجوز من ثمة الاقتصار عليه كما تفعل الماركسية العامية .

وأداة هذا المنهج التراجعي التقديمي هي العقل الجدلي الذي هو عند سارتر نفس حركة التاريخ في سياق تكونها وفي وعيها لذاتها . فالعقل الجدلي هو إذا علاقة بين الوجود والمعرفة ، أي بين التجميع التاريخي والحقيقة المجمعة . وأيا ما كان من النقد الذي يمكن توجيهه إلى هذا المنهج الجدلي من حيث إنه يفض من قيمة المعرفة العلمية الخالصة التي هي نتاج للعقل التحليلي ، فما يهمنا هو أن سارتر يبقى بموجب العقل الجدلي في نطاق قضيته الرئيسية التي قررها في « الوجود والعدم » ، وهي قضية التمييز بين الانسان والعالم أو بين الوجود لأجل ذاته والوجود في ذاته . صحيح أنه يصبح في نقد « العقل الجدلي » أكثر اهتماما بالوجود في ذاته من حيث أبعاده الاجتماعية والتاريخية . لكننا نستطيع أن نقول إن سارتر لم يهجر الكوجيتو . وأية ذلك أن سارتر لا يكف عن أن يعيد إلى الانثروبولوجيا البعد الوجودي للمدارج التي يدرسها . إنه يعيد إدخال الباطنية في الجدل مما يعني انه يستعيد الانسان . فالجدل عند سارتر هو أولا وبالذات جدل انساني .

إذا فاختلاف المنهج لم يؤد إلى تنازل سارتر عن قضيته الرئيسية أو خروجه عنها ، وهى قضية العلاقة بين الانسان والعالم . إنه قد أتاح له فحسب أن يتخذ منظورا جديدا يتناول في ضوئه هذه العلاقة . وهذا المنظور الجديد الذى انصب على العالم الاجتماعي وألح على البناء الطبقي قد اقتضي من سارتر أن يستخدم مجموعة جديدة من المصطلحات .

نحن إذا نظرنا في هذه المصطلحات الجديدة وجدنا أنها جاءت عنده مساوية لمصطلحاته القديمة ومقابلة لها في الوقت ذاته . فهو يتحدث عن الانثروبولوجيا الفلسفية بدلا من الانطولوجيا الفينومولوجية وهو يستخدم في هذه الانثروبولوجيا ألفاظ « الانسان » و « العمل » و « المادة » في مقابل « الوجود لأجل ذاته » و « الوعي » و « الوجود في - ذاته » .

فاذا وقفنا عند هذه الألفاظ الثلاثة مع بدائلها تبينا أن القضية الرئيسية عند سارتر واحدة ، وهى قضية العلاقة بين الوجود لأجل ذاته من حيث هو وعي أو شعور وبين الوجود في ذاته . لكن هذه القضية تشير في مصطلحاتها الجديدة التي تحيي في « نقل العقل الجدلي » إلى اهتمام سارتر وإلحاحه في بيان أن هذه العلاقة لا تقف عند السلب والرفض كما كان الشأن في « الوجود والعدم » ، ولكنها علاقة عمل يقوم به الانسان ويرمي أساسا إلى التغيير : تغيير العالم المادى . إن مقولات سارتر واحدة وابتدأه من الكوجيتو وتحويله له بموجب القصصية إلى وجودية تنصب على الوجود العالمى قد بقي في « نقد العقل الجدلي » وإنما منظورا إليه من خلال ما يحدثه الانسان من تغيرات في العالم المادى بموجب نشاطه الانتاجي . هذا المنظور الجديد يبين في مفهوم الشعور أو الوعي عند سارتر . وإذا كنا قد رأينا أن الوعي عند سارتر يقوم من حيث هو متميز عن الموضوع فانا قد رأينا أيضا أن هذا التمايز هو أساس العمل وشرطه الوحيد . فالمنظور الجديد لدى سارتر هو إذا مجرد إلحاح أكثر على مفهوم العمل . وهو إلحاح يبقي على أرضية واحدة من فلسفة سارتر هى الكوجيتو من حيث هو وعي بشيء ما . لكن سارتر رغم بقاءه على هذه الأرضية ينطلق إلى تفصيل معنى العمل والنشاط الانتاجي إلى أن يبلغ بنا إلى قضية رئيسية جديدة هى قضية الندرة وما يرتبط بها من عنف .

أن مقولة العمل عند سارتر هى أولا ما يتيح الاتصال بين الأنا والآخر وعلى أساس من علاقات إنتاج محددة . (٢٥) ثم تأتي فكرة استحالة الاشباع بسبب الندرة مما يعني الصراع والعنف . ويرى سارتر أن استيطان الندرة وهى مجرد واقعة عارضة ، هو ما يفسر العنف الذى يتسم به التاريخ البشرى كله .

ومعنى ذلك أن كل ما يشرع نحوه الانسان يقوم في نهاية الأمر على واقعة عارضة هي الندرة ، بحيث إذا انتفت الندرة أمكن عندئذ أن نتصور مجتمعا خاليا من العنف تتحقق فيه الحرية بمعناها الحقيقي . فهل يمكن أن يتحقق مثل هذا المجتمع ؟ ليس هناك عند سارتر ما يمنع من أن تفضي عملية التجميع المستمرة في نهاية الأمر إلى وحدة التاريخ ووحدة البشرية . أما كيف يفضي التجمع إلى الوحدة فهذا ما يشكل صعوبة لا سبيل إلى اجتنابها في فلسفة سارتر . إن الفعل هو عمل فردى ، وكثرة الضواهر الفردية تبقى من حيث هي كذلك أمرا فرديا لا يتيح للتاريخ أن يضي في صورة حركة تجميع تبلغ غايتها . فالعالم إذا يبقى ذريا ما دمنا نلجأ إلى العمل الفردى نلتمس فيه تفسير العالم .

فإذا غضضنا النظر عن هذه الصعوبة وافترضنا أن جدل التجمع والجماعة كما عرضه سارتر يتيح إمكان الانتهاء إلى وحدة التاريخ بزغ لنا ما يردنا من « نقد العقل الجدلى » إلى « الوجود والعدم » مرة ثانية ، لأن السؤال سيكون عندئذ عن الانسان من حيث هو شروع : هل يعود إلى القلق الوجودى ؟ وهل يصبح الانسان انفصالا وملاشاة دائمة كما وصفته أنطولوجيا سارتر ؟

إن هذه النتيجة تعنى على الفور أن « الوجود والعدم » كان ينبغي أن يجيء لاحقا على « نقد العقل الجدلى » : لاحقا زمنيا لأنه يتناول الوعى أى الوجود لأجل ذاته في مجتمع انتهى إلى وحدة التاريخ البشرى فانتهى منه الاستلاب . ولكن لا ينبغي أن ننسى هنا أن فلسفة سارتر برمتها قد بدأت أصلا من حدس سارتر للوجود - في ذاته - ، وأن هذا الحدس قد كشفت عنه أول رواية ظهرت لسارتر وهي قصة « الغثيان » .

واضح ان ما عرضناه عن تحول سارتر لا ينطوى على أى تقص لقصايا « الوجود والعدم » ، ولكنه يتخذ منظورا جديدا يبرز على نحو أكثر تفصيلا موقف الانسان الاجتماعي والتاريخي . صحيح أنه لا يغفل العمل الفردى praxis ولا يغض من قيمته . ولكنه يرى أنه مشروط بنسق من العلاقات الاجتماعية ولا يتاح للانسان أن يتغير أو يتعدل إلا في نطاق هذا النسق . وإذا كان هذا المنظور الاجتماعي لاسيا في جانبه الاقتصادي هو الوحيد الذى اقتصرت عليه الماركسيه المعاصرة فيما يرى سارتر ، مما انطوى على اهمالها للموجود البشرى ، فان امتياز سارتر يكمن في التأكيد على اهتمامه أيضا بالبعد الانطولوجي داخل الاطار الاجتماعي . فهل أراد سارتر بذلك أن يعيد للماركسيه الحياة أم أن يفجرها من الداخل ؟



لقد صرح سارتر في أخريات حياته بأنه « كتب بالضبط عكس ما كان يريد أن يكتب » . وليس هذا التصريح سوى تعبير عن رفض سارتر للارتباط بأى من مواقفه السابقة ارتباطاً يحيل فلسفته إلى مذهب منغلَق ويسد عليه ينبوع التجدد والتحول . لكن هذا الينبوع كان مصيره حتماً أن يتوقف . ففي التاسعة من مساء الأربعاء ١٥ إبريل سنة ١٩٨٠ في مستشفى بروسية بباريس لفظ سارتر أنفاسه الأخيرة . وبموت سارتر انقطع « طريق الحرية » ، الطريق الذى ارتاده ابتداء من عام ١٩٤٣ حين ظهر كتابه « الوجود والعدم » ، وظل يتابع منعطفاته حتى نهاية العقد الثامن من هذا القرن ، « دون أن يمضي في أى منعطف إلى نهايته .

« استلهمت الفكرة من فرويد الذي وضع الداعي في مكان شائك ، ثم قيده برباط يصل ما بين « اهَذَا » و « الأنا العليا » فأصبح في وضع الرئيس الفرنسي شارل ديغول ازاء القوتين الأعظم : الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية . » (١)

جان بول سارتر

ان التحليل النفسي عند جان - بول سارتر يمكن أن يوضع في منطقة تتأرجح بين المد والجزر . فهو يشكل لدى هذا الفيلسوف المعاصر شعورا عميقا مغلفا بالحب والكراهية وبالأعجاب والمقت معا ، وهو ما يبدو جليا في مؤلفاته العديدة المختلفة .

والتحليل النفسي الذي يعتبره سجموند فرويد وسيلة علاجية ومرجعا ذهنيا قوي الفاعلية ، يراه سارتر مجرد شكل موضوعي بحث قابل للمناقشة مرفوضا تارة ومقبولا تارة أخرى ، داخل اطار يجر أنماطا حديثة في صور مختلفة ومتشعبة ، تتركز كلها لتسكون عدده أسس علم النفس الظاهري « الفينومينولوجي » (٢)

مفهوم التحليل النفسي عند جان بول سارتر

نفيسة عبد الفتاح شاش

(١) مجلة ل'Arc رقم ٣٠ لعام ١٩٦٦ ص ٦٧ .

(٢) Psychanalyse Phenomenologique الفينومينولوجيا أو علم الظاهريات يعني من ناحيته الاشتقاقية علم أو مذاهب الظواهر - وأول من استخدمه هو الفيلسوف الألماني لمبرت (١٧٢٨ - ١٨٢٧) . ثم استخدمه بعد ذلك هيجل للدلالة على المراحل التي يمر بها الإنسان ، ابتداء من المعرفة الحسية ، حتى يصل الى المعرفة المطلقة ، أي الشعور بالروح . أما سارتر فلم ينظر الى الفينومينولوجيا على أنها فلسفة بقدر ما هي منهج استعان به في اقامة ما أطلق عليه اسم « علم النفس الظاهري » . ويقصد سارتر بعلم النفس الظاهري : دراسة الظواهر النفسية أو وقائع الشعور دراسة وصفية مباشرة لا تعتمد على الافكار والنظريات السابقة .

والتحليل النفسي الذي يعتبر نوعاً من التفسير لما يجول في النفس البشرية ، كما جاء في قول فرويد ، يعتبر بالفعل من أدق السبل التي تسمح بالحصول على نتائج مجزية في مجالات الانعطاف المستعصية والعقد النفسية . فهو يصل الى أي فرع من الفروع الداخلية بالجسم ويستخدم كأداة اكتشاف تبحث عن الجذور الدفينة في اللاشعور ، ويتمكن من العثور عليها .

وإذا لاحظنا في بعض الأحيان أن سارتر اتخذ موقفاً معادياً تجاه هذه الأبحاث والدراسات إلا أننا ، إذا أمعنا في أدائه ، لوجدناه لا يرفضها رفضاً باتاً كما صرح في كتابه « تخطيط في نظرية الانفعالات »^(٣) ، خاصة عندما حصل على نتائج مرتبطة بالادراك : تلك الوحدة الخفية التي تسلطت على جان بول سارتر فحولت معظم أعماله الى نظريات فلسفية عميقة . واتنا لواجدون في نواحي عدة من كتاباته التفسيرات التحليلية التي قدمها لشخصياته الروائية . ويجدر بالذكر الإشارة الى اهتمامه الخاص بتوضيح استخدام التفهم لدى المحلل النفسي ، وذلك في مجالات تفسير الشعور . فقد بين بجلاء أن كل ما يثلج النفس من أحاسيس لا يمكن تفسيرها أو شرحها الا بواسطة الشعور نفسه . ويتوقف سارتر أحياناً عند هذا الحد مستنكراً كل قيم وتفهم خاص « بالنظرية المستترة للفاعلية النفسية » . ولما كان كاتبنا العبقرى قد قرأ مؤلفات « يونج » و « ادلر » و « فرويد » وغيرهم من فطاحل علماء التحليل النفسي الكلاسيكي ، فقد فكر كثيراً في قيمة وفاعلية ومدى هذا التحليل النفسي التقليدي ، فقد أبان بجلاء أنه ليس « صديقاً مزيفاً » للتحليل النفسي ، وانه لا يهدف للسخرية ، إنما هو « رفيق طريق في مجال النقد » . وبهذه الكلمات عبر سارتر عن آرائه ونواياه ، تجاه التحليل النفسي .

ففي عام ١٩٢٧ قام هذا الكاتب بمراجعة كتاب « بحث علم الامراض النفسية » لجاسبرس^(٤) ، وكان قد ترجم آنذاك . فراح يستسلف مبادئ « الادراك »^(٥) البسيط والمركب لدى افراد يتعرضون لتجارب علم النفس التحليلي . وكشفت الادبية الفرنسية سيمون دي بوفوار صديقة سارتر ورفيقة عمره عن كل ما كان يعتمل بداخله فكتبت تقول :

« كنا نلوم جميع المحللين النفسيين لأسلوبهم في تقسيم الانسان . وكان الاجدر بنا أن نحاول أن نفهم بأن تفهمهم منطبق على نظمهم ، ونستخدم مفاتيحهم للاستفادة من تجاربهم بطريقة منطقية وإن كانت في حقيقة الأمر طريقة مخادعة . ومع ذلك فما زالوا بكل أسف يملكون نفس السبل »^(٦)

(٣) Esquisse d'une theorie des Emotions او كما ترجمها البعض : « محاولة لنظرية في الانفعالات » .

(٤) Traite de Psychopathologie de Jaspers

(٥) La comprehension

(٦) سيمون دي بوفوار - « قوة العمر » - باريس - جالهار سنة ١٩٦٠ (٦٢٣) ص ١٣٣ .

Simone de Beauvoir — La Force de L'age — Paris —

Gallinard — 1960 623 Pages — P. 133.

وتسترسل هذه الكاتبة الوجودية في سرد آرائها ومفاهيمها هي رفيقها سارتر، في كتابها « قوة العمر » مؤكدة أن التحليل النفسي الذي شد أذهان العالم بأسره لم يكن ليجذبها بصورة جوهرية ، إذ كانا يتلقيان ما يدور حول الأمراض العقلية والتوترات العصبية من آراء ، ويستمعان بطريقة عفوية لما يقال عن أعراضها وما تحمله من معاني تعود الى أيام الطفولة . وكانا أيضا متفقين على أن التحليل النفسي لا يمكن استخدامه الا في الحالات المرضية فحسب ، اما بالنسبة للأشخاص الطبيعيين فلا يصح تطبيق هذه المناهج والنظريات عليهم لأنها لا تلائمهم قط ، ولذلك فهي يرفضانها رفضا باتا جازما .

وبدأ جون - بول سارتر يهتم بهذا المجال فأخذ يبحث عن منهج جديد للتحليل النفسي ، يستبعد فيه مبدأ اللاشعور طبقا لما أشارت اليه سيمون دي بوفوار في هذا الوقت . لم يكن سارتر قد قرأ لفرويد حتى عام ١٩٢٩ سوى كتابي « تفسير الاحلام » و « علم الامراض النفسية في الحياة اليومية » ^(٧) وحتى عام ١٩٣٢ ظل مذهبه مذبذبا ، مبها ، غير واضح المعالم ، وهنا كتبت زميلته تقول : ان جوهر تناقضاتها مع فرويد يكمن في انكارها للاشعور . ولقد أكد فرويد في تحليلاته النفسية نحن وجود ما أطلق عليه : « نواة الليل التي لا تكسر » ^(٨) وانها نواة صلبة تكمن في اعماق الانسان ولا يمكن اختراقها أو التغلغل في أعماقها ، كما لا يمكن تحطيمها ، وليس في قدرة المجتمع او اللغة اقتحام جدرانها المتينة . ويرى سارتر أن الحرية هي المخرج او البديل الوحيد لتفجير هذه النواة الصلدة لتبدو عندئذ الحقيقة واضحة جلية . ثم يستمر سارتر في بحثه وراء هذا المجهول الذي يمكن أن يحل محل اللاشعور . وبعد عدة سنوات يقع في يده كتاب ويلهلم ستيكل « المرأة القاسية » ^(٩) فيعجب ايماء اعجاب بما جاء فيه من لون جديد من التحليل النفسي يستبعد كلية فكرة اللاشعور .

ويركز سارتر اهتمامه كله بهذا المجال الجديد ويظل مشدودا اليه فيندفع في دراسته بحماس حتى عام ١٩٣٥ حين يقابل الطبيب النفسي « لاجاش » ويطلب أن يعاونه في هذا السبيل ويأخذ بنصائحه وارشاداته ثم يجري على نفسه تجربة ذاتية تحت اشراف « لاجاش » نفسه فتناول عقارا من المكيفات اسمه « المساكالين » ليقطم عالم اللاشعور الغامض هذا العالم الذي طالما استهواه ...

وعلى مدى ستة أشهر تقريبا ظل سارتر تحت تأثير هذا المخدر ، يعاني من أنواع « الهلوسة » مما سمح له اخيرا باختراق حجب ظلمات الامراض النفسية ، ويتلمس ما أضفاه عليه هذا العقار من تغييرات في الحواس : منها تخيله أحيانا أنه مطارد .

Sigmund FREUD — L'interprétation des rêves (٧)

— Psychopathologie de La vie quotidienne

„Infracassable noyou de nuit" (٨)

Wilhelm Stekel — La Femme rigide (٩)

أما التجربة الثانية التي اجتازها فكانت في عام ١٩٣٦ عندما زار إحدى المصحات النفسية بمدينة روان الفرنسية وقام بدراسة بعض الحالات المرضية . ومعلوم أن علم الامراض العقلية والتحليل النفسي صنوان لا ينفصلان عن بعضهما البعض ، بل من الممكن اعتبار كل منهما مكملًا للآخر من حيث الاهتمام بالعوامل الوراثية والنفسية بغية الوصول الى النتائج المجدية .

فالتحليل النفسي يتيح للباحث التعرف على الخلفيات الدقيقة عندما تنذبذب داخل العقل البشري .. وهو يرتبط بعلم الامراض العقلية الذي يركز على الامام الجيد بالدوافع العميقة الكامنة في اللاشعور . وهنا يدرك جان بول سارتر أن مجال التحليل النفسي حين يسلط عليه مثل هذا الضوء الباهر يعبر تمامًا عن الانارة والايضاح لما هو مسلط عليه ، وفي هذا يقول :

« انه ليس لغزا يعجز عن تفسيره ، فالتأمل الواعي والتفكير العميق قادران على ادراك الغرض المطلوب . (١٠) »

ويعود سارتر ليقول ان التأمل والتفكير قد يقدمان المادة الاولى الضرورية لاجراء التحليل النفسي ، الا أنها غير قادرين على القيام بدور أساسي في هذا المجال . وفي عام ١٩٤٠ تقريباً أخذ سارتر يشعر تجاه التحليل النفسي باستياء شديد ، بيد أنه لم يصرح بشعوره هذا الا في عام ١٩٧٠ عندما سجل في كتابه « مواقف » (الجزء التاسع) أنه عجز عن تفهم التحليل النفسي بسبب نشأته الفرنسية الخالصة وتشبعه بأراء ومعتقدات المفكر الفرنسي « ديكاوت » اذ أن اتجاهات هذا المفكر الفرنسي تميل كلها للواقعية ، وبالتالي لم تكن لتتفق مع فكرة اللاشعور . (١١)

عندئذ اتخذ جان بول سارتر تجاه التحليل النفسي موقفا ملؤه القلق والريبة والشك . واستطاع ان يتلمس أنواع القصص الروائية التي تأثرت بهذا اللون من الأدب التحليلي . وفي عام ١٩٧٠ راح يقول أن ظهور نزعة التحليل النفسي أبرزت نوعين من الروايات : « الاول منها هو النوع الساذج الذي يقوم على تسجيل الاساليب التحليلية ليضيف عليها ما يحاول اخفاء سذاجتها . أما النوع الثاني فيمكن أن يطلق عليه اسم : « الروايات الزائفة » (١٢) مثل روايات « جبروفيز » (وهي تختلف عما يمكن أن يسمى بـ « الروايات المضادة » (١٣) مثل

(١٠) جان بول سارتر - الوجود والعدم - ص ٦٥٨

(١١) جان بول سارتر - مواقف (الجزء التاسع) ص ١٠٤ - ص ١٠٥

(١٢) Les Faux — romans — (GONBROWIEZ)

(١٣) Les anti — romans — (Nathalie SARRAUTE)

تلك التي كتبها « ناتالي ساروت » (وهي نوع معين من الرواية له طابع خاص يهتم بالشكلين التحليلي والمادي معا)^(١٤) ويرجع الفضل كله الى التحليل النفسي لأنه نسق بين هذه الموضوعات ورتبها في اطار مركزي خاص .

واستطاع جان بول سارتر أن يضع أساسا تركيبيا وموضوعيا للرواية لتركز عليه بثبات ، كما اهتم باللغة وما تعكسه أساليبها ومضامينها . تلك الفكرة كانت موجودة من قبل ، نادى بها (لاكان)^(١٥) وغيره من المحللين النفسيين مؤكدين ان الانسان لا يفكر ولكنه يدع نفسه نهبا للتفكير ، وانه لا يتحدث ولكنه يترك النفس على سجيته عند الحديث . وسواء عليه أن ترك نفسه للتفكير (متأثرا بالمفكرين) او ترك نفسه للحديث (متأثرا باللغويين) فالعنصر الاساسي عندئذ هو المنهج التركيبي ، اذ أن المحلل النفسي لا يطلب من مريضه ان يتصرف بحرية مطلقة ، بل يدعه مسترسلا مع نفسه ليتصرف به هو عن طريق ما يوحيه اليه من كلمات تحدث لديه الانفعالات الناشئة . وفي هذا يقول « فرويد » ان هذا الاسلوب من التجليل يهيء للمرء أنجح وسيلة تنجم عنها التأثيرات المتبادلة بين المحلل النفسي والداعي^(١٦) . ويمكن جان بول سارتر أن يجمع العديد من الموضوعات حول مضمون اللغة . ووجد أنها تبدو كما لو كانت انعكاسا لرؤى تجول في أعماق الداعي . وكان فرويد قد اهتم بهذه القضية على الخصوص ويمكن من الوصول الى لبها والى جذورها المزدوجة التي امتدت ليس فقط الى الفرد في المجتمع ، بل والى البشرية جمعاء .^(١٧)

وواصل جان بول سارتر تجاربه خلال سلسلة من الابحاث المتتالية ، فرتب المعايير المختلفة لعالمنا المعاصر . واذا مؤلفاته تبدو وكأنها تصورات واقعية تبرز فيها الشخصيات الروائية أو المسرحية في صور متناسقة ومدرسة دراسة وافية وقادرة على خدمة نظرياته الفلسفية .

وبدا موقف جان بول سارتر واضحا تجاه آراء كبار الكتاب والمفكرين أمثال « فوكو »^(١٧) الذي اهتم بالعلوم الانسانية وأثارها ، وأرتوسير^(١٨) في مجال أصول السلالات البشرية ومميزاتها ، و« بارت »^(١٩) في المنهج التركيبي ومراجعة مفهومه التاريخي وتوارث الاشكال . و« ليفي استراوس »^(٢٠) و« لاكان »^(٢١) اللذين اهتمتا اهتماما خاصا بالمفهوم الحركي لكل هذه الموضوعات .

(١٤) جان - بول سارتر - مواقف (الجزء التاسع) ص ١٢٣ .

Lacan (١٥)
S. Freud — Internation à La Psychanalyse — P. 7. (١٦)
Pierre Vaerstraeten — Violence et ethique — P. 299. (١٧)
Michel Foucault. (١٨)
ARTHUSSE (١٩)
Levie — Strauss (٢٠)
Locan (٢١)

وظل هؤلاء جميعا يعملون في مجالات محددة تشعب جذورها وتمتد لتلتقي كلها عند هدف واحد هو : البحث عن جوهر « الانسان المركب » - وتدور الموضوعات كلها حول محور يهدف الى تدوين الفكر من خلال الرواية الحديثة ، مع العمل على ابراز العلوم الانسانية وعلى الاخص « الاثنولوجيا » وهو علم أصول السلالات البشرية ومميزاتها . ثم يعقب ذلك محاولة نشر الابحاث اللغوية والتحليلية المختلفة .

ويرفض جان بول سارتر ادعاءات العلوم الانسانية والعلماء واللغويين والمحللين النفسيين بسبب تحرهم من الموضوعات وتحرهم من الداعي - ورأى انه من الأفضل ان تنظم الآراء في اطار منهج تركيبى سليم يخضع لقوانين داخلية محكمة . ويعتبر هذا المنهج التركيبى أن الاشياء كلها تختلف عن بعضها البعض ، وأن هناك روابط تشد أزر العناصر المختلفة . ويتركز نشاط هذا المنهج التركيبى في الامكانيات المتاحة والموضحة لهذه الروابط ومدى علاقاتها بعضها ببعض حتى تتضح النماذج التي تحدد الاعمال .

ويقول « بارت » ان نشاط المنهج التركيبى يقتضى مراجعة نوعية لمبادئ القصة او التاريخ « حيث ان هذه القصة أو التاريخ يسردان في شكل سلسلة منسقة ومرتبة من الانماط - ويستخلص سارتر من هذه النظريات افكارا وآراء تتعلق بالمفهوم التحركى او الوظيفي ، ^(٢٢) يفتبرها فلسفة نظرية حديثة اكثر منها فلسفة وجودية . وفي ذلك يقول مشيرا الى الأبحاث التحليلية في كتابه : « الوجود والعدم » :

« ان الابحاث المتعلقة بالتحليل النفسى ، تشير الى اعادة بناء حياة الداعي منذ مولده وحتى اللحظة التي يباشر فيها علاجه . وتستخدم هذه الابحاث ما تيسر من مستندات موضوعية كالمخطابات والمذكرات الخاصة ومعطيات الحالة الاجتماعية في شتى صورها . » ^(٢٣) .

عندئذ نجد سارتر معتقاً لونا خاصاً من التحليل النفسى اطلق عليه اسم « التحليل النفسى الوجودي » . وهذا النوع من التحليل النفسى يركز على الفرض التالي : يعتبر الانسان وحدة متكاملة ومتجانسة لأنه ليس مجموعة او تشكيلة من المشاعر المتناثرة ، وعلى هذا الاحساس يعد المرء متكاملًا في تصرفاته كلها مهما كانت بسيطة او تافهة . وعليه ان يدون الى جانب هذه التصرفات ميوله وأهواءه في كشف واضح ثم يعد الى تفسير ذلك كله محاولاً استجوابها واستنباطها .

وبهذا النوع من التحليل النفسى نلاحظ أن جان - بول سارتر ينحى جانبا فكرة « اللاشعور » ويبحث وينقب عن « الحادث النفسى » الذي يعتبره نوعاً من التخطيط القابل للامتداد بالنسبة للشعور ، ويهدف هذا

Conception Fonctionnelle

(٢٢)

(٢٣) جان بول سارتر - الوجود والعدم - ص ٦٥٧

Prendre „Connaissance“ et non pas pendu „conscience“

(٢٤)

التحليل النفسي الى تفسير معظم التصرفات بجلاء ووضوح تامين . وذلك بالعمل على وضع الظواهر النابعة من كل منها وتحديد مفاهيمها بصفة خاصة - فانها تبدأ دائما بالتجربة المرتكزة على تفهم علم الكائنات ومدى حقيقتها عند الانسان . ففي التحليل النفسي الوجودي تتأثر الميول العميقة بظروف اوضاعها . ولما كانت واعية ومدركة فهي تساعد الداعي على معرفة اهدافه لا أن يلم بها ويدركها فحسب . عندئذ يصبح هدف المحلل النفسي التوصل الى « الوجود » ، الى معرفة وجود الانسان في مواجهة هذا الوجود » (٢٥)

وهذا التحليل الذي يتطلب قدرا من المرونة والشفافية قد يؤكد مدى تفهم الفردية (المستقلة والمؤقتة . وهو يفرض على كل داع اسلوبا خاصا يشكل ما سيكون عليه الداعي نفسه في الفترات اللاحقة - ويحدد سارتر كيف تتوطد الحقائق البشرية لدى الانسان اخذا بالطريقة « الانطولوجيا الظاهريانية » (٢٦) فتقوم ابحاثه على الرغبات التطبيقية الماثلة أمامه . فالقائمة التي ذكرناها والتي احتوت على الملاحظات والادلة والتجارب المختلفة لدى الداعي قد تسمح بتوضيح الاتصالات التي تربط بين الرغبات والتصرفات المختلفة . فالروابط الجامدة والكامنة في المواقف التطبيقية قد يمكن طرحها تحت الأضواء - وهذا النوع من التحليل النفسي - الوجودي - يسمى الى توطيد الرغبات الاساسية ، كما يعمل على ترتيبها ثم تفسيرها وتوضيحها .

وليس عسيرا أن نوضح بعض التناقضات بين التحليل النفسي الوجودي لسارتر والتحليل النفسي التجريبي - لفرويد ذلك ان التحليل النفسي الاخير غير قادر على أن يقدم نفسه بنفسه بشكل بديهي ومؤكد . اما التحليل النفسي الوجودي فهو إذ يرفض قاعدة اللاشعور ، انما يعتبر أن الحدث النفسي كامنا في الشعور . وعلى النقيض من ذلك تماما ، نرى ان التحليل النفسي الفرويدي يبدأ دائما من قاعدة تؤكد على وجود شعور مستتر وغير مدرك لما يجول بأعماق نفس الداعي .

ويشير جان - بول سارتر في كتابه مواقف (الجزء التاسع) الى أن فرويد قد استخدم لغة خاصة ذات أسلوب ومعاني أسطورية يتحدث بها عن اللاشعور ، ويعد هذا في الواقع أحد مهمات « خداع النفس » أو « ضعف الثقة بالنفس » (٢٧) ويعني سارتر بذلك « التدليس » أو « الكذب » على أنه يفرق بين الكذب الدارج المعروف وهو أن يكون المرء مدركا وواعيا هذا الصدق الذي يخفيه عن الناس ، وبين الكذب بمعنى « خداع النفس » ويكون الشخص قد غشها في حين انها واعية بهذا الكذب ، اي انه في حالة خداع النفس لا يخفي الصدق عن شخص آخر وانما يخفيه عن نفسه . ويقول سارتر ان خداع النفس هذا مثل ما أصاب « شارل

(٢٥) جان بول سارتر - الوجود والعدم - ص ٦٦٢

(٢٦) « الانطولوجيا الظاهريانية » يقصد بها سارتر « وصف ظاهرة الوجود كما تتجلى - اي دون وسيط » .

Mauvaise foi.

(٢٧)

بودلير» (٢٨) الشاعر الفرنسي الشهير حين اتخذ قراره الاول في مستهل حياته الأدبية ، ذلك القرار الذي حدد فيه بمحض نفسه هويته وشخصيته وماهيتها ووضعها جميعا ازاء العالم . وهكذا يمثل حالة بودلير استطاع سارتر ان يعرض فكرته الجديدة التي استعرض بها وضع هذا الشاعر ، وبذلك ادخل فكرة -خداع النفس على التحليل النفسي بدلا من فكرة اللاشعور . وبينما يبحث التحليل النفسي الوجودي عن تحديد « الاختيار الاولى » (٢٩) الذي يسبق المنطق ، فالتحليل النفسي الفرويدي يعمل على تحديد العقدة النفسية . وما يشير اليه كل المعاني المتعلقة بها . وهنا يقول جان - بول سارتر ان العقدة النفسية ليست الا « اختيارا نهائيا » (٣٠) ذلك لأنها اختيار للوجود الذي فرض نفسه عليها .

وبهذا يتضح ان التحليل النفسي الوجودي لا يبحث عن العقدة النفسية الاساسية (اي الاختيار النهائي للوجود) ولكنه يجري وراء المعنويات نفسها . وتعليل هذا أن قوة الشهوة « لبيدو » (٣١) ارادة طاغية . تشكل نوعا من الرواسب النفسية التي لا يمكن التغلب عليها - ويقول سارتر في ذلك :

« ان التجارب التي تقوم على أسس من العقد النفسية التي هي الارادة القوية الطاغية للشهوات أو « لبيدو » - لا تعطي الا نتائج طارئة فحسب ، لانها غير قادرة على الاقناع ، وما من شيء يحول بين الاخذ برأي الحقيقة الانسانية وبين تفسير تقدمه هذه الارادة الشهوانية القوية غير القادرة على أن تشكل للمرء مجالات اختياره الاصلي » . (٣٢)

ومن هنا يتضح ان العقد النفسية من الامور القوية القاهرة غير القابلة للهزيمة لانها تأخذ سمة الاختيار الأولى او الأصلية . ويستنتج سارتر من ذلك ان اللبيدو او ارادة الشهوة انما تدل في مجال التحليل النفسي الوجودي على الصفات العامة والمشاركة بين جميع الافراد ، وبالتالي فهي قوية طاغية لا تقهر وتركز مهمة التحليل النفسي الوجودي في البحث عن الاختيار الاولى للشخص ، وتحديد الخطوة الاولى التي رسمها لحياته بعد ذلك ، بمحض اختياره الحر .

وبهذا يكون البحث عن الاختيار الاول ليس بحثا عن عقدة خفية ، وهو ما يميز التحليل النفسي الوجودي عن التحليل النفسي الفرويدي .

على أننا نلاحظ في مواقف كثيرة من التحليل النفسي الوجودي مدى التشابه الكبير بينه وبين التحليل

Charles BAUDELAIRE

(٢٨)

Choix originel

(٢٩)

Choix ultime

(٣٠)

(٣١) Libido يعني سارتر بهذه الكلمة كل ما يمثل الامكانيات الملموسة لتثبيت اي شيء بأي طريقة كانت .

(٣٢) جان بول سارتر - الوجود والعدم - ص ٦٥٩

النفسي الفرويدي فكلاهما يبحثان عن الوضع الأساسي لأي من المواقف ، على أن يؤخذ في الاعتبار مكانة الانسان ازاء هذا العالم . وكلاهما يؤكد على أن هذا المخلوق ليس الا مجموعة من قصص مسترسلة ، كما انها يعملان على تتابع هذه القصص وتوجيهها وتبادلها بدلا من الجري وراء المعلومات الاحصائية المتعلقة بها . فاذا ما قارنا بين هذين النوعين من التحليل النفسي لوجدنا تشابها كبيرا بينهما ، ولمسنا ما أضفاه سارتر من اضافات طفيفة وتحريفات بسيطة لم تكن الا وسيلة تهدف من روائها الى الوصول الى غاية يخدم بها اغراضه الخاصة في مذهبه الوجودي . فجان بول سارتر ليس محلا نفسيا يمارس التحليل النفسي ولا هو بصاحب نظرية سيكولوجية متكاملة ، وانما هو فيلسوف يوجه اكبر جانب من فلسفته تجاه الانسان . وهو مفكر راح يحول بأفكاره في كل ما أنتجه من سبقوه من المفكرين ، وكان من المحتم عليه ان يلتقي المحلل النفسي الشهير ، دكتور سيجمون فرويد ، وأن يدلي برأيه فيه ويتخذ تجاه فكره موقفا خاصا ومميزا .

على أنه من الملاحظ أن سارتر وقف من فرويد موقف المؤاخذه تجاه بعض نظرياته ، وخاصة في المسألة الجنسية التي حظيت منه - كما هو معلوم - باهتمام مركز ، وفي ذلك تقول « سيمون دي بوفوار » :

« ان التحليل النفسي والمحللين النفسيين جعلونا نتملىء بالنفور من أساليبهم الرمزية واصطلاحاتهم الفكرية التي تتناول الجنس . فهذه ناحية تبناها فرويد ، وهي كفيلة ببث الضيق والسأم فينا لأنها تخدش حيائنا وتتناول من معنوياتنا » (٣٣)

لهذا رأينا سارتر يتجه صوب « ادلر » ذلك المحلل النفسي الذي ناصب فرويد العداء : وكان اهتمامه ينصب على الشعور فيركز عليه بدلا من التركيز على الجنس . وقد أرجع هذا العالم النفسي علة الامراض النفسية والعصبية الى عدة الشعور بالنقص ، وأوضح ذلك كله في كتابه المسمى « الطابع العصبي » (٣٤) . وقد نال هذا الكتاب اعجاب جان بول سارتر وسيمون دي بوفوار ، وظلا يفضله على كل ما كتبه فرويد في التحليل النفسي ، ذلك أن هذا الكتاب لم يجعل من الجنس محور كل شيء في التحليل النفسي . ورغم تأييد « سارتر » لافكار « الفرد ادلر » الا أنه لم يقتنع تماما بنظريته القائلة بعقدة الشعور بالنقص « كفكرة أساسية ومسيطرة في مجال التحليل النفسي . وذلك ما أعلنه سارتر بصراحة ورأى أن من العسير تطبيقها في جميع الاحالات . بعد ذلك أخذ سارتر يستعرض آراءه ونظرياته الخاصة في شتى مؤلفاته من قصص وروايات ومسرحيات ومقالات . ففي قصة طفولة رئيس يروي سارتر قصة شاب عاش متأثرا بذكرى مشوشة لمشهد قديم رآه في طفولته المبكرة : هو مشهد لقاء جنسي بين والديه . لقد ظلت صورة هذا المشهد محفورة في ذهنه تطارده ، وقدر أن ارتبطت بصورة أخرى اكثر

(٣٣) سيمون دي بوفوار - قوة العمر ص ٢٥

Simone de Beauvoir — La Force de L'aye — P. 25.

(٣٤) الفرد أدلر - الطابع العصبي - Alfred ADLER — Le temperament nerveux

منها قدما حدثت عند نشأته الاولى وهو ما يزال بعد جنينا في رحم أمه (٣٥) . فلما شب وغدا غلاما يافعا تجلت عنده العقدة التي كانت مستكنة في أعماقه . فجعلته يرفض الاعتراف بالتفرقة بين الجنسين . وكان يتخيل أمه أحيانا متنكرة على هيئة أنثى بينما هي في واقع الأمر رجل له شارب يحاول أن يخفيه . ونلاحظ أيضا أن الكاتب يجعل من « لوسيان » بطل هذه القصة انسانا قلقا في كثير من المواقف . فانه يبدو مترددا عند موضوع جنسه هو الآخر ففراه يتساءل مرارا : هل أنا ذكر؟ أم تراني أنثى؟ ، وبهذا التساؤل يشير جان بول سارتر الى قانون الامر الواقع ، والحقيقة الماثلة وهو ما يلاحق الاطفال في سن مبكرة ويتسلط على عقولهم ويهيمن على مداركهم في مطلع حياتهم ، بعد ذلك تتلاحق شتى الميول وتترى على وجدان « لوسيان » فهي تارة تنمو ناحية « السادية » اذ يحس بلذة بالغة قصوى حين يلحق الآلام والضرر بالآخرين ، وتارة تنمو ناحية المازوشية فيحس ببالح السرور والغبطة عندما يتلقى من الآخرين صنوفا من الاذلال والهوان على أي من الصور شاؤوا ، وأقعية كانت أم رمزية ! وهنا نلاحظ تشابها في الاعراض والتجارب التي تبدو على لوسيان بطل قصة « طفولة رئيس » والاعراض والتجارب التي عرضها فرويد في كتابه « خمس حالات في التحليل النفسي » الذي تحدث فيه عن « رجل الذئب » الذي كان يعاني من حالات المازوشية والسادية ... وهي نفس الاعراض التي أبرزها سارتر في شخصية لوسيان . بعد ذلك ، يتأدى سارتر في ابراز نفس المشاعر التي تحدث عنها فرويد في كتابه السالف الذكر ، فنلاحظ ان « لوسيان » تهتم حينما بالشذوذ الجنسي ومنطقة الشرج خاصة ، وهو يذكر مشهدا غريبا رآه في إحدى دورات للمياه التي دخلها في احد الفنادق . ويذكر ما كان ينبعث منها من « رائحة عبقة » لم تكن سوى رائحة الفضلات . ثم تشير ايضا الى صورة السحابة من الضباب التي صورها « سارتر » كغمامة قائمة اللون تغلف الكون من حول « لوسيان » - وهنا يبدو التشابه جليا وواضحا بين قصة « طفولة رئيس » ونظرياتها « رجل الذئب » لفرويد « وهنا أيضا نرى سارتر يعلق على هذه السحابة بقوله : أن الشعور بالعيش داخل سحب من الضباب انما هو رمز التجربة الوجودية وما يترتب عليها من معاني ، كما نلاحظ ان الكاتب يبدى اهتماما خاصا بابراز الشبه بين لوسيان وأبيه ، موضحا بذلك بلوغه مرحلة النضوج الفكري والنفسي يدفع به الى الهروب من هذا الوجد والسعي الى الدخول في « الموجود - في - ذاته » . أو « ماهية الذات » . (٣٦) .

ومن الممكن أن نفسر العناصر الاساسية في هذه القصة إما بطريقة التحليل النفسي وهي طريقة تحليلية ، وإما بالطريقة الوجودية البحتة ، وهذه الطريقة الاخيرة تقود الى تدمير الطريق الى كلية وفرض نفسها عليه فرضا ، وبعد ذلك « يبرز » سارتر في قصته موضوعا هاما هو :

(٣٥) جدير بالذكر ما ابرزه الكتاب الفرنسيون أمثال (بليزستندار) والمحللون النفسيون أمثال « أنا فرويد » الذين اشاروا الى حواس الطفل وهو في طور الجنيني وهو داخل الرحم ويهتم سارتر كذلك بابراز مثل هذه المعاني ويتحدث عنها باسهاب .
(٣٦) « L'en — Soi » يعني بهذا المصطلح العالم والمادة ويفسر سارتر هذا المفهوم بأنه الموجود في ذاته أي أنه لا يميل الى ذاته مثل الشعور بالذات فانه يجد أن هذه الذات موجودة ... والموجود معتم بالنسبة الى ذاته كنفس هذا السبب وذلك لانه محتلم بذاته .

براءة الاطفال - واذا كان سارتر قد رحب أحيانا بالتحليل النفسي الفرويدي فهذا الترحيب يقتصر فقط على الحالات المرضية - أما في الحالات الطبيعية فقد رفضها رفضا باتا . وذلك هو مضمون الفكرة كما اراد ان يجلوها بوضوح في قصته « طفولة رئيس » اذ عرض لنا شخصية انسان طبيعي تكيف مع المجتمع المحيط به . ولكنه سرعان ما يتجه صوب الفكرة القائلة بأنه ليس هناك طفل بريء براءة محضة ! وهنا يتفق سارتر وفرويد على أن الدراسات المختلفة المعنية بالاطفال ترتبط معظمها بالجنس برابطة قوية . فضلا عن أن فرويد يؤكد ان الاطفال ليسو أبرياء تماما ، فهو على يقين من أنهم منذ الشهور الاولى يشعرون بالامارة الجنسية وبالانفعالات المختلفة التي تنشط قبل سن البلوغ . ففي سن الثانية عشرة والثالثة عشرة قد يحس اليافع بأحاسيس أخرى جديدة تحتاج بنيتها الجسدية وطاقته الروحية . ولكنها ذات صلة بوظيفة التكاثر او القدرة على الانجاب ، انها الغريزة الجنسية التي تتطلب استخدام اجهزة جسمية ، نفسية وعقلية ملائمة لها . لذلك فلا يجوز الخلط بين موضوعي « الجنس والتكاثر (الانجاب) » لقد ركزت الابحاث التحليلية جهدا كبيرا في دراسة الحياة الجنسية عند الاطفال .

- فالملذكريات والآراء التي تظهر عند الدعاة اثناء تحليلهم ، كثيرا ما ترجع دوافعها ومحركاتها الى السنوات الأولى من العمر ، وإلى ما رآوه من صور ومناظر انطبعت وظلت محفورة في أذهانهم في هذه الفترة المبكرة من العمر - والحالة التي يعرضها لنا سارتر في قصته ، قد يحاول من خلالها استنكار واستبعاد معظم النظريات التي نادى بها فرويد - كما أنه يرفض كل آراء المؤلفين الآخرين الذين عنوا واهتموا بابرار النواحي النفسية عند الاطفال منذ القرن الثامن عشر وحتى اليوم . وهم الذين أشادوا بالاسطورة القائلة بأن كل الاطفال أبرياء - ونلاحظ ان سارتر يعتمد الى تدمير هذه النظرية . وهو في ذلك يقترب من رأي فرويد رغم اضافته لبعض التعديلات على آراء هذا العالم النفسي . ومن ثم فالتحليل النفسي السارترى ، جمع فيه سارتر عددا من الآراء والاساليب والنظريات الفرويدية ثم رتبها ليقدّمها من خلال قصة يمكن أن يطلق عليها « القصة التعليمية او القصة التدريبية » . وأراد بذلك ان يستغلها في توضيح فلسفته الوجودية .. وهو اذ يرجع بقصة « لوسيان » في اطار مخطط تحليلي عابر انما يعطي للنص طابعا خاصا يدور حول أحداث بسيطة وعادية . بيد أن نص القصة يعطي تفسيراً جديدا لكل حدث من أحداثها . ثم ان المؤلف يستعرض تحليلا نفسيا تقليديا وكأنه يلهو ويعمد للتسلية ، ذلك انه كثيرا ما يشير الى عقدة أوديب مستندا في ذلك الى نظريات فرويد ، فهو يجعل « برلياك » احد شخصيات القصة يتحدث بنوعية خاصة مع « لوسيان » عن امه فيقول : « انتي اشتهيت امي حتى سن الخامسة عشرة » وهنا يبدو الارتباك على وجه « لوسيان » عند سماع هذه الكلمات المخزية - فيحمر وجهه ولا يستطيع التلفظ بأي كلمة - ثم يتابع « برلياك » حديثه في ثبات وتأكيد فيقول

« وأنت أيضا » لابد وانك شعرت بمثل هذه الرغبة تجاه أمك ا « (٣٨) ويتردد « لوسيان » في الرد على « برلياك » ولكنه في النهاية يهزأكتافه في حركة لا مبالاة ويقول : « هذا شيء طبيعي !! » على أنه يتضح لنا بعد ذلك ان « لوسيان » لم يكن مقتنعا على الاطلاق بأي كلمة من أقوال « برلياك » وربما « برلياك » نفسه لم يكن هو الآخر يشعر بأي شيء مما يقول ، وانما هي فقط محاولة لتبرير موقفها كمرافقين لا يريدان سوى التقليد الأعمى لزملائهم ولما سمعوه منهم ولما قرأوه في كتب التحليل النفسي ، وبهذه الطريقة يحولها المؤلف الى اداتين تستخدمان الاصطلاحات الفرويدية بطريقة لا تخلو من التهكم والسخرية . ثم يسترسل جان بول سارتر بعد ذلك في عرض سلسلة من جلال تلك القصة فيجعل « لوسيان » ركيزة السلسلة من العقد النفسية تبدأ بعقدة أوديب ثم تتلوها عقدتا السادية والمازوشية ويختتمها بالعقدة الشرجية . وهي ممارسة اللواط على أننا اذا تدبرنا أمر لوسيان أمكننا توضيح كل المواقف والظروف التي مر بها . فكل تصرفاته لا تدل بأي حال من الاحوال على أعراض مرضية . فكل شيء يوضح انه كان يحيا حياة طبيعية ، فهو يعيش بين افراد أسرة مترابطة وهادئة تحت رعاية أب متزن ورزين يملك زمام الأمر في الأسرة ويدير امورها برشد ويمارس سلطاته بهدوء تام . وبعد وفاة هذا الوالد التي ذكرها الكاتب أكثر من مرة خلال القصة ، يحاول ابنه « لوسيان » ان « يحل محله وان يتصرف تصرفاته داخل المنزل . كل هذا يوضح موقف البطل وامكانياته القوية في التخلص من عقدة أوديب ، هذا اذا افترضنا جدلا وجودها - ولكنه حاول في بعض الأحيان الهروب من الوجود متشبها في ذلك بالصورة التي رسمها له الآخرون . وفي نفس الوقت فقد ظل فريسة للصورة الاولى التي انطبعت في ذهنه - تلك الصورة التي شاهدها في طفولته المبكرة بين أمه وأبيه وظلت بصماتها العميقة تهيم عليه ، باعثة فيه شتى الاضطرابات النفسية والجنسية العنيفة - فان جزءا كبيرا من ذكريات « لوسيان » ظلت غامضة غير واضحة المعالم ، وان كانت تمتد الى أعماق الوعي وإلى الشعور . وهي اذ تتصل بأعماق الوعي والشعور انما تستند على نظريتين منفصلتين نادى بهما العالم « برجسون » الذي قال :

« النظرية الاولى تمتد جذورها الى علم النفس وعلم الأحياء »

والثانية تتصل باليول العقلية والروحية « (٣٩)

وبهذه الكلمات يرفع « برجسون » الستار عن عالم يحيط بنا ، وهو عالم مركب من عدة صور تختلط فيها الالوان فتتقارب وتتناسب مع الشعور .

ان هذا العالم يربط ما بين « الصورة » والواقع وما يظهر بشكل واضح - ويناقضه في قوله هذا « هيوم » اذ يطلق كلمة الصورة على جميع ما يمكن ادراكه . فهو يهتم بصفة خاصة بما تتلقاه المشاعر من أحاسيس تتصل

Jean Paul Sartre — Le mur — L'enfance d'un chef- P. 186.

(٣٨)

Jean Paul Sartre — L'imagination — P. 419.

(٣٩)

بالتواحي النفسية والعقلية المتأثرة بنوع معين من المحتويات الحساسة - ولم يتوقف « هيوم » عند هذا القدر من وصف محتويات الصور ومدى تأثيرها بالمحسوسات والمدارك فحسب ، بل أخذ أيضا يحدد مدى فاعلية عالم الشعور بواسطة هذه المحتويات الحساسة نفسها ، واستطاع بذلك ان يظهر الصور في أشكال مكثفة ومهيأة دائما للاستقبال .

واذا ما تحدثنا عن وجهة نظر « ديكارت » في هذا المجال فسنجد ان هذا المفكر الفرنسي الكبير يرى أن الصورة ليست الا فكرة شكلتها النفس كما شكلها العقل بميوها وانعطافاتها الجسمانية . ويرجع ذلك بطبيعة الحال الى بعض المراكز النفسية والحسية ، طبقا لعوامل محركة داخلية وخارجية وهو يستخدم لفظ « صورة » للتعبير عن الحالة التي ترتبط بأول نوع من الاثارة ، ويطلق كلمة « حاسة » على النوع الثاني منها . وقد يحرص « ديكارت » على وصف ما يعتلج بداخل الجسد منذ اللحظة التي تدفع فيها النفس الى الرغبة في تغليف الروابط الجسدية القائمة بين كل الحقائق الجسمانية التي يسميها « صور » الى ان تصير تركيبات أخرى جديدة لها فاعليتها ومدى انتاجها . لذلك فان « ديكارت » لا يعمل على تشخيص الافكار بل على توضيح التركيبات التي تتعلق - على حد قوله - بعالم الاشياء المشتركة .

أما عن « سبينوزا »^(٤٠) فقد حاول أن يوضح مفهوم « الصورة » بطريقته الخاصة . فقد رأى أن مثل هذا الموضوع يتطلب أسلوبا معيناً يسيطر عليه « التفاهم » المطلق - بيد أن سارتر استخلص من هذه الفكرة أن « التخيل » او التعرف عن طريق الصورة قد يختلف تماما عن « التفاهم » . ذلك لأن « التخيل » قد استشكل أفكارا خاطئة وزائفة تظهر الحقيقة في أشكال مبتورة ومنقوصة وغير مكتملة . ويؤكد سارتر حينئذ ان الشعور او الوعي لا يحوي « صورا » - لأن الصورة نفسها تعتبر نوعا من الشعور ، كما انها أمر قائم بذاته ومن الممكن ان نطلق عليها فتوى . وبذلك تبدو الصورة وكأنها واعية بشيء ما^(٤١) - ويؤكد جان - بول سارتر ان الصورة لا تتلاءم مع ضروريات الاساليب المركبة حيث أنها في واقع الأمر مضمون نفسي ساكن لا يقتحم تيار الوعي او الشعور لانها هي نفسها أسلوب مركب وليس عنصرا بسيطا - وحيث ان « الصورة » تعتبر حقيقة نفسية مؤكدة من العسير عليها الرجوع الى المحتويات الحساسة ولا الى التشكيل الاساسي لنفس هذه المحتويات .

من خلال هذا كله تتضح حالة « لوسيان » بطل « قصة » طفولة رئيس « كما صورها الكاتب ساخرا وهارتا ، بالتحليل النفسي الفرويدي - وجدير بالذكر ان قصص « ايروسترات » و « الحجرة » وغيرها من القصص تمادى فيها الكاتب لاثبات نظرياته الخاصة مستبعدا بذلك آراء فرويد . ففي عدة قصص لم يشر جان

SPINOZA

(٤٠)

Jean Paul Sartre -- L'imagination P. 162.

(٤١)

بول بأي حال من الاحوال الى أسباب الامراض النفسية والعصبية التي عانت منها شخصياته. الروائية . فلم يشر بأي صورة من الصور الى طفولتهم .

فعمد بداية قصة ايروسترات نلاحظ أن البطل ، وهو رجل في مقتبل العمر ويدعى « بول هيلبير » يظهر أحوالا غير طبيعية ، وان شعورا خفيا يسيطر عليه فيجعله يمقت البشرية بأكملها . وأهم شيء يسعى اليه هو محاولة اهانة وإذلال انسان يقابله وخاصة لو كان هذا الانسان امرأة !! فعند مقابلته لاحدى النساء ، يركز كل اهدافه في الاساءة اليها ومعاملتها بطريقة حازمة ومهينة . وفي تلك اللحظة كان يشعر بسعادة بالغة وبلذة لا تعادلها لذة . ولتحقيق هذه النشوة كان يلجأ الى بنات الليل فيختار احدهن ويمارس معها هوايته المريضة الشاذة . فاذا ما خلا اليها طلب منها خلع كل ثيابها ثم يأمرها بأن تتمشى أمامه وهو جالس في هدوء بل وفي لا مبالاة تامة . ويتحدث مع نفسه فيقول :

« أكثر شيء يضايق المرأة هو ان تتمشى أمام شخص وهي عارية تماما ... وهذا الشعور الذي تتألم هي منه يشكل عندي المتعة ، بل أعلى درجات اللذة . » (٤٢)

وكان هذا الرجل يحاول أحيانا إثارة الشعور بالخنجل والحرج عند هؤلاء الفتيات والمبالغة فيه ، فكان ينفجر في الضحك اثناء هذا العرض الغريب وتقتلى ضحكاته وحركاته بالاستهزاء والسخرية فيزيد شعورهن بالمهانة والذل بينما يشبع رغبته الشاذة ... واذا بهذه الميول الغريبة الاطوار تقوده في نهاية الأمر الى ارتكاب الجريمة ، جريمة قتل النفس التي حرم الله سبحانه وتعالى قتلها . ويحدث نفسه قائلا :

« ليتني استطعت قتل كل نساء العالم ... لو كان في مقدوري . لصوبت مسدسي الى قلوبهن جميعا . بل الى أحشائهن بل والى سيقانهن ، فأشاهدهن يتأيلن كالراقصات ثم يسقطن جثثا هامدة . » (٤٣)

وبدأت هذه الصورة تهيمن على فكره وعقله الى أن قرر - الوصول الى هدفه : لا بد وان يقضي على أكبر عدد ممكن من البشرية رجالا كانوا أو نساء ا

ولكي يضع حلا لهذه الرغبة الجارفة بدأ في كتابة عدة رسائل صرح فيها بتنفيذ خطته وباطلاق الرصاص على أول ستة أشخاص يقابلهم بعد ارسال الخطابات الى مشاهير الكتاب في فرنسا .. وبدأ في تجهيز وتنظيم خطة ارتكابه الجريمة التي قرأن يختتمها بانتحاره . وتبدأ مرحلة التنفيذ التي وصفها الكاتب الفلسفي جان بول سارتر بمهارة فائقة . فقد عرض من خلالها كل الظروف النفسية والانفعالات المختلفة والاضطرابات والقلق والخوف التي

Jean Paul Sartre — Le mur „Erostrate“ P. 84.

(٤٢)

Ibid — P. 86 — 87

(٤٣)

انتابت بطل القصة : « بول هيلبير » . ولم يتمكن الا من تنفيذ الجزء الاول من الخطة فقتل الاشخاص الستة ، ثم خانتة اعصابه بعد ذلك وعجز عن تنفيذ الجزء الثاني من خطته ألا وهو الانتحار .

ونجد بطبيعة الحال أن المؤلف استبعد كل الاسباب التي توضح جذور مرضه هذا فلم يشر الى اساس هذه العقد النفسية الدفينة التي حولت هذا الانسان الى شخص شاذ وقادته الى ارتكاب أبشع الجرائم بقتل نفوس بريئة لا حول لهم ولا قوة ...

وإذا تتبعنا أحداث قصة أخرى من قصص جان بول سارتر: وعنوانها : « الحجرة » لوجدنا أن هذا الفيلسوف الوجودي قدم لنا حالة أخرى مرضية مشابهة للحالة السابقة دون الانصاح ايضاً عن أسبابها .

فبطل هذه القصة ويدعي : « بيير » يعيش في عالم خاص شبيه لنفسه عن طريق عقله المختل ، وعالمه هذا مملوء بالخيالات والاشباح والهلوسة ، ويتبع المؤلف نفس الاسلوب الذي اتبعه من قبل فتقتصر قصته على القاء الضوء على فترة محددة ومحددة من حياة هذا المريض : انها فترة زيارة والد زوجته له وما ترتب عليها من حديث بعد ذلك . فهذا الشخص المعتوه يعيش في منزل اغلقت كل نوافذه فأصبح مظلماً ، معتماً ... وزوجته الشابة « ايف » اصبح لا يناديها الا باسم جديد اطلقه عليها : « آجات » فربما فقد اسمها هي الأخرى وضمتها لمجموعة الاشباح التي يعيش بينها . ويصل والد « ايف » فيتأثر لهذه الاوضاع الشاذة ويطلب من ابنته الابتعاد عن هذا المريض ، تاركة للطب والعلاج النفسي المجال ليلعبا دورها ، ولكنها ترفض ، ترفض بشدة هذا العرض الذي يبدو لها قاسياً ، وتأبى أن تبعد عن زوجها الشاب . وإذا بالموضوع يتضح بصورة بينة فقد يشير الكاتب في هذه القصة الى الجنس ومدى قوته في التغلب على هذه الشابة . وهنا يلتقي جان بول سارتر : بأراء التحليل النفسي الفرويدي ويؤكد أن السبب الوحيد الذي جعل « ايف » ترتبط بهذا الرجل المختل ما هي الا العلاقة الجنسية : هذه الغريزة التي تفوق كل الغرائز . ويوضح المؤلف هذه المعاني من خلال الحديث الذي دار بين والدي « ايف » الزوجة الشابة حتى وصل بها التفكير الى أن يقول : « ليت ابنتنا تتخذ أي عشيق آخر فضلاً عن معاشرتها لهذا المجنون . فهو غير قادر على التعرف عليها واصبح يناديها باسم غير اسمها » . وإذا أكد فرويد أهمية الانفعالات التي تثيرها تلك الغريزة القوية الا وهي غريزة الجنس فهو يشير أيضاً الى أنه في أغلب الاحيان قد تتلقى هذه الانفعالات نوعاً من الارتقاء اذا تمكن أصحابها من ترويضها وابعادها عن أهدافها الجنسية ، وذلك عن طريق توجيهها نحو أهداف اجتماعية سامية تبعد تماماً عن الجنس . ولكنه يعترف في النهاية أن الغريزة الجنسية تعتبر من الغرائز التي يصعب ترويضها . لذلك فان معظم المفكرين الذين يشتركون في الاعمال الذهنية قد يتعرضون لمثل هذه المقاومة . ونلاحظ أن جان بول سارتر يقف موقفاً معادياً تجاه فرويد . ويصرح بالفعل في عام ١٩٢٩ أن معظم آراء فرويد عن الجنس تنفره ، وإذا به في عام ١٩٣٧ يتقدم الى احد مديري دار نشر بمؤلفاته وهو يقول :

« أرجو المَعذرة ، فروايتي وقصصي هذه قد تكون خارجة عن التقاليد وتمس الناحية الجنسية في بعض الاحيان ^(٤٤) وبالفعل امتد الجنس الى اجزاء كثيرة منها وأصبح يلعب ادوارا أساسية ورئيسية فيها - والغريب ان كثيرا من المواقف في هذه الكتابات قد تعبر عن الافكار الفرويدية ، فتارة تكون منقولة وواضحة ، وتارة أخرى تستتر وراء نظريات مختلفة « لسارتر » . فعقدة الخصى ^(٤٥) ورمزية الاحلام ^(٤٦) والتكافؤ الحسي ^(٤٧) ، كل هذه النقاط تشير الى العالم الفرويدي ومصطلحاته التحليلية المختلفة . واذا لاحظنا أن كثيرا من شخصيات سارتر قد ترفض الجنس فهذا يرجع الى تأثرهم بنوع معين من القلق الواعي أو من العقد النفسية غير الواعية والخاصة بعقدة الخصى الرمزية - وتعتبر حالة « لوسيان » التي ذكرناها من قبل من أهم الموضوعات التي تبدأ بالتعبير عن حالة الخصى الرمزي : فالجميع يعاملونه على انه فتاة وتكرر هذه المعاملة ويضاف اليها نوع جديد من الخصى الرمزي عندما يتعرف هذا الشاب « بيرلياك » المراهق المنحرف الذي يجرفه تيار الشذوذ الجنسي ، فيجعله يتخبط في مجال التكافؤ الحسي مواجهها للصراع الشديد الذي يدور بداخله ، كل هذا يعود أيضا الى الميول المضادة التي هيمنت عليه كلية ، وبالتالي نلاحظ أن كل هذه المفاهيم تشير الى نظريات فرويد وتلقي عليها الأضواء بطرق غير مباشرة . وعندما يحاول جان بول سارتر تحريف نظريات هذا العالم النفسي فانه يظهر المدرسة الفرويدية في اطار فسق وفجور . ولكن ألم يدخلها سارتر نفسه بحجة توبيخها وادانتها ؟ واذا تحدث في يوم ما عن بشاعة الفاظها ومفاهيمها الموضوعية والجنسية ، فلماذا انساق هو الآخر في نفس الاتجاه ، مغالبا ومكررا بل مجددا ومبتكرا لمحتوياتها ؟ واذا جان بول سارتر يردد آراء فرويد بالنسبة للحالات المرضية وما يترتب عليها من تشخيص موضوعي من حيث مداومة المريض على تكرار عقده النفسية . وبدا هذا الوضع واضحا في قصة « طفولة رئيس » التي تناولت كل هذه التفاصيل التي رمت الى هذا الغرض . ويقول الكاتب عن « لوسيان » :

« لقد خيلَ اليه أنه كان يعرف منذ أمد بعيد بعض المشاعر الماثلة وانه كان يشعر أيضا أنه يعيش تحت تأثير صورة مبهمه كانت تطارده دائما : فكان يرى صورته دوما وهو طفل صغير يرتدي ثوبا طويلا أبيضاً مثل ثياب الفتيات ، وله أجنحة جميلة مثل أجنحة الملائكة » . ^(٤٨)

وترديد وتكرار هذه المعاني يؤكد لنا أن المؤلف يستخدم حالة موضوعية في ضوء التحليل النفسي مؤكداً بذلك الاساليب السابقة المستعملة في المجال النفسي والجنسي التي ذكرها وفسرها وحللها « سجموند فرويد » . ويقول جان - بول سارتر مستندا على آراء فرويد :

Simone de Beauvoir -- La Force de L'age -- P. 306. (٤٤)

Complexe de castration (٤٥)

Symbolisme des rêves (٤٦)

Ambivalence affective (٤٧)

Jean -- Paul Sartre. Le Mur. „L'enfance d'un chef“ P. 200. (٤٨)

« كل المظاهر اللزجة والرخوة والبخارية الخ .. وكل حفر الرمال والطين وكذلك الكهوف والاضواء وظلام الليل الخ ... كل هذه النماذج تتصل بالمجاليين النفسي والجنسي في آن واحد » . (٤٩)

ويؤكد سارتر أن المحلل النفسي ملزم باختراع رموز جديدة بصفة مستمرة كي تتلائم مع الحالة الماثلة أمامه ، ذلك لأن الحياة النفسية تتصل دائما بروابط دقيقة تتطلب ما يمكن تسميته بـ « رمزية الرموز » . وتقوم كل هذه النوعيات على تركيبات أساسية وشاملة لتشكل الانسان البشري بطبيعة الحال (٥٠) . فان الارتباطات العنصرية الرمزية تبدو له في أغلب الاحيان وكأنها قادرة على ضم معنى ثابت لكل حالة . هذا معناه أنها تظل غير قابلة للتغيير اذا رغبتنا في الانتقال من مجموعة ذات معنى الى مجموعة أخرى (ومثال لذلك : يرمز الذهب الى الفضلات أو البراز - وترمز كرة الخيط الى ثدي المرأة الخ ..) ويلاحظ سارتر أن التحليل النفسي اهتم بصفة خاصة بالاختيار الحيوي الذي يسهل على الداعي الذي يجري عليه التحليل النفسي عملية التذكر .

وقد ظهرت لنا المفاتيح المختلفة للرموز المأخوذة عن فرويد في وضوح تام عند تطبيقها على نصوص سارتر . وقد أشار فرويد الى أساليب المحللين النفسيين في فصل « الرمزية » في الاحلام « والى مناهجهم المتعددة التي تمكنا من تطبيقها على كثير من مؤلفات جان - بول سارتر . وأهم هذه الرموز ، ما انتمت اليه الناحية الجنسية . فقد نلاحظ ان أشياء كثيرة ترمز الى الاعضاء التناسلية عند الذكور طبقا للمعاني الفرويدية : فالمسدس مثلا الذي استخدمه « بول هيلير » في قصة « ايروسترات » والذي ظهر مرة أخرى في قصة « طفولة رئيس » عندما اكتشفه « لوسيان » في وسط الملابس الداخلية الخاصة بوالدته ، هذه الاداة التي ظهرت ملقاة فوق « الحرير الوردي » لها معنى خاص ، وكذلك العصاة التي استخدمها لهذا الشاب في تدمير الحشائش ، وأيضا نبات « الهيلونة » (٥١) الذي كان مصدرا غريبا لحنجله على الدوام والذي تسلطت صورته عليه خلال كل تجاربه المتتالية ... كل هذه الصور أتاحت المجال للرمزية الفرويدية التي استخدمها سارتر في نصوصه . ونجد أيضا أن الكلمات والصور والمعاني التي ترمز الى الاعضاء التناسلية الاتنوية متوفرة هي الأخرى في معظم كتاباته . ففي قصة « ألفة » يتناول سارتر الفقرة التالية فيقول :

« وجذبت لولو ايهام قدمها من « الشق » الموجود في فراشها وحركت قدميها فيه قليلا فاذا بها تشعر بلذة مفاجئة ونشاط غريب رغم أنها كانت بجوار هذا الجسد الساكن » . (٥٢)

وتبدو صورة « الشق » الموجود بالفراش وكأنها جاءت خصيصا لتحمل تلك المعاني الرمزية - وفي نفس

Jean - Paul Sartre -- L'Être et Le néant P. 704.

(٤٩)

Ibid. P. 657

(٥٠)

(٥١) نوع من الخضروات الشائعة في فرنسا Asperge

Jean-Paul Sartre -- Le mur „Intimité“ --- P. 105.

(٥٢)

القصة - يستخدم الكاتب كلمات أخرى تشير الى بعض اجزاء الجسم مثل الأذن والابط الذين يظهرهما لدى شخصية « دبرت » : الفتاة المتحررة . ويعلق عليها قائلا انها ظهرا وكأنها « فم » مستعد أن يلتهم أي شيء . ونفس كلمة « فم » استخدمها الكاتب بطريقة متكررة في قصة « ايروسترات » عندما لاحت امام أعين « بول هيلبير » طية قفا « الرجل البدين . ومنظر « طية القفا » هذه بدت هي الأخرى وكأنها أيضا « فم » يرتسم أمامه بابتسامة عريضة وغريبة فهي ابتسامة مملوءة بالمرارة والألم - ويثير هذا المنظر « بول هيلبير » فاذا به يمتلىء بالرعب والخوف والهلع فيصوب مسدسه نحو هذا الفم ليسكت تلك الابتسامة ويحطمها فيضغط على الزناد محولا الرجل الى جثة هامدة . (٥٣)

كل هذه الاساليب الرمزية قد تبدو نمطية وتقليدية وغالبا ما يظهر الرمز عدة مرات ، تارة بمفرده وتارة أخرى مشتركا مع أدوات أخرى تساعده أو تنوب عنه . لذلك فان جان بول سارتر يعرض في وصفه نوعا معينا من التسلط الجنسي الذي يتعلق بطبيعة الحال بمجال التحليل النفسي . ولكنه مع كل هذه فالتحليل النفسي عند سارتر لا يظهر وكأنه جهاز متماسك أو مجموعة صريحة من البديهيات الجوهرية ، انما يبدو في شكل تفسيري وتحريفي أكثر منه جادي - وما يثير دهشتنا في طريقة عرض الحالات المرضية عند هذا الكاتب ، هو عدم الاهتمام بتوضيح المراحل الهامة التي تتكون فيها نواة هذه الامراض النفسية . اي فترة طفولة هؤلاء المرضى (هذا باستثناء قصة « طفولة رئيس ») . وهنا ، اذ يكون هدف سارتر واضحا تمام الوضوح ، فانه يعمل على استبعاد كل محاولة لتطبيق التحليل النفسي الفرويدي - ولكنه رغم هذا لم يتمكن من عدم استخدام أو ذكر بعض الاساليب والتعبيرات التي جاءت بين سطوره عفوا مثل ما سبق أن عرضناه - واننا اذ نجد كلمات كثيرة مثل كلمة « فم » أو « ثقب » أو « حفرة » تهدف كلها الى عدة تفسيرات ذات صدى عميق في مجال التحليل النفسي - ويهتم جان - بول سارتر بما ترمز به « الحفرة » أو « الثقب » بصفة خاصة مؤكدا أن هذه الكلمات تعتبر من أهم ، بل من أقوى المؤشرات التي تدل على الميول للواقع وللحقيقة الانسانية : انه الميل او الرغبة في ملء الحفر وسد الثقوب (٥٤) . ويؤكد هذه الفكرة بناء على تصرفات كل من الطفل والمراهق والبالغ الذين يقضون جزءا كبيرا من حياتهم في محاولة « سد الثقوب » وملء الفراغات محققين بذلك الرغبة في توفير « المملوء » . هذه الغريزة الطبيعية تولد عند الطفل منذ اللحظة التي يدرك فيها أنه هو نفسه « يحتوي على ثقب » . فعندما يضع هذا الكائن الصغير اصبعه في فمه محاولا سد الثقب المائل في وجهه فانه يحاول اغلقه حتى يستطيع الوصول بهذا التصرف الى الامتلاء التام المتساوي الكروي لشكل الرأس » (٥٥) .

Ibid — „erostrate” — P. 97.

(٥٣)

Jean — Paul sartre — L'etre et le néant P. 705

(٥٤)

Ibid.

(٥٥)

ويحلل جان بول سارتر هذا المفهوم بقوله ان الطفل عندما يمص اصبعه فهو يحاول تذويب هذا الجزء من جسده أي اصبعه جاعلا إياه نوعا من المعجون اللزج او الاسمنت الذي يسمح له بسد هذه الفتحة .

ويعتبر سارتر هذه الفكرة مطلع وبداية النواحي الجنسية ^(٥٦) وطبقا لقول هذا الفيلسوف فاننا نلاحظ ان كل انسان في عالمنا هذا يتطلع دائما للوصول الى المطلق . وهذا يعني تحمل شهوة « الموجود لذاته » لتجهيز وتصميم وانقاذ « الموجود في ذاته » . وهذه النزعة الاساسية قد تدفع الانسان الى تناول الطعام من ناحية والى ممارسة الجنس من ناحية أخرى . وهذا بهدف المداومة على البقاء - ويعلق سارتر على هذا المفهوم بقوله أن المحللين النفسيين يقومون بعمل دراسات واسعة للمرأة بالذات مفترضين منابعا عند معظم الاطفال - فالاطفال يهتمون بأي ثرة ويمارسون التجارب المختلفة من خلالها . ويؤكد جان بول سارتر هذا القول متبنيا فكرة تجارب الاطفال فيقول أن الطفل يهتم دائما بالثقب لا لشيء سوى لملئه - ولكن من المحتمل أيضا أن اهتمام الطفل بالثقب يتصل ايضا برغبته في استكشافه او توسيعه - ونلاحظ من ناحية أخرى أن هذا الفيلسوف يشير الى أن « الثقب » يعتبر قبل كل شيء « تخصيص جنسي بحث ونوع من الانتظار القبيح والنداء الدائم للجسد » .

واذا صرح سارتر بهذه التعبيرات في كتابه « الوجود والعدم » فانه يقتحم بذلك غياهب عالم الجنس . ويتغلغل فيه هو الآخر ... وكان من الممكن ان يركز كاتبنا هذا على تجارب أخرى قد تأتي قبل الجنس ، ولكن أهميته البالغة جعلته يضعها في المقام الاول قبل الرغبة في تناول الطعام او قضاء الحاجة ، او غيرها - فاذا افترضنا على حد قوله ان « الفم » عبارة عن ثرة يحاول الطفل سدها او اغلاقها فاننا اذ نلاحظ ان هذا الفم لا يملأ الا بطريقة عابرة ، فهو يمثل بذلك فتحة تلتهم الطعام وتخفيه نهائيا بداخلها . وبناء على هذا القول نعتقد أن بعض المواضيع التي تراود مؤلفات وافكار سارتر بطريقة تسلطية وملحة قد تكون بوجه التحديد ممثلة في صورة « النزيف » الدموي . وهنا يبدو حجم الخوف والفرع واضحا : الخوف من أن يبرز من الداخل . وتظهر أيضا صورة أخرى هي صورة « حفرة الانزاح » التي تسمح بتسرب كل ما كان بداخلها في لحظات قليلة » . ^(٥٨) واذا بكل ما كان يمتليء بالحياة وكل ما كان موجودا في ذاته ينساب ويزول ويتلاشى في الحال ... فصورة « النزيف » وصورة « الانزاح » وكذلك صورة « الميل الى الملء » تشير جميعها الى الدلالة المفاجئة لاختفاء العالم الذي يهرب

Ibid

(٥٦)

(٥٧) الموجود لذاته (أو ما هو - لذاته) « Le Pour . soi » : هو الشعور منظورا اليه في ذاته ، كما لو كان في حالة انزعاج ، « قانون وجود ما هو من أجل ذاته ، كأساس انطولوجي للشعور ، وهو أن يكون هو نفسه على شكل الحضور للذات ... والحضور للذات يفترض ان شقا غير ملموس قد اندس في الوجود . فان كان حاضرا لذاته ، فذلك لانه ليس ذاته تماما . انعطاطا مباشرا للتطابق لانه يفترض الانفصال . وهكذا نجد أن الآنية (= الموجود الانساني) ما هي إلا رغبة في الوجود - في ذاته - ... ومن حيث الشعور فهو يريد أن يكون له عدم قابلية النفوذ والكثافة اللامتناهية لما في ذاته

Jean — Paul sarre — L'ère et le néant — P. 705.

(٥٨)

من الشعور فيزول منه في لحظة» (٥٩) وطبقا لما قاله المحللون النفسيون أن الأطفال في أغلب الاحيان وفقا لمفاهيمهم الاولى قد يهتمون بفتحة ما ، بشرة معينة الا وهي فتحة الشرج . وهذا يعود بطبيعة الحال الى وظيفتها حيث تسمح بخروج الفضلات منها ، ومن المرجح ايضا أن الاطفال يهتمون كذلك بموضوع معين يشغل المقام الاول في أذهانهم ألا وهو: من أين يأتي المولود ؟ اذن فهذا الموضوع الجوهرى في مفاهيمهم يفوق بكثير موضوع العلاقة الجنسية - وينتقل جان بول سارتر من هذه الفكرة الى فكرة أخرى وهي التي تدور حول المرأة وحول ما يصفها به بقوله أنها « ثغرة في الحياة » . وبأن وضعها في الكون ما هو الا « نداء » . ويتحول بذلك من نظرية « الثقب » عند الاطفال اليها عند الاناث ومنها الى التجربة الجنسية عموما ... ويوضح هذا الفيلسوف أن فكرة الثقب التي ترتب عليها عدة مواضيع مختلفة هي رمز لآحد الاساليب الوجودية ، وأن من واجب التحليل النفسي الوجودي الاهتمام بها والعمل على توضيحها . (٦٠) ويتناول جان - بول سارتر موضوع العملية الجنسية الذي يعتبره نوعا من « الخصي » أو « البتر » الموجه الى الرجل من المرأة ويقول أن الجهاز التناسلي لدى الانثى ما هو الا « فم يلتهم » او « فك يفترس » العضو التناسلي عند الرجل . (٦١)

وتستشف من هذه المعاني كلها أن سارتر يضع الاحتمالات العديدة لها فيرتبها وينسقها بطريقة مبتكرة حتى يتسنى له ابراز نظرياته الشخصية . فأى شخص يعتاد التعامل في مجال التحليل النفسي يستطيع اكتشاف الاسلوب المضلل الذي يستخدمه هذا الفيلسوف في كتاباته حيث ينتقل من موضوع التحليل النفسي « للثغرة » الى التحليل النفسي الوجودي ، محاولا بذلك خدمة اهدافه وتبرير نظرياته الخاصة . وهنا يعتقد كثير من النقاد مثل « جوليت بوتونييه » ان التحليل النفسي الوجودي يقوم على نظريات مزيفة وغير مقنعة فيقول :

« باختصار اننا لا نجد في التحليل النفسي الوجودي أي فكرة محكمة ولا نلاحظ فيه أي شيء جديد أو أكثر ابتكارا او فهما من التحليل النفسي الكلاسيكي وكذلك لا يبدو أقل منه فسقا او فجورا كما اطلق عليه سارتر هذه المعاني . (٦٢)

وربما أرشدتنا افكار سارتر هذه الى بعض مواقفه الشخصية . وتظهر لنا آراؤه وحالته النفسية وسلوكه ومذهبه وفكره عن الانسان بصفة عامة وعن عالمه الشخصي بصفة خاصة . فبمحاولة تطبيق التحليل النفسي على هذا

Francis Jeanson -- Sartre par lui meme -- P. 133

(٥٩)

Jean -- Paul Sartre -- L'être et le néant. P. 706.

(٦٠)

جان بول سارتر - الوجود والعدم ص ٧٠٦ .

(٦١) كثير من المحللين النفسيين اهتموا بهذا الموضوع من قبل ومن أهم الدراسات دراسة Marie BONAPART عن « ادجار الآن بو » فهذا الكتاب يعتبر من أهم المراجع التي ناقشت هذا الموضوع وعالجته بعمق وجدية - (الجزء الاول ص ٢٨٣) - وكثير من الكتاب الفرنسيين امثال « بليز سندرار » و « فرنسوا ساجان » وغيرهم تناولوا هذا الموضوع وعرضوه في كثير من مؤلفاتهم .

Juliette Boutonier. L'angoisse. P. 126.

(٦٢) جوليت بوتونييه - القلق ص ١٢٦

الكاتب والفيلسوف والعقري تمكن البعض من توضيح عدة نواحي نفسية لديه . وأشارت معظمها الى ميوله للبعد عن الجنس . وجدير بالذكر ما اكتشفه أحد المحللين النفسيين الشبان عندما قام بأداء دراسة تحليلية للفيلسوف الفذ ، وبعد دراسات عديدة وأبحاث علمية عميقة دامت حوالي عامين كاملين توصل هذا الشاب الأمريكي الجنسية الى توضيح معظم الأسباب الحقيقية التي عاشت مع هذا الكاتب الشهير . (٦٣) لقد توصل الى معرفة نوعية سارتر النفسية وقال انه ينتمي الى مجموعة الاشخاص الذين يقعون تحت تأثير العقد النفسية غير المرضية . ففي طفولته وبالتحديد وهو في سن الثانية من عمره وقع تحت تأثير مشهد فظيع شاءت الظروف أن تضعه فيه . انه مشهد العلاقة الجنسية بين والديه . لقد أحدث هذا المنظر الغريب اضطرابا رهيبا بداخله وانطبعت صورته في ذهنه وكأنها وشم لا يمكن بأي حال من الاحوال محوه . وتسلبت تلك الصورة عليه جعله يعاني عواقبه العديدة ومن بينها الشك المريب الذي ظل يطارده طول حياته . ومن هنا تتجلى لنا نفسيته القلقة المريبة ومشاعره التي تلوذ بعقدة الذنب رغم عدم ارتكابه لاي ذنب جوهري ، ولازمته رغبة ملحة في معاقبة نفسه حيث انه كان يدرك مدى خطيئته وسوء تصرفه . ومن هنا أيضا رغبته في ابراز انواع الفواحش واشكال الفجور مما يؤدي الى الميول للشذوذ الجنسي . ويترب على هذا كله رغبته في معاقبة نفسه والاساءة اليها . وبدأ يزه في كل شيء حتى في التكريم الذي يتمناه كل البشر . ها هي باختصار معظم آراء العالم النفسي الأمريكي الذي اختتم بحثه بقوله ان 'جان بول سارتر ظل رغم هذا كله انسانا طبيعيا وفي غاية الاتزان العقلي . واذا لاحظنا أنه اتجه في بعض كتاباته الى اظهار النواحي المرضية ، فربا لكي يتخلص من شبح الصورة المخيفة التي تطارده منذ طفولته رغم وضوح عقله وذهنه وفكره . واذا وجدنا ان مؤلفاته الروائية تتصل بمجالات علم النفسي والتحليل النفسي فهذا لانه يفتقد الرغبة في ابداء الافكار المستترة ، والتعبير عنها . ويصرح المحلل النفسي الشاب بهذا عندما قال اذا افترضنا ان سارتر لم يكتب لينفس على مجول بداخله فربا اصابه الجنون رغم أننا لا نستطيع الجزم بتعرضه لهذا الخطر - حقا ان معظم شخصيات سارتر الروائية انما تبدو في حالة قلق نفسي وجذب ونفور مستمر . ففي قصة « الحائط » يعرض لنا شخصية « بابلو » في اللحظات الاخيرة قبل تنفيذ حكم الاعدام فيه . فاذا به يشعر بشيء غريب للغاية : انه نوع من الاشتمزاز الشديد تجاه واحدة من أعز أصدقائه : انها حبيبته « نوتشا » ولكنه لم يلبث أن قدم الدليل على حبه المفقود في صورة قلقة ومتردة . واذا به يستخدم الكلمات المختلفة في التعبير عن صورة « البتر » و « القطع » و « التشويه » فيقول :

« انني على أتم استعداد لأن أقطع ذراعي بضربة فأس واحدة في سبيل رؤيتها ولولمة خمس دقائق فقط » .

Revue du Samedi Soir --- du 7 -- 13 octobre 1950, article ,, Une étude sans Précédent (٦٣) dans L'histoire Littéraire. une psychanalyse perçee les mois secrets de sartr.

مقالة في جريدة « سامدي سوار » بتاريخ ٧ - ١٣ اكتوبر سنة ١٩٥٠ عنوان المقال : « دراسة هامة في تاريخ الادب » . تحليل نفسي لاسرار سارتر الحقيقية .

وكذلك في قصة « الحجرة » نشاهد « بيير » الذي لا يتحمل ملامسة أي شخص أو أي شيء ، ولا حتى أنامل زوجته ايف التي تحبه ولا تفارقه رغم حالته المرضية التي تستدعي بعدها عنه . وتستفعل معه هذه الحالة المرضية الى أن توصله للخوف من ملامسة كل شيء حتى التاتيل الضخمة التي يحبها ويراهها جميعا في صور نساء يردن الاقتراب منه . لقد أصبح الآن يخشاهم ويخافهم رغم انتظاره الحار لهم .

ونرى أيضا « بول هيلبير » بطل قصة « ايروسترات » الذي يشعر بوعي تام لما يجول بداخله من جذب وتفوق ليس فقط تجاه النساء فحسب بل وأيضا تجاه البشرية بأكملها . هذا الشخص المختل يخاف من النساء ويخشى الاقتران بهن ، وإذا وجدناه يتصيد المواقف لاذلالهن فهذا يعتبر نوعا من الخصي الدفاعي الذي يستخدمه تجاه الآخرين بدلا من أن يوضع هو في نفس الموقف . وقصة « أله » أيضا الدليل على هذا النوع من المرض النفسي . فنرى احدي شخصيات القصة وتدعى « لولا » وهي تتصرف تجاه زوجها بطريقة غريبة . فهي ترفض الخضوع او الاستجابة له ، او حتى مصافحته لانها تعتقد أن أي شيء من هذا سيحولها في الحال الى أداة « لا حول لها ولا قوة » ، يفعل بها ما يشاء .

فهي ترى في العلاقة الجنسية نوعا من « الجراح » العميقة التي يوجهها لها الجنس الآخر فتصيبها وتقرق مشاعرها ، وردا على ذلك فهي تتمنى أن تصيب زوجها بنفس الجراح التي تؤلمها . وهنا تحاول هذه السيدة التقليل من شأنه فتعامله بطريقة مهينة وبكبرياء وتعال ، حتى جعلته كالطفل الضعيف ، وتحاول « لولو » التصرف بطرق شاذة تثير الاشمئزاز العنيف تجاه احد اصدقائها الاعزاء . انها تبدي نوعا من الحب المفقود ، فتظهره في صورة قلقه ومترددة ، ويستخدم الزوج عدة كلمات تدل على الخصي مثل « البتر » و « القطع » و « التشويه » . اما الزوجة فتشبع رغبتها المرضية تجاه كل الشخصيات المختلفة التي تقابلت معهم ، مثل « ربرت » والقس والرجل الذي قابلها على الطريق ... كل هذه التناقضات تبدو أكثر وضوحا عند « لوسيان » بطل قصة « طفولة رئيس » فكل تصرفات هذا الشاب تجاه جميع من قابلهم سواء كان « ريزي » او « بولياك » او « برجير » او مجموعة اليهود التي قابلتهم أو النساء الكثيرات اللاتي تعرف عليهن كل تصرفاته تجاه هؤلاء تدل على القلق المتناهي ومدى الجذب والنفور في معظم مواقفه نحوهم .

وربما أراد جان بول سارتر التخلص والتحرر من بعض الأحاسيس والمشاعر الدفينة . فالتحليل النفسي يسمح بوجود نظرية هامة هي تكييف الحرية التي يخص نبوغ الثقافة وشمولها للبشرية بأكملها وفي صورها المختلفة . فالحرية تظهر من خلال طاقة حيوية هامة تهيمن على مستقبل البشرية والانسانية . والتحليل النفسي يهتم بمبدأ المستقبل ومصيره التاريخي بالنسبة للانسان وهو يعمل على تحديد الاسلوب وتحقيقه . وعن طريقه تتوضح الاسرار والقوانين التي تربط بين الانسان ونفسه ، وبين الانسان والعالم وبين الانسان والآخرين من

البشر . وبالتالي يستطيع التحليل النفسي الحصول على نتائج منظمة وخاضعة لقوانين وروابط واضحة . وقد يأخذ في الاعتبار أهمية السيادة الخاصة بكل فرد ، وكذلك بالمجتمع ككل ويقول سارتر :

« ان الانسان محكوم عليه أن يعيش حراً . أقول محكوم عليه لانه لم يخلق نفسه بنفسه ، فيما عدا ذلك فهو حر ، لانه بمجرد أن يلقي في الدنيا فقد أصبح مسئولاً عن كل أفعاله . (٦٤)

ويوضح لنا سارتر في كتابه الوجود والعدم ان كلمة « حرية » لا يمكن فصلها عن كلمة « الوجود » و « الحقيقة الانسانية » او « الواقع الانساني » . فبطبيعة الحال لا يمكننا ان نقول عنه انه لم يكن في « أول الأمر » حراً كي يصبح « فيما بعد » حراً . اذن « وجود الانسان » و « وجوده حراً لا يمكن بأي حال من الاحوال الفصل بينها (٦٥) وفي امكان التحليل النفسي ان يحول كل ما عجز عنه علم الاجتماع الى مجاله ، وهذا بصدد طرح الموضوعات الجذرية التي تخص الحرية والاختيار الاولي الذي يسمح بالارتباطات المختلفة - وهنا تتحول الحرية الى ظاهرة كاذبة لتركيبية ايديولوجية فردية سامية لا تقع تحت ادنى تأثير وبالتالي تتحول الى فعل صريح . فنظرية الاختيار الاولي التي تعمق فيها التحليل النفسي الوجودي يشير الى تقسيم اصلي لأن التقسيم الاختياري يعتبر ظهر أو عكس الحرية .

وقد لا يعترف بأي شيء قبل الظهور الحقيقي والاصلي للحرية الانسانية . اما التحليل النفسي الكلاسيكي او « التجريبي » كما يسميه سارتر فهو يهتم بصفة خاصة بالأحاسيس الاولية التي يشعر بها الانسان والتي يمكن تشبيهها بالشمع البكر الذي يرسم ويطبع عليه أي أثر طارئ ، فالتكييف لا يمكن ان يرتدي مظاهر الحرية لانه هو الذي يمثل اللحظة الهامة في تحليل ودراسة التصرف . وبما أنه منهج تحديدي نفسي يبدأ من هذه النقطة فاننا لا نستطيع اعتناقه في الحال ومنذ اللحظة الاولي . فالحرية لا يمكن أن تلقن بطريقة التزوير المستترة تحت ستار مظاهر التناقض والتضليل . فهي تحتفظ بنظام هذا المنهج . والمفاهيم التي تتناول لب وجوهر موضوع الحرية انما تشير الى امكانيات متعددة لتحطيم كل ما تحتويها . وقد تمتنع في الحال عن الفصل بين النشاط الحر والنشاط العصبي ، وتعتبر الحرية في نفس الوقت أيضا اساسا هاما وقاعدة راسخة لظهور الامراض النفسية . ويؤكد جان بول سارتر انه بدون الحرية البحتة لن يكون هناك امراض نفسية او عصبية . فهذه الامراض لا تنشط الا في ظل مرونة النفس البشرية التي تتيح لهذه الاضرار التفشي . ومن هنا ينتج التقارب الواضح بين المرض النفسي والحرية .

Jean — Paul sartre — L'existentialisme est un humanisme. P. 37.

(٦٤)

جان بول سارتر - الوجودية فلسفة انسانية . ص ٣٧

Jean — Paul sartre — L'être et le néant — P. 67

(٦٥)

وبناء على هذا يؤكد سارتر ان الامكانيات الخاضعة للواقع البشري والحقيقة البشرية قد تكون قادرة على افراز « العدم » (٦٦)

ويعتقد هذا الفيلسوف المشهور أن الحرية تبدو من وجهة نظره وكأنها مخلوق بشري يستبعد ماضيه في الوقت الذي يفرز فيه عدمه الشخصي . وبذلك يصل الى تشبيه الحرية بالمرض العصبي او السلطة الجارفة التي تفوق كل نشاط خلاق فتتبر لدى الانسان كل ألوان القلق النفسي . ويؤكد جان - بول سارتر ان معظم المفكرين في العالم اجمع محكوم عليهم باليأس والقنوط ، فهم يكتشفون في نهاية الأمر أن كل الانشطة البشرية تتساوى ، ويلاحظون انها ما دامت تخضع لتلك الحرية فهي مسخرة جميعها للفشل . فسواء كان الانسان يحيا حرا في ظل تعاطي المكيفات ، او يحيا حرا في ظل قيادة الشعوب فالأثنان يصلان في آن واحد الى نفس المؤثرات . وجدير بالذكر ما جاء به سارتر في قصة « طفولة رئيس » عندما عبر عما أحس به البطل من شعور غريب وكأنه يعيش بداخل طبقة كثيفة من الضباب . ويرمز الكاتب بهذه الصورة الى التجربة الوجودية للحرية وما تتضمنه في مجال العدم من فقدان وضياح للشعور .

ويهتم سارتر بابرار هذا المفهوم خاصة من خلال أعماله المسرحية . فاذا اطلعنا على مسرحية « الذباب » لوجدناه يطرح هذا الموضوع ويعرض جوانبه المختلفة في اطار أدبي رفيع ، فيلقي الضوء على عدة نقاط نظرية من بينها ما يدور حول الافكار العملية المرتكزة على الوجودية ، وخاصة موضوع الحرية ، في هذه المسرحية يعرض لنا شخصية « أورست » ابن الملك « أجامنون » والملكة كليتمنتر » الذي ينفيه القائد « ايجنست » الى مدينة « كورانت » . وهو طفل بعد أن يقتل أباه ويحكم بلده « أرجوس » ويتخذ والدته عشيقة له ... وتقر الاعوام ويصبح « أورست » في السابعة عشرة من عمره شابا مرموقا متألقا بكل الصفات الحميدة مزودا بالدراسات الادبية الرفيعة والامكانيات العقلية والعضلية الفائقة . هذه صفات اذا تجلّى بها أي شاب في مثل عمره جعلته يشعر بالسعادة التامة والحرية الكاملة . ولكن « أورست » عكس هذا كله فهو مهموم وحزين لانه لا يفكر الا في الانتقام والتأر لأبيه ولنفسه ولأخته التي عاشت غريبة في بلدها « أرجوس » وسط الاجواء الفاسدة التي تشع بالفسق والفجور والخيانة ... ويعود الابن الغائب وتلوح له المدينة من بعيد . واذا بها تظهر تحت غمامة هائلة من الذباب الذي تجمع في صورة بشعة ليظلل سكانها المتشبحين بالسواد ... ومن بين هؤلاء تطل أخت البطل التي ظلت تتوقع من اخيها التأر لأسرته وبلده . وقد طال غيابها عنها ليحررها من الذباب ويظهرها من الدناسة والفسق محققا بذلك له ولأخته حلمها المنشود . وبعد قيام « أورست » بتنفيذ خطته وتحرير بلده من تلك

(٦٦) العدم : « Le neaut » هو السلب الجذري للموجود في مجموعه وقد أشاع « هيدجر » هذا المصطلح بهذا المعنى . وأخذ عنه سارتر بقوله : « ان العدم الذي ليس شيئا » لا يمكن أن يكون له غير وجود معار : فهو يستمد وجوده من الوجود .. والاختفاء التام للموجود لن يكون الا بجمي . حكم اللاوجود ، بل والاختفاء المساوي للعدم « ليس له وجود الا على سطح الوجود » - جان - بول سارتر - الوجود والعدم ص ٦١

الحشرات الفتاكة التي ترمز الى المعاني المختلفة للضغوط النفسية يشعر في نفس اللحظة بأنه يستطيع تذوق الحرية . وكما كانت دهشته عندما وجد نفسه في حالة غريبة من اللامبالاة التي سيطرت عليه وهيمنت على أحاسيسه ومشاعره !! وبدلاً من أن يحظى بامتلاكه « للحرية » فإذا بتلك « الحرية » نفسها تبتلعها تماماً الى مالا نهاية فيقول :

« انني أشعر وكأنني شيء لا وزن له . فالخيط الرفيع ربما كان له وزن اكثر مني .. انني اهيمن في الفضاء .. هذا قدرتي واني مدرك لما اعني » . (٦٧)

نعم انه يدرك أنه محروم من الاختيار، ملتزم بطريقة مخطوط مقيد بقيود المصير المعتم فيردد هذه الكلمات قائلاً :

« هناك اناس يولدون ملتزمين . هؤلاء ليس لديهم ادنى اختيار لمصيرهم . فقد ألقى بهم في طريق ما ليجدوا في نهايته عملاً ينتظرهم : هذا العمل هو عملهم » . (٦٨)

ويقدم لنا الكاتب من خلال هذه المسرحية التصرفات والاحداث والخطوات التي تبدو جميعها وكأنها مخططة ومدفوعة بطريقة مباشرة وواضحة .، ويساند جان بول سارتر قضية « الحرية » في كل الاتجاهات ومن كل الجوانب ويؤكد ان التحليل النفسي الفرويدي يسحقها ويقضي عليها تماماً . فانه يلاحظ ان الدور الهام الذي يسند الى اللاشعور وما يترتب عليه من تسلط في الأداء يسلب الانسان حريته الشخصية في الاحتفاظ بأسراره الخاصة . ويقول فرنسيس جونسون في كتابه عن مسرحيات جان بول سارتر وكذلك « بيتر فيرستيرتن » ، (٦٩) أن هذا المسرح يحاول العمل على معارضة الواقع فهو بذلك يثير المجتمع متفرجاً كان أو قارئاً ، فيبث فيه روح المعارضة ، وبهذا النوع من المؤثرات يستطيع سارتر الوصول الى أهدافه من خلال ممثلين يقومون بتزييف الواقع ، فيشيرون بهذا الاتجاه الى الحقيقة الواقعة . وهذا الاسلوب قد يوصله الى الامتنان وإلى جذب المشاعر نحو ما يريد . هو من معان مختلفة . وانا نؤكد ان جان - بول سارتر قد أقام معبداً هائلاً منوعاً ومركباً في شتى فروع الآداب . فقد جمع بين الفيلسوف والروائي ، والمحرر والكاتب المسرحي ، والناقد والخطيب ، والمخرج والمصور - واستطاع من خلال هذه الاعمال كلها أن « يتحرر » هو الآخر من التزامات كثيرة .. ولكن ، على ضوء التحليل النفسي نجد أن هذه الاعمال تبدو قلقة ومحيرة . فإذا افترضنا مثل بعض النقاد أن سارتر كان يعاني من بعض العقد النفسية الدفينة غير الواعية التي أثرت على حياته ومؤلفاته فيمكننا القول أن الكتابة بمفردها غير قادرة على تخليصه منها . فالكتابة وحدها لا تتساوى مع التحليل النفسي ، ولا يمكنها السماح له بتدارك تلك العقد ومعالجتها دون الرجوع

Jean --- Paul Sartre - Les mouches - P. 77.

(٦٧)

Ibid

(٦٨)

Pierre Vaerstraeten. Violence et éthique -- P. 303.

(٦٩)

للعلاج النفسي . ولكننا اذا راجعنا أعمال سارتر وحاولنا تفسيرها وترجمتها بواسطة التحليل النفسي لاكتشفنا نوعا خاصا من التحليل النفسي التشخيصي (٧٠) يطبق عليه . فقد حاول هذا المفكر الكبير أن يثبت للعالم أن نظريته الفلسفية الخاصة بالتحليل النفسي انما تدل على ما أشار اليه التحليل النفسي التقليدي مع مراعاة عدم الاستعانة باللاشعور حيث تستخدم الاساليب المخرجة والمجراحة . فبينما افترض عدم اهتمامه بما جاء قبل التجربة المعاصرة نلاحظ انه وصل في نهاية الأمر الى عدة موضوعات اساسية تأتي في جوهر التحليل النفسي التقليدي . وهنا يقترن به التحليل النفسي الوجودي . ففي الاسلوب والمذهب والطريقة ومعظم النظم المتبعة في التحليل النفسي التقليدي تلقت النظريات الفلسفية الكامنة في التحليل النفسي الوجودي . فالأول اهتم بصفة خاصة بالافكار والاحلام وأحلام اليقظة والافعال والاسلوب وغيرها . وقد تناول كل الموضوعات المختلفة الى أن توصل الباحثون الى التعمق في دراسة « الأنا » والاهتمام بها بدرجة فاقت اللاشعور .. وجدير بالذكر ما قاله فرويد بأن « الطبيعة البشرية تميل دائما الى رؤية كل ما لا يروق لها في صور باهتة وخاطئة ، فتبدأ حينئذ في احضار الادلة والاثباتات المختلفة لتبرير وجهة نظرها » .

واذا افترضنا ان معظم نظريات جان بول سارتر تبدو على شكل طرق متفرقة تريد الابتعاد عن منطقة تعتقد أنها مظلمة ، الا وهي التحليل النفسي فنستطيع القول ان نفس نظرياته الفلسفية وتقديمها بطريقة خاصة اعتقادا منه انه استوفى كل النقاط ، فقد استطاع بالفعل أن يقدم الجديد والجيد الى قرائه ، فانه وضع آرائه وأفكاره في اطار سليم وجميل يحيط بوجهات نظر مختلفة ونسبية تهدف الى التفوق على أصحاب النظريات والتبشير . بصيغ جديدة يستند عليها الانسان في هذا الكون .

ويعتبر الادب بالنسبة لهذا الفيلسوف العبقري وكأنه نوع خاص من الديانات والعبادات . فهو يؤكد أن وجوده في هذا الكون أظهر له مدى تفاهته وتناقضه مع الحياة . فيقول في كتابه : « الوجودية نزعة انسانية » ما يلي :

« لقد كانت هناك الحياة اليومية ، لتلك الحياة التافهة وغير المعقولة ، التي نعيشها بأي صورة من الصور ، محاولين التعرف من خلالها على أكبر عدد ممكن من التجارب . ثم توجد هنالك حياة أخرى : الحياة التي نستطيع دخولها عن طريق الكتابة . وعندما تدون أي عمل كتابي ، فالاعمال الادبية لها قيمة الهية لانها تناقش في مجال شبه مطلق وغير كهنوتي ، والهدف من ذلك هو اقتحام عالم غير عالمنا هذا . ويعتبر الادب بالنسبة لي وفي بادئ الأمر وكأنه محاولة للبحث عن تبرير للمستقبل وجلو حياة أبدية أفضل توافق على الوجود الغامض والطارىء وغير

الصريح الذي يحيط بنا في الحاضر . وبذلك يستطيع الانسان أن يحيا بعد موته من خلال كتاباته فيتعرف عليه المجتمع » (٧١)

وبطرح هذا المفهوم نلاحظ أن جان - بول سارتر يفكر بطريقة خاصة وخالية تماما من أي عقيدة دينية تقربه من الله سبحانه وتعالى . فهذا الفيلسوف لم يضع نصب عينيه سوى الانسان ، ولم يتطلع الا اليه - وظل الانسان أمامه بمثابة لغز أراد أن يصل الى حله بفلسفته الشخصية وعقائده الخاصة . فقد كان دائما يؤمن بأن الانسان هو الوحيد والأول والآخر الذي يستطيع « اختراع » الانسان . وقد يتجلى هذا بواسطة عقد يوقع مع هذا الكائن أو عن طريق شعور داخلي يوفق بينه وبين نفسه . ويؤكد سارتر أن هدفه هو العثور على شيء ملموس وليس معنويا وجب العثور عليه . ومن المحتمل أن يكون هذا الشيء قائما وموجودا بداخل الانسان وثبته نحو هذا المخلوق وعلاقته الاصلية بشخصه وبالعالم وبالآخرين . ويلتقي هذا كله داخل وحدة من العلاقات الداخلية لمشروع أساسي يرمي الى الفردية . لذلك نجد ان جان بول سارتر كان أول من أيد رأي الشاعر الفرنسي المعاصر « فرنسيس بونج » الذي صرح بقوله أن « الانسان هو مستقبل الانسان » .

ولكن اذا ظل سارتر حتى النهاية يحاول التوفيق بين المتطلبات الجمالية في الادب . والافكار المؤثرة التي تشمل فاعلية خاصة في مجال التحليل النفسي فان هذا العبقرى رغم عبقريته الفذة توقف عند الانسان ، وهذا المخلوق الضعيف الذي لا حول له ولا قوة دون الخالق عز وجل ، ولم يستطع بكل مداركه أن يصل الى ما فوق الانسان : الى الحق : الى الله جلت قدرته ، الذي « خلق الانسان . وعلمه البيان .. فبأي آلاء ربكما تكذبان . تبارك اسم ربك ذي الجلال والاكرام » (٧٢)

صدق الله العظيم



المراجع

(١) المؤلفات الفلسفية لجان بول سارتر

(١) جان بول سارتر : الخيال ١٩٣٦

1. — L'imagination

(٢) محاولة النظرية في الانفعالات ١٩٣٦

2. — Esquisse d'une theorie des émotious 1939.

(٣) الخيال ، دراسة سيكولوجية فينومينولوجية للخيال - ١٩٤٠

3. — imaginai — Psychologie phonomenolog. que de L'imagination 1940.

(٤) الوجود والعدم ، محاولة لتأسيس علم الوجود الفينومينولوجي ١٩٤٣

4. — L' etre et le neaut, essai d'ontologie phenoménologique 1943.

(٥) الوجودية فلسفة انسانية ١٩٤٦

5. — L'existentialisme est au humanisme 1949.

(٦) نقد العقل الجدلي - الجزء الاول - ١٩٦٠

6. — Critique de la raison dialectique tome 1960.

(٢) القصص والروايات

١ - العثيان ١٩٣٨

1. — La nausée 1938.

٢ - الجدار او الحائط ١٩٣٩ - مجموعة قصص تحتوي على الحائط ، الغرفة - ايروسترات ، الفة - طفولة رئيس

2. — Le mur 1939 — Le mur — La chamdre — erostrate,
intimité — L'enfance d'un chef.

(٣) أعمال مسرحية

١ - اللهاث ١٩٤٣

1. — Les mouche 1943.

(٤) الدراسات الادبية

(١) ديكارت ، قدم له واختار نصوص جان بول سارتر سنة ١٩٤٦ .

1. — Descartes introduction et choise de textes par J.P. Sartre.

مفهوم التحليل النفسي عند جان بول سارتر

2. — Situations I. 1947.

3. — Qu'est-ce que la littérature : 1947

4. — Baudelaire 1947.

5. — Situations IX 1970.

(٢) مواقف « الجزء الاول » ١٩٤٧

(٣) ما الادب ؟ ١٩٤٧

(٤) بودليير ١٩٤٧

(٥) مواقف الجزء التاسع ١٩٧٠

المراجع المختلفة

- Beauvoir — (Simone de) — La Force de l'âge 1960
- Boutonier (Juliette) — L'Angoisse 1963.
- Freud (Sigmunde) Introduction A La psychanalyse 1962.
- „ „ Essais de Psychanalyse 1951.
- „ „ Le rêve et son interprétation 1972.
- „ „ Trois essais sur la théorie de la sexualité 1925.
- „ „ Moi vie et la psychanalyse 1975
- I S T (Genevié) — le mur de Jean — Paul Sartre 1972.
- Jeanson (Francis) Sartre par lui — même. 1957.
- JVNG (Carl — Gustave) — Essais d'exploration de L'inconscient 1965.
- JVNG (Carl — Gustave) — dialectique du moi et de L'inconscient 1964.
- VARET (GILBERT) — L'ontologie de Sartre 1948.
- VERSTRAETEN — (Pierre) — Violence et éthique 1972.



المراجع الصحفية

- ١ - مجلة لآراء العدد رقم ٣٠ لعام ١٩٦٦ (بالفرنسية)
- ٢ - مجلة الفكر المعاصر . العدد الخامس والعشرين لعام ١٩٦٧ (باللغة العربية) .
- ٣ - مجلة العصر الحديث لعام ١٩٧٠ .
- 3. — Les Temps modernes. 1970.



كتب جان بول سارتر أولى أعماله المسرحية وهي « الذباب » عام ١٩٤٢ إبان الحرب العالمية الثانية . تناول فيها أسطورة أورست والكثير سليلي عائلة « الأثرية » الملعونة .. ان موضوع المسرحية قد تناوله العديد من الكتاب المعاصرين قبل سارتر وبعده .. نذكر منهم على سبيل المثال الكاتب المسرحي الكبير جان جيرودو وروايته « اليكتر » ، ومارجريت بورسنار - أول سيدة تنضم الى الاكاديمية الفرنسية ومسرحيتها « الكتر او سقوط الاقنعة » .

وتروى مسرحية سارتر قصة « أورست » ابن أجاممنون وكليتمسترا الذى أبعد عن بلده « ارغوس » وهو طفل في الثالثة من عمره بأمر من « إيجست » قاتل أبيه ومغتصب عرشه وعشيق أمه ويعود أورست الى موطنه بعد انقضاء عشرة اعوام على حياته في المنفى ، فيجد بلده غارقة في الندم ممثلا في اسراب الذباب والسواد الذى ترتديه سيداتها . يقابل أورست اخته التى تنتظره وهي غارقة في أحلامها متوقعة منه أن يثأر لأبيها ويخلص بلده من ثقل « الندم والخوف » الجاثمين على الصدور

سارتر والأسطورة اليونانية

حفيفة محمد عبد المنعم

وبعد تردد يقوم أورست بتنفيذ ما كان يراوده ، فيقتل أمه وعشيقها ، ويحرر بلده من الذباب بأن يفادها في حركة مسرحية ، مقلدا عازف الناي الذى خلس بلده سكيروس من هجوم الفئران .

أما الكتر فلم تتحمل نتيجة ما فعله أخوها وسقطت فريسة سهلة للندم والخوف طالبة الرحمة والففران من جوبيتر كبير الآلهة .

لقد تضافرت لأورست عدة عوامل في حياته سببت له نوعاً من اللامبالاة ، منها النفي المبكر بعيداً عن وطنه ، والثقافة الفلسفية التي تلقاها على يد معلمه او « المربي » كما يسميه سارتر ... تلك اللامبالاة التي يفخر المربي في وصفها قائلاً لأورست :

« ... الم أجعلك منذ حداثتك ، تقرأ جميع الكتب ، لكى تألف اختلاف الآراء الانسانية ، واجعلك تطوف مائة مقاطعة ، مقدماً لك الدليل ، وفي كل مناسبة ، على مدى ما في اخلاق الناس من تغير ، وها أنت الآن شاب غنى وجميل ، محنك كالشيوخ ، متحرر من كل العبوديات ومن كل المعتقدات ، لا عائلة ، لا دين ، لا مهنة ، حر ، تلتزم بما شئت ومدرك انه لا ينبغي للانسان أن يلتزم ابداً ، وأخيراً ، ها انت رجل ممتاز وجدير فوق ذلك بان تعلم الفلسفة والنحت في مدينة جامعية كبرى »^(١)

لكن اورست يشعر بالفراغ الذى اوجدته في داخله ومن حوله تلك الحرية المثلى ... إنه يحس بنفسه كشيء صغير تأخذه الرياح في مهبها الى حيث تشاء ، لا رابطة له ولا ارتباط في أى مكان :

« اورست (للمربي) : ... لقد تركت لى حرية كحرية هذه الخيوط التي تنتزعها الرياح من بيت العنكبوت ، فأتأرجع على ارتفاع عشرة اقدم من الارض ، انتى لا أزن اكثر من هذا الخيط ، انى اعيش معلقاً في الهواء ، انا اعرف ان هذا حظى ، وأقدره حق قدره »^(٢)

ولكن بطلنا لا يلبث ان يشعر إمكانية وجود وجه آخر للحياة اكثر التزاماً وارتباطاً بالواقع فيستطرد قائلاً :

« ... من الناس من يولدون ملتزمين ... ليس لهم خيار ، كذف بهم في طريق ما ، وفي آخر الطريق فعل ينتظرهم ، فعلهم ، انهم يصيرون وارجلهم العارية تطفأ الارض بشدة فتتسلخ جلودها على الحصى ... »^(٣)

في بداية دخوله البلدة يشعر اورست بالغربة ، بعدم الانتماء الى مسقط رأسه حيث الدور والدروب تبدو غير معروفة لديه ..

ان ما يثير في نفسه من شعور بهم بالاسى هو ذلك الواقع الذى يجعله « يسأل عن طريق كعابر سبيل »^(٤) ... في نفس البلدة التي رأت عيناه فيها النور ، وحتى ذلك لم يفلح فيه ، فقد باءت جميع محاولات السؤال بالفشل ، ذلك لأن النسوة اللواتي كان يقصدهن بسؤاله كن خائفات ، مرتعدات ، موليئات الأدبار أمام ذلك الغريب .

(١) Jean — Paul Sartre, Les MOUCHES, 1945, Gallimard, P.95

(٢) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(٣) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(٤) نفس المصدر ص ٨٢ .

كان الخوف إذن حاجزا سميكا بينه وبين مواطنيه ، حتى عندما غاب الخوف بقى الاتصال بإبناء بلده مستحيلا وفشل اللسان في مخاطبة أى فرد منهم . فعندما توجه المربى بالسؤال الى شحاذ القرية لم يستطيع الاجابة فتعجب المربى في يأس :

« ليس لنا حظ ! ان أول من لم يهرب اذا به معتوه ... »^(٥)

لقد شعر اورست بالفثيان نتيجة الاحساس بالغربة فطلب الخروج من أرجوس وقال للمربى :

« الا تدرك اننا نهترىء في حر الآخرين ؟ »^(٦)

تلعب أرجوس وابناؤها بالنسبة لاورست دور « الآخر » في مواجهة الذات ، وهذا « الآخر » ليس الا وجودا مبها ، منغلقا مثيرا للضجر وللحرج ، انه وجود جهنمى لا يقوى بطلنا على احتماله . ولكن الشعور والاعتراف بوجود « الآخر » يثير في نفس الوقت قضية علاقة « الوعى بالذات - والعالم » ، حينئذ يشعر اورست « بالحاجة » الى تخطى حدود ذاته والذهاب لملاقاة العالم كوجود شامل ، وهذا ما يشرحه سارتر في كتابه « نقد العقل الجدلى » : Critique de la raison dialectique

« الحاجة هى علاقة الكمون ذي الاتجاه الواحد بالمادية المحيطة ، بقدر ما يبحث البدن عن التغذي بها ، وتكون حينئذ شمولية مرتين :

ذلك انه لا تكون سرى الشمول الحى الذى يبدو كشمول ويكشف المحيط المادى الى مالا نهاية كحقل شامل لامكانيات ارضاء الحاجة »^(٧)

ان « حاجة » الاتصال بالآخرين تدعو اورست الى احياء ذكرياته لاييجاد روابط ببلدته تتيح له مشاركة مصير مواطنيه ، لذلك فهو يعلن لجوبيتر ، للمربى ، لاخته الكتر ، لكل الذين كانوا يحثونه على مغادرة أرجوس ، عزمه على البقاء في بلده ، انه يريد ان ينتمى الى مكان ما ، ويرغب في ان يصبح رجلا بين الرجال مواطنيا بين المواطنين - انه يصبو الى الاحساس بحرارة بلدته وأبنائها من حوله ، وهو يعبر عن ذلك في صورة بالغة الشاعرية :

« أورست : ... ان العبد حين يمر متعبا ، عابس الوجه يثن تحت حمله الثقيل ، جارا ساقية وناظرا الى قدميه ، الى قدميه فقط ، لكى يتحاشي السقوط ... يكون في مدينته ، كالورقه بين لفيف الاوراق ،

(٥) نفس المصدر ص ٨٣ .

(٦) نفس المصدر ص ٩٧ .

J.P.Sartre, Critique de la raison dialectique, 1960, (٧)
Gallimard, Livre 1, P.166.

كالشجرة في الغابة .. أرغوس من حولي بكل ثقلها وحرارتها ، بكل امتلائها بذاتها ، اريد ان اكون هذا العبد ، الكثر ، اريد ان الف المدينة حولي وان التف بها كالغطاء ، لن ابرحها »^(٨)

ان اورست يرنو الى أن يصير انسانا « في العالم » غير منفصل او غريب عنه . انه يكتشف وجود حرية أخرى غير حرية اللامبالاة التي لم تجعل منه سوى فرد يشكو من عدم الانتهاء والوحدة ، حرية أكثر واقعية وأكثر قيمة .

هكذا يطلب من مربيه التخلي عن تلك الفلسفة التي اصابته بالضرر.^(٩)

يفهم اورست انه يجب عليه ان يتخطى مفهومه للوجود L'etre ، للطبيعة ، للشيء في ذاته L'en — soi ، لكي يبلغ وجود شعوره L'etre De La conscience او الشيء لذاته Le Pour — soi انه يهفو الى الخروج من الكمون L'immanence الى التجاوز او السمو Transcendance لذا فهو يتحدى جوبيتر الذي يدعوه الى السكينة والخضوع لقوانين عالمه :

« اورست : خارج الطبيعة ضد الطبيعة ، دون عذر ، دون اى ملجأ سوى نفسى ، ولكننى لن ارجع الى قانونك : اننى مقضى على بان لا يكون لى سوى قانوني الخاص . لن ارجع الى طبيعتك : ان فيها الف طريق مرسومة تقود اليك ، ولكننى لا استطيع ان اتبع الا طريقي »^(١٠)

هذا الطريق هو الحرية ، فأورست يعلم ان « الناس احرار »^(١١) كما يعترف جوبيتر نفسه بذلك .. وهو يجزم بان الحرية « ماهية » أو « جوهر » الانسان بقوله : « اننى حريتى »^(١٢)

ولقد اعاد سارتر شرح تلك الفكرة في كتابه الوجود والعدم L'etre et le neant

« ان الحرية ليست صفة او خاصية مضافة الى طبيعتي ، انها بكل تحديد خاصية وجودى »^(١٣)

عندما شعر اورست بحريره اراد ان يلتزم بمصير أرجوس ولكنه ارتطم بالواقع الاليم : ان بلدته فريسة الندم الدائم للتكفير عن الجريمة التى ارتكبها ايجيست وكلitmenستر وراح ضحيتها أجا ممنون والد اورست . وخطيئة

(٨) J—P.SARTRE, Les Mouches , P 137

(٩) راجع نفس المصدر ص ٩٤ .

(١٠) نفس المصدر ص ١٨٢ .

(١١) نفس المصدر ص ١٥٥

(١٢) نفس المصدر ١٨١

(١٣) J.P.Sartre, L'Etre et le neant Gallimard, 1943, P 514 .

اهل أرجوس هي السكوت على الجريمة وادعاء الصمم وعدم إغاثة الملك . لذلك ارسل عليهم جوبيتر لعنة على هيئة اسراب الذباب التي تكبر حتى يصير حجمها « كالضفادع الصغيرة » .

أما الميجيست وكليتمنستر فهما يحكما أن أرجوس ويجلسان على العرش الذي اغتصباه بينما اورست يبدى تعجبه حيال الآلهة التي ترك المذنب حرا بدون عقاب متمتعا بالسلطة ، ولكن جوبيتر يتصدى له مدافعا عن الآلهة واحكامها :

« جوبيتر : رويدك ! لا تعجل بادانة الآلهة - أمن الواجب دائما انزال العقاب ؟ الم يكن من الافضل تحويل هذا الصخب لصالح النظام الاخلاقي ؟ (١٤) »

ان الآلهة لا تبغى من الانسان سوى الخضوع والندم وتأنيب الضمير الذين يمثلون في نظرها دعائم الاخلاق ، فهي تدعو البشر الى التكفير عن الخطيئة الاولى ، خطيئة آدم ، وحواء ، طالبة منهم الخوف من الحساب في يوم الحشر ، وهي لا تجعل لهم هما سوى فكرة النجاة والخلاص عن طريق الرهبة ومسائلة النفس وطلب الغفران ... ان جدران أرجوس الملوخة بالدم ، واسراب الذباب ، ورائحة الجيفة والحراة الجهنمية ... كل هذا يهدف الى الحفاظ على ما يطلق عليه جوبيتر « التقوى الصحيحة ، القائمة على سنة الاقدمين ، والمتينة الارتكاز على الرعب » (١٥) .

ذلك الرعب السائد في النفوس في « عيد الموتى » الكتيب ، الذى يقع في يوم عودة اورست الى بلده ، من شأنه الحفاظ على الشعور بالذنب باقيا في الصدور ، وجذوره مغروسة في القلوب البريئة التى توهمها الالهة بارتكاب جرم فظيع ، يجب التكفير عنه والشعور بالخجل والندم عليه ، لذا نجد مجاميع الاطفال في عيد الموتى تطلب العفو مستغفرة عن ذنب لم ترتكبه :

« الاطفال : الرحمة ! اننا لم نولد قصدا ، ونحن جميعا خجلون من اننا نكبر ... كيف يمكن لنا ان نجرح شعورهم ؟ انظروا ، اننا بالجهد نعيش ونحن نحفاء شاحبون وجد صفار ، اننا لا نحدث ضجة ، وتترلق انزلاقا ، حتى ان الهواء حولنا لا يضطرب . ونحن خائفون منكم ، أوه ! خوفا عظيما » (١٦)

امام واقع بلده المخزي ، لم يستطع أورست سوى الشعور بالحيرة أبقى أم يمضي ؟ إنه حر في الاختيار ، بل ان هذا الاختيار هو دليل حريته ، ودور اليكتر هو وضعه امام الموقف الذى يتيح له اتخاذ القرار : الرحيل أو الفعل ، الهروب أو الالتزام بمصير بلده باعطائها حريتها .. لذلك فاليكتر تعرض عليه الأمر بشقيه :

J.P.Sartre, Les Mouches, P.87 (١٤)

(١٥) نفس المصدر ص ٨٣ .

(١٦) نفس المصدر ص ٨٩ .

« اليكتر : افترض ان شابا من كورنثيا ، من هؤلاء الشبان الذين يلهون مع الفتيات في المساء ، وجد لدى عودته من سفره ، أباه مقتولا ، وأن القاتل في حرية ، واخته في العبودية ، هل ينسحب بهدوء ؟ هذا الشاب الكورنثي ، - هل يعود ادارجه وهو ينحني احتراما ، فيلتمس السلوى لدى صديقاته ؟

ام انه يستل سيفه ويقرع القاتل حتى يفجر راسه ؟ الا تجيب ؟ »^(١٧)

اورست يبدو في قمة الحيرة وضياح الامل واليأس .. ولكن ألا يكون اليأس سببا في إيجاد ثغرة ، في خلق امل جديد ؟ ان اليأس يتيح لنا اكتشاف معنى لوجودنا ... لذا فأورست يقرر اقتسام يأسه مع اهالى أرجوس حاملا ايامهم الى الحرية والحياة :

« اورست : لماذا امنع عنهم اليأس الذى في نفسى ، وهو نصيبهم ؟

جوبيتر : ماذا يصنعون به ؟

اورست : ما يشاءون انهم احرار والحياة الانسانية تبدأ في الناحية الثانية من اليأس »^(١٨)

ان حياة اورست ومواطنيه لم تخلق بعد ، لانهم كانوا يكتفون حتى هذه اللحظة بوجود كامن في إحضان الطبيعة إن هم اورست البحث عن « فعل »^(١٩) محرر وخلاق ... ذلك ان « الفعل » هو الذى يتيح الخلق ، فبفعله يخلق الإنسان معنى لوجوده يسمو به عن الكمون :

افعل ، وبينما تفعل افعل نفسك ، ولا تكن سوى ما فعلت »^(٢٠)

الفعل الذى اختاره اورست لاثبات ذاته وحريته يفوق كل عمل آخر في بشاعته ، اذ انه لا يكتفي بالتأثر من قاتل ابيه بل انه يقتل امه تلك التي وهبته الحياة . ولكن لماذا اختار بطلنا هذا الفعل المدمر لانقاذ أرجوس ؟ ذلك ان الدمار والشر لازمان لكل تغيير جذرى ، انه الجانب السلبي للحياة ، الجانب الذى يدمر كى يتيح الفرصة لخلق جديد .. لبناء جديد ... وسارتر يشرح لنا فكرة التدمير اللازمة للخلق التي تذكرنا بالديالكتيكية عند هيجل في كتابه Saint Genet, comedien et Martyr فهو يقول :

(١٧) نفس المصدر ص ١٠٥ .

(١٨) نفس المصدر ص ١٨٣ .

(١٩) راجع نفس المصدر ص ٩٨ - ٩٩ .

(٢٠) Faire et en Faisant se faire et n'etre rien
que ce qu'il se Paît . — J—P. Sartre, Mise au
point in Action du 29 De,cembre,1944.

« ايا كان الفعل فهو يغير ما يكون باسم مالم يكن بعد ، وبما انه لا يمكن ان يتحقق بدون تخطيط النظام القديم ، فانه ثورة دائمة . انه يهدم لكي يبنى ولكي يُجْمَع بفرق الشمل :

ان كل بناء محتوى - على الاقل - على نصيب مماثل من الدمار»^(٢١)

ان المجتمعات الانسانية تخاف عواقب الدمار ، تخشى من التغيير ومن النتائج الوخيمة التي قد تعقبه ، فتتسأ الرغبة في القضاء على ما يطلق عليه سارتر « محرك السلبية » Le ressort de negativite الكامن في النفس البشرية . عندئذ يقطع الانسان جزءا من نفسه ويحرم حريته من « اللحظة المدمرة » Le moment negatif ، من الشر . ولا تيبقي له سوى الجانب الذى يدعوالى تماثل الخير والكيونة ، عندئذ يسمى الانسان خيرا كل ماهو قائم فعلا .

باسم هذا « الخير » يطلب جوييتير من اورست الرحيل وعدم اطلاق « النظام » السائد في بلدته :

« جوييتير : ... ايها الشاب مع السلامة ، ان نظام المدينة ونظام الارواح لا يستقران : اذا مستستها احدثت كارثة ... كارثة هائلة تقلب عليك »^(٢٢)

عندما ايقن اورست ان الحرية هي جوهر نفسه بدأ ينظر بتقزز لذلك « الخير » الذى يدعو الى الخوف والرضوخ لجوييتير ، انه لا يصدق عينيه ، اهذا ما يسميه الناس « خيرا ؟ أيكمن في الطاعة الدائمة والحمد وطلب المغفرة ؟ اورست يقرر « الفعل » فعل الشر الذى يتخطى الطبيعه ، الكيونه ، ويحقق حريته ، ذاته . ان قتل امه ، ذلك الاثم العظيم وهو اذن الفعل المخلص الذى يجد اورست بواسطته معنى لوجوده ، لحياته ، وحياته اخته . ان فعله الشرير بمثابة عمل خلاق بالنسبة له :

« اورست : لقد مضى الليل . وهذا اول النهار . نحن احرار ياالكثر . يخيل الى اننى جعلتك تولدين ، واننى ولدت معك ، الآن ، اننى احبك وانت لى . بالامس ، كنت وحيدا ، واليوم انت لى ، ان الدم يربط بيننا برباطين ، اذ اننا من دم واحد وقد سفكتا الدم »^(٢٣)

جوييتير يشجب فعلة اورست ، ويسهر على بقاء النظام في أرجوس ذلك لان لحظة الشعور او الوعى التي يفهم فيها الانسان ان الحرية هي جوهر وجوده ، هي لحظة حاسمة بالنسبة لكبير الآلهة ، انها تعنى نهاية سلطته ، ان

J.P. SARTRE, SAINT GENET, COMEDIEN ET MARTYR, (٢١)
GALLIMARD, 1952, LIVRE 1, CHAP. 1, P. 22.

J.—P. SARTRE, LES MOUCHES, P. 92. (٢٢)

(٢٣) نفس المصدر .

مسرح سارتر الوجودي يعلن نهاية الآلهة وتولى البشر الحكم والسيطرة على مصيرهم . جوبيرت يعلن بنفسه تلك الحقيقة :

« جوبيرت : اذا انفجرت الحرية ، مرة ، في روح انسان ، لن يبقى للآلهة على هذا الانسان أية سلطة ، اذا انها قضية انسانية ، وللناس الآخرين ، لهم وحدهم - ان يتركوه طليقا او يخنقوه » (٢٤)



في مسرحية سارتر ، التي يحاول فيها اعطاء البشر كل وسائل التحكم في مصيرهم ، يأخذ الانسان ممثلا في اورست ، دور البطل والمثل الاعلى بينما جوبيرت يبدو كإله للذباب والموتى « عيناه بيضاء » « وجهه ملطخ بالدم » (٢٥) انه يشبه السحرة ، فهو ينطق بكلمات يبدها الذباب . وهو فوق ذلك شديد الكراهية للناس ، انه « لا يحب احدا » ويعترف بانه مرتكب « اول جريمة » ذلك « عندما خلق الانسان فانيا » . (٢٦)

جوبيرت او إله الذباب هو قوة باطشة ظالمة مستبدة تعمل على ان يظل الانسان خاضعا لها ، ماضيا من مولده الى موته في ذلة واستغفار وندم . كل ما يدعو ذلك الانسان للتفكير ، يقلق جوبيرت لانه يعلم « السر الاليم الذي عند الآلهة والملوك : وهو ان الناس احرار » (٢٧)

لقد اعلن اورست بادراكه وفعله هزيمة جوبيرت والانتقال مما يسميه اوجست كونت المرحلة الدينية L'etat positif الى المرحلة الايجابية L'etat theologique

« جوبيرت : وهكذا يا اورست ، فكل هذا كان مقدرا ، كان يجب ان يأتي رجل فيعلن أفول . أنت هو ذا ؟ من كان يصدق ذلك بالأمس ، لدى رؤيتك بوجه كوجه الفتاة ؟ » (٢٨)

ويبقى لنا بعد ان اتم اورست فعلته ان نتساءل هل نجح في مهمته ؟ هل حرر حقا اهل أرجوس ؟ ان هؤلاء قد بقوا في نهاية المسرحية على ما كانوا عليه : خائفين ، خاضعين ، صارخين ، ومطالبين بموت « الكافر » .

ان جموع الشعب الغاضبة تصيح في وجه ذلك الذي يريد اعطاءها حريتها :

« الموت له ! الموت له ! ارجوه ! مزقوه ! الموت له ! » (٢٩)

(٢٤) نفس المصدر - ١٥٧ .

(٢٥) نفس المصدر - ٨١ .

(٢٦) راجع نفس المصدر - ١٥٣ .

(٢٧) نفس المصدر - ١٥٥ .

(٢٨) نفس المصدر - ١٨٣ .

(٢٩) نفس المصدر - ١٨٨ .

مشكلة أورست ليست مفهومة للحرية او الفعل الذى قام به بل في علاقته ذاتها بشعب أرجوس ، فيبدو لنا انه لم يحس الاتصال والاندماج بأهل بلدته ، وهذا الاتصال شديد الاهمية في فلسفة سارتر الذى يشرح ذلك في الوجود والعدم :

« ان اول خطوة في اى فلسفة ، يجب ان توجد لتطرد الاشياء من الشعور ولتقيم العلاقة الصحيحة بينه وبين العالم » (٢٠)

أورست لم يفلح في الاتحاد والاندماج بأهله . لقد بقى نفس ذلك الغريب ايا كان الفعل الذى اتى به . ان اخته نفسها تصرح له بذلك رغم تعلقها به في النصف الأول من المسرحية .

« الكثر : لو اقامت مئة سنة بيننا ، فلن تكون ابدا ، إلا غريبا ، أشد وحدة من وحيد على الطريق .. ان الناس سينظرون اليك باطراف عيونهم من خلال جفونهم نصف المغمضة وسيخفضون اصواتهم حين تمر بقربهم » (٢١)

ان الفعل الذى قام به اورست لم يكن في الحقيقة سوى برهان على حرية ذاته هو ، على الوحدة والتسويق بين شعوره وواقعه الخارجي . فنجد بعد قتل امه يقول في أنانية :
« اورست : ... ماذا يهمنى : اننى حر ، وراء القلق والذكريات .

حر . ومنسجم مع نفسي ... » (٢٢)

لقد أخفق بطل الذباب « في تخطي فرديته » Individualisme لكى يلتقي بالكل الشامل ممثلا في شعب أرجوس وبقي فعله بلا نتيجة للآخرين دليلا على الفردية المطلقة . ذلك ان « العمل الجماعى » L'action collective يتطلب تضافر كل الحريات الفردية بعد ان يتحقق كل عضو في الجماعة من اقتناعه وحاجته الشخصية الى الثورة على موقف ما .. في تلك اللحظة تخرج الجماعة الى الوجود لكى تغير من واقع احست بضرورة تغييره . ولكن ذلك ما لم يحدث في حالة اورست وأهل بلدته . لقد قام هو بالفعل بينما كان أرجوس يعيش في عالم خاص به ، قائم على مبادئ ومعتقدات مختلفة تماما عن افكار اورست واحلامه :

« اورست : أه ! لو كان هناك فعل ، أترى ، فعل يمنحنى حق الوطن لديهم ، لو كنت استطيع ولو بجرية ، ان استولى على ذاكرتهم ، ورعبهم ، لأملأ فراغ قلبي ، حتى لو اضطرت الى قتل امي ... » (٢٣)

J.P.SARTRE, L'ETRE ET LE NEANT, P.18. (٢٠)

J.P.SARTRE, LES MOUCHES, P.137 (٢١)

(٢٢) نفس المصدر ص ١٧٢ .

(٢٣) نفس المصدر ص ٩٧ .

هكذا يعترف اورست بان فعله كان نتيجة رغبة شخصية لشغل فراغ نفسه التي اعيها شعور اللامبالاة الناتج عن تعاليم مرييه ، ان ما قصده اورست من تخليص شعبه نتيجة فعل يقوم هو به منفردا يذكركنا بوسائل السحر والشعوذة Exorcisme التي تقوم على تخليص الجسد من الجان نتيجة لأعمال يقوم بها الساحر وحده . إنها وسيلة تفترض ربما الاتصال الروحي بينه وبين شعبه ، ومن الممكن ان تكون مجدية في عالم الشعوذة او في بعض الفنون كالسبكودراما Psychodrame ولكنها غير ذات نفع في تحديد وتغيير مصائر الشعوب ، لذا اتخذ فعل اورست شكلا مسرحيا أو رمزيا بعيدا كل البعد عن الواقع . ولقد تحول هو في آخر المسرحية الى شخص اسطوري يخرج من البلد حاملا حريته والآفا. من الذباب وراءه ، انه يخرج وقد شعر بأنه شخص جديد مستعد للحياة تكون ملكا له بعد ان حدد هو معناها ومصيرها . اما اهدافه الاصلية - الحرية الجماعية لشعبه - فلم تكن سوى برهان على حريته هو وعلى سلامة تفكيره وفعله .

ان الثورة الجماعية قد اخفقت وبقي اورست « الفرد » . لقد كان منفصلا عن اهل أرجوس وسيبقى دائما غريبا عنهم . لذا كان يجب عليه الرحيل وتركهم يجابهون مصيرهم وحدهم . اذا اردنا تقييم مسرحية الذباب على ضوء شخصية بطلها وموقفه من الحرية فنستطيع القول بأن تلك المسرحية تعبر عن مرحلة انتقالية أو تحضيرية في تاريخ حياة سارتر وهي تتم عن صعوبة العمل الجماعي وتهد الطريق للمسرحيات التالية « كالأيدى القذرة » . Les mains sales وموتى بلا قبور « morts sans sepulture بجانب اورست تقف شخصية تسانده في البداية ثم تنقلب عليه بعد ان اتم فعله ، تلك هي اخته الكثر وهي تمثل نمطا معيناً من شخصيات سارتر . انها تنتمي الى الفئة الشاعرية ، الحساسة من البشر التي تهرب من الواقع الأليم الذي حرّمها الحنان الى عالم الخيال . وسارتر يبين لنا تلك النوعية من الشخصيات في كتابه المتخيل L'imaginaire

« تفضيل المتخيل لا يعنى فقط تفضيل ثراء او جمال او ترف خيالي على رداءة الواقع رغم صفتهم غير الواقعية . انه ايضا تبني احساس وسلوك « خياليين » بسبب صفتها الخيالية . فنحن لا نختار فقط صورة أو أخرى بل نختار الحالة الخيالية بكل ما تشتمل عليه . اتنا لا نهرب وحسب من محتويات الواقع (فقر ، حب مصدوم ، فشل في مشاريعنا ... الخ) بل نهرب من الشكل الواقعي نفسه ، من صفة حضوره ، من رد الفعل الذي يتطلبه منا ، من خضوع سلوكنا للأشياء ، من عدم نضوب المحسوسات ، من استقلالهم ، من طريقة تطور احساسنا نفسها ... » (٣٤)

الكثر تعيش موقفا مؤلما ، فهي تعامل كالخادمة في قصر والدها الذى قتله ايجيست زوج امها الحالى ، وهى تعبر هذا الواقع القاسي الى الخيال والاهام . انها تحلم بالتأثر لأبيها من قاتليه ، وقد اخفت في اعماق اللاشعور حبها لامها وطبيعتها الشاعرية الحنون ووضعت قناع الكراهية للجميع :

« الكتر : اتراني مغفلة ؟ ذلك أنه يصعب عليّ كل الصعوبة ان احميل نزوات وأناشيد وابتسامات ، فالناس هنا يقرضهم الخوف . وانا

اورست : وانت ؟

الكثر : البغض » (٣٥)

ولكن ذلك البغض ليس سوى وجه واحد لشعور مزدوج . فالكثر تنشد في الحقيقة ان تسترعى انتباه امها لكى تولد في قلبها الحنان المفقود عن طريق الرفض والعناد ... ان ابنة اجائمنون لا تستطيع ان تتأقلم مع العالم الذى يجبرها في بعض الاحيان على مقارنة أحلامها بالواقع المرير ... لذا فهي ترفض أن تعترف بعودة اخيها وتستمر لفترة في النداء عليه باسم « فيلاب » حتى بعد ان عرفت حقيقته ، ذلك ان شخصه لا يطابق الصورة التي رسمتها في مخيلتها . ولكنها عندما أيقنت عزمه على التأثر لا يبيها لم تجد بدا من الاعتراف به وكل عباراتها تفصح خيبة املها ... فالواقع يختلف تماما عن الصورة التي في ذهنها .

« الكتر : اجل ، انك هو حقا ، انت اورست لم اعرفك لاننى لم اتوقع ان اراك هكذا .. » (٣٦)

ينشط خيال الكتر الخصب ليلتلع الواقع فتحس بنفس المشاعر التي كانت تراودها في أحلامها : ذلك المذاق المر والخوف من لحظة الانتقام المنشودة . فالرغبة في التأثر يشوبها الرهبة والجبن ، تلك هى سمات شخصية الكتر : تنتمي ولا تقوى على التنفيذ ، حتى عندما يسألها اخوها عن سبب عدم هروبها الفعلى من القصر حيث تعامل كخادمة تجيبه معلنة جبنها : « ليس لدى مثل هذه الجرأة : فلسوف اخاف ، وحيدة في الطريق » (٣٧)

ان مراة واقعها هى الدافع اللازم لتنشيط خيالها واغلاق اوهاما عليها ، حتى ان تحقيق تلك الاوهام لا يجلب لها السعادة ، ذلك أن الواقع مها بلغ من جمال فهو يبقى دائما أقل متعة من الخيال ، ويحتوى خيال الكتر مجرد آمال ترغب هى في بقائها على شكل امنيات . فبطلتنا تذكركنا بنوع من المفكرين المعتصمين في ابراجهم العاجية متأملين في أفكار مجردة بدون ارتباط بواقع أو فعل :

J—P.SARTRE, LES MOUCHES, P104. (٣٥)

(٣٦) نفس المصدر ص ١٤٢

(٣٧) نفس المصدر ص ١٠١

« الكتر : ... اتعرف بماذا كنت افكر قبل ان أعرفك ؟ بأن الحكيم لا يتمنى في الحياة الدنيا ، الا أن يرد
الأذى يوما الى من أوقعه به » (٣٨)

ولكن الكتر ليست مستعبدة رغم معاملة ذويها لها كخادمة ، انها تتمتع بكل حرية ذاتها بكل حريتها في
التخيل وفي الخلاص من الواقع لتعيش عالمها الذى تحب ، ذلك ما يشرحه لنا سارتر نفسه :

« لكى تقوى ذات على التخيل يجب ان تفلت من المعالم بطبيعتها نفسها ، يجب ان تستمد من ذاتها
القدرة على الرجوع الى الخلف بالنسبة الى العالم . باختصار يجب ان تكون حرة » (٣٩)

فالعودة الى الوراء تعنى الخطوة اللازمة للتحرر من العالم والحكم عليه ثم اصدار القرار بتحويله الى « عدم »
meant واستبداله يدنيا اخرى من صنع المتخيل ومن منطلق ذاته وحرية الشخصية ، وشعور الكتر بحريتها
الداخلية هو الذى دعاها الى اتخاذ موقف رافض من ايجيست وجوبتر ، ولكنها مع ذلك لا تستطيع ان تتعدى
مرحلة الاحتقار والسباب الى العمل الفعال . انها تبرهن على حريتها ، وعلى عجزها عن الفعل فهى تقول لجوبتر
يوم عيد الموتى الذى فرضه على ارغوس :

« ... عيد سعيد ، هيا ، عيد سعيد ، ونتمنى ان يكون الاخير .

ليست لى القوة الكافية ولا استطيع ان اطرحك على الأرض ، استطيع ان أبصق عليك ، هذا كل ما
اقدر عليه » (٤٠)

عندما يقوم اورست بأداء « فعله » ، عندما يثار من قاتلى والده ، تظهر الكتر على حقيقتها فيتفجر حبها
لامها وترفض أن تقر بحدوث الجريمة ثم تعترف بأنها لم تكن تريد حقا « الفعل » بل كانت تكتفى بالاحلام :

الكتر : بلى ! لم اعد اعرف ! لقد حلمت بهذه الجريمة . ولكنك انت ارتكبتها يا جلاد امك » (٤١)

الكتر تستمر فى رفضها للواقع رغم تحقيق احلامها ذلك انها تعودت الحياة على مستوى آخر ، ألا وهو المستوى
الخيالى الذى ارتضته واختارته لنفسها وبكل حرية . ان الفعل الذى ينزعها من عالمها الخاص لينقلها الى الواقع
يفقدها اتزانها ، ويشعرها بعدم الألفة فتتهار وتفقد حريتها تتساءل فى أسى أمام أخيها :

(٣٨) نفس المصدر ص ٣٨

J.—P.SARTRE, L'IMAGINAIRE, P.325 (٣٩)

J.—P.SARTRE, LES MOUCHES, P.99 . (٤٠)

(٤١) نفس المصدر ص ١٧١ .

« ... أنا أشعر أنني حرة . هل تستطيع ان تجعل كل ما حدث كأنه لم يحدث ، ان أمرا قد حدث ، ولم نعد احرارا في تبديله - هل نستطيع ان نحمو عنا كوننا ، الى الابد قاتلى أمنا ؟ »^(٤٧)

بعد ان فقدت الكتر جناحيها لم يبق لها الا السقوط في شباك جويتر لتصبح فريسة الندم والاستغفار والخضوع وقد ولت عنها الحرية الى الابد . ان بطلتنا تنتمي الى نمط مأسوى من ابطال سارتر ، نمط يحاول تحقيق ذاته بالهرب الى دنيا الأوهام ولكن « فعل » اورست يجبرها على الخروج من ذلك الخيال الذى كانت تدور فيه ، فتفقد سيطرتها على نفسها وتسقط بانسة على ارض الواقع ...

ان الكتر نوع من الشخصيات التي ظهرت واصبحت اكثر تبلورا في اعمال كتبت بعد الذباب وتذكرنا ببطل مسرحيتى الشيطان والرب le diable et le bon dieu سجناء الطونا les sequestres D'ALTONA اللذين يحققان في آخر الروايتين تطورا جدليا قائما على انحلال كل القيم الاخلاقية .



ان مسرحية الذباب تمثل مرحلة في فكر سارتر وقد اختار الكاتب للتعبير عن تلك الفترة اسطورة اورست والكتر ، وذلك يدعونا الى ان نتساءل عن سبب اختيار الأسطورة لتوصيل الفكرة للجمهور وان نتدارس الاسلوب الذى تناول به تلك الأسطورة .

اتنا اذا تاملنا الاساطير بصفة عامة لوجدنا أنها نتاج الخيال والذكاء البشرى ، وانها تعبر الى حد بعيد عن مفهوم رمزى للكون .

لذا فهي تتطور تبعا للفعل والحضارة الانسانية . حتى في اثينا القديمة لم تبق الاسطورة في اطار جامد بل تغيرت تبعا للكتاب وللزمن ، ان كبار شعراء المسرح الاغريقي وهم اسخيلوس وسوفوكليس ويوربيدس قد نهلوا من الاساطير المدونة في ثيوجونيا THEOGONIE هزيبود وفي اشعار هوميروس واعادوا لها الرونق والشباب من خلال اعمالهم الجديدة . وفي فرنسا المعاصرة تطورت الاساطير الاغريقية تبعا لحضارتنا بدون ان تفقد الاسطورة روحها او معناها . فهي ما زالت تعبر عن مشاكل الانسان في علاقته الجذرية بالبشر والقوى الكونية .

ان المؤلف يحترم هيكل الاسطورة ويبقى على خطوطها الاساسية وله مطلق الحرية بعد ذلك في اضافة أو تبديل المواقف الثانوية .

فعدنا تناول اسخيلوس وسوفوكليس اسطورة اورست والكتر ، اضاف كل منها « خبرا كاذبا » وهو موت اورست - لتسيير الاحداث في المسرحية ، بينما اضاف يوربيدس خبرا آخر وهو تصنع الكتر الحمل والوضع من

(٤٧) نفس المصدر ص ١٦٣ .

زوجها الراعى وهو بدوره شخصية جديدة ابتدعها الشاعر وادخلها على الأسطورة . اما جان بول سارتر فقد اضاف بدوره شخصية المربى وظهر جوبيتر على المسرح حيث جعل له دورا مباشرا ، كما ابتدع حدثا جديدا وهو عيد الموتى .

ان التغيير في مواقف الاسطورة يتبعه حتما تبديل او اضافة في المضمون ، ان الاساطير التي كانت تتمتع بقدسية ومعنى دينى عند الاغريق ، صارت الان تنتمى الى عالم الفن والادب ، والعمل الاسطورى اصبح يتكون من موضوع تقليدى يضيف اليه المؤلف معانى جديدة . الاسطورة تشبه المرأة التي تعكس فكر الكاتب ، فاذا ما غاب ذلك الفكر بقيت خاوية واصبحت الاسطورة مبتورة ، ناقصة ، ذلك ان الهيكل التقليدى لا يكون سوى نصفها وهى لا تكتمل الا بالمعنى او التفسير الجديد .

يحدد الكاتب الفرنسي جان توماس نوعية المؤلفين الذين يفضلون الأساطير كموضوع لأعمالهم فيقوله في مقاله « الاساطير القديمة في المسرح الفرنسي » :

« نستطيع ان نتبين الفائدة التي يجنيها كتاب هم فلاسفة اكثر منهم فنانين - من الاساطير القديمة . فكلما تعود المرء على العيش مع الافكار المجردة صعب عليه ايجاد المواضيع اللازمة لمسرحياته من خلال تجربته الشخصية ويكون اكثر ميلا الى البحث عنهم في التراث الثقافي المشترك »^(٤٣)

في وقت بدأت فيه الوجودية الملحدة في التبلور ، اراد سارتر ان يعبر بواسطة اسطورة اورست عن معنى غريب على الفكر الاغريقي ، ألا وهو فكرة الثورة التى تتفجر في قلب انسان يعلم انه حر في عالم لا معقول ، ويريد ان يثبت حريته عن طريق « فعل » يختاره . ان المسرحية تثير كثيرا من المشاكل المعبرة عن تساؤلات سارتر مثل شرعيه العنف ، وعواقب الفعل ، والغاية والوسيلة ، وعلاقة الفرد بالجماعة ... كل ما يهم سارتر هو توصيل فكره الى الجمهور العريض وقد اختار المسرح وسيلة لذلك ، فكاتبنا يعبر عن فكره بثلاثة اساليب : المسرح وهو الاكثر انتشارا لانه يجمع بين التسلية والثقافة وتجسيد الفكرة ، والرواية والمقال او البحث الفلسفي البحث . لذا نجد ان مسرحية « الذباب » معاصرة « لسن الرشد » L'a ge de raison وهو الجزء الاول من روايته « الطرق الى الحرية » والوجود والعدم وقد ظهرت كلها في عامى ١٩٤٢ - ١٩٤٣ . وقد سار فيلسوف آخر على نفس درب سارتر فنجد ان البير كامى يعبر عن ذات الفكره في ثلاثة اشكال : المسرحية وهى « سوء التفاهم » LE MALENTENDU والرواية وهى الغريب L'ETRANGER والمقال الفلسفي « اسطورة سيزيف » Le mythe de Sysiphe .

Jean Thomas, Les Mythes antiques dans le theatre (٤٣)

Francais contemporain , in Lettres d,Humanite,t. ١١١ ,Paris,1944,P.156

ان سارتر لا يقدم لنا في مسرحه القائم على « الفكر » اشخاصا بالمعنى المسرحي المعروف ولكن اناسا في مواقف معينة وهم يتصرفون ويتطورون طبقا لتلك المواقف . ففي « الذباب » يعرض لنا المؤلف موقف انسان امام ميراث هو حر في قبوله أو تركه ، وهو فوق كل شيء حر بسبب ثقافته وبعده عن منشأه منذ طفولته المبكرة .

ولكنه امام تعاسة بلده يشعر ان هذا العالم الخاضع للخنايع حيث تسود التقاليد والرهبنة هو عالم بلا معنى ، لا معقول . لذلك فأورست يثور على جوبيتر ويعلن حريته ويبدأ في البحث عن معنى لوجوده ويجمده في « الفعل » الذي يخلصه من آثار الماضي ويتيح له حياة جديدة قائمة على الحرية والاختيار . ان اورست في الواقع لا يمثل سوى فكرة معينة هي فكرة الحرية - اثناء ولادتها في النفس البشرية وتطورها . لذا فالذباب تنتمي الى ما يطلق عليه Pièce a thèse أى المسرح القائم على عرض الفكرة ومناقشتها وإثباتها . لذا فان القيمة الدرامية لتلك المسرحية قابلة للمناقشة وهذا ما يعبر عنه رأى الناقد F.Jouan :

« لقد كان ينقص المسرحية الحركة الدرامية .. ، كان ينقصها على الاخص حرارة الحياة ... اكثر الشخصيات فردية هو بلا شك جوبيتر . ان الكثر وأورست يبقون مثل دُمى تحركها يدا المؤلف ، او اذا اردنا - مثل كائنات فلسفية اكثر من كونهم أبطالاً من لحم ودم . ان المسرح يثار من لا يقدم له سوى الافكار » (٤٤)

ان اختيار شخصيات اسطورية كأورست والكتر يرجع الى أن هذه الشخصيات أكبر بكثير من الواقع ؛ فهم ليسوا باناس واقعيين ، ولكن كائنات غير عادية ، او فوق العادة ، تتيح للمؤلف ان يستخدمها كرمز للانسان المجرد وان يناقش من خلالها القضايا الخاصة بالانسان وعلاقته بالوجود والقوى العظمى فيه كالأمة والقدر ، كما يتيح عرض ومناقشة الافكار المجردة كالحرية والالتزام .

ولكن الاسطورة في ذات الوقت تحد من خطورة الانزلاق في مسرح فلسفي بحت ، فهي نقطة التوازن بين الفكرة والخيال ، بل هي نقطة التقاء الفلسفة بالشاعرية ، لذا فهي الوسيلة لتحقيق المسرح المتكامل .

فاذا كانت الاسطورة « حلم يقظة » بالنسبة للبشرية جمعاء ، فهي ايضا خير وسيلة للتعبير عن الفكرة . ان ذلك يبدو متناقضا مع الاسم الاغريقي للاسطورة فكلمة Mythos مشتقة من الكذب ولكن ألا يتحدث جان كوكتو عن « حقيقه الكذب » ؟ ان الاسطورة مثلها كمثل الوجود حيث استحيل معرفة الحقيقة المطلقة ، فهي توحى لنا بفكرة ولكنها لا تقدمها على انها الحقيقة الوحيدة :

F.GOUAN, le RETOUR AU MYTHE GREC dans le theatre (٤٤)

Francais contemporain , in le Bulletin de L'Association

Guillaume Bude , N,1952 ,P.45

« الاسطورة .. هي اسلوب في التفكير يتلاعب بالواقع والحقيقة ، انها تفنى الواقع وتتخطاه ، وتقدم نفسها بلا تمييز كحقيقة ، او كشيء ممكن الحدوث ، أو كأمنية ، انها الرقص مع الحقيقة ... » (٤٥)

ان الاسطورة سؤال يبقى بلا جواب محدد ، اوهى تتبع اجابات عدة وتبقى دائما منتظرة لمتسائل جديد ولمفسر يستشف من ورائها معنى من معاني الوجود . ذلك الطابع « الإيحائي » كان يلائم سارتر في فترة لم تكن فلسفته قد تبلورت فيها بعد ولم يكن قد وجد همزة الوصل بين العمل الفردي والعمل الجماعي . لذا اتخذ فعله مظهر الشعوذة والسحر اللذين يدعيان القدرة على التأثير على الغير « عن بعد » .

« اورست يدعى تحرير اناس ارغوس باستعراض حريته الفردية امامهم : ان فعله يجب ان يفتح اعينهم . ظاهريا لا يبدو مثل ذلك الامل غير معقول ، ولكن يجب ان نتبين انه يقوم على مفهوم العدوى في لحظة الوعي : نحن اذا متوغلون في السحر على مستوى علم الاخلاق التقليدي القائم على المثل العليا ، والعدوى بالمثل » (٤٦)

الاسطورة بما لها من وجود خارق للطبيعة - اذ أنها تتناول قصصا لا بطل فوق مستوى البشر والآلهة وقوى عظمى كالقدر - تخلق من حولها اجواء اشبه بالسحر . لذلك اطلق جوييتير على نفسه في المشهد الاول من الفصل الاول لقب « ساحر الذباب » واخذ في نطق الكلمات السحرية : ابرا فزاس ، جالا ، جالا ، جالا ، تسي ، تسي » (٤٧)

ان نقل المواقف الى مستوى فوق الواقع يتيح لسارتر فرصة ادخال المشاهد الى عالم الالهة حيث يفهم سرها ، فعندها يقول جوييتير جملته السحرية :

« هو زيدون كاريبو كاريبون لولاى » (٤٨) وتتطلق الصخرة التي كانت تسد باب مغارة الموتى معلنة غضب كبير الالهة ، فان المشاهد يعلم ان جوييتير لم يفعل ذلك اعلاء لكلمة حق او انصافا لمظلوم بل ليحافظ على النظام القائم ، على الخوف ، والندم والاستسلام انه يعرف وجهة نظر الآلهة ذلك انه قد دخل في سرهم . والمسرحية تشبه في ذلك بعض الطقوس الوثنية حيث كان المتعب يدخل في اسرار إله كاروفيبوس مثلا . ولكن افشاء اسرار الآلهة عند سارتر له هدف عكسى ، فهو يريد ان يفهم المشاهد سوء نية الآلهة التي تدبر كل شيء لصالحها .

Pierre Albouy ,Mythes et MYTHOLOGIES DANS LA (٤٥)
LITTÉRATURE FRANCAISE, Edit. Armand Colin,1968,
P.63.

F. jeanson,Sartre,Edit. du Seuil,Coll . Ecrivains de,toujours (٤٦)
1955 p.21

Sartre ,Les Mouches,P.93 (٤٧)

(٤٨) نفس المصدر ص ١٢٨

ان اورست يدعى القدرة على « شفاء » اهل ارجوس بواسطة « فعله » ويبغي بذلك تخليصهم من الندم والخوف ، وهكذا يهدف « فعله » الى تطهير شعبه ، وسارتر يتبع في ذلك خطى ارسطو الذى اعلن في كتاب الشعر La Poetique ان تطهير النفس من آثامها Catharsis بالتأثير على المشاهدين هو احد اهداف المسرح . وما يذكر ان لفظ المأساة باللغة اليونانية Tragoedia مشتق من Tragos وتعني « الجدى » ، اذ أن في كل مسرح يوناني يوجد « مذبح » لتقديم القرابين ، وكان الجدى يقدم نداء ورمزا لتطهير سكان اثينا من كل شرورهم ، وقد امتدت فكرة المسرح « المطهر » للنفس البشرية في القرن السابع عشر وقد صارت قانونا من قوانين المأساة الكلاسيكية واتخذت في كتاب « فن الشعر » لبوالو Boileau مظهرا آخر : فهي تقوم على اشارة الخوف TERREUR لتوليد الشفقة في قلب المشاهد . وفي القرن العشرين قامت موجة فنية تدعو الى تطهير نفوس المشاهدين بواسطة « مسرح القسوة » ، ورائد تلك المدرسة هو انتونان ارتو Antonin Artaud ، وامتد تأثيرها على مدارس فنية اخرى فنجد ان هناك مسرحا يسمى « الحدث » Happening يقوم فقط على فكرة التطهير والمشاركة الوجدانية بين الممثل والمشاهد .

لذا فان فعل اورست لا يهدف فقط الى تطهير أهالي ارجوس وإيقاظهم من غفلتهم ، بل انها دعوة الى الشعب الفرنسي الواقع تحت تأثير الاحتلال النازي . فالمسرحية قدمت لأول مرة عام ١٩٤٣ وسارتر يستخدم وسائل عدة لايجاد القلق والرعب في قلب المشاهد وتخليصه من خوفه وخضوعه ، مثل المؤثرات الصوتية في المنظر الاول من الفصل الثاني حيث تدق الطبول الافريقية ^(٤٩) Tam Tam خالقة جوا اشبه بحفلات « الزار » ، فيشعر المشاهد بأنه مأخوذ مع الايقاع للمشاركة فيما يدور على المسرح ، ويضاف الى الطبول صوت التوسلات الصادر من جموع شعب أرجوس رجالا ونساء وأطفالا للتعبير عن خوفهم العظيم ، يزيد على ذلك مشهد المرأة التي تؤخذ عنوة الى التعذيب بأمر من جوبيتر. هذا الرعب ينتقل الى المشاهد بواسطة ما سمي في عالم المسرح « بالعدوى او المشاركة الوجدانية » Communication ed Conscience ، ويبلغ الرعب الذروة في الفصل الثالث ^(٥٠) عندما تظهر جنيات الانتقام الالهى Les Brinnyes على المسرح وهذا لم يكن يحدث عند الاغريق او في عصر المأساة الكلاسيكية في فرنسا ، فان وجود تلك الجنيات كان معنويا ولا يراها سوى مرتكب الجريمة نفسه ، اما في مسرحية الذباب فالمشاهد يرى كل شيء فلم تعد هناك مقدسات ، والجنيات تبدو بمظهرها البشع ، فهي آلهة لها شكل الكلاب تكلل رأسها الثعابين الحية ، وتحيط بالبطلين من كل جانب فيشعران بالحصار ، وهذا الحصار له ايضا مدلوله في دنيا المسرح ، ان البطلين محاصران وبالمشاركة الوجدانية يشعر المشاهد بأنه محاصر ايضا وانه يبحث عن مخرج وعن متنفس لذاته ويزيد من هلع المتفرج تلك الكلمات المخيفة التي تنطق بها

(٤٩) نفس المصدر ص ١٧١

(٥٠) نفس المصدر ص ١٦٥ الى ١٨٨ .

الجننيات وتنم عن سادية Sadisme فظيعة ثم يأتي نشيد الجننيات يصحبه نوع من الطنين يعود بنا الى ذكرى
الذباب وانتقام جوييتر :

« الجننيات (كورس) - بزوز، بزوز، بزوز، بزوز، بزوز ، سنقع على صدرك العفن كالذباب على قرص
الحلوى ، وكالنعيل ، سوف تمتص القيح والصدید من قلبك ونصنع منها عسلا ، سوف ترى ، عسلا جميلا
اخضر .

ای حب یفعمنا ، كالبغض ؟

بزوز ، بزوز ، بزوز

سنكون عيون البيوت الثابتة

وزنجرة الكلب الشرس الذى يكشر عن انياه لدى مرور

والطين الذى يحوم في السماء ، فوق رأسك واصوات الغابه ،

والصغير ، والطققة ، والنعيب والنعيق

سكون الليل ،

الليل الحالك في روحك

بزوز ، بزوز ، بزوز ، بزوز ، بزوز

هاياه ؟ ! هاياه ، ! هاياه !

بزوز ، بزوز ، بزوز

نحن الذبابات ، ماصات القيح

سوف نشاطرك كل شيء

سنأخذ طعامنا من فمك ، وشعاع النور من اعماق عينيك ،

وسنكون حاشيتك حتى القبر ،

ولن نترك مكاننا الا للود

بزوز ، بزوز ، بزوز ، بزوز ، بزوز » (٥١)

(٥١) نفس المصدر ص ١٦٢ - ١٦٨ .

كل ذلك الرعب ينقل الى المشاهد ، وكما رأينا في نشيد الجنيات ، فان سارتر يبغى التأثير على المتفرج بواسطة البصر والسمع ، فالمنظر بشع والأزيز تقشعر منه الابدان ، حتى كلمات الجنية تذكرنا باصوات الطبيعة المخيفة كالصفير ، والطققة في سكون ليل الغابة والنعيب والنعيق .

كل ذلك يهدف الى تخليص الفرنسيين انفسهم من عقدة الشعور بالذنب او الخطيئة بعد هزيمتهم في الحرب العالمية الثانية واحتلال النازي لارضهم ..

وكانت حكومة فيشي برئاسة بيتان Petain تدعو الفرنسيين الى إقرار الامر الواقع ومساءلة النفس والاعتراف بالذنب .

يذكر سارتر تلك الايام بمرارة بالغة في كتابة (مواقف) Situation ^{١١١} مما يتيح لنا معرفة مدى تأثير تلك الاحداث عليه ورد الفعل الذى خلفته في نفسه .

« في نفس اللحظة التي كنا فيها على وشك ان ندع انفسنا نهيا لتأنيب الضمير كان قوم فيشي - وهم يدفعوننا الى ذلك - يمنعوننا ايضا . ان الاحتلال لم يكن فقط ذلك الوجود الدائم للمنتصرين في مدتنا . لقد كان ايضا على كل المجردين ، في الصحف في تلك الصورة المقززة التي كانوا يريدون اعطاءها عن انفسنا .

وكان المتعاونون مع العدو يدعون اولاً الى حسن نيتنا قائلين « نحن مهزومون فلنظهر روحنا الرياضية » ثم يضيفون بعد ذلك مباشرة : « فلنعترف ان الفرنسي سطحي ، قليل التركيز ، متباه ، أناني لا يفهم شيئا من امور الدول الاجنبية ، وان الحرب قد فاجأت وطننا وهو في حالة تحلل تام . كانت هناك ملصقات فكاهية تتندر بأخر آمال لنا ... امام كل ذلك الانحطاط والخدع الوضيعة كنا نتجاسك وكنا نشعر برغبتنا في الفخر بانفسنا » (٥٢)

ان الكثر وهي ترفض لعبة الندم والاعترافات العلنية تمثل المقاومة الفرنسية ضد العدو النازي . وما يجدر بالذكر ان سارتر ليس اول من لجأ الى الاسطورة للتعبير عن احداث بلده ، فالكاتب بول كلوديل يسخر من الحرب عشية الحرب العالمية الاولى في مسرحية (بروتية) Protee اما جان جيروود فهو يعبر عن قلق أمته وقد توترت العلاقات في اوربا قبيل الحرب العالمية الثانية ، ففي الفصل الثاني من رواية « حرب طروادة لن تقع » la guerre de troie n'aura pas lieu يتنبأ بقرب القتال العالمى ويعرض مباحثات طرقي العداء . ان مسرحية جيروود تظهر قلق وحيرة الاوروبيين في وقت بدت فيه المفاوضات السلمية عقيمة . وفي مسرحية الكثر Electre يجنر جيروود من النزعة العدوانية والتطرف اللتين ستؤديان حتما الى القتال العالمى . اما جان أنوى فهو يعرض

J.—P. SARTRE, Paris sous L'occupation ,SITUATION (٥٢)
Gallimard,1949,P.96 .

علينا في روايته أنتيجون Antigone طرازا للفتيات الناثرات ، المقاومات للظلم ، تلك الفتاة التي تعرف كيف تقول « لا » لكل قوى باطشة ولكل سعادة مهينة وسهلة المنال .



ان سارتر لم يكن إذن أول من لجأ الى الاسطورة ليعبر عن الحاضر السياسي وقلقه وقد اتخذ بطله اورست رمزا للمقاتل الشجاع ضد ظلم وطغيان النازي قبيل منتصف القرن العشرين . وهذا يدعونا الى التحدث عن نوع من المغالطة التاريخية Anachronisme في مسرحية سارتر ، اذ انه يحافظ على المظهر الخارجي القديم للاشخاص والديكور ولكن ميول وافكار ابطاله تمثل القرن العشرين باتجاهاته الفكرية والعلمية المعاصرة ذلك ان مسرحية الذباب تحتوي على بعض التلميحات الى علم حديث هو التحليل النفسي فاضافة مفهوم نفساني الى الشخصية الاسطورية يتيح للمؤلف اعطاء صورة متكاملة للانسان :

« ان الاسطورة - كما يقول باشلار - تغطي كل مساحة النفس التي اكتشفها علم النفس الحديث ، والشخصية الاسطورية تتكون من فوق شعور وذات وعقل باطن . ان لها محور تساميهها وخط سقوطها الرأس في اعماق اللاشعور » (٥٣)

الاسطورة هي خط حياة وقدر مرسوم . انها تمثل تطور النفس وكل الصراعات الداخلية ، لذا فهي تصلح كموضوع درامي والمؤلف حينئذ لا يملك سوى ان ينهل من مادة خصبة أعدها له الاولون .

لذلك يستطرد باشلار في شرحه قائلا :

« الاسطورة دراما انسانية مركزة ، لذا فمن السهل ان تصلح رمزا لموقف درامي معاصر » (٥٤)



ان القرن العشرين وفلسفة الوجودية تعلن سيادة الانسان وسيطرته على مصيره ، فيصبح مفهوم « القدر » انساني الى ابعد حد ، بمعنى انه صار جزءا من الانسان ذاته نابعا من نفسه ، ولكنه مع ذلك يحد من حرية الانسان . فالقدر قوة متدفقة من اللاشعور ولا يمكن الصمود امامها . وتلك القوة مكونة من دوافع غريزية وميول ورغبات mobiles تتحدى الارادة البشرية ، علما بأن الارادة تعتمد على العقل فقط في قراراتها Motifs والانسان اذا لم تحركه الارادة ، اصبح عبدا لشهواته وفقد بذلك حريته . لان الحرية والارادة مرادقان في كثير من الفلسفات .

Gaston Bachelard, Preface du livre de Paul Diel (٥٣)
le Symbolisme de la Mythologie grecque, Petite Bibliothèque.
Payot, Paris, 1966, P. q

(٥٤) نفس المصدر ص ٦ .

والقدرة في مفهومه الحديث يمثل وجودا عدائيا للانسان . ذلك ان هيجل يعرفه بأنه « شعور الانسان بذاته كعدو » . وقد تناول فرويد تلك الفكرة فاكشف القوى اللاشعورية المسيطرة والمسيرة للانسان واطلق عليها اسماء مستمدة من الاساطير . فأطلق اسم « الكتر »^(٥٥) على العقدة الكامنة في حب الفتاة لابيهام ومقتها لاهما . وعلى الرغم من ان سارتر لا يقدم مسرحا يقوم على دراسه الشخصيات Caracteres فانه يلصق في الذباب الى تلك العقدة مشيرا الى ان الكتر ليست شخصية سوية :

« الكتر : كيف تجرؤ ان تتكلم عن آجائمنون ؟ هل تعرف انه كان لا ياتي الا في الليل ويسر كلاما في اذني ؟ هل تعرف كلمات الحب والخسة التي يمس بها صوته المنكر ؟ »^(٥٦)

تلك الحقيقة النفسانية تبرر سلوك بطله الذباب . فالكتر ترغب في الثأر وتطلب موت امها وعشيقها لا حبا في العدل او الحرية ، بل ارضاء لحاجة املاها عليها اضطرابها النفسي ولهذا السبب لم تحتل عواقب فعلة اورست . سارتر يشير ايضا الى دور الوراثة في تكوين الشخصية . ففي بعض الاحيان يبدو لنا انه يذكر فكرة اللعنة التي تصيب اسرة اخطأ احد افرادها خطأ فاحشا فتوارث ابناؤها اللعنة ، ذلك عندما يسب ايجست الكتر قائلا :

« انظروا اليها ، في ثوب البغي ، حفيذة أترية ، أترية الذي ذبح ابناؤه اخيه بنذالة . ماذا تكونين ، ان لم تكوني ثمرة ذلك العنصر اللعين ؟

لقد اشفقت عليك ، فاحتملتك في قصرى ، ولكننى ، اليوم اكتشفت خطأي ، اذ ان دم الاتريدين القديم النتن ، مازال يجري في عروقك ... »^(٥٧)

ولكن الكتر ترث^(٥٨) من امها اكثر من ابنيها ، لقد ورثت عنف الرغبات ذلك هو وجه الشبه الذي لاحظته اورست بين امه واخته :

« اورست : ماذا اقول ؟ ان وجهها كحقل خربته الصاعقة والبرد ، ولكن على وجهك مثل نذير العاصفة ، في يوم من الايام ستحرقه الرغبة حتى العظم »^(٥٩)

(٥٥) Sigmund Freud, AN outline of psychoanalysis edit.

W.W. NORTON Company, Inc., New York, 1949, P.99

(٥٦) Sartre, LES MOUCHES, P. 125

(٥٧) نفس المصدر ص ١٢٤ - ١٥٢ .

(٥٨) الطبيب المجري Lipot Szomdi اكتشف في عام ١٩٤٧ « لا شعور اسرى »

مكون من الصفات التي بقيت في حالة كانه Genes Recessifs (الجينات الكامنة) وهي على الرغم من ذلك الكمون تحد اختيارنا وعواطفنا .

(٥٩) Sartre, Les MOUCHES, p.107

وبعد ان اتم اورست فعله نظر الى أخته فرأى وجهها وقد أصبح « خربا » ، وراعه التحول السريع في الشبه بين الكثر وإمها . هكذا يستمد سارتر من علم النفس الحديث سمات بعض شخصياته . مبرهنا على ان الاسطورة صالحة لكل العصور ولجميع الحضارات .

ان عرض القضايا المعاصرة والاعتماد على العلوم الحديثة ليسا هما « المغالطة التاريخية » الوحيدة في المسرحية ، بل هناك ايضا اللغة . فالمرى يتحدث عن « الفنادق » الموجودة في عواصم اليونان و « ايطاليا » وغيرها من البلدان ، كما يعيب على اهل ارغوس خوفهم من الاغراب كأنهم لم يشاهدوا « سياحا » قط . ولكن تلك المغالطات التاريخية تختلف بوصف واقعي لبلدة يونانية قديمة ولثياب وعادات نساء الشرق . ان ما يسترعى الانتباه هي الكلمات الغليظة ، السوقية التي تنطق بها بعض الشخصيات . ان مثل تلك الالفاظ ليست بغريبة على المسرح الاغريقي .

ففي حاملات القرايين LES choephores لاسخيلوس تقول المربعة :

« ... الطفل الذى لم يخرج من لفائفه بعد ، لا يعرف كيف يعبر متى كان جوعانا او ظمأنا او راغبا في التبول ، وبطنه الصغيرة تريح نفسها تلقائيا ... »^(٦٠)

ولكن تلك اللغة الدارجة تنطق بها شخصيات سوقية وهى تنم عن حرص الشاعر الاغريقي على نوع من الواقعية في مسرحياته . بينما سارتر يضع مثل تلك اللغة على شفاه شخصيات من النبلاء والمتقنين كالمرى الذى ينعت نساء ارغوس بقوله :

« ياللعباتر النتنة ! أحسبن اننى أخذت بسحرهن ؟ »^(٦١)

جوبيتر نفسه يسب امرأة عجوز : « حسنا ، فاذهي ، ايتها القذرة العجوز ، واجتهدى ان تنفقى بالندم »^(٦٢)
أن تلك اللغة السوقية وذلك الاسلوب الماجن يعبران عن فقد الاسطورة لمعناها الدينى . ففى وقت أصبح فيه المسرح لادينيا يهتم المؤلف باعطاء الاسطورة طابعا حديثا بالقضاء على قدسيته القديمة .

ESCHYLES, LES CHOEPHORES, theatre complet, Garnier (٦٠)

Flammarion, 1964, P. 196 .

Sartre, LES MOUCHES, P. 82 (٦١)

(٦٢) نفس المصدر ص ٨٩

ومما يذكر ان المغالطة التاريخيه وذلك التلاعب بالاسطورة يخلفان ما يطلق عليه Berthold Brecht لفظ التباعد Distanciation وهو اسلوب يعتمد اخراج البطل الاسطوري من ثوبه الواقعي لاعطائه معان وتفسيرات جديدة . هكذا يصبح اورست رمزا للانسان في كل زمان ومكان ، انسان يسعى الى تحقيق ذاته واثبات وجوده في الكون .

وهكذا اعلن سارتر بمسرحية « الذهاب » نقطة تحول جذري في عالم التراجيديا فلم تعد المأساة قائمة على علاقة الانسان بالالهة والقدر بل اصبحت تعبر عن فكرة وجود وحرية البشر .

بعض المراجع :المسرحية موضوع الدراسة :

—Jean-Paul Sartre, **LES MOUCHES** GALLIMARD, 1943.

كتب أخرى لجان بول سارتر :

- L,IMAGINAIRE' PSYCHOLOGIE PHENOMENOLOGIQUE' coll. "Bibliothèque des Idées", Gallimard, 1940.
- L,ETRE ET LE NEANT' ESSAI ONTOLOGIQUE PHENO-MENOLOGIQUE' Coll. "Bibliothèque des Idées" Gallimard, 1943.
- L,AGE DE RAISON (Les Chemins de la liberté' t I), GALLIMARD, 1943.
- L,EXISTENTIALISME EST UN HUMANISME' Coll. „Pensées", Nagel, 1946.
- SITUATION III' Gallimard, 1948.
- SAINT GENET' COMEDIEN ET MARTYA' Gallimard, 1952.
- CRITIQUE DE LA RAISON DIALECTIQUE' Gallimard, 1960.

مقالات كتبها سارتر :

- “MISE AU POINT”, in ACTION' 29 décembre 1944.
- “MYTHE ET REALITE DU THEATRE”, in LE POINT No 7, 1977, Bruxelles.
- “JEAN-PAUL SARTRE REpond”, Entretien réalisé par Bernerd Pingaud, in L,ARC' No. 30, numéro spécial sur Sartre.

دراسات عن جان بول سارتر :

- Jeanson (Francis) : SARTRE' Ed. du Seuil, Coll. Ecrivains de toujours, 1955.
- Audry (Colette) : SARTRE' Ed. Seghers, coll. Philosophes de tous les temps, Paris, 1966.
- Verstracten (Pierre) : VIOLENCE ET ETHIQUE' N.R.F., Gallimard, 1972.
- IDT (Geneviève) : Le MUR DE JEAN-PAUL SARTRE' Edit. Larousse Université, Coll. Thèmes et textes, Paris, 1972.

مقالات عن جان بول سارتر :

- Merleau-Ponty (Maurice), „LES MOUCHES PAR JEAN-PAUL SARTRE", in CONFLUENCES XXV, septembre-octobre, 1943.

- GUYON (BERNARD) : "SARTRE ET LE MYTHE D'ORESTE", in **BULLETIN DE L'ASSOCIATION GUILLAUME BUDE** avril 1964.

كتب أخرى :

- Albouy (Pierre) : **MYTHES ET MYTHOLOGIES DANS LA LITTERATURE FRANÇAISE** EDIT. Armand Colin, Coll. U 29 Paris, 1968.
- Barrucand (Dominique) : **LA CATHARSIS DANS LE THEATRE** Edit. E.P.I., 1970.
- Brunel (Pierre) : **LE MYTHE D'ELECTRE** Edit Armand Colin, Coll. U 2 Paris, 1971.
- Diel (Paul) : **LE SYMBOLISME DE LA MYTHOLOGIE GRECQUE** Préface de Gaston Bachelard, Edit. PETITE Bibliothèque Payot, Paris, 1966.
- Eschyle, **LES CHOEPHORES** Théâtre complet, Edit Garnier Flammarion, 1964.
- Euripide, **ELECTRE** Théâtre Complet, Edit. GARNIER Flammarion, 1965.
- Freud (Sigmund) : **AN OUTLINE OF PSYCHOANALYSIS** Edit W.W. Norton & Company, New York, 1949.
- Politzer (Georges) : **LA PHILOSOPHIE ET LES MYTHES** Edit. Sociales, Paris, 1969.
- YOURCENAR (MARGUERITE) : **ELECTRE OU LA CHUTE DES MASQUES** Plon, Paris, 1954.

مقالات عن المسرح والاسطورة :

- Gide (André) : "CONSIDÉRATIONS SUR LA MYTHOLOGIE GRECQUE", in **LA NOUVELLE REVUE FRANÇAISE** 1 septembre, 1919.
- BROCHARD (Pierre) : „LE MYTHE OU LA TRAGED", in **LES CHAIERS DU SUD** No. 242 Février, 1942.
- Thomes (Jean) : "LES MYTHES ANTIQUES DANS LE THEATRE FRANÇAIS CONTEMPORAIN", in **LETTRES D'HUMANITE** tIII, Association Guillaume Budé, Société D'édition „Les Belles Lettres", Paris, 1944.
- Lodovicy (Edmond) : "LE MYTHE GREC DANS LE THEATRE FRANÇAIS CONTEMPORAIN", in **LA REVUE DES LANGUES VIVANTES** No. 50, Bruxelles.
- Jouah (F.) : **LE RETOUR AU MYTHE GREC DANS LE THEATRE FRANÇAIS CONTEMPORAIN**", in **BULLETIN DE L'ASSOCIATION GUILLAUME BUDE** troisième série, No. 2, Juin 1962.
- Flacelière (Robert) : "LA GRECE ANTIQUE ET LE POUVOIR DE L'HOMME", in **LES ANNALES** No. 159, Janvier 1964.

—Prévost (Claude) : "MARX ET LE MYTHE", in **LA MOUVELLE CRITIQUE** avril 1965.

—Trousson (Raymond) : "SERVITUDE DU CREATEUREN FACE DU MYTHE," in **CAHIERS DE L'ASSOCIATION INTERNATIONALES DES ETUDES FRANÇAISES**

No. 20, mai 1968.

شخصيات وآراء

رولان بارت R. Barthes رائد النقد
البنوي ، هو واحد من ألمع النقاد الجدد في فرنسا .
ولد في يايون عام ١٩١٥ ، وظل بها حتى بلغ العاشرة
من عمره . ثم انتقل الى باريس ، حيث أتم دراسته
الثانوية والجامعة . الا أنه اضطر الى قطعها عام
١٩٣٣ ، عندما أصيب بالسل . أسهم بارت في انشاء
« جماعة المسرح القديم » بالسوربون ، وقام
بتدريس الأدب في نهاية عام ١٩٤١ . وأصيب بنكسة
اعقبها فترة طويلة من العلاج انتهت عام ١٩٤٦ .
وعمل مدرسا في بوخارست فيما بين ١٩٤٨ و ١٩٤٩ ،
وفي الاسكندرية عام ١٩٥٠ . وجدير بالذكر أنه كان
أحد الذين ساهموا في انشاء قسم الادب الفرنسي
بكلية آداب جامعة الاسكندرية . كما انتدب للعمل
بإدارة العلاقات الثقافية فيما بين ١٩٥٠ و ١٩٥٢ .
وحصل على منحة من المركز القومي للبحوث
C.N.R.S ، لكي يقوم بأبحاث في علم المعاجم ،
والعلامات ، والرموز الاجتماعية . وفي عام ١٩٥٨ ،
قام برحلة الى الولايات المتحدة استغرقت عدة
شهور . ومن أهم الرحلات التي قام بها أيضا رحلة
الى الصين تركت فيه أعرق الأثر . وتوجت حياة
بارت الأدبية بدخوله « الكوليج دي فرانس » ، وهي
جامعة حرة يرجع تاريخها الى القرن السادس عشر .
وفي مارس ١٩٨٠ ، صدمته سيارة وهو سائر على
قدميه في أحد شوارع الحي اللاتيني ، وتوفي بعد
الحادث بثلاثة أيام عن ثلاثة وستين عاما .

رولان بارت
رائد النقد الجديد في فرنسا

سامية أشعد

يعد رولان بارت من أبرز نقاد عصره وأكثرهم
احساسا . وتدل مؤلفاته على فهم عميق لقضايا النقد

والأدب الذي لعب دورا هاما في تطويرهما . ولربما كان الوحيد بين النقاد المعاصرين الذي اعترف بمحاسن النقد القديم والجديد وعيوبهما على السواء . وكثيرا ما تميزت آراؤه بالصحة والعمق ، والسمة الشخصية المبتكرة .

إن كلمة « قاريء » تعد أفضل ما يلخص الوظائف التي قام بها بارت في إطار الطليعة الفكرية والأدبية منذ ما يقرب من ثلاثين عاما . ونحن نستخدمها هنا للدلالة على الشخص الذي يقرأ لحسابه الخاص ، والشخص الذي يقرأ بصوت عال أمام مستمع واحد أو عدة مستمعين . ونستخدمها أيضا بمعناها التكنيكي الحديث ، للدلالة على الأدوات التي تستخدم في نقل الأصوات ، كالاسطوانة وشريط التسجيل . وأثناء عملية النقل هذه ، ينتقل القاريء من مجموعة الى مجموعة أخرى من العلامات . فالقراءة تعيد تشكيل المادة المراد توصيلها . ويعني هذا أن القضية الأساسية ، بالنسبة لبارت ، كانت ، وظلت دائما قضية المعنى ، ومن خلال بحثه الدائب في هذا المجال ، يتضح أمران : أولهما أن من يقرأ بارت يشعر دائما بوجود ذلك الكاتب ، وجود يلمسه من خلال صور البحث المتتالية . والثاني أنه يجد ، في كتابات بارت ، انعكاسا للمناقشات النظرية التي تميز بها العصر : النقد الجديد ، الرواية الجديدة ، البنيوية ، علم العلامات *semiologie* الخ ...

ولعل القراءة أفضل منهج يمكن أن يتبعه الناقد في حديثه عن بارت ، لاعتبارات عدة ، أهمها بلا

شك : تنوع المؤلفات وتشعبها . مما يجعل الحديث عنها ككل متأسك متجانس ضربا من المستحيل ، ولا يتعارض هذا مع استمرارية الكاتب في البحث والتحليل . فضلا عن أن الدور الرائد الذي لعبه بارت مرتبط بالتجديد والابتكار ، سواء في الفكر أم في اللفظ . لذا ، يتعذر نقد بارت « الآن » ، لأن القاريء لا يعرفه معرفة جيدة فباستثناء « درجة الصفر في الكتابة » *Le Degre Zero* de L'écriture لم يترجم شيء له حتى الآن ، في حدود معلوماتنا على الأقل . ولعل إحدى العقبات الأساسية التي تعترض سبيل الترجمة هنا هو خلق بارت المستمر لمصطلحات والفاظ جديدة . لذا ، كان السبيل الوحيد الذي يمكن أن نسلكه هو التعريف بكتابات هذا الناقد الرائد ، حسب تسلسلها الزمني ، لبيان التطور الذي تتميز به .

وجدير بالملاحظة أن قراءة نصوص بارت كثيرا ما تكون صعبة نتيجة لوجود كثير من الالفاظ غير المعروفة أو غير المتوقعة فيها . وهذه ظاهرة خاصة ببارت ، وناتجة عن نزعتين : الابداع وتحريف المعنى . وفي كلتا الحالتين ، نلمس بوضوح حب الابداع والخلق الذي قال عنه بارت أنه ضروري : « التصور عنصر من العناصر المكونة للأسطورة . اذا أردت تفسير أسطورة ما ، اضطررت الى تسمية بعض المفاهيم التي أجد في القاموس بعضا منها : الطيبة ، الاحسان ، الصحة ، الانسانية ، الخ ... لكن هذه المفاهيم ليست تاريخية ، من حيث المبدأ ، ما دام القاموس هو الذي يقدمها لي . وما احتاج اليه ، في

أما الأسلوب ، فكلمة تدل على لغة تنفوس في أساطير المؤلف الشخصية الخافية . (٢) الأسلوب اذن ملك للكاتب ، لكنه لا ينتج عن تفكير في الأدب أو اختيار معين ، بل « يتصاعد من أعماق الكاتب الأسطورية ، وينتشر ويمتد » . (٤) وإذا نظرنا الى أصل الأسلوب ، وجدناه يحتل مكانا خارجا عن نطاق الفن ، أي عن العقد الذي يربط الكاتب بالمجتمع . نتيجة لذلك ، يوجد من الكتاب من يفضل « أمان الفن على عزلة الأسلوب » . ويسوق بارت اندريه جيد كمثال نموذجي للكاتب الذي يفتقر الى الأسلوب ولا يسعى اليه . بينما الشعر الحديث - على سبيل المثال ، هيجو ، ورمبوه Rimbaud ، ورينيه شار R.Char - متشبع بالأساليب .

بين اللغة والأسلوب ، يوجد مكان لواقع شكلي ، ألا وهو الكتابة . وأيا كان الشكل الأدبي الذي يختاره ، فإن الكاتب يستخدم لهجة ينفرد ويتميز بها . اللغة والأسلوب معطيات سابقة . أما الهوية الشكلية للكاتب ، فلا توجد الا عندما تصبح الكتابة علامة Signe كاملة ، واختيارا لسلوك انساني « يربط الشكل الطبيعي الفريد لكلام الكاتب بتاريخ الآخرين الواسع » . (٥) والكتابة ، كما أسلفنا ، فعل يعبر عن التضامن التاريخي ، لكنها تقيم أيضا علاقة بين الابداع الادبي والمجتمع .

أغلب الأحيان ، هو بعض المفاهيم الوقتية ، المرتبطة بظروف محددة : لا مناص اذن من الابتكار » . (١)



صدر أول كتاب لبارت عام ١٩٥٣ ، وكان عنوانه « درجة الصفر في الكتابة » . في هذا الكتاب ، يهتم المؤلف بالأدب والكتابة ، لا كمنتج ، وإنما كناقذ ومستهلك . ويرى أن عملية الكتابة والانتاج الأدبي توجد عند النقطة التي يلتقي عندها محوران : محور اللغة Langue ومحور الأسلوب Style . ويعرف اللغة بما يمكن أن نسميه اليوم قانونا أو قاعدة Norme . أما الأسلوب ، فيشير الى الكاتب ، بل الى « جسده وماضيه » . وذكرونا هذا بمقولة بوفون Buffon الشهيرة « الأسلوب هو الانسان » . بين اللغة والأسلوب ، هاتين القوتين اللتين لا تبصران ، يندس فن الكتابة . ومن ثم ، تصبح الكتابة مكانا للاختيار ، أو لحظة يمارس فيها الكاتب حريته ، أي فعلا يعبر عن « التضامن التاريخي » .

واللغة كما يقول بارت ، « أشبه بطبيعة تمر كلية عبر كلام الكاتب ، ولا تعطيه شكلا معينا » . (٢) وهي ملك للبشر ، لا للكاتب ، أي أنها مادة اجتماعية ، من حيث المبدأ .

(١) « أساطير » Mythologies ، ص ٢١٨ .

(٢) « درجة الصفر في الكتابة » ، ص ١٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٤ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٤ .

(٥) المرجع السابق ، ص ١٧ .

لكن ، ما هي الكتابة ؟ مجرد طرح هذا السؤال يذكرنا بنص هام سبق أن سباه ج . ب . سارتر J.P. Sartre « ما هو الأدب ؟ » يرى سارتر ان الكاتب معنى بالكتابة دائما ، مهما فعل ، ومهما كانت عزلته . وما يكتبه الانسان ملزم له . هذا ما يقوله أبطال سارتر . ويؤيدهم بارت بقوله أن الكتابة لا يمكن أن تكون ساذجة . ولطالما تحدث بارت عن الالتزام السياسي والتاريخي للغة الأدبية . يلتقي الكاتبان اذن في الهدف ، وان اختلفا في السبل المؤدية اليه . يقول سارتر ان الكاتب معني بالأمر لأنه يستخدم اللغة ، في حين يقول بارت أن اختيار الكاتب يظهر في الطريقة التي يستخدم بها اللغة ، أي في كتابته . وسوف نرى أن بارت أخذ عن سارتر مفهومه للالتزام ، وجعله أيضا على علاقة وثيقة بالكتابة .

يقول بارت أن الكتابة ، أساسا ، « اختيار للمساحة الاجتماعية التي يقرر الكاتب أن يضع فيها طبيعة كلامه Langage » . (٦) ولا يعني هذا أن الكاتب يختار المجموعة الاجتماعية التي يكتب لها . فالكتابة واقع يتضمن شيئا من اللبس . فهي تنشأ عن مواجهة الكاتب لمجتمعه ، من ناحية ، وتعيد الكاتب الى الأدوات التي كانت مصدرا لابتداعه من ناحية أخرى . واختيار الكاتب لنوع معين من الكتابة ، وتحمله مسئوليته دليل على حريته . لكن حدود هذه الحرية تختلف باختلاف اللحظات

التاريخية . وإذا نظرنا الى تاريخ الكتابة ، وجدنا أنه يتسم بالازدواجية : « ففي اللحظة التي يفرض فيها التاريخ العام اشكالية جديدة للغة الادبية ، تظل الكتابة مليئة بذكرى استخداماتها السابقة ، لأن الكلام لا يمكن أن يكون بريئا أبدا . ان للكلمات ذاكرة ثانية تمتد الى قلب المعاني الجديدة . والكتابة ، على وجد التحديد ، حل وسط بين الحرية والذكرى . » (٧) ويسوق بارت مثال ميريمة Merimee وفنلون Fenelon ، اللذين عاشا في زمنين مختلفين . ويرى أن كتابتهما واحدة ، أي أنها يرجعان الى مفهوم واحد للشكل والمضمون ، ويقبلان تقاليدا وأدوات فنية واحدة . بينما يستخدم كل من كامو Camus وكلوديل Claudel ، اللذين عاشا في زمن واحد ، كتابتين مختلفتين كل الاختلاف وان كانتا قابلتين للمقارنة ، لأنها نابعتان من مفهوم الكاتب لاستخدام الشكل استخداما اجتماعيا .

وأنواع الكتابة التي يتحدث عنها بارت في « درجة الصفر في الكتابة » ترتبط ارتباطا وثيقا بالتاريخ وتطوره . للكتابة تاريخ ، الا وهو تاريخ علاقتها بالتاريخ . لكل نظام كتابته ، وتاريخ هذه الكتابات لم يكتب بعد . ولا يهدف بارت الى كتابته ، بل الى ابراز فكرة الالتزام كما طرحها سارتر . فالكتابة شكل ملتزم من أشكال الكلمة . وهي تشتمل ، في نفس الوقت ، على « ظاهر السلطة وباطنها ، أي ما هي عليه وما تريد أن تكونه في نظر الآخرين . » (٨)

(٦) المرجع السابق ، ص ١٨ .

(٧) المرجع السابق ، ص ١٩ .

(٨) المرجع السابق ، ص ٢٦ .

ظهرت فيها الرأسمالية . كانت هذه الكتابة ، في البداية ، كتابة المقربين الى السلطة . ثم تطورت وأصبحت كتابة الذين يملكون جزءا من السلطة ، هي السلطة الثقافية . واستولى هؤلاء على السلطة السياسية منذ عام ١٧٨٩

عندما قامت الثورة الفرنسية ، لم يتغير شيء في الكتابة البورجوازية ، لأن الايديولوجية البورجوازية استمرت حتى عام ١٨٤٨ . لم تهتز هذه الايديولوجيا عندما مرت بها الثورة . فالثورة أعطت البورجوازية السلطة السياسية والاجتماعية ، ولم تعطها السلطة الثقافية التي كانت قد استولت عليها من مدة طويلة . « (١٠) ولما قامت الثورة الرومانسية احتفظت بالكتابة البورجوازية . ولم يشذ عن القاعدة سوى ف . هيجو الذي استطاع أن يمارس نوعا من الضغط على الكتابة الكلاسيكية - أي البورجوازية - ويقرّبها من مرحلة الانفجار .

وفي عام ١٨٥٠ ، التقت ثلاث وقائع تاريخية كبرى : التطور الذي طرأ على توزيع السكان في أوروبا ، ونشأة الرأسمالية الحديثة ، وانقسام المجتمع الفرنسي الى ثلاث طبقات متعادلة . هذه الوقائع الثلاث وضعت البورجوازية في موقف تاريخي جديد . لم تعد الايديولوجيا البورجوازية تتسم بالعالمية ، وأصبحت واحدة من الايديولوجيات الأخرى الممكنة . وتحول وعي الكاتب الى وعي شقي ، فأصبح الكاتب نفسه فريسة للغموض ، ما دام وعيه

تابع بارت تطور ارتباط التاريخ بالكتابة من القرن السابع عشر الكلاسيكي الى القرن العشرين . وقال أن الفن الكلاسيكي كان فنا شفافا يلتقي فيه فكر عالمي واداة زخرفية خالية من الأبعاد والمسئولية . وكان هذا الفن مغلقا من الناحية الاجتماعية . كان مادة متداولة بين أناس تجمعهم طبقة اجتماعية واحدة ، ومنتج ينقل شفاهة ، واستهلاك ينتظم وفقا للمتطلبات الاجتماعية آنذاك . وكان هذا الفن كلانا شفويا ، أساسا ، بالرغم من قوانينه الصارمة » . (١)

والكتابة ، في نظر بارت ، دليل على الانتماء الى طبقة معينة . واذا رجعنا الى العصر الكلاسيكي ، وجدنا أن كتابه ينتمون الى الطبقة البورجوازية التي تميزت آنذاك بوحدة أيديولوجية ادت الى ظهور كتابة واحدة . كانت هذه الكتابة اذن « طبقية » ، لأنها كانت ، منذ البداية ، لغة طبقة تمثل الاقلية صاحبة الامتيازات . كان الكاتب آنذاك وعيا لا يعرف التمركز ، وشاهدا عالميا بادر الى اختيار الالتزام بشكل خاص به . كان الوحيد الذي يبدي رأيه في شقاء الآخرين ، ولم يكن موزعا بين وضعه الاجتماعي ومهمته الثقافية ، لكن ، ما لبثت الكتابة الكلاسيكية ان انفجرت ، وأصبح الأدب في مجموعه - منذ تلك الفترة حتى اليوم - اشكالية خاصة بالكلام . ونلمس استمرارا في الكتابة البورجوازية في الفترتين السابقتين للثورة الفرنسية واللاحقة لها ، حتى اللحظة التي

(٩) المرجع السابق ، ص ٤٥ .

(١٠) المرجع السابق ، ص ٥٢ .

لا يطابق وعيه الاجتماعي مطابقة تامة . وأصبح وضع الادب مأساويا ، واستبدلت الكتابة الواحدة بكتابات متعددة . وبعد ان ظلت الكتابة الكلاسيكية كتابة متأسكة لعدة قرون ، حلت محلها الكتابات الحديثة المتعددة . وأرادت كل واحدة أن تكون الفعل الذي يقبل الكاتب بمقتضاه وضعه البرجوازي-أو ينكره .

في عام ١٨٥٠ أيضا ، بدأ الشك يشوب استخدام الكتابة ذاته . فاستبدلت طبقة من الكتاب « الحريصين على تحمل مسئولية التقاليد تحملا تاما قيمة استخدام الكتابة بقيمة أخرى ، هي العمل . هكذا أنقذت الكتابة ، بفضل العمل الذي تطلبه . وبدأت ترسم صورة أخرى للكاتب الصانع الذي يحبس نفسه في مكان أسطوري ، كما يحبس العامل نفسه في غرفته ، ويختار الشكل ويصقله . » (١١) ويذكر بارت ، من بين ممثلي هذه الكتابة الحرفية جوتييه Gautier ، وجيد Gide ، وفلوربير Flaubert صاحب « مدام بوفاري » بصفة خاصة .

أسس فلوربير هذا النوع من الكتابة الحرفية ، وجعل من الشكل هدفا لحرفة أو صنعة أشبه بصناعة الخزف وصياغة الجواهر . فكتاباتة تقول لقارئها : أنا شيء مصطنع . واذ تقول ذلك ، تحمل صاحبها مسئولية الشكل الذي اختاره . هكذا يعطي الكاتب للمجتمع فنا يراه الجميع من خلال قوانينه ، ومقابل هذا ، يستطيع المجتمع أن يقبل الكاتب .

هناك أيضا الكتابة الواقعية التي يمثلها موباسان Maupassant ، وزولا Zola . وهي ، حسب تعريف بارت لها ، مركب من علامات الأدب الشكلية وعلامات الواقعية الشكلية أيضا : « ما من كتابة أكثر اصطناعا من ذلك الأدب الذي يدعي تصوير الطبيعة عن قرب » . (١٢) والكتابة الواقعية بعيدة كل البعد عن الحياد . بل هي ، على عكس ذلك ، محملة بكل ما يشير الى صنعتها اشارة واضحة سافرة . وهي لا تقدر على الاقناع ، أبدا ، ومحكوم عليها بالتصوير فحسب .

واكبت الكتابة الحرفية والكتابة الواقعية الثورة الصناعية ونشأة الرأسمالية اللتين أوجدتا تعددا في الايديولوجيات جعل الادب يواجه قضية هامة هي تبرير وجوده ذاته . وتلك هي مأساة الكتابة والكاتب الحديث . فهو ، بحكم كتابته ، في موقف متناقض لا مخرج له : اما أن يتفق العمل الادبي مع التقاليد الخاصة بالشكل ، ولا يستمع الى الحاضر ، أو أن يعترف الكاتب الحاضر ، وجذته وابتكاره في هذه الحالة ، لا يجد أمامه سوى لغة رابعة ممتدة : « أمام الصفحة البيضاء ، في اللحظة التي يختار فيها الكلمات التي تعبر صراحة عن مكانه في التاريخ ، يلاحظ الكاتب تناقضا مأساويا بين ما يفعله وما يراه . فالطبيعة تتكلم أمام عينيه ، وتصنع لغات حية يستبعد هو منها . في حين يضع التاريخ بين يديه أداة زخرفية ، هي كتابة موروثه عن تاريخ سابق لم يسأل

(١١) المرجع السابق ، ص ٥٥ .

(١٢) المرجع السابق ، ص ٥٩ .

والزخرف ، لأنها قد يعيدان الزمان الى عالم الكتابة ، والزمان قوة تحمل التاريخ .

أما الكتابة الشفوية ، فظهرت مع بروسـت Proust الذي تخيل شخصيات رواياته ، أخذاً بعين الاعتبار كلامها ، والأشكال المتعددة التي يتخذها هذا الكلام . فبينما كانت شخصيات بلزاك Balzac تقتصر على علاقتها بالمجتمع ، نجد شخصيات بروسـت تتركز في لغة خاصة بها . وهذا المستوى هو الذي يحدد موقعها التاريخي : المهنة ، الطبقة ، الثروة ، الوراثة ، الخ ... في الوقت نفسه ، اتجهت الكتابة الى كلام البشر الحقيقي ، وأصبح الأدب عملية اعلامية متبصرة ، تستهدف التعبير مباشرة عن موقف البشر « المسجونين في لغة طبقتهم ، ومنطقتهم ، ومهنتهم ، ووراثتهم ، وتاريخهم » . (١٥)

وبعد بروسـت ، جاء كينوه Queneau الذي رسم الحدود الخاصة بكلام كل شخصية من شخصياته . وعودة الكتابة الى الكلام عبّرت ، في نهاية المطاف ، عن مضمون التناقض الاجتماعي . ويشير بارت الى أن جزءاً كبيراً من المؤلفات الادبية الحديثة يتخلله حلم بكلام طبيعي يحاكي الكلام الاجتماعي بكافة أنواعه .

ويتضح هذا الحلم في الشعر الحديث خاصة . فالشعراء المحدثون يفهمون الشعر ، لا على أنه ممارسة ذهنية ، او حالة نفسية ، وإنما حلم بلغة رائعة

عنه « (١٣) ويقترح بارت حلين اثنين لهذه القضية : أولهما الكتابة البيضاء ، وثانيهما الكتابة « الشفوية » ، اذا جاز التعبير .

الكتابة البيضاء كتابة « محايدة » ، تحررت من كافة ألوان العبودية ، كتابة « في درجة الصفر » قد يقال عنها أنها « صحفية » . « هذه الكتابة المحايدة الجديدة تقع وسط الآراء والاحكام ولا تشارك في أي منها . وهي توجد ، بالذات ، نتيجة لعدم وجودهم ... انها ، بالأحرى ، كتابة بريئة » (١٤) تتميز هذه الكتابة بشفافيتها التامة التي تترك للتفكير مسئوليته كاملة . مما يجعلها تتعارض تماماً مع الكتابة الثقافية او الذهنية . في الوقت نفسه ، تستبعد درجة الصفر في الكتابة هذا التاريخ باستبعادها للشكل ، وترفض كل القضايا التي يطرحها الكلام او المجتمع . أي أنها ترفض الخضوع لايديولوجيا معينة ، وبالتالي ، ترفض الالتزام ، بالمعنى العميق لهذه الكلمة . ويسوق بارت كمثال نموذجي لهذه الكتابة المحايدة البيضاء كتابة كامو L'Etranger ، تلك الرواية التي قرأها بارت وهو في المصححة وقدم عرضاً لها في إحدى المجلات الطلابية . ويلاحظ بارت أن هذه الكتابة تعود بنا الى الفن الكلاسيكي ، عندما كان هذا الاخير مجرد أداة . لكن الاداة الشكلية هذه المرة لا تستخدم ايديولوجيا منتصرة ، ولا تلجأ طواعية الى الأناقة

(١٣) المرجع السابق ، ص ٧٥ .

(١٤) المرجع السابق ، ص ٦٨ .

(١٥) المرجع السابق ، ص ٧٠ .

الجحيم ، المقدسات ، الطفولة ، الجنون ، المادة
الخالصة ، الخ ... » (١٨)

في « درجة الصفر في الكتابة » ترسم الملامح
الأولى لمنهج بارت . ويتضح الهدف الذي ظل يسعى
اليه في كل مؤلفاته ، ألا وهو البحث عن
الايديولوجيات خلف الاقنعة التي تتخفى وراءها
سواء تعلق الأمر بتاريخ الكتابة ، أم تعلق بالالتزام ،
والكتابة كدلالة للانتماء الى ايديولوجيا معينة .



وإذا فتحنا كتاب بارت الثاني « أساطير »
Mythologies (١٩٥٧) ، وجدناه مكونا من
جزئين : أحدهما تطبيقي ، والآخر نظري . يتكون
الجزء الاول من ٤٥ دراسة قصيرة حول موضوعات
الساعة ، كتبها بارت خلال فترته « الصحفية » التي
استمرت بضع سنوات . يقول المؤلف في المقدمة إن
هذه الدراسات « كتبت شهريا على مدى عامين
تقريبا ، من ١٩٥٤ الى ١٩٥٦ » . ويحدد بدقة
الهدف الذي تسعى اليه : « كانت نقطة بداية هذا
التفكير ، في أغلب الأحيان ، احساسا بالضيق ازاء
الطابع الطبيعي الذي يضيفه كل من الصحافة ،
والفن ، والرأي العام ، على الواقع . في حين أن هذا
الواقع الذي نعيشه تاريخي تماما . باختصار كنت
أتألم عندما أرى في كل لحظة ، الخلط بين الطبيعة

نضرة . لذا ، يرى بارت انه من الصعب ، بل من
العيب الحديث عن الكتابة او الأحاسيس
الشاعرية . ويعلق على ذلك بقوله : « عندما تجعل
لغة الشعر من الطبيعة مادة. للتساؤل ... ولا تلجأ الى
مضمون الحديث او تتوقف عند ايديولوجيا معينة ،
تندعم الكتابة ، ولا تبقى سوى الأساليب » . (١٩)

فالشعر الحديث يهدم تلقائيا طبيعة اللغة
الوظيفية . في هذا الشعر ، العلامات مجرد امتداد
للكلمة ، و « الكلمة الشعرية الحديثة فعل بلا ماض
مباشر » ، (٢٠) وكلمة تشتمل على كافة المعاني التي
يتحتم عليها اختيار احداها . ويلاحظ بارت أن هذه
الكلمة أصبحت تنتج وتستهلك بفضول خاص ، ونهم
غريب . والتعطش اليها جعل منها كلمة « لا انسانية
مخيفة » . فالشعر الحديث شعر خاص بالأشياء ، شعر
« تصبح الطبيعة فيه مجموعة غير متسقة من الأشياء
المنعزلة المخيفة ... ما من أحد يختار معنى أو
استخداما متميزا لهذه الأشياء ، ما من أحد يفرض
عليها تسلسلا معيناً ، ما من أحد يقصرها على سلوك
ذهني معين ... ان انفجار الكلمة الشاعرية يوجد
شيئا مطلقا ... وهذه الكلمات - الأشياء المزدانة بعنف
انفجارها وقوته ... تستعبد البشر وحديثها حديث
مليء بالرعب ، بمعنى أنه لا يقيم علاقة بين الانسان
وسائر البشر ، بل يقيم علاقة بين ذلك الانسان وما
تحتويه الطبيعة من صور لا انسانية : السماء ،

(١٦) المرجع السابق ، ص ٤٧ .

(١٧) المرجع السابق ، ص ٤٤ .

(١٨) المرجع السابق ، ص ٤٦ .

النص التطبيقي ، طريقة توجه القاريء وترشده . ويمثل هذا النص النظري مرحلة هامة في تطور بارت الفكري . صحيح أنه يصف أساطير اليوم ، لكن هذا لا يتعارض مع ما عمد إليه في « درجة الصفر في الكتابة » ، بل يكمله ، خاصة أن المؤلف اكتسب في الفترة التي تفصل بين الكتابين مزيدا من الخبرة في المجالين السياسي والنظري ، قبل أن يدخل مجال اللسانيات Linguistique نهائيا .

و « الأسطورة اليوم » نص يأتي في نهاية الكتاب ، ويشير الكاتب صراحة الى أنه كتبه بعد النصوص التطبيقية التي نشرت في شكل مقالات في مجلات مختلفة .

والسؤال الذي يفرض نفسه نتيجة لوضع الجزء التطبيقي قبل الجزء النظري هو: هل يمكن الفصل بين النصوص النظرية وسلسلة طويلة من القطع الوصفية ؟ أو ليس هذا الفصل يعتبر تجاهلا للعلاقة الوثيقة بين النظرية والتطبيق ؟ والرد هو أن هذا الترتيب يكشف عن مسيرة بارت الذهنية . فهو يبدو دائما وكأنه في معركة بين التطبيق وتنظيره . ونلمس هذا بوضوح في مؤلفاته التي تتميز بحركتها وتطورها الدائم المستمر ، كما أن مراكز اهتمامه تبدو متباينة الى أقصى حد ، ويبدو منهجه في تطور دائم مستمر .

قد تختلف النظرية أذن ، من كتاب لآخر ، لكن الهدف الذي يسعى اليه بارت يظل واحدا . هذا الهدف هو البديهيات الزائفة ، وكل ما يبدو

والتاريخ ، عند الحديث عن حاضرنا . كنت أريد أن أمسك ، في الغرض الزخرفي لكل البديهيات ، بالاستغلال الايديولوجي الذي يختبئ وراءها .^(١٩) وفي عام ١٩٧١ ، كتب يقول أن الهدف من دراسات « أساطير » ليس سياسيا ، بل هو أيديولوجي ، وأنها تستهدف ذلك الوحش الذي يسميه « البورجوازية الصغيرة » وإذا كان بارت يكتب عن الاساطير المعاصرة فلسبب موضوعي هو أن المجتمع الفرنسي المعاصر مجال مختار للدلالات الأسطورية . والمجتمع الذي يتحدث عنه هو المجتمع البورجوازي : « فرنسا كلها تسبح في هذه الايديولوجيات التي لا تسمى : الصحافة ، السينما ، المسرح ، الادب ، الاحتفالات ، العدالة ، الدبلوماسية ، الاحاديث ، الجو ، الجرائم التي ترتكب ، الزواج الذي يقابل بالتأثر ، الطعام الذي نحلم به ، الملابس التي نرتديها ... كل شيء في حياتنا اليومية يرجع الى تصور البورجوازية لعلاقة الانسان بالعالم ، نحن نعيش القوانين البورجوازية وكأنها قوانين بديهية لنظام طبيعي . وكلما نشرت الطبقة البورجوازية تصوراتها ، اتخذت تلك التصورات شكلا طبيعيا » .^(٢٠)

هذه النصوص الشهيرة القصيرة كانت في حاجة الى شيء آخر يتوجها . لذا ، كتب بارت الجزء المسمى « الأسطورة اليوم » ، وهو نص نظري يحاول أن يقدم فيه وصفا شاملا للأسطورة ، ويعتبر طريقة لقراءة

(١٩) « أساطير » ، ص ٧ .

(٢٠) المرجع السابق ، ص ٢٤٩ .

ثم أصبحت الأسطورة عملية « تضليل ، وشيئا عابثا ، مخادعا » ، وفي النهاية ، تحولت الى سنة أو « كود » Code . وإذا تركنا مجال المعاجم ، وجدنا بارت يستخدم في حديثه عن الاسطورة العبارات التالية : الاسطورة « كلام » ، و « رسالة » Message ، و « نظام للتواصل » ، الاسطورة « لا يمكن ان تكون شيئا أو تصورا ، أو فكرة ، بل هي شكل ومعنى » . (٢١) والأسطورة لا تعرف بمادة رسالتها ، وإنما بالطريقة التي تنقل بها هذه الرسالة . اذن ، كل شيء يمكن أن يكون أسطوريا ؟ يقول بارت : « نعم ، فيما أظن ... أي مادة في العالم يمكن أن تنتقل من الوجود المغلق الصامت الى حالة كلامية مفتوحة يمكن أن يمتلكها المجتمع . » (٢٢) وبما أن الكلمة الاسطورية رسالة ، فهي يمكن ان تكون شيئا آخر غير الكلام : الكتابات ، والصور ، والكلام المكتوب ، والتصوير ، والسينما ، والريورتاج الصحفي ، والاعلانات ، ... كل هذا يمكن أن يكون أساسا للكلمة الأسطورية .

الأسطورة ، في رأي بارت ، تنتمي الى علم العلامات Semiotique . وهو يعرفها من وجهة نظر ذلك العلم بقوله : « الأسطورة كلمة فقدت طابعها السياسي » (٢٣) . ولا بد من اعطاء كلمة سياسة هنا معناها العميق ، واعتبارها مجموعة من العلاقات الانسانية في بنيتها الحقيقية ، الاجتماعية .

« طبيعيا » . تلك أمور تخضع دائما للايديولوجيا السائدة . ومن ثم كان الاتهام الذي وجهه بارت الى نوع معين من النقد ، هو النقد الجامعي « البورجوازي » . ومهما اختلفت الاقنعة ، فان البدييات سالفة الذكر تعمل على افقاد التاريخ طابعه التاريخي، وتزعم الوصول الى العالمية . ويرتبط هذا السعي في حد ذاته ارتباطا وثيقا بالقمع الايديولوجي . اذن مطاردة البدييات الزائفة وتعقبها يمثلان استمرارية فكر بارت ورغبته في الكشف ، هنا وهناك ، عن الالتزام التاريخي بكل ما هو حديث ، سواء كان الكلام مادته الواضحة - كما هو الحال في الأدب - أم مادته الكامنة تحت شيء آخر كالزى ، والاعلان ، والصورة ، النسخ ... تقابل هذه الاستمرارية استمرارية مماثلة في الهجمات التي تعرض لها بارت ، خاصة تلك التي شنّها عليه ريمون بيكار R. Picard صاحب المدرسة التقليدية في النقد ، وج . مونان G. Mounin . والملاحظ أن بارت يتوقف من آن لآخر أثناء مسيرته التي تلتزم بالخط المستقيم لكي ينظر التطبيق ، ويقيم استراتيجيته ، ويصحح مسارها .

ما هي الأسطورة ؟ انها ، أولا ، ما يعرفها به القاموس : « تقليد يكشف عن واقع طبيعي ، أو تاريخي ، أو فلسفي ، من خلال المجاز أو الاستعارة » . وهذا هو معنى الأسطورة عند اليونان .

(٢١) المرجع السابق ، ص ٢١٥ .

(٢٢) المرجع السابق ، ص ٢١٦ .

(٢٣) المرجع السابق ، ص ٢٥٢ .

الأسطورة نظامان من العلامات : أحدها لغوي ، وهو الكلام الذي تستولي عليه الاسطورة لكي تبني نظامها الخاص ، والآخر هو الأسطورة ذاتها ويسميه بارت « ما وراء الكلام » Meta — Langage ، لأنه لغة ثانية يجري بها الحديث عن لغة أولى . لذا ، يُخضع علم العلامات الكتابة والصورة لنفس المعاملة . فهو ينظر الى كل منها على أنها علامة تصل الى الأسطورة وهي محملة بذات الوظيفة الدالة .

على مستوى اللغة ، يسمى بارت الدال « معنى » Sens ، وعلى مستوى الأسطورة يسميه « شكلا » . أما المدلول فيسميه « تصورا » Concept . والدال في الأسطورة شكل ومعنى ، في آن واحد . وعندما يصبح المعنى شكلا ، يتحول الى فراغ . ويوجد هنا ، حسب قول بارت ، « تراجع غير طبيعي من المعنى الى الشكل ، من العلامة اللغوية الى الدال الأسطوري » . (٢٦) ولا يعني هذا التحول أن الشكل يلغي المعنى . كل ما هنالك أنه يجعله فقيرا ، ويفقده قيمته . يظل المعنى حيا ، ومن حياته هذه يتغذى شكل الأسطورة . والانتقال المستمر من الشكل الى المعنى هو الذي يعرف الاسطورة .

أما التصور ، فيشتمل على معرفة معينة للواقع ، وإن كانت مشوشة أساسا . والتصوير يؤدي وظيفة تذكرنا بفرويد ومذهبه النفسي . وكما يمكن أن يكون

والأسطورة لا تتكرر الأشياء ، بل تتحدث عنها ، كل ما هنالك أنها توضحها ، وتنظم عالما خاليا من المتناقضات لأنه خال من العمق بالفعل ، يرجع جزء كبير من الأبحاث المعاصرة الى قضية الدلالة Signification . فالتحليل النفسي ، والبنوية ، وبعض المحاولات الجديدة التي قام بها باشلار Bachelard في مجال النقد ، لا تدرس الواقعة الا بالقدر الذي تدل به على شيء ما . والتسليم بدلالة معينة يعني الالتجاء الى علم العلامات . وجدير بالذكر أن « علم العلامات علم أشكال ، ما دام يدرس الدلالات بغض النظر عن مضمونها . » (٢٤) وينتهي بارت الى أن الأسطورة جزء من علم العلامات ، بوصفه علم شكلي ، والايديولوجيا ، بوصفها علم تاريخي .

يسلم علم العلامات بالعلاقة بين الدال Signifiant والمدلول Signifie ، ويكتسب وحدته وقاسمه على مستوى الاشكال ، لا المضامين . وبجمله الضيق لا يمتد الا الى الكلام . وهو لا يخضع الا لعملية واحدة : القراءة أو التفسير .

في الاسطورة ، نجد الدال والمدلول والعلامة Signe . لكن الاسطورة نظام Systeme خاص « يبني ابتداء من سلسلة من العلامات الموجودة سلفا ، أي أن العلامة في النظام الاول تصبح دالا في النظام الثاني ، وهلم جرا » . (٢٥) ويوجد في

(٢٤) المرجع السابق ، ص ٢١٨ .

(٢٥) المرجع السابق ، ص ٢٢١ .

(٢٦) المرجع السابق ، ص ٢٢٥ .

كالمحرر الصحفي الذي يبدأ من التصور ثم يبحث عن شكل له .

٢ - اذا نظرت الى الدال الملائن ، ميزت فيه الشكل بوضوح ، وبالتالي ، التغيير الذي طرأ عليه ، واستطعت أن أحلل دلالة الأسطورة ..

٣ - اذا نظرت الى الدال على أنه مجموعة مكونة من شكل ومعنى ، تلقيت معنى غامضاً . (٢٧) الطريقتان الاولى والثانية ثابتتان تحليليتان . كل منهما تهدم الأسطورة ، اما بابرارهدفها أو بالكشف عنها ، اما الطريقة الثالثة فدينامكية . وهي تجعل القارئ يعيش الاسطورة كما لو كانت حقيقة وغير حقيقية في آن واحد ، والانتقال من الايديولوجيا الى علم العلامات يحتم اعتماد الطريقة الثالثة ، لأن قارئ الاسطورة هو الذي يقع عليه عبء الكشف عن وظيفتها الأساسية . « فالاسطورة تقرأ على أنها مجموعة منتظمة من الوقائع ، بينما هي لا تعدو أن تكون مجموعة منتظمة من العلامات » . (٢٨)

ويصف بارت الأسطورة بأنها « لغة مسروقة » . فعندما يكون المعنى ملائناً ، تستولي الاسطورة عليه كله . هذا ما يحدث للغة الرياضيات مثلاً . فهي ، في حد ذاتها ، لغة غير قابلة للتغيير ، لغة اتخذت كافة الاحتياطات اللازمة ضد التفسير . لذا ، تستطيع الاسطورة أن تستولي عليها استيلاء تاماً . وذلك لأن الأسطورة قادرة على الوصول الى أي شيء ، قادرة

للمدلول الواحد أكثر من دال ، يحدد التصور الاسطوري أمامه عدداً غير محدد من الدالات . ويقابل فقر الشكل الكيفي ثراء التصور المفتوح على التاريخ كله . ويقابل كثرة الأشكال الكمية عدد صغير من التصورات وتكرار التصور في أشكال مختلفة يمكن القارئ من تفسير الاسطورة . ويؤكد هذا عدم وجود أية علاقة منتظمة بين حجم الدال وحجم المدلول . ففي الأسطورة ، يمكن أن يمتد التصور الى كمية كبيرة من الدالات . على سبيل المثال ، يمكن ان يكون كتاب بأكمله دالاً لتصوير واحد .

والأسطورة لا تخفي شيئاً ، وتتمثل وظيفتها في تغيير الشكل ، لا الغائه ، عند فرويد ، يغير المعنى الكامن للسلوك معناه الظاهر . كذلك في الاسطورة ، يغير التصور شكل المعنى ، لكنه لا يلغي المعنى ذاته . هكذا لا يوجد أي صراع بين الشكل والمعنى ، لأنها لا يوجدان في نفس النقطة أبداً .

قلنا إن الدال الاسطوري هو شكل ومعنى . وحسب التركيز على الأول أو الثاني أو الاثنين معاً نجد أنواعاً ثلاثة من القراءة يقول عنها بارت :

١ - اذا نظرت الى الدال الخالي (من المعنى) تركت التصور يلاً شكل الاسطورة ، بلا لبس أو غموض ، ووجدت نفسي أمام نظام بسيط ، تصبح فيه الدلالة حرفية . هذه الطريقة هي ، على سبيل المثال ، الطريقة التي يتبعها منتجو الاساطير ،

(٢٧) المرجع السابق ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٢٨) المرجع السابق ، ص ٢٣٩ .

ليجعل من تلك البلاغة شكلا لنظام جديد . أما الدلالة النهائية ، فهي الرواية ذاتها . وبسببه بارت العملية التي قام بها فلوبيير هنا بترسيم الأنوار . واستطاع فلوبيير أن « يوجد لفظة الواقعة مخرجا صريحا ، من وجهة نظر علم الدلالات Semantique . فلقد تجنب ، على الأقل ، الخطأ الأكبر الذي قع فيه المستغلون بالادب ، ألا وهو الخلط بين الواقع الايديولوجي والواقع العلامي » (٢٠) . من الناحية الايديولوجية ، لا تتوقف واقعية الأدب على اللغة التي يتحدث بها الكاتب فقط ، فاللغة تشكل ، وكل ما يمكن أن تكونه هو أن تكون أسطورية أم لا ، كما هو الحال في « بوفار وبيكوشيه » . ازاء هذا الوضع ، يضطر النقد الى استخدام منهجين مختلفين : اما أن يعالج واقعية الكاتب على أنها مادة أيديولوجية ، أو أن يعالجها على أنها مادة علامية . وقد يتمثل الحل الأمثل في تضافر المنهجين معا ، وعدم الخلط بينهما ، لأن منهج الايديولوجيا مختلف عن منهج علم العلامات .

قال بارت ، عندما عرّف الاسطورة ، أنها كانت أولا مجازا أو استعارة ، ثم أصبحت عملية تضليل وخداع ، وأخيرا سنة . وإذا رجعنا الى النصوص التطبيقية في « أساطير » لمسنا تطور الاسطورة وفقا لهذا المفهوم .

تمتد « الأسطورة - الاستعارة » أولا الى ما يسميه بارت « عالم الآلهة » ، ذلك العالم الذي يؤمه

على افساد أي شيء . ولغة الشعر لغة أخرى تقاوم الاسطورة بقدر الامكان . على سبيل المثال ، يحاول الشعر المعاصر جاهدا أن يحوّل العلامة الى معنى . ولرما كان هدفه الأمل هو الوصول ، لا الى معنى العلامات ، وإنما الى معنى الأساء ذاته . نحاول لغة الشعر أن تستحضر طاقة المدلول . ومن هنا ، كان افتتاح الشعر الحديث بأنه وحده ولمّ بالأسباء ذاتها . لذا ، « يؤكد .. ذاته دائما على أنه عملية فعل للغة ... ومقاومة الشعر هي التي تجعل منه فرصة سهلة للأسطورة : تأسر الاسطورة فوضى العلامات الظاهرية ، وتحولها الى دال خال ستخدمه للدلالة على الشعر . » (٢٩)

ويتساءل بارت : ما داء الأمر كذلك ، ألا يوجد سلاح يمكن اسخدامه ضد الأسطورة ؟ ويرد قائلا : « أجل ، وأفضل سلاح هو انتاج الاساطير الصناعية . يكفي أن نجعل من الأسطورة ذاتها نقطة انطلاق نحو سلسلة أخرى من العلامات ، أي أن نجعل من دلالاتها بداية لأسطورة نانية . ويقدم لنا الأدب أمثلة لهذه الاساطير المصطنعة . ويذكر بارت من بينها رواية ج . فلوبيير « بوفار وبيكوشيه » - Bouvard et Pecuchet . يملّ بطلا هذه الرواية بوجوازية معبنة . ويمكن اعبار حديدها حديدا أسطوريا . ومن التفاء التصور والمعنى ، في هذا الحديث الاسطوري - وهو بمثابة نظام أول - تتكون دلالة ثانية هي بلاغة البطلين . هنا ، بتدخل فلوبيير

(٢٩) المرجع السابق ، ص ٢٤٢ .

(٣٠) المرجع السابق ، ص ٢٤٥ .

المصارعون ، والممثلون ، ونجوم السينما ، والادباء ، الخ ... وعملية التأليه التي تقوم بها الأسطورة هي ما يلفت النظر لأول وهلة . ومن المعروف ان الاسطورة تشتمل ضمنا على الاستعارة والرمز . فيما يتعلق بالمصارعة الحرة ، مثلا ، القضية هي تعارض الخير والشر . وفيما يتعلق بالممثل ، القضية ، هي نوع من التحييد . فالممثل معروف على المسرح ، او الشاشة . وهو يقوم بدور أو أدوار محددة . لكن الصورة الفوتوغرافية تقدمه في صورة زائفة ، يفقد فيها صوته ، ودوره ، ويصبح صامتا غامضا . هكذا تقلب الصورة الاوضاع . فهي لا تقدم الممثل كبطل ، من خلال الادوار التي يقوم بها ، وانما من خلال حياته الخيالية التي تعبر عنها الصورة .

وتظهر « الاسطورة - الاستعارة » من خلال بعض العلامات . الا أن هذه العلامات تفتقر أحيانا الى الصراحة والوضوح . ويسوق بارت مثالا لذلك فيلم منكيفتش « يوليوس قيصر » ، حيث يعرف الرومان من خلال قصة شعرهم التي تغطي الجبين ، وعرقهم (باستثناء يوليوس قيصر) . والعرق هنا علامة : الكل يعرق لأن الكل يناقش شيئا ما بداخله . تأثر الشعب بموت قيصر والادلة التي ساقها انطونيوس ، وعرق الشعب هي علامة لمدى انفعاله وعجزه في آن واحد .

ففي مجال الملائكة يتحول كل شيء الى علامة . اذا شاهدنا مباراة في الملائكة ، استطعنا أن نتساءل عما اذا كانت الضربات تؤلم المتلاكمين أم لا . واستطعنا أيضا أن نتساءل عما يفكر فيه الملائكة ،

وردد فعله ، ونواياه . اما في مجال المصارعة الحرة فلا نجد شيئا كهذا ، لأن المصارعة الحرة ليست رياضة ، وانما عرض يظهر فيه كل شيء ، كما هو الحال في المسرح الاغريقي او البانتوميم . فالمصارع الحر يفرض علينا قراءة معينة ، من خلال مظهره : فهو يلبس قناعا يلتصق بوجهه ، ويجرد ظهوره يعلن عن الطريقة التي سيتم بها لقاءه مع الخصم . وكل شيء مما يجري بعد ذلك يؤكد ما سبق ان أعلن عنه ذلك القناع : الحركات ، التعبير عن الحقد أو الألم ، الخ .. ولا بد من المبالغة ، بطبيعة الحال ، لكي تتحول الحركات الى علامات . تلك هي ، مثلا ، ركلة القدم التي ينتقم بها المصارع من زميله المهزوم المطروح أرضا . وهذا هو الغرض من الضربة المفاجئة التي تسدد أثناء التوقف ، ضربة لا يراها الحكم ، وانما جعلت لكي يراها الجمهور . ولا بد من أن يراها الجمهور لكي تبلغ غايتها . مما يؤكد أن الملائكة رياضة ، بينما المصارعة الحرة عرض في المقام الاول .

والكاتب شأنه شأن الممثل والمصارع . فهو أيضا آلة . ويتحدث بارت عن الطريقة التي يقضي بها اجازته فحسب . فهو يأخذ اجازة كالعامل ، والموظف ، وغيرها . لكنه يختلف عنها ، لأنه يعد دائما كتابا جديدا أثناء الاجازة : فهو يقرأ بروفات ، ويدون ملاحظات ، ويقرأ كتباً . ومن ثم ، يأخذ اجازة تختلف عن اجازات سائر البشر .

قلنا ان بعض العلامات قد تفتقر الى الصراحة والوضوح ، لكن هذا لا يخفي وظيفتها عن

ونجد موقفا مماثلا في العلاقة بين القذارة والمنظفات الحديثة ، وهي علاقة قد تبدو مادية بحتة لأول وهلة . عندما تتدخل الاعلانات بين المنظفات ، وإدراك المرء لها ، تعطي رؤية مختلفة كل الاختلاف عن هذه العلاقة . « أومو » Omo و « برسيل » Persil مثلا يهاجمان القذارة من زوايا مختلفة ، بأسلحة مختلفة . كلاهما « يغسل أكثر بياضا » ، بطريقة مختلفة لكن المنتجين لا يتنافسان حقا في الواقع . بل انهما بالأحرى حليفان في معركة واحدة : من أجل النظافة ، على كافة المستويات ، ما دامت تنتجها شركة واحدة . ومهمة الاعلان هنا هي إعادة توجيه رؤية المستهلك لوظيفة المنظفات ، وحجب القضية الحقيقية ، ألا وهي : تشجيع البيع .

و « الأسطورة - الكاذبة » على علاقة أيضا برؤية اجتماعية معينة . قد يتظاهر الناقد بعدم فهمه لبعض المؤلفات لأن هذه المؤلفات تدل على عبث النقد وعدم جدواه . واذ يفعل ، يدافع عن نظام معين تعبر عنه الأسطورة . والكذب دائما حقيقة ، على مستوى أعلى أو مستوى آخر ، بشرط أن تكون هذه الحقيقة قابلة للتفسير ، أي بشرط أن تنتمي الأسطورة الى سنة معينة . وهنا تنتقل الى المرحلة الثالثة ، أو الوجه الاخير الذي تتخذه الأسطورة عند بارت .

ويمكن الحديثة عن « الأسطورة - السنة » لأن بارت يبدأ بتكديس قطع وصفية مستقلة لا يربط بينها ، في البداية ، الا تناوئها لموضوعات الساعة ، ويتكون منها « المعنى » شيئا فشيئا . يقول بارت في

المستهلك . فاذا كانت قصة الشعر في فيلم « يوليوس قيصر » سالف الذكر لا تفني بالغرض ، أي لا تقول في كل لحظة : « انا قصة شعر رومانية » فمعنى هذا أن مصفف الشعر ، ومصمم الديكور قد فشلوا في مهمتهما ، بل ان الفيلم كله قد فشل . والعلامة هنا قناع بالمعنى الذي كان يعطي هذه الكلمة في المأساة الاغريقية . أي انه لا يخفي شيئا ، بل على عكس ذلك يساعد على ابراز ذلك الشيء .

وسرعان ما تحولت « الأسطورة - الاستعارة » الى « أسطورة كاذبة » . نلمس هذا التحول ، وان كان كامنا ، في مقال « الكاتب في اجازة ، الذي سبقت الاشارة اليه . تندس الأسطورة بين الواقع وإدراكنا له ، كما أسلفنا : هذا هو وضع الجريدة بين الحدث والقارىء ، والاعلان بين المنتج والشاري ، والناقد بين العمل الادبي او الفني والمتلقي . هذا التدخل هو موضع الكذب ، أو « الالتواء الايديولوجي » كما يسميه بارت . ولا ينبغي ان تؤخذ كلمة كذب هنا بمعناها المطلق ، بل على أنها مخالفة للحقيقة . الناقد ، مثلا ، قد يصاب بالعمى ، ولا يفهم كتابا فلسفيا شهيرا . لا غرابة في ذلك . لكن الغريب هو أن يعترف بأنه لا يفهم شيئا . ولو أنه فعل ، لتلاشت أسطورة الناقد العالم بكل شيء ، وحلت محلها صورة انسان عاجز يعترف بعجزه . لكن ... هذا الاعتراف في حد ذاته تضليل وخداع . لأن الناقد لا يقول ما يراه ، ولا يرى ما يقوله . ففي كل مرة يقول فيها : « لا أفهم شيئا » ، يعني بقوله هذا شيئا آخر : « لا يوجد شيء يستوجب الفهم » .

مقدمة « أساطير » : « الأشياء المتكررة تعني شيئا ما » ، لا مرة واحدة ، بل مرتين ، لأنها تتكرر على مستويين مختلفين : أولا ، مستوى الشيء الموصوف ، أي مستوى المجتمع ، وثانيا مستوى من يصف ذلك الشيء .

هناك أيضا علاقة بين الاسطورة وخالقها . فالأسطورة يرسلها شخص ما ، ويتلقاها آخر . وقراءة الاسطورة تدل على المتلقي ، بينما يدل بناء الأسطورة على مرسلها . وهذا هو ، أصلا ، مفهوم بارت للسنة .

وتتأسك الاساطير منذ اللحظة التي يستخلص فيها الهدف الذي تسعى اليه ، وهو البورجوازية الصغيرة . ونلاحظ انها غير موجودة في النصوص الاولى من الكتاب ، لكن سرعان ما تطل برأسها في بداية كل نص من النصوص الاخرى تقريبا . واهتمام بارت بالبورجوازية الصغيرة ، أو البورجوازية فقط ، هو اهتمام « احصائي » ، بمعنى أن مرسل الاساطير ينتمون الى هذه الطبقة ، من وجهة نظره ، وأن هذه الطبقة هي أيضا العدو الذي يسلم بالبدييات . ولقد حدد بارت في بداية كتابه الهدف الذي يرمي اليه وهو « العلامة العامة للعالم البورجوازي » . والمهم هنا ، لمن يتتبع فكر بارت ، هو نشأة السنة عن البناء ، أي الانتقال تدريجيا من علم الاساطير الى علم العلامات . فكل مقال وصفي يسهم في البناء الكلي . مثلا ، وراء سباق الدراجات السنوي في فرنسا ، نجد التناقض بين المثالية والواقعية . ومن مجموعة

الاساطير تتكون ، شيئا فشيئا ، عناصر علم العلامات الخاصة بالبورجوازية .



وكتاب بارت « عن راسين » Sur Racine (١٩٦٣) يعتبر من أهم مؤلفاته . يتلخص منهج هذا الكتاب في الآتي : « على الناقد أن يضع نفسه في عالم راسين المأساوي ، ثم يحاول أن يصف مكانه . » (٣١) هذا ويسعى بارت فيه الى نوع من الانتروبولوجيا البنيوية والتحليلية في آن واحد ، انثروبولوجيا بنيوية من حيث المضمون ، لأن المأساة تعالج هنا على أنها مجموعة منتظمة من الوحدات والوظائف ، وتحليلية من حيث الشكل ، لأن التحليل النفسي ، فيما يبدو ، هو اللغة الوحيدة التي تبدي استعدادا لتلقي خوف العالم . » (٣٢) وهكذا يتفق بحث بارت مع تقاليد المدرستين التحليلية والبنيوية ويرسم لراسين صورة متكاملة متعددة الوجوه والأبعاد . يقول بارت في بادئ الأمر : « يكاد يكون من المستحيل مسّ الابداع الادبي بدون التسليم بوجود علاقة ما بين العمل الادبي وشيء آخر سواء ، ولطالما رأى الناس ان هذه العلاقة سببية . العمل منتج Produit . لكن ، شيئا فشيئا ، حلت محل هذه الفكرة فكرة العلامة . قد يكون العمل علامة لشيء كامن وراءه ، ومن ثم ، يعمل النقد على جلاء المعنى والكشف عن مداه ، خاصة مداه

(٣١) « عن راسين » ص ٩ .

(٣٢) المرجع السابق ص ٩ .

الشخصيات ، يلجأ الى الاسطورة البدائية : الأب الذي يحكم العشيرة ، ويملك كل النساء ويسعى أبناؤه الى خلعه ليتنازعوا أشلاء مملكته . في مثل هذا السياق ، نفهم لماذا جعل راسين من الحب الحرام حب الأب لأبنته ، أو الأم لابنها أو العكس - وقتل الأب ، وتآمر الأبناء عقدة أساسية لمسرحياته . والأسطورة هي التي تمنح عالم راسين - من خلال عقدة المسرحيات - تماسكه النهائي . يحكم هذا العالم نوعان من الحب . الاول حب يرجع الى أمد بعيد ، فيما يبدو ، أو على الأقل الى الصغر ، وهو حب منحه الوقت صفة شرعية ، ووافق عليه الآباء . والثاني حب مباشر قائم على الرؤية . مثال ذلك حب فيدرا لهيبوليت ، ونبرون لجونيه . وفي رأي بارت ان هذا الحب الأخير هو الحب الحقيقي ، وهو الذي يتبلور في شكل مأساة . وتند جذور الحب - الرؤية الى النزعة الجنسية العميقة التي تسود مسرحيات راسين ، تلك المسرحيات المتأرجحة بين القوة والضعف ، والذكر والأنثى . لكل شخصية وجودها الجنسي ، وموقفها من النزاع المأساوي هو الذي يحدد الجنس الذي تنتمي اليه . وينشأ الاضطراب بمناسبة هذا النزاع ، ويعبر عنه اهمال الملابس أو تغيير ملامح الوجه أو احمراره ، كما يعبر عنه الكلام أو الصمت ، والهرب من الكلام ، كما يقول بارت ، هوهرب من المأساة .

الخفي» (٣٣) . وتعوق سبيل هذا النوع من النقد عقبات خاصة به : « في الواقع ، معرفة الذات العميقة أمر وهمي ، ولا توجد سوى طرق مختلفة للكلام . ورأسين يتيح الفرصة لألوان عدة من الكلام ، منها التحليلي ، والوجودي ، والمأساوي ، والسيكولوجي ... واعترفنا بالعجز عن قول الحق عن راسين هو بالذات اعتراف منا بحالة الادب الخاصة . » (٣٤) وبارت معجب ، بطريقة ما ، بكل ما كتبه النقاد الجدد عن راسين ، الا أنه يوضح الآتي : « اذا أردنا التأريخ للأدب ، تنازلنا حتماً عن راسين الفرد ، وانتقلنا طواعية الى مستوى التكنيك ، والقواعد ، والطقوس ، والعقليات الجماعية » . (٣٥)

وعندما يحلل بارت عالم راسين تحليلاً بنيوياً ، يبدأ بهذا العالم نفسه ، دون أن يستند الى نظم قائمة سلفاً . والنظم هنا كامنة داخل العمل نفسه ، وتتبع منه ، وتنتج عن الاتصال به .

يرى بارت ثلاثة أماكن مأساوية في مسرح راسين : الغرفة ، حيث السلطة أو جوهرها ، والسر أو الصمت الكامل ، والمدخل ، حيث ينتظر الناس عند الباب ، وتصبح اللغة قوية قديرة ، والخارج الذي يحد من مدى المأساة . ويتخذ كل من الموت ، والهرب والحدث ، من المكان الأخير مقراً له . لكن حوادث المأساة ذاتها تقع في مكان مغلق ، وبطل المأساة « سجين » . وعندما يتحدث بارت عن

(٣٣) المرجع السابق ص ١٥٧ .

(٣٤) المرجع السابق ص ١٦٦ .

(٣٥) المرجع السابق ص ١٦٧ .

يفحص بارت بعد ذلك ما يسميه « موقف العشق » ، مبينا أن الحب عند راسين يعبر عن نفسه من خلال السرد . على سبيل المثال ، عندما تذكر الشخصية أول لقاء استيقظ فيه الحب ، تذكره وكأنه مشهد حقيقي . ويشبه بارت مسرحيات راسين باللوحات ، مبينا أن الصراع بين الظلمة والنور هو الصراع الغالب عليها .

ويرتبط الحب الراسيني بجوهر أهم منه : « العلاقة الأساسية علاقة سلطة ، ولا يستخدم الحب الا للكشف عنها » . (٣٦) لا يعد الحب اذن أساسا لمسرح راسين . أن موضوعه الحقيقي هو تدخل القوة في موقف غرامسي عادي . ويقوم هذا المسرح على العنف ، مما يقربه من المسرح اليوناني القديم والمسرح الاليساباتي . والعلاقة بين الرجل والمرأة عند راسين هي علاقة جلال بضحيته . لذا ، يلعب العدوان فيه دورا هاما : « يرتبط كل من الضحية والطاغية بالآخر ، ويعيش من أجل الآخر ، ويستمد كينونته من موقفه من الآخر » (٣٧) والبصر سلاح الطاغية كذلك ، يمكن أن تتخذ الضحية موقفا عدائيا ، بادئة بالتنديد بالظلم ، مهددة بوضع حد لحياتها . وجدير بالملاحظة أن العدوان هنا هو لفظي بحت .

ويرى بارت في الانقسام البناء الأساسي لعالم المأساة . والانقسام عند راسين مزدوج : « لا يصارع

الانسان (عند راسين) الخير او الشر . كل ما هنالك أنه يتخبط بينها » (٣٨) والمونولوج تعبير عن الانقسام ، ووعي لفظي به ، لا مداولة حقيقية .

ثم تبين بارت الأب في مسرح راسين . يمثل الأب ، في نظر البطل ، الماضي الذي لا يستطيع الخلاص منه او الانفصال عنه . ما كان كائن ، تلك هي سنة الزمان عند راسين . يولد البطل بريئا . لكنه يسعى الى الاثم بنفسه لينقذ الأب . وإذا كانت سلطة الأب آثمة ، فعلى الضحية أن تتحمل مسئوليتها . هذا ويقاس بطل مأساة راسين بالجهد الذي يبذله لكي يقطع صلتته برمز السلطة . وهنا تنقسم الشخصيات الى مجموعات ثلاث : شخصية تظل متعلقة بالأب ، وشخصيات تظل خاضعة للأب ، لكنها تشكو بطريقة غير مباشرة من هذا الاخلاص ، وشخصيات أصيلة ترقى الى مرتبة الخيانة . وتتلخص القضية في الآتي : متى وكيف تقطع الشخصية صلتها برمز السلطة ؟ يفشل البطل . وينتج فشله عن مفهومه للزمان . فالزمان في نظره تكرار خالص . لذا ، يقول بارت أن الزمان عند راسين « دائري » ، والفعل عنده يتحول الى نوع من الطقوس .

أمام البطل حلول ثلاثة : الهرب ، او الانتظار ، او الحياة ، وكلها حلول لا مأساوية . من ثم كان سلوكه سلوكا لفظيا ، أساسا . الكلمة ، في هذا

(٣٦) المرجع السابق ص ٣٤ .

(٣٧) المرجع السابق ص ٣٨ .

(٣٨) المرجع السابق ص ٤٦ .

رأسهم ر. بيكار ، على المدرسة الجديدة أو « النقد الجديد » . اندلعت نيران هذه الحرب عندما رد بيكار على بارت في كتيب عنيف شديد اللهجة كما يتضح من عنوانه : « نقد جديد أم خدعة جديدة ؟ » ورد بارت بكتابه « نقد وحقيقة » (١٩٦٦) ، حيث تحدث عن النقد الجديد عامة وعمليتي القراءة والكتابة خاصة .

يتساءل بارت : لم هذا الهجوم الذي يشن اليوم على النقد الجديد ؟ هل يتعلق الأمر برد فعل لا أهمية له ؟ أم عودة الى لون آخر من الجهالة ؟ أم يتعلق ، على عكس ذلك ، بمقاومة أشكال الحديث الجديدة عن الاعمال الادبية ؟ ، يلاحظ بارت أن ما يستوقف النظر ، في الهجمات التي شنت على النقد الجديد ، هو طابعها الجامعي ، وكان شيئا بدائيا أخذ يتحرك في نفوس الذين قاموا بها ، و « كأننا نشهد طقوس إعدام تمارسها جماعة بدائية ضد شخص خطير . » (٤١) كأن المهاجمين قد حلموا بجرح النقاد الجدد ، وقتلهم ، وضربهم ، وجرهم أمام محكمة الجنابات والمشنقة . باختصار ، بدأ اعدام النقد الجديد وكأنه عملية تطهير تجري من اجل الصحة العامة . وما يؤخذ على النقد الجديد ليس جدته ، وإنما كونه نقدا بكل ما في هذه الكلمة من معاني ، أي نقد يعيد توزيع الادوار ، دور المؤلف ودور الناقد .

لكن ، ما هو الجديد في النقد الجديد ؟ يدرك هذا النقد ان الوقوف على بنية الأعمال الادبية هي عملية

المسرح تعادل الفعل . وهذه الكلمة - الفعل هي واقع المأساة الأساسي لأنها تلعب دور الوسيط : « في العالم المنقسم ، عالم المأساة ، لا يتصل البشر فيما بينهم الا بلغة العداء : يصنعون لغتهم ويتحدثون عن انقسامهم » .. (٣٩) وفي خاتمة كتابه ، يربط بارت بين مأساة راسين والأسطورة قائلا : « مأساة راسين هي احدى المحاولات الذكية التي تسعى الى منح الفشل بُعدا جماليا . إنها فن الفشل حقا . لذا تحارب الأسطورة فيما يبدو ، كلما استولى راسين على أسطورة ليحوها الى مأساة ، شلها وجعل منها حكاية منتهية . لكن رفض الأسطورة على هذا النحو يصبح بدوره أمرا أسطوريا » . (٤٠)

يسهم هذا الكتاب مساهمة كبيرة في معرفتنا لعالم راسين وابتتيه ، ويعد في حد ذاته عملا أدبيا خلاقا . فقد استبعد بارت ، منذ البداية ، كل تحيز وكل نظرة عقائدية ، ووضع نفسه في عالم مسرحيات راسين اكثر مما وضع نفسه في عالم راسين ، او عالمنا نحن . ثم اكتشف الابنية الأساسية لعالم المأساة . لقد أثبت منهج بارت فاعلية خاصة في حالة راسين . لكن ، هل يصلح هذا المنهج للتطبيق على كاتب أقل تجانسا وأكثر تنوعا من راسين ؟



كان كتاب بارت « عن راسين » بداية حرب شعواء شنها أنصار المدرسة القديمة في النقد ، وعلى

(٣٩) المرجع السابق ص ٦٦ .

(٤٠) المرجع السابق ص ٦٨ .

(٤١) نقد وحقيقة ص ١٠ .

يهتم بها بعض الباحثين ، وفقا لمنهج أو مناهج لا يتحدث عنها النقد القديم قط .

يرى هؤلاء الباحثون ان عملية القراءة يجب أن تتم على مستوى العمل الأدبي ذاته . لكن ، من ناحية ، كيف يمكن تجنب لقاء المضامين بعد الوقوف على الأشكال ؟. ومن ناحية أخرى ، التحليل البنيوي يكلف الكثير ، لأنه لا يمكن أن يجري الا على مستوى النماذج المنطقية : « في الواقع ، لا يمكن التسليم بخصية الأدب الا في نطاق نظرية عامة عن العلامات . لكي يكون لنا الحق في الدفاع عن قراءة متأصلة للعمل ، يجب أن نعرف ما هو المنطق ، والتاريخ ، والتحليل النفسي . باختصار ، لكي نعيد العمل الى الأدب ، لابد من الخروج منه والالتجاء الى ثقافة انتروبولوجية . » (٤٢). ومنذ اللحظة التي يعتزم النقد فيها التعامل مع العمل ذاته ، من حيث تكوينه ، يستحيل عليه عدم التعرض لمتطلبات القراءة الرمزية . وهذا ما قام به النقد الجديد بالذات . ويقول بارت في هذا الصدد : « يعلم الجميع أن هذا النقد الجديد انطلق بوضوح من طبيعة الاعمال الادبية الرمزية » . (٤٣) وما قام به هو في « عن راسين » من عمليات تحليلية ينتمي الى نوع من المنطق الرمزي ، وفقا لما صرح به في مقدمة الكتاب .

ومع النقد الجديد ، أصبح الناقد كاتباً بدوره .

وما الكاتب سوى ذلك الشخص « الذي ينظر الى الكلام على أنه مشكلة يشعر بعمقها ، ولا يعتبره أداة أو زخرفاً » . (٤٤) نتيجة لذلك وجدت كتب في النقد ، تقرأ كما تقرأ الأعمال الأدبية ، وان كان مؤلفوها من النقاد ، لا الأدباء . هكذا التقى الكاتب والناقد ، وأصبحا في وضع واحد يواجهان فيه نفس الشيء ، ألا وهو الكلام ، وفي الوقت نفسه ، أي الوقت الذي انتقل فيه النقد الى الكتابة ، توصل الفكر ، في قرنا العشرين الى منطق آخر ، ودخل نطاق « التجربة الداخلية » . وبدأ البحث عن حقيقة واحدة ، تشترك فيها كل أنواع الكلام ، الخيالي منه ، والشاعري ... لأنها حقيقة الكلام ذاته .

عندما يتكلم لكان Lacan مثلا عن التحليل النفسي ، يستبدل تجريد المفاهيم التقليدي بصورة تنتشر انتشارا تاما في مجال الكلمة ، بحيث لا يمكن الفصل بين المقال والفكرة ، وتصبح الكلمة ذاتها حقيقة . في مجال آخر ، عندما تخلى ليفي - ستروس « Levi Strauss في « النيم والمطبوخ » Le Cru dt le cuit عن فكرة « التطور » العادية اقترح لغة جديدة للتغيير . وقال ان الكاتب مسئول عن الشكل الذي يختاره ، وكان هذا شيئا جديدا لم يعتده الناس في العلوم الانسانية . هكذا ندخل ، فيما يرى بارت ، أزمة عامة ربما كانت لها أهمية انتقال

(٤٢) المرجع السابق ص ٣٧ .

(٤٣) المرجع السابق ص ٤١ .

(٤٤) المرجع السابق ص ٤٩ .

وأيا كان رأي المجتمعات ، تقرأ الأعمال الأدبية بها بوصفها اشكالا تتخذ معاني مختلفة : « العمل خالد ، لا لأنه يفرض معنى واحدا على أناس مختلفين ، وإنما لأنه يوحي بمعان مختلفة لرجل واحد ، يتكلم نفس اللغة الرمزية ، في أزمنة متعددة » . (٤٧)

لو كان للكلمات معنى واحدا مسجلا في القاموس ، ولو لم تكن هناك لغة ثانية تحرر « يقين اللغة » ، لما وجد الأدب . واللغة الرمزية التي تنتمي إليها الأعمال الأدبية لغة « جمع » من حيث البنية ، فكل كلمة - المقصود بالكلمة هنا العمل الأدبي - تنشأ عنها معان متعددة . ولعل أفضل تعريف للعمل الأدبي هو الآتي : « لا يحيط بالعمل ، أو يوجهه موقف معين . ولا توجد حياة عملية تقول لنا ما هو المعنى الذي يجب أن نعطيه له ... لأن غموض العمل غموض خالص ... فهو منفتح على كافة المعاني ... طبعا ، إذا أضفت موقعي إلى قراءتي لعمل معين ، استطعت التغلب على غموضه .. فالعمل لا يستطيع الاحتجاج على المعنى الذي أعطيه له ، ما دمت أخضع أنا نفسي لقواعد اللغة الرمزية التي يقوم عليها ، أي ما دمت أقبل أن أسجل قراءتي في مجال الرموز » . (٤٨)

وإذا ابتعد العمل عن أي موقف ، أصبح أمام من يقرأه أو يكتبه سؤالا مطروحا ، وبحالا لبحث دائم عن الكلمات .

وإذا كان للعمل معان متعددة ، من حيث المبدأ ،

أوروبا من العصر الوسيط إلى عصر النهضة . وأصبحت هذه الازمة « حتمية » منذ اللحظة التي اكتشفت فيها طبيعة الكلام الرمزية : « هكذا ، أعيد النظر في كل ما يمسه الكلام : الفلسفة ، والعلوم الانسانية ، والأدب . وهذا بلا شك هو السياق الذي يجب أن نضع فيه النقد الأدبي اليوم ... فما هي علاقة العمل الأدبي باللغة ؟ وإذا كان العمل رمزيا ، فما هي القواعد التي يجب أن تخضع لها قرائته ؟ وهل يمكن إيجاد علم خاص بالرموز المكتوبة ؟ هل يمكن أن يكون كلام الناقد كلاما رمزيا ؟ » (٤٥)

وبما لاشك فيه - وفي هذا تتفق مع بارت كل الاتفاق - أن القراءة الجمع Plurielle التي حلت محل القراءة المفردة هي من اهم ما جاء به النقد الجديد . قد يظن كل عصر أنه وقف على المعنى الأمثل للعمل الأدبي . لكن ، يكفي أن نوسع نطاق التاريخ لكي يتحول المعنى المفرد إلى عدة معان ، والعمل المغلق إلى عمل مفتوح . هكذا « يتغير تعريف العمل الأدبي ذاته . ولا يبقى واقعا تاريخيا وإنما يصبح واقعا انثربولوجيا ، ما دام التاريخ ، أيا كان نوعه ، لا يستنفذ معناه . وتنوع المعاني يشير إلى استعداد العمل للانفتاح . وفي الوقت نفسه ، يكتسب العمل عدة معاني ، نتيجة لبنائه ، لا نتيجة لعجز الذين يقرأونه . في هذا تكمن رمزيته . فالرمز ليس الصورة ، بل تعدد المعنى ذاته » . (٤٦)

(٤٥) المرجع السابق ص ٤٩ .

(٤٦) المرجع السابق ص ٥٠ .

(٤٧) المرجع السابق ص ٥٢ .

(٤٨) المرجع السابق ص ٥٥ .

انتهى حتماً الى نوعين مختلفين من النقد . قد يستهدف النقد فيه كافة المعاني التي يشتمل عليها ، وقد يستهدف معنى واحداً من هذه المعاني . ولا ينبغي الخلط بين هذين الحديتين بأي حال من الأحوال ، لأن مادة كل منهما وأحكامه مختلفة عن مادة وأحكام الآخر . ويقترح بارت إطلاق اسم « علم الأدب » أو الكتابة على النقد العام الذي يتناول تعدد المعاني ، واسم « النقد الأدبي » على النقد الآخر الذي يعبر صراحة عن نيته في إعطاء معنى خاص للعمل الأدبي . لكنه التفرقة لا تكفي ، لأن إعطاء المعنى لا يمكن أن يكون مكتوباً أو صامتاً ، ولابد من الفصل بين « قراءة » العلم الأدبي و « نقده » . فالقراءة عملية مباشرة ، أما النقد فيلجأ الى كلام وسيط هو كتابة الناقد .

كيف ومتى يمكن أن يوجد علم الأدب ؟ يقول بارت إن تاريخ الأدب موجود من مدة طويلة ، لكن علم الأدب لم يوجد بعد ، لأننا « لم نعرف بعد اعترافاً كاملاً بطبيعة المادة الأدبية ، وهي مادة مكتوبة . ومنذ اللحظة التي نسلّم فيها بأن العمل الأدبي مادة مكتوبة ... يمكن الحديث عن علم الأدب ... ولا يمكن أن يكون ذلك العلم علم مضامين ... بل يكون علم الظروف التي أوجدت المضمون أي الاشكال ... ولسوف يهتم بالتغيرات التي تطرأ على المعنى ... ولن يفسر الرموز ، بل تعدد معانيها . » (٤٩)

يمكن أن يستند علم الأدب في البداية الى النماذج التي تقدمها اللسانيات . فعالم اللسانيات يقبل نموذجاً افتراضياً للوصف ، يستطيع ، انطلاقاً منه ، الوقوف على الطريقة التي تنشأ بها الجمل الى مالا نهاية ، في لغة ما يمكن تطبيق مثل هذا المنهج على الاعمال الأدبية . فهذه الاعمال أشبه بجمل كبيرة مشتقة من لغة الرموز العامة : « تستطيع اللسانيات أن تقدم للأدب هذا النموذج التوليدي ، وهو مبدأ أي علم ، ما دام الأمر يتعلق دائماً بالالتجاء الى بعض القواعد لتفسير بعض النتائج . اذن ، لن تكون مادة علم الأدب : لم يجب أن نقبل هذا المعنى أو ذاك ، بل لماذا يمكن قبوله ؟ » (٥٠) هذا بالنسبة للعمل الأدبي . لكن ، كيف يتحدث علم الأدب عن المؤلف ؟ لا يستطيع ذلك العلم الا أن يربط بين العمل الأدبي والأسطورة . فنحن « نيل عامة ... الى الاعتقاد أن الكاتب يستطيع أن يطالب بمعنى عمله الأدبي وأن يعرف ذلك المعنى بأنه شرعي . من ثم ، كانت الاسئلة اللامعقولة التي يوجهها الناقد الى الكاتب الميت ، الى حياته ، ونواياه ، لكي يؤكد لنا معنى عمله : نريد بأي ثمن أن نحمل الموتى ، أو من يقوموا مقامهم ، على الكلام : الفترة الزمنية التي عاش فيها الكاتب ، والأنواع الأدبية ، والمعاجم المعاصرة له ، الخ .. أكثر من هذا ، يطلب منا أن ننظر حتى يموت الكاتب لكي نتمكن من الحديث عنه بموضوعية ، وهذا قلب غريب للأوضاع » . (٥١)

(٤٩) المرجع السابق ص ٥٧ .

(٥٠) المرجع السابق ص ٥٨ .

(٥١) المرجع السابق ص ٥٩ .

كما سبق أن قلنا على لسان بارت ، يحتل مكانا وسطا بين العلم والقراءة . وعلاقة النقد بالعمل الأدبي علاقة شكل بمعنى . لا يستطيع الناقد أن يدعي « ترجمة » العمل ترجمة واضحة ، لأن ما من شيء أوضح من العمل ذاته . كل ما يستطيعه هو « توليد » معنى معين مشتق من شكل معين هو العمل . فالناقد يجعل العمل مزدوجا ، ويجعل لغة ثانية تطفو فوق لغة العلم الأولى . والناقد يجب أن يقوم بعمليات ثلاث : أن يحول كل شيء ، وأن يحوله وفقا لبعض القوانين ، وفي نفس الاتجاه دائما .

وذكرنا بارت بأن المعنى ، من الناحية البنيوية ، لا ينشأ عن التكرار ، وإنما عن الفوارق . هكذا تكتسب العبارة النادرة المعنى الذي تكتسبه العبارة المألوفة ، حالما تدخل نظاما معيننا من العلاقات . كذلك ، يمكن أن تذكر عبارة ما مرة واحدة في العمل كله ، ومع هذا توجد فيه « دائما » وفي « كل مكان » ، نتيجة لعدد من التحولات التي يعرف بها الواقع البنيوي .

ولا يمكن أن يحل الناقد محل القارئ بأي حال من الأحوال . حتى لو قلنا أن الناقد قارئ يكتب ، فهذا يعني أن القارئ يلقي على طريقة وسيطا خفيفا : الكتابة . هناك فرق آخر بين القارئ والناقد : نحن لا نعرف كيف يتحدث القارئ إلى الكاتب ، في حين يضطر الكاتب إلى الحديث بلهجة معينة ، لا يمكن إلا أن تكون لهجة الإثبات . فالناقد لابد وأن يلجأ ، في نهاية المطاف ، إلى « الكتابة الملائنة » « لأن الكتابة » تصريح « بشيء ما . كيف

لا بد إذن من إعادة توزيع المواد التي سيتناولها علم الأدب . المؤلف والعمل الأدبي مجرد نقطة انطلاق لتحليل يجري في مجال الكلام . لا يمكن أن يوجد علم عن دانتي ، أو شكسبير ، أو راسين . كل ما يمكن أن يوجد هو علم الحديث عن هؤلاء . وسيكون لذلك العلم مجالان كبيران حسب العلامات التي سيتناولها . يشتمل المجال الأول على العلامات الأصغر من الجملة ، أي سمات اللغة الأدبية في مجموعها . ويشتمل الثاني على العلامات الأكبر من الجملة ، أي أجزاء الحديث التي يمكن أن نستخلص منها بناء السرد أو الرسالة الشعرية ، الخ ... هكذا يخضع النص الأدبي لتحليل أكيد ، لكن ، من الواضح أن هذا التحليل لن يمتد إلى فائض هائل من حيث الكم .

ولن تنصب الموضوعية المطلوبة في هذا العلم الجديد على العمل الأدبي مباشرة ، وإنما على طريقة فهمه . ولن يهتم علم الأدب بالطريقة التي أوجدت العمل ، وإنما بالطريقة التي تم فهمه بها في الماضي والتي يفهم بها اليوم . لن يقدم علم الأدب معنى معيننا ، بل يصف الطريقة المنطقية التي تنشأ بها المعاني بحيث يقبلها منطق البشر الرمزي . عندما عبر بارت عن هذه الآراء ، أي عام ١٩٦٦ انتهى إلى أن الطريق أمام نشأة علم الأدب ما زال طويلا . والسؤال الآن هو : هل وجد علم الأدب أم لا ، وأي مرحلة من الطريق قطع ؟

أما النقد ، فشيء مختلف عن علم الأدب . فالنقد يعالج المعاني . أما العلم فينتجها . والنقد ،

يمكن أن يكون النقد اذن تساؤلا أشكا؟ بالتالي ، عندما تمس الكتابة نصا ، توجد هوة سحيقة بين القوأة والنقد ، هوة كتلك التي تفصل بين الدال والمندلول . القراءة وحدها تعبر عن حب العمل الأدبي ، وتقيم معه علاقة « رغبة » : « القراءة معناها رغبة العمل ، الرغبة في أن تكون العمل ، ورفض الحديث بلغة أخرى غير لغة العمل ... والانتقال من القراءة الى النقد معناه تغيير في الرغبة ، معناه رغبة لغة العمل لا العمل ذاته ... هكذا يردّ العمل الى رغبة الكتابة ... هكذا يدور الكلام حول الكتاب : قراءة ، كتابة ... الأدب كله انتقال من رغبة الى أخرى . وما النقد سوى لحظة من لحظات ذلك التاريخ الذي ندخل فيه ويقودنا الى وحدة الكتابة وحقيقتها . » (٥٢)



يتضح ، من خلال كل ما كتبه بارت ، اهتمامه بالأدب من ناحية ، ونظرية العلامة وعلم العلامات من ناحية أخرى . لكن « مقالات في النقد » Essais Critiques (١٩٦٤) يكشف عن اهتمام المؤلف بموضوع ثالث ألا وهو مسرح برخت . نلمس أيضا في هذه « المقالات » فكرا علاميا يبحث عن ذاته ، لأن العلامة أصبحت ، في نظر بارت ، محور الاشكالية الأساسية . فعن التفكير في هذه النقطة تنشأ صيرورة العمل الأدبي . هكذا أفسحت الأسطورة المجال للنظام العلامي الذي كانت تشتمل

على بذوره . وتحللت بارت ، في كتابه هذا ، عن موضوعين هامين : أولها البنيوية ، وثانيها العلامة عامة ، والعلامة المسرحية خاصة .

يقول بارت عن البنيوية إنها ليست مدرسة أو حتى حركة بعينها ، لأن أغلب المؤلفين الذين يمثلونها غير متضامنين فيما بينهم ، من حيث النظرية او الفكر . بل ان كلمة بنية Structure ذاتها أصبحت قديمة بالية ، لأن كافة العلوم الاجتماعية أكثر من استخدمها . ويوضح بارت ان البنيوية ، في نظر من يستخدمون هذه الكلمة ، هي أساسا « نشاط » ، أي تتابع منتظم لعدد معين من العمليات الذهنية . يهدف هذا النشاط الى اعادة بناء شيء ما ، الى اعادة خلقه ، واعطائه مجموعة من الوظائف : فميثولوجيا ليفي - ستروس أو رسم موندريان يدلان على نشاط مشترك ، بنيوي ، يمكن ان نستخلص منه بعض الوظائف والسمات المتعارضة ، أي بنية معينة . ويمكن الحديث عن النشاط البنيوي كما سبق الحديث عن النشاط السيرياي مثلا . أما الهدف الذي يسعى اليه النشاط البنيوي فهو اعادة تكوين شيء ما ، بحيث تظهر في عملية اعادة التكوين هذه القواعد التي تحكم وظائف ذلك الشيء . البنية اذن صورة أو ظل لهذا الشيء ، لكنها صورة موجهة ، لأن الشيء المقلد يظهر شيئا كان خافيا أو غير مفهوم في الشيء الاول . أي أن النشاط البنيوي يأخذ الواقع ، ويفككه ، ثم يعيد تركيبه . لذا ، يمكن القول بأن

تعكس العالم كما هو . وهنا تكمن أهمية البنيوية . فهي تظهر صورة جديدة للشيء ، صورة لا هي بالواقعية ولا بالعقلانية ، وإنما هي صورة وظيفية . كما أنها توضح العملية الانسانية البحتة التي يعطي البشر بمقتضاها معنى للأشياء . لكن ، هل هذا شيء جديد ؟ يرد بارت قائلاً : الى حد ما ، فالعالم ظل وما زال يبحث عن معنى ما يعطي له وما ينتج . أما الجديد ، فهو الفكر الذي يبحث ، لا عن المعنى الكامل للأشياء التي يكتشفها ، وإنما عن السبل التي تجعل المعنى ممكناً .

ونجد في « مقالات في النقد » ثنائي مقالات خاصة بالعلامة المسرحية ، يتحدث فيها بارت عن برخت ، وبودلير ، والماساة الاغريقية ، وبلزاك . وكان لابد من ذكر راسين هنا ، لأن بارت تحدث أول ما تحدث عن العلامة المسرحية بمناسبة حديثه عن راسين . فهو يقول أن الممثل في مسرحيات راسين ربط دائماً بين عالمين : عالم سيكولوجي يتمثل في الشخصية بجوانبها المعقدة ، وعمقها ، وجانب لغوي يتمثل في النص والحوار . وهذا في رأيه خطأ أول يترتب عليه خطأ ثان هو : الاعتقاد بأن هناك توازياً بين حديث الشخصية ونفسيته ، توازياً يكلف الممثل بابراره ، مما أدى الى طريقة الأداء واللقاء التي تميز بها المسرح الكلاسيكي عامة ، ومسرح راسين خاصة . عندما يبرز الممثل بعض الكلمات ، مثلاً ، يتدخل بين المسرحية والجمهور . وهكذا يعتدي على حق المتفرج لأنه يتولى التفكير بدلاً منه . والنتائج التي تترتب على هذا الخطأ المزودج وعلى هذا الأداء

البنيوية نشاط يحاكي الواقع أولاً وقبل كل شيء . من هذه الناحية ، لا يوجد أي فرق فني بين بنيوية العلوم والأدب خاصة والفن عامة . وتعتمد هذه البنيوية وتلك على المحاكاة التي تقوم على تشابه الوظائف ، لا تشابه المواد .

هذا ولا يعرف الفن بطبيعة الشيء المقلد ، وإنما بما يضيفه الانسان الى ذلك الشيء عندما يعيد بناءه . والطريقة التي يعاد بها هذا البناء هي الابداع ذاته . أياً كان المجال ، اذن ترتبط غاية النشاط البنيوي ارتباطاً وثيقاً بتكنيك معين . مما يجعل للبنيوية وجوداً متميزاً بالنسبة لطرف التحليل والابداع الاخرى . فهي تعيد تكوين الشيء لكي تبرز بعض الوظائف . ويتمثل النشاط البنيوي في عمليتين متميزتين : التقطيع والتركيب . العملية الأولى تقطع الشيء ، وتجده فيه اجزاء متحركة يختلف موقعها ، وينتج عن اختلاف موقعها هذا معنى معين . فالجزء لا معنى له في حد ذاته . لكن أي تغيير يطرأ عليه يترتب عليه تغيير في المجموع . تنتج عن هذه العملية اذن حالة أولى ، مبعثرة للصورة أو الظل . ولا يعني هذا أن وحدات البنية « فوضوية » . أما العلمية الثانية فتكتشف وتحدد القوانين التي تترابط هذه الوحدات بمقتضاها ، وهذا هو النشاط التركيبي . وفي هذه المرحلة الثانية ، تدور معركة ضد الصدفة . لذا ، يكتسب تكرار الوحدات قيمة شبه ابداعية . فعودة الوحدات بانتظام وترباطها يبني العمل الادبي ويكسبه معنى معيناً .

وعندما تبني الصورة أو الظل ، على هذا النحو ،

عديدة . ويذكر بارت من بينها انعدام التواصل بين الممثلين ، ومخاطبة هؤلاء الممثلين لجمهور مجرد يفرضون عليه علاقة معينة بين النص والشخصية : « يظن الممثل أن دوره هو إيجاد علاقة نفسية معينة ولغة معينة ، وفقا لذلك الرأي المسبق الذي يقول أن الكلمات تترجم الفكرة دائما » .^(٥٣) ويرجع هذا الانحراف الى الترجمة ، أساسا ، الى كون الممثل يتحد مع الشخصية ، في حين عليه ان يتخلى عن « فكرة الشخصية التقليدية ، وان يصل الى فكرة الصورة ، أي شكل وظيفة مأساوية معينة . »^(٥٤)

أما من يمثل مسرحيات برخت فيناقض تماما من يمثل مسرحيات راسين . يسوق بارت مثالا لذلك « الأم شجاعة » ، ويقول أن الذي لفت نظره في عرض هذه المسرحية عندما قدمها « البرلينر انسامل » عام ١٩٥٥* هو أن المتفرج ليس الأم شجاعة . فهو لا يتحد معها ذاتيا ، بل « يراها » . أما هي فلا ترى ، وتكاد تكون عمياء كما يقال في العنوان . فهي منغمسة في الحرب ومتأثرة بأضرارها ، لكنها لا ترى اسبابها ، ولا ترى النظام الذق أوجد تلك الحرب . والمتفرج يرى هذا العمى ، لأنه يظل خارج شخصية الأم شجاعة . واتباعه هذه الطريقة ، يعهد برخت الى المتفرج بمهمة رؤية المدلول تحت الشكل ، بدون ان يفرض عليه شيئا بعينه . فهو يدعو الى التحليل ، لكنه لا يحلل بدلا منه .

ويلاحظ بارت أن انتاج الاشكال أو الدالات يظهر من خلال عملية الاخراج في مجموعها . ويدرس ذلك بصفة خاصة من خلال الزي المسرحي . يقول بارت في هذا الصدد أن المسرح حركة اجتماعية ، و « تعبير خارجي » مادي ، عن الصراعات الاجتماعية . والزي ، ضمن عناصر أخرى ، له وظيفة معينة بالنسبة لتلك الحركة . ويقضي هذا الى معيار مناسب في النقد : « في الزي ، كل ما يضيف طابعا غامضا أو زائفا على حركة العرض الاجتماعية شيء سيء ، وكل ما يساعد على قراءة هذه الحركة - الاشكال ، والالوان ، والمواد وتركيبها - شيء حسن . »^(٥٥) ونلمس هنا اتجاهها وظيفيا مكن بارت من عمل قائمة بالاختفاء ، والامراض التي يصاب بها الزي المسرحي .

الأدب أيضا موجود في « مقالات في النقد » . لكن تناول بارت له يقل جدّة وابتكارا عن تناوله للمسرح . ويشعر القارىء ازاء المقالات الخاصة بالأدب أن باثر يكرر ما سبق أن قاله في « درجة الصفر في الكتابة » ، مع تغيير طفيف . ففي مقال عن « أدب اليوم » ومقال آخر عن « الأدب والمعنى » يتناول الحديث عن الأدب من وجهة نظر الكاتب دائما ، ولا يتحدث عنه على انه نظام يمكن تحليله من الناحية البنيوية . لماذا لم يتوصل بارت ، بالنسبة للأدب ، الى ما توصل اليه بالنسبة للمسرح عامة ومسرح برخت خاصة ؟ في رأي بارت ، الأدب مشتق

(٥٣) « عن راسين » ص ١٣٦ .

(٥٤) المرجع السابق ص ١٠ .

(٥٥) « مقالات في النقد » ص ٥٣ - ٥٤ .

أولئك هم الكتبة . حديث الأدباء حركة ، واستعراض ، وسلوك . أما حديث الكتبة فنشاط . الكتابة الاولى لا يبرر وجودها الا ذاتها : أما الثانية فيبرر وجودها شيء آخر . صحيح أن مثل هذا الفصل تعسفي ، اذ يلاحظ بارت نفسه أن من يكتب « يكتب فقط » ، لكنه يكتب شيئاً ما ، أيضاً . على سبيل المثال ، عندما كتب ريمون كينوه روايته « زازي في المترو » أنتج عملاً يحتمل قراءتين ، فالرواية رواية جيدة ، متقنة البناء ، ورثت تكنيكا ثبتت تجربته . ومن ثم ، يمكن أن تقرأ على أنها رواية تقليدية . لكنها ، في الوقت نفسه ، تهدم هذا التكنيك ، وترفض ما ورثته عن الرواية التقليدية . ويأتي هذا الهدم من الداخل ، أساساً ، اذ يكشف كينوه عن المادة الادبية أثناء عملية الاعداد والصياغة . هكذا يقف المؤلف عند التناقض الذي يعرف به أدب اليوم في فرنسا . فهو « يلبس القناع الادبي ، لكنه في الوقت نفسه يشير اليه باصبعه » . (٥٦)

ونلاحظ أن في الفترة التي انقضت بين مقال « تصور العلامة » ومقال « النشاط البنيوي » أي الفترة بين ١٩٦٢ و ١٩٦٣ ، ظهرت وتبلورت ثورة بارت الداخلية . بعدها تحدد حقاً مفهومه لعلم العلامات . وانتقل الى الوصف العلامى المحسوس ، أي دخل مرحلة « عملية » بمعنى الكلمة يشهد عليها كل من « نظام الموضة » - Systeme de la mode و « عناصر من علم العلامات » Elements de Semiologie .

من نظام دال سلفاً ، ألا وهو اللغة . وهذا يجعل التحليل أكثر تعقيداً . لكن مثل هذه العقبة وهمية . ولقد أكد المؤلف فيما بعد أن اللغة توجد دائماً ، على مستوى أو آخر ، تحت أي نظام علامي . أما العقبة الحقيقية فتتعلق بالمنهج ، وكيفية التصنيف خاصة . لذا ، تعتبر بعض النصوص التي وردت في « مقالات في النقد » نصوصاً أساسية بالنسبة لقضية العلامة . ففي مقال عن « تصور العلامة » نراه يطرح قضية الوحدة العلامية وعلاقتها بالوحدات الأخرى . ويقول في هذا الصدد إن من يحلل العلامات لديه ثلاثة أنواع ممكنة من الوعي العلامي : الوعي الرمزي الذي يرى فيه العلامة بعدها العنيق ، والوعي الاستبدالي Paradigmatique الذي يظن حالماً تعقد مقارنة أو معارضة بين علامتين مثل التعارض بين الصليب الاحمر واللال الاحمر والوعي التوزيعي Syntagmatique وهو وعي بالعلاقات التي تربط بين العلامات على مستوى الحديث .

ونتوقف لحظة عند مقال يقترح فيه بارت التفرقة بين Ecrivains و Ecrivants ، ويمكن أن تترجم العبارتان الى العربية بكلمتي « الكتاب = الأدباء » و « الكتبة » . منذ الثورة الفرنسية ، لم تعد كلمة « كاتب » حكراً على الأدباء . وأصبحت اللغة ملكاً لآخرين ولأغراض أخرى . مما أدى الى ازدواج في الوظائف . فهناك من يرون أن عملية الكتابة لا تفضي الا الى نفسها . هؤلاء هم الأدباء . وهناك من يرون في عملية الكتابة وسيلة للوصول الى شيء آخر .

« نظام الموضة »
 Le Systeme de la mode (١٩٦٧) كتاب منهجي في المقام (٥٧) الاول . ويؤكد كاتبه طابعه هذا بقوله : « هذا الكتاب كتاب منهجي ، محكوم عليه بتعديم نفسه بنفسه » . لكن الشيء الذي يلفت النظر ، أكثر من هذا الهدف ، هو ظهور المنهج النظري والتطبيقي معا ، لأول مرة . قبل ذلك ، كانت محاولات التنظير تلي الممارسات الوصفية ، أي أنها كانت لحظات توقف نظرية ، ونظرة الى الوراء . لكن « نظام الموضة » كتاب لا يشتمل على ممارسة سابقة . فهو كتاب كامل ، شامل ، تذكر فيه النظرية قبل التطبيق .

وجدير بالذكر هنا أن بارت أكد أنه يسير وراء عالم اللسانيات سوسور Saussure ، لكنه اختلف معه في نقطة هامة . وتأكد هذا الاختلاف فيما بعد عندما كتب « عناصر من علم العلامات » (١٩٦٥) . تحدث سوسور عن علم العلامات باعتباره علما يشمل اللسانيات . لكن بارت في « نظام الموضة » يؤكد عكس ذلك : « لا بد من التأكيد على أن علم العلامات هو جزء من اللسانيات » (٥٨) وهذه إحدى المكتسبات الأساسية التي نجدها في « نظام الموضة » .

يبدأ بارت بوصف الزي ، بما يعني ، بطبيعة الحال ، وصف مادة ما ، وشكلا يلبسه فعلا عدد من الأشخاص . هذا هو « الزي الحقيقي » . لكن الزي

لا ينقل اليها فقط عن طريق ادراكنا لما يلبسه الناس . فاذا فتحنا مجلة للأزياء ، وجدنا فيها عددا كبيرا من الرسومات والصور . وهذا هو « الزي - الصورة » . وكثيرا ما نجد تحت هذه الصور والرسومات عناوينا رئيسية وفرعية تحولها الى نوع من الكلام ، وذلك هو « الزي المكتوب » . توجد اذن ثلاث مستويات من الأزياء . وكل من الزي الثاني والثالث مستق من الزي الاول ، عن طريق سلسلة من التحولات التي تضمن الانتقال من البنية التكنولوجية (الزي الحقيقي) الى البنية التصويرية (الزي - الصورة) أو الكلامية (الزي المكتوب) . ويتم هذا الانتقال بواسطة أدوات وصل يسميها بارت Shifters وتنقلنا هذه الادوات من « الزي الحقيقي » الى « الزي المكتوب » أو « الزي - الصورة » ، وبالعكس . ويرى بارت أن أدوات الوصل هذه ثلاث : « الباترون » الذي يمكن من الانتقال من « الزي الحقيقي » الى « الزي - الصورة » و « الوصفة » أو « خطة الحياكة » التي تمكن من الانتقال من « الزي الحقيقي » الى « الزي - المكتوب » . . وعناصر أخرى تمكن من الانتقال من « الزي المكتوب » الى « الزي - الصورة » .

ثم يطرح سؤالا وجيها : كيف يختار الدارس مادة بحثه ودراسته ؟ الابنية الثلاثة قابلة للوصف . لكن كل واحد منها يفترض مسيرة معينة ، مما يجبر

(٥٧) « نظام الموضة » ، ص ٢ .

(٥٨) المرجع السابق ص ٩ .

الباحث على الاختيار . فضلا عن ان الزي المصور في مجلة الازياء يختلف ، من حيث الوضع ، عن الزي الذي يرتديه الناس . ويختار بارت « الزي - المكتوب » لأسباب تتعلق « بالنقاء البنيوي » على حد قوله : « للزي الحقيقي غاية عملية (الحماية ، الحياء ، الزينة) » . وتختفي هذه الغاية في « الزي - الصورة » الذي لا يستخدم في الحماية ، أو التغطية ، أو الزينة ، بل يستخدم على أحسن تقدير للدلالة عليهم . مع هذا ، يحتفظ « الزي - الصورة » بقيمة قد تعوق التحليل الى حد كبير ، ألا وهي تشكيكه . أما « الزي - المكتوب » فقط فلا يقوم بأية وظيفة عملية او جمالية . فهو موجود من اجل معناه : اذا وصفت المجلة زيا بالكلمة ، فعلت ذلك فقط لكي تنقل معلومة مضمونها الموضة » . (٥٩)

واختار بارت « للزي المكتوب » كبنية يصفها لا يعني بحال من الاحوال أن تحليله سيكون لسانيا بحثا . صحيح أن مادة التحليل لغوية . لكن بارت لا يبحث في « الزي - المكتوب » عن نظام فرعي للغة ، بل يبحث عن نظام تتكفل به اللغة .

كيف يختار الباحث مادة عن « الزي - المكتوب » تكون متزامنة Synchronique تزامنا خالصا ؟ أولا ، توجد فكرة التزامن في الموضة ذاتها . فهي تتغير كل سنة ، وتقدم للباحث سلسلة من الشرائح المتزامنة . وما على الباحث الا أن يختار احداها ، كيفما اتفق ، وأن يستند الى عدد من

الدعائم ، في اطار هذه الشريحة . وتتمثل هذه الدعائم في محلات الازياء . واختار بارت الفترة من يونيو سنة ١٩٥٨ الى يونيو سنة ١٩٥٩ ، واستند الى مجلتي *Jardin des mode* و *Elle* ، وإن استمد مادته من مجلات أخرى أحيانا . القاعدة الاولى التي تحدد تكوين المادة المراد تحليلها هي : عدم الاحتفاظ بأي مادة غير الكلمة التي تقدمها مجلة الازياء . وهذا يحد بلا شك من مواد التحليل . فهو يعني ، من ناحية ، عدم الالتجاء الى الوثائق المساعدة ، ومن ناحية أخرى ، عدم الاستفادة من المادة الخصبية المتمثلة في الصور . لكن فقر الأداة هنا ، وهو حتمي من الناحية المنهجية ، قد يكون له مردود إيجابي ، ألا وهو قصر الزي على شكله الشفوي . ويعني هذا ، في الوقت نفسه ، مواجهة مشكلة جديدة ، يمكن التعبير عنها بما يلي : « ما الذي يحدث عندما يتحول الشيء حقيقيا كان أم خياليا ، الى كلام ؟ » (٦٠) ونلمس هنا حذرا ودقة متناهية في تفكير بارت ومسيرته المنهجية . ويرجع هذا الى دخوله مرحلة « عملية » متميزة ، كانت منعطفا هاما في حياته ، دخل بعدها مجال العلم نهائيا ، بدون أن يقطع صلته باهتماماته السابقة أو يتخلى عنها . ولعل أصدق مثال لذلك هو عودته المستمرة الى الأدب بمناسبة حديثه عن الموضة من خلاله . واذا كان قد أكد ان اختياره للزي المكتوب يطرح قضية تحول الشيء الى كلام ، فإن تأكيد هذا ينسحب أيضا على الأدب ، وهو في نظره تجربة انسانية تتحول الى كلام .

(٥٩) المرجع السابق ص ١٨ .

(٦٠) المرجع السابق ص ٢٢ .

وسوسور بين اللغة *Langue* والكلام *Parole* . فالزى - يقابل اللغة ، في حين يقابل « الزى - الصورة » الكلام . ولا يكتفي بارت بهذا ، ويأخذ عن اللسانيات نموذجاً آخر هو التبادل . *Commutation* . والتبادل هنا تبادل بين شكل ومعنى ، بحيث يؤدي التغيير في الشكل الى تغيير في المعنى ، والعكس صحيح . هكذا يسمح التبادل باستخلاص الوحدات الصغرى . واذ يفعل يستخلص أيضاً التغييرات المصاحبة لهذه الوحدات ، بمعنى أنه يحدد « مجموعات تبادلية » . ويستخلص بارت مجموعتين :

١ - مجموعة تقييم علاقة بين الزى والعالم ، لأنها تشتمل على سمات خاصة بالزى - طويل / قصير - أو الطبايع - رصين / خفيف الظل - أو المناسبات : زى السهرة ، زى للصباح ، الخ ..

٢ - مجموعة تقييم علاقة بين الزى والموضة .. وينظر بارت الى الموضة هنا من زاوية واحدة : ما يتمشى وبالا يتمشى معها . ويلاحظ أن السمات في المجموعة الاولى تكون دائماً صريحة في الجملة . أما في المجموعة الثانية ، فتكون ضمنية في أغلب الأحيان ، لأنها بديهية . وفي كلتا الحالتين ، تظل السمات الخاصة بالزى ما تلة حاضرة . والشئ المهم هنا ، من الناحية المنهجية ، هو أن التبادل الذي يتم في احدى المجموعات يقابله تبادل مماثل في المجموعة او المجموعات الأخرى .

والعلاقة التي تربط بين عناصر المجموعتين هي علاقة تبادل . فالزى يختار من أجل هذه المناسبة أو

ويشترك « الزى - المكتوب » والأدب في كونها وصفاً . والكلام عن الموضة يرجع أساساً الى « الزى - الصورة » ، ويقوم تجاهه بعدد من الوظائف . يرشدنا هذا الكلام أولاً الى قراءة الصورة ، فالزى المصور يمكن قراءته وفهمه على عدة مستويات . و« الزى - المكتوب » يوجه ادراكنا له ، ويميز مستوى معنا عن المستويات الأخرى ، وبالتالي ، يفرض اختياراً معينا . فمعنى الصورة هو معنى غير أكيد لأنه مليء بالمعاني الممكنة . أما الكلام فيثبت العين على واحد منها . فضلاً عن أنه يقدم نوعاً خاصاً من المعرفة : فهو يكشف عن تفاصيل خاصة لا تقدمها الصورة أو لا تقدمها بالدقة الكافية . وسواء تعلق الأمر بالقماش ، أو نوعيته ، أو لونه (خاصة اذا كانت الصورة أبيضاً وأسوداً) يكملها ، ويضيف شيئاً ربما كان أساسياً الى ما تشتمل عليه من معلومات . كما أن الكلام تكرر للصورة . فهو يؤكد شيئاً يظهر في الصورة : المعطف فضفاض أو ملتصق بالجسم ، مثلاً . ويقدم معلومة سبق أن قدمتها الصورة لكنه يؤكدها ويبرزها . من هذه الوظائف الثلاث : تثبيت مستويات الإدراك ، و« المعرفة » ، و« المبالغة » ، تتكون عملية وصف الزى . ومن هذه الأخيرة ، تتكون الموضة . فالزى - الصورة « يجمع بين عدة عناصر من بينها الشكل واللون . قد يكون الزى جذاباً أو غريباً ، لكنه يظل متمشياً مع الموضة . بينما يرادف « الزى - المكتوب » الموضة ذاتها . ولكي يحدد الفرق بين الاثنين ، يلجأ بارت الى علم اللسانيات ، مرة أخرى ، ويذكر الفرق الذي أقامه

والعالم الحقيقي - اذا ذهبت الى السباق ، ورأيت أزياء من قماش مطبوع - ويظهر الآخر عند تلقي الرسالة الخاصة بالزّي المكتوب ، وإن لم يذهب المرء الى السباق ، ولم ير الأزياء المصنوعة من القماش المطبوع . لكن الامر يزداد تعقيدا ، لأن الجملة سالفة الذكر تأتي في الواقع بمعلومة أخرى : لمسايرة الموضة ، لابد من ارتداء القماش المطبوع عند الذهاب الى السباق . يبقى بعد ذلك النظام البلاغي ، ومدلوله هو : صورة الموضة التي تقدمها أو تريد أن تقدمها المجلة . ويمكن أن يدرس كل نظام من النظم الثلاثة دراسة مستقلة ، ويحلل تحليلًا منفردًا .

يرى أحد النقاد أن من يقرأ « نظام الموضة » لأول مرة يمكن أن يرى في الموضة نظاما « قمعيا » يسميه بارت « طاغيا » ، يشتمل على سنة للزّي تفرض علاماته بطريقة تعسفية ، وبلاغة تسعى الى طمس هذا الطابع التعسفي .

والوظيفة الاولى لسنة الزّي هي تحديد قوانين الزّي الحقيقي . « فالزّي المكتوب » يحدد أشكال الزّي ، ويعطيها صفة شرعية . وتجري هذه العملية في اطار اجتماعي معين يتميز ، فيما يرى بارت ، بوجود ممثلين اجتماعيين حول الموضة : النسوة اللاتسي يستهلكن الزّي ، أي قارئات مجلات الأزياء ، وأولئك الذين ينتجونه ، أي اجمالا وبلا تمييز ، الصناعات الخاصة بالزّي : مصممي الأزياء ، ومجلات الموضة ، الخ ...

تلك ، أو من أجل الموضة .. ويستخدم لهذا الغرض أو ذاك ، ويتمشى مع الموضة . مما يؤدي الى البحث عن سنة خاصة بالأزياء يكون الزّي فيها دالا ، والعالم أو الموضة مدلولًا . لكن العلاقة الخاصة بالزّي لن توصف وصفا كاملا الا اذا اعيدت الى بناء ما ، ما دام وجودها متوقفا على القدر الذي تختلف به عن العلامات الأخرى .

وير عبر المجموعتين التي استخلصهما بارت نظامان ، أحدهما لغوي ، والآخر خاص بالزّي . ويحاول المؤلف الربط بين هذين النظامين ، لكي يحدد مستويات المعنى . ويسمى المستوى الأول « السنة الحقيقية » ، والثاني « نظام المصطلحات » ، والثالث « النظام البلاغي » . ويسوق قانون المرور كمثال لهذا التقسيم . فالسنة الحقيقية تتمثل في اشارات المرور ولوحاته ، أي في أشياء يراها المرء ويعرفها بالتجربة ، بدون الاستعانة بالكلام . ويتكون نظام المصطلحات من الكلام الذي ينوب عن السنة الحقيقية . في هذا النظام الدال : جملة ، واللون الاحمر : علامة المنع ، والمدلول جملة هي : « اللون الاحمر علامة المنع » . وهذا النظام بدوره دال لنظام آخر ، هو النظام البلاغي . مثلا ، اذا قال المدرب لمن يتعلم قيادة السيارات : « اللون الاحمر علامة المنع » ، قال شيئا آخر في نفس الوقت ، عن مزاجه الخاص ، ومفهومه لدوره ، الخ ... ثم يطبق بارت مثال قانون المرور على الموضة . في هذه الجملة : ينتصر القماش المطبوع في حلبات السباق » ، نجد نظامين : أحدهما يقيم علاقة بين الزّي الحقيقي

ولا يمكن أن تكون علامة الموضة الا تعسفية ، بمعنى أنها لا تنتج عن التطور التدريجي أو الموافقة الجماعية ، لأنها تفرض كل عام بعنف ومن جانب واحد . والموضة ليست تعسفية فحسب ، بل هي « طاغية » أيضا . والانتقال من التعسف الى الطغيان يتم عندما يضاف الى القرار المتخذ من جانب واحد جزاء معنوي . اذن ، الموضة طاغية ، واللغة لا .

وأهم نتيجة يصل اليها بارت هي : الموضة ليست سنة فقط ، بل هي نظام بلاغي أيضا ، أو كما يقول بارت « أدب » . ويحدد موضع هذا الأدب فيقول أن الأمر لا يتعلق بالأدب بمعناه المطلق ، وإنما بنوع معين من الأدب ، ويدخل في نطاق الثقافة المسماة بالجاهيرية ، حيث تحتل الموضة مكانة متميزة . لا ينتمي هذا الادب اذن الى نوع راق ، ومع هذا فالموضة فن ، والمقصود بهذه الكلمة هنا فن أدبي ، وفن كامو فلاج (أخفاء) أيضا . فالموضة تخفي البنية تحت الحدث ، وتخفي الطابع المجرى لسنة الزبي تحت مظهر حي . وإذا كانت الموضة أدبا ، فذلك لأنها طاغية ، ولأن محاولات الاختراع التي تقوم بها تهدف في المقام الأول الى اخفاء طابعها « القمعي » .

والحديث عن « نظام الموضة » لا بد وأن يشير الى أن هذا الكتاب يرجع عدة مرات الى مؤلفات ليفي - ستروس ، خاصة « الفكر البدائي » La Pensée Sauvage وإذا كان لا بد من الحديث عن التأثير ، فيجب الرجوع الى كتب سبقت

« الفكر البدائي » لأن هذا الأخير يرجع الى عام ١٩٦٢ ، ولا يمكن أن يكون قد أثر كثيرا على « نظام الموضة » الذي أكمله بارت عام ١٩٦٣ . وإذا تركنا جانبا قضية التأثير والتأثر ، وجدنا أن الموضة كما يفهمها بارت تشترك في نقاط كثيرة مع « علم المحسوس » الذي يتحدث عنه ليفي - ستروس في كتابه سالف الذكر . لكن ، على عكس الفكر البدائي ، لا تتحمل الموضة مسئولية ما يعطيها طعما وقيمة . فهي تخفي بعناية طبيعتها الحقيقية تحت حديث عادي . تهدف الموضة ، منطقيا ، الى الحث على البيع ، في حين تهدف الموضة البلاغية الطاغية الى اخفاء الدور الفعلي للموضة الاولى . وهكذا تيسر استيعاب الناس لها . ومع هذا ، فمن الواضح ان كلا منها تكمل الأخرى ، وكأنها دكتور جيكل ومستر هايد .

ويرى الناقد أ . بورجلان O. Burgelin أن هذا الكتاب ضرب أرقاما قياسية في أكثر من ناحية . فهو أطول نص كتبه بارت . ومما لا شك فيه أنه النص الذي تطلب اكبر جهد من المؤلف . وهو النص الذي أنجز على مدى سنوات عدة . ولم يستقبل استقبالا سيئا ، بصفة عامة ، وحظي بعدد من الامتدادات النظرية الملموسة ، من بينها ما كتبه جوليا كريستيفا J. Kristeva . وبالرغم من كل هذا ، ظل أثر الكتاب محدودا بالقياس الى الأثر الذي خلفته كتب بارت الأخرى ... « أو لم يكتب في ثلاثمائة صفحة تحليلا هائلا لا يهضم ، قد لا يرتفع مردوده الايديولوجي عن مستوى مردود

A. Martinet ، نشر عام ١٩٦٠ تحت عنوان « عناصر من علم اللسانيات العام » . ويحتمل أن يكون بارت قد أراد أن يحاكي سلفه وأن يكتب عن علم العلامات كتابا كذلك الذي كتبه مارتينييه عن اللسانيات .

يبدأ المؤلف بطرح سؤال هام : لماذا لم يتقدم علم العلامات الا قليلا منذ سوسور؟ ويرد بقوله : لأنه لم يدرس سوى انواع من السنن ذات أهمية محدودة . ولو أنه اتجه الى أنظمة ذات عمق اجتماعي حقيقي ، لوجد بسرعة اللغة تحتها . بمعنى أن الاشياء ، والعلامات ، والسلوك ، لها معان أيضا ، لكنها مختلطة بالكلام ، وان مجموعات الأشياء (الزي ، المأكّل ، الأثاث) لا تصبح نظما علامية الا عن طريق اللغة التي تسمى دالاتها ومدلولاتها .

ويأخذ بارت عن سوسور الثنائيات اللغوية - الكلام ، ولا يدخل عليه أي تغيير . ويتساءل عن أهمية التعارض بين اللغة والكلام بالنسبة لعلم العلامات . ثم يذكر العلوم المختلفة التي استخدم فيها أو يمكن أن يستخدم فيها هذا التعارض . وسرعان ما يؤكد : « الى أي حد نرى أن مفهوم اللغة - الكلام ، غني بالتفسيرات الخارجة عن نطاق اللسانيات . نسلم اذن بأنه توجد فئة عامة هي اللغة - الكلام ، يمكن أن تمتد الى كافة نظم المعنى » . (٦٣) ولا بد من إعادة النظر في التعارض

« اساطير ؟ » (٦١) ويؤكد هذا مرة أخرى ما سبق أن أوردناه عندما قلنا أن الوحدة العميقة التي تربط بين مؤلفات بارت لا ترجع في النهاية الا الى رغبته في نزع قناع الايديولوجيات ، والتشديد برفض التاريخ . ويقول بروجلان « يتضح من قراءتنا لنظام الموضة ... أن هذه الآراء (الواردة فيه) ، وان لم تكن خاطئة بمعنى الكلمة ، تبسط الامور ، وأنها أحادية الجانب الى حد كبير » . (٦٢) ويستطرد قائلا إن بارت نظر الى الموضة نظرة جديدة كل الجدة ، مبتكرة كل الابتكار . وقد يفهم ما قاله عنها فهما جزئيا ، كما لم يفهم ما سبق أن قاله عنها سلفه مالارميه Mallarme .

في « عناصر من علم العلامات » يقتفي بارت أثر سوسور بوضوح ، لكنه يختلف معه في نقطة سبقت الإشارة إليها ، الا وهي العلاقة بين اللسانيات وعلم العلامات . وبحث بارت في مجال الموضة هو الذي انتهى به الى عدد من المفاهيم المأخوذة عن اللسانيات . لذا ، تعتبر « عناصر من علم العلامات » نتيجة « لنظام الموضة » ، وامتدادا مباشرا له . فمشاكل الوصف التي قابلها بارت عندما بحث في الموضة أجبرته على التفكير النظري فيها . هكذا كان البحث في مجال الزي والموضة منتجا ونتاجا « لعناصر من علم العلامات » .

ومن الصعب ألا يفكر الباحث ، بمجرد النظر الى العنوان ، في كتاب آخر لاندريه مارتينييه

(٦١) عدد خاص من مجلة L'Arc ، العدد ٥٦ ، ١٩٧٤ ، ص ١٦ .

(٦٢) المرجع السابق ص ١٦ .

(٦٣) « عناصر من علم العلامات » ، ص ٩٧ .

بين اللغة والكلام ، حسب النظم . في حالة المأكّل مثلاً ، يطبق هذا التعارض بسهولة وبلا أدنى تغيير ، عملياً . إذ توجد لغة غذائية (التعارض بين المملح / المسكر مثلاً) ، وكلام غذائي (الأطباق) . ومن ثم تصبح قائمة الطعام بنية ، أي عنصراً من عناصر اللغة ، يملأ بطرق مختلفة حسب الحالة . والقضية الحقيقية التي تطرح عند تطبيق هذا الثنائي على نظم غير لغوية ، بالمعنى الضيق للكلمة ، هي قضية أصل اللغة . بالنسبة للنظام اللغوي ، الأمور واضحة . فالعلاقة بين اللغة والكلام علاقة جدلية : يخلق الكلام اللغة ، لكن اللغة تحدد الكلام . ومجموع الأفعال الفردية يكون واقعاً اجتماعياً هو : اللغة . هكذا يسهم كل عنصر في تكوين النظام . لكن الأمر يختلف اختلافاً تاماً في حالة الموضة ، أو السيارة ، أو الأثاث ، حيث تخلق مجموعات القرارات الخاصة باللغة ، في حدود الإطار الذي تفرضه الاحتياجات والايديولوجيات ، بدون أن يعني المستهلكون بالأمر . فضلاً عن أن أهمية الكلام الإحصائية باللغة بالقياس إلى اللغة ، في مجال اللسانيات . بينما الكلام فقير جداً في نظم كنظام السيارات أو الأثاث . ويسوق بارت مثال الثوب الطويل / القصير الذي يدل على أهمية العمل الذي قام به في مجال الزي والموضة ، وعلى أن الموضة نظام فقير الكلام . ولا بد من أن يحسب حساب مثل هذه النظم عند إعداد أدوات البحث والتحليل .

أما الثنائي الثاني عند سوسور ، الدال - المدلول ، فهو لب القضية والبحث في علم العلامات ، ما دام يعني بمكونات العلامة . يقول بارت أن العلامة

وحدة ذات وجهين ، الدال - المدلول ، ثم يدخل التقسيمات المعروفة : شكل ومادة التعبير ، الشكل هو ما تحاول اللسانيات وصفه ، في حين تعني المادة بالعالم - اللغوي . وهذا التمييز بين الشكل والمادة يمكن أن يكون مفيداً في علم العلامات ، حيث تعني بعض النظم ابتداءً من مادة خالية من المعنى ، في بداية الأمر ، قد تكون نفعية أولاً وقبل كل شيء : المأكّل ، الزي ، الخ ... ثم تنحرف هذه الأشياء النفعية نحو المعنى ، مكونة ما يسميه بارت « الوظائف - العلامات » . ويرى بارت ، بهذه المناسبة أن مجال تدخل علم العلامات لا محدود ، عملياً . إلا أن هذا التدخل يفترض أن الباحث يعرف كيف يرتب ويصنف المدلولات ، أي يعرف كيف ينظم شكل المضمون . ويرى أنه من الصعب اقتراح أي شيء لترتيب مدلولات ، أي يعرف كيف ينظم شكل المضمون . ويرى أنه من الصعب اقتراح أي شيء لترتيب مدلولات علم العلامات ، لأن هذا المجال ما زال جديداً لم يطره أحد . على عكس ذلك ، لا يشير ترتيب الدالات قضائياً نظرية كبرى . ودور التبادل بالذات هو الذي يمكن الباحث من تقطيع العناصر وترتيبها . ولذا ذكر ما سبق أن أوردناه . عن المجموعات التبادلية في « نظام الموضة » . يبقى بعد ذلك نوعان من العلاقات المأخوذة عن سوسور أيضاً : الدلالة ، وهي علاقة داخل العلامة بين الدال والمدلول ، والقيمة ، وهي علاقة خارج العلامة ، مكونة من الفرق بين العلامات . وفي هذه النقاط أيضاً ، يحاول بارت أن يذهب أبعد مما ذهب إليه سوسور .

بارت عما اذا كان كل من الكناية والاستعارة يفضي الى امكانية تجاوز المحورين اللذين تحدثت عنها سوسور . حتى اذا كان بارت قد خضع في بحثه هذا للحدس فحسب ، فان هذا البحث يفسح المجال أمام أبحاث أخرى ومؤلفات ستصبح شغل المؤلف الشاغل .

أخيرا ، نقول أن « عناصر من علم العلامات » ، نص هام بالنسبة للسانيات البنيوية ، نص تميز بنزعة العلمية التي اضطرت المؤلف ان يسير خطوة خطوة ، وان يقتفي أثر علماء اللسانيات . ولعل هذا هو ما أخذه عليه هؤلاء العلماء الذين نذكر من بينهم ج . موان و ل . برييتو L. Prieto .



منذ أن كتب بارت « درجة الصفر في الكتابة » ، تبين أن حديثا ثانيا يختفي وراء الحديث الظاهر ، ويفرض نوعا معينا من القراءة . معنى هذا أن بارت يبحث عن النظام وراء الكتابة . اولم يقل في كتابه عن المؤرخ ميشليه Michelet : « كنت أنقل على أوراق منفصلة الجمل التي تعجبني ... أو تتكرر فقط . وعندما رتبته هذه الاوراق ، كما يلهم المرء باوراق اللعب ، لم يكن في استطاعتي الا الانتهاء الى تيمات بعينها » . (٦٤) وقال قبل ذلك في « مقالات في النقد » : معنى العمل او النص لا يمكن أن يتكون تلقائيا . فالمؤلف لا ينتج أبدا الا افتراضات للمعاني والأشكال ، والعالم هو الذي يملؤها (٦٥) . وقال قبل

وأخر ثنائي يتحدث عنه بارت ، بعد سوسور ، هو الثنائي مجال التوزيع - مجال الاستبدال Syntagme — paradigme ، لكن بارت يستخدم كلمة نظام systeme بدلا من paradigme ومجال التوزيع هو ، في كل الحالات ، مكان العلاقات بين الوحدات الحاضرة ، أما النظام أو مجال الاستبدال ، فهو محور العلاقات بين وحدة حاضرة في مجال التوزيع والوحدات الغائبة . لكن مجال التوزيع ومجال الاستبدال يقابلان شكلين من النشاط الذهني ، وكان سوسور قد أشار الى ذلك ، وجاء جاكسون من بعده ليعمق هذه الفكرة ، ويقرب مجال التوزيع من الكناية metonymie والنظام من الاستعارة metaphore وأشار الى أن هناك من الاحاديث ما تغلب عليه الاستعارة : أفلام شارلي شابلن ، والرسم السيريالي ، وما تغلب عليه الكناية : القصيدة الملحمية ، والروايات الواقعية . ويرى بارت في هذا الاتجاه للبحث سبيلا ممكنا للانتقال من اللسانيات الى علم العلامات . وكان من السهل عليه أن يبين ان المحورين اللذين تحدثت عنها سوسور يمكن أن يطبقا على النظم التي يدرسها . على سبيل المثال ، مختلف انواع الحلوى تعد نظاما ، ومجموع أطباق قائمة الطعام مجالا للتوزيع . « والجوب » والبنطلون ، والثوب يكونون مجالا للاستبدال ، أما الجوب و « البلوزة » فيكونان مجالا للتوزيع - مختلف أنواع الأسرة مجال للاستبدال ، اما السرير ، والمائدة التي بجانبه ، والصوان فمجال للتوزيع . ويتساءل

(٦٤) مجلة Tel Quel ، العدد ٤٧ ، ص ٩٤ .

(٦٥) « مقالات في النقد » ، ص ٩ .

ذلك في « مقالات في النقد » يبحث بارت في مجال الأدب عن مخاطب يمكن أن يدخل معه في عملية تواصل communication . ويوصفه متلقيا لسنة معينة ، يبحث عن مرسلين لها ، من بينهم « صاد ، وفورييه ، ولوايولا Sad, Fouriet, Loyola » (١٩٧١) ، مستهدفا أمرين : التنظيم ، والاجابة أحيانا . يبدو هذا التنظيم واضحا في حديثه عن صاد . فهو لا يهتم بصاد كفرد وإنما يدرس انتاجه . وإذا كان صاد حاضرا فيوصفه مرسلا للسنة التي يتناولها بارت بالدراسة . من ناحية أخرى ، يطل كل من « متعة » بارت وسخريته العميقة من وراء الاستعارة اللغوية . اذن ، صاد غائب في هذه المسيرة ، كأنه لم يكن . مما يذكرنا بقول ل . جولدمان L. Goldman : « كثيرا ما حاول البعض أن يدرسوا مؤلفات الكتاب بالنسبة للفرد ، أي الكاتب . والفرق الكبير بين المؤلفات التي أوجت بها البنيوية التوليدية والنقد الأدبي التقليدي تكمن ، ليس في كون الاولى ترجع العمل الادبي الى فاعل جماعي ، بينما يرجعه الثاني الى فاعل فردي فحسب ، وإنما في كون الفاعل الجماعي يعدّ بنية لها دلالتها لا تمر كما هي عبر الوعي » . (٦٦)



« س / ز » S / Z هو ثاني كتاب منهجي في مؤلفات بارت . فيه يعود الكاتب الى بعض المفاهيم التي سبق وأن تحدث عنها - « المعنى المصاحب »

يبدأ بارت بالتساؤل عن الطريقة التي يمكن أن نقيّم بها النص . ويرد قائلا : بكتابتها مرة أخرى ، أي بالوقوف منه موقف المنتج ، لا المستهلك . وذلك بقبول امكانياته المتعددة ، أي بالاعتراف بصفة الجمع « Pluriel » : « علينا أذن أن نختار : إما أن نتنقل من نص الى آخر ، ونساوي بين كل النصوص ، ونجبرها على اللحاق بالصورة التي تستشقت منها فيما بعد . او أن نضع كل نص في حركته ، ونجعل مجال استبدال الفروق - وهو لا نهائي - يلتقطه ، حتى قبل أن نتحدث عنه ، ونخضعه للتقييم . كيف اذن نقيّم النص ؟ التقييم الأساسي لكل النصوص لا يمكن أن يتأني من العلم ، لأن العلم لا يقيّم ، ولا من الايديولوجيا ، لأن قيمة النص الايديولوجية (اخلاقية ، جمالية ، سياسية) ، قيمة تصويرية ، لا انتاجية ... ان تقيّمنا لا يمكن أن يرتبط الا بالممارسة وهذه الممارسة هي ممارسة الكتابة » . (٦٧) والنصوص تنقسم الى قسمين : نصوص قابلة للكتابة ، وهي تلك التي استطاع أن يكتبها مرة أخرى ، والنصوص القابلة للقراءة ، وهي نصوص لا يمكن الا أن تقرأ فقط ، « يلتقي التقييم بهذه القيمة : ما يمكن أن يكتب اليوم ، أي ما يقبل الكتابة قيمة خاصة بنا ؟ لأن

(٦٦) ج . ل . كالفيه J.L. Calvet ، « رولان بارت » ، ص ١٣٤ .

(٦٧) « س / ز » ، ص ١٠ .

النص مجموعة من النصوص الأخرى ... الموضوعية والذاتية ، بالطبع ، قوى يمكن أن تستولي على النص ، لكنها قوى لا تنسجم معه . فالذاتية صورة ملآنة ، وامتلاؤها ليس سوى أثر لكل السنن التي تكوّنني ، بحيث تنتهي ذاتيتي الى عمومية الأنماط الثابتة . والموضوعية امتلاء من نفس النوع : انها نظام خيالي كالنظم الأخرى ... والقراءة لا تشتمل على احتمال الذاتية او الموضوعية .. الا بالقدر الذي نعرف به النص بأنه شيء تعبري ، أي شيء مقدم لتعبيرنا الخاص ... ومع ذلك ، فالقراءة ليست حركة طفيلية ، وتكملة لكتابة نزينها بكل حالات الابداع ، بل هي ... عمل ... يجعلني أكتب قراءتي ... أنا القاريء لست محتفيا في النص ، كل ما هنالك أنه لا يمكن تحديد مكاني فيه . مهمتي هي الحركة ، ونقل نظم لا يتوقف استكشافها عند النص او عندي أنا ... فالقراءة عملية كلام ... القراءة تعني العثور على بعض المعاني وتسميتها ... فالنص تسمية في صيرورتها . (٧٠)

اذن ، عملية القراءة استكشاف لسبل مختلفة ، استكشاف يجد في تناول يده أداة فعالة : « المعنى المصاحب » . انه أثر « الجمع » النص ، ومعنى لا يوجد في المعاجم ، ومجموعة مبعثرة من الدلالات ، ونقطة انطلاق نحو سنة ثانية ، وتغيير في التواصل الخالص ، ومكان متميز لتقييم النص : « ما هو

هدف العمل الأدبي هو أن يجعل من قارئ النص منتجا له ، لا مستهلكا ، يتسم أدبنا بالترقّة السياسية التي تقيمها المؤسسة الادبية بين من يصنع النص ومن يستخدمه . ومؤلفه وقارئه ... عندئذ ، يفوص هذا القارئ في نوع من الفراغ ، ... وبدلا من أن يؤدي الدور بنفسه ، ويصل الى سحر الدال ، ومتمعة الكتابة ، لا يبقى له سوى حريته البائسة ، حرية استقباله للنص أو رفضه له . وتنحول القراءة الى مجرد استفتاء » . (٦٨)

تلقي التقييم عملية ثانية هي التفسير . هذا ويعطي بارت التفسير المعنى الذي أعطاه له نيتشه : « تفسير النص لا يعني اعطائه معنى ، بل تقدير « الجمع » الذي يتكون منه .. تستطيع نظم المعنى أن تستولي على هذا النص « الجمع » ، لكن عددها لا ينتهي أبدا ... ويتعلق الأمر .. بتأكيد كينونة هذا الجمع ، وهي ليست كينونة ما هو حقيقي ، أو محتمل ، أو حتى ممكن ... وبالنسبة للنص « الجمع » لا يمكن أن توجد بنية ، أو يوجد نحو أو منطق خاص بالسرد » . (٦٩)

والنصوص التي يمكن أن تكتب لا تقرأ فقط ، لأنها لا تكتب حقا قبل تدخل القارئ او المتلقي : « كلما كان النص جمعا قلّت كتابته قبل قراءتي له . فأنا لا أخضعه لعملية تسمى قراءة ، وما « أنا » بفاعل برىء ... فهذا « الأنا » الذي يقترب من

(٦٨) المرجع السابق ، ص ١٠ .

(٦٩) المرجع السابق ، ص ١٢ .

(٧٠) المرجع السابق ، ص ١٦ - ١٧ .

المعنى المصاحب « connotation ؟ انه ، من حيث التعريف ، علاقة ، لمحة تستطيع الرجوع الى ذكر سابق أو لاحق أو خارجي بالنسبة لها ، أو الرجوع الى أماكن أخرى في النص (أو نص آخر) . ولا ينبغي تضيق مجال هذه العلاقة التي يمكن أن تتخذ تسميات مختلفة ، بشرط عدم الخلط بين « المعنى المصاحب » وتوارد الخواطر ... من الناحية الجغرافية ، المعنى المصاحب معنى لا يوجد لا في القاموس . ولا في كتب النحوي الخاصة باللغة التي كتب بها النص ... من الناحية التحليلية ، يتحدد « المعنى المصاحب » من خلال مكانين : مكان يخضع لتتابع الجمل التي ينتشر المعنى من خلالها ، ومكان تجميعي ، لأن بعضاً من أماكن النص يرتبط بمعان أخرى خارجة عن النص المادي ذاته ... من الناحية العلامة ، كل « معنى مصاحب » بداية لستة معينة .. من الناحية الديناميكية ، المعنى المصاحب « سيطرة يخضع لها النص ، وإمكانية هذه السيطرة . من الناحية التاريخية ، يرسي المعنى « المصاحب » قواعد أدب خاص بالمدلول . من الناحية الوظيفية ، يولد « المعنى المصاحب » من حيث المبدأ معنى مزدوجاً ، وبذلك يؤثر على نقاء التواصل ... من الناحية البنيوية ، يوجد نظامان - « المعنى المصاحب » و « المعنى الاصطلاحي » Denotation يقال عنها أنها مختلفان ، مما يمكن كل نظام من العودة الى النظام الآخر ... » (٧١)

ويجب أن يحترم التقييم الفروق Differences ، بمعنى أنه لا يستطيع أن يكتفي بتحليل بنيوي للجزئيات الكبيرة . كان ف . بروب V. Propp قد اقترح نموذجاً تحليلياً يرجع كل النصوص موضع الدراسة - وكانت مأخوذة عن الأدب الشعبي الروسي - الى بنية سردية واحدة . لكن بارت يرفض هذا المنهج ويقول : « اذا أردنا أن ننتبه الى « جمع » النص ، يجب أن نتنازل عن بناء هذا النص من كتل كبيرة ، كما كانت تفعل البلاغة الكلاسيكية ... لا بناء للنص . كل شيء يعني شيئاً ، باستمرار ، وعدة مرات ، لكنه لا يعهد بالمعنى الى مجموعة : نهائية كبرى ، او بنية أخيرة . من ثم ، كانت فكرة التحليل التدريجي الذي يطبق على نص واحد ... فالنص الواحد تعترف به كل نصوص الأدب ، لأنه يمثلها ، وانما لأن الأدب ذاته ليس نصاً واحداً . النص الواحد ليس التوصل الى نموذج ما ، وانما مدخل الى شبكة لها ألف مدخل . والدخول على هذا النحو يستهدف على المدى البعيد رؤية مفتوحة ينتقل افقها باستمرار .. علاوة على ذلك ، فان العمل في هذا النص الواحد ، حتى ادق التفاصيل ، يعني مواصلة التحليل البنيوي للسرد من حيث توقف ... يعني القدرة على الصعود الى شرايين المعنى الصغيرة ، وعدم ترك أي مكان في الدال بدون التنبيه بوجود ستة - أو أكثر - قد يكون هذا المكان بدايتها أو نهايتها » . (٧٢) ويعني هذا أن السعي وراء « جمع »

(٧١) المرجع السابق ، ص ١٤ - ١٥ .

(٧٢) المرجع السابق ص ١٩ .

النص يفرض تحليلاً تدريجياً ، وتقطعاً أدق من ذلك الذي اقترحه بروب ، وتقسيماً إلى وحدات للقراءة سميها بـت Lexies : « يقطع الدال إلى سلسلة من الأجزاء الصغيرة المتجاورة ، نسميها وحدات قرائية . ولا بد من أن نقول أن هذا التقسيم سيكون تعسفياً بحتاً ، ولن يشتمل على أية مسئولية منهجية ، ما دام مختصاً بالدال ، في حين أن التحليل المقترح يختص بالمدلول فقط قد تشتمل الوحدة القرائية على كلمات قليلة ، أو عدة جمل ... يكفي أن تكون أفضل مكان يمكن ملاحظة المعاني فيه ، أما حجمها ... فيتوقف على كثافة المعاني المصاحبة التي تتغير حسب لحظات النص . يكفي أن تكون لكل وحدة قرائية ثلاثة أو أربعة معاني تذكر . فالنص في مجموعه أشبه بسهاء مسطحة وعميقة في آن واحد ، ملساء ، وبلا حواف . وكما يفعل الباحث عن النبوة التي يرسم عليها بطرف عصاه مستطيلاً وهمياً يسأل فيه عن بعض مبادئ طيران الطيور ، ويرسم الباحث بطول النص مناطق قراءة ، لكي يراقب فيها هجرة المعاني ، وظهور السنّة بأنواعها ، ومرور الاستشهادات » . (٧٣) ويواصل بارت عرضه المنهجي بحديثه عن « النص المكسور » : « على الباحث أن يسجل تكرار المدلولات واحصاؤها بطريقة منتظمة ، بالنسبة لكل وحدة قرائية ، لا يهدف إلى إقرار حقيقة النص (بنيته العميقة) وإنما طابعه « الجمعي » لن تعطي إذن وحدات المعنى (المعاني

وقبل أن ينتقل إلى تحليل قصة بلزراك ، يشير بارت نقطة أخيرة خاصة بعدد القراءات الممكنة : « يجب أن نقبل حرية أخيرة ، حرية قراءة النص كما لو كان قد قرأه سلفا . الذين يحبون القصص الجميلة يستطيعون ، طبعاً ، أن يبدأوا بالنهاية ، ويقرأوا النص - كما يقرأ عادة . أما بالنسبة لنا ، نحن الذين نعمل على إقرار « جمع » النص ، فلا نستطيع إيقاف هذا « الجمع » عند أبواب القراءة . يجب أن تكون القراءة أيضاً قراءة « جمعية » ، أي بلا ترتيب في الدخول ... وإعادة القراءة - وهي عملية مخالفة للعادات التجارية والأيديولوجية لمجتمعنا الذي يوصي بالقاء القصة بعد استهلاكها .. للانتقال إلى قصة أخرى وشراء كتاب آخر - لا يسمح بهذا إلا

(٧٣) المرجع السابق ، ص ٢٠ .

(٧٤) المرجع السابق ، ص ٢١ .

اللهو، في أكثر الاحتفالات صخباً وضجيجاً. وكانت ساعة «الليزية - بوربون» قد أعلنت لتوها عن منتصف الليل. كنت جالسا امام احدى النوافذ، ومختفيا تحت ثنانيا الستار المتموجة. هكذا استطعت أن أتأمل، كما أشاء، حديقة المنزل الذي اقضي فيه فترة المساء».

يبدأ بارت بتقسيم هذه السطور الى وحدات قرائية، ثم يعثر في كل منها على سنة واحدة أو أكثر. ويبدأ بالعنوان: «سارازين» ويقول أنه يطرح سؤالا: سارازين؟ ما هذا؟ اسم علم؟ شيء؟ رجل؟ امرأة؟ والرد على هذه الأسئلة، أو حل هذا اللغز لا يرد الا متأخرا، عندما يتطرق الحديث إلى السيرة الذاتية للمثال الذي يدعى سارازين. ويقرر بارت اطلاق اسم «سنة الألفاز» على مجموع الوحدات التي تطرح، بطرق مختلفة، سؤالا، وجوابه، الأحداث المتنوعة التي يمكن أن تمهد للسؤال أو تؤخر الجواب، أو تنطق بلغز ثم تؤدي الى تفسيره وحله. من ناحية أخرى، كلمة سارازين، في الفرنسية، تدل بنهايتها على الانوثة والمؤنث، خاصة بالنسبة لأسماء العلم. والأنوثة هنا مدلول يثبت في عدة أماكن من النص. انها عنصر مهاجر، يستطيع أن يتداخل مع عناصر أخرى من نفس النوع لكي يكون طبائعا، وأجواء، ووجوها، ورموزا. ويمكن أن يظهر هذا النص، بطبيعة الحال، في أماكن أخرى ووحدات قرائية أخرى ويسمى بارت هذه السنة «سنة المدلول».

لفئات هامشية من القراء (الاطفال، والشيوخ، والأساتذة)، وإعادة القراءة تقترح هنا، منذ البداية، لأنها الشيء الوحيد الذي ينقذ النص من التكرار... ويخرجه من زمانه الداخلي (يحدث هذا «قبل» أو «بعد» ذلك) ويعثر على زمان اسطوري (بدون «قبل» أو «بعد»). (٧٥)

لا تشتمل بعض الوحدات القرائية الا على كلمة واحدة، مثال ذلك عنوان قصة بلزاك موضع الدراسة. في حين يشتمل البعض الآخر على عدة سطور. وهذه الوحدات مكان «جمع» النص القابل للكتابة، ومدلولاته. وتظهر هذه المدلولات، طوال النص، من خلال خمسة أنواع من السنة، تتداخل، وتختلط، الخ...

يتساءل القارئ لأول وهلة: لماذا اختار بارت قصة بلزاك القصيرة «سارازين»؟ «اعرف فقط أنني كنت أريد من مدة طويلة أن أحلل سردا قصيرا في مجموعته، وأن دراسة لجان ريبول J. Reboyl عن قصة بلزاك هذه استرعت انتباهي. ويقول صاحب هذه الدراسة أن اختياره كان نتيجة لكلمة قالها جورج باتاي G. Bataille. (٧٦). وقبل الانتقال الى أنواع السنة الخمسة التي يتحدث عنها بارت، نورد السطور الاولى من «سارازين»، من أجل ايضاح أفضل لهذه المفاهيم:

«كنت غارقا في واحد من تلك الاحلام العميقة التي تستولي على الجميع، حتى على من يحبون

(٧٥) المرجع السابق، ص ٢٢ - ٢٣.

(٧٦) المرجع السابق، ص ٢٣.

والمعرفة ، والتي يرجع اليها النص باستمرار ، ويطلق عليها بارت تسمية عامة : « سنة ثقافية » .

تشتمل هذه الوحدات القرائية الثلاث على أنواع السنة الخمسة التي تلحق بها كافة مدلولات النص : « لا توجد سنة أخرى غير هذه السنن الخمس ، وما من وحدة قرائية لا تجد مكانا فيها . ونستعيد أنواع السنة الخمسة هذه ، حسب ظهورها ، بدون أي محاولة لترتيبها . « سنة الالغاز » تفرق بين مختلف الأطراف (الشكلية) التي يتركز حولها اللغز ، ويطرح ، ثم يتأخر ، وأخيرا ، يكشف عن نفسه . أما بالنسبة للمدلولات ، فتستخلص لا أكثر ، أي بدون محاولة ربطها باحدى الشخصيات (أو أحد الاماكن أو الأشياء) ، أو تنظيمها بحيث تكوّن مجالا واحدا للتيات ... لن نعمل أيضا على بناء الحقل الرمزي ... والمهمة الرئيسية تبقى اذن التدليل على أنه يمكن الوصول الى هذا المجال من عدة مداخل متساوية ... وينتظم السلوك في مشاهد Sequence مختلفة . والمشهد السلوكي لا ينتج أبدا ، الا عن حيلة في القراءة : كل من يقرأ النص يجمع بعض المعلومات تحت اسم للأفعال (النزعة ، القتل ، اللقاء) . وهذا الاسم هو الذي يصنع المشهد . فالمشهد لا يوجد الا في اللحظة التي يمكن تسميته فيها . وهو يتطور حسب ايقاع التسمية التي تبحث عن ذاتها . أساس المشهد اذن تجريبي أكثر منه منطقي ، ولا داعي لادخاله عنوة في نظام شرعي من العلاقات ... أخيرا ، السنة الثقافية استشهاد بعلم أو حكمة . وعند احصاء أنواعه ، نكتفي بالاشارة الى نوع

« كنت غارقا في واحد من تلك الاحلام العميقة » : سيجري الحديث عن هذا الحلم المعلن عنه هنا وفقا لصورة بلاغية معروفة هي التضاد Antithese ، من خلال أمثلة متتالية : الحديقة والصالون ، الحياة والموت ، البرودة والحرارة ، الداخل والخارج . ما تعلن عنه هذه الوحدة اذن هو شكل رمزي كبير سيفضي مساحة كاملة من التبادلات والتنويعات ، تقودنا من الحديقة الى الحصى ، ومن الصالون الى المرأة التي يحبها الراوي . اذن ، يبرز ، في المجال الرمزي ، حقل واسع هو حقل التضاد . وتعتبر هذه الوحدة مدخلا له . ويسمى بارت هذه السنة « سنة الرمز » . أما حالة الفرق - « كنت غارقا - فتادى حدثا يضع حدا له ، أي شيئا يخرج الراوي من الحلم الذي غرق فيه . ومثال كهذا يشتمل ضمنا على سبب للسلوك الانساني . ويسمى بارت هذه السنة « سنة سنة الافعال والسلوك » . أما الوحدة الثالثة فتتمثل في هذه الجملة :

« التي تستولي على الجميع ، حتى من يحبون اللهو ، في أكثر الاحتفالات صخباً وضجيجاً » . هذه المعلومة « هناك احتفال » ، مضافة الى معلومات أخرى (منزل في شارع سان اونوريه) مدلول لثراء أسرة لاني . والجملة نفسها ليست سوى تحريف لما يمكن أن يكون مثلاً سائراً : « الاحتفالات الصاخبة لأحلام عميقة » . ومن يلفظ بها صوت جماعي ، مجهول ، اصله حكمة البشر . تنتج هذه الوحدة اذن عن سنة من أنواع السنن العديدة الخاصة بالحكمة

المعرفة (طبيعية ، فزيولوجية ، طبية ، سيكولوجية ، أدبية ، تاريخية) المذكور . (٧٧)

« كانت ساعة الاليزية - بوربون قد أعلنت لتوها عن منتصف الليل » سنة المدلول « هنا تدل على الثراء : الاليزية - بوربون = حي سان أونوريه = حي غني = الثراء . وعلى مستوى ثان ، لهذا الثراء مدلولات أخرى : حي سان أونوريه = حي أغنياء الحرب = باريس بعد عودة الملكية = المساومة على الذهب ، الخ ...

« كنت جالسا أمام إحدى النوافذ » : تعبر « سنة الرمز » هنا ، لا عن التضاد ، وإنما عن ملخصه الذي يظهر في شكل حد . فالنافذة جد فاصل بين الداخل والخارج ، أي طرفي التضاد . « مختفيا تحت ثايلا الستار المتموجة » : تظهر « سنة السلوك » هنا سبب فعل قادم : الاختفاء . « كنت أستطيع أن أتأمل كما أشاء حديقة المنزل الذي أقضي فيه فترة المساء » : تظهر « سنة الرمز » مرة أخرى مع الطرف الأول للتضاد ، ألا وهو اعلان عن وصف مستقبل : كنت أستطيع أن أتأمل / سوف أصف . و « سنة المدلول » تواصل الدلالة على الثراء : ها هو المنزل ، بعد الاحتفال ، وحي سان أونوريه .

يتضح من هذا التحليل أن السنة ، كما يفهمها بارت ، في « س / ز » ، شيء مختلف كل الاختلاف عما يقصد عادة بهذه الكلمة . فالسنة هنا ليس بنية أو مجال استبدال ، وإنما اتجاه معين للقراءة ، أو كما

يقول بارت « صوت » . و « الأصوات » هي التي تتولى انتاج النص ، وتعين قراءاته ، وتضمن طابعه « الجمعي » . أما عن الوحدات القرائية ، فإن الأمثلة التي ساقها المؤلف وأوردنا بعضها منها ، فتدل على أن تقسيمها يستند الى الحدث فحسب . ما من معيار يجعلنا نقول أن التقسيم هنا أفضل من التقسيم هناك . ربما أخذ البعض على بارت هذه النزعة التجريبية خاصة بعد الاحتياطات العلمية التي سبق وأن اتخذها في « نظام الموضة » ، و « عناصر من علم العلامات » . لكن ، لابد من التوقف هنا عند نقطتين هامتين : فمن ناحية ، الشيء الوحيد الذي يهم المؤلف هو بيان المدلولات التي تظهر في النص ، وما الوحدة القرائية هنا سوى وسيلة مناسبة للبحث والعرض . ومن ناحية أخرى ، لا ينبغي أن نقيم « س / ز » بالقياس الى كل من « نظام الموضة » و « عناصر من علم العلامات » ، وإنما بالنسبة للمأزق النسبي الذي وجده بارت في المجال الأدبي ، والذي تدل عليه بعض النصوص الواردة في « مقالات في النقد » . ومن وجهة النظر هذه ، يعتبر كل من « س / ز » و « صاد ، فورييه ، لويولا » تقدما أكيدا ، حتى لو افتقرت محاولة المؤلف الى الطابع العلمي الصرف . المهم هو أن بارت بدأ يقدم جوابا لسؤال لا يطرحه النقد على نفسه الا نادرا : كيف يجري الحديث عن الأدب ؟ والجواب ، برأي بارت ، هو : بعدم الحديث عنه ، وإعادة كتابته . وأيا كان الحال ، فإن بارت ادخل تحسنا ملحوظا على منهج

الى المتعة - «متعة النص» Plaisir du texte (١٩٧٣) - ، مارة بالتلقي « س / ز » - بين النص القابل للكتابة ، والنص المتعة ، يظهر تعريف جديد للأدب . ويسير كتاب « متعة النص » في اتجاه الكتب السابقة له ، ولكن من وجهة نظر أخرى . ومن أول نص الى آخر نص كتبه ، من الأدب الى الأدب ، مرورا بالموضة والبزي ، والاعلانات ، والمصارعة الحرة ، نلمس استمرارية في نظر بارت الى الأمور .

تحليل النصوص وتطبيقه . واقتفى أثره عدد غير قليل من المعاصرين والتلاميذ ، نذكر من بينهم ، على سبيل المثال لا الحصر ، دريدا Derrida ، وج . كريستيفا ، وج . جينيت G. Genette .

لكن فكر بارت تميز بخواص تتجاوز قضية النص ، وتدور حول وضع من يتلقى السنة ، و « متعة » هذا التلقي . هكذا تغلق الدائرة التي تبدأ من الارسال - « درجة الصفر في الكتابة » - وتنتهي



BIBLIOGRAPHIE

Roland Barthes :

- "Le degré zéro de l'écriture."
 Paris, Editions du Seuil, "Points", 1972.
 "Mythologies".
 Paris, Editions du Seuil, "Points", 1970.
 "Le système de la mode"
 Paris, Editions du Seuil, 1967.
 "Sur Racine".
 Paris, Editions du Seuil, "Pierres Vives", 1963.
 "Critique et vérité".
 Paris, Editions du Seuil, "Tel Quel", 1966.
 "SIS"
 Paris, Editions du Seuil, "Tel Quel", 1970.
 "Sade, Fourier, Loyola"
 Paris, Editions du Seuil, "Tel Quel", 1973.
 "Le plaisir du texte".
 Paris, Editions du Seuil, "Tel Quel", 1973.

Loui — Jean CALVET :

- "Roland Barthes, un regard politique sur le signe",
 Paris, Payot, 1973.

Guy de MALLAC' MARGARET EBERBACH :

- "Barthes".
 Paris, Editions universitaires, 1971.

Stephen HEATH :

- "Vertige du déplacement, lecture de Barthes",
 Paris, Fayard, 1974.

L'ARC, numéro spécial, no. 56, 1974.

يعتبر كتاب ج . سوليفان G.W.N.Sullivan (١) (حدود العلم) (Limitation of Science) واحدا من الدراسات المعاصرة (الرصينة) التي تناولت بالتحليل قدرة العلم البشرى والآفاق التي تمكن من الوصول إلى بعضها ووقف إزاء بعضها الآخر ناكصا ، عاجزا ... وهو يذكرنا بكتاب الطبيب الفرنسي الشهير الكسيس كاريل الانسان ذلك المجهول : Man the unknown .. فكلاهما سبرغور العملية العقلانية للانجاز العلمى ، ومارس تحليلها بعمق ورؤية .. وكلاهما يقدم للقارئ قناعات ليس إلى نكرانها من سبيل .. إنها ابنا العصر الذى خفت فيه حده الوهج المعشئ الذى كان - يوما - قد حول ببريقه الوحشي جماعات العلماء والدارسين إلى متصرفة وعابدين في محاريب العلم .

يومذاك ما كان بمقدور أحد من الناس أن يقف قبالة (العلم) ناقدا معترضا .. ما كان بمقدور أحد أن يشكك بقدرة هذا الصنم على أن يمد إرادته الى كل مكان وأن يشمل برؤياه الموضوعية كل صغيرة وكبيرة ، فلا ينال أحد من نتائجه التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها .. إن أحدنا لا يستطيع أن يتحدى الشمس بنظرة ثابتة والا فقد قدرته على الابصار .. يومذاك .. كان العلم هو هذه الشمس التي تسلب البصر من يختار أن يتحداها .. يومذاك كتب السير جيمس فتنز جيمس ستيفن (١٨٨٤) فصلا يعتبر مثالا للآراء العلمية في تلك الفترة ، فقال : (إذا كانت الحياة الانسانية في

العلم في مواجهة المادية قراءة في كتاب مرور العلم لسوليفان

عماد الدين خليل

نشأتها قد استوفى العلم وصفها فلسف أرى بعد ذلك مادة باقية للدين ، إذ ما هي فائدته وما هي الحاجة إليه ؟ إننا نستطيع أن نسلك سبيلنا بغيره ، وإن تكن وجهة النظر التي يفتحها العلم لنا لا تعطينا ما نعبده فهي كفيفة أن تعطينا كثيرا مما نستمتع به ونتمناه .. إننا قادرون على أن نعيش عيشة حسنة بغير الديانة .. » (٢)

لكن الزمن يمضي ومعطيات العلم الغزيرة تزداد تدفقا وعطاء كأمواج البحر ، يدفع بعضها بعضا ويضرب بعضها بعضا .. ويتبين يوما بعد يوم وعقدا بعد عقد أن ما كان حقا بالأمس غدا اليوم باطلا ، وما هو مقبول اليوم ، سيرفض في غد أو بعد غد .. إن نتائج الجهد العلمى ليست سواء ، فبعضها قاطع بصدقه كالسكين ، وبعضها الآخر - وهو كثير - اجتهادات ونظريات ، وبعضها الثالث - وهو أكثر من الكثير - ظنون وتخمينات ، وبعضها الرابع - وهو أكثرها - ميول وتحيزات نرجسية وهوى ..

وبعدما انطوت قرون الوهج والبريق - الثامن عشر والتاسع عشر ومطالع العشرين - حان الوقت لكى يعاد النظر في مسألة حدود العلم وقدراته .. ولكى يتصدى للحكم رجال ينطلقون من باحة العلم نفسه : المختبر ، لكى يصدروا حكمهم فيكون أكثر منطقية وأشد إقناعا .

ويبقى العلم - بعد هذا كله - يدا واحدة لا تستطيع أن تمضي بالحياة قدما صوب الكمال .. وتبقى الحاجة الملحة إلى اليد الأخرى .. يد الدين .. إذا ما

أرادت البشرية تحركا جادا صوب الأحسن والأرقى .. تحركا لا يضلله غرور ولا يحبطه اعتقاد اعمى على اليد الواحدة .

هذا إذا لم نكن خاطئين ، والخطأ - كما يقول تاليران - أكبر من الجريمة أحيانا، وذلك في تصور العلم والدين : يدان .. قد تعملان بتواز .. نعم .. ولكنهما يدان منفصلتان .. هذه يد يمنى وتلك يد يسرى .. والأخرى أن نقول بأن التيار الواحد الذى يلتقى فيه ويمتزج ويتداخل العلم والدين ، وتنمحي الثنائيات التي جاءتنا من الغرب ، ولم نذق لها طعما في تجربتنا مع ديننا القيم (الاسلام) .. هنا .. حيث يكون الدين (علما) إلهيا شاملا .. وحيث يغدو العلم عبادة و (ديناً) ..

يبدأ سوليفان فصله الثالث (الذى سنعتمده والخامس هنا نظرا لأهميتها بصدد الموضوع الذى بين أيدينا) ، بهذه المقولة التي تذكرنا بتأكيدات كاريل في (الانسان ذلك المجهول) .. (تبدو التفسيرات العلمية للعالم من حولنا - يقول الرجل - أشد ما تكون وضوحا وإقناعا عندما تتناول المادة الجامدة ، ففي هذا المجال تبدو تلك التفسيرات مقبولة إلى درجة كبيرة ، لأنها على العموم ترضى فضولنا وتعالج ما يثير اهتمامنا فيما يتعلق بالظواهر المادية . فالعمر ، والموقع ، والحجم ، والسرعة والتركيب الكيماوى ، هو ما تهتمنا معرفته لدراسة نجم من النجوم . وإذا علمنا أن المادة تتألف من ذرات مشحونة بالكهرباء ، ومنسقة وفقا لأنماط معينة ، فأننا

(White bead) منصفاً عندما أشار إلى هذه الحالة في معرض حديثه عن تطبيق أفكار الفيزياء والكيمياء على الحياة حيث قال : (لابد من الاعتراف بأن هذا الأسلوب - يقصد تطبيق أفكار الفيزياء والكيمياء على الظواهر الحية - قد لاقى نجاحاً مرموقاً . لكن المشكلة وهي هنا تفهم العمليات التي يقوم بها الجسم الحي ، لا يمكن أن تحدد بواسطة الأسلوب الذى تعالج به . ومن الواضح تماماً أن هناك عمليات معينة تقوم بها بعض الاجسام الحية بناء على تصور مسبق لغاية ما ، وتصور طريقة معينة لبلوغها وتحقيقها . ولا يمكن حل المشكلة إذا جرى تجاهل فكرة الغاية لمجرد أن هناك عمليات أخرى يقوم بها الجسم الحي ويمكن تفسيرها في نطاق قوانين الفيزياء والكيمياء . إن وجود المشكلة في حد ذاته لم يعترف به ، بل جرى رفضه باصرار . لقد أجرى العالم ماني (Many) تجارب طويلة بقصد تعزيز اعتقاده بأن العمليات التي يقوم بها الجسم الحي ليست مستوحاة من فكرة الغاية . وأمضى العالم المذكور الكثير من وقته لكتابة المقالات التي أراد من ورائها أن يثبت أن فكرة الغرض أو الغاية غير ذات موضوع فيما يتعلق بتفسير النشاط الجسدى للكائنات البسرية ، شأنها في ذلك شأن بقية أنواع الحيوانات ، وذلك بما فيه أعمال هذا العالم نفسه ومقالاته . إن ملاحظة أولئك العلماء الذين يعملون للتدليل على أن أعمالهم لا مغزى لها ، ولا غرض من ورائها ، لأمر جدير بالدراسة والاهتمام .

(وثمة سبب آخر لاستبعاد فكرة العلة النهائية Final Causation ألا وهو الخشية من الانزلاق في التفسيرات السطحية ، وهذا أمر صحيح بكل تأكيد ،

نكون قد أرضينا فضولنا فيما يتعلق بتركيب المادة إلى درجة كبيرة : ص ٥) .

ولكن !!

(عندما نأتي إلى العلوم التي تعالج الظواهر الحية ، نجد الأمر مختلفاً ، والحال أقل ارضاء مما هي عليه بالنسبة للعلوم الطبيعية . إن كثيراً من الاسئلة التي تبدو لنا جوهرية جداً في هذا المجال لم تجد الاجابة عنها بعد . مثال ذلك : ما الذى يجعلنا ننظر إلى الكائن الحي ككل وليس كمجموعة من الأجزاء المكونة له فحسب ؟ ما الذى تعنيه تلك الفكرة الغامضة التي نعبر عنها (بالكل) (wholeness) أو (التفرد) (Individuality) حتى لو أمكن تفسير كل فعالية أو نشاط يقوم به الجسم الحي عن طريق التغيرات الفيزيائية والكيميائية التي يحدثها ، فان ذلك لا يعطينا الاجابة المطلوبة ما لم يؤخذ بعين الاعتبار (النظام الغائي) (Purposive order) لتلك التغيرات . على أن (الغرض) أو (الغاية) في حد ذاتها ليست فكرة علمية ، بمعنى أنها لا تستخدم في علوم الفيزياء والكيمياء ، وإن غالبية المشتغلين في علوم الأحياء ، أو على الأقل في علم الفيزياء الحيوية ، لا يستسيغون إدخال أية أفكار لم تثبت ضرورتها بالنسبة لتلك العلوم . إن مثل هذا العمل هو بلا شك إجراء جيد فيما يتعلق بمعالجة أصناف محدودة ومعينة من المشكلات او القضايا . لكنه يبدو أيضاً وكأنه يقودنا إلى نتيجة مؤداها أن أهم قضايا علم الأحياء وأشدها بروزاً لم يتناوله الدرس والتحليل بعد . لقد كان البروفيسور وايت هيد

الحياة لا يرجى لها منافسة الصخور والجبال في الاستمرار والبقاء .

(ان الانطباع الذى يراودنا بين وقت وآخر ، هو أن علماء الحياة لا يستطيعون الافتراض بأن التقدم الفعلى للأحياء يمكن أن يفسر ضمن شروطهم التى يتسكون بها ، اللهم الا من قبيل الايمان الخارق . ويوجد بالطبع بين علماء الحياة من ينكر ان مثل هذا النوع من التفسير أمر ممكن . وقد أدخل هؤلاء بعض الأفكار الجديدة مثل (القوة الحيوية) (vital force) و (قوة التحقق) أو (الروح) emtelechy وما الى ذلك . لكنهم لن ينجحوا في تعريف هذه المصطلحات وتحديد مضامينها بحيث يمكن استخدامها في الأغراض العلمية . وبقيت المصطلحات شاهدا على أن المفاهيم الأساسية الحاضرة لعلم الحياة غير كافية : ص ٩٦) .

فها هنا نجد :

أولا : صعوبة تفسير النشاط الحيوى بعيدا عن النظام الغائى) ، الذى يضبط أنشطته ويسيرها الى هدفها المرسوم .. ومحاولة غير مجدية من علماء الحياة لاستبعاد الغائية واعتماد أساليب العمل فى حقول الفيزياء والكيمياء والتى ترفض الاتكاء عليها .. تلك الأساليب التى قد تحقق بعض النجاح ولكنها لا تحل المشكلة من أساسها .. اذ يبقى التعامل مع الحياة هو غيره مع الذرات والجزيئات . ومن ثم يطرح (وايتهيد) تحفظه حول ضرورة الاعتراف ، بشكل أو بآخر ، بوجود تصور مسبق لغاية ما يفسر العملية الحيوية .

فالعمل المضنى لتتبع سلسلة متلاحقة من الظواهر الفيزيائية ، يمكن ان يفسده اقتراح سطحي يتعلق بالعلة النهائية . ومع ذلك فان وجود حقيقة مؤداها ان ادخال فكرة العلة النهائية فى العلوم أمر له مخاطره ، لا يمكن أن يعتبر مبررا لتجاهل مشكلة حقيقية . فالمشكلة إذا تبقى قائمة لا يمنع ذلك كون العقول ضعيفة .

(ان الاتهامات التى تنطوى عليها أقوال وايت هيد لها ما يبررها بالتأكيد . اتنا نحس المرة تلو المرة بأن المفاهيم الأساسية التى يستخدمها علماء الأحياء ليست كافية لمعالجة أهم المشاكل التى تواجههم . ان نظرية الانتقاء أو الاصطفاء الطبيعى (natural selection) على سبيل المثال ، تبدو مليئة بالفجوات عندما تدرس بالتفصيل . ان المرء ليتقبل بسهولة ، وبشكل عادى ، التفسيرات الفيزيائية المحضة على سبيل المثال ، ولكن لا بد له من بذل مجهود عظيم حتى يستطيع الاعتقاد ، ولو مؤقتا ، بأن جميع التطورات التى حدثت للكائنات الحية على ظهر هذا الكوكب جاءت نتيجة (لتغيرات عشوائية) (random variations) ، وللصراع من أجل البقاء ، ان نظرية الاصطفاء الطبيعى لا تفسر ولو من جانب بعيد أكثر الحقائق وضوحا فيما يتعلق بالعملية كلها ، ونعنى بذلك اتجاه الكائنات الحية نحو الارتقاء . فلو أن مجرد البقاء كان المطلب الوحيد ، فان نوعا من الحياة البدائية يبدو لنا كافيا ليفى بالغرض . ويبدو لنا فى هذه الحال أيضا أنه لن يكون هناك ما يستدعى حتما ظهور هذا النوع من الحياة البدائية ، لأن مثل هذه

التجدد موجود في ذلك العقل وجوده في عقولنا . وإذا كانت هذه الأقوال تنطوى على عنصر من عناصر الحقيقة ، فأننى أشك في أن تكون تلك القوة ذات طبيعة مشابهة لطبيعة العقل . ان شكى في امكانية وجود نوع من الكائن المجهول (!!) يلزم عملية التطور يعود الى الاعتراف بجمال مثل هذا الكائن وبغرابته التي لاتنقض ، تلك الغرابة التي تشكل الميزة التي ظلت أستشعرها خلال عشرين عاما قضيتها في العمل العلمى الدائب : ص ٩-١٠)

فكأنه ، وهو العالم يتحدث بلسان هيغل الفيلسوف ، الذى تقود محصلة فلسفته الى القول بالعقل الكلى للعالم ، والذى يتحرك التاريخ وفق توجيهه ، وتعبير الدول والحضارات عن مشيئته ، ويغدو الأبطال أدوات بيديه .. والصيرورة التاريخية هدفها تحقيق ما يسميه هيغل بتجلى المتوحد .. الانطباق الهندسى الباهر بين التاريخ وبين مشيئة العقل الكلى هذا .

ما هى طبيعة هذا العقل ؟ أين يقع ؟ كيف يعمل ؟ لأحد يدرى .. تماما كما أن هولدن نفسه لا يدرى طبيعة العقل (الذى يتميز بالغرابة) التى أستشعرها طيلة عشرين عاما من العمل العلمى المتواصل .. وهكذا وصفت فلسفة هيغل المثالية بأنها تمشى على رأسها .. ولا ندرى بماذا يمكن أن توصف فكرة هولدن هذه .

ومرة أخرى .. لو قالوا : الله ، لحلت الاحاجى والألغاز .. ولوجد العالم والفيلسوف نفسيهما يتحركان في الطريق الصحيح مع ادلة الحياة المعجزة .

ثانيا : ان الخطأ يكمن في موقفنا من المشكلة ، فى (كون العقول ضعيفة) ، كما يعبر سوليفان ، هذا الموقف الذى يسعى الى معالجة الحياة بعيدا عن فكرة العلة النهائية .. وهذا أمر له مخاطره ولا يمكن أن يكون مبررا لتجاهل مشكلة حقيقية .

ثالثا : ان نظرية الانتقاء ، أو الاصطفاء الطبيعى ، على فرض التسليم المطلق بها ، لا يمكن أن تفسر ولا أن تبرر الا على ضوء وجود علة ، أو قوة ما ، تسوق الحياة والأحياء فى سلم التطور صوب الاحسن والأرقى .. والا غدت العملية من أساسها لغزا مبهما ، الأمر الذى دفع بعض العلماء الى البحث عن بعض المفاتيح مثل (القوة الحيوية) أو (قوة التحقيق) أو (الروح) وما الى ذلك ، (لكنهم لن ينجحوا فى تعريف هذه المصطلحات وتحديد مضامينها ، بحيث يمكن استخدامها فى الأغراض العلمية ، وبقيت المصطلحات شاهدا على أن المفاهيم الأساسية الحاضرة لعلم الحياة غير كافية) . ولو قالوا : الله ، لحلت الأحاجى والألغاز ، ولوجدوا أنفسهم يتحركون فى الطريق الصحيح لفهم معادلة الحياة المعجزة !!

ونلتقى بمحاولة أخرى يقوم بها ج . ب . س . هولدن (j. b. s. haldane) أحد ألمع علماء الحياة المحدثين ، فى احدى مقالاته (اننى لأتصور وجود قوة تلازم تطور الحياة ملازمة للعقل للدماغ . لقد حاول رويس (royce) فى عام ١٩٠١ اعطاء صورة محددة لهذه القوة ، وذلك كمقل ذى أبعاد زمانية هائلة . وذكر أن الاحساس القوى الذى يلزم عملية

(٢)

قصيدة أو مساحة من عمل فنى لكى يحكم من خلاله على مجمل العمل وملائحه النهائية .

فها هو ذا العلم يقول كلمته ، ويعلن من قلب المختبر ، لا على طريقة التصوير الكاريكاتيرى للحكمة من التهام القطط للفئران ، انه بدون تصور غائى للحياة والعالم والانسان فانه ليس ثمة أمل فى فهم الحياة والعالم والانسان .. ان العلائق والاستطرادات السببية قد تفسر جزئيات من هذه الأقطاب ولكنها لا تحل قضاياها الكبرى .

واذا كان التهام القطط للفئران لا يمنحنا قناعة ما بهدفية خلق هذين الطرفين ، فان بدء الحياة والعالم وتسلسلها وفق ملايين الموافقات والعلاقات البنائية المركبة التى تستبعد الصدفة نهائيا ، لا يحلها إلا تصور وجود مفتاح عظيم لهذا كله : الغائية .

ان المادية التاريخية نفسها ، توأم الديالكتيكية ، تجد نفسها مسوقة الى نوع من الغائية يتحرك من خلالها التاريخ نحو الأحسن ، وهى لو أعطت الجماعة البشرية ، أو الطبقة ، الحرية المطلقة فى صياغة ظروفها التاريخية وصنع مستقبلها لذهبنا معها الى رفض الغائية ، ولكنها تمنح مساحة واسعة فى امداد التاريخ لما تسميه بالضرورة التاريخية .. الحتمية التاريخية .. وما دام الأمر كذلك .. ما دام أن هناك شيئا ما خارج وعى الانسان وإرادته يتحرك بعقلانية صوب الأحسن فلا بد أن فى الأمر غاية ما ، قوة ما ، هى التى تسير التاريخ ، وفق المادية التاريخية

بل ان المادية الديالكتيكية تذهب - كعادتها - خطوة أبعد ، فترفض الغائية بالكلية ، وترى (ان الفلاسفة المثاليين بما أنهم عاجزون عن تفسير حقائق العقلانية والنظام التى يصادفونها أينما كانوا فى الطبيعة ، فقد أخذوا يزعمون أن ما يحدد نشوء وتطور جميع الأشياء فى الطبيعة ليست الأسباب المادية وقوانين الطبيعة نفسها ، بل الهدف الذى ترمى اليه ، ومهمتها ، والغرض من وجودها . لقد أطلق على هذا الرأى اسم الغائية . ان انقلز يهزأ من هذه المحاكات ملاحظا ان القطط طبقا للنظرة الغائية الى العالم قد خلقت من أجل أن تبتلع الفئران وأن الفئران خلقت من أجل أن تبتلعها القطط ، وقد أوجدت الطبيعة كلها للبرهنة على حكمة الخالق !! ان المثاليين يأخذون بنظرية الغائية حتى يومنا هذا (٣) .

والأمر فى حقيقته ليس بهذه البساطة التى يريد انقلز (متعمدا) أن يصور بها قضية خطيرة كالغائية .. انه بهذا المثال ، يفتطح من وقائع العالم جزئية صغيرة يريد بها أن يفسر كنه العالم ولا غائيته بأسلوب كاريكاتيرى ساخر .. ومعروف منطقيا أن الحكم على الكل من خلال جزئية من جزئياته أمر يجانب الصواب ، انه كمن يقطع شريحة من لحم مخلوق ما يريد أن يفسر بها نشاطه البيولوجى الوظيفى وحتى العقل ، أو كالذى يقطع تعبيرا من

(٣) بوبرستنيك وياخوت : عرض موجز للمادية الديالكتيكية ، دار التقدم ، موسكو ، ص - ١٢٢ - ١٢٣ .

الجنسى عند فرويد مثلا قد أريد به تفسير أشياء كثيرة الى درجة أنه لم يفسر شيئا محددًا !!) .

وهكذا فان مفهوم (العقل الكلى) لدى هيجل قد أريد به - كذلك - تفسير أشياء كثيرة جدا في العالم الى درجة أنه لم يفسر شيئا محددًا .. وتبدل وسائل الانتاج ، في النظرية المادية التاريخية ، قد أريد بها تفسير أشياء كثيرة جدا في التاريخ الى درجة أنها لم تفسر شيئا محددًا .. وما يقال عن المنالية والمادية يمكن أن يقال عن الوجودية والعشبية وسائر المذاهب الغربية على كافة المستويات .

ان بعدا نفسيا يكمن وراء هذه التعميمية ، للكشوف ذات الطابع الجزئى ، ان العالم أو الأديب أو الفيلسوف ، وقد اكتشف بذكائه مفتاحا ما من المفاتيح التى يمكن أن تسلط ضوءا على الوجود والتاريخ ، يسعى الى مد اكتشافه هذا لكى يغطى كافة مساحات الوجود والتاريخ ومنحنياتهما الطويلة المعقدة المتشابكة .. انه يريد أن يحتكر حق الكشف والتفسير ، ويحجب عن الآخرين حريتهم العقلية والوجدانية فى أن يرحلوا هم أيضا وأن يكتشفوا ويبتكروا نظريات ونظما وأعرافا ، وانها لترجسية هي ولاريب أقسى أنماط الترجسية التى عرفت منهاج البحث البشرى وطرائقه .. انها لتصل بهم - وهكذا يخيّل اليهم - الى عتبات الألوهية .. وكيف .. وهم يجدون من المعجبين والاتباع عبادا خاضعين يسبحون بحمدهم ويمنحونهم طائعين صفة التوحد والتفرد ؟! ها قد آن الأوان لكى يقول العلم كلمته .. انه ليست ثمة حقيقة فى أى ميدان من ميادين العلم

نفسها ، فى هذا النظام الفذ العجيب صوب غاياته الانسانية !!

(٣)

ويمد سوليفان تحليله الى (علم النفس) باعتباره أحد علوم الحياة فيرى أنه (على نقيض العلوم الطبيعية ، ل يبدو أشد قصورا أو أقل كفاية . فأكثر نظرياته قريبا من مفاهيم الميكانيك ، وهى نظرية السلوك (behaviorism) تعانى من قصور شديد . حقا لقد أدخل التحليل النفسى (psycho — analysis) مفاهيم اساسية غير ميكانيكية ، لكن هذه المفاهيم بقيت غير محددة الى درجة لا يمكن معها وصفها بأنها مفاهيم علمية . فمفهوم الدافع الجنسى أو اللبيدو (lidido) عند فرويد (Freud) مثلا ، قد أريد به تفسير أشياء كثيرة جدا الى درجة أنه لم يفسر شيئا محددًا (!!) فمن وجهة النظر العلمية لا يمكننا أن نكسب شيئا جديدا اذا قلنا بأن أشد الظواهر النفسية بروزا تصدر من اللبيدو ، بدلا من القول أن تلك الظواهر تصدر عن ارادة الله . ان المفهوم الذى يفترض فيه أن يفسر كل شيء ، لا يفسر شيئا على الاطلاق : ص ١٠) .

وسيعود سوليفان فى الفصل الخامس المعنون بـ (طبيعة العقل) للوقوف طويلا عند معطيات علم النفس وكيف أنها لم تصل - عتبات اليقين الأولى . وتلفت نظرنا هاهنا عبارة ذات بعد منهجى ، يكاد يكون سمة من سمات الفكر الوضعى فى الغرب ، فى تألقه وفى سقوطه على السواء .. (ان مفهوم الدافع

المادى أو الحيوى يمكن أن يفسر بها العالم كله .. انها تفسر جانباً من العالم .. نعم .. ولكن ليس العالم كله بأية حال من الأحوال .

ويخلص سوليفان الى القول بأن (المفاهيم الاساسية التى أمكن استخلاصها وعزلها حتى الآن ، والتى تعتبر وافية الى حد معقول ، هى تلك المرتبطة بالعلوم التى تعالج الظواهر المادية الجامدة . ونقول (وافية الى حد معقول) لأن نظريتى النسبية (relativity theory) والكم (Quantum theory) قد ادتا حديثاً الى اعادة النظر فى هذه المفاهيم ومراجعتها مراجعة شاملة . على كل حال فقد أثبتت تلك المفاهيم نجاحاً فذا خلال القرون الثلاثة الماضية وأنه لمن المشكوك فيه أن يؤدي هذا النجاح الى نجاح أية تجربة تقوم على تطبيق هذه المفاهيم فى مجالات لا تقبل بطبيعتها التطبيق فيها : ص (١١) .

إذا فحتى العلوم التى تعالج الظواهر المادية الجامدة ، لم تسلم معطياتها من الهزات ، ، فها هى ذا نظريتا النسبية والكم ، تغيران وتبدلان فى الكثير من المفاهيم العلمية السائدة ، والمسلمات ، أو هكذا كانت توصف ، والتى صمدت خلال القرون الثلاثة الماضية . ومهما يكن من أمر فإن النجاح (النسبى) لمفاهيم التعامل مع المادة يجب ألا يدفعنا الى الطريق الخاطيء وهو قسر تجربة الحياة على الخضوع للمفاهيم

نفسها ، لأن مصير قسر كهذا هو الفشل بعينه ، وهذا يعود بنا مرة أخرى الى ضرورة البحث عن معايير أخرى لدراسة علوم الحياة ، الى التسليم بالغائية كمفتاح لكثير من الأبواب الموصدة ها هنا .. وإن كنا نحن نجد فى الغائية أمراً مسلماً به حتى على مستوى المادة : (فقال لها وللأرض : اتينا طوعاً أو كرها ، قالتا أتينا طائعين) (٤) (وإن من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) (٥) . وقد علجنا هذه النقطة بما فيه الكفاية فى كتاب (التفسير الاسلامى للتاريخ) . (٦)

(٤)

ولكن ما هى المفاهيم الأساسية للعلوم التى تعالج الظواهر المادية ؟ وكيف أمكن استخلاصها ؟ (ان الاجابة على هذا السؤال - كما يقول سوليفان - سوف تمكننا من الوقوف على طبيعة وحدود الأسلوب العلمى ، وسوف تظهر لنا أن الأمل فى أن تكون هذه المفاهيم كافية لتغطية احتياجاتنا ولتفسير كل ما يقع فى مجال خبرتنا وتجاربنا فى المستقبل ، أمل ليس له أساس يرتكز عليه : ص (١١) .

ذلك - والحق يقال - جواب خطير ، يعلن بصراحة أنه حتى على مستوى العلوم التى تعالج الظواهر المادية الجامدة فإنه ليس ثمة يقين مطلق ، ليس ثمة سوى الحقائق النسبية والافتراضات ، والمتغيرات .

(٤) سورة فصلت ١١

(٥) سورة الاسراء ٤٤

(٦) دار العلم للملايين ، بيروت - ١٩٧٥

الأشياء وصميم تركيبها أم أنها ذاتية تضيفها عقولنا عليها بشكل أو بآخر؟ وهل ثمة نوعان من الصفات أحدهما أساسي والآخر ثانوي.. ليس ثمة جواب نهائي، ونجد أنفسنا في نهاية الأمر أن المسألة قد عولجت فلسفياً بطريقتين: الطريقة الأولى أو الرأي الأول ينكر القول بأن الصفات الأساسية أقل ذاتية بأى قدر من الصفات الثانوية، ويعتبر مجموعتى الصفات كليتها تابعتين للعقل، ولا يمكن تصور أى وجود لها خارجه. والطريقة الثانية أو الرأي الثانى ينكر القول بأن الصفات الثانوية أقل موضوعية بأى قدر من الصفات الأساسية. فكل من هذين الرأيين ينكر أن الصفات الأساسية هى أكثر حقيقة من الصفات الثانوية، على الرغم من أن الصفات الأساسية هى فقط التى يمكن إخضاعها للمعالجة الرياضية.. ان العقيدة الغاليلية (Galilean Doctrine) التى أصبحت جزءاً من النظرة العلمية الشاملة تصر على أن الصفات الأساسية هى وحدها حقيقة، أما الصفات الأخرى فهى صفات وهمية بشكل أو آخر..

وكذلك، فان ثمة وجهات نظر مختلفة، ومتضادة أحياناً، حول مفهومي الزمان والمكان.. وحول فكرة السبب أو العلة (Cause) والغاية.. وحول الامتداد والفراغ.. أما عن طريقة التعامل بين العقل والمادة فقد أصبحت لقزا من الألفاظ.. ان ديكارت الذى عالج هذه المسألة بإفاضة، لم يقل شيئاً في هذا الصدد أكثر من أن الله قد جعل مثل هذا التفاعل ممكناً !!

يقوم سوليفان للإجابة على هذا السؤال بجولة طويلة مع معطيات العلماء عبر قرون ثلاثة، يبدأ مع (كوبرنيكوس) و(كبلر) و(غاليله) فيبين أن دراستهم للظواهر اعتمدت أسلوباً انتقائياً يقوم على اختيار بعض من المجموع الكلى للظواهر على اعتبار أن هذا (البعض) فقط يمكن أن يصاغ في قالب علمي.

وعلى سبيل المثال فان كوبرنيكوس وجد أن الأجرام السماوية تتحرك بانتظام وانضباط عظيمين. وتوصل الى اعتبار الشمس مركز الثقل، وكانت هذه النظرية عرضة لمعارضة شديدة بالنظر لمفاهيم الحركة المغلوطة التى كانت سائدة في ذلك العصر. ان نظرية كوبرنيكوس كتفسير فيزيائى للظواهر المعنية لم تكن بالتأكيد أفضل من نظرية بطليموس، ومع فقد كان صاحبها واثقاً من أن سحرها الجمالى كاف ليؤمن لها الخطوة باهتمام الرياضيين واعجابهم. وبالفعل فقد كان لهذه الثقة ما يبررها. وقد جاء كبلر فأخذ بالرواء الجمالى للنظرية الجديدة، ورفع منزلتها في نظره، ذلك المركز المرموق الذى أعطته للشمس. ولا عجب فقد كان كبلر، بطريقة باطنية غامضة، أحد عباد الشمس (ويقتبس سوليفان فقرات من محاضرة لكبلر يتغزل فيها بالشمس وكأنها تراتيل أحد كهنة اخناتون).. وهكذا فان العوامل التى أدت بكبلر الى قبول نظرية كوبرنيكوس لا يمكن اعتبارها الآن عوامل علمية على الإطلاق.

وما يقال عن مركز الشمس يمكن أن يقال عن صفات الأشياء: هل هى موضوعية متواجدة في صلب

لقد لجأ فقط الى التجربة من أجل اقناع خصومه بوجهة نظره . ان نيوتن يعتبر أول من ربط بين النظرية الرياضية والنظرية التجريبية ربطاً كاملاً : (ص ٢٥-٢٦) .

(٥)

وعندما نصل الى نيوتن نكون قد بدأنا عصر التجريب بمعناه الدقيق ، رغم أن عدداً من الذين سبقوه كانوا تجريبيين كذلك ، مثل جيلبرت وهارفي وبويل (ولا يشير سوليفان الى الجهود الكبيرة المثمرة التي سبق بها العلماء المسلمون في ميدان التجريب .. ان سوليفان كمعظم الأوروبيين ينظر الى القارة كبده ومنتهى لمسيرة الحضارة البشرية) .

وعلى خلاف العلماء الذين سبقوه لم يعتبر نيوتن العالم ذا طبيعة رياضية بالضرورة .. ولم يفترض أن الرياضيات هي المفتاح الوحيد للحقيقة . لقد كان يقول (أرجو أن تلقى هذه المبادئ التي تم ارساؤها بعض الضوء على هذا الأسلوب (الأسلوب الرياضي) ، أو أى أسلوب فلسفى آخر أصدق منه) . وبعد أن ثبتت له فعالية الأسلوب الرياضي ، قرر استخدامه ولكن ضمن تحفظات اكيدة : (ص ٢٦-٢٧) وكان يقول (ان العلم بشكله الرياضي المفترض كان مغامرة ربما لزم أن تأتى بأسلوب آخر أكثر صدقا : ص ٢٩) .

أسلوب آخر أكثر صدقا !! اننا هنا في الشرق ، في عصور انحطاطنا الحضارى لا يمكننا بحال أن نتصور أن طريقة علمية ما ، رياضية أم تجريبية أم أية طريقة أخرى ، يمكن أن تعد مغامرة وأن بالامكان الاتيان بطريقة أخرى .. اننا هنا نرفض المساس

يتناول سوليفان هذه المسائل الأساسية وغيرها عبر جهود كبار العلماء الذين اعتقدوا بأن الرياضيات هي مفتاح الكون ، والذين سيطرت على أذهانهم هذه الفكرة فانعكست على معطياتهم كافة دون أن يعنوا أنفسهم - أحيانا - بتجريب هذه المعطيات للتأكد من مدى سلامتها وصحتها : كوبرنيكوس .. كبلر .. غاليله .. ديكارث ..

ثم يخلص الى القول بأننا رأينا حتى الآن (بأن تطور النظرية العلمية - قبل نيوتن - قد اخذ ملامحه الأساسية من نزعات الرياضيين . وقد كان الافتراض الأساسي المرافق للانجاز العلمى هو أن العالم الحقيقي ما هو الا عالم الكم . وإذا قارنا هذه النظرية بالنظرية العلمية الحديثة ، المتطورة ، فانا نرى أن رجال العلم المتقدمين كانوا شديدي الميل لأن يشرعوا للعالم على أساس افتراضات مسبقة (A Priori) ثابتة ، افتراضات ما هي في الحقيقة التعبير عن النزعات الرياضية التي كانت مسيطرة عليهم . ان النظرية الحديثة تختلف عن نظرتهم في أن افتراضاتهم ذات طبيعة تجريبية . وعلى الرغم من أن الرياضيات قد أثبتت حتى اليوم أنها أقوى اداة لتفحص الطبيعة تفحصا علميا ، فان ذلك لا يبرر الاعتقاد بأن الطبيعة هي رياضية بحكم الضرورة !! لقد تحققنا الآن من أن الاستنتاجات الرياضية مهما كانت متينة يترتب دائما تدقيقها عن طريق التجربة . ان غاليله الذى يدهشنا بكونه أكثر العاملين الأوائل تقدما ، يذكر بأنه لم يكن في معظم الأحيان يعتبر التدقيق التجريبى على استنتاجاته أمرا ضروريا .

وستظل عملية إعادة البناء قائمة هناك مادامت لديهم الرغبة الاصيلية في التقدم . ويوم يعتقد الغريبون أن عملية البناء قد استكملت فمعنى ذلك أن شمس حضارتهم قد آذنت بالأفول !!

والنتيجة ؟ (لقد أصبح العلم شديد الحساسية ومتواضعا نسبيا . ولم نعد نلقن الآن أن الأسلوب العلمي هو الأسلوب الوحيد الناجع لاكتساب المعرفة عن الحقيقة : ص ٣٢) .. هذا ما يقوله العلماء أنفسهم .. أما العالة ، فانهم يرفضون ذلك ، ويتشجعون ازاء أية محاولة تستهدف نقد قدرة العلم على حل لغز الحياة والوجود .. فاذا ما قيل لهم ان هنالك أسلوبا آخر للمعرفة لن يتم فهم الحياة الا بمعونته وذلك هو المدين .. فغروا أفواههم دهشا ولووا أشداقهم ازدراء !! ذلك أننا مازلنا نلقن بأن الأسلوب العلمي هو الأسلوب الوحيد الناجع لاكتساب المعرفة عن الحقيقة .. وأنه لا حاجة بعد اليوم للمدين !!

ولنتابع (ان عددا من رجال العلم البارزين يصرون بمنتهى الحماس على حقيقة مؤداها أن العلم لايقدم لنا سوى معرفة جزئية عن الحقيقة ، وأن علينا لذلك أن لا نعتبر أو يطلب اليها أن نعتبر كل شيء يستطيع العلم تجاهله مجرد وهم من الأوهام . ان الحماسة التي يظهرها رجال العلم هؤلاء فيما يتعلق بفكرتهم القائلة بأن للعلم حدودا ليست مما يشير العجب في حقيقة الأمر . فلوا اعتبر ما يقدمه العلم على أنه الحقيقة النهائية فان الانسان نفسه لن يكون سوى ناتج عرضي مشتق من آلات رياضية هائلة

حتى بالنظريات والرؤى التي تطرحها المناهج العلمية ، فالفرويدية في وقت ما كان التشكيك بها يعد كفرا يواحا ومروقا عن حظيرة العلم ، والمادية التاريخية اليوم يعد نقدها بالنسبة لقطاع واسع من من المثقفين ، المقلدين ، خروجا عن الأسلوب العلمي وضربا في الخرافة !! هذا بالنسبة لنتائج البحث فكيف بالنسبة للمنهج نفسه ؟ !

أما في الغرب حيث صنعت هذه المناهج طيلة القرون الأخيرة ، وانتجت نظرياتها وقوانينها بالتالى ، فان بمقدورهم - هناك - أن ينقدوا ويشككوا ويستبدلوا أسلوبا باسلوب ومنهج بمنهج ، ناهيك عن رفض نظريات بكاملها وطرح نقائص بديلة لها تماما .. انهم صناع حضارة ، ونحن في عصورنا الأخيرة مستوردو حضارة ، ومن يجدون أنفسهم قادرين - بثقة - على التغيير والاستبدال فيما صنعتهم أيديهم وصاغته عقولهم .. ونجد أنفسنا عاجزين عن النقد الحر والتغيير والاستبدال . (٧)

يمضى سوليفان قدما فيبين ان نظرة نيوتن التي هيمنت على أوساط العالم العلمية لمدة تقارب المائتى عام وجدت أنها غير كافية !! وأن ما يجرى الآن هو استبدالها بالاثنيان بنظرة مختلفة .. ذلك هو ما دعي بالثورة الحديثة في العلوم !! (لقد أصبح الآن واضحا أن المضامين الفلسفية للنظرة الجديدة تختلف اختلافا بينا عن مضامين النظرة القديمة ، وذلك على الرغم من أن عملية إعادة البناء لم تكتمل بعد على أية حال من الأحوال : ص ٣٢) ..

(٧) عالجت هذه النقطة بالتفصيل في بحث (ملاحظة في التقليد الحضارى) كتاب (مع القرآن في عالمه الرحيب) ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٩

(التعصب للنظرة العلمية القديمة) فليس التعصب بمقتصر على الدين - حتى هؤلاء لم يعودوا يرتاحون لهذا التصور الشنيع : الانسان وهو يتحول الى ناتج عرضي في كون لا هدف له ولا غاية .. لقد انتهى عصر الايمان بتفاهة الانسان ، وأخذ العلم - وقد جاوز طفولته ، وخطا نحو الرشد - يقود البشرية نحو الحرية ، متجاوزا بها عصر العبودية الرهيب .. وان هذا المصير الأكثر اضاءة لاقى ترحيبا وتهليلا من بعض رجال العلم أنفسهم !!

(ان هذا التغير في النظرة العلمية يبدو وكأنه حدث فجأة . اذ لم تمض ستون سنة منذ صرح تندل (Tyndall) في بلفاست بأن العلم وحده قادر على معالجة كل مشاكل الانسان الأساسية ، ولم تمض بعد عشرون سنة منذ قال بتراند رسل وهو يتأمل بعض الأجوبة العلمية (ان استقرار الانسان لا يمكن أن يبنى من الآن فصاعدا الا على أسس متينة لا يتطرق اليها الفساد) ، انه والى الحد الذي تستند فيه هذه الملاحظات الى الاقتناع بأن الحقيقة الوحيدة هي المادة والحركة يمكن القول ان أسس هذه الملاحظات لم تثبت بعد . ان المحاولة لتمثيل الطبيعة على أنها مادة وحركة قد باءت بالفشل . لقد بلغت المحاولة ذروتها في أواخر القرن الثامن عشر عندما جاهر لابلان مؤكدا بأن في مقدور رياضي عظيم الى الدرجة المطلوبة أن يتنبأ بكل مستقبل العالم لو أعطيت له معلومات كافية عن توزيع الجزيئات في السديم البدائي Primitive nebula . ان المفاهيم الأساسية التي استطاع نيوتن عزها واستخلاصها قد

لا عقل لها ولا غرض . وهناك من العلماء انسانيون الى درجة أنهم يجدون مثل هذه النتيجة مضطربة . وحتى أولئك العلماء المتعصبون للنظرة القديمة فانهم يظهرون في بعض الأوقات رغبة ملحة في أن لا تكون الأمور على الشكل الذي يعتقدونه . فعلى اننا اذا أن لانهش اذا وجدنا أن الاكتشاف القائل : بأن العلم لم يعد يجبرنا على الايمان بتفاهتنا بالضرورة قد لاقى ترحيبا وتهليلا حتى من بعض رجال العلم أنفسهم : ص ٣٢ - ٣٣) .

اننا نجد في هذا المقطع (مبادئ) غاية في خطورتها بالنسبة للمسألة العلمية .

نجد عددا من رجال العلم البارزين يصرون بمنتهى الحماس على حقيقة مؤداها أن العلم لا يقدم لنا سوى معرفة جزئية عن الحقيقة . وبالمقابل فان الأجزاء الاخرى من الحقيقة ، الأجزاء الأشمل والأوسع والأعمق ، تندد بالضرورة عن قدرة العلم على الاحاطة وهنا تبدو القيمة الحقيقية للدين .. ان الذين يقولون هذا ليسوا أناسا عاديين ولا فلاسفة ولا أدباء .. انما رجال علم بارزون ، وهم يقولونه (بمنتهى الحماسة) ، وهي عبارة تحمل دلالتها ولا ريب .

(٦)

لقد انتهى العصر الذي اتخذ العلم فيه الها .. عصر الوثنية العلمية التي مسخت الانسان وأذلته وحولته الى مجرد تابع ذليل للقوانين والنظريات .. بل الى مجرد ناتج عرضي تافه مشتق من آلات رياضية هائلة لا عقل لها ولا غاية .. انه حتى العلماء المتعصبين للنظرة القديمة - ولنلاحظ هنا عبارة

لنا كيف أن العلم ليس حقائق نهائية لا تقبل نقضا ولا جدلا .. (لقد جاءت أول إشارة إلى أن مفاهيم نيوتن لم تعد تفي بالغرض عندما حاول بعض العلماء أن يصوغوا نظرية ميكانيكية للضوء ، وأدت المحاولة إلى ابتداع الأثير ، وهو عمل يعد من أقل ما أنتجته العبقرية العلمية قبولا . واستمرت المحاولة أجيالا طويلة وظهرت خوارق من العبقرية الرياضية في محاولة تفسير خواص الضوء ضمن مفاهيم نيوتن ، وأصبحت الصعوبات مدعاة لليأس أكثر من أي وقت مضى . وبدت مفاهيم نيوتن وكأنها قد أصبحت قابلة لأن تقهر بعد أن نشرت تفسيرات ماكسويل Maxwell القائلة بأن الضوء ظاهرة كهربائية مغناطيسية . وكان الأثير قد أصبح في هذا الوقت معقدا إلى درجة لم تعد تقبل التصديق . لم يكن معقدا فقط ، بل كان بشعا أيضا ، والبشاعة في النظريات العلمية شيء لا يستطيع رجل علم أن يتسامح تجاهه . لقد قدم كوبرنيكوس مثالا صحيحا للعلم القائم على المزاج عندما بدا مقتنعا بأن السحر الجمالي لنظريته سوف يكفل لها شق طريقها في وجه نظرية بطليموس التي كانت بدورها تشكك من التعقيد الذي لا يطاق ، لقد أصبح بناء الأثير صناعة فاسدة !! وسبب ذلك على الخصوص هو أن الطلب على منتجاتها كان قليلا جدا . وقد بدأ يتسرب إلى نفوس رجال من العلماء ما يشير إلى أنه ليس هناك شيء بالغ القدسية في تراكيب أو مفاهيم نيوتن ، وإلى أن قائمته بالأصول النهائية كالكتلة والقوة وما إلى ذلك لم تكن شاملة لكل شيء على وجه الحصر . وبهذا يمكن إضافة الكهرباء إلى هذه الأصول عوضا

أثبتت كفايتها في التطبيق إلى درجة جعلتها تعتبر وكأنها مفتاح كل شيء : ص ٣٣) .

أن تسدل ورسيل ودارون وماركس ودوركايم ، وغيرهم كثيرون أبناء عصر عبودية العلم ، عصر الدهشة والاعجاب الذي يتجاوز الوقفة الموضوعية ازاء الظواهر والأشياء إلى نوع من التقييل والاندماج .. لقد رأينا مثلا - تحول (كبلر) من عالم رياضي إلى كاهن ، وهو يقف قبالة الشمس ، من خلال النظرية الجديدة التي جعلتها مركزا للكون .. يقول كلمات وكأنه يرتل في أحد معابد أختانجون .. ان الأطفال الذين تبهرهم الأشياء الوهاجة ، يفقدون قدرتهم على تأملها والتمعن فيها ، ويصبحون على استعداد لأن يرموا بأنفسهم فيها حتى ولو انتهى الأمر إلى أن تحرقهم أو تسلبهم !! ان علماء عصر الوهج العلمي كانوا مستعدين أن يتحول كل واحد منهم إلى (كبلر) آخر يسجد للضئيم الجديد ويطوف حوله ويتنازل عن حرته الكاملة عند قدميه ..

ولكن وبمرور عقود قليلة من الزمن ، تهاوت الاعتقادات القديمة ، وتعرضت الصنميات الفانية ، وتبين للخط الجديد من العلماء الكبار أن العلم ليس هو كل شيء وأن مفتاح الكون كله ليس بيديه .. وأنه ليس بمقدور أكبر رياضيين العالم أن يقول لنا كيف يستطيع عقله أن يفاضل أو يكامل بين الأرقام ١ ؟

ويمضي سوليفان يحدثنا عن هذا الانحسار الشامل لمد العلم والانطفاء غير المتوقع لوهجه الذي أعشى عيون أجيال وأجيال وفتنهم عن دينهم ، ويبين

صحيحاً للعلم القائم على المزاج) (لقد أصبح بناء الأثير صناعة فاسدة) (وليس هناك شيء بالغ القدسية في تراكيب مفاهيم نيوتن) إلخ

(٧)

ثم جاءت محاولات تفسير الكهرباء والضوء منعطفاً خطيراً في تاريخ الحركة العلمية .. لقد استعصت طبيعة الكهرباء على الفهم رغم المحاولات المضنية التي قادت جميعها إلى فهم (أن كل ما نعرفه عن الكهرباء هي الطريقة التي تؤثر بها في أدواتنا القياسية . والوصف المضبوط لسلوك الكهرباء على هذه الشاكلة يعطينا مواصفاتها الرياضية Mathematical Specifications وهذا بحق هو كل ما نعرفه عنها : ص ٣٥) .

الأوصاف وليست الماهيات .. هذا كل ما هنالك .. بمعنى آخران العلماء الكبار لا يزالون يقفون على الاعتاب ، ولما يفتحوا بعد الباب - لقد تمكنوا من الامام بجوانب من تأثيرات الكهرباء ومؤثرات عملها .. أما هي .. كنهها .. تركيبها .. ماهيتها .. فلا يدري أحد شيئاً .. ومن عجب أنهم وهم يقفون على الباب استخرجوا من الكهرباء هذه المنجزات التقنية العظيمة .. فكيف لو عرفوا الماهية نفسها ، ماذا هم صانعون ؟ حقا ان في الكون لطاقات مذهورة هائلة ، ليست الكهرباء والذرة سوى مؤثرين عليها فحسب ، وإن على الانسان أن يبحث خطاه إلى مزيد من الكشف والتنقيب .. وإن من يقرأ في القرآن الكريم الآيات الخاصة بتسخير الطاقات

عن إرجاعها إليها . وهذا ما حصل بالفعل فبعد تردد طويل ، وبعد مجهودات أخيرة يائسة في محاولة تفسير الكهرباء ضمن شروط الميكانيك ، أضيفت الكهرباء إلى قائمة الأصول التي لا يمكن إرجاعها : ص ٣٣-٣٥) .

صيغ تعبيرية ناقدة تنبث ها هنا وهنالك وتشير إلى ثقة العقل الغربي بنفسه وإلى أن الكثير من الحقائق العلمية لا تقر على حال .. ونحن بأمر الحاجة إلى أن نمتلك الثقة نفسها .. أن نتعلم منهم هذه الأخلاقية التي فقدناها منذ أن أفلتت شمس حضارتنا .. ولن يتم هذا قبل أن نتحقق بإيماننا الاسلامي الأصيل ، ونبنى مختبراتنا بأنفسنا :

(كان الأثير (نظرية الأثير) ، قد أصبح في هذا الوقت معقداً إلى درجة لم تعد تقبل التصديق . لم يكن معقداً فقط بل كان بشعاً أيضاً ، والبشاعة في النظريات العلمية - كما ذكرنا سابقاً - شيء لا يستطيع رجل علم أن يتسامح تجاهه) !! وعندما استبشع بعض علمائنا ومفكرينا نظرية الليبدو (الدافع الجنسي) لفرويد ، قامت قيامة أديعاء العقلانية المهزومين ، وقعدت .. وسنرى في المقطع الثاني من هذا التحليل كيف أن تلامذة فرويد أنفسهم انشقوا عليه وطرحوا بدائل أخرى لتفسير السلوك البشري .. ومن يدري فقد يأتي اليوم الذي تُستبشع فيه نظرية الليبدو (والبشاعة في النظريات العلمية - كما قال سوليفان - شيء لا يستطيع رجل علم أن يتساهل تجاهه) !!

وعبارات كثيرة أخرى .. (قدم كوبرنيكوس مثلاً

الرياضية فحسب ، وتلك هي حصيلة قرون من النشاط العلمي !!

ونحن نحاول أن نتفحص الجان والشياطين والروح البشرية .. وأن نخضعها للحصر المختبري .. حتى إذا أعيتنا الحيل ، اجتهدنا في الرأي فقلنا إنها ربما تكون غير موجودة .. وهنالك في أوروبا نفسها ، فلاسفة وأدياء ، حاولوا أن يتكثروا على معطيات العلم كحقائق مسلمة منزلة من السماء وأن يبنوا عليها فلسفاتهم ورؤاهم ، لكي يضيفوا عليها - هي الأخرى - صفة العلمية ..

ويتغير العلم .. ويتغير الأساس .. فإذا بنظرياتهم تنهاى الواحدة تلو الأخرى .. هذا ما حدث بالنسبة لكثير منها في حقول الاجتماع والاقتصاد والنفس .. وإن المادية التاريخية التي أقامت صرح نظريتها على معطيات العلم في القرن التاسع عشر ، والتي سميت بالعلمية .. ما لبثت أن تعرضت في القرن التالي ، وبخاصة في العقود الأخيرة ، لكثير من الهزات العنيفة ، لأن الأساس الذي بنيت عليه أخذ يتأرجح ويتأيل وتنهوى بعض جوانبه .. وإذا كان العلماء أنفسهم ، أبناء المختبر والتعامل التجريبي مع المواد والظواهر والأجسام ، يعترفون بأن أحكامهم ليست نهائية ، وأن ما تمكنوا من قطعه لم يتجاوز بدء الطريق إلى الحقيقة .. فما هؤلاء القوم من الأدياء والفلاسفة الذين لم يدخلوا مختبرا ولم يجربوا ظاهرة .. يدعون بنهائية أحكامهم وثباتها وديمومتها ؟!

الطبيعية لسليمان عليه السلام يعرف كيف أن هذا التسخير كان بمثابة خدمة كبيرة جدا ، ويعرف أيضا أن كتاب الله سبحانه جاء لكي يفتح أعين الناس وعقولهم على ما ينطوى عليه الكون من طاقات وقدرات .

لقد قبلت الكهرباء ضمن الأصول والأجسام التي لا تقبل الارجاع إلى أصل سابق عليها ، لأنها تستعصي على التحليل والاحالة (لقد قُبل جسم جديد في الفيزياء لا نعرف عنه شيئا سوى بنيتة الرياضية Mathematical structure وقد بدأت منذ ذلك الوقت تدخل في الفيزياء أجسام أخرى بنفس الشروط . ووجد أن هذه الأجسام تلعب دورا يماثل بالضبط ذاك الدور الذي تلعبه الأجسام القديمة فيما يتعلق بتشكيل النظريات العلمية . لقد أصبح الآن واضحا أن معرفة طبيعة الأجسام التي نتحدث عنها لم تعد مطلبا لازما بالنسبة للفيزياء ، بل تكفي معرفة بنيتها الرياضية وهذا بحق هو كل معرفتنا حولها . وقد جرى التحقق الآن من أن معرفة البنى الرياضية هي كل المعرفة العلمية المتوفرة لدينا حتى فيما يتعلق بأجسام نيوتن المألوفة ، وإن اقتناعنا بأننا نعرف هذه الأجسام بصورة قريبة ما هو إلا مجرد وهم .. (ص ٣٦) .

لقد طأطأ العلم الرصين رأسه ، وسلم بالواقع ، بعد أن تجاوز مرحلة مراهقته العنيفة .. سلم بأن معرفة الأجسام الفيزيائية على حقيقتها ما هي الا مجرد وهم ، وأن ما تمّت معرفته إلى الآن يتعلق ببنائها

وحدها المعرفة التي يستطيع علم الفيزياء أن يقدمها لنا . إن هذا التعليل يبدو لنا أكثر التعليلات الفلسفية التي ظهرت للفيزياء الحديثة استنارة ومثانة . وإنه ل يبدو صحيحا أن العلم المضبوط (exact) هو معرفة ما يسميه أدينغتون بقراءة المؤشر (Pionter reading) أي القراءة التي تشير إليها أداة من أدوات القياس : ص ٣٦-٣٧ .

أكثر من هذا : ان العلماء التجريبيين عادوا (كما نقرأ في كتاب العقاد : عقائد المفكرين في القرن العشرين) (١١) إلى القوانين الطبيعية التي تحكم الحرارة والحركة والضوء وكل ما في عالم المادة من كهارب وذرات ، فوجدوا أن لها قانونا واحدا وهو الخطأ والاحتمال . أما القائلون بهذه التجربة فقد كانوا ثلاثة من أقطاب العلوم في مطلع القرن العشرين : ماكس بلانك (Max Plank) البولوني وورنر هايزنبرج (Werner Heisenberg) الألماني وأروين شرودنجر (Erwin Schrodingers) النمساوي . والأولان منهم صاحبوا جائزة نوبل في العلوم الطبيعية عن سنة ١٩١٨ وعن سنة ١٩٣٢ ، والثالث مكمل النظريات التي اشتهر بها الأولان ، وحجة لا تعلق عليه حجة في مسائل الطبيعيات على العموم .

فبلانك هو صاحب نظرية المقدار أو (الكوانتم) ، وخلاصتها ان الاشعاع قفزات لا تعرف القفزة التالية من القفزة الأولى الا بالتقدير

اننا نقرأ على سبيل المثال عبارات كهذه لمؤلفي كتاب (عرض موجز للمادية الديالكتيكية) (٨) « .. تثبت المادية الديالكتيكية إمكانية معرفة جوهر الأشياء ، معرفة قوانين تطور العالم » (٩) ، (من ذا الذي سيصدق اللادريين الآن بأن هناك ما يسمونه (حدود) المعرفة ، في حين اقترح الانسان الفضاء ووسع بصورة كبيرة جدا حدود معارفه عن الكون ؟ .. إننا إذ نعرف العلم نعلم الحقيقة عنه وممتلك المعارف الحقيقية .. » (١٠)

وإنها حقا لرجسية (فلسفية) ما لها من مبرر ، وإنه قد آن الأوان لتعريتها .. وإذا قال فيلسوف ما بصدد إحدى المسائل شيئا وقال عالم ما شيئا فأحرى بنا أن نأخذ بمقولة العالم لأن أساليبه في البحث أكثر جدية وأتقن عملا .. وإننا هنا لتتذكر ذلك التساؤل ذا المغزى العميق الذي يطرحه سوليفان : (لماذا يترتب على الإنسان أن يفترض بأن الطبيعة يجب أن تكون شيئا يستطيع مهندس القرن التاسع عشر أن يستحضره في ورشته ؟ : ص ٤٤-٤٥) .

(٨)

بعد تكشف هذه النتيجة بصدد المعرفة العلمية (لم تعد المسافة طويلة بيننا وبين موقف أدينغتون Eddington) القائل بأن معرفة البنية الرياضية هي

(٨) بودوستيليك وياخوت ، دار التقدم - موسكو .

(٩) ص ١٥٩

(١٠) ص ١٧٥ - ١٧٦

(١١) ص ٥٨ - ٦٠

رصدناها قبل لحظة ونرصدها بعد لحظة تالية ، إذ ليس لهذه الذرات ذاتية ثابتة تبقى في جميع هذه الارصاد وكل ما يثبت منها هو الشكل أو الصورة التي تتكرر في رصد بعد رصد بغير ذاتية ثابتة (Sameness) (١٣) .

هل نتيجة ذلك - يتساءل العقاد - أن نسقط حساب الأسباب والعلل ونلغي القوانين الطبيعية ؟ إن بلانك نفسه لا يقول بذلك ، ويقرر في كتابه (إلى أين يذهب العلم : where is science going) أن الأسباب الطبيعية عاملة في كل حال وأنا لو حققنا موضع كل كهرب وسرعته ووزنه أمكننا أن نعرف حركته التالية بغير خلل في الحساب ، فإذا كانت مراقبة الملايين من الكهارب تعطينا نتيجة تقريبية ، فالنقص ناشئ من جهلنا بحالة كل كهرب على صدق ، لا من خلل القوانين الطبيعية . (١٤)

وذلك هو مصداق الأطروحة القرآنية في هذا الصدد : ان العالم محكم التركيب لأنه من صنع الله سبحانه : (إنا كل شيء خلقناه بقدر) (١٥) (الذي أحسن كل شيء خلقه) (١٦) (إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء) (١٧) وأن المشكلة تكمن في القدرة البشرية نفسها على فهم العالم .. وذلك هو التحدي الذي يدفع الانسان إلى مزيد من الجهد للكشف عن سنن العالم ونواميسه ..

والترجيح ، وإن صحة التقدير لا تتفق إلا لأن أجزاء الكهارب تحسب بملايين الملايين فلا يظهر الخطأ فيها إلا بمقدار يسير .

وهايزنبرج هو صاحب نظرية الخطأ والاحتمال في قوانين الطبيعة ، وخلاصة براهينه الكثيرة في هذا الباب أن الموضع والسرعة لكهرب معين لا يمكن تحقيقها في لحظة معينة على وجه اليقين ، وأن موقع الكهرباء بعد ثانية يتراوح اختلافه إلى مدى أربعة سنتيمترات (١٢) ثم يقل مدى هذا الخطأ في الثانية التي تليها ، وأن التجريبتين في أية قاعدة من قواعد العلم الطبيعي لا تأتيان بنتيجة واحدة بالغاً ما بلغ المجرب من الدقة وبالغا ما بلغ المسيار من الاتقان .

وأما شرودنجر فهو المجرب المحقق الذي اسفرت تجاربه كلها عن نتيجة واحدة تؤيد نظرية اكسندر (Exner) وهي أن تقدير ما سيحدث تطبيقاً للقوانين المادية ممكن ، ولكنه غير محتم . وإذا دققنا في التمييز فليس هو بالاحتمال الذي يوصف بأنه جد قريب . ومن مقررات شرودنجر في محاضراته عن الحياة ومحاضراته عن العلم ومزاج الانسان Science and Human Temperament أن القوانين التي تنطبق على الذرات في البنية الحية وأن الصورة (Form) هي قوام المادة ، فلا يصح أن يقال إن هذه الذرة الصغيرة من المادة هي نفسها التي

(١٢) نقلاً عن فلسفة العلم الطبيعي لادنغتون في تحليله لنظرية الكوانتم .

(١٣) نقلاً عن كتاب : الطبيعيات في زماننا : physics and our times

(١٤) العقاد : عقائد المفكرين ، ص ٦٠ - ٦١

(١٥) سورة القمر ٤٩

(١٦) سورة السجدة ٧

(١٧) سورة آل عمران ٥

باختصار .. إن العالم لم يُكشف النفاق عنه بعد ، وسوف لن يكتشف بشكل نهائي (وهذا ما توحى به اكتشافات العلماء أنفي الذكر في حفل الفيزياء الذرية) لأنه يوم يتكشف العالم أمام وعي الانسان وإدراكه فلن يكون هناك جهد أو ابداع ..

(٩)

المادية الديالكتيكية تذهب في مفولاتها إلى عكس هذا ، مناقضة بذلك معطبات العلم التجريبي نفسه.. إن العالم يمكن فهمه، بل إنه قد فهم فعلا، وأن الذين يرون خلاف هذا هم بعض فلاسفة من المتألمين اللأدرين ، يشجعهم البورجوازيون ، ويعملون على نشر ضلالهم !! (يزعم بعض الفلاسفة المثاليين - كما تذكر المقولة - بأنه لا يمكن معرفة العالم . وقد أطلق على هؤلاء اسم اللأدرين . ان اللأدرية (Agnosticism) تنكر امكانية معرفة العالم ، والفلسفة البورجوازية المعاصرة تنشر هذا الاتجاه بصورة واسعة .

(ما الحجج التي يسردها اللأدريون لاثبات وجهات نظرهم ، وهل لها أساس معلوم ؟ إنه لا يمكن إدراك العالم إلا بواسطة أعضاء الحواس : النظر ، السمع ، اللمس .. إلخ ولكن هذه - كما يقول اللأدريون) - شهود غير نفاث أبدا . كم من مرة خدعتنا أعضاء الحواس ؟ إن ملعنة الشاي في الكأس المملوء بالماء تبدو لنا مكسورة معوجة . ويبدو البيت من بعيد أصغر مما هو عن كنب . ونظرا لهذا لا

يجوز تصديق أعضاء الحواس . هذا هو استنتاج اللأدرين فهل الأمر كذلك في الواقع ؟ لو سلمنا بما نقول اللأدريون لفكرنا أن الإنسان لا يفهم شيء سوى انه يسير وينظر بعجز إلى الأشياء المحيطة به .. ولكن الأمر ليس كذلك في الجوهر ، فإن الانسان في العالم ليس بمنابة متفرج إنما هو فاعل وخالق . ففي العمل ، في التطبيق ، يحوز الانسان على كل ما هو ممكن وضروري لتدقيق ما تشير إليه أعضاء الحواس وبلوغ جوهر الأمر والنفاذ إلى أعماق الظاهرات المدروسة . وفي المثل الذي أوردناه بكفي سحب الملعنة من الماء بغية البرهنة على أنها سليمة » . (١٨)

فها نحن أولاء نرى في العقود الأخيرة من عصر العلم أن الذين يقولون بعدم القدرة على معرفة العالم ليس بعض الفلاسفة المثاليين ، أولئك الذين أطلق عليهم اسم (اللأدرين) (وتعبير منالي ولا أدري ، وغيرهما من المصطلحات التي يعرف الديالكتيكيون كيف يستخدمونها بغزارة ضد خصومهم ، هذان التعبيران مفصودان وقد أريد بهما تعزيز وجهة نظر فريق المادية القائل بالقدرة على فهم العالم لأن الطرف الآخر هو - بالضرورة - غير علمي ، ولا عقلاني ، وإنما هو منالي .. لا أدري .. هكذا) ومهما يكن من أمر ، فإن القائلين بهذا اليوم هم العلماء بالدرجة الاولى ، العلماء الكبار ، تلامذة المختبر والتجريب والتعامل العلمي مع المادة ، بينا يبدو زعماء المدرسة المادية الديالكتيكية : ماركس وانغلز

طابعها الحيادي ، فإذا ما حدث وأن استغلتها فلسفة من الفلسفات ، أو اتكأت عليها لتحقيق أهداف قد تكون غير موضوعية أو غير انسانية ، فإن هذا لا ينفي السمة العلمية لتلك المعطيات ويدمجها هي الأخرى بالخطأ والفصور والانحياز !!

أما لماذا تقوم الفلسفة البورجوازية بنسر اتجاه اللادورية بصورة واسعة ، فلأن الامر - كما تدعي الديالكتيكية - يقوم على إخفاء حقائق الفوائبن النهائية التي تتحكم بحركة العالم ، وتاريخه ، والتي كسفت المادية الديالكتيكية عنها النفاذ ، وأبرزها ولا ريب صراع الطبقات ..

ولكن .. ألا يجوز أن ينور المظلومون على جلاذهم ويربحوا المعركة قبل أن تتحقق قوانين التاريخ الحتمية ؟ إذا كيف نفسر تاريخ البشرية المليء بالنورات والانتفاضات ؟ كيف نفسر العشرات بل المئات من الانتصارات التي حققها المستضعفون ضد جلاذهم ومضطهديهم ؟

إن الفلسفة ، بما فيها الديالكتيك العلمي ، تميل دائماً للتعميم ، لأن تطلق أحكاماً نهائية أو شبه نهائية ، فتقع شاة أم أبت ، في مستنقع المتالية ، وتفسر الحقائق على أن تتكيف لكي تجد لها مكاناً في قلبها الصارم ... إن ماركس وانغلز اتهمها هيغل بأن فلسفته تشي على رأسها ، ولكنها عاذا فصمها فلسفة تشي على بطنها .. على معدتها .. إن أموراً كهذه قد تجد لها مكاناً في ميدان الفلسفة ولكن الأمر يختلف في ساحة العلم ، ميدان التجربة والاختبار والأناة حيث لا يستطيع أحد أن يدعي معرفة العالم كله ،

وتلامذتها ، أقرب إلى خط الفلسفة ، وهم يظنون أحكامهم ومفولاتهم (الفلسفية) بعيداً عن التعامل المباشر مع المادة . فمن من الطرفين ما ترى أحق بالتصديق وأكثر إقناعاً ؟ العلم الذي يقول : لا أعرف كنه العالم ، أم الفلسفة التي (تدعي) اطلاعها عليه ؟.

وشمة تعابير وصيغ أخرى في المفولة الديالكتيكية السالفة تتضمن هي الأخرى قدراً من سوء الفهم المفصود ، وأبرزها تلك التي تقول (بأنه لو سلمنا بما يفوله اللادوريون لفكرنا أن الانسان لا يقوم بشيء سوى أنه سير وينظر بعجز إلى الأشياء المحبطة به) . ولكنه ينظر إليها بصيغ أكثر عملائية ، ونشاط مخترى لا يعرف الجلوس وراء المكاتب لتدريج عبارات فلسفية تريد أن تنتزع من العلماء أخص ما يتنازون به ثم تدعيه لنفسها ..

مرة أخرى نلمس في المفولة السالفة تعابير ومواقف تند عن التحليل العلمي المفتح ، وتنبئ عن رغبة المادية وإصرارها ، إلى حد الاصرار ، على ربط كل مسألة فلسفية عامة بمعضلة الصراع التاريخي الطبقي الذي يجري على ساحة الواقع . وهكذا نجد المادية الديالكتيكية ، ها هنا ، تنهم الفلسفة البورجوازية المعاصرة بنسر اتجاه اللادورية بصورة واسعة .

فاذا ما تجاوزنا هذا التصلب المذهبي وجدنا أن الذين يقولون بعدم القدرة على فهم العالم هم علماء المختبر أنفسهم ، وأن معطياتهم لتتخلق في ظروف حيادية وتخرج إلى حيز الوجود وهي لما تزل تحمل

واكتشاف سره المكنون ! بعيدا عن انبئاته
الطبية ، فالمختبر لبس نظاما سياسيا أو تشريعا
دستوريا كي يحمي مصالح هذه الطبقة أو تلك !

ومن حسن الحظ أن المادية الديالكتيكية تعترف
بأنها تبني هكلها على المفولات الفلسفية ، وأن
الفلسفة لا العلم هي التي تصوغ المفاهيم العامة (..
إن أعم خواص الاشياء تنعكس في المفولات
الفلسفية ، في مفولات معروفة لدينا الآن مثل
(المادة) و (الحركة) و (المكان) و (الزمان)
و (الكيفية) و (الكمية) و (التناقض) .. الخ .
إن المفولات الفلسفية هي أعم المفاهيم وبالتالي
يستحيل الاكتفاء بالمفولات التي تضعها الفيزياء
والكيمياء وغيرها من العلوم الخاصة . ففي عملية
المعرفة تتكون مفولات فلسفية عن أعم خواص
ظواهر العالم القائم) . (١٩)

وفي هذا وحده ما يكفي ، إذ تغدو المادية
الديالكتيكية كغيرها من الفلسفات تفوق على المفولات
الفلسفية العامة ، وهي معولات تنشأ وتتخلق لدى كل
فيلسوف بصيغة قد تختلف عن الفيلسوف الآخر ،
وقد تكون نفيضة لها تماما ، ومن ثم فإن ادعاء احنكار
المعرفة الفلسفية لواحد من هؤلاء الفلاسفة ، ووصفها
بالعلمية ، وإنكار هذا الحق على الآخرين واتهامهم
بالنالة أو السفسطائية أو البرجوازية أو ما إلى ذلك
من مفردات قاموس الديالكتيك الغني بالمصطلحات ،
هذا الموقف هو غير علمي على الاطلاق !.

ولا ننسى أن ماركس وانغلز طرحا مفولاتهما
الفلسفية قبل عصر الفيزياء الذرية ، عصر بلانك
ونسرودينجر . وهابزنبيرج واينشتاين .. حيث تهاوت
جدران المادية واختلط الصواب بالخطأ والاحتمال ..
إنها طرحاها قبل هذا العصر بما يقرب من قرن من
الزمان ، ومن بدري فلعلها لو أتيح لها أن يرجعا
للحياة نانية فإنها قد تكونان إزاء ضغوط حتميات
المناهج الفلسفية العامة ، على ضوء هزات العلم
العلاقة ، أكثر تحمرا من تلامذهم ومريديهم ، لأنها
قد يجدا نفسيهما غريبين عن العالم الجديد العجيب
الذي أخذت الفيزياء الذرية تطرق أبوابه ، العالم
الذي لم يتمكن أحد بعد من الكشف عن سره
الدفين .

فكم با ترى سيظل التلامذة والمريدون يطمون
مفاهيم المادية القادمة من القرن التاسع عشر لكي
يفسروا القرن العشرين ، وربما الواحد والعشرين
على ارتداء أثوابها ؟

فاذا ما أضفنا إلى هذا كله الصبغة الانتقائية
التي تعترف الديالكتيكية باعتمادها إزاء منجزات
العقل البشري لكي تتلاءم ومصالح طبقة محدودة من
الناس ، أدركنا القيمة الحقيقية للسمة العلمية التي
تدعيها هذه النظرية .. ولنقرأ « لقد استوعب ماركس
وانغلز كل ما هو تقدمي وتمين مما كان العالم قد توصل
إليه قبلها ، ولكنها لم يفوما بمجرد استيعاب منجزات
العقل البشري ، بل صاغها بصورة انتقادية

أحد أكبر إحصائي الدول النامية في ميدان الاقتصاد ، وهو يستعرض جهود الكتاب الذين اهتموا بدراسة اقتصاد مجتمعات ما قبل الرأسمالية منذ عصر ماركس وحتى عصر بورشيف ، يقرر أن هذه الدراسات جميعها مفككة ، لذلك فإن الاقتصاد السبائي للنظم الاجتماعية ما قبل الرأسمالية لما يخرج بعد إلى حيز الوجود باعتباره فرعاً منظماً من فروع الاقتصاد السياسي » . (٢٢)

فإذا كان الأمر كذلك في أهم ما يخص الماركسية ، وهو التاريخ الاقتصادي فكيف الحال بالنسبة لمعطياتها في المسائل الفلسفية الأكثر شمولية وامتداداً ؟

(١٠)

بعد رحلة طويلة وشاقة في التاريخ يعود العلم ، بعد أن نما وشب عن الطوق وبلغ رسده ، لكي يلتقي بالدين ، واستبعدت الفكرة التي ترفض قبول كل مالا يخضع للفحص والتحليل .. لأن الأجسام الفيزيائية نفسها أبت أن تخضع للفحص والتحليل . ولم تسلم لنا نفسها لكي نعرها نوباً توباً .. كل ما قدمته لنا ، كما رأينا ، هو ملامحها الخارجية ، أما في الباطن ، على مستوى الحقائق النهائية للتركيب والماهية .. فلا جواب وإذا كان ذلك كذلك .. إذا كنا نحكم على الأجسام من خلال تأثيراتها ومؤثراتها ،

مكتسبات الفكر البشري الطلعي طبفا لمصالح وأهداف البروليتاريا وسائر النسيغلة وبما أنها كانا ثورين عظيمين فقد أحرزا مأثرة علمية لا نظير لها ، ففاما بانقلاب ثوري في العلم وفي الفلسفة - ، والاقتصاد السبائي ، والمذهب الاشتراكي ، وغيرها من مجالات المعرفة البشرية - وأنشأ علماً ثورياً جديداً هو الماركسية » . (٢٠) ومعروف بداهة « أن العلماء لا الفلاسفة ، هم الموكلون بتحقيق الثورات في ميدان العلم .. ومعروف أيضاً أن الفلسفة والاقتصاد وغيرها مما يسمى بالعلوم الفلسفية لا يمكن اعتبارها علماً بالمعنى الدقيق للكلمة وهذا يذكرنا بعبارة سوليفان التي ترد في آخر الفصل الخامس في كتابه (حدود العلم) حيث يقول (.. إن علم النفس لا يمكن اعتباره علماً حتى الآن . وللمعارف الأخرى مثل علم الاجتماع والاقتصاد وما إلى ذلك بعض النواحي التي لا تعتبر مرضية من وجهة النظر العلمية . والعلم هو أقوى ما يكون عليه عندما يتناول العالم المادي أما مفولاته في الموضوعات الأخرى فتعتبر نسبياً ضعيفة ومتلجلجة) (٢١) . وسوف نرجع إلى هذه المفولة فيما بعد ، والمهم هنا هو أن نشير إلى أن ماركس في مفولاته الاقتصادية فيما يسمى علم الاقتصاد الماركسي لم يكن على تمام الامام بتاريخ الاقتصاد البشري ، واعتمد في مساحات واسعة منه على معطيات تخمينية وطنية وها هو ذا الأستاذ البولندي (اوسكار لانكه) ،

(٢٠) المرجع السابق ص ٢٣ وانظر ، نفسه ص ٢٥ .

(٢١) طبعة العقل ص ٦٠ - ٦١ .

(٢٢) انظر كتاب (الاقتصاد السياسي) ١٤٨/١ ترجمة د . محمد سلوان الحسن (عن مجلة أفاق عربية سنة ٢ ، عدد ٦ ، محمد علي نصر الله : أضواء على نطق الانتاج الآسيوي) .

مكان في هذا العالم العلمي الجديد : ص ٣٩ - ٤٠
 إن تطلعاتنا الدينية وحسنا الجمالي إذا ليسا
 بالضرورة ظواهر وهمية كما جرى الافتراض في
 السابق .. يوم أن اندفع العلم المراهق والنظريات
 الاجتماعية والنفسية التي بنيت عليه يضرب هذه
 التطلعات ويسقط تلك الأسس ، وإذا الحياة
 البشرية إلى مجموعة ميكانيكية محددة صارمة من
 الأفعال وردود الأفعال .. مسطحا هذه الحياة الكثيفة
 المعقدة المتشابكة ، مدمرا امتداداتها المتقاطعة ..
 جاعلا إياها تتحرك على خط واحد وفق امتداد
 واحد ، وبأقل قدر من تبادل التأثير بين الذات
 والموضوع وأشدّه انحسارا .. والانسان ، ذلك
 المجهول (إذا استخدمنا تعبير كاريل) أصبح ظاهرة
 مادية أخضعت للتحليل والاختبار ، من أجل
 الوصول بالقسر والاكراه ، إلى تفسير نهائي
 لسلوكه .. فكان يندفع حيناً بتأثير دافعه الجنسي ،
 وكان يتحرك حيناً آخر على هدى ضرورة عمياء
 للبقاء والارتقاء ، وكان يتطور حيناً آخر ، مسلوب
 الإرادة ، بضغط التبدل في وسائل الانتاج ، وكان
 يمارس حياته حيناً رابعاً من خلال عقل جمعي لا يأبه
 بحياة الأفراد .

أنماط مختلفة من التفسير أريد بها الوصول إلى
 المستحيل .. والمستحيل هو فهم الانسان وإدراك
 طبيعة علاقته بالمادة .. وكان الاعتقاد السائد يومها ،
 أن المادة قد حسم أمرها ، وأن ما تبقى هو الانسان !
 لقد انتهى عصر التسطّيح والاحالة الميكانيكية
 أو البايولوجية لسلوكية الانسان ، ما دام قد تبين أن

فإن هنالك في حياتنا البشرية ظواهر لا يحصيها العد
 تؤثر في صميم هذه الحياة وقد مؤثراتها إلى كافة
 الاتجاهات ، كالدين والجمال والأخلاق ... إلخ . ومن
 ثم فإن نكرانها لمجرد أننا لم نعرف عن ماهيتها شيئا ،
 لم نعرف سوى تأثيراتها ومؤثراتها ، يفقدنا
 بالضرورة إلى إلغاء العلم نفسه .. لأنه لم يمنحنا
 سوى كشف عن التأثيرات والمؤثرات أما الماهيات
 فلا جواب . ومن ثم كان لذلك الكشف الخطير على
 مستوى العلم ، والذي بلور ادينغتون ملامحه النهائية
 تأثير إيجابي هام على مستوى الحياة البشرية .. إنها
 إرادة الله سبحانه التي ركزت الايمان به وحده في فطرة
 بني آدم تعود بهم ثانية إلى ساحة الايمان .. تعود بهم
 من ألف طريق .. وها هو ذا حشد كبير من العلماء
 يرجعون إلى الله والروح والجمال والحق والخير كحقائق
 موضوعية مستقلة عن ذواتنا ، يرجعون من خلال
 منهج علمهم نفسه (من الواضح - كما يقول
 سوليفان - إن حقيقة كون العلم مقصورا على معرفة
 البنى ، هي حقيقة ذات أهمية انسانية عظيمة ، لأنها
 تعني أن مشكلة طبيعة الحقيقة لم يبت فيها بعد . ولم
 يعد يطلب إلينا الآن أن نعتقد بعدم وجود مقابل
 موضوعي لاستجابتنا للجمال ، أو شعورنا السحري
 بالاندماج مع الله . إن مثل هذه الأمور يمكن أن
 تكون مفاتيحا لطبيعة الحقيقة ، وقد اعتبرت كذلك في
 كثير من الأحيان . وهكذا فإن تجاربنا المختلفة قد
 أصبحت كما كانت على قدم أكثر تساويا . إن
 تطلعاتنا الدينية وحسنا الجمالي ليسا بالضرورة ظواهر
 وهمية كما جرى الافتراض في السابق . وإن من حق
 الروى الباطنية (Mystics) أيضا أن يكون لها

أو المعادل اللامادي للتركيب المادية في البنية السديمية والذرية على السواء .. وأنه ما من الكترون أو بروتون أو نيوترون أو جسم كوني كذلك ، إلا وتتواجد قبالاته معادلته اللامادية . بمعنى هذا أن أكثر النظريات الفيزيائية حداثة تقدم تأكيداً أشد على تهافت المادية ، وتشير بلسان العلم المختبري والمعادلات الرياضية المركبة إلى التواجد الروحي في قلب الكون وفي صميم الذرة ، وإننا لنقف هنا خاشعين أمام واحد من جوانب الإعجاز القرآني .. تلك المجموعة من الآيات الكريمة التي تحدثنا عن تسبيح الكون والذرات للمخالق العظيم :

(سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (٢٧)

(سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (٢٧)

(تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِيحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) (٢٨)

(وَيَسْبِيحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ) (٢٩)

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْبِيحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلِّ قَدْ عِلْمُ صَلَاتِهِ وَتَسْبِيحِهِ) (٣٠)

الاجسام المادية نفسها فقدت تسطحها وقادت إلى دهاليز وأعماق وسرايب ضيّعت العلماء بعد ثلاثة أو أربعة قرون في البحث في المادة ، دون أن يدروا أنهم لا يزالون يتحركون على السطح .

إن بعض العلماء يرون أن الموجات الألكترونية التي تشكل بنية المادة ، كما هو معروف حتى الآن ، يمكن أن تكون موجات احتمالية (waves of Probability) من غير وجود مادي معها كان نوع هذا الوجود . (٢٣) أي أنه لا يوجد أساس مادي للأشياء على الإطلاق ! ويتفق علماء آخرون مثل ادينغتون وجينز على أن الطبيعة النهائية (ultimate natural) للكون هي طبيعة عقلية . (٢٤) وفي هذا يقول ادينغتون (ان مادة العالم هي مادة عقلية) ويردف (إن المادة العقلية ليست منتشرة عبر المكان والزمان بل إن المكان والزمان جزء من المخطط الدوري الذي هو في نهاية المطاف مشتق من المادة العقلية نفسها) ، أما جينز فيذهب مسافة أبعد ويعتبر العالم كله ذا طبيعة عقلية كاملة ، بل يجعله (فكرة في ذهن الله) (٢٥)

وأحدث النظريات التي طرحها عدد من كبار العلماء في مطلع السبعينات ونشرت خطوطها العريضة مجلة (العلم - والحياة) (٢٦) الفرنسية تقول بالمقابل

(٢٣) انظر ص ٤٠ - ٤١

(٢٤) انظر ص ٤٥

(٢٥) انظر ص ٤٧ - ٤٨

(٢٦) انظر بالتفصيل الترجمة العربية في مجلة النور المغربية العدد الثامن ، السنة الرابعة ١٩٧٧ .

(٢٧) سورة الحديد ١ ، الحشر ١ ، الصف ١

(٢٨) الاسراء ٤٤

(٢٩) الرعد ١٣

(٣٠) النور ٤٩

ومن ثم فلا التفسير الجنسي منفردا ، ولا التفسير المادي منفردا ، ولا التفسير الارتقائي منفردا ، ولا التفسير الجمعي منفردا ، ولا التفسير السلوكي منفردا .. ولا غيرها من التفاسير منفردة ، بقادرة على فهم الانسان .. ولا حتى وهي مجتمعة كذلك بقادرة على إدراك هذا الهدف الصعب .. وإنه لابد من الدين إذا ما أريد للمعادلة الصعبة المركبة أن تجد حلا .. والذي يقول هذا اليوم هم العلماء أنفسهم أبناء المختبر والتجريب والتعامل العلمي الرصين مع الظواهر والأشياء والموجودات .

(١١)

ومهما يكن من أمر فتمت أهمية ذات بعد انساني تنبثق عن التحليل آنف الذكر ، تتجلى كما يرى أصحابها (في أنها تترك لنا مجالا أكبر من الحرية لكي نضفي الاعتبار أو المغزى التقليدي على خبراتنا حول الجمال ، والدين ، أو لنقل بالاختصار ، الخبرات الباطنية . إنها لا تعزز بصورة إيجابية أيأ من التفسيرات التي جاءت بها الأديان للعالم ، لكنها تقطع الطريق على تلك المناقشات التي قامت لتثبت أن أيأ من هذه التفسيرات (الدينية) ما هو إلا مجرد وهم . لقد فعلت هذا عندما أظهرت أن العلم لا يعالج إلا ناحية جزئية من الحقيقة ، وأنه لا يوجد أدنى سبب يبرر الافتراض بأن كل ما يجهله العلم أو يتجاهله هو أقل حقيقة مما يعرفه : (ص ٤٨-٤٩) .

(وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير) (٣١)

(أنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والاشراق) (٣٢)

(كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون) (٣٣)

إن (التسبيح) ها هنا لا يقتصر على كون الذرات والأجسام الفضائية تخضع للنواميس التي وضعها الله فيها ، فهي بهذا تسبح بحمد الله سبحانه .. فهناك ما هو أبعد من هذا وأقرب إلى مفهوم التسبيح الحر ، أو التقديس الواعي .. إن هذه المواجيد المادية تلك أرواحا !! وهي تقارس تسبيحها وتقديسها بالروح ، وربما بالوعي الذي لا نستطيع استيعاب ماهيته .. وإن هذا ليقودنا ثانية إلى مقولة ادينغتون (إن مادة العالم هي مادة عقلية) !! كما يقودنا إلى الآية الكريمة (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) .. حقا إن إدراك الطرائق التي تعمل بها الذرات والأجسام لما يصعب تحقيقه .. ومهما تقدم العلم وخطا خطواته العملاقة ، فسيظل جانب من أكثر جوانب التركيب المادي أهمية ، بعيدا عن الكشف النهائي ، مستعصيا على البوح بالسر المكنون .

وإذا كانت المادة نفسها ذات بعدين على أقل تقدير .. أفلا يكون الانسان ذا أبعاد أكثر بكثير ؟

(٣١) الأنبياء ٧٩

(٣٢) سورة ص ١٨

(٣٣) التور ٤١

كذلك وأن يقول كما قال في ختام كتابه (الكون العجيب) (ان المعرفة الجديدة) لاحظ كلمة الجديدة) تضطربنا إلى تنقيح خواطرنا العجلى التي أوحى إلينا أننا وقعنا في كون لا يحفل بالحياة ، أو لعله يعمل على مناصبتها العداء . ويلوح لنا ان الثنائية العتيقة (لاحظ كلمة العتيقة ١١) التي تقوم بالعقل والمادة ويرجع إليها افتراض العداوة المزعومة ، آخذة في الزوال ، لا لأن المادة تدخل بأية حال من الأحوال في ظلال وأشباح ، أو لأن العقل تحول إلى وظيفة مادية بل لأن المادة الجوهرية تحيل نفسها إلى شيء من خلق العقل ومظهر من مظاهره ، ونحن نستكشف أن الكون يبدي الدليل على قدرة مدبرة أو مسيطرة لديها العقل الذي يماثل ما نفهمه بعقولنا ..) وجاز كذلك لعالم آخر كالسير آرثر ادنغتون Eddington أن يقول في ختام كتابه عن كيان الدنيا الطبيعية إن نظرات المتصوفة لا تهمل ، أو أن ملكات الانسان التي يمازجها الشعور الديني هي من وقائع الكون إذا كان الانسان قد استبقاها بفعل الانتخاب الطبيعي ، وهو من أهم العوامل الكونية . وفي ختام كتابه (فلسفة العلم الطبيعي) يقول : نحن حتى في العلم ندرك أن المعرفة ليست بالأمر الوحيد الذي نعتد به ، ونسمح لأنفسنا أن نتحدث عن روح العلم .. وإن اعرق من كل قضية من قضايا النكران هي العقيدة التي هي قوة خالقة أهم مما تخلقه .. وفي عصر العقل تظل العقيدة راجحة لأن العقل بعض مادة العقيدة .. (٣٤)

ليس هذا فحسب .. بل إن العلم في عهد مراهقته ، والفلسفة والآداب التي أقامت صرحها عليه كانت أسيرة اعتقاد أشد خطأ يقوم على افتراض أن كل ما يجله العلم أو يتجاهله لا وجود له على الإطلاق ، وهو موقف ساذج لا يزال يتشبث به كثيرون من أدياء العلمية في بلادنا ، أولئك الذين أخذوا على عاتقهم ، أو حملوا بشكل أدق ، مهمة إعلان الحرب على الغيبيات ، دون أن يدركوا أن المواقع الأخيرة لمسيرة العلم الجاد قد كشفت عن حقيقة أن المادة نفسها تحمل في تراكيبها بعدا غيبيا .. إن هؤلاء ليدركون الانسان بالنعامة التي إذا دهمها خطر ما دفنت رأسها في الرمال معتقدة - بنوع من خداع الذات - أنها ما دامت لا ترى الخطر فإنه ليس بموجود .. وتكون النتيجة أن تضع المسكينة في بطون السباع !!

إن المادة اليوم ، كما يقول العقاد (لا تصدّ المفكرين عن عالم الحقائق المجردة ، ولا هم يتخذون من صلابتها وجسامتها شرطا للحقيقة الثابتة ، فإن الحقيقة المادية نفسها لا تثبت اليوم بمجرد الصلابة والجسامة ، ولا تزال ترتد على أصولها حتى تؤول إلى عدد من الهزات في ميدان مجهول هو ميدان الأثير وميدان الفضاء . فالمادة في القرن العشرين قد اقتربت من عالم الفكر المجرد ، بل دخلته وأصبحت في تقدير الثقات (عملية رياضية) ، أو نسبة من النسب التي تقاس بمعادلات الحساب . وقد جاز لعالم كبير كالسير جيمس جينس (Jeans) أن يعتبرها

إن هذه المعطيات تعرض النظرية الديالكتيكية بصدد القول بمادية العالم ، ورفض الغيب ، أو ما وراء المادة ، هزة قاسية ، تصبح مقولات الديالكتيك من مثل (إن موضوعية العالم أي وجوده خارج وعينا ومستقلا عنه تعني أنه مادي) (٢٥) ، ومن مثل (لقد أثبت العلم إثباتا قاطعا بأنه لا وجود لعالم غير مادي ، لعالم الغيب ، للعالم الآخر ، ومن غير الممكن أن يكون له وجود . وفعلًا ، طالما ليس هناك أي شيء غير المادة ، فإن الممكن وجوده هو عالم واحد فقط ، العالم المادي . لذا تعلمنا الفلسفة الماركسية بأن العالم واحد) . (٢٦)

تصبح مقولات قاطعة كهذه ، تشنجا غير علمي ، وإصرارا - غير مبرر - على عدم بذل المزيد من الاسهام في تفحص بناء العالم ، والتنازل ولو قليلا عن مواقف سبق وأن اتخذت في بيئات القرن التاسع عشر .. إن هذا يذكرنا بأسطورة المدينة المسحورة التي تحكي لنا عن رجل يدخل صدفة مدينة كان أحد السحرة الأشرار قد فضى بتوقف الحركة فيها . وظلّ أحيائها بعد ذلك ، السنين الطوال ، جامدين كالأصنام ، وفق الحالة التي كانوا عليها يوم حلت بهم لعنة السحر !!

وبدلا من أن نحاول اعتقاد سحر أقوى لاعادة الحركة والحياة لهذه المدينة المنكودة .. نفرأ مزيدا من الشهادات التي تصدر عن أفواه علماء ، لا فلاسفة أو

أدباء أو اقتصاديين وزعماء حركات تورية !! عن أن العالم ليس بنية مادية صماء وأن ما وراء المادة المنظورة عوالم وأكوان !! .

يقول شروندنجر في ختام رسالته (ماهية الحياة) (أود أن أوضح في هذا الفصل الأخير بالابحاز أن كل ما علمناه من بناء المادة الحية يوجب علينا أن نكون على استعداد لأن نراها عاملة على منال لا يمكن إخضاعه لفوانين الطبيعة العادية ، وليس ذلك على اعتبار أن التركيب هنا يخالف كل تركيب درسناه في معامل العلوم الطبيعية) . وختم شروندنجر رسالته بالنسائل عن الشخصية والروح ، فقرر أن (الوعي) ظاهرة مفردة لا تقبل الجمع ، وأن كل ما يمكن الجزم به هو أن الشخصية لا تتكرر وأنها قوام مستقل عن كل قوام . (٢٧)

ويقول ليكون دي نوي (De Nouy) (.. إن الانسان الأمين الذي تنطوي نفسه على الشوق العلمي لا يلزمه أن يتصور الله إلا كما يلزم العالم الطبيعي أن يتصور الكهرب ، فإن التصور في كلتا الحالتين ناقص وباطل ، وليس الكهرب قابلا للتصور في كيانه المادي ، وإنه مع هذا لأثبت في آثاره من قطعة الخشب) . (٢٨)

وكان رسل والاس في شيخوخته يعتقد أن الكون المادي إنما هو مظهر للكون الروحاني ، وأن في الكون

(٢٥) برودستنيك وباخوت : عرض موجز ص ٣١ .

(٢٦) نفسه ص ٥٢ .

(٢٧) العفاد : عقائد المفكرين ص ٦٣ .

(٢٨) نفسه ص ١٠٥ .

الصورفلسفة رجال العلم في القرن التاسع عشر -
آن فئة مدهشة - بنسبة عددها إلى سائر أعضاء
الجمعية الملكية - فد قررت بأسلوب واضح أنها تؤمن
بعالم روحاني وعناية ربانية مهيمنة ، وإن كثيرا منهم
يعتقدون بقاء الشخصية بعد موت الجسد) . (٤١)

فئة مدهشة من العلماء تفرر بأسلوب واضح أنها
تؤمن بالروح وبالعناية الربانية المهيمنة وبالخلود !!
وغير هذه الشهادات عشرات وعشرات ..

إن من الفول الجراف اليوم - يستخلص العقاد -
أن يقال إن محسوسات المادة هي وحدها الوجود
الحقيقي وإن المتكلمين عن أصول المادة يأتون بشيء
أثبت من الكلام عن الأرواح والمجردات !! (٤٢)

(١٢)

إن انفتاح العملية العلمية على الخبرات
الانسانية كالدين والجمال ... إلى آخره ، أخذ
بالاتساع وإن مناعة العلم المستندة إلى فكرة السببية
التي جعلته ينغلق على نفسه ، لا يبدو واضحا - كما
يقول سوليفان - أنها ستستمر . إن الاكتفاء الذاتي ،
إن صح التعبير (ينطبق فقط على فيزياء الحقل
(field physics) التي تغطي جزءا كبيرا جدا من
الفيزياء لكنها لا تغطي كل الفيزياء . والأمل في
(جعله) بغطي كل الفيزياء أخذ بالتنافس . ففي
الظواهر الذرية وتحت الذرية (sub — atomic)

الروحاني نأخذ من العلم من العمل - لنرى نعم
إلى الأرواح الكامنة في الخلايا الحية ، وربما تعذر
إثبات هذه التعديرات بالبرهان الفاطح ، ولكنها فيما
نراه أصلح لتوضيح الوقائع من أي تفدير يأخذ به
الماديون . (٣٩)

ويعول سير آرثر نومسون (Thomson) ،
أستاذ التاريخ الطبيعي بجامعة أبردين ، كثيرا على
تحفف الكثافة المادية واقتربها من (اللاموزونات)
أي المعاني التي لا توزن كالفكر والعاطفة والعناية
(Imponderables) ويقول إننا في زمن شفت فيه
الأرض الصلبة وفقد فيه الأثير كيانه المادي ، فهو
أقل الأزمنة صلاحا للغلو في التأويلات المادية . وفي
جوابه للسائلين عن عقيدته في (مجموعة العلم
والدين) (Science and Religion) يقول (.. إذا
كان العلم صيغا وصفية ، وكان الدين في جانبه العقلي
تفسيرا علويا أو خفيا ، فلا موجب للتعارض الحاسم
بينهما) . (٤٠)

وقال روبرت بروم (Broom) ، عضو الجمعية
الملكية الانكليزية في مطلع الخمسينات : (من نحو
عشرين سنة اهتم بعضهم بأن يبحث عن الآراء
المادية التي شاعت بين الدوائر العلمية في النصف
الأخير من القرن التاسع عشر ، هل لا تزال على
شيوعتها ؟ أم أن الآراء الأخيرة عن بناء المادة ومذهب
النسبية وعلوم الحيوان قد عدلت على صورة من

(٣٩) نفسه ص ١٠٩

(٤٠) نفسه ص ١١٣

(٤١) نفسه ص ١٠٧

(٤٢) نفسه ص ٩٧

إن عصر الاتكاء الكليّ على حقائق علمية معينة قد انتهى ، وحل محله اعتقاد سائد ، أخذ يتسع شيئاً فشيئاً ، في أن ميدان العلم لا يشهد تغيرات فحسب .. بل طفرات وثورات .. إن المادية الديالكتيكية مثلاً أقامت بنيانها في بعض جوانبه على أسس المعطيات العلمية للقرن التاسع عشر .. وقد تبدلت تلك الأسس وتغير الكثير من تلك المعطيات .. وما زال أتباع التفسير المادي يصفونه بالعلمية .. وما يقال عن التفسير المادي يمكن أن يقال عن معظم النظريات الفلسفية والنفسية والاجتماعية ، وجلّ الآداب والفنون التي نهضت على تلك الأسس المتغيرة .

إن جانباً من أخطر الجوانب الفيزيائية وأهمها ، وهو (الظاهرة الذرية) غردت على السببية التي اتكأ عليها العلماء في حقول الفيزياء والتي شكلت افتراضاً أساساً في العلوم .. وإن نوعاً من الإرادة الحرة في العلاقات الذرية أخذ يحل محل القاعدة الحتمية التي تعرّضت للتصدّع ... وتساءل : إذا كان التركيب المادي - الذري نفسه يتجاوز الحتميات صوب الحرية ، فكيف نتسنى لنا أن نخضع الحياة البشرية في صيغتها الفردية والجماعية لنوع من الحتمية الصماء .. ألا بعد هذا نوعاً من العمل الخاطيء (علمياً) لأنه يتحرك باتجاه مضاد لنواميس العالم والأشياء ؟!

إن نتائج فلسفيه هامة ستنمخض حقاً عن هذا التغير إذا حدث وأن ثبت أقدامه كحقيقة مسلم بها .. إن الفرق بين ما هو طبيعي وما هو خارقي للطبيعة

بدو أن الحالة التي يواجهها العلماء تفع خارج المخطط الدوري (السببي) تماماً . إن أكثر الأمور مدعاة لعدم الارتياح في هذا الصدد هو أن قاعدة السببية التامة (Strict Causality) التي تشكل افتراضاً رئيسياً في العلوم ، لا تبدو قابلة للتطبيق في هذا المجال . ففهاً بتعلق بحركة الذرات المفردة (Individual atoms) ، وحركات الالكترونات يبدو أن هناك عنصراً من الإرادة الحرة (free - will) . إن قاعدة الحتمية (Determinism) قد تصدعت لتأخذ مكانها قاعدة السلاحيتمية (Indeterminacy) ... وإذا استطاع هذا المبدأ أن يثبت أقدامه نهائياً فمن الواضح أنه ستكون له نتائج فلسفية هامة . فسوف سهّل علينا الاعتقاد بأن إدراكنا أو شعورنا بالإرادة الحرة ليس وهماً ، وسيكون في مقدورنا أن نكون أكثر حرية في أن تنسب للطبيعة تقدماً حقيقياً مبدعاً ، بدلاً من أن نعتبرها تسير وكأنها آلة هائلة جميع منتجاتها مقررة سلفاً . وكما أشار ادينغتون فإن الفرق بين ما هو طبيعي وما هو خارقي للطبيعة سوف يتناقض حقاً. إن ذلك المبدأ لو قبل بصورة قطعية فإن ذلك سوف يؤدي إلى أعظم نورة تحدث حتى الآن في الفكر العلمي وفي الفلسفة المرتكزة عليه : ص ٥٠-٥١) .

نورة عظيمة ، كما عودنا العلم دائماً .. أنه ليس نمة مسلمات نهائية ، وأن كنوفات العلم قد تكون - أحياناً - من الحدة والعف بحيث إنها تغير نوعياً أنماط تفكير بكاملها فتقلبها رأساً على عقب .. أنماطاً في منهج البحث وفي المعطيات وفي النتائج الفلسفية المرتبة على هذا وذاك .

بهذا تحدث توافقاً فذاً بين القانون وبين الابداع ..
بين الفدر وبين الحرية ..

فإذا ما حدث وأن استمد الانسان المؤمن من
إرادة الله هذه ، كان بمقدوره أن يمارس ، بالنسبة التي
تنسجم ودوره في العالم ، تحقيق وفاق كهذا ، يحدث
(تفهماً حقيقياً مبدعاً) ما دام أنه حرّ ، وما دامت
الطبيعة نفسها ، في صميم تركيبها الذري ، مخلخلّة
إلى الحد الذي يمكن هذه الحرية من أن تنفذ إليها
لكي تصوغها لصالح الانسان .

إن العلم قد بلغ أخيراً هذه المرحلة الخطيرة ..
المرحلة التي يلتقي فيها المادي بالروحي ، في وفاق
وانسجام .. ويتصالح الانسان مع الطبيعة لتحفيظ
التقدم المنشود ، سيداً في العالم وخليفة عن الله في
الأرض ..

(١٣)

وبنتهي سوليفان إلى تلخيص فصله القيم بهذه
الكلمات : (لقد بحثنا حتى الآن في حدود العلم
باعتباره أسلوباً لاكنساب المعرفة حول الحقيقة . وقد
رأينا كيف أدت الحساسية الجديدة للعلم إلى الاقرار
بأن ادعاءاته السابقة قد بولغ فيها كثيراً . لقد جعلت
الفلسفة المبنية على العلم من المادة والحركة الحقيقة
الوحيدة . وبهذا العمل فقد جرى استبعاد جميع
العناصر الأخرى الواقعة في مجال خبرتنا . هذه
العناصر التي نحمل ، كما يتراءى لنا ، المغزى
الأكبر ، والتي تجعل الحياة في النهاية جديرة بأن

سوف يتناقض .. الفرق بين الطبيعة وما وراء
الطبيعة ، والحضور والغيب ، والمادة والروح ، والمدر
والحرية ... وستلتقي معطيات العلم مع حقائق الدين
في عناق حار .. لقد حدث وأن التقت مراراً ، أما
هاهنا ، حيث تنهار الحواجز المادة وغد الحرية إلى
صميم التركيب الذري ، وحيث يقف الانسان ، سيد
العالم وخليفة الله في أرضه ، حراً في أن يتحكم
بالطبيعة التي سخرت له ، لا أن تتحكم هي به كما
صورت فلسفات (الحتمية) في القرن الماضي ..
هاهنا سيكون لقاء من نوع آخر .. لقاء كثيراً ما
حدثنا عنه القرآن ، كتاب الله المعجز ، وعرض علينا
نماذج غنية من صيغه وأنماطه ..

إن المعجزات التي يحدثنا عنها القرآن هي لقاء
من نوع ما بين ما هو طبيعي وما هو خارق للطبيعة أو
بعبارة أخرى ، تتجاوز للفرق بينهما .. وإن نقل عرض
بلمقيس من مكان بعيد في لحظات معدودات - على
سبيل المثال - هو نموذج من عدد من النماذج على
تمكن الانسان الحر ، المدعم بتأييد الله ، من التحكم
بالتركيب الذري (الحر) للأشياء وتطويرها
لأرادته .. وإن الطاقات الطبيعية وما وراء الطبيعة
الهائلة التي منحها الله سبحانه لنبيه سليمان (ع)
تمثل تمكن الانسان من تحقيق وفاق بين الطبيعي
واللاطبيعي من أجل تحقيق (تقدم حقيقي مبدع) ..

إن إرادة الله سبحانه تتجاوز (اعتبار الطبيعة آلة
هائلة جميع منتجاتها مقرر سلفاً) فصوغها كما تضاء
(والساء بنيناها بأيدينا وإنا لموسعون) (٤٣) وهي

(١٤)

في الفصل الخامس من كتابه والمعنون بـ (طبيعة العقل) يعرض سوليفان للمعضلة التي خصص لها سلفه (الكسيس كاريل) كتابه الشهير (الانسان ذلك المجهول) .. هل سيفدر للعلم يوما أن يفهم الطريقة التي يعمل بها العقل البشري ؟ أن يدرك أسرار تركيب هذه الآلة المعجزة ؟ .. ويمتد التحليل - بطبيعة الحال - إلى الانسان كله ، سايكولوجية الانسان ، في محاولة للإجابة على السؤال نفسه : التركيب وطريقة العمل .. تُرى .. هل توصل سوليفان إلى (نتائج) مغايرة لتلك التي قدمها لنا كاريل في كتابه ذاك ؟

سوف نتجاوز هنا التساؤلات والاعتراضات التي يطرحها المؤلف حول نظرية (النشوء والارتقاء) ، أو النظريات الموازية لها ، سلبا وإيجابا ، كقوله مثلا (إن الخط الفعلي الذي يشير إلى انحدار الانسان من مخلوق غير انساني بصورة قطعية ما زال موضعاً للتأولات : ص ٨) وقوله ولما جاء دارون Darwin بعقيدته القائلة بأن الانسان قد تطور بدنيا من جدّ شبيه بالقرود ظل الكثيرون يتحرجون من الافتراض بأن هذه العملية تنطبق أيضا على العقل . ذلك أنهم رأوا أنه ستكون لمثل هذه العقيدة انعكاسات ممقوتة دينيا وأخلاقيا ، حيث أنها تنزع عن الانسان أكثر ميزاته بروزا ونبلا ، وتعني بذلك روحه . وهكذا فإن بعضهم ، ومن بينهم والس Wallace استبقى الاعتقاد بأن عقل الانسان وروحه قد خلقا بصورة مخصوصة بينما سار بدنه في خط التطور : ص ١١ -

تعاين ، قد جرى استبعادها على أنه محض أوهام . لقد بدا العلم لبعض المفكرين ، وربما لغالبيتهم ، أنه قد جعل الحياة خاتمة على الرغم من كل المنافع العملية التي قدمها . وهكذا فإننا لا نحدد ما يشير الدهشة عندما نرى أن النظرة العلمية الجديدة كما شرحها رجال من أمثال ادينغتون وجينر ، قد لاقت اهتماما واسعا . لقد كانت المعتفدات الميتافيزيقية التي رافقت العلوم مدعاة لليأس والقنوط ص ٥١-٥٢) .

وهو تلخيص على درجة من الوضوح بحيث انه لا يحتاج إلى إضافة كلمة واحدة ..

ثم يختتم سوليفان تحليله بالقول بأن الفلسفة العلمية القديمة (جعلت الانسان نفسه حاصلا عرضيا محضا للمادة والحركة ، والتي عرضت الكون على اتساعه وعظمته على أنه مجرد من الغرض تماما .. إن المادة لن تكون أحسن حالا لو افترضنا أن العالم الحالي يتجدد باستمرار . إن دوافعنا الدينية لا يمكن أن يفتنحها أي شيء أقل من الاعتقاد بأن للحياة مغزى خارقا . وهذا الاعتقاد ، هو بالضبط ، ما جعلته الفلسفة القديمة أمرا مستحيلا . وهكذا يمكننا أن نستنتج أن الأهمية الحقيقية للتغيرات التي حصلت في العلوم الحديثة ليست في قدرتها المتزايدة على دفع عجلة تقدم الانسان ، بل في تغير الأسس الميتافيزيقية التي تقوم عليها ص ٥٣ - ٥٤) .

ومعنى هذا - باختصار - أن الالحاد ، قد أصبح - على ضوء التقدم العلمي - أمرا رجعيا !!

العملية نزولا عبر السلم سنتردد في نسبته متلا للآميا ، أو للنبات . وربما كان من الصعب علينا التوقف حتى هنا أيضا بمعنى أننا سنجد أنفسنا وقد أضفينا خاصة الشعور على العالم غير العضوي . وقد لا يكون هناك سبب مفتح لتبرير عدم الفياض بمثل هذا الاضفاء . لقد وجد من الفلاسفة من كان يعتقد بأننا محفون في أن نقوم بذلك . ولكن يمكننا قبل ذلك أن نحاول العثور على بدائل أخرى ان أي بديل سوف يعاني بالطبع من مساوئ افتراض انقطاع في الاستمرارية : (ص ١٧) .

وسنبداً بتحليل طبيعة عمل العقل وتركيبه ، وبخصائص السايكولوجية البشرية والنظريات والآراء التي طرحت في هذا الصدد ، وسنرى أن بعض هذه النظريات والآراء بني على تسليم كامل بمعطيات الكشف العلمية المتغيرة دوماً ، وسنجد بعضها الآخر يعاني من التعميمية ، ذلك الخطأ المنهجي الذي أسر الفكر والبحث الغربيين طويلاً ، والذي سبق وأن أشرنا إليه .. وبعضها الثالث مارس قدراً كبيراً من التبسيط أو التسطيع في العملية العقلية والنفسية ، رغم تعقدها وعمق غورها ، من أجل أن يتساقى التفسير مع العلاقات الميكانيكية في عالم الأشياء .

وسوليفان يلاحق عدداً من هذه النظريات والآراء ناقداً محملاً ، طارحاً قدراً كافياً من الأدلة المستمدة من حقائق العلم أو الفناعات المنطقية ،

(١٢) وقوله (إن العفيدة المقبولة والفائلة بحصول تقدم تدريجي من جد تنبيه بالقرن إلى الإنسان الحديث تير السؤال المتعلق بمعرفة الوقت الذي اكتسب فيه هذا الكائن الروح خلال عملية التطور : (ص ١٧) وقوله (.. حفا إنه ليصدق المول على العموم بأن تعقد السلوك مصاحب لتعقد تركيب الجملة العصبية. لكن التقابل بين السلوك والتركيب المشار إليه لا يظهر انسجاماً تاماً . فبعض الكائنات العضوية مثل النمل والنحل والعنكبوت ذات غرائز شديدة التعقد^(٤٤) ، على الرغم من أن جملتها العصبية بسيطة نسبياً . ومن جهة أخرى فإن بعض الكائنات العضوية مثل أنواع معينة من الحيوانات اللبونة ذات غرائز أكثر بساطة بشكل ملحوظ مع أن جملتها العصبية شديدة التعقيد . وهكذا فإن مسألة التقابل بين التركيب العضوي وبين ردود الفعل المتوارنة لم تتضح تماماً بعد : (ص ١٥) وقوله (على الرغم من أن النظرية الفائلة بتطور العقل بصورة مضطربة قد تكون النظرية الأكثر قبولاً واستساغة ، فليس هناك من شواهد الملاحظة ما يفي بصحتها بالضرورة . ومن الممكن تماماً أن تكون قد حدثت بعض التفراعات بصورة مفاجئة خلال عملية التطور ، وأن تكون قد ظهرت عناصر جديدة كل الجدة . وكما سبق أن رأينا فقد جرى الاعتقاد بأن الشعور شيء خاص بالإنسان ، ولا يوجد أي حيوان له هذه الخاصية . ولو أننا أنكرنا ذلك وأصرنا على نسبة الشعور للحيوانات العليا ، فأننا سنتردد في متابعة

(٤٤) لاحظ أن هذه الحشرات الثلاث سورا باسمها في القرآن الكريم ، ولهذا دلالة ولا ريب //

متوغلا في صميم الفكرة او النظرية نفسها لكي ما يلبث أن يكشف التناقضات التي تعانيها .

وهو يقف طويلا عند الفلسفة المادية العتيقة التي فسرت أفكار الانسان على أنها مؤلفة من حركات صغيرة من البليارد في رأسه ، فيقول (.. إن الانتقال من حيز التصادم إلى حيز الافكار مفاجيء جدا . وليس هناك في معرفتنا بخواص الحركة أو خواص الاجزاء الصغيرة الصلبة أي شيء من شأنه أن يجعلنا نتقبل هذه النتيجة . ومع ذلك فإن نظرية الفلسفة المادية هذه يمكن أن تكون صحيحة كوصف للحقيقة ، ولكنها ستبقى حقيقة غير قابلة للتحليل ما لم تصبح أفكارنا عن الأجسام الصلبة وعن الحركة أكثر اكتمالا بكثير . إن القول بأن فكرة الفلسفة المادية المشار إليها يمكن أن تكون صحيحة كوصف (description) على الرغم من أنها غير قابلة للفهم كتفسير (explanation) يتوافق مع النظرية الحديثة للتطور الطارئ Emergen Evolution تلك النظرية التي نالت اهتمام وتعاطف بعض من علماء الحياة من ذوي العقلية الفلسفية : ص ١٩) .

إن الانسان المطارد ، عندما يحاصر في سطح بناء مرتفعة ، ويدرك أنه مأخوذ لا محالة ومحكوم عليه بالاعدام أو الأشغال الشاقة ، مستعد أن يرمي بنفسه من أعلى طابق في محاولة يائسة ، يلعب فيها اللاشعور دورا كبيرا لكي يتجاوز الحصار .. وإن العلماء والفلاسفة الذين استعصى عليهم إدراك الطريقة التي تتشكل فيها الأفكار .. الصيغة التي يعمل بها العقل .. ليسوا جميعا - وبخاصة ذوي العقلية

الفلسفية ممن لا علاقة لهم بالمختبر أو الفلسفة ، كانغلز ورفاقه ، وغيرهم ، ليسوا على قدر كاف من التواضع ، ليسوا كالكسيس كاريل أو سوليفان اللذين ، رغم مختبريتهما وتجربتيهما - أعلننا بتجرد العلماء ونزاهتهم أنه لم يحن الأوان بعد لإعلان رأي ، أو مجموعة آراء نهائية ، بصدد العملية العقلية أو حتى السايكولوجية عموما ، ومن ثم فإن ذوي العقلية الفلسفية (ونستخدم هنا تعبير سوليفان ذي الدلالة) لم يشاءوا أن يتركوا المسألة دون جواب ، واعتبروا أنفسهم محاصرين بالسؤال الملح ، وسيحكم على معطياتهم بالاعدام أو الاشغال الشاقة إن لم يندفعوا إلى طريق الخلاص بجواب ما .. وها هي ذي إحدى أجوبتهم التي اطمأنوا إليها .. إن التصادم الجزئي في الدماغ هو الذي يولد أفكارا وكأن دياكتيك التصادم الذي قد تفسر به بعض ظواهر التاريخ على السطح - وليس كل الظواهر - يمكن أن تمتد قوانينه الى أعماق الخلايا الدماغية لكي تعمل هناك ، حيث تتصادم الذرات فتولد قفزات نوعية في الحركة هي التي تصنع الأفكار . من يضمن صواب هذا الرأي ونهائيته ؟!

إن المادية العلمية ادعت ، ولا تزال ، هذا الضمان .. لكن الفلسفة المستريحة شيء والعلم المختبري الجاهد شيء آخر .. إنها مادية فلسفية ، نعم ، ولكنها ليست علمية بأية حال من الأحوال إلا بقدر ما يتعلق الأمر بمنهج بحثها في مساحات من التاريخ الأوربي ، وليس كل المساحات ، إذ أنه حتى على مستوى التاريخ ، فإن مساحات واسعة من

الأجسام الصلبة وعن الحركة أكثر اكتيالا بكثير، فإن العملية العقلية في خلق الأفكار ستبقى حقيقية غير قابلة للتحليل .. فالفلسفة المادية تريد أن تعتبر ما كشفه العلم حتى الآن عن خواص الحركة والأجسام (الذرات) الصلبة ، بمثابة حقائق نهائية ترى أن من حقها أن تبنى عليها .. وقد تبين لنا - مرارا - كيف أنه ليس ثمة حقائق نهائية في هذا المجال ، وأن من النظريات الحديثة ما يطرح فكرة أن الذرة تظهر (شيئا شبيها بالارادة الحرة something — Like free will

وثالثا : أنه إذا صحّت هذه الفكرة المادية كوصف للظاهرة فإنها غير قابلة للفهم كتفسير .. والوصف يعطينا ملامح الشيء من الخارج .. والأهم هو أن نعرف ما الذي يجري في الداخل ، وكيف يتم الحدوث الفكري . فالنظرية - على فرض التسليم بها ، وهذه مسألة معلقة ما دام أنها تبنى على أسس غير مكتملة - تقطع شوطا صغيرا - في الطريق إلى فهم حدوث الأفكار ، وتبقى المسافات الأطول ، لم يقطعها أحد حتى الآن .

ورابعا : أن هذه الفلسفة تتوافق مع النظرية الحديثة للتطور الطارئ ، تلك النظرية التي نالت اهتمام وتعاطف بعض علماء الحياة من ذوي العقليات الفلسفية . فنظرية التطور الطارئ التي يمكن أن تدعم الفلسفة المذكورة قد نالت اهتمام بعض علماء الحياة من ذوي العقليات الفلسفية . وليس جلهم ، وهذا البعض هو من ذوي العقليات الفلسفية التي تسعى للاجابة على كل سؤال وفك كل لغز خفا من

التاريخ البشري المبكر ، وبخاصة الجوانب الاقتصادية منه والتي بنيت عليها جوانب هامة من النظرية المادية ، تبين من خلال شهادات أحبار المادية ونقادها على السواء أن وقائعها التاريخية لا تتجاوز مرحلة الظن والتخمين وأنها ليست - على المستوى النقدي - بمصاف الوقائع النهائية المفروغ منها ..

ومرة أخرى نسأل : من يضمن صواب التفسير البلياردي - إذا صح التعبير - للنشاط العقلي ، وتكوّن الأفكار ؟ إن سوليفان يبين لنا أولا : كيف أن هذا التفسير ينبثق عن فلسفة يصفها بالعتيقة ، ولهذا دلالاته ، ويتميز بالمفاجأة التي تفقد تسلسلها المعقول ، إذ أن القول بتحوّل الصدام الشئشي الى تراكيب فكرية ، هو كالقول بتحوّل الجمادات على حين غرة الى الحياة ١١ وهو ما تقول به المادية الديالكتيكية في قانونها المشهور عن (تحوّل التغيرات الكمية إلى تغيرات كمية) فتنقض بذلك مع الحقائق العلمية ، وتريد أن تقنع نفسها بأنها قد وجدت المفتاح الذي يفسر نشوء الحياة وعمل العقل البشري .

ويبين لنا ثانيا : أن ليس في معرفتنا بخواص الحركة ، أو خواص الأجزاء الصغيرة الصلبة أي شيء من شأنه أن يجعلنا نتقبل هذه النتيجة (وسيعود بعد قليل - كما سنرى - إلى هذه النقطة فيبين أن هذه المعرفة المادية نفسها تعاني نقصا خطيرا ، فكيف نبنى عليها نظريات علمية وهي لم تتجاوز - بعد - عتبات اليقين ، إننا سنبنّي على أساس مهوّش غير راسخ ولا شك ..) وأنه ما لم تصبح أفكارنا عن

أن تنهم بالعجز، حتى ولو قادها ذلك إلى تجاوز مقتضيات العلم ومناهجه الرصينة .. وتبقى نظرية التطور الطارىء، قبل هذا وبعده، نظرية وليست حقيقة مسلماً بها أو قانوناً .

(١٥)

فما هذه النظرية الحديثة للتطور الطارىء ؟

تقول النظرية - باختصار - (إن خواص جديدة بصورة جذرية تبرز إلى الوجود في مراحل مختلفة من التعقد الذي يصل إليه الكيان المادي . فالحياة والعقل كلاهما قد اعتبرا وفقاً لهذه النظرية خاصيتين طارئتين على مجاميع مادية معينة Certain material aggregates : ص ٢٠) .

في التفسير الاسلامي، والديني عموماً، تحلّ (الروح) المعادلة الصعبة، تنصبّ على الدماغ، ذلك النسيج المعقد من الخلايا، فتمنحه القدرة على الادراك، وتنصبّ على المادة، ذلك التركيب المتشابه من الذرات، فتمنحها الحياة .. ليس ثمة إشكال، بمجرد أن تتيقن نفوسنا بأن الله خالق الكون والحياة والانسان، هو وحده القادر على إحداث معجزة الفكر في خلايا الدماغ، ومعجزة الحياة في الذرات المادية، بإضافة سرّه العجيب : الروح .. وبدون هذه الاضافة، فإنه ليس بمقدور أية نظرية علمية أو فلسفية، على مدى ملايين السنين، أن تحلّ المعادلة ذات الطرفين . إذ أنها بالغاء الطرف الآخر : الروح، ستسعى عبثاً للبحث عن البديل ولن يكون البديل سوى سلسلة طويلة من العنت والارهاق وطريق

طويل من الظنون والتخمينات والأمانسي (تلك أمانيتهم، قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين)

أما ما الروح ؟ وما سرّها المعجز ؟ وما طرائق تعاملها مع الدماغ والمادة ؟ فإنها مسائل تستعصى على الحل البشري .. إن الدماغ لا يمكن أن ينشق على نفسه لكي يعاين نفسه ويعطينا الجواب .. والروح نفسها ما دامت فينا، في لحمنا وأعصابنا وخلايانا ونسيجنا، فإنها لا تستطيع أن تنفصل لكي تعاين طريقة عملها في الجسد .. ثم إن المسألة أولاً وأخيراً، لا تعني مهمة الانسان في العالم، والأخرى أن يتجاوز الانسان ذلك إلى البحث في صميم العالم وتركيبه للكشف عن سننه وقوانينه وللتحقق بالتقدم والابداع في مجرى التاريخ .. من ثم فالتنا بيننا نجد في كتاب الله مئات الآيات التي تدعونا إلى فهم العالم والكشف عن سننه، لا نجد سوى آية واحدة تحكي لنا عن الروح، سر الحياة والفكر، ومعجزة الخلق والابداع (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) .

ولنرجع إلى (النظرية المادية للتطور الطارىء) كأحدى المحاولات الوضعية الجديدة لحل المعادلة .. إن سوليفان يبين لنا في مقاطع معدودات عدم قدرتها على الاثبات .. وتهافتها .

تقول النظرية - كما مرّ بنا قبل قليل - بأن الحياة والعقل يعتبران خاصيتين طارئتين على مجاميع مادية معينة .. ويرد سوليفان (إن المعرفة التامة بالعناصر المكونة لهذه المجاميع لا يمكنها أن تتيح لنا التنبؤ بأن اجتماع هذه العناصر سوف ينتج خاصية

معرفتنا عن ذرات الهيدروجين والأكسجين يمكن أن تصبح قادرين على الاستنتاج بأن خواص الماء يجب أن تظهر في اجتماع العنصرين السابقين ، وهذا سيؤدي إذا إلى دحض نظرية التطور الطارىء . ثم إن فشلنا في الوصول إلى ذلك الاستنتاج مهما تكرر لا يمكننا من إثبات تلك النظرية ، إنه يجعلها ممكنة فقط ، ويمكن أن يجعلها مع مرور الوقت محتملة . وهكذا فإن موقفنا من نظرية التطور الطارىء يعتمد إلى حد ما على تقديرنا لمستوى معرفتنا العلمية في الوقت الراهن . أما زال على علم الفيزياء أن يعرف الشيء الكثير عن خواص المادة ؟

ويجب سوليفان (من الواضح أنه لا يوجد أي شخص يستطيع الاجابة على السؤال السابق . وإذا أردنا أن نتحدث بصفة رسمية ، فإن العلماء يقولون دائما بأن العلم لم يكديداً بعد . وإذا صح هذا ، أو بعبارة أخرى ، إذا كانت مبادئ وقوام علم الفيزياء قابلة لتطبيقات لا نهاية لها ، فإن نظرية التطور الطارىء يمكن اعتبارها في أحسن الحالات ، مجرد إمكانية وليست فرضية ناجعة . إن نظرية التطور الطارىء تفترض أن معرفتنا بقوام أو كيان الفيزياء والكيمياء هي معرفة مكتملة بالضرورة ولذا فإن فشلنا في استنتاج خواص الخلايا الحية من خواص العناصر المكونة لها يجب اعتباره إشارة إلى انقطاع حقيقي في الاستمرارية (Continuity) في الطبيعة . وهكذا فإن وجود علم متصل بصورة كاملة هو أمر مستحيل بطبيعة الأشياء . إننا لن نصل مطلقاً إلى مجموعة من المفاهيم يمكن تفسيرك جميع الظواهر عن طريقها : ص ٢٠ - ٢٢)

الحياة والعقل . ويمكن إيضاح الفكرة العامة المقصودة بالتمثيل لها عن طريق مركب من المركبات الكيماوية . فالماء - على سبيل المثال - يتألف من هيدروجين وأوكسجين والسؤال هو : هل نستطيع عن طريق المعرفة التامة بخواص الهيدروجين والأكسجين أن نتنبأ بخواص الماء ؟ إننا نشير هنا إلى خواص الهيدروجين وخواص الاوكسجين كل على حدة . والجواب هو بالطبع ان العلم لا يستطيع أن يقدم لنا كشفاً بخواص الماء مستمداً من المعرفة بخواص الهيدروجين وخواص الاوكسجين كل على حدة . ويحتمل أن يعزو معظم العلماء السبب في ذلك إلى أن معرفتنا بخواص الهيدروجين وخواص الاوكسجين غير مكتملة . أما نظرية التطور الطارىء فتقول بأن السبب هو أعمق من ذلك . إن خواص الماء ليست متضمنة أو محتواة في خواص الهيدروجين والاكسجين . إن ملاكا لا بشا منذ الأزل يتأمل خواص الهيدروجين وخواص الاوكسجين كلا على حدة لا يستطيع أن يقول بأن خواص الماء سوف تتجلى في اجتماعها . وبنفس الطريقة يمكن القول بأن خواص الحياة التي تتجلى في مجاميع مادية معينة لا يمكن الاستدلال عليها بأى قدر من المعرفة عن العناصر المكونة لها . والأمر نفسه ينطبق على التراكيب المادية والكيانات العضوية الأكثر تعقداً والتي تتجلى فيها الخواص العقلية .

ويمضي سوليفان إلى القول بأن النظرية السابقة (ليست غير مقنعة بالتأكيد لكنها تعاني من العيب الذي يتمثل في أنه لا يمكن إثباتها أبداً . ومن ناحية أخرى فإن إمكانية دحضها تظل قائمة ، فمع ازدياد

(١٦)

إن العلماء يقولون دائماً بأن العلم لم يكبد يبدأ بعد !! ومن ثم يفرض العلم احترام العقل البشري .. أما الفلاسفة فلشد ما يحلوهم ، في أغلب الحالات ، أن يدعوا أنهم قطعوا الشوط إلى نهايته وأنهم يقدمون للبشرية حقائق نهائية لا تقبل نقضا ولا جدلا .. ولكن إذا كانت مبادئ وقوام علم من العلوم ، كالفيزياء مثلا ، لم تكتمل بعد ، وإذا كانت قابلة لتطبيقات لا نهاية لها فكيف يتسنى لنا أن نسلّم بنظرية تبني حقائقها النهائية على هذه الأوليات المتغيرة ، مدعية أنها حقائق مكتملة بالضرورة كما فعلت نظرية التطور الطارىء ؟ ومن ثم فإن أية نظرية من هذا النوع لا تعدو في أحسن الأحوال أن تكون مجرد إمكانية وليست فرضية ناجعة .. إن المادية الديالكتيكية ، في نهاية التحليل ، هي حصيلة أكثر تفلسفا وادعاء للعلمية ، للنظريتين السابقتين اللتين أثبت التحليل العلمي ظنيتها وعدم صدقهما المطلق : المادية العتيقة ونظرية التطور الطاريء .

إننا نقرأ مثلا هذه المقولة (إذا كان ثمة مفهوم يشتمل على جميع الأشياء والظواهر ابتداء من حبيبات الرمل حتى العقل البشري ، فإن هذا المفهوم يكون أوسع المفاهيم . إن هذا المفهوم هو مفهوم المادة .. وهذا المفهوم يتميز عن المفاهيم الأخرى العادية بكونه يعبر عن العلائم الجوهرية العامة ، لا

مجموعة من الأشياء وحسب ، وإنما لجميع الأشياء والظواهرات في العالم ، لكل ما يحيط بنا) (٤٥) ونقرأ (الوعي هو خاصية مادة عالية التنظيم) (٤٦) ، ونعرف القانون الذي تعول الديالكتيكية كثيرا عليه (قانون تحوّل التغيرات الكمية إلى تغيرات كمية) وإليكموه بإيجاز تام : إذا جرت في الأشياء تغيرات كمية ، فإنها لا تؤثر في الكيفية طالما هي تجري في حدود المعيار ، ففي هذه الحدود يكون الشيء وكأنه غير مهال بالتغيرات الكمية وكأنه لا يلاحظها . ولكن ما أن ينتهك المعيار حتى تبدأ التغيرات الكمية تنعكس على الحالة الكيفية في الشيء ، فالكمية تنتقل ، تتحول إلى كيفية ... تتراكم التغيرات الكمية تدريجيا وبصورة غير ملحوظة ، وتكون في البداية وكأنها لا تمس الجانب الكيفي في الشيء . ولكن تأتي لحظة ينكشف فيها هذا التراكم وتؤدي فيها التغيرات الكمية إلى تغيير كيفية الشيء .. (٤٧)

إلى هنا وليس ثمة جديد في تفسير العمل العقلي يضاف على ما قدمته النظريتان أنفتا الذكر : المادية العتيقة والتطور الطاريء .. وتتابع الديالكتيكية حتى النهاية لكي نحظى بتفسير مقنع للنشاط العقلي ، ولا جواب .. ليس سوى تخمينات وظنون . ولو اعترفت النظرية بأنها محاولات في الطريق لاستحقت التقدير والاعجاب ، رغم جنوحها صوب الفلسفة لا العلم المختبري .. ولكنها تدعي بأن ما تقول هو الحقيقة العلمية النهائية ، هو الصواب المطلق .. فتقع في

(٤٥) ياغوت : المرجع السابق ص ٣٢

(٤٦) المرجع السابق ص ٥٥

(٤٧) انظر المرجع السابق ص ٧٧ - ٨٩ .

تفسّر طبيعة النشاط الذي يقوم به العقل البشري الحي .. وهو يقينا يختلف نوعا ، وكما تؤكد الديالكتيكية في أكثر من مكان ، عن العقل الآلي .. وبهذا تقع في التناقض وهي تحاول أن تخرج من المأزق الذي أوقعت نفسها فيه بادعائها القدرة (العلمية) على حل كافة المسائل والمعضلات في كيان العالم وكيونة الانسان .

وما تطرحه الديالكتيكية من أن العلم هو حصيلة العمليات العقلية المنصبة على المعطيات الحسية المستمدة - بدورها - من الوقائع ، ليس تفسيرا لعمل العقل ، ولكنه مجرد وصف لواحد من أنشطته المعقدة المتشابكة .. كما أنه - أي هذا الوصف - ليس جديدا .. إن هذه المسألة قد أصبحت من البدايات : منذ قرون مضت .. ولكن الجديد هو أسلوب الحسم والقطع الذي يعتمده الديالكتيكيون في أشد المواقف طلبا للتروّي والتشكك والأناة .. من هذه المواقف مثلا القول بـ « أننا لا نستطيع معرفة أي شيء عن العالم المحيط بنا إلا عن طريق الاحساسات » .^(٤٩) والقول (بأن الاحساس هو نتيجة تأثير أشياء العالم الخارجي في أعضاء حواسنا ، ولهذا بالذات يعطينا المعرفة الحقيقية الصحيحة عن العالم المحيط بنا)^(٥٠) نستخلص من هذا أن اللادريين على خطأ في زعمهم أن أعضاء الحواس شهود غير ثقة (^(٥١))

الخطأ الذي بين لنا سوليفان بعض أبعاده وهو يناقش نظريتي المادية العتيقة والتطور الطاريء .

واليك نموذجاً فقط من تخمينات الديالكتيكية حول عمل العقل ، انها تسأل (كيف تصاغ الاستنتاجات من الوقائع) التي تقدمها المعطيات الحسية بطبيعة الحال ، وتجبب (إنها تصاغ بفضل خاصة التعميم (أو التلخيص) عند التفكير . وهذه الخاصة تكمن في أن التفكير يجمع في كل واحد العلام الرئيسية ، الجوهرية المجردة من الوقائع ، ويكون المفاهيم والأفكار العامة والصور ، ويصوغ استنتاجات تتسم بأهمية عامة لصنف كامل من الظاهرات . إن الحواس تزود العقل بالمعطيات والوقائع اللازمة .

أما العقل فيصوغ على أساسها الاستنتاجات ، التعميمات ، (أو التلخيصات) ، وهذه هي الدرجة العقلية للمعرفة . وبدون الحواس لا عمل للدماغ ، للعقل ، وبدون العمل المنظم الذي يقوم به الدماغ لا وجود للمعرفة الحسية . وعليه تؤلف المعرفة الحسية والمعرفة العقلية مرحلتين لعملية واحدة لا تتجزأ للمعرفة وتتم على أساس التطبيق للنشاط العملي) .^(٤٨)

إن الديالكتيكية تفسّر هنا كيفية عمل العقل الألكتروني ، الدماغ الآلي .. ولكنها - يقينا - لا

(٤٨) ياخوت : المرجع السابق ص ١٦٨ - ١٦٩

(٤٩) المرجع السابق ص ١٦٤

(٥٠) المرجع السابق ص ١٦٤ - ١٦٥

(٥١) المرجع السابق ص ١٦٥

من التأثير في البدن بقسط متزايد من الحرية ويصبح كيانا له وحدة تبقى بعد الجسد . وليس في وسعنا أن نقطع بأن نقيض هذا التقدير قد ثبت بأدلة العلم الحديث ، ونعنى بالنقيض أن العقل يستحيل أن يعيش بعد الجسد (٥٢)

وندع تخمينات الفلسفة التي تحاول أن تفقر أمام العلم خطوات واسعة مدعية أنها قد فهمت العالم .. ونرجع الى سوليفان .. الى العلم نفسه .

ثمة عبارات ذات دلالة ترد في تعقيب سوليفان الآنف ، انه يقول (اننا لن نصل مطلقا الى مجموعة من المفاهيم يمكن تفسير جميع الظواهر عن طريقها) . ولقد بينا في مكان آخر من هذا البحث كيف أن أزمة منهج البحث الغربى في العلوم والانسانيات تتمثل في أنها تعاني من (التعميمية) التي تجعله يسعى بالقسر والاكراه الى جعل المفهوم ، أو مجموعة المفاهيم ، التي توصل اليها ، تفسر جميع الظواهر على الاطلاق . وتبقى بعد هذا كله عشرات الاسئلة المعلقة حول النشاط العقلي دونها جواب (وهكذا فإننا نرى أن السؤال المتعلق بتطور الذكاء ما زال شائكا وحافلا بالمشاكل التي لم تحل ، ولم يصبح بالامكان ، رسم أى خط واضح للتمييز بين ما يحس وما لا يحس ان الارتباط بين التركيب الطبيعى والميزات العقلية ما زال امر افتراضيا الى حد بعيد . ولسنا نعرف ، اذا كان الشعور ينبعث فقط في مراحل معينة من التعقد في التركيب أم يترتب افتراض وجوده

أن معطيات العلم المتزايدة يوما بعد يوم ، وخاصة في حقل الفيزياء والحياة ، تعرض النظرية الديالكتيكية بصدد العلاقة بين المادة والوعى لهزة قاسية فالمادة لم تعد ذلك البناء المتناسك الصلب الذى ينعكس بشكل آلى وبالضرورة على العملية العقلية ، وهذه بدورها لم تعد بعد بحث عشرات السنين عملية بسيطة غير معقدة تعكس بسهولة وبساطة معطيات المادة من حولها ، ان العلاقة بين الطرفين غدت - على ضوء العلم الحديث - أكثر صعوبة وتعقيدا . ان المادة والوعى بنيتان في غاية التعقيد وليست ثمة ضرورة هندسية محتومة لأن تكون العلاقة بينهما تأثيرا فحسب أو تأثيرا فحسب ، بهذا الاتجاه أو ذاك ، أى بالمنطوق المادى أو المثالى ، والأحرى أن يقال بأن العلاقة بين الطرفين أكثر انفصالا ولا مباشرة مما كان يتوهم ، وأكثر استقلالية وان الاتجاه السائد هو أن كليهما يسير على خط مستقل ، يتقارب مع الآخر باستمرار لكى يلتقيا يوما في نقطة ما : العقل والمادة ، الوعى والوجود ، وهما خلال مسيرتهما تلك يأخذان ويعطيان ، نعم ولكن ليس بالصيغة المثالية أو المادية المقفلة والمسطحة في الوقت نفسه والتي تحيل أحدها الى انعكاس هندسى تام للآخر .. اننا نتذكر هنا عبارات وليام براون استاذ علم النفس بجامعة أكسفورد في مطلع الخمسينات (ليس ثمة ما يمتنعنا من أن نفهم أن العقل الواعى - وإن تطور - من صور ايسر في الوظائف الحيوية - يتدرج شيئا فشيئا الى حال من الاستقلال ويتمكن

(٥٢) العقاد : عقائد المفكرين في القرن العشرين ص ١١١ .

وهكذا .. فإذا كان لنظريتين في علم النفس رأيان مختلفان تماما إزاء ظاهرة من الظواهر فكيف يتاح لنا أن نحكم على صدق المنهج النفسي ، وعلميته ، وبقينته ؟ فإذا ما تأكد أن إحدى النظريتين مصيبة ، بشكل أو آخر ، كانت الأخرى بالتأكيد خاطئة ، وليس لنا من ثم أن نعتقد بأن علم النفس يتكئ على دعائم ثابتة ، كما يحدث في الفيزياء والكيمياء ، رغم أن هاتين تتعرضان بنسبة أقل ، بطبيعة الحال ، لتغيرات أساسية في صميم مقولاتهما .. وقد يقول قائل إن كلا من النظريتين النفسيتين تتضمن قدرا من الخطأ وقدرا من الصواب ، وفي هذه الحالة أيضا لا يمكن الاطمئنان إلى سلامة المنهج الذي يعتمد عليه علماء النفس في طرح نظرياتهم ، لأنه في أغلب الأحيان يعتمد التعميم ، ومن ثم تختلف النظريات النفسية - أحيانا - اختلاف التقيض مع التقيض ، دون أن يكون هناك قاسم مشترك .. ذلك أن (التعميم) هو الضربة القاتلة لمنهج البحث العلمي الرصين . ومهما يكن من أمر فإن سوليفان يتناول بالتحليل والنقد اثنتين من أبرز النظريات النفسية وأكثرها انتشارا : النظرية السلوكية ونظرية التحليل النفسي ، لكى ما يلبث أن يصدر حكمه على مدى علمية وصدق النتائج التي توصلنا إليها بصدد تركيب العقل البشرى وطريقة عمله .

أما النظرية السلوكية (Behaviorism) فهي أكثر النظريات تظاهرا بكونها سليمة وتقوم بمعناها الدقيق على القول (بأن ما ندعوه عمليات عقلية ما هو في الحقيقة سوى حركات جسمية . عندما نقول

في كل المادة الحية أو حتى المادة بوجه عام .. ويمكن أن يكون تركيب عقولنا محكوما بتركيب جملتنا العصبية لكن الابحاث حول الجملة العصبية لا تلقى بصورة عملية أى ضوء على عملياتنا العقلية في الوقت الحاضر : ص (٢٥ - ٢٦)

وسيطل الضوء مطلقاً ولن يشعله الا الاعتقاد بوجود القوة الحيوية الخلاقة التي نفخها الله في طينة بنى آدم .. في عقولهم وأجسادهم : الروح .. وبدون هذه الاضاءة التي لا يستطيع العلم - بالتأكيد - نفيها ان عجز عن اثباتها ، سيطل الفكر البشرى يتخبط في الظلمة دون أى بصيص من نور ، وهو يبحث عن الباب الذى يفتح على الحقيقة النهائية .. وهكذا نجدنا مسوقين - هذه المرة - بعد جولة قصيرة مع علماء الحياة والفيزياء والفلاسفة ، صوب النظريات التى طرحها علم النفس في محاولة جادة منه للعبور على الباب ..

(١٧)

إلا أنه من سوء الحظ ، كما يقول سوليفان (ان العلم الذى يتناول العقل وهو علم النفس ما زال في الوقت الحاضر في مرحلة بدائية جدا ، بل ان البعض ينكر وجود أى علم من هذا القبيل !! وليس هناك بالتأكيد نظام من المعارف النفسية الثابتة التي جرى إقرارها بصورة عامة ، بل هناك عدد من النظريات ، لكل منها مجال محدود للتطبيق ، وهي تختلف عن بعضها اختلافات عميقة حينما تتناول الظاهرة نفسها .. ص (٢٦) .

وهكذا تغدو هذه المظاهر للنظرية السلوكية ضرباً من النظرية المادية العتيقة . ولكن النظرية المادية المشار إليها نفسها اقترت في معظم الحالات بوجود عمليات عقلية مصاحبة للحركات الجزيئية على الرغم من كونها خاضعة لها كلية .

(.. صحيح أن هناك الكثير من أنواع السلوك مما لا يحمل أية دلالة على وجود التفكير ، وبما يوحي بأن كل مايجرى في هذه الحالات عبارة عن ردود فعل تلقائية خالصة . مثال ذلك ما نقوم به عندما نستمتع الى محادثة حول السياسة . ولكن ما هو مدعاة للدهشة أن لايجد السلوكى دليلاً على وجود عمليات فكرية في داخله هو . والحقيقة أن كلا منا يدرك بشكل مباشر وجود أحاسيس وصور وأخيلة وتعليقات عقلية تعتمل في داخله . وليس لدينا عملياً أدنى شك في كوننا محقين في أن تنسب مثل هذه النشاطات للآخرين . ان ابرة البوصلة في تتبعها لحركات المغناطيس (تدرك) بالتأكد ، ومن وجهة نظر السلوكى ، المغناطيس . ولكننا نعلم أن هناك فيما يتعلق بادراكاتنا الخاصة شيئاً آخر حتى ولو كان سلوكنا البدنى منتظماً وتلقائياً مثل سلوك ابرة المغناطيس . وهذا الشيء الآخر هو بالطبع الأحاسيس والصور التى لنا بها دراية مباشرة . ان هذه الأحاسيس والصور يجب ارجاعها الى حركات بدنية وفقاً لمفهوم النظرية السلوكية ، يجب أن تكون مماثلة للحركات البدنية : ص ٢٧ - ٢٩) .

ويشير سوليفان الى شرح الدكتور برود (broad) الذى أظهر على الدوام صبراً جديراً

بأننا نفكر في شيء من الأشياء ، أو ندرك شيئاً ما ، فان هذه المقالة تعنى في حقيقة الأمر أن جسمنا يتصرف بطريقة معينة . ومن الصعوبة بمكان ، في البداية الاعتقاد بأن هذه المقالات تعنى ما نقوله . إن أحدنا ليفسرنا على أنها تعنى على سبيل المثال أن العمليات العقلية تكون دائماً مصحوبة بحركات بدنية ، أو أن الحركات البدنية والعمليات العقلية اعتباران لا يفترقان لحادث واحد . فيدون هذه التأويلات تصبح المقالات السابقة هراء واضحاً . ولكن الذى يبدو أن هذا الهراء الواضح هو ما يشكل العنصر الأصيل في النظرية السلوكية .

ويمضى سوليفان الى القول بأن « النظرية السلوكية تطرح ما نسميه (عقلاً) دفعة واحدة فنحن لانفكر انما نقوم بحركات كلامية أولية ، ونحن لاندرك أى شيء ، وانما نقوم بحركات لتعديل وضع مُقلنا ، وهكذا .. وستكون مناقشة هذه النظرية من قبيل اضاءة الوقت بالتأكيد لو لم تكن هناك حقيقة تتمثل في أن عددا ملحوظاً من الناس يتظاهرون بالايان بها وعددا أكبر يرغب في الايمان بها لهذا السبب العاطفى أوداك !!

(ان الحركات البدنية التى تفترضها النظرية السلوكية بالضرورة حركات مكشوفة ، بل انها تشمل حركات اخرى مثل الحركات البسيطة التى تحدث في الحلق ، ومثل تغير ضغط الدم ، وما الى ذلك . بل ان بعض مظاهر السلوكية الأقل صفاء تفترض وجود حركات جزيئية في الدماغ لا يمكن ملاحظتها، وذلك عندما يتعذر ايراد دليل على وجود الحركات السابقة .

المرونة ، بحيث يمكن بالتكييف الملائم وخلق الظروف المحيطة الملائمة تحويل الطفل الى أى نوع من أنواع الانسان . يقول الدكتور واطسن ان السلوكى (يعتقد أنه لو أعطى قائمة بسيطة نسبيا من الاستجابات الأولية تكون متجانسة الى درجة معقولة فى الأطفال الرضع فانه يستطيع - بشرط أن يضمن بقاء الظروف المحيطة تحت المراقبة - أن يطور أى طفل فى أى اتجاه ، الى رجل غنى أو رجل فقير ، أو متسول أو لص) . ان المشكوك فيه أن تكون هذه العقيدة القائلة بأنه يمكن بتكييف الظروف فقط تكوين رجال مثل اينشتاين وشكسبير وحتى هنرى فورد ، مرضية حتى لأبله يحترم نفسه . أما للآخرين فتبدو مجرد أثر من آثار التعميمات السريعة بل السخيفة !! التى يقع فيها السلوكيون : ٣٩ - ٤٠) ..

ان هذا ليدكرنا بتعميمات المادية التاريخية القائلة بأن السلوك الاجتماعى للانسان يحىء بمثابة انعكاس أمين للظروف الانتاجية التى يعايشها والتى هى بمثابة تكوين اقتصادى صرف خلقت الصيغ المتطورة لوسائل الانتاج .. فلو أننا - مثلا - وجدنا أنفسنا فى ظرف تسوده علاقات انتاج مشاعية لاستحال علينا أن نثر على لص أو مرتش أو انتهازى .. الى آخره .. ولاستحال علينا كذلك أن نجد من تحدّثه نفسه بتعاطى المخدرات بقصد الهروب من واقع حياته المعاشى .. ولكن ماذا لو أجرينا احصاء فى عينه أو

بالاعجاب فى معرض مناقشته لما دعاه بنظرية السخف الطائش !! Preposterously silly theory وأنه كان (موقفا جدا) فى اثبات ان ادعاءات السلوكية بصدد التماثل بين الأفكار والحركات البدنية ، مستحيلة . ويورد طرفا من هذه المناقشة^(٥٣) ولا ينسى سوليفان أن يشير الى الجهود التجريبية القيمة التى أجراها كل من بافلوف على الكلاب ، والدكتور واطسن على الأطفال ، وكوهلير على قردة الشمبانزى بصدد الانعكاس الشرطى والافادة منه فى مجال التعلم عموما ، وتعلم اللغة على وجه الخصوص ، على الرغم من أنها لم تحقق نجاحا كبيرا حتى فى هذا المجال : المنعكس الشرطى الذى يكاد يكون الميزة الوحيدة لنظرية السخف الطائش هذه .^(٥٤)

ولكن حتى مسألة الارجاع الشرطية هذه اندفع فيها السلوكيون إلى مدى بعيد فوقعوا فى الخطأ لأنهم أرادوا بهذا تعميم استنتاجاتهم المبنية على عدد محدود من التجارب والخبرات ، على سلوكية العقل البشرى فى آفاقه كافة .

يقول سوليفان (على الرغم من أن التجارب الموصوفة أعلاه ، بالاضافة الى عدد من التجارب الأخرى يمكن أن يكتب لها النجاح ، فانه سيكون من قبيل الاندفاع الشديد أن نصف العقل على أنه مبنى بشكل كامل من انعكاسات شرطية . ومع ذلك فان هذا ما يفعله بعض السلوكيين . ان هذا البعض يرى أن عقل الانسان على درجة لامتناهية من

(٥٣) انظر الصفحات ٢٩ - ٣٠

(٥٤) انظر الصفحات ٣١ - ٣٩ و ٤١ - ٤٢ .

شريحة - كما يسمونها - واحدة فحسب من المجتمعات الشيوعية المعاصرة وتبين لنا العدد الكبير المعشش من اللصوص والمرتشين والانتهازيين والحشاشين ؟! اننا بمجرد أن نمر بأحدى بلدانهم مرورا سريعا ، فان بمقدورنا أن نضع أيدينا على حشود من هذه الفئاج .. فأين ذهبت اذا تقنيات السلوكية المادية ؟

ثم .. اذا كان سوليفان ، أو برود أو غيرهما ، يطلقون على النظرية السلوكية نعتهم القاسية تلك من مثل (نظرية السخف الطائش) ومثل القول بأن تكيف الظروف فقط كفيلا بتكوين رجال مثل اينشتاين وشكسبير ، ليس مرضيا حتى لأبله يحترم نفسه ، ومن مثل التعميمات السريعة بل السخيفة) ، وان مناقشة النظرية السلوكية هي (من قبيل اضاءة الوقت بالتأكيد) ، وان العدد الأكبر من المنتمين اليها يرغب بها لهذا السبب العاطفى أو ذاك ، ومن مثل أن تفسيرات السلوكى للعمليات العقلية الأخرى مثل الذاكرة هي تفسيرات فاشلة بدرجة ماثلة وأن النظرية السلوكية تعاني من الضحالة فى افتراضاتها الأولية .. الى آخره .. اذا كانت أوصاف كهذه تطلق على نظرية مارست طرائق التجريب على الأقل ، وانبثقت من (المختبر) .. فبماذا توصف المادية التاريخية التى لم تمارس تجريبيا ولا عايشة مختبرا .. وانما هي رؤية فلسفية لم تتجاوز الظن والتخمين ولم تبلغ عتبات اليقين ؟ وكيف يسول صانعوها وتلامذتهم لأنفسهم أن ينعتوها بالعلمية ويعتبروها حقائق نهائية تعد مجرد مناقشتها أو التساؤل عن بعض جوانبها كفرا بالعلم ومروقا عن بداياته ؟!

ويتابع سوليفان موقف النظرية السلوكية من العمليات العقلية الأخرى ، فيرى أن تفسيرات السلوكى للذاكرة (هي تفسيرات فاشلة بدرجة ماثلة . يقول الدكتور واطسون (لا نعى بالذاكرة أى شىء سوى حقيقة أننا عندما نواجه منبهها معنا من جديد ، فاننا نقوم بنفس الفعل الذى تعلمنا أن نقوم به عندما تعرضنا للمنبه فى المرة الأولى . كأن نتلفظ بنفس الكلمات أو نظهر نفس الخلدجات الحشوية القديمة) . ويشير برتراندرسل (B. russel) الى أن كشف الدكتور واطسون هو غير صحيح بالتأكيد اذا كان يعنى (بنفس الفعل الذى تعلمنا القيام به) العادات المفوظة . اننا نستطيع ونقوم بالفعل بوصف تجاربنا السابقة بأشكال لفظية مختلفة ، مثل قولنا (لقد قابلت السيد جونز فى الترام اليوم) أو (لقد كان جوزيف فى ترام الساعة التاسعة وخمس وثلاثين دقيقة هذا الصباح) ان العنصر الثابت فى مثل هذين الوصفين المختلفين هو المعنى . ولو كان الأمر مجرد عادات لفظية فانه يترتب عليه الافتراض بأننا قد قضينا شطرا طويلا من حياتنا نردد كل شكل ممكن من أشكال الكلام الذى يتيح لنا التعبير عن كل شىء يمكن تذكره . وهكذا فاننا نشهد هنا مثالا آخر على المبالغات التى يمكن أن تقلل الى حد كبير ما يمكن أن يكون للملاحظات السلوكيين من قيمة : ص ٤٢-٤٣) .

ويخلص الى القول (بأنه الى جانب قيام السلوكيين بوضع نظريات على أسس واهية جداً من الحقيقة فإنهم يقدمون نظريات تناقض خبراتنا المباشرة . انهم ينكرون الحقائق الواضحة ، ينكرون

استحضاره الى مجال الشعور بمجهود ارادى وبعضها لا يمكن استحضاره الا باستخدام الفن الخاص بالتحليل النفسي أو باستخدام أساليب أخرى مكافئة : ص ٤٤) .

ولا يسعنا استعراض معطيات نظرية التحليل النفسي بصدد اللاشعور والصراع والكبت والطاقة الجنسية أو الليبدو- كما يسميها فرويد - (٥٥) وإنما نريد أن نقف قليلا عند بعض النقذات التي وجهها سوليفان الى النظرية لكي يتبين لنا أنها لا يمكن أن تعد بحال مسلمة نهائية تحل اللغز المتعلق بعمل العقل وانعكاسه على السايكولوجية البشرية .. فالحلم مثلا - الذي يعتبر تفسيره أحد أعمدة النظرية - ينبثق عن مصادر متعددة جدا للخبرة تجعل من الصعب الاعتقاد بأى تفسير للأحلام . ! (فلدى مفسر الحلم متغيرات عديدة يستطيع أن يتصرف بها ، ويبدو واضحا أنه بقليل من الذكاء يمكن استخراج أى محتوى كامن منها كان من أى محتوى ظاهر . والواقع أن محللين نفسانيين مختلفين يمكن أن يقدموا تفسيرات مختلفة تماما للحلم الواحد . ففرويد كما نعلم يجد في الحلم مجموعة من الرموز الجنسية وادلر Adler الذى كان في وقت من الأوقات محللا نفسانيا ، والذى نبذ تعاليم فرويد (وما أكثر ما يحدث هذا في المدارس والنظريات الغربية) يجد في الحلم تعبيراً عن الرغبة في القوة . ويونغ Jung يحتمل أنه يقدم للحلم تفسيراً آخر أيضاً ومن المستحيل القول بأن أياً من هذه التفسيرات هو أكثر معقولة من التفسيرات الأخرى .

أننا نستطيع تشكيل صور بصرية أو سمعية أو ما إليها في عقولنا ، ان أولئك الذين يمتلكون من بيننا قدرة عظيمة على تكوين الصور البصرية العقلية ، أو الذين يستمتعون بالاصغاء العقلى للأعمال الموسيقية المحببة لديهم - يعلمون أن هذه المقالة لا تنطوى على أى جانب من الصحة . حقا ان النظرية السلوكية عندما يجرى تطبيقها على العمليات العقلية كافة ، وليس فقط على العمليات العقلية البسيطة جدا ، تبدو قاصرة الى درجة تصبح معها غير ذات أهمية : ص ٤٣-٤٤) .

(١٨)

وأما نظرية التحليل النفسي ، التي وضع فرويد أسسها فيتناولها سوليفان في المقطع الأخير من (طبيعة العقل) بالعرض والنقد ، ويرى أنه إذا كانت النظرية السلوكية تعاني من الضحالة في افتراضاتها الأولية ، وأنها تبالغ في تبسيط العقل فان من الصعوبة قول هذا الشيء نفسه ، بالنسبة للتحليل النفسي (ان الأهمية الرئيسية للتحليل النفسي كنظرية عامة في علم النفس تتركز في افتراضاتها . والافتراض الرئيسي من بين هذه الافتراضات هو وجود ما جرت تسميته باللاشعور (Un conscious) فعلى أن نفترض أنه الى جانب العمليات العقلية التي نعيها ، هناك عمليات عقلية نشطة أخرى لانعيتها مطلقا . وبعض هذه العمليات أو الأحداث التي تجرى في اللاشعور يمكن

وهذا أمر مخيب للآمال إذا كان يراد لتفسير الأحلام أن يعتبر علما ! ان الأمر هنا يبدو كما لو أن محللين كياويين مختلفين قد توصلوا الى عناصر مختلفة تماما نتيجة لتحليل مركب كياوى واحد . لذا فإن كون هذا الجهره من تعاليم فرويد قد أثار الكثير من الشك أمر ليس فيه ما يدعش : ص ٥٢-٥٣) .

وفيا يتعلق باللاشعور ، هناك اختلاف كبير حول محتوياته بين الذين قبلوا أفكار التحليل النفسي واحترموها ففرويد ، كما هو معروف جيدا ، يركز تركيزا كبيرا على الرغبات الجنسية المكبوتة .. بينما يركز علماء آخرون على دوافع ورغبات أخرى كما سنرى .. انه لا يصح مطلقا القول بأن معطيات التحليل النفسي قد لاقت اقرارا عاما من قبل علماء النفس^(٥٦) ان النظرية في حقيقة الأمر (تركيب شديد التعقيد) وقد قللت وفرة الفرضيات التى انطوت عليها هذه النظرية الكثير من قيمتها ودرجة الثقة بها فى أعين الكثيرين . ويمكن تقديم مثال جيد عن هذا الخصب فى مجال صنع النظريات من خلال نظرية فرويد فى الطاقة الجنسية او الليبدو Libido ص ٥٤) .

ان فرويد يمد الليبدو ، أو طاقة الحب الجنسي ، الى كل فاعلية وكل اتجاه فى حياة الانسان من يوم أن يولد وحتى وفاته . ان كل صغيرة وكبيرة ، كل عمل جزئي أو هدف كلي سام هو بمثابة تعبير مباشر أو غير مباشر فى هذه الطاقة الجنسية المكبوتة فى معظم الأحيان (ان نظرية الليبدو هذه^(٥٧) ، كما يعلق

سوليفان ، تمثل جيدا الخيال الخصب الذى بنى التحليل النفسي . انها بناء معقول ومنسب ومع ذلك فإن الحقائق التى بنيت عليها تقبل تأويلات مختلفة بالكلية عن بعضها البعض . وقد أثبت هذه الحقيقة بشكل كاف ، وجود نظريات أو أنظمة منافسة لها . ويحتمل أن تكون أنظمة يونغ وادلر أفضل ما هو معروف منها . لقد افترض يونغ أيضا وجود ما سواه الليبدو . لكن الليبدو عند يونغ كان مختلفا تماما مما هو عليه عند فرويد . فالليبدو عند يونغ قوة حياتية أساسية ثابتة . ومنها تشتق أو تنبع كل الفرائز ، ففى الرضيع تتخذ شكل غريزة الغذاء لكنها لاتتخذ الشكل الجنسي الا بعد ذلك بوقت طويل . وقد أنكر يونغ كون اللاشعور منطقة تفتننها الرغبات التى جرى كبته بنتيجة الصراع . فاللاشعور عنده نتيجة للنمو العقلي الانفرادى لدى الفرد . وقد قسم يونغ الناس الى فئتين رئيسيتين بالإضافة الى تقسيمات جزئية أخرى ، والفتنسان الرئيسيان هما الانبساطى (Extrtverts) والانطوائى (Introverts) ففى الشخص الانبساطى يكون الحس متطورا أكثر من الفكر ، وفى الشخص الانطوائى يكون الفكر متطورا أكثر من الحس وفى كلتا الحالتين تمل الطاقات المهمة لأن تصبح لاشعورا . والآن ، اذا واجه الانطوائى حالة تتطلب حسا أكثر مما تتطلب فكرا ، تولد لديه صراع يمكن أن يؤدى الى العصاب . وهذا هو نفسه ما يصيب الانبساطى عندما يواجه موقفا يتطلب فكرا أكثر مما يتطلب حسا . لذا فان يونغ لم ينظر الى حياة

(٥٦) انظر صفحة ٥١

(٥٧) انظر ص ٥٤ - ٥٧ للاطلاع على التفاصيل .

ويخلص سوليفان الى القول بأنه يمكن ايراد المزيد عن عقائد أخرى انشقت عن نظرية فرويد . والحقيقة أن عروض التحليل النفسي تنافس المسيحية جيدا في عدد طوائفها وكل طائفة من طوائف التحليل النفسي تدعى لنفسها ، مثل طوائف المسيحية ، نظرة شاملة وواقعية وتشير الى قائمة مؤتمرة من العلاجات الروحية والجسمانية لاثبات كفاية تعاليمها وصلاحياتها . إن أى شكل من أشكال التحليل النفسي لا يمكن اعتباره في وضع مرض كعلم . ولا يمكنه اللجوء الى النتائج من أجل اثبات النظرية لأن هذه النتائج اى العلاجات التي يقدمها (التحليل النفسي) يمكن بنفس الدرجة تقريبا الحصول عليها من خلال نظريات مختلفة كلية . لذلك لا يمكن الحكم على هذه النظريات من خلال النتائج . ويتبع ذلك أن هذه النظريات يمكن فقط الحكم عليها بالاستناد الى احتمالاتها الأولية . وهنا تواجه صعوبة تتمثل في أن كل اشكال التحليل النفسي تظهر محتملة بدرجات متساوية تقريبا . وربما وجب التفريق لمصلحة تلك النظريات التي تأخذ بفكرة اللاشعور . وذلك في مقابل تلك التي تنبذ هذه الفكرة . ان مفهوم اللاشعور مفهوم مهم بالتأكيد ، لكنه وجد قبل التحليل بوقت طويل ، وهكذا فان كون التحليل النفسي قد أدخل شيئا جديدا ، هو موضع جدل ونقاش : ص ٥٩-٦٠) .

(١٩)

والنتيجة التي ينتهي اليها سوليفان أنه ليس في نظريات علم النفس كافة (شيء من شأنه أن يغير

المريض الماضية من أجل التعرف على أسباب عصابه ، بل حاول أن يكشف عن ماهية الموقف الحاضر الذي يتوجس منه المريض لينتقل من ثم الى تحفيز تلك العناصر المدفونة في لاشعوره ، والتي من شأنها أن تجعله قادرا على معالجة الموقف . ومن الطبيعي أن يقدم يونغ بالاستناد الى هذه النظرية تفسيرات للأحلام تختلف كلية عن تفسيرات فرويد ، كأن يرى بأن الأحلام تكشف وضع اللاشعور حيال مهمات الحياة . ص ٥٧-٥٨) .

أما تفسير ادلر ، الذي ينتهي الى المدرسة نفسها ، فهو أيضا مختلف (ولكنه مع ذلك معقول بنفس الدرجة . يرى ادلر أن المحرك الذي يسير حياة الفرد يتمثل في الحافز الذي يدفعه لاكتساب القوة والتفوق على من حواله . ولقد تمكن ادلر انطلاقا من هذه النظرية في تقديم تحليلات لها من الشمول والقدرة على الاقناع ما للتحليلات الصادرة عن نظريات مختلفة بالكلية ! وهكذا فاننا جميعا نعرف ذلك الشخص الضعيف الذي يكبت رغبته في اكتساب القوة والتفوق بالوسائل العادية ، ويستعمل عجزه نفسه ليسيطر ويطنى على أفراد عائلته . وحيث وجد فرويد مضمونا جنسيا في التخييلات العصابية ، فان ادلر لم يجد صعوبة في أن يجد في تلك التخييلات مثالا آخر لا يضاح نظريته حول الرغبة في القوة . وقد تجاهل ادلر فكرة اللاشعور ولم يستفد من استعمال مفهوم الكبت . وهكذا لم يعد لادلر أى وجه للشبه مع المحلل النفسي على الرغم من أنه نفسه بدأ محللا نفسيا . ذلك أنه رفض الأسس ذاتها التي بنيت عليها نظرية فرويد ص ٥٩) .

جديا في قناعتنا بأن هذا العلم لا يمكن اعتباره علما حتى الآن . وللمعارف الأخرى أيضا مثل علم الاجتماع والاقتصاد وما الى ذلك ، بعض النواحي التي لا تعتبر مرضية من وجهة النظر العلمية . والعلم هو أقوى ما يكون عليه عندما يتناول العالم المادى . أما مقولاته في المواضيع الأخرى فتعتبر نسبيا ضعيفة ومتلجلجة : ص ٦٠-٦١) .

وهى نفس النتيجة التى ينتهى اليها الكسيس كاريل فى (الانسان ذلك المجهول) .. ان السيطرة على عينة من العالم المادى لغرض فهمها ممكنة الى

حد ما .. أما السيطرة على عينة يدخل فيها الانسان ، والعقل ، والحياة ، طرفا .. فتكاد تكون مستحيلة .. والنتيجة التى نصل اليها فى هذا المجال (ضعيفة ومتلجلجة) .

ومن قبل سئل الرسول عليه الصلاة والسلام عن الروح : معجزة الانسان ، وسر العقل ، ومفتاح الحياة .. فأجاب القرآن عنه (ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا) (٥٨) .. وصدق الله العظيم .

تمهيد

نتناول فيما يلي سردا لوقائع ثمانية وثائق في مهنة الطب ووظيفتها في معاونة القضاء في الأندلس مستخرجة من مخطوط الأحكام الكبرى للقاضي أبي الأصبغ عيسى بن سهل (ت ٤٨٦ هـ) ، ووقعت أحداث هذه القضايا في الأندلس في القرنين الرابع والخامس الهجريين ، وطرحت على القضاء وانتهى فيها الى رأي ، بعد مشورة الفقهاء وأهل العلم والرجوع الى أحكام الشريعة .

وقد توخينا تيسيرا على القارئ سرد أحداث هذه القضايا بأسلوب عصري أدنى الى الفهم من الأسلوب المصطلح عليه في مثل هذا المصدر الذي اجتزأنا منه هذه الوثائق ، الى جانب التعليق على كل وثيقة وربطها بالقوانين العصرية . أما موضوعات هذه الوثائق فالوثائق الأربع الأولى تتعلق بالمرض الجسدي الذي يوجد بالملوكة التي تداولها البيع هل هو سابق أم لاحق على تاريخ البيع ؟

والوثيقة الخامسة : تتعلق بكسر في ظهر صبية شهد به الأطباء . والوثيقة السادسة : تتعلق بعيب ظهر في الوصيف بعد الشراء بالرغم من براءة البائع من أي عيب . والوثيقة السابعة : تتعلق بمن أستاجر طبيباً ليكويه ثم بدا له وامتنع عن الكي . والوثيقة الثامنة والأخيرة : تتعلق باختلاف الطبيب والمداوي على الأجرة .

ثم قمنا بدراسة السمات العامة واتجاهات القضاء للقضايا موضوع هذه الوثائق . ثم عرضنا نصوص

ثمانى وثائق في مهنة الطب

دراسة وتحقيقه:

محمد عبد الوهاب خلاف

الوثائق محققة من مصادرها المشار إليها ، وأنهينا هذا البحث بالمراجع .

الوثيقة الأولى

العيب يوجد بمملوكة تداولها المالك .

الدراسة والتعليق :

تتلخص هذه المسألة في خلاف ضار في شأن أمة بيعت ثم ظهر بها عيب بعد البيع لم يكن معروفا تاريخه هل هو سابق على البيع أم لاحق له .

فلما أراد المشتري أن يردها على النخاس الذي باعه إياها ، رد عليه بأنه باعها إليه سليمة ، وأن ما أصابها من عيب إنما هو أمر طارئ حدث بعد البيع ، ومن ثم فانه ليس من قبيل العيوب الخفية التي تعيب البيع وتبطله .

ومرجع الأمر لامكان الفصل في هذا النزاع هو معرفة ما اذا كان العيب قائما بالأمة المبعة قبل البيع أم جد بعده . وقد طرح الخلاف في حينه على القاضي الذي أحال الأمة إلى إحدى النساء لفحصها والتثبت مما اذا كان العيب قديما أم طارئا مكتفيا برأي هذه المرأة الواحدة التي انتهت إلى أن العيب قديم ، ومن ثم حكم القاضي بفسخ البيع ورد الجارية إلى النخاس الذي باعها .

وبعد مضي حقبة من الزمن على هذا الحكم تصدى له القاضي أبو الاصبع عيسى بن سهل معقبا عليه بأنه قد جاني الصواب ، اذ ما كان يجوز لامرأة

واحدة أن تنفرد بالنظر في العيب وإبداء الرأي في تاريخ نشوئه ، وإنما كان لابد من أن يتم الفحص بمشاركة امرأتين اذا كان العيب بالأمة في موضع باطن ، ولا يكتفى بذلك ، بل تعرض النتيجة على طبييين فأكثر لترجيح صحة رأي المرأتين أو تفنيده .

وقد ذهب ابن عتاب إلى القول بالأخذ برأي الطبييات في خصوص قدم العيب أو حدائته ، والا فلا يشهد به سوى الحكماء ، وهذا هو الرأي السليم .

وهذه المسألة تطرح مبدءا جديرا بالتأمل يتصل بالعدالة ، سواء من ناحية الإجراء أو من ناحية النتيجة الموضوعية المستخلصة من هذا الاجراء .

وهذه النتيجة هي انزال حكم القاعدة القانونية على الواقعة المادية المعروضة على الوجه الذي تحقق ثبوته . والذي يعنينا في هذا المقام هو الاجراء ذاته ، ومثار الخلاف الذي تنحصر فيه نقطة النزاع هو عيب في الشيء المبيع ، وهذا العيب كان خافيا وقت البيع ولم يتكشف الا فيما بعد ، والأصل في المعاملات الصدق والأمانة وحسن النية ، فلو أن المشتري ابتاع الجارية بحالتها وقبل شراءها كما هي لما كان له رجوع إلى البائع ، ولكن المفروض أنه اشترى جارية خالية من العيوب ، فاذا تبين بعد ذلك وجود عيب خفي فيها كان هذا ، لو صح ، سببا لفسخ البيع ورد الجارية إلى بائعها . واذا كان القاضي يقوم بوظيفته على تطبيق حكم القانون فان ما يخرج عن نطاق القانون مما يقتضي خبرة فنية خاصة لا يكون من العدل أن يبت فيه القاضي دون الرجوع إلى أهل الخبرة في هذا الموضوع وأهل الخبرة في خصوص مرض

الموضوع اذا ما أثبتت مسألة تحتاج تحقيقا وإثباتا ان لا يصدر حكما تمهيدا قبل إحالة الأمر الى خبير للتحقيق والفحص والبحث وتقديم تقرير فني بنتيجة دراسته وخلاصة رأيه ، وغني عن البيان أن أهل الخبرة تختلف تخصصاتهم بتنوع فروع المعرفة ، فاذا تعلق النزاع بمسألة طبية فالخبير بداهة يكون طبيا ، واذا قدم الخبير تقريره فانه يكون على سبيل الاستشارة وليس ملزما للقاضي ، الذي يجوز له ، سواء من تلقاء نفسه أو بناء على طلب الطرف الآخر في الخصومة ، أن يعين مجموعة من الخبراء أو خبيرا مرجحا بحسب الأحوال ، ثم يبدي رأيه بالفصل في الموضوع مقرونا بوقائع الدعوى ودفاع ذوي الشأن فيها . وعمل الخبراء تنظمه في الوقت الحاضر قوانين مفصلة . أما في التاريخ الذي عرضت فيه هذه القضية فلم يكن هناك نظام موضوع ، وإنما كان الفقهاء يجتهدون استهدافا لغاية واحدة ، هي الأطمئنان الى سلامة الرأي لامكان تحقيق العدالة واصدار الحكم .

الوثيقة الثانية

مسألة أخرى في هذا المعنى

الدراسة والتعليق :

وثمة مسألة أخرى تثير بحثا مشابها لموضوع المسألة السابقة تتلخص وقائعها في أن شخصا ابتاع خادمة من رجل ثم تبين ان بالخادمة آثارا توجب الرجوع في البيع ورد الخادمة الى بائعها . لكن هذه الآثار لم تكن ظاهرة وقت البيع ولم يخبر بها البائع ،

في موضع باطن هم الأطباء ، وبديهي ان يختلف الحال بين الأنثى والذكر ، فاذا كان موضوع الفحص أنثى كان الأجدر أن تتولاه أنثى مثلها ، وهذا هو ما لجأ اليه القاضي الذي أصدر الحكم وبني حكمه على ما تبينته امرأة ذات خبرة في مثل العيب الذي وصفت به الجارية .

بيد أن ابن سهل أخذ على هذا الحكم أن القاضي اكتفى برأي امرأة واحدة وهي ليست اخصائية ولا محترفة وإنما مجرد امرأة ذات دراية وخبرة . واستصوب ابن سهل أن يكون العرض على امرأتين لا واحدة ، فان أجمعتا على قول واحد كان لرأيها وزن ، على أن هذا في حد ذاته غير كاف ، اذ لا بد من عرض الأمر بالتشخيص الذي انتهت اليه المرأتان على طبيبين أو أكثر لا بداء رأيها في صحة قول المرأتين او عدم صحته ، على ابداء ملاحظات هؤلاء الأطباء موجهة نظرهم لتتوير القاضي حتى يصدر حكمه لا على أساس رأيه هو - وهو ليس خبيرا في مثل هذا العيب - ولا على أساس رأي امرأة واحدة او امرأتين وهو ما قد يجانب الصواب ؛ بل على أساس ما ينتهي اليه الأطباء المحترفون في شأن رأي المرأتين للاستيثاق من سلامة النتيجة في شأن قدم العيب او خدانة عهده .

وهذا النظام يطابق الى حد كبير أصول الأثبات في القوانين المعاصرة فيما يتعلق بالتحقيق والخبرة في المسائل والمنازعات ذات الطابع الفني الذي يخرج عن نطاق خبرة القاضي .

فالقاعدة العامة أن القاضي قبل الفصل في

وأقر البائع بأنه لم يذكرها للمشتري لأنه لا يعتبرها عيباً .

وذكر المشتري أنه لم يطلع على العيب وقت الشراء ، فلما عرضها القاضي على اثنين من الأطباء قررا بأن الآثار التي بساقي الخادمة المبيعة داكنة اللون ، مما يدل على أنها نتيجة قروح غليظة قديمة العهد كانت بالخادمة منذ نحو سنة ، وأن هذا العيب يوجب رد المبيع ، وأمر القاضي برد الجارية الى البائع بناء على رأي هذين الطبيين . وأوجب على البائع رد الثمن الى المشتري ، وإن تبين ان البائع كان قد اشتراها بحالتها بحسب قوله من بائع سابق .

وقد عقب القاضي أبو الأصبع عيسى بن سهل على هذا الحكم بأنه لم يصادف الصواب ، ذلك أن الطبيين قد تجاوزا اختصاصهما فيما أبدياه من رأي لكونها قد حددا تاريخ العيب بنحو سنة ، وأنها قررا أن هذا العيب يوجب رد المبيع ، في حين أنه كان يجب عليها أن يقتصرا في رأيها على بيان ان العيب قديم يرجع الى تاريخ سابق على البيع ، دون تحديد تاريخ نشأته بمدة معينة ، حتى لا يغلق الباب على رجوع البائع على من سبق أن باع له هذه الجارية . وألا يرتبوا على رأيها وجوب الرد ، لأن هذا الرد هو فصل في مسألة تفرج عن اختصاصهما ، والمرد فيه الى قضاء القاضي ، ذلك أن البائع ، وإن أقر بالعيب ، إلا أنه ذكر ان هذه الآثار لا تعتبر عيباً في عرفه . وفي عرف أهل البصر حسبها هو متعارف عليه . ذلك أنه كان من اللازم أخذ رأي تجار الرقيق والنخاسين لمعرفة إن كان هذا العيب ينقص من قيمة الجارية المبيعة ، لأنه

إن صح أن مثل هذا العيب من شأنه أن ينقص من قيمة الجارية المبيعة فلربما روعي هذا النقص في تحديد ثمن الجارية المبيعة بحيث يكون المشتري قد ابتاعها بثمن أقل من ثمنها فيما لو كانت خالية من هذا العيب ، إذ في هذه الحالة قد لا يكون الرد واجبا ، على اعتبار ان الثمن الذي اشترت به الجارية هو الثمن المناسب على أساس وجود هذا العيب الذي استنزلت قيمته من الثمن .

فاذا تكافأ الثمن مع حالة الجارية على أساس قيام هذا العيب بها ومراعاته فإن الرد لا يكون واجبا في هذه الحالة .

فكأن المشتري لم يدفع ثمنا كاملا ، وإنما دفع ثمنا منقوصا بمقدار هذا العيب ، ولا حق له في هذه الحالة في طلب فسخ البيع ورد الجارية واسترداد ثمنها . ومن ثم يكون الحكم غير سليم فيما قضي به اعتدادا برأي الطبيين في أمر يخرج عن الناحية الفنية التي ينحصر فيها اختصاصهما ، وامتد الى التدخل في موضوع الفصل في الخصومة الذي هو من حق القاضي وحده ، وإذا جازها القاضي في هذا الرأي فإنه يكون قد بنى قضاءه على رأي فاسد ، وجاوز في قضاؤه ما هو مطروح عليه من نزاع ، مع ان القضاء يتخصص بالزمان والمكان وموضوع الخصومة واطراف الخصومة .

الوثيقة الثالثة : مسألة أخرى في هذا المعنى .

الدراسة والتعليق :

تتحصل وقائع هذه القضية في أن شخصا

الصفقة والرجوع فيها ، حيث أن أحدا من الأطباء على اختلافهم في الرأي لم يذهب الى انتفاء العيب أصلا . وإنما قام الخلاف بينهم على ظهور العيب واختفائه ، وأنه حديث أو قديم ، وأنه قبل أو بعد أمر التبايع ، مع اتفاقهم على وجوده بصورة ما .

وتتحد فكرة هذه القضية مع سابقتها في كون المرد في تحقيق وجود العيب المبرر لفسخ البيع والرجوع فيه ، إنما هو قول الأطباء باعتبار أن اثبات قيام العيب وتاريخ وجوده هو من اختصاص أهل الخبرة وهم الأطباء ، بوصفه عملا فنيا يخرج من نطاق تقدير القاضي الذي تنحصر وظيفته في انزال حكم القانون وتطبيقه على الوقائع المعروضة عليه في ضوء ما يقرره ذوو الاختصاص في النقطة الفنية مثار الجدل .

الوثيقة الرابعة : مسألة أخرى في هذا المعنى

الدراسة والتعليق :

أما موضوع الوثيقة الرابعة فيتعلق بمسألة طلب فيها أخذ رأي المشاورين ابن لبابة وأيوب بن سلجان وعبيد الله بن يحيى في ادعاء مضمونه أن شخصا اشترى جارية ثم اكتشف بها حفرا وشقاقا وآثار مرض ، وطلب منهم الرأي فيما إذا كانت هذه العيوب تبرر التراجع في البيع ، فكان رأي المشاورين أن البت في أمر هذه العيوب إنما مرجعه الى رجال أهل الطب فيما يرونه من اصابات بساقيها ، وهي الاصابات الظاهرة أما الآثار الباطنة فتنتظرها النساء ويبدن رأيهم فيها لتحديد التاريخ الذي يرتد اليه

اشترى جارية ثم اتضح له بعد ذلك أن بعينها عيبا ، ورأى أن يطلب فسخ البيع لذلك . فلما عرض الأمر على قاضي المظالم استدعى ثلاثة أطباء وكلفهم بفحص الجارية ، فقرروا صحة وجود العيب في عينها وأنه موجب للرد . ولكن البائع استمهل القاضي لاستشارة أطباء آخرين في أمر هذا العيب وقد قرر أحد هؤلاء الأطباء الأخيرين ان بالجارية عيبا حديثا ، وقرر الآخر أن هذا العيب ليس مستديما ، اذ يزول تارة ، ويعود تارة أخرى ، أي يظهر ويختفي ، هذا الى أن أحد الأطباء الأول بعد فحص عيني الجارية وقليلها لم يرف فيها عيبا ولا نكتة ولا أثرا .

ويمكن ان يلاحظ في هذه الخصوصية أن العيب في عين الجارية لو أنه مستديم لا يمكن أن يصبح من قبيل العيوب الخفية لأنه ظاهر بطبيعته ، وهذا التصور يمكن ان يقوم معه احتمال أن المشتري لم يكن هذا العيب ليخفى عليه وقت الشراء ، كما يمكن ان يقوم احتمال آخر هو أن المشتري لم يعاين الجارية معاينة دقيقة . وهذا ما يمكن ان يؤيد وجهة نظر القاضي .

ومها يكن من أمر فان قضاء القاضي لم يقم في هذه الحالة على الجزم ، وإنما على الترجيح بالاضافة الى أن العيب حتى مع الأخذ برأي أطباء البائع فان هذا العيب يظهر ويختفي ، وأنه يمكن ان يؤيد بسلامة الحكم ، اذ يحتمل أن يكون الشراء قد تم في وقت اختفاء هذا العيب ومن ثم لا يمكن افتراض قبول المشتري به ، وحتى لو كان العيب يظهر ويختفي فان هذا بذاته يدل على وجود عيب ما ، وقيام هذا العيب ، وان يكن غير مستمر ، كاف في ذاته للعدول عن

هذا العيب ، فان كان قبل أمد التبايع وكان خافيا على المشتري فسخ البيع وردت الجارية الى بائعها . أما ان كان بعد البيع فهو طارىء يتحمل المشتري غره بعد توجيه اليمين الى البائع فيما يتعلق بالاصابات الباطنة على أساس علمه أو عدم علمه بها . ويلاحظ على هذا الرأي أن ابن سهل لم يذهب في التعقيب على هذه القضية مذهبه في قضية أخرى حيث تطلب فيما تكشفه النساء من عيوب باطنة وجوب عرض أمرها على الأطباء لاقرارها على رأيها أو عدم الاعتداد به .

وفما انتهى اليه الرأي في هذه المسألة ، أخذ بقاعدة لها صدى في التشريعات المعاصرة وهي نظرية الهلاك ، إذ الأصل أن الهلاك على البائع قبل التسليم وعلى المشتري بعده ، وقياسا على هذا فان قيام العيب بالجارية قبل بيعها يكون سببا لفسخ البيع ، على أساس تحمل البائع لهذا العيب ، أما بعد تمام البيع والتسليم فكل اصابة تطرأ على الشيء المباع يتحملها المشتري ، وهذا هو ما اتجه اليه رأي المشاورين .

أما فيما يتعلق باليمين فقد أصابت المشورة وجه الصواب لأن حلف اليمين على العيب الظاهر بالمشاهدة والرؤية سائغ ، أما فيما يختص بالعيب الباطن فان اليمين لا يمكن أن ينصب على الرؤية لاستحالتها وإنما يرد على العلم فحسب .

الوثيقة الخامسة : كسر في ظهر صبية شهد به الأطباء

الدراسة والتعليق :

أما الوثيقة الخامسة فموضوعها شراء صبية

اتضح بعد البيع وجود كسر في ظهرها شهد به الطيبان بن تليخ ويحيى بن اسحاق ، وأكد أنه عيب قديم العهد ، وأنه عيب يوجب الرجوع في البيع وترد به الجارية الى بائعها .

وأضاف الفقيهان المشاوران ابن لبابة وابن وليد أنه اذا كان لدى البائع بينة على أن المشتري كان على علم بالعيب أو أن الصبية كانت بريئة من العيوب فان للقاضي ان ينظر في ذلك ويحكم على مقتضى هذا العلم أو انتفائه . فان كان العلم متحققا كان الرضاء بالشيء المباع سليما مانعاً من الرجوع في الصفقة ، وكذلك الحال اذا ما كانت الصبية المباعة خالية من العيوب ، أما اذا كان العيب خفيا ولم يدرك المشترك قيامه وقت البيع فان الرد يكون واجبا .

وقد عقب القاضي ابن سهل على هذه القضية بأنه ما كان ينبغي على القاضي ان يضور القضية على هذا النحو ، وإنما كان يتعين عليه ان يستعرض في أسباب حكمه ظروف الواقعة ورأى الأطباء فيها وأقوال الشهود ويخلص من ذلك الى النتيجة التي يضمنها حكمه ، ورأى ابن سهل أن رد الجارية في هذه الحالة واجب ، ورد الثمن من البائع الى المشتري لازم كذلك . ومبني هذا الرأي هو تقرير لقاعدة مأخوذ بها في التشريعات الراهنة وهي نظرية العيب الخفي ، وقوامها أن العيب في الشيء المباع اذا كان ظاهرا ، أو كان المشتري على علم به وارتضاه وقت الشراء وقبل الشيء المباع بحالته بعد المعاينة فان حقه في فسخ البيع ورد الشيء المباع يسقط بعلمه بالعيب أو بقبوله اياه . أما إن كان العيب خفيا ، أو كان المشتري قد

وهذا الرأي يتفق وما عليه العمل في التشريعات الوضعية في خصوص حلف اليمين بين أطراف النزاع . ذلك أنه إذا وجه أحد الطرفين اليمين الى الطرف الآخر كان له أن يحلفها أو ينكل عنها ، ويردها على الطرف الآخر ، فان أقسم لزمه ما ترتب على أداء اليمين من آثار . وغني عن البيان أن تبادل توجيه اليمين في هذه الحالة انما يرتد على نقطة الخلاف بين البائع والمشتري ، أما ما فصل فيه الطبيب من أن الغديدة التي بالوصيف المباع لا تضره ولا تنقص من ثمنه فانه يخرج عن نطاق توجيه اليمين ، وبديهي أن اليمين لا توجه في أمر لا خلاف فيه ، وانما يقصد بها حسم موضوع الخلاف ، لأن أداء اليمين فيما لا خلاف فيه يعرض من يؤديها الى جزاء فيما لو حلف على خلاف الواقع ، ولا يمكن تغليب أثر اليمين على حقيقة الواقع .

الوثيقة السابعة : من استأجر طبيباً ليكويه ثم بدا له ، وهل يجوز الكي ؟

الدراسة والتعليق :

تقوم الوثيقة السابعة على سؤال وجه الى الفقيه المشاور ابن عتاب في شأن رجل شكى الى الطبيب ألما بركبته فاقترح عليه الطبيب أن يكويه بالنار في هذا الموضع ، وطمأنه الى أنه سيشفى باذن الله تعالى . واتفقا على الأجر مقابل هذا الكي . ودفع المريض هذا الأجر الى الطبيب معجلاً قبل العلاج ثم انصرف من عنده على أن يعود اليه لاجراء عملية الكي ،

قبل شراء الشيء المباع بحالته فانه لا يكون له حق الرجوع فيه ، وهذه قاعدة مقررة في القوانين المدنية والتجارية على حد سواء ، ومتى وجب فسخ البيع ورد الشيء المباع لزم بالمقابل لذلك رد الثمن الى من دفعه وهو المشتري .

الوثيقة السادسة : باع وصيفاً وادعى انه باعه بالبراءة اذ ظهر به عيب

الدراسة والتعليق :

ويتلخص موضوع الوثيقة السادسة في أن شخصاً باع وصيفاً وأكد براءته من أي عيب ، وجرده بين يدي المشتري تأييداً لخلوه من كل عيب ، وقد ذكر المشتري انه عرض الوصيف على الطبيب فقال : ان به غديدة لا تضره ولا تنقص من قيمته وأوضح البائع أن هذه الغديدة انما تنتجت من حناء حملها اياه على رأسه ، بيد ان المشتري اضاف أن بالوصيف عيوباً أخرى غيرها ، وقد رأى الفقيه المشاور ابن لبابة أن من ادعى البيع على أساس البراءة من العيوب فعليه البيئة وان عجز حلف المشتري اليمين . وللمشتري ان يرد اليمين على البائع ، وعندئذ يكون على المشتري اثبات وجود العيوب التي ادعاها ، فان كانت قديمة كان البيع على أساس البراءة من العيوب مشوباً بالبطلان ، ووجب الفسخ ورد الشيء المباع ، وان صح بيع البراءة فعلى البائع اليمين على أنه ما كان يعلم بهذه العيوب ، فان نكل رد اليمين على المشتري ..

ولكنه عدل عن رأيه بمقولة انه بدا له عما كان يشكو منه .

وسأل الطبيب رد الأجر اليه الا أن الطبيب امتنع عن الرد ، فاحتج الشاكي بأن الكي لا يجوز ، وقد أجاب ابن عتاب بأن الكي جائز وغير ممنوع ، ودل على ذلك بأن النبي عليه الصلاة والسلام كوى أسعد ابن زراره، واكتوى ابن عمر ولم يسمع عن النبي أنه نهى عنه . الا أن الكي موضوع السؤال لم يذكر عدد مراته ولا الآلة التي ستستخدم فيه ، وأوضح بأنه اذا كان الطرفان قد وصفا الكي وحددا عدد مراته وبيننا نوع الآلة التي سيتم بها فان الأجر يكون مستحقا للطبيب . أما ان كانا قد أغفلا هذه البيانات ولم يتفقا على وصف ، وكان أمر هذا كله موضع خلاف بين الطرفين ، فان الاجر لا يلزم للطبيب ، ويمكن تفسير هذا الرأي على أنه في حالة الوصف يكون الطبيب قد قام من جانبه بتشخيص المرض ووصف العلاج وتحديد عدد مراته وآلته ، وذلك بعد الفحص ، ومن ثم يكون الطبيب قد بدأ في تنفيذ التزامه ويكون عدول المريض هو الذي حال دون تنفيذ العمل الذي تم الاتفاق عليه . ولم يتمتع عنه الطبيب وكان على استعداد للقيام به لولا عدول الشاكي ، وهو اخلال بالاتفاق من جانب واحد لا يسقط حق الطبيب في الأجر المفق عليه ، وهذا تطبيق لقاعدة مقررة في شأن الالتزامات المتبادلة مقتضاها أن هذه الالتزامات تقوم على إيجاب وقبول من الطرفين ، ولما كان العقد شريعة المتعاقدين فليس لأحد أن ينفرد بإرادته وحده في فسخ هذا الالتزام ، ومن ثم يلتزم المسبب في الفسخ باحترام تعهده قبل الطرف الآخر ، الذي لم يتمتع عن

التنفيذ ، ولا سيما ان الطبيب قد قام من جانبه بالفحص والتشخيص وبذل فيه جهدا . استعمل فيه علمه وخبرته في الطب ولم يبق الا التنفيذ ، وكان مستعدا له والمريض وشأنه في طلب التنفيذ أولا دون أن يترتب على عدوله المنفرد الاضرار بحق الطبيب الذي تقاضى الاجر سلفا ، تأكيدا للتمسك بالالتزام وتعليق حقه بهذا الأجر .

الوثيقة الثامنة : اختلاف الطبيب والمدوي على الأجرة

الدراسة والتعليق :

أما الوثيقة الثامنة فيدور البحث فيها حول خلاف بين طيبة ذكرت أنها تعالج صبيتين بأجر قدره ٤ دنانير ، بينما ادعت المرأة صاحبة الصبيتين بأنها انما اتفقت مع الطيبة على أجر قدره ١٢ درهما ، وان الصبيتين لم تبرأ من مرضها ، فلما طرح هذا النزاع على القاضي رأى تحليف الطيبة اليمين القاطعة للحق بأنها اشترطت لقاء عمل يديها أجرا قدره ٤ دنانير ، وان تحلف المرأة انها ما اتفقت معها الا باثني عشر درهما ، فاذا حلفت كل منهما اليمين الموجه اليها انفسخ ما بينهما من اتفاق ، ولا تستحق الطيبة أجرا عما قامت به ، لأن الطبيب لا يجب له شيء اذا كان الاتفاق على الاجر معلقا على حصول الشفاء . وهذا شرط فاسخ اذا تحقق الشفاء استحق أجر الطيبة ، واذا تخلف سقط حقها في الأجر ، ومقتضى سقوط الحق في الأجر على هذا الاساس أنه اذا كانت الطيبة قد تقاضت مقدما جزءا معجلا من الاجر لزمها رده ، وان نكلت احدي المرأتين عن التين

في شأنها . ودور الطبيب في تشخيص العلاج وأثره في نتيجة الحكم والحدود التي ينبغي أن يلزمها الطبيب في الرأي الذي يبيده للقاضي ، يمكن بوجه عام استخلاص الأسس الآتية بيانا :

١ - ان موضوع الوثائق الأربع الأولى يتناول فحص العيب المرضي الموجود في الشخص وتشخيصه وبيان التاريخ الذي يرجع اليه نشوء هذا المرض ، وما يترتب على نتيجة هذا الفحص من رد المبيع الى بائعه بحسب الأحوال تبعا لما اذا كان هذا العيب قائما قبل البيع أو بعده ، وتبعا لما اذا كان المشتري أو البائع كلاهما أو أحدهما عالما بهذا البيع وقت التعاقد . وهل تم التعاقد على أساس وجود العيب وقبول المبيع ، مع قيام هذا العيب ثم اجراءات الرد وما ينبني عليها من فسخ الصفقة وإعادة الثمن الى المشتري .

٢ - ان دور الطبيب كفني ممارس للخبرة هو دور رئيسي ، وقوله هو الفصل في تحديد العيب وجوداً أو عدماً ، وبالتالي تحديد ما اذا كان هذا العيب موجوداً قبل التبايع أو طارئاً بعد اتمامه ، وعلى مقتضى رأي الطبيب في هذا الجانب الفني يصدر حكم القاضي .

٣ - ان مهمة الطبيب تنحصر في الجانب المرضي ، ولا يسوغ له أن يجاوز اختصاصه كخبير الى ابداء الرأي فيما هو من شأن القاضي وحده في ترتيب النتائج والآثار القانونية التي تنبني على الرأي الفني اذ أن هذا هو الفصل الموضوعي الذي يستأثر القاضي وحده باختصاص البت فيه .

٤ - ان حكم القاضي يكون مجانباً للصواب اذا اعتمد على قول امرأة من أهل الخبرة في فحص

فالقول قول الحالفة منها . أما ان نكلتا معا انفسخ ما بينهما من اتفاق وكذلك ينفسخ الاتفاق ان حلفتا سوياً . وقد عقب القاضي أبو الاصبع على هذا بأن ما ارتآه القاضي هو محل نظر وتأمل ويبدو أن تحفظ القاضي أبي الأصبع يستند الى فكرة تهاتر اليمين وترتيب أثر فسخ التعاقد على هذا التهاتر ، وهذه الصعوبة القانونية انما يرجع منشأها الى توجيه يمينين متعارضين معا لكل من المرأتين ، وقد كان الاولى الاكتفاء بتوجيه يمين الى إحداها ، وتطبيق قاعدة رد اليمين على الأخرى في حالة النكول في حلفها لرفع التناقض بين اليمينين . ومن المقرر في التشريعات الحديثة أن اليمين توجه وترد في حالة النكول وتنبنى عليها آثار الحلف ، اما توجيه يمينين متعارضين لا يأتي صدقهما معا مع قيام هذا التعارض بينهما ، وترتيب فسخ التعاقد على هذا فأمر غير مقبول ويبدو أن القاضي رتب الفسخ على نكول كل من المرأتين عن حلف اليمين الموجه اليها ، وقد يكون هذا سائفا لفقدان الدليل المستتب من اليمين ، في حين أن الأمر على نقيض ذلك في حالة حلف كل من المرأتين اليمين الموجه اليها ، وربما اعتبر القاضي حلف يمينين متناقضين بمثابة نكول . مجرد كلا من اليمينين من الثقة فيها ، وينبني على ذلك أن المخرج لا يكون الا بفسخ التعاقد لعدم قيام الدليل على ترجيح صحة احدي اليمينين على الأخرى .

سهات عامة للقضايا موضوع هذه الوثائق

باستعراض وقائع القضايا آنفة الذكر واتجاهات القضاء فيها والسند الذي بني عليه كل حكم صدر

مجردة ، فليس معنى هذا بالضرورة وقوع خطأ في الحكم ، لأن القاضي اذ حكم بالرد أقام قضاءه على قيام المرض بالشخص المبيع في تاريخ سابق على التبائع ، وإنما هذا القضاء محل نظر اذا ما أخذ برأي الطبيب في تحديد تاريخ نشوء المرض على نحو جازم يغلط الباب على البائع في الرجوع على من سبق أن باع له . ومهما يكن من أمر فإن قضاء القاضي في هذه النقطة لا يجوز حجية فيما يتعلق بهذه الواقعة وإنما تلحق الحجية منطوق الحكم وحده ما لم تكن أسباب الحكم مرتبطة بهذا المنطوق ومتممة له .

٦ - انه في حالة اختلاف الأطباء في تشخيص العيب وظهوره أو خفائه واستمراره أو تقطعه ومعاودته وحدائته وقدمه لا يمنع القاضي من أن يأخذ بترجيح رأي الأغلبية ويبني على ذلك حكمه ، لأن الأغلبية يفترض فيها أنها أقرب الى الصواب ، ومن غير المقبول ترك الأرجح الى المرجوح .

٧ - إنه إذا كان للطبيب أن يحدد وجود العيب المرضي في الشخص المبيع فإنه يدخل في مهمته أيضا أن يبين للقاضي ما اذا كان هذا العيب مما ينقص من ثمن الشخص المبيع أم أنه غير ضار ولا يؤثر في هذا الثمن ، وهذه وإن كانت نقطة ذات جانب قانوني إلا أنها تنطوي من ناحية الخبرة الفنية على جانب ذي طابع طبي مرجعه الى رأي الطبيب ، كما يدخل في مهمة الطبيب أن يبين للقاضي سبب حصول هذا العيب ، فإذا كان المتسبب في حدوثه هو البائع كان هو المسؤول عنه في تقدير ثمن المبيع . تطبيقا لقاعدة الهلاك الجزئي في التشريعات المعاصرة .

موضوع العيب الخفي الباطن في أنشئ لكون رأي المرأة في هذه الحالة غير قاطع ، بل يحتمل الصواب والخطأ على حد سواء ، وإنما يكون الترجيح أدنى الى الصواب اذا قام على الاعتراف برأي امرأتين على أن هذا في ذاته لا يكفي ، اذ تتطلب العدالة ، للاستيثاق من سلامة الرأي ، عرض النتيجة على أكثر من طبيب سواء اختلفت المرأتان ام اتفقتا زيادة في تأييد اقتناع القاضي وتأكيده واطمئنانه الى صحة حكمه . وهذه فكرة عدالة لها مثلها في الاحكام التمهيدية الفرعية التي تصدرها المحاكم في العصر الحاضر قبل الفصل في الموضوع بنذب خبير للمأمورية تحددها له لبدء رأيه استشاريا ، ولا يمنع هذا الرأي من اعادة المأمورية الى ذاته او عرضها على مجموعة من الخبراء او على خبير مرجح ابتغاء الوصول الى الحقيقة تحقيقا للعدالة .

٥ - ان الطبيب المكلف من قبل القاضي بفحص العيب يتحدد مهمته في اثبات وجود هذا العيب أو عدمه ، ووصف العيب وموضعه ، وليس له أن يحدد على نحو ملزم تاريخ بدء نشأته كما ليس له أن يقرر وجوب رد الخادمة المبيعة ، لأن اختصاصه الفني يقف عند حدود لا يجوز له تجاوزها ، أما الفصل في الموضوع وتقرير وجوب الرد أو عدمه فالمرجع فيه الى حكم القاضي ، وإنما الطبيب يعين فقط ما اذا كان العيب مزمنًا أو مستجدا ، سابقا على واقعة البيع أو لاحقا لها ، وللقاضي بعد ذلك الحرية التامة في تكوين عقيدته واصدار حكمه . واذا كان ابن سهل يذهب الى هذا الرأي ، وهو رأي صائب في ذاته بصفة

١٠ - أن الطب كان مهنة تمارس في ظل قوانين وضوابط تحكمها وتحدد مهمة الطبيب واختصاصه ومدى التزام المريض قبله .

١١ - أنه في حالة اجراء عمليات بالكي كان لابد من الاتفاق على نوع الآلة التي ستستخدم في الكي وعدد مرات هذا الكي .

١٢ - أنه كان يؤخذ برأي الطبيب في تحديد قدم العيب أو حدائته في بيوع الجوارى والخدم ، وجملة القول أن مهنة الطب في ذلك العصر كان لها شرفها وقواعدها وأصولها .

وكان الطبيب موضع ثقة وتكريم ، وأن رأيه في الناحية الفنية الطبية كان هو الفيصل في مقطع النزاع ، وإن الاختلاف في التشخيص لم يكن سببا لتخطئة الطبيب ، وإنما كانت العدالة تقتضي اتباع أسلوب للترجيح في حالة الخلاف للوصول الى تحقيق العدالة قدر المستطاع . وكان الطبيب بهذه الثابة يؤدي للعدالة خدمة جليلة ويعتبر من أعوانها .



٨ - أن الاجر المعجل للطبيب بعد قيامه بالفحص والتشخيص ووصف العلاج يكون مستحقا له على استخدامه لخبرته في هذا الفحص والتشخيص ولا يلزمه رده الى المريض في حالة عدول هذا المريض من جانبه وحده بارادته المنفردة عن تلقي العلاج . ومفاد هذا رفع قدر الطبيب وإعلاء شأنه على أساس ما بذله من جهد . ولا يغير من ذلك رجوع المريض في أخذ العلاج وفي ذلك تكريم لمهنة الطب ما دام الطبيب ليس هو الذي رفض القيام بالعلاج .

٩ - أنه في حالة الخلاف على أجر الطبيب نظير العلاج فيما بين الطبيب وطالب العلاج يرجع جانب الطبيب ، وإن جاز توجيه اليمين في هذه الحالة ، ومقتضى هذا أن الاجر المستحق للطبيب في مهنة الطب كان يحدد بوساطة الطبيب نفسه وإن جاز الاتفاق بين الطرفين على تعليق استحقاق هذا الاجر على تحقق الشفاء وهذا دليل ثقة بالطبيب في خبرته وفي تيقنه من سلامة علاجه وتوقع الشفاء والا لاستلزم تقاضي أجره بغض النظر عن حصول الشفاء أو عدم البرء من المرض .

نصوص الوثائق *

الوثيقة الاولى :

العيب يوجد بمملوكة تداو لها **الحالك** .
من أحكام ابن زياد ^(١)

منتيل) ^(٥) فقال سعيد : هذه الخادم انما بعته
صحيحة وهي الآن مضروبة الظهر يزعم ابن منتيل
والشقاق وأنكر ابن منتيل أن يكون (قبض
منها) ^(٦) من الشقاق الى هذا الوقت . قال (ابن
لبابة) ^(٧) :

يجب للشقاق القيام على الذي ردها عليه في
مرضها (فاذا) ^(٨) كان هذا من فعله وحدث عنده
عرضت على أهل البصر فقوموها صحيحة وتقوم
بالعيب القديم ، ثم تقوم بالعيب الذي بها من مرضها
وضربها اذا كان ذلك مفسرا ثم يكون الذي ردها على
الشقاق بالخيار ان شاء أمسكها ثم أخذ من الشقاق
قيمة العيب القديم ، وان شاء ردها ورد معها قيمة
العيب الذي حدث عنده من المرض والضرب ، فان

(١٦٠) قام عندي رجل على قوم من
(١٦١) النخاسين في خادم باعوها منه
(وظهر) ^(٢) بها (عيب) ^(٣) فأمرت من وثقت بها
من النساء لتنظر الى تلك العيوب ، فاستبان بشهادة
المرأة أن العيب قديم . بمثله ترد ، فردت على
النخاسين . ثم قام النخاسون على رجل من الشقاقين
فأقرهم بالبيع منها (فأمرته) ^(٤) بقبضها منهم ورد
الثلث اليهم ، ثم قام الشقاق على (سعيد بن

هذه الوثائق مستخرجة من مخطوط الاحكام الكبرى للقاضي أبي الاصمغ عيسى بن سهل . والنسخة الاصلية التي اعتمدنا عليها في تحقيق هذه الوثائق
هي نسخة مكتبة الزاوية الناصرية بتمكروت رقم ١١٨٩ مخطوطات الاوقاف ٨٣٨ ق الخزنة العامة - الرباط . ورمزنا لها « بالأصل » . والنسخة الثانية من
مخطوطات مكتبة الزاوية الناصرية بتمكروت تحت رقم ٣٧٠ ق مخطوطات الاوقاف ورمزنا لها (ليج) ، والنسخة الثالثة تحت رقم ٥٥ ق الخزنة العامة للكتب
ورمzنا لها (قب) .

ومخطوط الاحكام الكبرى للقاضي أبي الاصمغ عيسى بن سهل يجري تحقيقه حاليا .

وسعدت بمراجعة أستاذي المستشار مصطفى كامل اسامعيل وزير العدل السابق بجمهورية مصر العربية والخبير القانوني لمجلس الامة الكويتي ، سعدت
لمراجعته لتعريف هذه الوثائق وفهرستها . فله شكري وتقديري ، كما أشكر صديقي الدكتور عبد الرؤوف مخلوف على حسن مساعدته .

(١) ابن زياد : احمد بن محمد بن زياد بن عبد الرحمن بن شبطون النخعي . ولي قضاء الجماعة . يكتي : أبا القاسم . ألف كتاب الأفضية . توفي سنة ٣١٢ هـ
وهو يتقلد الصلاة والقضاء معا . انظر في ترجمته : ابن الفريسي ، تاريخ علماء الأندلس : ترجمة رقم ٨١ ، الخشن : قضية قرطبة ص ١٠١ - ١٠٥ ، ١٠٩ -
١١٠ ، ابن فرحون : الديباج المذهب : ١٥٦/١ .

(٢) في قب : وظهرت .

(٣) في ليج ، قب : عيوب .

(٤) في ليج : فأمرتها .

(٥) سعيد بن منتيل : لم نعر على ترجمته في كتب التراجم التي بين أيدينا .

(٦) بياض في قب .

(٧) ابن لبابة : محمد بن عمر بن لبابة يكتي : أبا عبد الله من أهل قرطبة عاش ٨٩ عاما وكان إماما في اللغة مقننا على أهل زمانه في حفظ الرأي والبصر
بالفتيا ، توفي سنة ٣١٤ هـ . انظر في ترجمته : محمد خلاف : وثائق في أحكام القضاء الجنائي في الأندلس حاشية رقم ١٠ ص ٤٤ وما ورد فيها من مصادر .

(٨) في قب : فامن .

سألت (أبا عبد الله - ابن عتاب) (١٣) هل يحكم بقول النساء فيما (شهدن) (١٤) فيه من عيوب الاماء أنه قديم قبل تاريخ التبايع أم لا يسمع منهن في ذلك (وشهد) (١٥) فيه الحكماء أو نخاسو الرقيق ؟

فقال لي : ان كن طبيبات سمع منهن في قدم العيب وحدوثه ، والا فلا يشهد به الا الحكماء وهذا هو الصحيح ، وكذلك قول القاضي ايضا حكاية عن المرأة بمثله تزد جهل لأخفاء به صارت المرأة (عنده) (١٦) (الشاهد) (١٧) والطبيبة والمفتية وليس اليها شيء من ذلك على ما بينا الا اذا كانت ماهرة (بالطب) (١٨) على ما قاله أبو عبد الله فيسمع منها في قدمه أو حدوثه ، وأما ان هي يجب (به) (١٩) أو لا يجب فليس ذلك اليها ولا تسأل (عنه) (٢٠) وإنما الحكم اذا ثبت العيب وقدمه بشهادة من تجوز شهادته فيه (أن يسأل) (٢١) تجار

أمسكها وأخذ من الشقاق قيمة العيب القديم رجع الشقاق على سعيد بذلك أيضا وان ردها عليه فالشقاق أيضا بالخيار في الامساك والرجوع بقيمة العيب أو الرد ورد قيمة العيب .

قال القاضي (أبو الأصمغ) (١)

انظر قول القاضي (في سؤاله) (١٠) فاستبان بشهادة المرأة ان العيب قديم بمثله ترد : أعمل قول (امرأة) (١١) واحدة في العيب ، وقدمه ، ولم يعترض ابن لبابة فيه وأفتى عليه ، والذي رأيت العمل به وقيدته بخط يدي مرارا لبعض القضاة أن تنظر امرأتان الى العيب اذا كان بالأمه في موضع باطن وتشهدا عند القاضي على عين الأمه بصفة ذلك العيب ثم تقرأ الصفة على طبيبين (و) (١٢) أزيد فان شهدا أن هذه الصفة تدل على قدم العيب أعذر في ذلك الى المطلوب ، فان لم يكن عنده مدفع حكم عليه . وقد

(٩) زائدة في ق ب .

(١٠) ساقطة في ق ب .

(١١) في ق ب : المرأة .

(١٢) في ق ب ، ق ب ، أو .

(١٣) أبو عبد الله بن عتاب : القبة محمد بن عتاب بن محسن ويكنى أبا عبد الله . كان شيخ أهل الشورى في زمانه وعليه مدار الفتوى في وقته . قدمه القاضي أبو المطرف بن بشر الى الشورى سنة ٤١٤ هـ . ولد سنة ٣٨٣ هـ وتوفي سنة ٤٦٢ هـ وشهد جنازته المعتد على الله محمد بن عباد ومشي واجلا . انظر : محمد خلاف : وثائق في احكام القضاء الجنائي في الاندلس حاشية رقم ٢٣٣ صفحة ٦٥ وما ما ورد فيها من مصادر .

(١٤) في الأصل : يشهد والمذكور في ق ب ، ق ب .

(١٥) في ق ب ، ق ب : ويشهد .

(١٦) ساقطة في ق ب .

(١٧) في ق ب : الشاهدة .

(١٨) في ق ب : في الطب .

(١٩) في ق ب : له .

(٢٠) في الأصل عنها والمذكور في نجح ، ق ب .

(٢١) في الأصل ، ق ب ، يسأل والمذكور في ق ب .

الرقيق هل هو عيب ؟ فإذا شهد أهل البصر منهم (٢٢) (أنه) عيب يحط من الثمن كثيرا أفتى الفقهاء حينئذ بالرد وسيأتي ان شاء الله (عز وجل) (٢٣) مسائل فيها بيان هذا المعنى .

وقال عن ابن منتيل أنه قال : (انما) (٢٤) بعثها صحيحة ، ثم ذكر في الجواب ان للشقاق الرجوع عليه ولم يذكر (لمقاله) (٢٥) . جوابا وفيه غير هذا تركناه والكلام (عليه) (٢٦) (كراهة) (٢٧) التطويل .

الوثيقة الثانية :

مسألة أخرى في مثل هذا المعنى قام عندي - رحمكم الله - رجل يسمى عبد الملك ذكر أنه ابتاع خادما من رجل من أهل (جراوة) (٢٨) وأقرب

الجراوي بالبيع (منه) (٢٩) وذكر عبد الملك أن بالخادم آثارا يجب بها ردها ، ولم يبين له بها وأقر الجراوي بذلك . وقال : لم أعلم بها عيبا ، وشهد عندي الطبيبان (يحيى بن اسحاق) (٣٠) و (تميم) (٣١) أن الآثار التي بساقيها من مدة سوداء ، دلت (على) (٣٢) أن ذلك من قروح غليظة قديمة كانت بها منذ سنة أو نحوها وأنه عيب يجب به الرد متى علمها وأمرت (برد الجارية) (٣٣) على الجراوي . وأتاني الجراوي بالبائع منه فأقر أنه باع منه فأمرته أن يرد على الجراوي ماله فقال : أن البائع مني غائب .

فقلت له : أشاور لك الفقيه (أبا عبد الله) (٣٤) - حفظه الله - فما (رأى) (٣٥) أنه يجب لك من الوثيقة في الغائب (فقلت لك) (٣٦) ان

(٢٢) في فج ، قب ، بأنه .

(٢٣) ساقطة في قب .

(٢٤) في فج : أنا .

(٢٥) في فج : لمقالته .

(٢٦) في فج : فيه .

(٢٧) في فج : كراهية .

(٢٨) جراوة : بالغيم ناحية بالاندلس من أهال لحص البلوط وجراوة . انظر معجم البلدان جزء ٣ ، ص ٧٢ .

(٢٩) ساقطة في فج .

(٣٠) يحيى بن اسحاق . كان طبيبا ذكيا عالما بصيرا بالعلاج صانعا بيده . استورده عبد الرحمن الناصر . ألف في الطب كتابا يشتمل على خمسة أسفار ذهب فيها مذهب الروم . وكان يحيى قد أسلم وأما أبوه فقد كان نصرانيا . انظر في ترجمته : ابن أبي أصيبعة : هيون الأنباء في طبقات الأطباء : ٦٨/٣ وما بعدها .

(٣١) تميم : محمد بن تميم التميمي : من أهل قرطبة ، يكنى : أبا عبد الله حدث عن عبيد الله بن يحيى الموطأ . وولي خطة الرد والشرطة ، وكانت له منزلة من المستنصر بالله ، وكان عالما بالطب وتوفي سنة ٣٦١ هـ . انظر ترجمته في ابن الغرزي : رقم ١٣٠١ ، هيون الأنباء في طبقات الأطباء : ٧٢/٣ .

(٣٢) ساقطة في قب ، فج .

(٣٣) في فج ، قب : بردها .

(٣٤) أبو عبد الله : هو الفقيه محمد بن عتاب وقد سبق ترجمته انظر حاشية رقم ١٣ .

(٣٥) في قب : أرى .

(٣٦) في قب : فعلته بك .

للغائب . وليس في هذا يمين على واحد منهم لأنهم قد
تقاروا أنهم لم (يتباينوا اليهم) (٤٦) على أن ذلك
عيب عندهم ويجب للبائع من الجراوي أن يكتب له
كتابا بما ثبت عندك وبترادهم الثمن بينهم ليرجع
بذلك على صاحبه ان رجع يوما ما ، أو أثبت له مالا
فتعديده به عليه (وهذا) (٤٧) الخادم (ان) (٤٨)
(أردت) (٤٩) بيعت على (الغائب) (٥٠) فيقضي
من ثمنها هذا البائع الأول اذا (أثبت) (٥١) عندك
أنه نقده (الثمن) (٥٢) وأثبت عدته وأسأل الله
توفيقك (وتسديدك) (٥٣) (عنه) (٥٤) (قال
القاضي) (٥٥) :

في هذا السؤال من الاغفال مثل ما تقدم لقوله
عن الطبيبين أنها شهداء في الشقاق أنه من مدة

شاء الله فاكتب الى - رحمك الله - برأيك في ذلك موقفا
إن شاء الله (عز وجل) . قال ابن لبابة :

فهمم - وفقك الله - ما ذكرت مما قيم به
(عندك -) (٢٨) في عيب الخادم وثبوت العيب
بشهادة يحيى بن اسحاق وقلبيخ ، وما قاله المتبايعون
من أنهم لم يعلموا أنه عيب (وقول) (٢٩) البائع من
الجراوي أنه بين (له) (٤٠) تلك الآثار .

فقال : لم أعلم (أنه) (٤١) عيب ولكنني قد
عرضتها على الجراوي .

فقال الجراوي : نعم عرضها علي ولم أعلم
(أنها) (٤٢) عيب فلما قام المشتري وشهد عندك أن
(بها) (٤٣) عيبا وجب التراد بينهم (على أن ذلك
عيب عندهم) (٤٤) وترجى الحجة (للبائع) (٤٥)

(٣٧) ساقطة في ق ب ، قج .

(٣٨) في قج ، ق ب : عندك في الاصل (عبدك) .

(٣٩) في ق ب : وقال .

(٤٠) في ق ب : لك .

(٤١) في ق ب : أنها .

(٤٢) في قج : أنه .

(٤٣) في قج : أنه .

(٤٤) ساقطة في ق ب .

(٤٥) ساقطة في ق ب .

(٤٦) في قج يتأخروا بينهم ، وفي ق ب يتباينوا بينهم .

(٤٧) في قج ، ق ب : وهذه .

(٤٨) في قج ، ق ب : اذا .

(٤٩) في قج : أدت .

(٥٠) في قج : البائع .

(٥١) في قج ، ق ب : ثبت .

(٥٢) ساقطة في قج .

(٥٣) في ق ب : وارشاده .

(٥٤) ساقطة في الاصل ، ق ب ومذكورة في قج .

(٥٥) يباس في ق ب .

سوداء كانت بها منذ سنة ، (وأنه)^(٥٦) عيب يجب به الرد في علمها ، فصاراهما المفتيان بالرد ، وهو خطأ من العمل ، انما عليهما أن يشهدا (أنه)^(٥٧) من داء قديم بها قبل أمد التباعد ثم يشهد أهل البصر من تجار الرقيق ونخاسيهم بأنه عيب يحيط من ثمنها كثيرا ثم يفتي الفقيه بعد ذلك بوجوب الرد اذا لم يكن عند المطلوب حجة ولا مدفع ، والخطأ المعدود في هذا على ابن لبابة أقبح منه على القاضي ، لأنه كان عليه أن يرشده وينبهه على ذلك ولا يعرض له عنه .

وقد أنكر ذلك أبو عبد الله بن عتاب من شهادة شهود (وخلفوا)^(٥٨) به شهادتهم في عيب حوانيت شهدوا به وقد أنكرته انا (^(٥٩) أيضا من شهادة شهود شهدوا في عقد حائط وقمطه ، ادعاه رجلان أنه لفلان منها وقلت ليس ذلك اليهم ولا يسمع فيه منهم ، انما يؤدون الشهادة عند الحكم أنهم نظروا (الى الحائط)^(٦٠) ، ورأوا عقده من ناحية دار فلان أو رأوا عليه خشب سقف (بيت)^(٦١) فلان ثم

يفتي الفقيه على ذلك ، كما أنهم اذا شهدوا أنهم يعرفون هذا العبد أو هذا البغل ملكا (لفلان)^(٦٢) ومالا من ماله (و)^(٦٣) بيده ولا (يعلمونه)^(٦٤) خرج عن ملكه ببيع ولا غيره الى حين شهادتهم هذا لا يجوز لهم أن يقولوا ، فيجب أن يحلف صاحبه في مقطع الحق أنه ما باعه ولا وهبه ولا خرج عن ملكه بوجه ، ثم تأخذه وهذا أبيه من أن يحتاج فيه الى هذا التطويل ، لكني رأيت هذا المعنى قد كثر عند الحكام ولا ينكرونه ، بل قد بلغني عن بعضهم أنه قال لم تزل (الشهادات)^(٦٥) تؤدي في هذا المعنى هكذا (١٦٣) والشيخ متوافرون ولا ينكرون .

(ورأيت)^(٦٦) (في)^(٦٧) جواب جاهل (بالفقه)^(٦٨) أهل الاعتناء للفتيا قد أفتى في فتاة ظهرت في دار مبيعة بقرب بيرها .

قال يقال للشهود هل يجب بذلك الرد ؟ فان قالوا يجب ردت فليت شعري ما الذي استفتى هو فيه

(٥٦) في قب : وهو .

(٥٧) في قب : بأنه عيب ، وفي قب : بأنه .

(٥٨) في قب : قب : وأصلوا .

(٥٩) ساقطة في الأصل ومذكورة في النسختين الآخرين .

(٦٠) في قب : للعائط .

(٦١) ساقطة في قب .

(٦٢) في قب : قب : لفلان بن فلان .

(٦٣) ساقطة في قب .

(٦٤) في قب : ولا يعلمون أنه .

(٦٥) في قب : الشهادة .

(٦٦) في قب : قب : وقد رأيت .

(٦٧) ساقطة في قب .

(٦٨) ساقطة في قب : قب .

يذكر هل «يتلوم له قبل الحكم بالرد عليه أم لا ؟ ولا بد من ذلك على ما نص في المدونة وغيرها وهو مختلف باختلاف قرب الغيبة من بعدها ، ولا ذكر أن اليمين على المبتاع من الغائب أنه ما تبرأ اليه من ذلك العيب ولا أعلمه به ، ولا بد منها كذلك في الواضحة .

وقاله فضل استقصاء (لحة) (٧٧) الغائب هذا (ان) (٧٨) كان الابتاع منه وقع في داخل السنة المشهود يكون العيب (فيها) (٧٩) ولا ذكر ما يفعل ببقية ثمن الخادم ان بيعت على الغائب باكثر مما باع به ، وقد نص في المدونة أن السلطان يحبس حتى يدفع اليه اذا قدم ومثل هذا الجواب ليس بجواب والله الموفق للصواب ولولا الرجاء (بأن) (٨٠) يكون هذا (ومثله) (٨١) من تبيناته وتعليم لمن طالع هذه المسائل ودرس هذه للنوازل لكان الاعراض عنه أولى والله (تعالى) (٨٢) ولي الارشاد والهدى .

(فاذا) (٦٩) كان الشهود يشألون هل يجب الرد أم لا ؟

وهذا نهاية في القباوة واذا فشت الجهالة في الناس ظنت حقا وحسبت سنة .

وفي جواب ابن لبابة في مسألة الخادم من الغفلة والاختلال نحو ما تقدم في الشهادة من المحال لأنه أوجب رد (المتبايعين) (٧٠) . لها على بعض بشهادة الطبييين (للمبتاع) (٧١) الآخر أن (البيع) (٧٢) نحو عام وقد يكون لا بتبايع الجراوي لها المقدم عليه أزيد من عام ، ويكون لا بتبايع بائعها منه من الغائب عامين ، فكان من تمام جوابه بيان هذا والكشف عنه حتى يقف على حقيقة من أوقات وقسوع (هذه) (٧٣) البياعات ، اذ قد تكون قديما في بعضها ، حديثا في بعضها وهذا لاخفاء به وكذلك اسقط ذكر (ثبوت) (٧٤) (مغيب) (٧٥) البائع الأول الذي باع الخادم من بائعها (الجراوي) ولم

(٦٩) في قج ، قب : اذا .

(٧٠) في قب : بعض المتبايعين .

(٧١) في الاصل : المبتاع .

(٧٢) في قب : ولي قج العيب .

(٧٣) ساقطة في قج .

(٧٤) في قج : ثبوته .

(٧٥) في قج ، قب : مغيب .

(٧٦) في قج ، قب : من الجراوي .

(٧٧) في الاصل : لحة .

(٧٨) في قج : اذا .

(٧٩) في قب : منها .

(٨٠) في قج : أن .

(٨١) في قج : وشبهه .

(٨٢) ساقطة في قج .

الوثيقة الثالثة :

لخمس خلون من رمضان من سنة أربع وستين تضمن
إبتياعه لخادم جهراء صنعتها كذا ومعها ولد صغير
بثمن كذا قبضه محمد منه ، وحضر محمد بن الفضل
مجلس نظري فوقفته على هذا (العقد) (٩٣) فأقر به
حاشي تاريخه فقال انه كان أول شعبان (من) (٩٤)
العام المذكور .

مسألة في هذا المعنى .

نزلت بقرطبة وأفتينا فيها خاطبتنا بها في ضرر
ببصر خادم (بيعت) (٨٣) (صاحب المظالم) (٨٤)
(ابن أدهم) (٨٥) .

وثبت ذلك من اقراره وقوله عندي وكلفت أحمد
اثبات العقد المذكور عندي لانكار محمد لتاريخه فاثبتته
عندي بمن (قبلت) (٩٥) من شهادته واعذرت في
ذلك الى (عبد الرحمن بن سعيد) (٩٦) وكيل محمد
بن (الفضيل) (٩٧) بعد ثبوت توكيله إياه عندي .
فقال : انه لا مدفع عنده فيما شهد عليه به في

يا ساداتي وأكابر (عدولي) (٨٦) ومن أبقاهم
الله وسلمهم . قام عندي (أحمد بن عبد الرحمن بن
عيسى) (٨٧) فذكر انه ابتاع خادما (جهراء) (٨٨)
من (محمد بن الفضيل) (٨٩) وأنه ألفي بها عيوبا
لم يتبرأ محمد منها اليه عند بيعه أياها منه ، وسألني
النظر له في ذلك (فأبحث) (٩٠) (له اثبات) (٩١)
ما يوجب النظر (له) (٩٢) فأظهر الي عقد تاريخه

(٨٣) ساقطة في قب .

(٨٤) صاحب المظالم : هي خطة من الخطط القضائية التي تخول لصاحبها حق اصدار الاحكام وكان يحكم فيها استرايه القضاة وردوه عن أنفسهم . أنظر بحثنا
عن صاحب الرد والمظالم في الأندلس : مجلة كلية الآداب والتربية ص ١٧١ وما بعدها ، العدد ١٤٣ ، سنة ١٩٧٨ . الكويت .

(٨٥) ابن أدهم : عبيد الله بن محمد بن أدهم : ولد سنة ٤١٦ هـ ونظر في أحكام المظالم في قرطبة فكان من أهل الصرامة في تنفيذ الحق قامعا لأهل الباطل
وشؤون في الاحكام ثم استقضاه المعتمد على الله محمد بن عبد بقرطبة سنة ٤٦٨ هـ . توفي سنة ٤٨٦ هـ . انظر : محمد خلاف : وثائق في احكام القضاء الجنائي
حاشية ٣١٤ ص ٧٢ .

(٨٦) في قج : علي .

(٨٧) أحمد بن عبد الرحمن بن عيسى : لم نعر على ترجمته في كتب التراجم التي بين أيدينا ولعله شخصية من عامة المجتمع القرطبي .

(٨٨) جهراء : جاسطة العين انظر لسان العرب مادة جهر .

(٨٩) محمد بن الفضيل : لم نعر على ترجمته في كتب التراجم التي بين أيدينا ولعله شخصية من عامة المجتمع القرطبي .

(٩٠) في قج : بما يجب .

(٩١) في قج : فكلفته اثبات .

(٩٢) ساقطة في قج .

(٩٣) ساقطة في قج .

(٩٤) مذكورة في قج ، قب .

(٩٥) في الاصل : قلت ، وفي قج قبلت وأخرت والمذكور في قب .

(٩٦) عبد الرحمن بن سعيد : لم نعر على ترجمته في كتب التراجم التي بين أيدينا ولعله من عامة المجتمع القرطبي .

(٩٧) في الاصل : قب : فضيل .

فجاءوني عنه موفقين مرشدين ان شاء الله (عز وجل والسلام) (١٠٨) .

فأفتى [(محمد) (١٠٩) بن فرج] (١١٠) يا سيدي تصفحت (خطابك) (١١١) واذا قد أعذرت الى الخنصم عبد الرحمن وكيل ابن (الفضيل) (١١٢)

فقال : انه لا مدفع عنده في تاريخ العهدة أنها كانت (١٦٤) أول شهر رمضان ولم (يخل) (١١٣) ما شهد به المتطببون الذين قالوا أن العيب أقدم من أمد التبايع ، وزاد أحدهم أن فيها مع هذا العيب القديم عيبا آخر مثله يقدم ويحدث فالقضاء برد الخادم بالعيب واجب ولا يمنع من الرد به شهادة أحد المتطببين الآخرين أنه عيب حديث وقول الآخر أنه يقدم ويحدث (اذا) (١١٤) لم يجتمعا على

العقد ، وأتاني أحمد بن عبد الرحمن (بمحمد بن فتوح) (٩٨) (وسعيد بن ميمون) (٩٩) و (يحيى بن أيوب) (١٠٠) المتطببين فشهدوا عندي الشهادات المنتسخة في كتاب الكاغد المدرج (في) (١٠١) طي خطابي (١٠٢) هذا وثبت عندي ما شهدوا فيه من عيب المملوكة وأعذرت الى عبد الرحمن بن سعيد فزعم أن عنده ما يحمل (به) (١٠٣) ما شهد به الأطباء فأجلته فيما أدعاه من ذلك أجلا قاطعا من ثمانية أيام فأتاني في خلالها (بحسين بن هشام) (١٠٤) و (محمد بن خليل) (١٠٥) و (أحمد بن خلف) (١٠٦) المتطببين . فشهدوا عندي بما تروونه مما قد (أدرجته) (١٠٧) اليكم وقبلت شهادتهم لمعرفتي بهم وثبت ذلك عندي ورأيت استطلاع رأيكم فيه

(٩٨) محمد بن فتوح : من أطباء قرطبة عاش في القرن الخامس الهجري ولم قدنا المصادر التي بين أيدينا على ترجمته .

(٩٩) سعيد بن ميمون : من أطباء قرطبة عاش في القرن الخامس الهجري ولم قدنا المصادر التي بين أيدينا على ترجمته .

(١٠٠) يحيى بن أيوب : من أطباء قرطبة عاش في القرن الخامس الهجري ولم قدنا المصادر التي بين أيدينا على ترجمته .

(١٠١) ساقطة في قج .

(١٠٢) في الاصل : خطابك والمذكور في النسختين الآخرين .

(١٠٣) ساقطة في قج .

(١٠٤) حسين بن هشام : من أطباء الأندلس عاش في قرطبة في القرن الخامس الهجري ولم قدنا المصادر التي بين أيدينا على ترجمته .

(١٠٥) محمد بن خليل : من أطباء الأندلس عاش في قرطبة في القرن الخامس الهجري ولم قدنا المصادر التي بين أيدينا على ترجمته .

(١٠٦) أحمد بن خلف : من أطباء الأندلس عاش في قرطبة في القرن الخامس الهجري ولم قدنا المصادر التي بين أيدينا على ترجمته .

(١٠٧) في قج : أدرجت .

(١٠٨) ساقطة في قج ، قج .

(١٠٩) ساقطة في قج .

(١١٠) محمد بن فرج : أبو عبد الله محمد بن فرج مولى الطلاع . محدث ومقدم في الفتوى بقرطبة ، كان عالما بعقد الشروط مع خير وعفاف لا تأخذ بالله لومة لائم ، توفي سنة ٤٩٧ هـ . انظر في ترجمته محمد خلاف : وثائق في أحكام القضاء الجنائي حاشية رقم ٢١٣ ص ٧٢ وما ورد فيها من مصادر .

(١١١) في قج ، قج : ما خطبتنا به .

(١١٢) في الاصل ، قج ، فضيل .

(١١٣) في قج ، قج : يحمل .

(١١٤) في قج : اذا ، في قج : ان .

شيء واحد ، ولا يضاف الى شهادة أحدهما شهادة أحمد بن خلف أنه نظر الى عيني الخادم (وقلبها) ولم ير (فيها) (١١٥) عيبا ولا نكتة ولا أثرا ، وان أمكن اصلاح هذه المسألة وقطعها بالصلح فهو (أحسن) (١١٦) وان تعذر فالرد واجب والسلام . وجاوبت أنا سيدي ووليي وقع تاريخ (شهادة) (١١٧) متبايعي المملوكة وابنها الخمس خلون من شهر رمضان من سنة أربع وستين (وأربعمائة) (١١٨) واتصل به وكان عقد التبائع مستهل شهر رمضان ولفظ مستهل لا يستعمل الا (بأول) (١١٩) ليلة من الشهر (كذلك) (١٢٠) ذكره أرباب البيان وأهل المعرفة باللسان فصار بين تاريخ التبائع وتاريخ التشاهد نحو أربعة أيام .

وفي فصل تقييد (شهادة) (١٢١) الأطباء ابن فتوح وصاحبيه في النكتة التي بعيني المملوكة وأنها أقدم من (تبائعها) (١٢٢) الذي تاريخه لست خلون

(من شهر) (١٢٣) رمضان فدل على (أن) (١٢٤) ما اتصل بالتاريخ في عقد الابتياح من قوله .

وكان عقد التبائع مستهل شهر رمضان غاب عن العين أو سقط عن التحصيل (١٢٥) كما أن قوله في فصل شهادة الأطباء لست خلون وهم ، اذ ليس في العقد الا لخمس خلون ، وكذلك في الخطاب فوق هذا خمس تصلح ، وانما نحن بشر فينبغي أن يعود الحكماء اليك ويشهدوا عندك أن تلك النكتة أقدم من مستهل شهر رمضان الذي أشهد المتبايعان أحمد ومحمد بوقوع البيع فيه لا بد من هذا ولا يصح الحكم دونه لاحتمال أن تكون النكتة عندهم مما يحدث بعد المستهل وقبل الخمس الخالية من الشهر فان شهدوا عندك بذلك أعذرت فيه الى البائع او وكيله ، فان ادعى مدفعا أجلته فيه أجل (التلوم) (١٢٦) الثلاثة الأيام أو نحوها ، لا آجالا مستأنفة ، واذ قد عجز في الاذار الاول عن حل الشهادة (بالأمد) (١٢٧) الاول فهو أعجز على حل الشهادة (بالأمد) (١٢٨)

(١١٥) في ق ب : وقلبها .

(١١٦) في ق ب : فيها .

(١١٧) في ق ب : حسن .

(١١٨) في ق ب : تشاهد .

(١١٩) مذكورة في ق ب .

(١٢٠) في ق ب : في أول .

(١٢١) في ق ب : كذا .

(١٢٢) في ق ب : شهادات .

(١٢٣) في ق ب : تبائعها .

(١٢٤) في ق ب : لشهر .

(١٢٥) ساقطة في ق ب .

(١٢٦) في ق ب : التحصيل .

(١٢٧) التلوم : التمسك والانتظار .

(١٢٨) في ق ب : في الأمد .

وفي أولئك الشهود . وأما في معنيين متضادين وشهود مختلفين فلا ، وأما شهادة يحيى (ابن أحمد) (١٣٤) المتطبب بالاهالة (وشهادة) (١٣٥) ابن خليل بالبشرة وقول كل واحد منهما أن ذلك مما يقدم ويحدث فساقطة لا توجب شيئا لانفراد كل واحد منهما بمعنى لم يشهد به الآخر ، ولو شهدا جميعا على الاهالة أو البثرة للزمت المبتاع اليمين أن ذلك لم يحدث عنده . في علمه ، ثم يرد حينئذ بعيب النكتة القديمة ، ولم يكن عليه شيء في الاهالة (و) (١٣٦) البثرة ولنكوله عن هذه اليمين شرح يطول ذكره ، وليس يحتاج اليه في هذه المسألة ، وكذلك شهادة حسين غير عاملة لانفراده بها ، وما شهد به أحمد بن خلف لا معنى له بوجه من الوجوه . وإن قال الشهود عند رجوعهم اليك أن النكتة التي بعين (١٦٥) المملوكة ليست أقدم من مستهل شهر رمضان ، وانها مما يحدث بعده (لم) (١٣٧) يكن للمبتاع قيام بذلك (و) (١٣٨) نفذ البيع بينهما ، وإن قالوا أنها (قد) (١٣٩) تحدث بعد تاريخ الابتاع الذي هو مستهل شهر رمضان ، وقد يكون أقدم منه حلف البائع (بينهما) (١٤٠) في

الأطول فإن أتى بشيء نظرت له والا عجزته وقطعت حاجته وحكمت عليه بصرف المملوكة وابنها اليه ، وبصرف الثمن الى (مبتاعها) (١٣٩) . ولا يجوز للمبتاع حبس ابنها ان ذهب اليه بما ينوبه من الثمن اذ هو في سن من لا تجوز التفرقة بينه وبين أمه فيه لصغره . هذا قول ابن القاسم وغيره . وقيد في فصل الاعذار الى عبد الرحمن وكيل البائع أنك أعذرت اليه بمثل ما أعذرت به الى أحمد بن عبد الرحمن في الفصل الواقع في أسفل الظهر ، ثم لم تظهر الينا هذا الفصل فيما أدرجته طي خطابك (الينا) (١٣٠) . ولم يكن ذلك الاعذار (لاشك) (١٣١) الى أحمد في شهادة هؤلاء الأطباء لانهم شهوده وهو القائم بهم ، فمحال أن يعذر اليه فيهم واذا كان (هذا) (١٣٢) هكذا فلا يصح أن يقال أنك أعذرت الى وكيل البائع بمثل ما عذرت فيه الى المبتاع لانفراد كل واحد منهما بالمعنى الذي أعذرت اليه فيه ، وانما يصح أن يكتب مثل هذا في مطلوبين بمطلب واحد او طالبين لشيء واحد (١٣٣) (و) شهد عليها بشهادة ينكرانها فيحضر أحدهما فيعذر اليه ثم يحضر الآخر فيعذر اليه في ذلك المعنى ،

(١٢٩) في قب : مبتاعها .

(١٣٠) في قب : أياها ، في قب اياكم .

(١٣١) في الاصل : لاشك ، في قب : لاشكال والمذكور في قب .

(١٣٢) ساقطة في قب .

(١٣٣) ساقطة في قب ، قب .

(١٣٤) مذكرة في قب ، قب .

(١٣٥) مذكرة في قب ، قب .

(١٣٦) في قب : أو .

(١٣٧) في قب : ولم .

(١٣٨) ساقطة في قب .

(١٣٩) مذكرة في قب ، قب .

(١٤٠) ساقطة في قب ، قب .

مقطع الحق بالله (الذي لا اله الا هو) (١٤١) ما كان بها هذا العيب عنده في علمه ان كان مما يخفي مثله ، وان كان ظاهرا أسقط من بينه في علمه وحلف على البت ومضى البيع (وان) (١٤٢) نكل عن اليمين حلف المبتاع ما حدث بها هذا (العيب) (١٤٣) عنده في علمه ثم ردها على البائع وأخذ ثمنه ، وان نكل أمسكها ولا شيء عليه .

هذا جواب ما سألتنا عنه ملخصا (موجبا) (١٤٤) ولم نورد إلا ما تدعو اليه (الضرورة) (١٤٥) وبالله التوفيق .

الوثيقة الرابعة :

مسألة أخرى في هذا المعنى

(١٦١) فهنا ! وفقك الله - ما ادعاه مبتاع

الحجارية من الحفر والشقاق والآثار والذي عندنا في ذلك أن ينظر (رجال) (١٤٦) (أهل الطب) (١٤٧) الى ما يجوز أن (ينظروا) (١٤٨) اليه من الحفر والشقاق التي برجلها وينظر النساء الى (الآثار) (١٤٩) الباطنة . فان قالوا أنه عيب اعلموا بوقت التباعد وكشفوا (أيحدث) (١٥٠) مثله في مثل هذا الامد (أم لا) (١٥١) ؟ فان قالوا لا يحدث (١٦٢) (في) (١٥٢) مثله وجب الرد ، وان قالوا يحدث ويقدم وجبت اليمين على البائع (وفي) (١٥٣) الظاهر على البت وفي (الباطن) (١٥٤) على العلم . قاله ابن لبابة و (أيوب) (١٥٥) و (عبيد الله) (١٥٦) وغيرهم .

(١٤١) مذكورة في قج .

(١٤٢) في قج : فان .

(١٤٣) في قج : البيع .

(١٤٤) في قج ، قج : موعبا .

(١٤٥) في قج ، قج : ضرورة .

(١٤٦) في قج : رجلا .

(١٤٧) في قج : من أهل البصر .

(١٤٨) في قج : ينظر .

(١٤٩) في الأصل : الأمر والمذكور في النسختين الأخريين .

(١٥٠) في قج : هل يحدث ، في الأصل لم يحدث والمذكور في قج .

(١٥١) ساقطة في قج .

(١٥٢) ساقطة في قج .

(١٥٣) في قج ، قج : لي .

(١٥٤) في قج : الحلي .

(١٥٥) أيوب : أيوب بن هاشم بن صالح بن هاشم يكنى : أبا صالح من أهل قرطبة ، وأصله من حيان . كان إماما في رأي مالك وأصحابه متقدما في الشورى . توفي سنة ٢٠٢ هـ . انظر في ترجمته ورائق في احكام قضاء أهل الذمة حاشية رقم ٨٨ ص ٥١ وما ورد فيها من مصادر .

(١٥٦) عبيد الله : عبيد الله بن يحيى بن يحيى يكنى : أبا مروان رئيس لفهاء المالكية وشيخ المفتين في قرطبة وهو ابن الفقيه يحيى بن يحيى تلميذ الامام مالك . كان رجلا عاقلا عظيم المال والجاه توفي سنة ٢٩٢ هـ . انظر في ترجمته : ورائق في احكام أهل الذمة في الاندلس حاشية رقم ٢ ص ٤٣ وما ورد فيها من مصادر .

الوثيقة الخامسة :كسر في ظهر صبية شهد به الأطباء .

(١٦٧) شهد عند القاضي (أحمد بن محمد) (١٥٧) (بن) (١٥٨) تملّيح بن (أود) (١٥٩) الناس (المتطبب) (١٦٠) أنه نظر الى الصبية الموقفة بين يدي القاضي التي قام فيها (محمد على سليمان) (١٦١) بعيب فنظر اليها تملّيح ، فوجد كسرا في ظهرها قديما ، قد انعقد وأنه عيب ترد به ، ومنله لا يحدث في أشره .

وشهد (يحيى بن اسحاق بن عبد الله) بمثل ذلك .

قال ابن لبابة :

وجب رد الصبية بهذا العيب ، وقول البائع أن لي بينة على أنني باينته بالعيب او بالبراءة من العيوب

فان أتى بالبينة نظرت في ذلك بما (يريك) (١٦٢) الله من الحق وقاله (ابن وليد) (١٦٣) .

قال القاضي (أبو الأصمغ) : (١٦٤)

في هذا التقيد من (ذكر) (١٦٥) قول الطبيب أنه يجب به الرد مثل ما تقدم مما قد أنكرناه واذا استمر مثل هذا (الجهل) (١٦٦) في ذلك الوقت وكان بقية من صلاح الزمان ووفور الفقهاء والاعيان فيما يرتجى في وقتنا هذا ، وقد اضمحلت تلك البقية ودرجت تلك الطبقة وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وكان صواب (ذلك) (١٦٧) التقيد أن يكون مساقه : شهد عند القاضي (فلان) (١٦٨) قاضي الجماعة (١٦٩) بقرطبة وفقه الله تملّيح (بن فلان) (١٧٠) الطبيب على عين الصبية

(١٥٧) القاضي أحمد بن محمد : هو أحمد بن محمد بن زياد بن عبد الرحمن بن شبطون اللخمي . وقد سبق لنا ترجمته . انظر حاشية رقم ١ وما ورد فيها من مصادر .

(١٥٨) مذكورة في قب ، قج .

(١٥٩) في قب : داود .

(١٦٠) في قب ، الطب .

(١٦١) محمد علي سليمان : لم نعثر على ترجمة هذه الشخصية في كتب التراجم التي بين أيدينا .

(١٦٢) في الاصل ، قب : يريد المذكور في قب .

(١٦٣) ابن وليد : محمد بن وليد بن محمد بن عبد الله بن عبيد . من أهل قرطبة ، يكنى : أبا عبيد الله ، كان عالما بالشروط مشاورا في الاحكام . توفي سنة ٣٠٩ هـ . انظر في ترجمته محمد خلاص : وثائق في احكام القضاء الجنائي حاشية رقم ١٣ ص ٤٤ وما ورد فيها من مصادر .

(١٦٤) مذكورة في قب .

(١٦٥) ساقطة في قب .

(١٦٦) في قب : الجهل .

(١٦٧) في قب : هذا .

(١٦٨) في قب ، فلان بن فلان .

(١٦٩) قاضي الجماعة : لقب قاضي قرطبة بقاضي الجماعة نسبة الى جماعة القضاة وظل هذا اللقب حتى نهاية القرن ٤ هـ ، وفي عهد عبد الرحمن بن أبي عامر تغير هذا اللقب وحل مكانه لقب « قاضي القضاة » ولما انقضت دولة بني عامر ، تغير اسم خطة القضاة الى قاضي الجماعة مرة أخرى : انظر بحثنا : القضاء في قرطبة اسلامية في القرن الخامس الهجري - تحت النشر .

(١٧٠) ساقطة في قب .

(المبيعة) (١٧١) فلانة المنعوتة في عقد التبائع الواقع فوق هذا في هذا الكتاب .

انه نظر الى ظهرها فلقى به كسرا قد برىء وانعقد وقال : أنه أقدم من تاريخ ابتياعها المذكور وكانت شهادته بذلك (عندي) (١٧٢) في تاريخ كذا ، وشهد الطبيب فلان بن فلان بمثل ذلك ، فان قبل شهادتهما أعذر الى البائع يحط من ثمنها كثيرا بشهادة تجار الرقيق العارفين بذلك ، وتقيد ذلك شهد عند القاضي فلان بن فلان قاضي موضع كذا فلان بن فلان وفلان بن فلان ، أن الكسر الموصوف (بالتقيد) (١٧٣) فوق هذا عيب يحط من ثمن المملوكة كثيرا (و) (١٧٤) كانت شهادتهما بذلك عنده في تاريخ كذا ، ثم يكتب القاضي بخط يده : (شهدا) (١٧٥) عندي ، وكذلك (تعمل) (١٧٦) متصلا بشهادة الطبيب ثم يعذر في ذلك أيضا الى البائع (و) (١٧٧) يجمع الاعذار في شهادة هذين (و) في (١٧٨) (شهادة) (١٧٩) الطبيب فيجعله

اعذارا واحدا الى البائع ، فان لم يكن عنده مدفع شاور حينئذ ، ويكون الجواب ، اذ قد ثبت عندك من عيب المملوكة ما ذكرت ولم يكن عند بائعها مدفع عند الاعذار اليه كما وصفت فالحكم (بصرفها عليه) (١٨٠) واجب ورد (الثمن) (١٨١) الى مبتاعها لازم والله (تعالى) (١٨٢) يملك على الصواب ويجزل لنا ولك الثواب .

قال القاضي :

مثلت هذا رغبة في التعليم وحرصا على الزيادة (في) (١٨٣) التفهيم ، ولما خبرت من طموس هذا المعنى ، ودرس هذا الفن والله ولي التوفيق فيا يحاوله برحمته .

الوثيقة السادسة :

باع وصيفا وادعى أنه باعه بالبراءة اذ ظهر به عيب

(١٦٧) قام عندي - (رضي الله عنك) (١٨٤) - رجل فذكر أنه اشترى وصيفا خماسيا

(١٧١) في قج : المعينة .

(١٧٢) في الاصل ، قج : عنده والمذكور في قج .

(١٧٣) في قج ، قج : في التقيد .

(١٧٤) في قج : لو .

(١٧٥) في قج : وشهد .

(١٧٦) في قج : تقيد .

(١٧٧) في قج ، قج : أو .

(١٧٨) ساقطة في قج .

(١٧٩) في قج : بشهادة .

(١٨٠) ساقطة في قج .

(١٨١) في الاصل : اليمين والمذكور في النسختين الآخرين .

(١٨٢) ساقطة في قج .

(١٨٣) في قج ، و .

(١٨٤) في قج : رحكم الله وفي قج رحك الله .

من رجل وقال البائع : بعته بالبراءة وجردته بين يدي المشتري .

وقال (المبتاع) (١٨٥) : انما عرضته على الطبيب . فقال به غديدة لا تضره .

فقاله البائع : هذه الغديدة انما صارت من (حناء حملتها) (١٨٦) على رأسه .

وقال المبتاع به عيوب غيرها .

فلما قيل لي يجب (بها) (١٨٧) الرد عليك وقد باعه من غيرك فرد (عليه) (١٨٨) بهذا العيب فاكتب الي بما يجب في ذلك لأحملهما على الحق ان شاء الله (عز وجل) (١٨٩) .

قال ابن لبانة :

فهمت وفقك الله ما ذكرته ، وبيع المسلمين على العهدة فمن ادعى (البيع) (١٩٠) على البراءة فعليه البينة ، وان عجز حلف المشتري ، وله رد اليمين على البائع ، وعلى المبتاع اثبات العيوب التي ادعاها ،

فإن كانت قديمة ولم يصح (١٦٨) بيع البراءة وجب الرد ، وان صح بيع البراءة فعلى البائع اليمين أنه ما علم بهذا العيب ، فان نكل رد عليه (اليمين) (١٩١) وان حلف لزم المشتري والله الموفق للصواب .

الوثيقة السابعة :

(من استأجر طبيباً ليكيه ثم بدا له وهل يجوز الكي) (١٩٢)

(١٧٨) سئل ابن عتاب عن رجل شكى الى (طبيب) (١٩٣) ألما (بركبته) (١٩٤) فقال (له) (١٩٥) : الطبيب :

أكويك في الركبة وتفيق ان شاء الله (عز وجل) (١٩٦) . فاتفق معه على أجرة دفعها (الشاكي اليه) (١٩٧) وانصرف عنه ليرجع (اليه) (١٩٨) ويكيه ثم بدا له .

وسأل الطبيب الاجرة ليردها عليه فأبى من ذلك الطبيب . واحتج الشاكي بأن الكي لا يجوز .

(١٨٥) في ق ب : المشتري .

(١٨٦) في ق ب : أجل حل حله .

(١٨٧) في ق ب : اليه .

(١٨٨) ساقطة في ق ب ، ق ب .

(١٨٩) ساقطة في ق ب ، ق ب .

(١٩٠) في ق ب ، ق ب الابعاع .

(١٩١) ساقطة في ق ب ، ق ب .

(١٩٢) بها في ق ب .

(١٩٣) في ق ب رجل .

(١٩٤) في ق ب : في ركبته .

(١٩٥) ساقطة في ق ب .

(١٩٦) ساقطة في ق ب ، ق ب .

(١٩٧) في ق ب ، ق ب : الى الطبيب .

(١٩٨) في ق ب ، ق ب : اليه الشاكي .

فأجاب :

آله التي بها (تكوي) (٢٠٩) موقد (٢١٠) يكون
بحديد مصنوع وبمنجل الحصاد وبعود .

فان كانا وصفا لكي وعوده وآله فالاجرة لازمة
(له) (٢١١) وان كانا (أهملًا ذلك) (٢١٢) ولم
يصفاه ، وهو مختلف الهيئة والصفة فذلك غير جائز
ولا تلزم فيه الأجرة وبالله التوفيق .

الوثيقة الثامنة :اختلاف الطبيب والمداوي على الاجرة

من أحكام ابن زياد كشفنا القاضي - رضي الله
عنه - في امرأتين اختلفتا في مداواة صبيتين
لاحداهما . فقالت صاحبة الصبيتين : ما عملتك
بائتي عشر درهما . وقالت الطبيبة : (بأربعة
دنانير) (٢١٣) .

الكي جائز غير ممنوع منه وقد كوى النبي صلى
الله عليه وسلم (أسعد بن زرارة) (١٩٩) واكتوى
(ابن عمر) (٢٠٠) من (اللقوة) (٢٠١) .

ولا يصح عن النبي (صلى الله عليه
وسلم) (٢٠٢) النهي عنه وانما جاء عنه ، وقد ذكر
العدد الذين يدخلون الجنة من أمته بخير حساب
فقيل (له) (٢٠٣) من هم يا رسول الله ؟

(قال) (٢٠٤) : هم الذين لا يسترقون ولا
يكتوون وعلى ربهم يتوكلون . وليس هذا بنهي
(انما) (٢٠٥) (أخبر) (٢٠٦) (أنهم) (٢٠٧) أخذوا
في أنفسهم (بأشد) (٢٠٨) الأمور .

الا أن الكي الذي سألت عنه لم يذكر عدده ولا

(١٩٩) أسعد بن زرارة : وهو الصواب وفي جميع النسخ « سعد بن زرارة » وأسعد بن زرارة بن عدس بن عبيد بن غنيم بن مالك . أبو امامة شهد العقبة
الاولى والثانية وباع فيها وتوفي قبل بدر بالذهبة والمسجد بيني فكهوا النبي صلى الله عليه وسلم دفن بالقيع وهو أول مدفون به في شوال على رأس ستة أشهر
من الهجرة . انظر ابن سعد : الطبقات الكبرى جلد ٣ ص ٦٠٨ ، ابن عبد البر : ترجمة ٣٠ ، ابن الاثير : اسد الغابة ترجمة ٩٨ .
(٢٠٠) ابن عمر : عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفيل أبو عبد الرحمن أسلم مع أبيه وهو صغير لم يبلغ الحلم وقد قيل ان اسلامه قبل اسلام أبيه ولا يصح وانما
كانت هجرته قبل هجرة أبيه . انظر : ابن سعد : الطبقات الكبرى : جلد ٢ ص ٣٧٣ ، ابن عبد البر : ترجمة ١٦١٢ ، ابن الاثير : تهممة ٣٠٨٠ .
(٢٠١) اللقوة : داء يعرض للوجه يعرج منه الشدق . انظر لسان العرب مادة - لقاه .
(٢٠٢) في قبح ، قبح . عليه السلام .

(٢٠٣) مذكورة في قبح .

(٢٠٤) في قبح : فقال .

(٢٠٥) في قبح : وانما .

(٢٠٦) في قبح : بأنهم .

(٢٠٧) ساقطة في قبح .

(٢٠٨) في الاصل : بأشهر والمذكور في النسختين الأخريين .

(٢٠٩) في قبح : يكو به .

(٢١٠) في الاصل : وقد والمذكور في النسختين الأخريين .

(٢١١) مذكورة في قبح .

(٢١٢) في قبح : أهملاه .

(٢١٣) في ج : بأكثر من ذلك .

المعاملة على البرء ، فان كانت الطيبة أخذت شيئاً رده ، وأيتها نكلت عن اليمين فالقول قول الحالفة ، وان نكلتا جميعاً انفسخ ما بيننا ، وكذلك ان حلفتا جميعاً .

قال القاضي (ابو الأصمغ) (٢١٧) :

في هذا الجواب نظر عندي فتدبره .

(ثم تحلف المرأة الثانية ما عامله) (٢١٤) ولم تبرأ الصبيتان (ببعد فالذي عندنا في ذلك أن) (٢١٥) تحلف الطيبة بالله في مقطع الحق لما جعلت عمل يديها الا بأربعة دنانير ، ثم تحلف المرأة الثانية ما عاملتها الا باثني عشر درهما ثم ينفسخ (فيما بينهما) (٢١٦) ولا شيء للطيبة فيما عملت ، ين الطبيب عندنا لا يجب له شيء الا بعد البرء اذا كانت

(٢١٤) ساقطة في قب ، فج .

(٢١٥) في فج : لأنها تتحالفان .

(٢١٦) في فج : ما بينهما .

(٢١٧) مذكورة في قب .

المراجع

- ابن أبي أصيبعة : (مؤلف الدين ابو العباس احمد بن القاسم) عيون الانباء في طبقات الأطباء (٣ أجزاء) ، دار الثقافة ، ١٩٧٩ ، بيروت .
- ابن الأثير : (ابو الحسن علي بن أبي الكرم) أسد الغابة في معرفة الصحابة ، كتاب الشعب ، ١٩٧٠ ، القاهرة .
- ابي سعد : (ابو عبد الله محمد بن منيع البصري الزهري) الطبقات الكبرى ، دار صادر ، ١٩٥٧ ، بيروت .
- ابن سهل : (أبو الاصبغ عيسى الاسدي) . الاحكام الكبرى (مخطوط) نسخة مكتبة الزاوية الناصرية ، بتمكروت رقم ١١٨٩ من مخطوطات الاوقاف رقم ٨٣٨ ق الخزانة العامة - الرباط .
- ابن عبد البر : (أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد) الاستيعاب في معرفة الاصحاب ، تحقيق علي محمد البجاوي ، مكتبة نهضة مصر ، بدون تاريخ .
- ابن فرعون : (برهان الدين ابراهيم بن علي بن محمد) الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب ، (جزءان) تحقيق د . محمد الاحدي أبو النور ، دار التراث ، بدون تاريخ .
- ابن الفريسي : (ابو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الازدي الحافظ) تاريخ علماء الاندلس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦ ، القاهرة .
- الحشتي : (أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد القيرواني) . قضاء قرطبة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦ / القاهرة خلاف (محمد عبد الوهاب - دكتور) :
- صاحب الرد والمظالم في الاندلس ، مجلة كلية الآداب والتربية ، جامعة الكويت ، العدد ١٤/١٩٧٨ ، الكويت .
- القضاء في قرطبة الاسلامية في القرن الخامس الهجري . تحت النشر .
- وفائق في احكام قضاء اهل الامة في الاندلس ، الطبعة الاولى المركز العربي الدولي للاعلام ، ١٩٨٠ ، القاهرة .
- وفائق في أحكام القضاء الجنائي في الاندلس ، الطبعة الاولى المركز العربي الدولي للاعلام ، ١٩٨٠ ، القاهرة .
- ياقوت : (شهاب الدين أبي عبد الله بن عبد الله الحموي الرومي) معجم البلدان ، الطبعة الاولى ، مطبعة السعادة ١٩٠٦ ، القاهرة .



صَدْرُ حَدِيثًا

تعريف بالمؤلف :

مؤلف هذا الكتاب فلسطيني المولد ، تشبع
بالثقافة الغربية حتى أصبح من رواد العلوم الانسانية
في العصر الحديث .

ولد ادوارد وليم سعيد في مدينة القدس في عام
١٩٣٥ ودرس منذ طفولته في مدارس انجليزية وفرنسية
في فلسطين المحتلة ثم في مصر ، وبعد ذلك هاجر مع
أسرته الى الولايات المتحدة الامريكية وهو ما زال في
مقتبل العمر حيث درس الادب الانجليزي في جامعة
برنستون وتخرج فيها في عام ١٩٥٧ ، ثم أتم دراسته
العليا في جامعة هارفارد حيث تقدم بأطروحة دكتوراه
في عام ١٩٦٣ بعنوان :

Joseph Conard and the Fiction of
autobio graphy

جوزف كونراد ، وفن السيرة الذاتية في القصة

ولقد ظهرت هذه الرسالة في كتاب مطبوع في عام
١٩٦٦ . عمل ادوارد سعيد لفترة وجيزة كمدرس في
هارفارد ، ثم انتقل الى جامعة كولومبيا التي ما زال
يعمل بها كأستاذ للنقد الادبي والادب المقارن ،
أصدر هذا الكتاب الذي تقدمه للقارئ العربي في
عام ١٩٧٥ ، وأصدر في نهاية عام ١٩٧٧ كتابا
أحدث ضجة في الاوساط الادبية في أوروبا وأمريكا
بعنوان : **orientalism** الاستشراق *

أوليات الهَدَف والطريقة

عبد الوهاب على العكي

تأليف : إدوارد وليم سعيد

✽ انظر مقال الدكتور أحمد أبو زيد في مجلة عالم الفكر ، المجلد العاشر - العدد الثاني يوليو ، أغسطس سبتمبر ١٩٧٩ بعنوان « الاستشراق والمستشرقون » ص ٥٣٩ - ٥٦٠ ، والذي استعرض فيه الكثير من الأفكار التي وردت في هذا الكتاب .

وأخبرني في ربيع عام ١٩٧٩ أن له تحت الطبع كتابين :

الكتاب الاول تحت عنوان :

The question of Palestine

السؤال حول فلسطين .

والكتاب الثاني تحت عنوان :

criticism between culture and system

النقد بين الثقافة والنظام .

وأصدر مع زميله الفلسطيني الدكتور ابراهيم أبو

لغد في ربيع عام ١٩٧٩ العدد الاول من مجلة :

Arab studies quarterly

دراسات عربية فصلية . وتصدر هذه المجلة في جمعية الخريجين العرب الامريكان .

عرض الكتاب :

صدر كتاب أوليات : الهدف والطريقة في عام

١٩٧٥ . يقع الكتاب في ستة فصول :

١ - الفصل الاول : أفكار أولية .

٢ - الفصل الثاني : تأمل في الأوليات .

٣ - الفصل الثالث : القصة كبدية الهدف .

٤ - الفصل الرابع : البداية بنص أو بكتاب .

٥ - الفصل الخامس : الكتابة ، العبارة ، الكلام ، علم الآثار ، والبنوية .

٦ - الفصل السادس : فيكو في عمله .

لابد أن نشير هنا الى أن بعض فصول هذا الكتاب سبق أن نشرت في كتب ضمن مقالات متفرقة في النقد الادبي ، مثل الفصل الخامس الذي نشر في كتاب صدر عن مطبعة جامعة شيكاغو في عام ١٩٧٢ تحت عنوان : Modern French Criticism النقد الفرنسي الحديث .

ولكي يتيسر للقارئ العربي الاطاحة بالفكر الرئيسية التي وردت في هذا الكتاب ، سوف أقدم أولا الفكرة الأساسية لهذا الكتاب ، ثم استعرض الافكار الرئيسية التي وردت في كل فصل على حدة . يحاول ادوارد سعيد أن يثبت في هذا الكتاب أن الفكر الاوربي ، وبصورة خاصة في الكتب التي ألفت منذ عام ١٨٧٥ ، ظهر بأفكار راديكالية في طريقة تناول الافكار وترتيبها في الكتب ، طريقة جديدة في الاسلوب . الاسلوب الاوربي الجديد يميل الى طرح أفكار نابذة من فكر المؤلف وذاتية وليست بالضرورة مقيدة بالتراث والعرف الاوربيين . هذه المحاولات الجديدة في الاسلوب لم تظهر فجأة منذ عام ١٨٧٥ ، وإنما بدأت في أوروبا منذ عهد النهضة والبحث والاحياء . يلخص ادوارد سعيد تطور اللغة والاسلوب الاوربيين في الكتابة على مرحلتين : المرحلة الاولى حيث النصوص مربوطة ومقيدة بقواعد التراث وهي مرحلة المحاكاة ، في هذه الفترة الاولى فإن النصوص الادبية لابد أن تحاكي النصوص الكلاسيكية . العلاقة بين النصوص الادبية الجديدة التي تؤلف وبين النصوص الكلاسيكية في هذه الفترة تشبه الى حد كبير العلاقة بين الاب والوالد ، ويعرج في هذا

وطريقة الكتابة الجديدة ؟ هل توجد نقطة بداية للأعمال الأدبية تميزها من الأعمال التاريخية أو النفسية أو الثقافية ؟ هذا الكتاب وبالتحديد الفصول الأربعة القادمة تحاول أن تجيب عن هذه التساؤلات .

المادة التي بني عليها ادوارد سعيد كتابه ، الأعمال الأدبية الأوربية المكتوبة ، لأنه يعتبر الكتابة نوعاً فنياً قائماً بذاته ، طريقة الكتابة - شكل ومضمون النصوص الأدبية الأوربية توضح تطور الفكر الأوربي في أوروبا . الكتابة كما يقول المؤلف في ص ٢٤ « لها عمل خاص بها ، لها أحلامها وحدودها - وكل هذه الأبعاد بدون شك متعلقة ومرتبطة بالوسط النفسي والاجتماعي والتاريخي . »

الفصل الثاني : تأمل في الأوليات :

يعرف ادوارد سعيد البداية بأنها النقطة التي تجعل الكاتب ينظر بعين جديدة في التراث ، انه بعمله الأدبي يساهم في تطور التراث ويعطي بعداً جديداً للأعمال الأدبية القديمة . العمل الأدبي جديد يعيد تفسير التراث ويمدنا بأفكار جديدة عن تطور الفكر البشري . يلاحظ ان هذا التعريف قريب جداً من تعريف ت . س . اليوت للتراث في مقاله « التراث والموهبة »

Tradition and the Individual Talent

هناك بعض الكتاب الذين يمكن ان تعتبر أعمالهم الأدبية بداية في تاريخ الفكر الانساني ، وأسهمت أعمالهم في إعادة صيانة الفكر الانساني مثل مارتن لوتشر ، نيوتن ، بيكوث ، كوبرنيكس ، فرويد ،

التشبيه على أفكار العالم النفساني فرويد ، وسوف نرى فيما بعد أن ادوارد سعيد يناقش في مواضع متفرقة أفكار وكتب فرويد وخاصة كتابه تفسير الأحلام .

أما في المرحلة الثانية فان النصوص الأدبية أصبحت مكتملة لبعضها البعض ، وفي هذه المرحلة أصبحت لغة النصوص الأدبية محررة من التقاليد وأتباع الأساليب والصور والتعابير الكلاسيكية . في هذه الفترة الثانية حرر الفلاسفة والكتاب من أمثال الفيلسوف الفرنسي فيكولوت Foucault وبيكتور Butor وبيكتيت Beckett ، شكل ومضمون النصوص الأدبية من الأسلوب والقيود الكلاسيكية .

الفصل الاول : أفكار أولية :

في هذا الفصل يقدم المؤلف بعض الأفكار الرئيسية التي سوف يناقشها في هذا الكتاب ، ولذلك فهو يقدم هذه النقاط الأساسية في حينه استلزاماً لتبادر الى ذهن أي فرد يناقش هذا الموضوع ، هل البداية مثل الأصل ؟ هل البداية لأي عمل أدبي هي البداية الحقيقية لذلك العمل الأدبي ، أم أن هناك نقطة سرية أصدق لتكون نقطة البداية في العمل الأدبي ؟ الى أي مدى يمكن ان تتجسد نقطة البداية في شكل حسي ملفت للنظر ؟ بأي لغة أو منهج أدبي يمكن ان ندرس الأوليات او نقطة البداية ؟ اذا اعتبرنا الكتابة عملية أدبية مستقلة تقوم على أسس وامور علمية محدودة فيمكن ان نطرح التساؤلات التالية . بعد أي نوع من أنواع التدريب والتعريض يتمكن الكاتب أن يبدأ بالكتابة ؟ بأي موضوع يبدأ الكاتب كتابه ؟ ما هي نقاط الفرق بين طريقة الكتابة القديمة

نيتشه ، صمويل بيكيت ، وبيتور ، وغيرهم من المفكرين المشهورين .

الافكار التي طرحها أولئك المفكرون في أعمالهم الخالدة حررت الفكر الانساني من قيود التراث ، ودفعته الى الابداع والخلق الفني الجديد . يحاول ادوارد سعيد ان يلخص ما أحدثته هذه الافكار الجديدة في التاريخ الفكري ويقدمها كفكرة لم تنل بعد الدراسة اللازمة ، خاصة وأنها ظاهرة من ظواهر الفكر الحديثة .

مصطلح بداية يعطي انطبعا بالزمن والمكان ، أي أن هذه الاعمال الأدبية حدثت في فترة زمنية معينة ، ولها مكان معين ، أي أن لها وسطا تاريخيا نشأت فيه ، ولها موضوع مستقل ، أي قدمت فكرة وموضوعا معينا ، ولها مبدأ معين ، أي أن لها أيديولوجية معينة ، هذه الخصائص توضح بأنها عمل فكري مستقل يهدف الى غناء الفكر البشري ، وفي نفس الوقت الى اعادة تفسير الفكر الانساني بسبب أنه أثار ابعادا انسانية جديدة . إذن فالاوليات هي المحاولات التي يقوم بها المفكرون والادباء لمحاولة اعادة صياغة تراثهم وتحرير الفكر الانساني من قيوده وقواعده الايديولوجية . هذه المحاولات كثيرة ومتعددة في الفكر الاوربي لذلك حاول المؤلف حصر هذه الخصائص وتبيان ملامحها في النقطتين التاليتين :

١ - الصفة الاولى - الفرد مقابل النظام

The Individual versus the system

يضرب سعيد مثلا لهذه الحالة بعالم اللغة

السويسري فرديناند دي سويسر . المعروف ان سويسر كان يبحث عن العلاقة بين الباعث الفردي والنظام اللغوي ، بين اللغة كعامل انساني فردي وبين اللغة كنظام مركب . لقد كان سويسر يبحث في القوة اللغوية للفرد كنظام فطري ركب مع خلق الانسان ، وفي ما يستطيع الفرد ان يغيره في النظام اللغوي العام الذي يخضع للقوانين والنماذج اللغوية المعروفة التي تميز كل لغة والتي تتحكم في تفكير وتصرفات الافراد بحكم أنها تراث ثقافي متداول على مر العصور التاريخية . هناك مثلا آخر يوضح هذه العلاقة ، وهو ان فيكو في كتابه العلم الجديد عارض الذين يقولون بأن اللغة والعادة تنتقل من مكان الى مكان في التاريخ عن طريق التشابه والاستعارة بقوله ان اللغة وكل المنتوجات اللفظية تتبع نظاما متكررا يأتي عن طريق القاموس الفردي الموجود في اللاشعور عند الفرد وعند الجماعة ، ويوجد هذا القاموس عند كل الأمم . بمعنى ان اللغة العربية وجدت بهذا النظام حسب القاموس الموجود في اللاشعور العربي ، واللغة الانجليزية وجدت بهذا النظام حسب النماذج الموجودة في قاموس اللاشعور عند الانجليز . هذه الصفة تبحث في العلاقة بين القوانين العامة المتوارثة والموجودة عند مختلف الأمم ، وبين الموهبة الفردية . هنا يطرح السؤال الذي ينتج عن هذه العلاقة وهو من أين يبدأ الفرد ؟ وهل تكون البداية من عند مستوى النفس الفردية ام تكون عند القوانين العامة ؟ وكيف يمكن ان نفعل هذه القوانين العامة الجماعية عن الفردية الذاتية ؟

٢ - الصفة الثانية : البداية الجديدة كتركيب

The New Beginning as Construct

يوضح ادوارد سعيد هذه الصفة بالتساؤلات التي أثارها الفيلسوف فردريك نيتشه حول هومر وملحمتي الالياذة والأوديسة . لقد أثار نيتشه عدة تساؤلات حول هومر وهل هو كان شخصا معينا أم اسم أطلق ليوضح بداية هذين العاملين الخالدين ؟ في أي عمل أدبي خالد مثل هذه الاعمال تكون لدينا اشارتان الى مؤلفين . لدينا اشارتان الى هومر . هومر الاول هو اسم الشاعر الذي ارتبط اسمه بهاتين الملحمتين . أما هومر الثاني فهو الرمز الذي يكمن وراء الصور والافكار والتعابير الشعرية التي صبت في هذا العمل الأدبي على مر التاريخ الأدبي الاوربي . هومر الثاني هو الرمز الذي يرمز الى جمع وتكوين وتركيب هذه الصور الادبية المتفرقة . فكرة هومر الثاني تقوم على أساس أن النص الأدبي على مر التاريخ ليكتسب أفكارا جديدة ، والاعمال الادبية الخالدة مثل أعمال هومر وشكسبير وملتون وت . س أليوت هي الاعمال التي تنجم مع تطور الزمن . اذا كان النص الأدبي الخالد ينمو ويتطور مع الزمن فأين تكمن البداية الحقيقية للنص الأدبي ؟

للإجابة على هذا السؤال يناقش ادوارد سعيد أفكار فرويد في تركيب الاحلام ، لأنه يعتقد بأن الناقد الأدبي الذي يعيد تركيب النص الأدبي يمكن أن يستفيد من الطريقة التي قدمها فرويد

لإعادة تركيب الاحلام . المحلل النفسي او الطبيب النفسي يمر بمراحل حتى يصل الى تركيب الحلم . في المرحلة الاولى يعود الى تركيب الحلم من الكلمات المتقطعة والآثار التي يتركها الحلم على الحالم . المريض قد ينسى حادثا مهما ولكنه يذكر بالتفصيل بعض الامور التي تحيط بهذا الحادث ، وهنا يدرك الطبيب ان هناك عوامل نفسية واجتماعية تكبت هذا الحادث في عالم اللاشعور وتمنع ظهوره عن عالم اللاشعور الى عالم الشعور . يقوم الطبيب بتحليل كلمات الحلم المتقطعة والعبارات المفككة ، وحسب أفكار فرويد ، فإن المتناقضات اللغوية قد تشير الى معنى واحد - المعنى المتعارف عليه وعكس ذلك المعنى . لقد وجد على سبيل المثال عند قدماء المدرسين ان بعض الكلمات والجمل في مواقف معينة قد تشير الى معنى هو عكس المتعارف عليه عرفيا ولغويا . يمثل هذه الطريقة يستطيع الناقد الأدبي ان يعيد تركيب النصوص الادبية ويتوصل الى البداية كظاهرة نفسية فردية وكظاهرة اجتماعية تكمن في نفس كل فرد . يلاحظ ان تقاس هذه المواضيع النقدية بطرح صورة عامة في هذا الفصل وسوف يعود المؤلف الفاضل الى بحث بعض هذه الامور بصورة تفصيلية في الفصول القادمة .

الفصل الثالث : القصة كبداية الهدف :

يناقش هذا الفصل ، وهو أطول فصول الكتاب ، نشأة القصة في أوروبا وكيف أنها كانت

٣- ان الشخص الذي يستعمل هذه القوة يتحكم فيما ينتج عنها .

٤- ان هذه السلطة مستمرة ومتواصلة في التراث الادبي .

المصطلح الثاني ، الازعاج او الارباك المباشر : Molestation وهذا يعني الشعور الذي يحس به كاتب القصة او البطل عندما يدرك الفراغ والتناقض بين حياة القصة والحياة العادية اليومية . انه الفراغ او الفرق الذي ينتاب الكاتب او البطل او القارئ عندما يدرك البون الشاسع بين حقيقة الحياة في القصة وحقيقة الحياة في صورها العادية اليومية .

بعد ذلك يطرح سعيد ثلاث فرضيات ظهرت عند نشأة القصة ، وهذه الفرضيات تبين العلاقة بين التجربة المعروضة في القصة وبين التجربة في الحياة العادية اليومية :

١- لا توجد سلطة واحدة بدأت القصة ، وإنما القصة كتجربة فنية تكونت من أصوات متعددة ، وهذه الاصوات والخبرات تنحو مع مرور الزمن وتزداد التجربة الفنية عمقا مع تطور التاريخ .

٢- عمق التجربة التي تعكسها القصة . يمكن ان نقيس عمق التجربة الفنية من خلال بعض الخطوط الرئيسية التي رسمها فيكو في كتابه العلم الجديد .

يعتقد سعيد بناء على ما أورده فيكو في كتابه المذكور بأن القصة تتضمن ثلاثة عناصر أساسية -

هدفا للأبعاد النفسية والتاريخية والاجتماعية الخاصة بحياة المؤلفين والعامّة المفلفة بالشعوب التي ترتبط بها . تلك القصص صورت العلاقة بين النص ، كصورة للأبعاد الاجتماعية والنفسية للمؤلفين من ناحية ، وللشعوب الاوربية من ناحية أخرى . ثم في نهاية هذا الفصل يعرج على التأثير الذي تركه شكل وتركيب الفضة على شكل وتركيب النصوص الادبية في العلوم الأخرى مثل التاريخ والاجتماع وعلم النفس وغيره من العلوم الانسانية ، في القرن التاسع عشر ، ويضرب مثلا لهذا التأثير تحليله لكتاب تفسير الاحلام لفرويد .

عندما يحلل ادوارد سعيد العلاقة بين القصة كحدث فني وبين الكاتب كإنسان صاحب تجربة يبدو واضحا أثر فرويد ونظرية التحليل النفسي على شرح وتحليل تلك العلاقة . لتوضيح العلاقة بين القصة والكاتب والقارئ يطرح في بداية هذا الفصل مصطلحين :

١- السلطة : Authority

يشخص هذا المصطلح الفرد الذي يخترع او يعطي حياة بشي ما . وقد يكون هذا الفرد مؤلفا او صانع عبارة او مخترعا . ويشبه المخترع او المؤلف في هذه الحالة مثل الوالد الذي يشعر بقوة العظمة والسلطة والانجاب . يتميز هذا المصطلح بالخصائص التالية :

١- مقدرة الفرد بأن يبدأ عملا ما .

٢- هذه القوة والانتاج الذي يكون نتيجة لما اخترعه يزيد في الانتاج الادبي .

يطرح المؤلف خمس نقاط توضح العلاقة بين شكل القصة الاوربية في القرن الثامن عشر والتاسع عشر والمؤلفات في العلوم الانسانية ممثلة بكتاب فرويد تفسير الاحلام :

١ - الخاصية الاولى الاكاديمية . النص يتكون من حوادث ومواقف ثم نصوص تشرح وتوضح هذه الحوادث .

٢ - المنطقية في التركيب ، وهذه المنطقية توجه القارئ بصورة تدريجية الى النقاط التي يهدف اليها المؤلف .

٣ - ان النص مشحون بالمواقف والاحداث وان تكون هذه المواقف والاحداث متناسقة مع المعاني التي يهدف اليها المؤلف .

٤ - النص يتكون من مجموعة من الوحدات المنفصلة ولكن في نفس الوقت متكاملة وفي نفس الوقت منسقة بصورة تدريجية .

٥ - ان النص مترابط بمفاهيم متوارثة ومعروفة في النصوص الاوربية . مثلاً له بداية ووسط ونهاية . وتكون العلاقة مبنية على أساس مؤلف ونص ، نص ومعنى وقارئ وعملية تفسير .

ملخص ما يهدف اليه سعيد بأن كتاب تفسير الاحلام يحتوي على مجموعة من الاحلام وتحليلها ودراسة للطريقة التي يتبعها المحلل النفسي لمعرفة مركبات الحلم . الحلم في شكله المكتوب يشبه الى حد كبير القصة من حيث ان له نقطة يدور حولها وله قيمة وله هدف وكلماته تصورات حالات نفسية واجتماعية . اذن

الشخصية الانسانية ، التاريخ البشري ، واللغة . تقابل هذه الثلاثة العناصر ثلاثة مصادر وهم القوة المقدسة ، الانسان او البشر ، الطبيعة . مع هذا التقسيم تدخل الثلاثة المراحل التي يعتقد فيكون بأن التاريخ البشري مر بها ، وهذه المراحل :

١ - مرحلة القوة المقدسة .

٢ - مرحلة المعاقلة او مرحلة الكهوف .

٣ - مرحلة تكوين الأسر والنواة التي تكون العوائل الانسانية .

هذه المواضيع التي عرضها سعيد في الفرضية الثانية هي تمثل التيات التي كونت عليها القصة الاوربية في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر . أغلب التيات التي بنيت عليها قصص مثل دون كيكوت وروبينسن كروزو وتدل مارشر تدور حول اعادة تركيب التاريخ البشري والعلاقة بين الفرد والمجتمع والتداخل بين العواطف والمشاعر والاحاسيس الفردية والجماعية .

الموضوع الثاني الذي ناقشه المؤلف الفاضل في هذا الفصل يبين الأثر الذي تركه شكل وتركيب القصة على شكل وتركيب القصة في العلوم الاخرى ، وقد استخدم سعيد كتاب فرويد تفسير الاحلام كمثال يوضح هذا التأثير .

ان أسلوب وتركيب تفسير الاحلام يوضح نقاط التتابع او التدرج المنطقي الذي يخضع لعلاقة التابع والمتبوع والوالد والابن ، وهذا النوع من التركيب يميز القصة الاوربية في القرن الثامن عشر .

فعمل المحلل النفسي يشبه الى حد كبير عمل الناقد الذي يحلل القصة وأبعادها ، وسوف يتعرض هذه النقطة بالتفصيل في الفصل الرابع .

٤ - الفصل الرابع : البداية بنص او بكتاب

هذا الفصل يمثل المرحلة الثانية ، وهي مرحلة تحرير النصوص في العلوم الانسانية من القيود والنماذج الكلاسيكية . وتبدأ هذه المرحلة تاريخيا مع نهاية القرن التاسع عشر وحتى العصر الحديث . مع ظهور الكتاب المحدثين من أمثال بودست ، وجويس ، ولورانس العرب ، وأوسكار وايلد ، وهوبكنز ، وكونراد حيث تحللت النصوص الادبية الاوربية من القيود والتراكيب المتوارثة ، وأصبحت النصوص الادبية تخضع لشكل جديد . لقد خلص هؤلاء الكتاب طريقة عرض وأسلوب النصوص الادبية الاوربية من القيود التي رسمها أرسطو . من أسباب هذا التغير أن الفكر الانساني كان يخضع لقوانين منطقية وحقائق معدودة مفهومة ، اما الانسان الحديث فيؤمن بأنه لا توجد حقائق محدودة في الحياة . النصوص الادبية الحديثة مثل الارض الموات للشاعر الانجليزي إليوت ، واسلوب الرواية الجديدة لا تعطي معلومات وحقائق محدودة بقدر ما تثير تساؤلات وتفتح أبعادا ومنافذ جديدة للفكر الانساني . النص الادبي الحديث لا يعطي معنى محددا بقدر ما يحزر الفكر الانساني من المعاني المرسومة والمحددة . الكاتب في العصر الكلاسيكي كان يطعم بتقليد واتباع قوانين الاسلوب المتوارثة ، اما المؤلف في العصر الحديث وخاصة بعد ظهور الرومانتيكية في أوروبا أصبح يبحث

عن ذاته ويصور فنه فيما يكتب . الكتاب الحديث تعبير عن الذات الفنية ، اما الكتاب القديم فهو تعبير عن المفاهيم والمعايير والاعراف الاجتماعية المتوارثة في فن الكتابة . ان كتاب الرواية الجديدة من أمثال روب جرييه وميشال بيتور وساروت حرروا النصوص الادبية من قيود الاسلوب القديمة ، وأصبح تركيب النص يعتمد على الابداع الفني الفردي والوسائل التي يطرحها الكاتب لكي يعبر بها عن ذاته الفنية المتميزة وهذا يفسر وجود أساليب متعددة في الرواية الحديثة .

يقدم ادوارد سعيد أربعة خصائص تميز الاسلوب الادبي الحديث :

١ - فترة التفكير في الكتابة ، وهي الفترة التي تتكون فيها الارادة او الرغبة في الكتابة ، ويلاحظ ان هذا الهدف كدافع نفسي يتكرر في حياة وأسلوب المؤلف .

٢ - في هذه المرحلة الثانية يحاول المؤلف بأن يعطي معنى لما يكتب ولكن نجاح هذا المعنى وإتمامه امر صعب ويختلف عن اعطاء المعنى او وضع المعنى التام . كل كاتب له أسلوب خاص به ، والاسلوب من ناحية علم القواعد هو الوسيلة التي بواسطتها يربط الكاتب بين مختلف الرموز ، واما الاسلوب من ناحية علم المعاني فهو الوسيلة التي بواسطتها يربط الكاتب بين الرموز والنصوص التي تحمل هذه المعاني . اذن فالكاتب يجمع ويشكل هذه الرموز لكي تعطي معنى معيناً ، ولكن ادراك هذا المعنى أمر يختلف ولا يستطيع ادراكه بصورة عامة .

تتلخص مميزات الفكر الفرنسي الحديث في الخصائص التالية :

١ - المعرفة تدرك على أساس انها وحدة منفصلة ، بمعنى ان الباحث او الناقد يركز على المعرفة كوحدة منفصلة لا بد أن تحلل وتفصل في تركيبها الداخلي أولا قبل أن نبحث عن علاقتها بالمعلومات الاخرى .

٢ - الايمان بأن المعرفة تدرك على أساس واحداث مستقلة ، دفع البحوث التحليلية خطوات الى الامام وبالتالي ظهرت عيوب ونقاط ضعف الطريقة العلمية التي تقوم على التحليل التاريخي . ولذلك فان هذه الطريقة او هذا المنهج العلمي يفترض تحليل وتفصيل وتفكيك المعرفة الى جزئيات منفصلة قبل أن ننظر في العلاقات ونقاط التلاقي كما هو معروف في وسائل البحث القديمة .

٣ - نتج عن هذا التحليل والتفصيل في المعرفة نوع من عدم الثبات والاستقرار العلمي وكثرة الآراء والاختراعات الفكرية في طرق تحليل أساليب النصوص الادبية .

٤ - هذا المجهود الفكري للعقلية الفرنسية الحديثة ، والذي يعتقد سعيد بأنها أبرز عقلية اوروبية ساهمت في بناء الفكر الحديث وقامت ببحوث في العلوم الانسانية أفضل من البحوث التي تمت في بريطانيا وامريكا ولكنه يستثنى عالم اللغة الامريكي تشومسكي ويطعن في النظرة النقدية الشاملة التي تميز بها الناقد الكندي نور قبس نواي ، ابقث بريق أمل في التوصل الى نتائج علمية ايجابية في تحليل النصوص الادبية .

٣ - النصوص الادبية الحديثة ترغم الفارئ على التكرار والاعادة ، لانه يحتاج الى وقت حتى يدرك أسلوب وتكنيك ذلك الكاتب بالاضافة الى فك رموزه .

٤ - ان النصوص الادبية الحديثة تتميز بأن الكاتب في نهايتها يشعرنا بحب الاستمرار . بمعنى أنه عند نهاية القصيدة او الفصة لا نشعر بأن الكاتب يريد ان يثقف عند تلك النهاية ، وانما يوحي الينا بأنه يريد أن يستمر في الكتابة وعرض تجربته القادمة .

هذه الخصائص الاربع توضح بأن النص الادبي الحديث أصبح أكثر خصوصية ، ويمثل تجربة فنية في يده . ان النص الادبي الحديث هو بداية في حد ذاته لانه يعكس تجربة فردية تقوم على أساس التحرر من قيود الاساليب الاوربية الكلاسيكية .

الفصل الخامس : الكتابة ، العبارة ، الكلام ، علم الآثار ، والبنوية .

اذا كان ادوارد سعيد استعرض فن تركيب وشكل الرواية الحديثة في الفصل الرابع ، فانه في هذا الفصل استعرض دور النقد الاوربي الحديث ممثلا في البنوية ، في تحليل وتركيب النصوص الادبية الحديثة وتطوير الاسلوب الادبي الحديث . مع انه يناقش افكار رواد مدرسة البناء من أمثال ليفي شتروس ورونالد بارث ، ويستعرض الخصائص الفكرية التي تميز بها العقل الفرنسي الحديث . الا انه يركز بصورة خاصة على مايكل فيكولت Michel Foucault .

يركز ادوارد سعيد على مايكل فينكلوت ويستعرض أفكاره التي وردت في كتابين من أهم كتبه وهما :

تنظيم الأشياء :

The order of Things

علم حفريات المعرفة :

The Archeology of knowledge

يعتقد فينكلوت بان الانسان هو محور العلوم ، واللغة هي الوسيلة التي يعبر بها الانسان عن موقفه واتجاهاته ، وهي في نفس الوقت الوسيلة التي نستطيع ان نحلل وندرس بواسطتها الانسان . اهم العلوم لديه هي علم الاحياء ، الاقتصاد ، علم اللغة . كل علم من هذه العلوم يرتبط بنوع من المعرفة يأتي مساعدا او معتمدا عليها . في الدرجة الثانية في علم الاحياء يأتي علم النفس كنوع مرتبط بالاحياء كمجال لمعرفة الانسان ، وبعد الاقتصاد يأتي علم الاجتماع ، وبعد اللغة يقع الادب وعلم الخرافة . العلوم المساعدة تساعد العلوم الاساسية في تغير كينونة الانسان . نظرا لأن فينكلوت يهتم بالانسان ووجوده البشري فان فكره يتميز بالخاصيتين التاليتين :

١ - الاهتمام بالبعد في التفكير البشري ولذلك هو يركز على العلاقة بين اللغة والفكر .

٢ - الناقد يعيد تركيب النص الادبي وكل عنصر من عناصر ذلك النص له علاقة بتحليل ذلك النص . فتحليل المسرحية يعتمد على تحليل الشخصيات واللغة والملابس والحركات وأثاث المسرح وطريقة وضع الأثاث وطريقة دخول الممثلين والطريقة التي

يتكلمون بها واتجاه حركات الاطراف وكيفية ترتيب هذه الحركات - كل هذه الامور تساهم في تحليل النص المسرحي . لذلك فان الناقد لابد ان يبحث في جميع هذه الامور المحيطة بذلك النص ومن هنا جاء التشبيه بعلم الحفريات . الناقد الادبي يحفر في جميع هذه الامور الثقافية ويعيد ترتيبها ، ويلاحظ هنا ان اعادة تركيب النصوص الادبية يشبه اعادة تركيب وترتيب الاثار التاريخية القديمة .

يطرح فينكلوت اربعة عناصر تميز الاسلوب الاوربي :

١ - عنصر القلب :

Principle of reversibility

أي نص أو أي كتاب يمثل كلام المؤلف ، ويمثل كذلك الوسط الاجتماعي والعلمي الذي ينتمي اليه . العلاقة بين الاسلوب والمؤلف مقيدة بالقواعد التي تحدد شخصية الكاتب والوسط العلمي الذي ينتمي اليه . العلاقة بين الاسلوب والمؤلف مقيدة بشخصية الكاتب والوسط العلمي الذي ينتمي اليه . الطبيب الذي يريد أن يؤلف كتابا في الطب لابد أن يكون دارس طب . النص الذي يكتبه يرتبط بالاسلوب في الطب وبالمؤلفات الطبية السابقة ، لابد أن يستفيد من أسلوبها وطريقة كتابتها . على هذا الاساس ، فهذا المؤلف لا يعتبر اختراعا وابداعا بالمعنى الرومانتيكي للكلمة وانما جزءا من تراث معين حقيقي بقواعد للاسلوب في تلك النصوص ، وفي نفس الوقت أسهم في تطورها عن طريق امدادها بمعلومات جديدة وأسلوب جديد . اذن وصفنا لهذا المؤلف بأنه مصنف

أ - Formation التركيب . هذا القانون يبين لنا نوع الفن . بمعنى أن هذا الفن أدب وذلك الفن زراعة او كيمياء الخ . هذا القانون يحدد قاعدة التركيب او مضمون الفن .

ب - Transformation التحول

وهذا القانون يحدد كيف تتحول اللغة العامة الى لغة خاصة بنوع الفن . انه الطريقة التي تتحول به اللغة العامة الى لغة اقتصاد اولغة أدب اولغة طب .

ج - correlation الترابط ،

هذه القاعدة تحدد العلاقة بين الاساليب في الفنون المختلفة . انها تحدد العلاقة بين الاسلوب في الطب والاسلوب في الادب والاسلوب في الزراعة على سبيل المثال . وتحدد كذلك العلاقة بين الاسلوب والقاعدة السياسية والثقافية والاجتماعية والتاريخية للمجتمع الذي تنتمي اليه . فمثلا لغة النقد الادبي في المجتمع الشيوعي تختلف عن لغة النقد في المجتمع الرأسمالي .

٤ - عنصر الخروج :

Principle of Exteriority

هذا العنصر يتعلق بموضوع الذاتية والموضوعية في المفاهيم العلمية ، ولذلك فهو يفرق بين التفكير واللغة . التفكير له اتجاه داخلي وأما اللغة فلها اتجاه خارجي . اللغة هي حلقة الوصل بين الذات (عالم الفرد الداخلي) وبين الموضوع (العالم الخارجي) . اذن فاللغة ترتبط بعنصر التفكير للفرد وبالمعاني التي فرضت من التراث على اللغة (وبالتالي على الذات في العالم الخارجي) .

جديد بسبب أنه أسهم في امداد ذلك التراث ، ويجعلنا نعيد النظر في تقييم المؤلفات السابقة في نفس التراث بسبب الابعاد الجديدة التي طرحها .

٢ - عنصر عدم الاستمرار او الانفصال :

Principle of Discontinuity

في لغة القرن السادس عشر ، الانسان الصالح كان يصور لغويا في صورة آلهة ، اما الانسان الشرير فيصور في صورة شيطان . اما في القرن التاسع عشر مع ظهور النظريات الحديثة ، فلقد تغير هذا التقسيم وأصبح تصوير الانسان يعتمد على العلاقة بين الله - الانسان - الطبيعة . اللغة في الماضي كانت تصويرية ، اما اللغة في الوقت الحاضر ، فهي تعبيرية .

٣ - عنصر التخصيص :

Principle of specificity

ويتضمن هذا العنصر موضوع العلاقة بين المؤلف وكتابه . كذلك يتضمن تحديد اللغة التي تستخدم في اي فن من الفنون وكيف تصبح تلك اللغة مميزة لذلك الفن . كيف نميز بين اللغة التي تستخدم في الاقتصاد وبين اللغة او الاسلوب الذي يستخدم في الطب او الاسلوب الذي يستخدم في الأدب او الزراعة . يقترح فيكونت لتحديد أسلوب الفن مجموعة من الاجراءات تعرف باسم الاستثناء او العزل :

Exclusion وهذه العملية تتم بموجب

ثلاثة قوانين :

هذه المحاولات العلمية لفصل عناصر اللغة عن الذات الفردية وعن العالم الخارجي يبين اهتمام اصحاب المدرسة البنيوية بمعرفة الاوليات وتحديد نقطة البداية في عالم المعرفة . أغلب رواد هذه المدرسة يؤمن بأن محور العلوم الانسانية هو الانسان واهتمامهم باللغة ناتج عن ايمانهم المتأصل بالانسان وانه محور المعرفة الانسانية . اللغة عامل ملازم للانسان وهي الوسيلة الوحيدة التي يعبر بها الانسان عن المعرفة وبواسطتها يتصل بالعالم الخارجي . اللغة باختصار هي التراث الانساني + اللغة = المعرفة .

لقد اهتم العالم الفرنسي ليفي شتراوس بالانسان البدائي وحاول الوصول الى معرفة الوسيلة التي كان يتصل بها الانسان قبل اختراع الكتابة . يلخص ليفي شتراوس تطور الكتابة الى ثلاث مراحل :

١ - مرحلة الصفر حيث لا توجد كتابة او مرحلة عدم المعرفة .

٢ - مرحلة بداية الكتابة او مرحلة المعرفة .

٣ - مرحلة الاستعباد لقواعد الكتابة حيث اصبح الانسان وبالتالي المعرفة مقيدة بقواعد معينة وحدود فرضت على المعرفة الانسانية .

مدرسة البناء تحاول ان تجرد التراث من العلوم الانسانية . خذ على سبيل المثال فرديناند دي سويسر ، نجده حاول ان يفرق بين الدال والمعنى وكذلك معرفة العلاقة بين الصوت والمعنى ، او نطق الساعة ومعناها واثبات ان هذه العلاقة طبيعية وغير منطقية . هذه المدرسة الفكرية تسعى الى تقنين اللغة

وبيان اهميتها كمفتاح للمعرفة الانسانية وتكوين اسس علمية مجردة لدراسة اللغة ، وبالتالي عن طريق هذه القواعد التي قننت اللغة علميا التوصل الى معرفة القواعد الاساسية علميا للعلوم الانسانية . هذا الذي دفع ليفي شتراوس بأن يستخدم نظام دي سويسر اللغوي ونظام رومات ياكبسون اللغوي في دراسة تركيب نظام العوائل والأسرة وخاصة في الشعوب البدائية . ان أغلب النماذج التي وضعها ليفي شتراوس وغيره من رواد مدرسة البناء يعتمد على معرفة الاوليات ونقطة البداية في دراسة نصوص العلوم الانسانية .

٢ الفصل السادس : فيكو في عمله

يحاول فيكو Vico الفيلسوف الايطالي الذي ولد في عام ١٦٦٨ وتوفي في عام ١٧٧٤ ، في كتابه العلم الجديد New science ، الذي صدر في عام ١٧٤٤ ان يتمكن من معرفة نقطة البداية للتفكير البشري ، ولقد اتخذ من دراسة اللغة المنهج الذي بواسطته يمكن ان يتعرف على هذه الاوليات . يوضح فيكو في تحليله اللغوي للكلمات بأن الكلمة سواء كانت حسية او معنوية فانها يمكن ان تحدد بالقوانين التالية :

١ - الكلمة لها معنى غير محدد .

٢ - القارئ يطلب معنى لذلك فهو يفرض معنى محدد على الكلمة .

٣ - بعد وضع المعنى تبدأ الكلمة في الابتعاد عن المعنى الأساسي وتتكون عدة معان .

الشاعري الخ . يصف العلوم في بداية تكوينها بالشاعرية لانه يهتم بالتراكيب اللغوية في مختلف العلوم والانعكاسات اللغوية وهذا ما يسميه بعلم فقه اللغة .

عن طريق فقه اللغة حاول فيكون يبحث عن لغة عامة مشتركة توضح وحدة المعرفة البشرية وبالتالي تعطي تعريفا لانسان واحد شامل . لقد كان فيكون يبحث عن وحدة المشاعر الانسانية والعوامل التي تجمع بين انسان واحد غير مقيد بالحدود الجغرافية والسياسية والتاريخية عن طريق اللغة ولغة الخرافة . لقد ركز على دراسة لغة الخرافة للأسباب التالية :

١ - ان الخرافة تستخدم لغة تاريخية ، ومعنى لغة تاريخية اي محدودة من ناحية الزمان والمكان ، ولكنها في نفس الوقت لغة عامة ودولية وكما سبها « لغة عقلية عامة على كل الأمم » .

٢ - الخرافة لها منطق قصصي خاص بها ولا يتغير هذا المنطق مع تغيير العصور التاريخية .

٣ - تتميز الخرافة بأنها اختراع أصلي مع انها لا تخص مؤلفا بعينه وهي حكاية عامة .

٤ - نظرا لالتباس المعاني وتعددتها تبرز الحاجة الى الشرح والتوضيح .

على هذا الاساس يشرح فيكون الكلمات وتقارب معانيها ويحاول ان يرجع الكلمات الى أصولها بناء على تقارب معانيها . فمثلا في القانون الروماني كلمة Nomen تعني الحق ، وكلمة Nomos اليونانية تعني القانون ، ومن كلمة Nomos جاءت كلمة Nomis Mo التي تعني النقود ، وكلمة No Mos اليونانية أصبحت NUMUS اللاتينية . في الفرنسية كلمة Loi تعني القانون وكلمة Aloï تعني النقود ، وفي العصور البربرية كلمة Canon تستعمل للقوانين الشرعية والاجرة السنوية التي يدفعها المستأجر للاقطاعي مالك الأرض . يهدف فيكون هذا التحليل الى بيان العلاقة بين العصور المتحضرة والعصور البربرية ، ويخرج من هذا التحليل الى أن الفرضيات التي يقدمها الانسان المتحضر والانسان البربري متساوية وواحدة ، ولعل هذه النتائج من العلاقة بين كلمة قانون ونقود سواء في العصور المتحضرة او العصور البربرية . نظرا لاهتمام فيكون بالاسلوب واللغة ودورها في تفسير المعرفة الانسانية ، لذلك فهو يقسم العلوم في بداية تكوينها التاريخي الى الميتافيزيقيا الشاعرة والمنطق الشاعري ، والتاريخ

APPLIED SCIENCES

- 612.8
LI Ludel, Jacqueline.
Introduction to sensory processes-Jacqueline Ludel.
San Francisco : W.H. Freeman, c1978.
- 616.8588
MR Mental retardation : introduction and personal perspectives edited by James
4 S. Payne : (With a foraword by Norman R. Ellis). Columbus, Ohio : Merrill,
(1975).
- 616.8588
SI Smith, Robert Mc Neil.
6 An introduction to mental retardation (by) Robert M. Smith. New York,
McGraw - Hill (1971).
- 616.8650651
DB Danaher, Brian G.
3 Become an ex - smoker Brian G. Danaher, Edward Lichtensteli....
Englewood Cliffla, N.J. : Prentice - Hall, c1978.
- 616.891408
HG Huber, Jack T., Comp.
8 Goals and behavior in psychotherapy and counseling ; readings and
questions. edited by Jack T. Huber (and) Howard L. Millman. Columbus,
Ohio, C.E. Merrill Pub. Co. (1972).
- 610.955
EM Elgood, Cyril. 1892 -
5 A medical history of Persia and the Eastern Caliphat. The development
of Persian & Arabic medical Sciences from earliest times until the year A.D.
1932... Cyril elgood, 1979.

ARTS

- 745.507
SR Shivers, Jay Sanford, 1930 -
5 Recreational Crafts : programming and instructional Techniques (by)
Jay S. Shivers (and) Clarence R. Calder. New York, McGraw - Hill (1974).
- 745.92
HB Hillier, Florence Bell, 1916 -
5 Basic guide to flower arranging. New York, McGraw - Hill (1974).
- 779.0924
CL Caponigro, Paul, 1932 -
3 Landscape Paul Caponigro. ... New York : Mc Graw - Hill, c1975.
- 779.994256082
VA Victorian and Edwardian Bedfordshire from old photographs introd. and
4 Commentaries by Richard Wildman....London : B.T. Batsford, 1978.
- 791.43
DA Dick, Bernard F.
5 Anatomy of Film, Bernard F. Dick... New York : St. Martin's Press, c1978.
- 792.27
AB Adams, William Davenport, 1851 - 1904.
4 A look of burlesque : Sketches of English Stage Travestie and Parody/
by William Davenport Adams.-Folcraft : Folcraft Library Edition 1978.

يعتبر القرن التاسع عشر هو عصر الكشف الجغرافية في حوض النيل ، وإذا كان محمد علي قد أرسل بعثة عام ١٨٢١ بقيادة سليم قبطان في السودان ، بلغت درجة العرض الرابعة شمال خط الاستواء ، فقد ظلت منابع النيل تلهب خيال الأوروبيين ، هل ينبع النيل من جبال القمر ، وتلوجه الذائبة ؟ أم من نافورات سحرية هناك ؟ ظل الأمر مجهولاً بالنسبة لهم ، في عصر الانقلاب الصناعي ، و بزيادة شهية الأوروبيين للمغامرات والاستعمار .

الكتاب الذي بين أيدينا يعالج قصة من قصص الكشف الجغرافية ولكن بطريقة غير تقليدية ، من خلال قصة حب لعبت فيها الصدفة دوراً كبيراً ، صدفة لقاء حبيبين ، وكان من الممكن ألا يلتقيا .

عالم القصص ، الكشف والحب ، ريتشارد هول بمهارة وذكاء وإنسانية ، من ثم يمكن قراءتها على أنها قصة كشف جغرافي ل منابع النيل ، وفي نفس الوقت لا يمكننا إنكار أننا نقرأ قصة حب في العهد الفيكتوري ، كانت بدايتها في وسط افريقية ، على العموم من أي زاوية رأيت ، وجدت الكتاب ممتعاً .



مغامر من عائلة برجوازية

ولد سير صمويل بيكر* والامبراطورية البريطانية في الأوج ، وغاش في عصر الملكة فيكتوريا ، ذلك أنه ولد عام ١٨٢١ لأب ثري كان يعمل بالتجارة ، كون

عاشقان على النيل

محمد عبد الغنى سعودى

تأليف: ريتشارد هول

✻ كثيراً ما يشار إليه بسام تخليفاً للنطق بدلا من صمويل .

المغامرة تستهويه والصيد

رغم أنه كان مغرماً بالأسلحة النارية فلم يبحث لنفسه عن مستقبل في الجيش ، رغم أن اثنين من أخوته كانا في سلاح الفرسان البريطاني ، بل ذهب (سام) كما كان يطلق عليه لزيارة أخويه اللذين اشتركا في حرب القرم ، وكانا يعيشان في معسكر قرب القسطنطينية ، وترك بناته الأربع في رعاية إحدى أخوته (مين) وقام الثلاثة بصيد الخنازير البرية في البلقان ، وعاد الى بريطانيا ليعلن رغبته في دخول الكنيسة ، رغم انه كان يسخر من البعثات التبشيرية في سيلان ، ويبدو أنه كان يمر بمرحلة انهيار نفسي .

مع المهرجا في البلقان

حينما هبط من اسكتلندا الى لندن عام ١٨٥٨ ، لم تكن في ذهنه خطة معينة يتبعها ، وإذا به يتحرك فجأة في نهاية نوفمبر من ذلك العام ، في رحلة الى شرق أوروبا دون أن يودع بناته ، ولعل هذا يرجع الى أن صديقه المهرجا الهندي دوليب سنج ، والذي كان يصغره بنحو سبعة عشر عاما سيقوم بهذه الرحلة ، وأحسن في سام صديقا وراعيا كبيرا له ، وكان الغرض من الرحلة هو صيد الخنازير البرية الضخمة في الصرب والدببة من جبال ترانسلفانيا ، وبعدها يتجهان الى آسيا الصغرى ، ويرجعان الى روما حيث يأمل المهرجا أن يقابل الامير برتي ولي عهد انجلترا الذي يقضي الشتاء هناك في تعلم اللغة اللاتينية .

ثروة كبيرة ، من مزارع السكر التي كان يملكها في جمايكا ، ولم يشق الاب البرجوازي في تعليم المدارس ، فاعتمد على المدرسين الخصوصيين في تعليم أبنائه ، هكذا تعلم بيكر ما يريد ، وخاصة اللغات ، ونظرا لغرابته اطواره منذ القدم ، فلم يلتحق بعمل ما أو جامعة معينة ، بل تزوج وهو مقبل على العشرينيات من عمره .

قلقا ، مغامرا ، طموحا ، عقلا وجسدا ، يبحث عن الشهرة ، لذلك غادر انجلترا هو وزوجه وبناته الى سيلان حيث أنشأ مزرعة ، ولكن المرض أجبره على العودة الى انجلترا مرة أخرى عام ١٨٥٥ حيث توفيت زوجته بعد ذلك بمدة قصيرة .

عاد اليه القلق الذي يلازمه ، وأحسن ان الزمان يتنكر له ، حينما رفض دكتور لفنجستون ان يضمه الى تلك البعثة المعانة من الحكومة البريطانية لكشف اقليم الزمبيزي ، رغم ما رفعه من وساطة لدى وزير الخارجية ، وبلغ من حرصه على المغامرة ان اقترح القيام ببعثة أخرى في جنوب افريقية تأخذ طريقا آخر كمساعد للفنجستون ، على أن يصرف ألف جنيه من جيبه الخاص ، ولكن رفض طلبه ، وزاد من ظلام الدنيا في وجهه أنه علم أن أحد الضباط الانجليز الذين تعرف عليهم في الشرق ، يقود بعثة استكشافية في افريقية بحثا عن منابع النيل ، وكان هذا الامر مثيرا للجغرافيين بعامة في تلك الفترة ، ولم يكن هذا الضابط سوى سبيك ومساعدته برتون اللذين ذاعت شهرتهما فيما بعد ، ويرتبط اسم صمويل بيكر بها حين يأتي ذكر الكشوف الجغرافية .

من الفتاة ؟

انشغل بيكر بفتاته عن صديقه الذي فضل الرجوع الى بريطانيا ، ولكن من هي فلورنس ، عن سام بيكر أنه قال : ان المفاتيح الاولى لقصتها تبدأ عندما كانت طفلة ، تذكر الطلقات النارية والسيوف والجثث والنيران ، ذهبت كل عائلتها خلال ثورة عام ١٨٤٨ ، ونجت فلورنس لأنها استطاعت الاختفاء ، وكان اسمها فلورنس بربارا ماريا كاثوليكية ، تعرف تاريخ ميلادها في أغسطس ١٨٤١ ، ولما كان اسم العائلة هو فينيان ، فمن المرجح انها حينها هربت احتجت في ظل عائلة أرمنية في المجر .

مشكلات في حياته الجديدة

يبدو أن سام بيكر قد اكتشف حياة جديدة ، فرغم أن زواجه الاول قد استمر ثلاثة عشر عاما أنجب خلالها ستة أولاد ، توفي منها اثنان ، وعاشت أربع بنات فانه يبدو أن حياته الزوجية الأولى كانت رتيبة ، ولكن في حياته الجديدة واجهته عدة مشكلات منها فجوة السن بينها وقد بلغت عشرين عاما ، ومنها عدم قدرتها على التحدث سوى بالالمانية التي تركها سام منذ كان عمره عشرين عاما ، ولكن المشكلة الاكبر هي كيف سيرجع بها الى بريطانيا ؟ كيف سيقدمها الى أهله وبناته ؟ كما انها لا تتكلم الانجليزية ، ولا تعتبر مناسبة كزوجة بمقياس مواطنيه ، فهل يطلق لها حريتها الى مستقبل غير مضمون ؟

وصلا فيينا بالقطار ، وقاما بالصيد ، ثم تحركا الى بلدة بست حيث نزلا في فندق يطل على بلدة بودا على الجانب الآخر من الدانوب ، واستمتعا بوقتها ، لأن المدينة كانت في ذلك الحين مليئة بالمسارح ودور الاوبرا ، والفرق الغجرية .

فتاة للبيع في سوق الرقيق

انتقلا الى بلدة ودين Widdin ، وكانت تمثل حصنا تركيا ، يعيش فيها الجند الالبان الذين استخدمهم الاتراك لاختضاع البلغار ، وكانت المركز الاداري مما يعرف ببلغاريا في الوقت الحاضر ، وكان فيها سوق للرقيق ، وذهب بيكر وصحبه بصرفان بعض الوقت في جولة في سوق الرقيق . وفي تلك الجولة ، بينا كانا ينتقلان من مزاد الى مزاد ، اذا به يقف مشدوها ، ومثبنا عينيه على احدى الجوارى ، وهي التي أصبحت رفيقته في مغامراته في افريقية وارتبط اسمه باسمها حين تذكر اكتشافات صمويل بيكر .

ما الذي حركه في الفتاة ؟ هل هي الشفقة أم الرغبة ؟ ربما أنه صدم قبل كل شيء عندما شاهد تلك الفتاة الشقراء ، مهبطة الجناح ، في عمر بناته ، وقعت في هذه المصيدة الرهيبة ، على بعد خطوة من شتاء قارس لا مفر منه .

ما رد فعل الفتاة حيال منقذها ؟ جاء على لسان فلورنس (كما سهاها بيكر) « اني أدين لسام بكل شيء » .

في سبيلها لم يعد الى وطنه

وجد أنه لا يستطيع التخلي عنها ، وفي سبيل الهروب من مشكلة مواجهة عائلته ، التحق بعمل في خط حديدي تقوم على تنفيذه شركة بريطانية في البلقان ، ومركزها كونستاترا ، وكان أول ذكر لفلورنس في بريطانيا بواسطة هنري بركلي أحد أشقاء أربعة كانوا يعملون في نفس الشركة ، وكانوا يخشون تحدي سام بيكر لهم ، وفي نفس الوقت كانوا يشكون في أن تكون فلورنس زوجته ، كما كانت علاقتها موضع مراقبة من روبرت كولكهم قنصل بريطانيا في كونستترا ، والذي أصبح فيما بعد قنصلا لها في مصر ، ولم يكن كولكهم راضيا عن تلك العلاقة .

كانا سعيدين

وإذا كانت ظروف العصر الذي عاشا فيه لا تسمح بتوضيح العلاقة بينهما الا أن هناك ما يشير الى أنها كانا عشيقيين فقد كتب بيكر في تلك الفترة أربعة عشر مقالا بأسلوب كله حيوية ومرح ، يصف كل شيء حوله من الذئاب والخنازير البرية الى التناقضات بين المزارعين والملاك ، محلاة بالرسومات ، فقد كان سام بيكر ماهرا في فن الرسم، وصرح سام بحبه لها حين قال بأن حبه لها يفوق بكثير حب الأزواج لزوجاتهم ، وفي نفس الوقت كانت فلورنس سعيدة بالعيش مع من خلصها من العبودية ، مستجيبة لرغبته في السرية ، فنظام الحريم كان من سمات العصر .

أخبار رحلة سبيك تشيره

وصلت الجرائد الانجليزية الى كونستانزا في منتصف عام ١٨٥٩ تحمل أخبار رحلة سبيك الذي رجع الى بريطانيا هو وزميله ريتشارد بوتون ، وأعلن سبيك بان البحر الداخلي (البحيرة) الذي ذكره الكتاب البطالمة موجود فعلا ، وأطلق عليه سبيك اسم ملكته فيكتوريا ، وأعلن أيضا انه منبع النيل ، واجتاحت بريطانيا حمى النيل والاثارة التي أحدثتها رحلة سبيك ، وبدأت الصحف البريطانية في أواخر عام ١٨٥٩ تدعو سبيك الى القيام برحلة أخرى ، الى منطقة البحيرات الافريقية ، ويتجه هذه المرة شمالا مع النيل الى مصبه في البحر المتوسط ، ودعت الجمعية الجغرافية البريطانية الشعب للاكتتاب الذي يضاف الى مبلغ الفين وخمسمائة جنيه تقدمها الخزانة البريطانية .

تساءل هذا المغامر سام بيكر ، لماذا لا يأخذ الطريق العكسي من النيل شمالا الى البحيرة جنوبا ويقابل سبيك ؟

الجمعية الجغرافية توجهه نحو اثيوبيا

استقال سام بيكر من شركة الخطوط الحديدية ، وراسل بوتون زميل سبيك في الرحلة الاولى (ولم يرافقه في الرحلة الثانية) من أجل ان يشاركه في رحلته النبيلة ، وراسل سير رودريك مرتشيزون طالبا عدة خرائط وأجهزة عن طريق الاعارة من الجمعية الجغرافية ، وذلك لزيارة الخرطوم وبعض الاجزاء

هل يصحبها في اثيوبيا ؟

من أسوان بدأت القافلة تعبر الصحراء تفاديا لجنادل النيل ، في درجة حرارة تزيد على ١١٠° ف ، وكانت القافلة تتألف من سام وفلورنس وخادمين وستة عشر جملا وكيمة كبيرة من الامتعة ، وبينما كان سام معتادا على الحرارة المرتفعة بسبب توطئه السابق في سيلان ، كانت هذه هي المرة الاولى التي تتعرض فيها فلورنس لمثل هذه الحرارة ، فشعرت بالارهاق والنصب ، ولكن لابد من قطع الصحراء والا الهلاك ، وأخيرا بلغا النيل عند بربر ، واستراحا في خيمتهما تحت شجرة ، وقابل حاكم الاقليم ، وأطلعهم على خطاب التوصية من خديوي مصر ، ولما عرف منه القصد من رحلته ، حاول أن يشبه عن عزمه ، خاصة وأن معه سيدة رقيقة ، وكان بيكر في نفس الوقت قد ترك مؤقتا فكرة الاتجاه من الخرطوم جنوبا ، واستبدلها بالاتجاه من الخرطوم نحو الشرق ، لمسح الانهار التي تأتي من اثيوبيا ، كما اقترحت عليه الجمعية الجغرافية البريطانية ، وبعد ذلك يفكر في الذهاب جنوبا حيث « النافورات السحرية » عند خط الاستواء .

ولكن يا ترى هل يصطحب فلورنس أم يتركها لحين رجوعه الى بربرة أو الخرطوم ؟

ما العمل اذا حملت أثناء الطريق ، ومن المعروف ان د . ليفنجستون ترك زوجته في بريطانيا بعد أن صحبته في احدى رحلاته المبكرة وفقدوا طفلا لها . ولكن يبدو أن سام قد اقتنع بعدم قابليتها للحمل ، ربما تعرضت في فترة الاسترقاق لعملية معينة جعلتها عاقرا .

المجهولة من السودان ، ولكنه لم يلق ترحيبا من الجمعية الجغرافية ، واقترحت عليه خطأ آخر بعيدا عن سبيك حتى لا يسبب له مشاكل مع القبائل ، اقترحت عليه ان يتتبع الروافد الشرقية للنيل عبر حدود اثيوبيا ، ووافق سام على ذلك الاقتراح على الاقل لتلك الفترة ، لأنه علم أنها من أفضل مناطق صيد الفيلة .

أول مذكرات يكتبها في ١٥ ابريل عام ١٨٦١

بدأ يستعد لرحلة السودان بارسال خطاب الى أخيه فالنتين يطلب منه مجموعة من البنادق والبارود وعددا من الكينيين لمواجهة الملاريا في السودان ، وأرسل للبنك يحول له مبلغا من المال على الاسكندرية كما أرسل الى أهله يعلمهم بنيتهم بالتوجه نحو الخرطوم ، وبعدها جنوبا ليقابل سبيك ، أين ، ومتى ؟ الله أعلم .

أول مذكرات الرحلة كانت يوم ١٥ ابريل ١٨٦١ وفيها يذكر بأنه يترك القاهرة اليوم الساعة السادسة صباحا ، وكان النسيم عريلا .

تحركت الرحلة نحو الخرطوم بالنيل ، ولم تكن فلورنس مجرد تابع ، بل كانت تقوم بكثير من الوظائف التي تؤديها الزوجة كالتطهي والحياكة ، كما مرّنها على حمل بندقية صغيرة ، وبلغا أسوان بعد شهر من تركها القاهرة .

اتخذنا طريقهما مع نهر عطبرة ، وقبل ان يغادرسا .
بربر نحو الشرق كان قد بلغ الأربعين ، وكانت
رحلتها هنا أقل مشقة من عبور الصحراء ، ولكن
فلورنس سقطت صريعة الملاريا قبل وصولها الى
كسلا ، حينما وصلا الى بلدة سوفي ، كان الجو في
طريقه الى التغير ، كانت بتسائره رياح رطبة من
الجنوب ، كما بدأت الطيور تبني أعشاشها .

ممارسة الهوايات في معسكر سوفي

قرر سام أن يعسكر في سوفي لمدة خمسة أشهر
حتى ينتهي المطر غاما ، وبنى أول بيت لها من
الطين وأغصان الاشجار (نظير شلنين) على نهر
عطبرة ، وبسط في ذلك الكوخ سريرين وطاوله
ومرايا ، وعلقت بقبة الاغراض في سقف الكوخ ،
وعملا طريقا مفروشا من الرمل الأبيض بين الكوخ
والنهر ، شغل سام نفسه بهواياته ، ومنها الرسم ،
وكان أول رسم له لفلورنس على ظهر الجمل واضعة
يدا تحت ذقنها ، بينما هو يمتطي الجمل ويضع اصابعه
خلف حزامه ، اصطاد أفراس النهر التي كان الاهالي
يجرونها ويقتسمونها ، وتناولوا لحمها ، واصطاد الزراف
التي كانت ترد النهر للشرب وغيرها ، كما كان يكتب
مذكرات عن مشاهداته في الاقليم .. الناس والحيوان
والطبيعة ، .. الخ وعرف كيف يتعامل العرب مع
المرض ، وكيف يتداوون بالاعشاب ، وأعجب بهم
من هذه الناحية ، حتى لقد أطلق عليهم بأنهم أطباء
كبار ، وعلم منهم أيضا طريقته في الختان ، وقطعهم
للسفريات الخارجية للفرج بالكامل ، ثم حياكته

بحيث لا تكون هناك سوى فتحة للتبول ، وذلك
لضمان العذرية ، تحدث عن الرقيق ، ووصف معسكر
بيع الرقيق ، وأخذ بجبال الاثيوبيات ، وصفهن بالفد
المسوق والعيون الغزلانية ، وأنهن يخلصن إخلاصا
زائدا للذي يعطف عليهن ، فهم على حد تعبيره
« فينوس الاقليم » ولاحظ ان كثيرا من الاوربيين في
الخرطوم تزوجوا منهن ، وثن الواحدة يتراوح بين
١٠ ، ٤٠ دولارا .

اتجه بعد ذلك من العطبرة الى النيل الازرق
متجها الى الخرطوم ، أملا في ان يقابل سبيك ويطلع
على أخباره الخاصة بمنايع النيل ، ولكنه حينما بلغها لم
تكن هناك أخبار عن سبيك ذاته .

في الخرطوم على باب افريقية السودان

استقر سام بيكر في الخرطوم منذ أن وصلا في يونيه
١٨٦٢ ، في القنصلية البريطانية بموافقة باتريك
القنصل البريطاني والذي كان هو وزوجته في رحلة
على النيل الأبيض جنوب الخرطوم ، وحمد الله على
عدم وجودهما حتى لا يسألاه عن فلورنس .

قضى وقته يسجل ملاحظاته على الخرطوم ،
سكانها الاصليين ، والاوربيين ، والحاكم ، والموظفين ،
فامتدح القبائل العربية وكرمها ، وذكر بأن معظم
الجنود في الخرطوم والذين كان يطلق عليهم الأتراك ،
هم من الأرمن والشراكسة ، وان الموظفين ما كانوا
ليزعجوا أنفسهم بالعمل ، أو محاربة تجار الرقيق ،
فمعظمهم اتى الخرطوم من مصر مغضوبا عليه ، واما
الحاكم الذي وصل من مصر في حراسة ١٨٠٠

وصيته لفلورنس ، تاركا لها مالا ، فإذا حدث له مكروه يمكنها الرجوع للخرطوم ، ولا تواجه متاعب كثيرة ، وكان يوم الرحيل هو الثامن عشر من ديسمبر عام ١٨٦٢ .

في بحر الجبل نحو أرض النوير والدنكا

عندما أبحرت القافلة سرح خياله بعيدا ، تخيل أنه سيكون المنقذ لسبيك من براثن القبائل الافريقية ، ولن بصدق سبيك عينيه حين يراه ، ولكن نظرة التساؤم كانت تسيطر عليه أحيانا ، فقد يصل متأخرا بعد أن تكون افريقية قد ابتلعت ، وماذا عن باتريك القنصل البريطاني الذي انقطعت اخباره هو وزوجته ، فقد وصلت بعض الشائعات قبل قيامه من الخرطوم ، بأن القبائل قضت عليه في اقليم المستنقعات .

وفي تلك الفترة كان كل من بيكر وفلورنس قد تعلموا بعض الالفاظ العربية ، وكان لفلورنس عين ساهرة على كل من في السفينة ، تمثلت في الولد سات الذي التحق بالحملة وعمره اثنا عشر عاما .

كانت الملايا عدوها الاول ، تهاجها بين الحين والحين ، وتختلف في حدتها وقوتها ، لدرجة أنه كان يخشى على فلورنس ، كما كانت تهدد قواه ، ومن أجل تفادي المستنقعات وبعضها ، أمر بأن تثبت المراكب ليلا في عرض النهر ، ولم تكن الرحلة جذابة ، كل ما حول النهر سهول مستوية ، والنباتات المائية تكاد تسد المجرى ، وسكون شديد لا يقطعه سوى نباح الكلاب في القرى البعيدة ، أو أنفاس أفراس النهر ،

جندي ، وكان من أصل شركسي ، فكان يبحث عن المال بأي طريقة ، يبعث رسله لجباة الضرائب ، ويقبم مزادا لبيع حمير الحكومة .

أما الاوربيون فكلهم من المذكور ما عدا القنصل العام وزوجته ، ولكنهم على الطريقة التركية كانوا يحتفظون ببنات افريقيات للتسري ، وصادف اثناء بقائه في الخرطوم لقاءه بالرحالة الفرنسي ليجيان الذي حصل على تفويض من نابليون الثالث لعمل تقرير عن اعالي النيل ، وعلم منه أن الملاحة في النيل ممكنة حتى عند كرو ، وبعدها تظهر المندفعات ، ومن ثم فهي نهاية رحلة تجار الرقيق الذين يقيمون المعسكرات هناك ، كما انهم يقومون برحلتهم في الشتاء حينما تهب الرياح الشمالية لتساعدهم على صعود النيل ضد التيار .

وأعجبه موقع الخرطوم ، عند التقاء النهرين ، وقدر محمد علي باشا خير تقدير ، فهي تصلح مركزا للادارة والتجارة في آن واحد .

بعد الضجيج حول القنصلية كان الرحيل

في ديسمبر ١٨٦٢ بدأ الضجيج يعلو في القنصلية البريطانية بالخرطوم ، وكان هذا نتيجة الاستعدادات التي يقوم بها بيكر لرحلة نحو الجنوب ، فهناك ٤ جمال ، ٢١ حمارا ، ٤ خيول ، ١٠ أطنان من الحبوب ، وأكوام من الامتعة ، فضلا عن خمسة وأربعين رجلا ، اخذ يعلمهم النظام ويدربهم على اطلاق النار ، واستأجر بيكر قارباً وباخرتين ، وكتب

فضلا عن عدم مهارة الملاحين الذين كانوا يجنحون بالسفن نحو السدود النباتية .

بلغت البعثة أرض النوير ، وزاره احد زعمائهم ومعه زوجته طالبين الهدايا ، وسجل بيكر فقر قبائل الدنكا ، وسجل عاداتهم في طريقة الشكر وهي البصق على يد المشكور ، وسجل رؤيته لاحدى بنات الدنكا عارية تماما ، بينما تغطي بعضهن الأرداف بأدوات زينة متصلص كالجرس حين يسرن .

الوصول الى غندكرو

بعد شهر من الرحيل من الخرطوم كانت الرحلة قد قطعت ثلاثة أرباع الرحلة الى غندكرو ، وبلغت المكان الذي ترك فيه باتريك القنصل البريطاني سفينته واتجه نحو الشرق ، وقبل أمبال عديدة من غندكرو تغيرت المظاهر الجغرافية ، ظهرت التلال المنحدرة ، اختفت المستنقعات وبلغا غندكرو في الثاني من فبراير عام ١٨٦٣ ، ولكنها لم يعرفا على سبيك أو حتى على اخبار ضئيلة عنه ، وكان هذا مزعجا لأن المفروض أن يصل الآن ، وبدأ التجار يستعدون للابحار شمالا وسيكون المكان مهجورا بعد ذلك .

وصف بيكر غندكرو بأنها ليست بلدة بمعنى الكلمة ، وإنما سلاسل من معسكرات الرقيق والعاج على طول النهر ، ينتظرون فيها السفن لتحميلهم شمالا ، لم تكن هناك حامية ، ولا مراجعة لأي جريمة ترتكب ، ترح الفئران في المعسكرات ، وتنبت منها

الروائح الكريهة ، ويقضي الرجال وقتهم في المشاحنات والشراب ، وتنطلق الرصاصات من حين الى آخر دون معرفة السبب .

بدأت الاخبار المتضاربة عن سبيك وزميله جيمس جرانت ، منها أنها أسيران لدى أحد الملوك وأنها مريضان ، وربما يكون احدهما قد مات ، أما عن باتريك الذي ترك سفينته لاستقبال سبيك في غندكرو منذ عام ، فلم يظهر في غندكرو حتى ذلك الحين . وبدأ شعوره نحو باتريك يصبح خليطا من الرضا وعدمه ، إنه كان من المفروض ان يكون في استقبال سبيك ومساعدته .

جاء البشير يعلن عن سبيك وجرانت

ماذا لو تحرك جنوب غندكرو وسبق باتريك في الوصول الى سبيك وجرانت وانقاذها ، وبينما كانت الفكرة تغدو وتروح في ذهنه ، اذا بصوت طلقات نارية من الجنوب تعلن قدوم سبيك وجرانت مع أحد البعثات التي تجمع عاج الفيل .

وتصافح وتعانق الرحالة مع سام بيكر وكانت لحظة تاريخية حقا ، ورجعا الى السفينة ، وسط الصياح وطلقات البنادق . كان سبيك وزميله قد اكتشفا بحيرة فكتوريا ، حيث يخرج نيل فيكتوريا ، وتركوا طريق النهر ، واتجها نحو الشمال ، الى أن وصلا الى غندكرو ، ودهش سبيك وزميله حين سالا عن القنصل البريطاني ولم يجدها ، كما اندهشا حين قدم لها فلورنس ، وجلسا ساعات يقصان تفاصيل رحلتها في بلاد الموتيسا ملك يوجندا . ووصفا مملكة

ومما زاد في الأمر سوءا ان جيمس موري الطبيب الاسكتلندي المرافق لباتريك أفضى بما حدث انشاء حملة باتريك كاستيلاء الحملة على ماشية الاهالي بالقوة ، واستيلاء بعض أتباعه على النساء الافريقيات ، وكانت ناللة الأنا في هو طلب باتريك من جيمس موري غلي ثلاثة رؤوس افريقية بعد استخراج منها ، لترسل الجاهج الى كلبة الجراحين الملكية بلندن .

من نم رفض سبيك وجرانت معونته ، وانتهز سام الفرصة وفدم لهم سفينته للرجوع وكذلك المؤن اللازمة للعودة ، ووعدا بعدم ذكر اي شيء خاص بفلورنس بعد رجوعها الى بريطانيا ، كما أن سام سيتزوجها في الاسكندرية بعد رجوعها من رحلتها .

نحو بحيرة الجردة الميتة

غادر سبيك وجرانت غندكرو الى الخرطوم بعد راحة عشرة أيام ، واقترح باتريك على سام أن يوحدا جهودهما لكشف بحيرة لوتزيجا ، ولكن حدث تمرد بين أفراد حملته فاقترح باتريك ان يعودا معا الى الخرطوم ، ولكن الفرصة اصبحت سانحة الآن لسام أن يكتشف بحيرة لوتزيجا وحده ، وفعلوا فافوض سام قائد مجموعة سبيك وجرانت ليعود هو ورجاله معه ، ولكن ظهر ان هناك مؤامرة بين رجاله للتخلص منه ، فتوقف حتى خرجت قافلة لاحد التجار الشراكسة وهو خورسيد آغا فقام معها في السادس والعشرين من مارس لكشف البحيرة .

يوجدنا بأن فيها نظام سياسي واداري لم يكن منوقعا في وسط افريقية، ولكنها أخذت عليه بعض الاعمال البربرية كشنق احدى زوجاته اذا ما ارتكب خطأ صغيرا ، واعجابه ببناذقهم ، فكان بأني بمرة كل صباح ويطلب من سبيك اطلاق النار عليها ، وعلى عكس ما حدث في مملكة يوجندا ، لم يسمح لها كاماراسي ملك البانيورو بالتحرك سحالا ، الا بعد أن سلبها كل ما معها .

هل يعود سام من حيث أتى ؟

كان سام سمع باهتمام قصصهما ، ولكنه شعر بأنهما اكتشفا منابع النيل ، ولا فائدة من مواصلة مسيرته جنوبا ، ولكن سبيك أسار الى أن هناك بحيرة يطلق عليها الاهالي لوتاتريجا (الجردة الميتة) ويقال انها غرب بحيرة فكوريا ، وبعثقد سبيك أن النيل بتدفق البها ويخرج منها مرة أخرى ، وكان هذا تخميننا من سبيك ، وكاد قلب سبيك يقفز فرحا ، وأعطاه كراسة مذكراته ليكتب له ثلاث صفحات عن تصوره ، ويرسم له رسما تخطيطيا لما يتخيله من روايات الافريقيين .

ظهور القنصل البريطاني ومقابلته بفتور

ازدادت روابط الصداقة بين الثلاثة ، واخذها سام في رحلات قصيرة للصيد ، ومن خمسة أيام من وصولها ظهر باتريك القنصل البريطاني ، ولم يستقبل بنفس الرحاب ، بل كان عليه أن يفسر لماذا فضل مصالحه الخاصة على الواجب ؟

فلورنس على الطريق

سارت القافلة محملة بالخرز والنسيج الملون كهدايا للحكام ، ونفقت الابل ، واضطر أن يتقاضى عن تصرفات افراد القافلة في الاستيلاء على الماشية ، وعلم أثناء استراحته في الطريق أنه ما زال أمامه مائتا ميل الى الجنوب حتى يصل الى مملكة كهاراسي حاكم البانيورو الذي أساء معاملة سبيك ، وكان سام يحسب أنه سيرجع من نفس الطريق ، فكان حين يقابل رؤساء القبائل يلبس جاكبته الحريري والقبعة ، وترتدي فلورنس الفستان ، ويفرشان قطعة من السجاد أمام الخيمة ، فكان رئيس القبيلة العاري تماما يعجب اعجابا شديدا بما يراه ويتلقى الهدايا ، وبلغ اراضي قبيلة الأوبو ، وكان ملكها كاتشيبا لطيفا يهوى الموسيقى ، واطمأن اليه بيكر ، لدرجة انه ترك فلورنس في رعايته ليستطلع الأرض والمناسيب ، ووجد أن مناسب المياه مرتفعة في الانهار بحيث لا يمكن عبورها ، فصرف الوقت في تخمير بعض النار المحلية كالبطاطا ، وصيد الفيلة التي كان الاهالي يفرحون بها وسقط صريع الحمى وهو عند كاتشيبا ، وكتب في مذكراته عن تلك الفترة انه كان يعاني من الحمى ومن الفتران الضخمة التي يطارد بعضها بعضا ، وكذلك النمل الابيض ، وبسقوط الامطار بدأت الخيل في الموت بسبب انتشار ذبابة التسي تسي ، وانخفض عدد افراد القافلة ، والذي كان يزيد على أربعين شخصا الى اثني عشر شخصا ، منهم من مات ، ومنهم من هرب الى قافلة تجارية أخرى .

وظلا هكذا في حالة نفسية سيئة نتيجة للمرض

حتى نهاية عام ١٨٦٣ ، ولكن مع بداية عام ١٨٦٤ شعرا ببعض التحسن نتيجة لانحباس المطر ، وابتلع سام كميته من الكينين ليستطيع مواصلة السير راكبا احد الثورين اللذين اشتراهما ، وبلغا نهر سومرست (نيل فكتوريا) في ٢٢ يناير ، وعلى الضفة الاخرى تظهر مملكة الزعيم كاراسي - وسط الضباب - الذي يجب ان يتلقى الهدايا ليسهل لها رحلتها الى الجنوب الغربي الى بحيرة لوتزنجا .

هل يمكن مقايضة فلورنس بعدد من زوجات كهاراسي ؟

واخيرا وصلا مملكة البانيورو ، وقدما لملكهم كهاراسي العديد من الهدايا مثل قطعة من السجاد الفارسي ، وبندقية ، وحادية وشال ، وغير ذلك ولكنه رغب هذه المرأة البيضاء المصاحبة لسام ، وابدى استعدادا لمقايضتها بأي عدد من زوجاته ، ولم يسحب كهاراسي طلبه الا بعد تهديد سام له ، والواقع كان طلب كهاراسي كرد فعل لأول امرأة بيضاء تصل وسط افريقية ، وانتشر نبأ وجودها ، حتى ان ملك بوجندا حينما ارسل بعثة الى زنجبار ، طلب عدة أشياء من بينها بنادق ، وطباخ هندي ، وامراه بيضاء !! ورغم برود العلاقة بين كهاراسي وسام ، فمد سجل سام لشعب البانيورو انه اكثر تقدما من القبائل التي مر بها ، فالنساء والرجال يغطون نصفهم الأسفل .

كان كهاراسي يعرف الصعوبات التي تواجه سام

وسارت الرحلة وفلورنس لا تنطق ، وكلما أتى الليل يجلس بجوارها ينقط لها الماء ، وتفيق قليلا ثم تعود الى غيبوبتها حتى يثس سام وانهار وأمر بالبحث عن مكان يصلح لها الحدا ، وسقط مرهقا يغط في النوم .

عودة الوعي

تتذكر فلورنس فيما بعد كيف أنها رجعت الى وعبها على صوت الرجال يحفرون قبرها بالفؤوس ، وحينما استيقظ سام من سباته ودخل عليها الكوخ ، ليلفي عليها نظرة أخيرة ، ذهل حين وجد صدرها يعلو ويهبط شهيفا وزفيرا ، وان كانت تعاني ضعفا عاما ، وحينما عادت الى الوعي ، لم تكن تعرف شيئا عن الفترة التي قضتها في اغشاء طوبلة ، ومع ذلك لم تبد رغبة في العودة ، بل الاستمرار نحو الهدف .

الوصول الى بحيرة الجراة الميتة (بحيرة البرت)

استمرت الرحلة في مسيرتها ، وأخبرهم الاهالي يوما ان البحيرة قريبة ، ولم يصدق سام ، وأفهمهم المرشد أنهم اذا قاموا مبكرين في اليوم التالي فيمكنهم الاستحمام في البحيرة ، فوعده بحفنتين من الخرز اذا تحقق الفول ، ولم يسم طوال الليل ، قام سام بإبفاظ الرحلة قبيل الفجر ، وما زالت فلورنس محمولة على المحفة ، وبعد طلوع الشمس ، صعدت الحملة على تل ، وعلى بعد ربع ميل كانت البحيرة !!! لم تكن بحيرة وانما بحرا من الفضة وكأنه ممتد الى اللانهاية

اذا ما استمر في السير جنوبا ، ولكن الانسحاب بعد أن أوشك على الوصول يعد أمرا صعبا ، في نفس الوقت الذي كان يخاف فيه على فلورنس خاصة وان الملاربا - عادت تهاجمها ، وكانت تنفل مستلفية على عنجريب (سرب من ليف الشجر) ، ولكنها بدورها كانت مصرة على مواصلة المسيرة ، وكان كل أمل سام ان يرى مخرج النيل من البحيرة ويعود فورا الى غندكرو .

وخرجت القافلة ومعها نحو ثلاثمائة رجل من مملكة كماراسي في أمان ، ولكن المشكلة أن رجال الحملة كانوا يفضون الليل في الرقص والغناء ، فلا يفهمون من النوم مبكرا ، وتضطر الحملة للمسير في حر النهار . واخيرا سارت الحملة حتى وصلت الى اراض مرتفعة ، واكتشف ان الاهالي يعضون حبوب البن كمشط ، فكان اول فنجان من الفهوة يرتشفانه منذ عدة شهور .

متاعب الرحلة

كانوا يعبرون المستنقعات المتفاوتة في عمقها ، وكان الحمالون يحملون سام وفلورنس أحيانا على محفة لعبور هذه المستنقعات ، وفي احداها غارت ساقا فلورنس وانتزعوها بصعوبة وأخرجت من المستنقع وهي بين الحياة والموت ، وفتح سام فمها ووضع بين فكيتها قطعة من الخشب واخذ يدلك ساقها ، ولكنها لم تتحرك طوال الليل بينما كانت قافلة الحراسة تغني وترقص طوال الليل ، مما اثار اعصاب سام ، فاضطر هذا الى طلب رئيس الفريق وطلب منه تسريح الفريق ، وانه ليس في حاجة الا للمرشدين فقط .

نحو الجنوب الغربي ، ويزيد اتساعها في تفديره على الخمسين ميلا ، ومن خلال المنظار المكبر أمكنه أن يرى الماء بنحدر على هيئة شلالات على السفوح .

وقف سام وفلورنس أمام البحيرة واجتمعت الفافلة حولها ننظر وتخرج منها التعلقات . وكان الطريق الى البحيرة منحدرًا بتسدة ، ولا يمكن الوصول اليه الا على الاقدام ، لذلك توكأت فلورنس على عصا ووضع اليد الأخرى على كتف سام ، وكانت تفف وتستريح كل عشرين خطوة . وما أن وصلا الى البحيرة حتى اندفع سام الى البحيرة يغسل الحراة والتعب ، ويشرب من منابع النيل ، وادرك - وعمره اثنان وأربعون عاما ، وبعدما بلغ البحيرة في مارس ١٨٤٦ - أن اسمه سيكتب في سجل المستكشفين الجغرافيين الى جانب ليفنجستون وسبيك وجرانت وبرتون .

عودة الابطال وانقلاب المد على سبيك

في الوقت الذي كان سام وفلورنس يففان امام البحيرة ، كانت الجمعية الجغرافية البريطانية ترجح وفاة سام أو ففدانه ، في نفس الوقت الذي كان هو فيه يتخيل ما سيحدث في بريطانيا حتماً تصل انباء اكتشافاته ، كذلك وصلت بريطانيا انباء فشل بعنه لفنجستون ، وخيبة أمل الحكومة البريطانية التي دعمت الرحلة بما يزيد على خمسين ألف جنيه . هذا بينما استقبل سبيك وجرانت في سوئهمتين استقبال الفاتحين .

كانت أول علامة مريرة بالنسبة لرحلة سبيك هي

هجومه على باتريك نظرا لقيامه بأعمال غير نظيفة في السودان ، وصدر قرار الخارجية البريطانية بغلق الفنصلية البريطانية في الخرطوم . وظهر حفد بارتون على سبيك حين أرسل وهو قنصل لبريطانيا في فرناندو بشكك في اكتشافات سبيك ، وظهر عداة بين مرتشيزون وسبيك بسبب اهمال سبيك للجمعية الجغرافية البريطانية وعدم اعطائها مذكراته ، ففد سلمها لدار نشر ، رغم دعم الجمعية له ، ومنحه الميدالية الذهبية ، وواجه سبيك عداة آخر من أعوان باتريك قنصل الخرطوم ، وهكذا ما أن هل الربيع حتى انقلب المد على سبيك ، ونظم مرتشيزون لسبيك وبرتون مناظرة حول كشف منابع النيل ، ولكن مات فجأة قبل المناظرة ، ولم يتسيع جنازته سوى ثلاثة من خارج أسرته هم مرتشيزون ، وزمبله جرانت ، وليفنجستون الذي رجع فاشلا من رحلة الزمبيري . من بقي اذن ليضع اسم بريطانيا في قائمة

الكشوف الجغرافية الافريقية ؟

لم يكن برتون على أبة حال ، ولم يكن جرانت بما يجذب الجمعية الجغرافية ، بينما استغلبت الخارجية البريطانية ليفنجستون ببرود شديد .

لم يعد هناك سوى رجل واحد في نظر مرتشيزون وهو سام بيكر ، ذلك الرحالة الرياضي ، مؤلف كتابين ناجحين عن سيلان ، له أخ يعمل في سلاح الفرسان ، وصديق لأمير ويلز ، كما ان المادة العلمية التي ارسلها عن رحلاته لروافد النيل الحبشية اتبنت انه رحالة ، ولم يكن هناك سوى نقطة ضعف واحدة وهي رفيفته ، ولكن رجلا في خبرة سام يعرف كيف التصرف في موضوع امرأة اختارها لتسلته في رحلته .

الابحار في البرت

نحو شلالات مرتشيزون

بعد ثلاثة عشر يوما من الابحار في البحيرة تغيرت المعالم واقتربوا من الساحل الغربي وظهر ورد النيل (نوع من الحسائس) لمسافة تقترب من نصف ميل ، ويبدو أنهم وصلوا الى مصب نيل فكتوريا في البحيرة ، واذا كان تقدير سبيك لمنسوب بحيرة فكتوريا هو ٣٧٠٠ قدما ، فان تقرير بيكر لمنسوب بحيرة لوتازينجا (البرت) هو ٢٣٨٨ قدما ، اذن لابد وأن يكون هناك مسقط مائي .

معاناة بيكر وفلورنس من ملك البانيورو

وقامت الرحلة بقارب في النهر الذي يصب في بحيرة لوتزينجا ، وبدأ يضيق في اتساعه مما يزيد على ربع ميل الى نصف هذا الاتساع ، وظهرت الجروف الصخرية ، وفي الفجر سمع الرحالة صوت هدير الشلالات وكأنها الرعد ، وعلى جانب النهر قرية صيد صغيرة وشاطئ مليء بالتاسيح الضخمة ، واستمر في السير حتى صار النهر بين جرفين صخريين ، وظهر نحو الشرق أكبر مسقط مائي على أطول نهر في افريقية ، وكان المنظر رائعا ، حبت يعلو الزبد الماء ، بينما تغطي الاشجار الجروف الصخرية ، وكانت رؤية الشلال هي نهاية اكتشافات سام بيكر وفلورنس ، ولابد من الرجوع بأقصر الطرق ، بالطريق البري الذي أتوا منه ، ولكن الحمى عاودته لمدة أربعة شهور ، وكان لابد من نجدة من كماراسي ، ولكنه طلب بدوره رجاله وبنادقهم لمحاربة عدوه ، فرد بيكر طلبه ، وبلغ به اليأس ان تمنى بيكر الموت حتى

كان بيكر على بعد ١٥ كيلومترا من جبال رونزوري التي بطل على البحيرة ، ولكنه لم يرها بسبب الضباب ، وظل هذا الامر غير معروف لمدة ربع قرن آخر قبل أن يفهم رحالة اوربي آخر باكتشافه ، ولو عرف سام وفلورنس هذا الأمر ، لكان هذا الاكتشاف الناني ، ولم يكن في الامكان الاستمرار في السير ، فالفاصلة او البعثة كانت منهكة ، كل ما فعله سام هو ساعه لأفوال الصيادين عن الفبائل في الشواطئ المجاورة ، وكان هدفه هو ركوب البحيرة الى حيب بنتهي نل فيكتوريا في البحيرة ، ومنها يأخذ أقصر الطرق الى غندكرو ، بينما السير على شاطئ البحيرة تكتفه خطورة كبيره لكثرة التاسيح الجائعة ، والطفس الحار المنبع ببخار الماء .

ذبح نورا كبيرا ابتهاجا بنجاح الرحلة ، وارتفعت الروح المعنوية وان كانت الاجساد منهكة . وقام رفاق الرحلة بحفر جذعين من الشجر وعغل تهاية مجاديف ، وقام زعيم الفرية بتلاوة بعض التعاويذ ونر بعض الخرز لبقية القوارب سر أفراس النهر ، وأبحرا في الفارين في البحيرة الهادئة ، بحوائطها الجرانيتية العالية ، وأحيانا كانت الحوائط تبعد وتسمح بشاطئ رملي أبيض ، وكانت البحيرة مليئة بأفراس النهر والفيلة والتاسيح وتوقفوا على أحد الشواطئ لبلا ، ولكنها لم تكن ليلة سعيدة ، ظلوا يحاربون أسراب البعوض طوال الليل ، وهرب رجاله الذين يجدفون لانهم لا يريدون التوغل في البحيرة ، واضطر هو والباقي الى التجهيف .

يتخلص من مشقة الرحلة والمرض ، وأوصى قائد المجموعه أن يعمل كل مافي وسعه لايصال اوراقه وخرائطه الى الخرطوم ، وعزمت فلورنس على قتل نفسها بالرصاص اذا ما توفي بيكر حتى لا تقع في يد كماراسي .

وبعد شهرين من هذه الحالة السيئة أرسل الى كماراسي ، بأنه اذا أراد مناقشة الموضوع ، فعليه ان يرسل خمسين من رجاله ومؤونة غذائية ، وبعدها يأتون لمناقشته في بلاطه .، وقطعت فلورنس بعض صور موديلات الازياء للعام السابق ، وأهدتها للملك كماراسي كنوع من الترضية له ، وكانت قد وصلت ضمن طرد يضم بعض أعداد من مجلة لندون المصورة .

أحس سام بأنه آن الأوان للرحيل في نهاية عام ١٨٦٤ ، فهذا مبعاد وصول السفن الآتية من الخرطوم الى غندكرو ، كما ان الملك لبس في حاجة اليهم بعد أن قام سام بتهديد عدوه ورحيله ، كما ان الملك قد أخذ كل شيء تقريبا من ضيوفه ، والتجار الآن في طريقهم الى العودة ومعهم الرقيق الذي اشتروه من كماراسي .

ما المستقبل الذي ينتظر فلورنس ؟

بدأ التفكير في مستقبل فلورنس مع بداية الرحلة الى غندكرو ، لقد لازمته حتى الآن نحو سنوات ست ، تحملت فيها مخاطر هائلة ، كادت تؤدي بحياتها في العديد من المرات ، أكلا معا ، ناما معا ، قتل الفئران معا ، وقفت بجانبه صامدة امام كل

المخاطر الطبيعية والبشرية ، ولم تطلب الرجوع ابدا ، مع ذلك فهي ليست زوجته في عرف الفانسون والكنيسة ، هل سيصطحبها معه الى انجلترا ؟ ولكن كيف سيقابل الذين يحتفلون بنصره ، وسيقضي الصيف القادم مع أسرته . هل ستركها في مصر أو جنوب أوربا ؟ من الجائز أن توفق في زوج مناسب في عمر أبيها ، وهي على قدر من الجمال وقوة الارادة ، فضلا عن أنها لم تنجب ، ومع ذلك ففي عودتهما من غندكرو ، اشتركا في حياة عائلية فعلا ، ففد كان معها خمسة أطفال صغار ، كانت تعتني بهم ، وكان سام يضع لهم السهام والأقواس .

الطاعون في الخرطوم والخوف على فلورنس

حينما بلغا غندكرو ، لم تكن هناك أخبار ما من التماس ، وكان الطاعون يحتاج الخرطوم ، حتى قضى على نصف سكانها ، ومع ذلك لا بد من العودة ، وقد توفي معهم في المركب خادمهم الأمين سات الذي ظل عينهم الساهرة على الفافلة طوال الرحلة ، ولأول مرة يذكر سام اسم فلورنس صراحة ، ففد كان قبل ذلك حرف F ولكنه هذه المرة يكتب في مذكراته بأنه ينسعر بحمى شديدة ، وانه سلم فلورنس ف . فينيان شيكين بمبلغين قدرهما ٣٠٠ ، ٢٠٠ جنيه استرليني على فرع البنك الاهلي في القاهرة ، هذا بالاضافة الى ما كتبه في وصيته لها .

وكانا كلما اقتربا من الخرطوم ازداد احساسهما بالمستقبل ، وبدأ يعد مسودة الكتاب الذي سوف ينشره عن الرحلة ، كذلك كان عليه أن يكتب رسائل

استقبال الفاتحين

أعلنت الصحف عن محاضرة سام بيكر في الجمعية الجغرافية ، وعن عرض للرسومات التي قام بها ، ودعا مرتشيزون كبار الفوم من الوزراء واعضاء البرلمان والأمراء ، كانت أمسية ناجحة ، امتدح فيها مرتشيزون - في تقديمه للمحاضر - فلورنس ، وحياتها الجمهور عدة مرات ، وأعد كتابه عن الرحلة للنشر بعنوان « البرت. نباترا ، حوض النيل العظيم » وأخرجت المطبعة كتابه هذا في جزأين في أواخر مايو من ذلك العام ، وتصدرت صورة فلورنس الصفحة الاولى من الجزء الاول .

الانعام عليه بلقب فارس .

كان هناك اعتقاد متزايد بأن بيكر يستحق مزبدا من عرفان الجميل ، فكتب جلادستون الى مرتشيزون قائلاً بأن هذا المكتشف فعل الكير لسرف الأمة البريطانية في ذيل الركن البربري من العالم دون أن يكلف الحكومة بنسا واحدا .

وكتب لورد ستانلي وزير الخارجية الى رئيس الوزراء طالبا الانعام عليه بلقب فارس ، وفعلا أنعمت عليه الملكة بهذا اللقب ، وكان هذا شرفا ما بعده شرف ، وأصبحت فلورنس ليدي بيكر ، وبعد الانعام عليه القى محاضرة في نوتنجهام ، وكان رئيس الجلسة هو رئيس مجلس العموم ، فنزل لفلورنس واصطحبها الى المنصة حيث اشتد تصفق ١٤٠٠ مدعو في حرارة شديدة لها .

عديدة الى العائلة ، كما كتب الى كولكهم قنصل بريطانيا في الاسكندرية لأنه يعرف أنه سيرقى الى بريطانيا ، وذكر له أن سسمى البحيرة باسم الامير البرت زوج الملكة الذي توفي منذ سنوات ثلاث ، بينما أطلق على النهر الذي نصب في البحيرة اسم الملكة فيكتوريا ، وكانت السلالات التي تتحدر منها النهر من نصيب مرتشيزون رئيس الجمعية الجغرافية .

ظلا في الخرطوم شهرين حتى آخر يونيو ، واتخذوا طريقهما بالبر الى بربر ، ومنها الى سواكن حيث يستقلان الباخرة عبر البحر الاحمر الى السويس تفاديا لمشقة الصحراء ، اذن ففد قرر الا يتركها . وفي السويس لم يصدقا وهما في الفندق المريح والمشروبات المتوفرة أنها رجعا من منابع النيل ، واستقلا الفطار الى القاهرة والاسكندرية ، ومنها الى مرسيليا ، وباريس .

من وسط افريقية الى باريس

قابلا في باريس أخاه جيمس الذي كان ينتظره ، قدم له فلورنس ، وأخبره بأنه سيتزوجها فور وصولها لندن ، وذهب الثلاثة لآخذ صورة تذكارية ، وقرر أن يخفي الأمر عن الصحافة حتى يتم الزواج بأقل ضجة ممكنة .

وبعدما وصل بريطانيا ، لم يذكر شيئا لبناته عن فلورنس قبل الزواج ، كما لم يترك السيد رودريك مرتشيزون شيئا عن علاقته بفلورنس ، لان بيكر سعى السلالات باسمه ، فضلا عن أنه أعجب بجالها ورقتها .

الملكة ترفض استقبال فلورنس

أراد بيكر أن يزيّد فلورنس شرفاً ، فطلب من صديقه بيكر وارتكليف أن ينتهز الفرصة ويقدم فلورنس الى الملكة ، ولكن الملكة رفضت ، لأنها كانت تعتبر سلوكها غير أخلاقي ، وبعد شهر من رفض الملكة استقبالها دعتهما الجمعية الجغرافية الفرنسية ، وأهداه رئيس الجمعية الميدالية الذهبية ، وشد انتباه الحاضرين ، تسليم بيكر الميدالية الى زوجته ، وكم كان متبراً وهو في باريس ان يجد مجلة Le touz du monde تنشر كتابه مسلسلاً ، وتجسم وتبرز الصور العارية لجذب القارىء .

مرافق ولي العهد في رحلته الى مصر

لم يكن بيكر يستطيع البقاء هكذا دون عمل ، فكر في عدة مشروعات ، منها أن تمده الحكومة المصرية ببخرة على البحيرات الاستوائية وذلك للبحث عن د . ليفنجستون ولكنه لم يجد استجابة ، أخذ يكتب القصص للاولاد عن المغامرات في سيلان وافريقية الوسطى ، فقد كان يحس بركوند أصعب عليه من الحمى ، على حد تعبيره .

وأخيراً وجد مخرجاً لهذا الركود في رحلة ولي عهد بريطانيا الى مصر ، وارساله سام بيكر ليقوم بالترتيبات اللازمة لأنه يجيد العربية ، وسبق له التعامل مع السلطات المصرية ، هذا رغم معارضة الملكة الأم ، وخوفها على وريثها من صداقة أمثال سام بيكر .

واستغل بيكر هذه الفرصة وعرض على الأمير التوسط له لدى الخديو ، واقناعه بارسال بعثة تحت قيادته الى البحيرات الاستوائية ، وحدثت الموافقة ، وعين بيكر حاكماً لاقليم خط الاستواء ، ومسئوليته أمام الخديو فقط ، مع تفويضه بالسلطات كاملة هناك ، وهكذا عاد الى افريقية ومعه فلورنس بعد أربع سنوات من رحلته الاولى الى وسط افريقية .

نجاحه في القيام برحلة أخرى بمساعدة مصر

غادرت الرحلة الخرطوم في ٨ فبراير ١٨٧٠ بلاثين مركباً ، و ١٤٠٠ جندي ، وذلك لإنشاء محطات على النيل تستقر فيها حاميات ، على ان ينقل مركبين بعد مندفعات غندكرو للابحار بهما في بحيرة البرت باسم الخديو اسماعيل ، وقد يكون للحملة حظ في انقاذ ليفنجستون ، وسارت الرحلة في النيل الجنوبي في بحر الجبل حيث السدود النباتية ، يعتمدون على صيد أفراس النهر وشوي لحمها ، وعمل الحساء من شفاها وأرجلها ، وترك حامية في غندكرو ، وأطلق عليها الاسماعيلية نسبة الى الخديو اسماعيل ، ولكن أفراد الحملة أيضاً كانوا يتسربون ، المهم أن الحملة بلغت أرض البانيورو ، ولكن الملك كهاراسي كان قد توفي وتولى ابنه ريجا ، وكان شكله نحيفاً رغم صغر سنه ، ورغم ان الحملة قدمت له الهدايا ، فانه كان يتردد على مقر الحملة مرات عديدة يطلب هدايا وفرر بيكر ان يقيم محطة دائمة في أرض البانيورو ، وتصبح مركزاً للحكومة ، وأقام بيكر له ولفلورنس بيتاً وطهرت الأرض ، ورفع العلم

على العموم طبق بنهرية منام بيكر وفلورنس
الآفاق في نانينيات القرن التاسع عشر ، وبحنا عن
الاستقرار بعد أن كبر سام في السن ، وأصتبحا من
الاغتياء ، وفي نفس الوقت كان أخوه فالتين يصعد
نجمته في نفس الفترة ، بكتاباته المتعددة ، ولكن
فالتين سبب فضيحة للعائلة بسبب التهمة التي
وجهت له وثبتت عليه ، وهو محاولته الاعتداء على فتاة
في القطار ، وبعد انتهاء المدة المحكوم بها عليه دخل
في خدمة الجيش العباسي في وظيفة قائد عام ،
واستطاع إثبات وجوده عن طريق فك حصار الجيش
التركي من قبضة ٤٠ ألفا من الجيش الروسي ،
وعرضت عليه وظيفة أخرى ، وهي قيادة الجيش

المصري بعد الاحتلال ، ولكن الملكة فكتوريا
اعترضت عليه فعين قائدا للبوليس المصري ، في
نفس الوقت الذي قامت فيه الثورة المهدية في

السودان ، وأفنت حملة هكس ، مما كان له وقع
الصاعقة على الحكومة البريطانية . وفكرت في قائد
قوي يقوم بعملية الانسحاب وإخلاء السودان ، فرشح
فالتين ، ولكن ما زال ماضيه يتعقبه ، ورشح

جوردون على اعتباره أنه كان حاكما عاما للسودان قبل
ذلك ، ولكنه بدوره رشح سام بيكر ليكون حاكما

عاما ، وأخاه فالتين ليكون قائدا للجيش ، كان سام
بيكر تواقا لتلك المهمة ، ولكن لم يعرض عليه أحد
هذه المهمة بصفة رسمية ، كما ان فلورنس لا تريد
الذهاب الى افريقية مرة أخرى ، وكان في تلك الفترة
قد بلغ الثانية والستين من عمره .

العناني ، ولكن يبدو ان جملة بيكر وقعت في كمين ،
فقد فوجئوا يوما بالطبول تدق ومحاورة معسكرهم
بنحو ٥ آلاف بحارب ، وأصدر بيكر أمره إلى الجند
بالاستعداد ووزع البنادق عليهم ، حتى الجند
وأسرعت فلورنس الى مخزن الذخيرة ، وأخرجت
بعض المفرقات التي وجهوها نحو مساكن
ماسيندي ، فاذا حدث اعتداء فيشتعل الحريق في
جميع مساكن ماسيندي المصنوعة من القش ،
واستخدم بيكر الحيلة ، فأرسل المترجمون الى زعمائهم
يخبرونهم بأن بيكر مسرور من العمل الذي قاموا به ،
وان رجاله سيرقصون وان عليهم الرقص أيضا ،
المهم توقف كل شيء ، وطلب بيكر طعاما لحميته ،
فارسل الطعام ولكن الشراب كان مسموما ، ولحسن
الحظ قام بيكر بالاسعافات اللازمة ، ورأت الحملة انه
لا بد لها من الانسحاب من ارض البانيرو ، واحرفوا
كل ما هو غير ضروري وكانت عملية الانسحاب
صعبة لان عسكر الملك ريجا كانوا يطاردونهم ،
واستغرقت الحملة سبعة أيام للوصول الى النيل بعد
ان فقدت عددا من رجالها ، ومنها رجعوا الى
الخرطوم ، ومنها الى القاهرة .

فضيحة فالتين شقيقه تلاحقه

استقبل بيكر وفلورنس مرة أخرى في الجمعية
الجغرافية البريطانية ، وحضر هذا الاجتماع أمير
ويلز ، وأعلن بيكر أنه مسرور لأن من سيخلفه في
السودان هو رجل انجليزي له ماضيه ، فقد عين
جوردون حاكما عاما للسودان ، وكان جوردون اقرب
الى رجل الدين منه الى الحاكم الديني .

نهاية مكتشفي القرن التاسع عشر

اشتدت الثورة المهدية ، ووصلت الخرطوم وحاصرت قصر الحاكم العام ، وقتل جوردون قبل ان تصل النجدة من مصر بمدة قصيرة ، وكان فالتين في تلك الفترة يرأس البوليس المصري في القاهرة ، وما كان له ان يتولى منصبا رفيعا ، والملكة فيكتوريا على قيد الحياة ، واصيب بنوبة فلبية ومات في القاهرة في الخامس من نوفمبر عام ١٨٨٧ ، ودفن في القاهرة ، كذلك لم يعيش سام او صمويل بيكر حتى يشاهد استرداد السودان على يد كتشنر عام ١٨٩٨ ، وقضى هو وزوجته بقية حياته في رحلات الى أمريكا الشمالية

والشرق الاقصى الى أن عاجله الموت في الثلاثين من ديسمبر عام ١٨٩٣ ، وعاشت فلورنس بعده نحو ربع قرن ، اذ توفيت عام ١٩١٦ ابان الحرب العالمية الاولى ، وبيع منزلها بالمزاد ، وضاع كثير من مذكراته .

ولا يسعنا الا ان نختم هذه العجالة بتلخيص لمجلة Pall Mall عن حياة سير صمويل بيكر حينما نعته بقولها :

« عندما لم يكن مستكشفا ، كان صيادا ، أو مقاتلا ، أو كاتباً »

العدد التالى من المجلة

العدد الثالث - المجلد الثانى عشر
اكتوبر - نوفمبر - ديسمبر

قسم خاص عن
العصور الكلاسيكية
بالإضافة إلى الأبواب الثابتة

الخليج العربي	٥	ريال يمني
السعودية	٥	ريال يمني
البحرين	٤٠٠	فلوس
اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلوس
اليمن الشمالية	٤٠٥	ريال
العراق	٢٠٠	فلوس
لبنان	٢٠٥	ليرة
الأردن	٢٥٠	فلوس
سوريا	٢	ليرة
الصومال	٢٥٠	شيلينج
السودان	٢٥٠	شيلينج
ليبيا	٣٥	قرشا
مستقط	٤٠٠	بايوس
الجزائر	٥	دينار
تونس	٥٠٠	دينار
المغرب	٥	درهم

الاشتراكات